التكامل في الإسلام

بقلم
أحمد أمين

٤-٧

منشورات
شركة الأعلمي للمطبوعات
بيروت - لبنان

بسم الله الرحمن الرحيم

التكامل في الإسلام

بقلم

أحمد أمين

خرّج مصادره وصححه

علاء الدين الأعلمي

الجزء الرابع

شركة الأعلمي للمطبوعات
بيروت - لبنان

الطبعة الأولى

١٤٣٢هـ - ٢٠١١م

شركة الأعلمي للمطبوعات

Published by Alaalami co.

بيروت - طريق المطار - مفرق حارة حريك
قرب سنتر زعرور
هاتف: ٠١/٤٥٠٤٢٦ فاكس: ٠١/٤٥٠٤٢٧

Beirut Airport Road
Tel: 01/450426 Fax: 01/450427
E-mail: alaalami@yahoo.com
http://www.alaalami.com

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الذي انحسرت الأوصافُ عن كُنه معرفته[1] وَرَدَعَت عظمته العقول فلم تجد مساغاً إلى بلوغ غاية ملكوته. هو الله الملك الحقُّ المبين. أحقُّ وأبينُ مما تراه العيون. لم تبلغْهُ العقول بتحديدٍ فيكونَ مشبَّهاً، ولم تقع عليه الأوهام بتقدير فيكون مُمثَّلاً. خلقَ الخلقَ على غير تمثيل ولا مشورةِ مُشير، ولا معونة معين. فتمَّ خلقُه بأمره، وأذعن لطاعته فأجاب ولم يدفع وانقاد ولم ينازع.

(١) من كلام لعلي أمير المؤمنين عليه أفضل الصلاة والسلام. انحسرت: انقطعت وكلّت وأعيت.

الدين أمر فطري

منذ أن وجد الإنسان على وجه الأرض كان يدين بما يمليه عليه عقله من أن هذا الكون موجداً وخالقاً مدبراً، خلق الإنسان بهذا الشكل الخارق العجيب، وخلق قبلاً الهواء والماء والنبات لاستقرار حياته. فكما أنَّ الله تعالى ألهم الإنسان أن يستفيد من تجاربه لإدامة حياته، فيأوي إلى الكهف لاتقاء البرد أو يلبس من جلود الحيوانات ويجرب الأمور البسيطة من الزراعة والصناعة، كذلك ألهمه أن يفكِّر في تلك القدرة العظيمة، قدرة الله التي لا تتناهى وعظمته التي لا تحد. وقد قال تعالى: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَاۚ﴾ [الرُّوم: الآية ٣٠].

وقد أثبتت الحفريات والآثار أنَّ الدين قد رافق الإنسانَ منذ بدء الخليقة. يقول الأثري الدكتور سليم حسن: «دلَّت البحوث العلميَّة البحتة حتى الآن على أنَّ لكل قوم من أقوام العالم عامة مهما كانت ثقافتهم منحطَّة ديناً يسيرون على هديه ويخضعون لتعاليمه».

يقول الفيلسوف اليوناني الكبير سقراط: «يشعر الإنسان بحاجته الماسَّة إلى الهواء والماء والطعام، وكذلك تشعر روحه أنها في حاجة مبرمة أيضاً إلى غذاء روحي. وهذا الشعور هو في عرفنا: الدين الذي اهتدى إليه أول إنسان. يدلك على ذلك، أننا إذا تتبَّعنا حياة طفل أتينا به من أقاصي البلاد المتوحِّشة وتركناه يترعرع بدون أن نلقنه عقيدة دينية مهما كان نوعها، فإنك لتجده عندما يصبح رجلاً كامل الشعور يتحرَّى في أعماق تفكيره عن شيء مجهول، ويظل باحثاً منقباً تحت تأثير عامل نفسي وغريزي حتى يعثر على بادرة تكون في أول أمرها مائعة اللون تتمركز في دماغه، ثم لا تلبث حتى تتجسَّم وتتَّخذ شكلاً صوفياً بارزاً يأخذ في التطوُّر رويداً رويداً إلى الشيء الذي نسميه (عقيدة)

أو (ديناً) لأنَّ هنالك ضرورة خفيَّة وقويَّة تدفعه إلى هذا التدرج، حتى يصل إلى النوع الذي يحلو له للعبادة».

يقول المؤرِّخ الإغريقي الشهير (بلوتارك) منذ نحو ألفين سنة، «من الممكن أن نجد مدناً بلا أسوار ولا ملوك ولا ثروة ولا آداب ولا مسارح، ولكن لم ير الإنسان قط مدينة بلا معبد أو لا يمارس أهلها عبادة».

فنحن نقرأ في أسفار الهند المعروفة بالكتب الفيديَّة: «إن الإله الأكبر قد خلق الأرض بكلمة ساحرة، فأمرها بأن توجد، فبرزت على الفور إلى حيز الوجود».

ونقرأ في كتب الصين واليابان القديمة جداً: «أن إله السماء هو الذي يصرف الأكوان ويدير أمور الإنسان».

ونقرأ في كتب الفرس القديمة ما نصَّهُ: «هو أقوى القوى في عالم الملكوت، وهو واهب الأنعام المكين. الكامل القدس، الحكيم الخبير، الغني المغني، السيد المنعم، القهار، محق الحق، البصير، الشافي، الخلاق، العليم بكل شيء».

ونجد عند الفراعنة من النصوص التي تدل على الابتهال إلى الله العلي القدير والتي تثير في النفس شعوراً فياضاً بالإيمان والتوحيد. منها: «أيها الإله الأوحد الذي ليس لغيره سلطان كسلطانه. يا خالق الجرثومة في المرأة، ويا صانع النطفة في الرجل، ويا واهب الحياة للابن في جسم أمه، ويا من يهدئه فلا يبكي، ويا من يغذيه حتى وهو في الرحم، . . يا من خلقت الأرض كما يهوى قلبك حين كنت وحيداً. . ألا ما أعظم تدبيرك يا رب الأبدية».

اقرأوا وصيَّة الملك (آني) من ملوك مصر القدماء لابنه (خنسو حوتب) «لا تأثم، خفِ الله واتقِ غضبه، وإذا صلَّيت لله فمن العبث أن تجهر أو تصيح، صلِّ بقلب مؤمن يخاطب الله في غير إعلان يقض الله حاجتك ويستجب دعاءك».

ولسائل أن يسأل، كيف عبد الناس الأوثان والهوام والبقر والشمس وتسافلوا حتى صاروا يتبرَّكون ببول البقر!

إنه تعالى يقول: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُونَ ﴿١٨﴾﴾ [السَّجدَة: الآية

١٨] فجعل الله تعالى تقابلاً بين الإيمان والفسق. ومعنى ذلك أنَّ الفسق يضاد الإيمان ويعاكسه، فلو تلوَّثت النفس الإنسانيَّة بالفسق فرّ الإيمان من وجهه فلا يعود حتى تطهر النفس من فسوقها وإجرامها.

إنه تعالى يقول: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ۝٣٥ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [القَلم: الآيتان ٣٥/ ٣٦]. وفي آية أخرى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [يُونس: الآية ٤٠]. ومعنى ذلك أنَّ طريق الإيمان قد سدَّ على المفسدين. وفي آية أخرى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ﴾ [الزُّمَر: الآية ٣]، فالكذب يزيل الإيمان. وفي آية أخرى: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ ۝٩٩﴾ [البَقَرَة: الآية ٩٩]. فالفاسق يكفر بآيات الله بصورة طبيعيَّة.

كان الناس بالفطرة يؤمنون بالله ويوحّدونه، حتى غلبت عليهم شياطينهم ففسقوا وفجروا وظلموا وأساؤوا، فانسحب الإيمان وسوّل لهم الأبالسة عبادة الأصنام والحيوان على حدِّ قوله تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ ۝١٠﴾ [الرُّوم: الآية ١٠].

فالإلحاد أو الوثنية أمر عارض يناقض الفطرة ويعاكسها. إنه تعالى يقول: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ۝١٧٢ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ۝١٧٣﴾ [الأعراف: الآيتان ١٧٢/ ١٧٣].

فالله تبارك وتعالى قد غرس أصول التوحيد والإيمان في النفس الإنسانيَّة في عالم الذر، في عالم الأرواح إتماماً للحجَّة ﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ﴾ [الأنعام: الآية ١٤٩].

فهناك رسولان: رسول باطني، وهو العقل، جعل الله الإنسان مسؤولاً تجاهه، فـ«العقل ما عبد به الرحمن واكتسب به الجنان» ورسول ظاهري، وهم الأنبياء سلام الله عليهم أجمعين.

فالناس كانوا في قديم الزمان، في وقت لا يحدِّده التاريخ مؤمنين بالله يوحّدونه ويقدِّسونه، ولكن الشيطان قد سوَّل لهم فأطاعوه بتلويث نفوسهم بالفسق والظلم،

فأظلمت النفوس وزاغت عن الصراط، ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [الصَّف: الآية ٥]، فصاروا يشركون بالله ويعبدون غير الله تعالى أو أمسوا ماديين.. وقد قال تعالى:

﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّۦنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَا ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾﴾ [البَقَرَة: الآية ٢١٣].

وإتماماً للفائدة نذكر هذا الحديث:

«عن زرارة عن أبي جعفر عليه السلام قال: سألته عن قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ﴾ [الحَجّ: الآية ٣١]؟ قال: الحنيفية من الفطرة التي فطر الناس عليها، لا تبديل لخلق الله، ثمَّ قال: فطرهم على المعرفة به...»[1].

نرى أنَّ من (٢٩٠) فيلسوفاً ٩١٪ منهم مؤمنون و٥٪ منهم لا أدريون (لا يعلمون) و٤٪ منهم ملاحدة. ذلك لأنَّ العلم وما أودع الله من دقيق الصنع وشتَّى المعادلات في تكوين هذا الكون يجر الإنسان الباحث إلى الاعتقاد بالله العلي القدير. كان يقول (پاستور): «لا تنافي بين العلم والإيمان بالله، وكلَّما زاد علم الإنسان زاد إيمانه بالله». ويقول الكيميائي الشهير الدكتور (وتز): «وإذا أحسست في حين من الأحيان أنَّ عقيدتي بالله تزعزعت وجَّهت وجهي إلى أكاديميَّة العلوم لتثبيتها».

فلا يلوث النفس الإنسانيَّة ولا يزيل هذا الاتجاه الطبيعي وأعني به، التوجُّه نحو الخالق المتعال، إلا متابعة هوى النفس على حد قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓاْ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [يُونس: الآية ٣٣].

وقد جاء في الحديث: «أشجع الناس من غلب على هواه»[2].

ويقول الله تعالى بالنسبة إلى المنحرفين من الناس: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ [النَّجم: الآية ٢٣].

---

(١) أصول الكافي: ج٢، ص١٢.
(٢) مستدرك الوسائل: ج١٢، ص١١١.

وأما قول (روبرت هتشنس): «ولقد بلغ العالم في آن واحد إلى الأوج في المعرفة والتكنولوجيا والتحكُّم في الطبيعة وإلى الحضيض في حياته الأخلاقيَّة والسياسية» فذلك لتركهم التعاليم الدينيَّة والأخلاقيَّة التي هي من الدين وانغماسهم في الشهوات وأنواع الترف.

فالعلم المادي يقوي الاعتقاد بالله إن لم تتلوث النفس بفسوقها وإجرامها وإلاَّ فتتَّخذ النفس الملوَّثة هذا العلم على سبيل التمويه آلة لإثبات صحَّة ما سلكت من مسالك معوجة، وهيهات!

فيجدر بدعاة الإسلام أينما كانوا أن يستفيدوا من هذه الغريزة التي أودعها الله النفوس البشريَّة وهي نوجهها بصورة فطريَّة إلى الخالق المتعال لنشر الإسلام والتوحيد في أرجاء الأرض وإبعاد الناس عمَّا يلوِّث نفوسهم من معاصي وآثام، كي تكون قمينة لحلول معرفة الله فيها، فتقبل الإسلام كدين عالمي خالد، فيه سعادة الدنيا ونعيم الآخرة. فقد قال الإمام علي عليه السلام معظماً أمر الدعوة إلى الإسلام والإرشاد الديني أي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، «وما أعمال البر كلها والجهاد في سبيل الله عند الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلا كنفثة[١] في بحر لجي»[٢]. . .

علّة بعث الرسل عليهم السلام

إن نظرة واحدة إلى هذا الكون الرحيب تجعلنا أن نجزم أنَّ هناك دقة متناهية وانتظاماً رائعاً وقوانين رصينة ودساتير متقنة لا يمكن أن تستقصى، في كل جزء من أجزاء هذا العالم، دقَّة يحار فيها أكبر رياضي وأعظم فيزياوي وأفطن كيماوي وأذكى عالم بالطبيعيَّات.

كيف لا، وهو يرى أنَّ الكواكب تسير حول الشمس على شكل اهليلجي (قطع ناقص) بحيث تقع الشمس في إحدى بؤرتي هذا المنحنى المغلق. ومعلوم أنَّ رسم

---

(١) نفثة: (المرة من نفث). وهي ما تلقيه من فيك من بصاق.

(٢) نهج البلاغة: ص٥٤٢، خ.٣٧٤ بحر لجي: واسع اللج. واللج: معظم الماء.

الشكل الإهليلجي من الصعوبة بمكان. ذلك لأنَّك يجب أن تعيِّن نقاطاً تبعد عن البؤرتين بحيث يكون مجموع البعدين مساوياً للقطر الطويل لهذا الشكل، أي عليك أن ترسم منحنياً يكون محلاً هندسياً لنقاط يكون بُعد كل منها من البؤرتين مساوياً إلى بعد معلوم، (أي إلى قطر الشكل). ومن المعلوم أن موضوع المحل الهندسي من المواضيع الهامة التي يفهمها الطلاب بعد جهد جهيد في موضوع المنحنيات. ففي الرياضيات العالية في أبحاث الهندسة التحليليَّة يصعب على الطالب الجامعي حل مسائل تتعلَّق بالمحل الهندسي إلا إذا كان من الأذكياء. فأي عقل جبار رسم هذا المحل الهندسي وأعني به مدار الأرض حول الشمس بهذا النمط البديع عن حكمة فائقة. ومَن الذي وضع هذه الدساتير الرياضيَّة الثابتة في حركات الأرض حول الشمس وحركات القمر حول الأرض وفي الوقت نفسه حول الشمس، حتى تمكَّن العالم الفلكي الرياضي من أن يحصل على معادلة الكسوف (وما أصعبها) بعد عناء شديد.

وأصعب من رسم المنحنى الاهليلجي، رسم المنحنى اللولبي، وهو مسار الشمس في الفضاء مع كواكبها بسرعة سبعين ألف كيلو متراً في الساعة متجهةً نحو نجمة في الفضاء تعد لبعدها الشاسع من الثوابت! وهي النسر الواقع. هذا ما اكتشفه العلم الحديث قبل خمسين عاماً ليبرهن مرة أخرى على الإعجاز القرآني: وهو قوله تعالى قبل أربعة عشر قرناً: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ۝٣٨﴾ [يس: الآية ٣٨].

كيف لا يحار الإنسان ولا يندهش عندما يشاهد هذا الإتقان الذي أودعه الله في ما خلق من مخلوقات، حتى جعل سطح ذرَّات الثلج المتساقط من السماء مشكلاً من مخمَّسات منتظمة أو مثلَّثات متساوية الأضلاع بحيث لو وضعت ذرَّة من هذا الثلج تحت المجهر (الميكروسكوب) لرأيت عالماً عجيباً وشكلاً في غاية الانتظام!

ومعلوم أنَّ رسم المخمس المنتظم من الصعوبة بمكان. ذلك لأن على من يحاول رسم ذلك أن يرسم أولاً معشراً منتظماً ثم يصل بين رأسين غير متجاورين من هذا المعشر للحصول على مخمس منتظم، وأما رسم المعشر فأمر عسر وما أعسره! عليه أن

يقسم نصف قطر الدائرة إلى قسمين تكون نسبة الكل (نصف القطر) إلى القسم الأكبر كنسبة القسم الأكبر إلى القسم الأصغر، أي عليه أن يجعل القسم الأكبر وسطاً هندسياً بين الكل والقسم الأصغر، وهذا التقسيم أيضاً من الصعوبة بمكان. وهكذا دواليك.

فسبحان الذي رسم هذه المخمَّسات المنتظمة على سطح أجزاء الثلج بحيث كانت الأضلاع متساوية والزوايا كذلك متساوية، ومقدار كل منها ١٠٨° (درجة).

نرى هذا الكمال المحير للعقول متجلّياً في الذرَّة وفي المعادن وفي شبه المعادن أي في (١٠٣) عنصر حسبما اكتشف لحد الآن وفي النبات والحيوان على كثرة تنوُّعهما وتصانيفهما المختلفة، وفي الإنسان نراه متجلياً كذلك في هذا العقل الإنساني الذي منح هذا المنطق الجبار؛ وهو التعميم، التجريد، الاستقراء، الاستنتاج، وهذا التقدم في العلوم الرياضيَّة العالية دون استناد إلى تجربة مادية سابقة على حد قول (أينشتاين) أعلم علماء القرن العشرين.

كيف لا يحار الإنسان في عظمة خالقه حينما يرى أنه توجد في المادة السنجابية التي في تلافيف الدماغ ٦٠٠٠٠٠٠ خلية وتتألف كل خليَّة من ألوف الدقائق الظاهرة وكل دقيقة تتألَّف من ملايين الجواهر.

كيف لا يحار الإنسان عندما يرى أن دقة الصنع قد بلغت منتهاها في حركة عضو من أعضاء البدن الإنساني، فهي تفوق دقَّة الصنع في القنبلة الذريَّة التي هي نتاج العقل الإنساني بلطف من الله خلال ٢٥٠٠ سنة.

* * *

إن العقل الإنساني، هذا العقل الموهوب من جانب الله تعالى، هذا العقل الذي لا يعلم هذا الإنسان كيف منَّ الله به عليه وكيف ركب فيه على حد تعبير (دكارت)، يرشد الإنسان بصورة فطرية، أن منظِّم هذا الكون لا يلهو ولا يلعب[1]. ذلك لأنَّ التنظيم يخالف اللهو وينافي اللعب فلا يخلق هذا المنظم العظيم شيئاً عبثاً وإنَّ غايته في الخلق تتناسب مع عظمته وإنَّ هدفه في الصنع ليتناسب مع كماله المطلق.

---

(١) ﴿لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ [الأنبياء: الآية ١٧].

يرشد هذا الإنسان أن يقول جازماً، لابدَّ لخلقه من غاية ولابدَّ لإيجاده من هدف سام رفيع. فإنه بعد تفكر بسيط يجزم قائلاً بما أنَّ كلَّ ما في هذا الكون المادي قد بلغ الحد الأقصى من الكمال، إذن وجب أن لا يشذ هذا الإنسان، وهو من مخلوقات الله تعالى ـ على حد تعبير دكارت ـ عن سنَّة الكمال، فعليه أن يتكامل.

ذلك لأنَّ الكامل على الإطلاق وهو الله تعالى لا يريد أن يرى في ما خلق شيئاً ناقصاً[1] فهو يريد الكمال لكل ما خلق ولو بصورة تدريجيَّة، يرى ذلك أمراً طبيعياً.

يرى أنَّ الطفل يولد وأن تشكيلات أعضائه من الكمال بحيث لو كتبت آلاف الصفحات في وصف خواصها وقوانينها ودساتيرها لاحتيج أيضاً إلى آلاف الصفحات وأكثر لاستيعاب هذا الكمال المودع في النواحي المادية من بدنه وقد لا ينتهي إلى نهاية البحث، ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ﴾ [لقمان: الآية ٢٧].

لكنَّهُ يرى أنَّ هذا الطفل فيه صفة البطش والغش والكذب والخيانة والحرص والبخل وصفات كثيرة أخرى تضاد الكمال. وفيه في الوقت نفسه بعض الصفات الطيِّبة، فهو أشبه شيء بخليطة من المعادن، فيها معادن خسيسة كـ(السيليسيوم) والكالسيوم والحديد والنحاس.. إلى ما هنالك، وفيها الذهب الخالص. فيقول في نفسه إن هذه الصفات الذميمة تخالف الكمال الذي يريده الله لمخلوقاته. فيجب أن تزول وأن يدخل في دور الكمال كما يعمل الكيماوي في تلك الخليطة من المعادن، يضعها في محاليل مختلفة لإزالة المعادن الخسيسة والظفر بالذهب الخالص. فإذن يجب أن تزول هذه الصفات الذميمة في الطفل وفي كل إنسان كي يظهر الذهب الخالص فيه.

فما هو هذا الذهب الخالص يا ترى؟ ومن هو ذلك الكيماوي الذي يعرف هذا الإنسان المخلوط من صفات خسيسة وقابليَّات طيِّبة معرفة حقيقيَّة فيعرِّفه الحق والواقع، يعرفه إلى خالقه وبارئه، يقرّبه إليه تعالى بدساتيره القيِّمة وتعاليمه الإلهيَّة

---

(١) ﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: الآية ٥٠].

ويبلغ بهذا الإنسان مراتب الكمال الإنساني، يوصله إلى درجات من عوالم القدس حتى يصبح أعلى مرتبة من الملائكة.

مَن هو هذا الكيماوي الذي يتفضَّل على هذا الإنسان بدساتير الكمال دونما أجر (إلا المودة في القربى) ومن أين يجب أن يستقى سنن الكمال التي يتحقَّق بها الكمال الإنساني.

إن الكيماوي (دونما تشبيه) هو النبي المرسل والذي يوحي سنن الكمال إنما هو الله جلَّت عظمته. ذلك لأنَّ الله هو خالق الأرواح ومنشئها وهو العالم بخواصِّها وصفاتها وقابليَّاتها وطرق تكاملها.

فليس لهذا الإنسان الناقص ـ مهما سمَّى نفسه فيلسوفاً ـ أن يأتي بسنن تكامل النفس، إلا إذا كان مغروراً بعيداً عن إلهام الفطرة جاهلاً غِرّاً ملوَّثاً بما اجترحت يداه. كـ(كارل ماركس) وأضرابه. فقد كان يقول مغروراً برأيه: «آرائي.. أفكاري». ويقول لمن يخالفه في الرأي: برجوازي.. كان أنانياً يختلق التهم، حسوداً يعامل من يخالفه في الرأي معاملة ملوها التحقير والازدراء، كان فيه شهوة الهدم والتخريب وقد استخدم الأسلحة النارية وسيق إلى الشرطة لإفراطه في السكر والعربدة! كان ينقطع عن الجامعة ويذهب إلى السكر والدعارة، يترك (بون) مقر الجامعة ويذهب إلى (كولون) في جوارها ويبتغي فيها ملاهي السمر.

كان (كارل ماركس) مسلوب العاطفة فلم يذهب إلى بلده حين مات أبوه وبقي في برلين وهو عميد الأسرة بعد والده. واسترسل في الطلب حتى نفد نصيبه من الميراث فمال إلى نصيب أمه وأخواته. وكان قبلاً قد أرهق أباه في طلب المال. وقد انتحرت بنتاه (لورا وأختها).

عقد (كارل ماركس) مقاولة مع الجرائد وأخذ مبلغاً ولم يفِ بمنطوق العقد. وعقد اتفاقيَّة مع (ألكسي) على كتابة نظريَّاته الاقتصاديَّة هذه التي لم تنل نصيباً من التطبيق لكونها بعيدة عن واقع (الحياة) وقبض (١٥٠٠) فرنك وعقد في نفس الموضوع اتفاقيَّة أخرى مع شخص آخر ولم يفِ بكلتيهما.

نعم، إنَّ رجلاً هذا ديدنه وتلك صفاته حقيق أن تترشَّح منه هذه الأباطيل بأن

يقول: «إن الديانات والعقائد جميعاً إنما هي انعكاسات الضرورات الاقتصاديَّة». إن لم يكن قد قصد وراء ذلك الانتصار للصهيونية عن طريق الهدم والإفساد!

وكم رأينا من الفلاسفة جاؤوا بنظريَّات مضلَّة تبعد البشر عن جادة الصواب، فكان بعضهم يقول في مقتبل العمر شيئاً ثم إذا بلغ الخمسين قال شيئاً يناقض ما قاله أو لا حتى إذا ناهز السبعين خالف ما قاله أولاً وثانياً مع ما هنالك من اختلاف في الآراء فيما بينهم!

(اوگست كنت) فيلسوف فرنسي، كان قد بلغ من الذكاء مرتبة مرموقة، كان إذا طالع كتاباً مرة واحدة استوعب ما فيه. كان يحضر في مجلس درسه (في بيته) علماء من الدرجة الأولى لاستماع محاضراته وألَّف كتاباً ضخماً في ٦ مجلَّدات في تحقيق الفلسفة. إلا أنه مع ذلك كان ناقصاً من نواحٍ شتَّى، كان سيِّئ العشرة لا يأتلف بالناس. ثمَّ إنَّه عشق فتاة في أواخر أيام حياته وماتت هذه الفتاة قبل الوصال فتأثَّر وبنى معبداً ورتب له عبادات وأسس ديناً جديداً أسماه «دين الإنسانية» وتفرَّق عنه تابعوه وأخذ الناس يسخرون منه.

وكان الفيلسوف الدكتور (جود) ملحداً فأصبح موحَّداً وكان يقول إني كنت لا أفهم شيئاً عن الكون عند تخرُّجي في الجامعة بل كنت حيواناً على شكل إنسان.

كما كان الفيلسوف الإنكليزي (جيمس چانيس) ملحداً فغدا موحَّداً.

وكم من فلاسفة تبنوا النظريَّة الماديَّة! لظلمات في نفوسهم وقالوا بأزلية المادة (دون دليل وبرهان) قالوا إنَّ المادة هي التي تخلق العقل وتنظِّم العالم أيما تنظيم وتضع قوانين فيزياويَّة وكيمياويَّة ودساتير فلكيَّة ومعادلات رياضيَّة دقيقة إلى ما هنالك. وقالوا إنَّ المادَّة هي العقل الجبار المنظِّم لهذه العوالم المختلفة بهذه الدقَّة المتناهية التي لم يصل إلى حقائقها العقل البشري ولا يزال يعترف أنه «لا يعلم شيئاً» من هؤلاء الماديِّين أبيكور، كارل ماركس، بوخنر، فورباخ، إنهم خالفوا الفطرة وتجلِّيات العقل البشري ودنَّسوا العالم بترويجهم نبذ الفضائل وسحقها والانحلال الخلقي والإباحيَّة والشذوذ الجنسي كفرويد وغيره.

حتى قال بعضهم: إن الفيلسوف إذا كان فقيراً فإن فقره وعجزه يجعلانه أن يعتقد بإله خلاَّق. ولكن لو كان ثرياً فإنه لا يؤمن بذلك ويكون مادياً، ذلك لأنَّ فكرة الإله إنما أتت من النواحي الاقتصاديَّة من الفقر والاضطرار؟!

إنهم كذَّبوا في ما قالوا. فإن «دكارت» الفيلسوف الفرنسي كان موحَّداً وكانت له أملاك في فرنسا وعاش طيلة حياته عيشة هنيئة وكذلك أفلاطون.

أبيقور كان فيلسوفاً مادياً وقد تربَّى في بيت فقر وبؤس وعاش كذلك ومثله روسو.

فليس الفقر والغنى والبيئة عوامل تؤثِّر في توجيه الفرد نحو الماديَّة أو التوحيد كما يدَّعي الماديُّون وإنما العامل الحقيقي، عمل الإنسان وما يترشَّح منه من حسنات وسيِّئات: ﴿ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾﴾ [الرُّوم: الآية ١٠].

* * *

فالله تبارك وتعالى وهو معطي الكمال لا يترك هذا الإنسان سدى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾﴾ [القيامة: الآيات ٣٦/ ٤٠].

فالله يهيىء لهذا الإنسان من يتصدَّى إلى تكميله وتقريبه إلى ربه ومعرفة خالقه وتلك غاية الغايات. فقد جاء في حديث قدسي، إنه تعالى يقول: «كنت كنزاً مخفياً فأحببت أن أُعرف فخلقت الخلق لكي أُعرف»[1].

وإن باب المعرفة هو العبادة. فبالعبادة بما فيها من أعمال صالحة وتجنُّب المحرمات وتطهير النفوس، تصبح النفس قمينة لمعرفة خالقها، كي تنال الحب الإلَهي وذلك أسمى الغايات. لذلك حصر الله تعالى علَّة خلق الجن والإنس في العبادة، ذلك لأنَّ العبادة هي سبيل معرفة الخالق ووسيلة التكامل الإنساني في الحياة الدنيا، بقوله جلَّ من قائل: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذّاريَات: الآية ٥٦].

الإنسان مريض نفسياً في هذه الدنيا لما يحمل من صفات ذميمة وخصال مذمومة

---

(١) بحار الأنوار: ج٨٤، ص١٩٨، باب ١٢.

وبطش وطيش. فالأنبياء عليهم السلام هم معدلو هذا الإنسان ومانعوه عن طيشه وغوايته لذلك يقول الإمام علي عليه السلام: «أرسل رسولاً ليزيل به علتهم» وبقوله عليه السلام في مقام آخر: «أرسل أنبياء ليثيروا في الناس دفائن عقولهم، ويهدوهم إلى معايش تحييهم».

فالأنبياء لم يمنعوا الناس عن تعلم العلوم! بل أثاروا فيهم دفائن العقول حتى كانت هذه المكتشفات في شتَّى النواحي العلميَّة من فلك ورياضيَّات وطبيعيَّات وطب وكيمياء إلى ما هناك في الحضارة الإسلاميَّة، وأصبحت أروبا مدينة في مكتشفاتها للحضارة الإسلاميَّة الزاهرة في القرون الوسطى.

وبقوله عليه السلام: «ويهدوهم إلى معايش تحييهم»[1] أراد أن الأنبياء عليهم السلام هم منظمو الحياة الاقتصاديَّة بدساتيرهم العادلة وتعاليمهم الخالدة.

فالأنبياء هم مطهرو هذا الإنسان مما ألم به من دنس ورجس وموصلوه إلى أقصى مراتب الكمال. لذلك يقول الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ۝٢﴾ [الجُمُعَة: الآية ٢].

وبقوله: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبَة: الآية ١٠٣].

وبقوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ۝١٤ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ۝١٥﴾ [الأعلى: الآيتان ١٤/ ١٥].

وبقوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠﴾ [الشَّمْس: الآيتان ٩/ ١٠].

وبقوله: ﴿وَلَـٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [المَائدة: الآية ٦].

وبقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٢٢].

وبقوله: ﴿لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ﴾ [التوبَة: الآية ١٠٨].

وهكذا سنَّ الله تعالى وهو العارف بحقيقة هذه النفوس التي خلقها وصفاتها وطرق تكاملها، سنن التزكية والتطهير لهذا الإنسان وأوصى بها أنبياءه عليهم السلام، وأمرهم أن يبلغوا رسالاته حتى جعل الحجر المغصوب في الدار سبب خرابها. فقد جاء في الحديث:

---

(١) نهج البلاغة: ص٤٣، في اختيار الأنبياء وفيه: ومهادٍ تحتهم موضوع ومعايش تحييهم.

(الحجر المغصوب في الدار رهن على خرابها)[١].

وكل ما جاء في الدين الإسلامي من واجبات ومحرَّمات ومستحبَّات ومكروهات كلها ترمي إلى تطهير النفوس وتزكيتها وإبلاغها. أسمى مراتب الكمال لتزداد معرفةً بالله. ذلك لأنَّ الله قد سخَّر كل شيء من شمس وقمر وغيرهما لهذا الإنسان ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾ [النّحل: الآية ١٢] ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٥﴾﴾ [الحَجّ: الآية ٦٥].

وخلق الإنسان لمعرفته تعالى كما جاء في حديث قدسي: «خلقت الأشياءَ لأجلك، وقد خلقتك لأجلي».

ولذلك جعل الله أول من خلق من الأناسي ـ وهو آدم عليه السلام ـ نبياً، اهتماماً بأمر التكامل الإنساني وتحقيقاً لسنة الكمال في الكون.

فطوبى لنفوس عرفت أسرار الخلق فتقرَّبت إلى ربها بعبادات يتخللها خشوع وخضوع[٢] وأعمال صالحة وإيثار وتفانٍ في هداية الناس إلى الدين الإسلامي الحنيف..

فقد قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾﴾ [العَنكبوت: الآية ٦٩].

هل الإسلام سير تقدمي أم رجعي

تدور كثيراً على الألسن كلمة (الرجعيَّة) بمناسبة ودون مناسبة. فلو أنَّ رجلاً حمد

---

(١) وسائل الشيعة: ج٢٥، ص٣٨٦، باب١.

(٢) لا بأس بذكر هذا الحديث، فالعمل به مزيل للأدران النفسيَّة والهواجس الشيطانيَّة في مثل هذه الظروف الحالكة:

«إذا جمع الله الأولين والآخرين نادى منادٍ: ليقم الذين كانت تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعاً. فيقومون وهم قليل، ثم يحاسب مَن بعدهم».

الله تعالى وشكره تجاه نعمه التي لا تعد ولا تحصى بصلاة يصلِّيها لربه بإخلاص، قيل إنه رجعي، يجترُّ ما أنتجته العصور الأولى! حين أن شكر المنعم أمر ضروري يحكم به الفطرة والعقل، ذلك العقل الذي لم يلوَّث بالذنوب والآثام. فقد جاء في الحديث: «العقل ما عُبِد به الرحمن واكتُسبَ به الجنان»[١].

حتى إني لأتذكر جيداً عندما كنت أدرس في النجف الأشرف قبل حوالي ٣١ عاماً أبى قسمٌ كبير من الطلاب المصلِّين من أداء صلاتهم عند الظهر في سفرة مدرسيَّة إلى الكوفة، خوفاً من أن يوصموا بالرجعيَّة والخرافة وكم رأيت من مدرسين ومدراء معارف كانوا يخفون صلاتهم عمَّن يصمونهم بالرجعيَّة حفظاً لمراكزهم وابتعاداً عن هذه الوصمة، وهي عدم مواكبة مفاهيم التقدم في القرن العشرين.

وإني لأتذكَّر أيضاً أنَّ شاباً من أُسرة مرموقة كان قد رجع قبل حوالي ٢٧ عاماً من الجامعة الأمريكيَّة ببيروت، (وهي جامعة أسَّسها قسٌ من القسِّيسين بعد أن جمع مالاً كثيراً في أمريكا) كان يصم جميع الأعمال الدينيَّة من صلاة وصوم وزكاة. . . بالخرافة والرجعيَّة، وكان يقول بضرس قاطع: «إن بلاءَ الشرق دينه، فلو أُزيح هذا الدين فهناك التقدُّم وهناك الازدهار»!.

ولكن يقول بعض الشباب لمن يحضر مجالس البالو ويرقص مع الفتيات ويحتك بهنَّ من طريق غير مشروع إنه تقدمي قد واكب الحضارة الراهنة وإذا قبَّل فتاة أجنبيَّة في الترام أو في الشارع العام قيل له أنه عصري خرج عن المفاهيم البالية. وهذا ما نشاهده في الغرب.

* * *

علينا أن نحلِّل مفهوم الرجعيَّة تحليلاً دقيقاً على ضوء العقل والعلم الصحيح.

للإنسان جنبتان: جنبة مادية بحتة وهي الأكل والشرب ووسائل النقل والاستضاءة ووسائل النسج والحياكة ووسائل التكلُّم من بعيد إلى ما هنالك، ومنها الجنبة العلميَّة وهي العلم بالعلوم الماديَّة التي تدعمها التجارب والعلوم الرياضيَّة. فهي أيضاً ماديَّة.

---

(١) أصول الكافي: ج١، ص١١، كتاب العقل والجهل.

وهناك جنبة روحيَّة، نفسيَّة بعيدة عن عوالم المادة سوف نأتي عليها بعد قليل.

وما لا مِراء فيه أن الإنسان بفضلٍ من الله تعالى وإلهامه صار يتقدم منذ آلاف بل ملايين السنين، (على ما اكتشفه علم الإشعاع) في العلم المادي أي في تطوير وسائل الزراعة ونوع الزراعة وتطوير وسائل النسج والحياكة والإضاءة... الخ حتى بلغ مرتبة صار يستفيد من تحطيم الذرَّة وما عبأ الله تعالى فيها من طاقات هائلة والإشعاع الذرِّي... إلى ما هنالك.

فلو أنَّ رجلاً آثر أن يستضيء بنور المصباح الزيتي (دون ضرورة طبيَّة) في وقت يتوفَّر فيه الكهرباء فهو رجعي في تطبيق هذه الوسيلة الماديَّة.

ولو أنَّ رجلاً أراد أن يسافر في عصرنا هذا إلى بلدٍ ما، في عصر تتوفر فيه السيارات والطائرات وآثر أن يركب البغال والحمير فهو رجعي في استعمال وسائط أكل عليها الدهر وشرب دون مبرِّر عقلي.

وهكذا في النواحي العلميَّة وأعني بها (العلم المادي). فلو أنَّ رجلاً بقي يعتقد بعد إطلاق الصواريخ والأقمار الصناعيَّة وسير رجال الفضاء حول الكرة الأرضيَّة مرات ومرات، صار يعتقد أنَّ الأرض لا تزال تستند على قرن ثور والثور على بطن حوت، هذه الخرافة التي جاءتنا من بين الأساطير اليونانيَّة فهو رجعي في اتجاهه العلمي في النواحي الماديَّة من هذا الكون الرحيب.

ذلك لأنَّ العلم الحديث في النواحي المادية قد خرج عن طريقة الحدس والتخمين والظن إلى الطرق التجريبيَّة والمشاهدة والاستنتاج.

كان العالم اليوناني أو الفيلسوف الإغريقي يعتقد أنَّ أكمل الأشكال الدائرة، ولذلك صار يقول، (دون أي حساب أو مشاهدة) إن الأفلاك دائريَّة، أي، أن الشمس مثلاً تدور حول الأرض على شكل دائري.

وصار يقول: إنَّ أكمل الأشكال المجسَّمة هو الكرة، ولذلك يجب أن تكون الكرة الأرضيَّة على شكل كرة! حين أن الأرض (على ما ثبت، بعد اكتشاف التلسكوب وتقدُّم الرياضيات)، تدور حول الشمس على شكل اهليليجي (قطع ناقص) وإنَّ الشمس

هي إحدى بؤرتي هذا المنحنى المقفل. وإنَّ شكل الأرض ليس بكروي تماماً، وإنما يقرب من الكرة وبحث ذلك يطول.

وأما في عوالم تكامل النفس وأعني بها الناحية النفسيَّة، فهل اتباع ما أمر الله تعالى به ورسولُه من الرجعيَّة في شيء. وهل اتباع ما أمر الله من دساتير أخلاقية في دائرة العفاف وصيانة شرف الأسرة وصيانة المجتمع من الفساد والانحلال الخلقي مسير رجعي، يجب أن ننبذه ونفكّر في شيء جديد.

فإذا كان ينهانا رسول الله ﷺ عن النظرة الشهوانيَّة الخبيثة إلى المرأة الأجنبيَّة، هذه النظرة التي تجلب معها الفساد في الأرض، فتؤدّي إلى تلويث النفس ومن ثمَّ إلى تلويث العقل، فتلويث العقيدة على حد قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓا۟ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [يونس: الآية ٣٣] إذا كان ينهانا صلوات الله عليه من نظرات السوء بقوله: «الأُولى لك والثانية عليك» فهل اتباع هذا الأمر سيرٌ رجعي، يجب أن تقوم مقامه مراقص راقية تكون المرأة فيها نصف عارية، يحتضنها رجل أجنبي عنها، وتحتك جميع أجزاء جسمه بجميع أجزاء جسمها ويضمُّها إلى صدره ويراقصها، وقد تطفأ الأنوار عمداً من حين لآخر ليتمكّن الراقصان ممَّا لا تسمح به الأضواء. وقد تجد زوجها قابعاً في ناحية من المرقص وكله إعجاب بما تؤدّيه زوجته ويؤدّيه زميلها من حركات رشيقة، ولا يفوته أن يهنّئهما بعد فراغهما تهنئة حارَّة لنجاحهما في رقصتهما.

هذا في المراقص الراقية. وأما في المراقص الشعبيَّة، في مراقص العاملات والخادمات والعمَّال، المسيطرين على النساء، المتاجرين بأعراضهن، فحدث عنها ولا حرج، فإنَّه لا يكاد يكون فيه شيء محظوراً[1].

وقد يعلم الزوج أنَّ هناك لزوجته خَدناً أو أخداناً وقد تعلم الزوجة أنَّ لزوجها خليلة أو خليلات، ولكن يسمح كل منهما للآخر بما يرتكبه من فسق وفجور، وقد يخرج الرجل من بيته ويدع ضيفه الكريم يفعل ما يشاء!.

وقد يكون للزوجة زوج وعشيق ويعيش الثلاثة في بيت واحد دونما اكتراث. وهذا

---

(١) من مجلّة حضارة الإسلام، السنة الثالثة.

ما يُدعى بالتعايش الثلاثي (Le ménage a trois) والكاتب الفرنسي الكبير «أناتول فرانس» كان عشيقاً من هذا النوع.

وقد بلغ الاستهتار بالأعراض في أمريكا حتى أنك لا تجد فتاة بلغت سن الرابعة عشرة إلاَّ ولها خدن يظل يعاشرها معاشرة الزوج لزوجته. حتى بلغ التسافل إلى درجة أنَّ الفتاة إن لم تكن قد اتخذت قبل الزواج خدناً يذهب بعرضها لا تُعد فتاةً اجتماعيَّة قد عركت الحياة!!

فلا رجعيَّة عندما ترتكب الفاحشة علناً على الأرصفة في بعض أزقَّة باريس أو أزقَّة لندن، وترتكب أيضاً في حدائق الجزيرة في القاهرة على الحشائش وخلف الأشجار كما تفعل البهائم! ولا رجعيَّة في لبس المرأة (المايوه) وأخذ تصويرها من قبل المصوِّرين بشكل مخزٍ منافٍ للآداب والفضيلة على مرأى من العابرين! ولا رجعيَّة حين يرتكب وكيل الوزارة الخارجيَّة الإنكليزيَّة الفاحشة علناً مع جندي من جنود الحرس الملكي في أثناء تأدية هذا الجندي لوظيفته في متنزه عام وعلى قارعة الطريق.

كل ما هو من هذا النوع يمثِّل الرجعيَّة أجلى تمثيل، لأنَّه رجوع إلى الحالة البدائيَّة الأولى قبل بعث الرسل ﷺ كما يحدِّثنا التاريخ وهو رجوع إلى ما يقوم به بعض القبائل المتوحِّشة في يومنا هذا في آلاسكا وأواسط أفريقيا. مع العلم أنَّ ما نراه في بعض الأمم المتحضِّرة في هذا اليوم من تقدُّم مرموق في صقع هتك الأعراض هو تقدم لم تبلغ الأمم البدائيَّة الأولى ولا الأمم المتوحِّشة في هذا العصر شأوَه.

إن اختراع السينما من مفاخر العصر وكذا الراديو والتلفزيون. كل ذلك من النواحي العلميَّة: (العلوم الماديَّة). ولكن لو استعمل كل أولئك في تعليم الشاب طرقَ المغازلة وهتك الأعراض والانغماس في الشهوات، فقد استعملت في إرجاع البشر إلى رجعيَّة مُهلكة أو (ارتجاع مميت) وإلى حيوانيَّة بدائيَّة. نعم تتجلَّى التقدُميَّة في هذه الآلات وغيرها من الناحية العلميَّة: (العلم المادي)، إلاَّ أنَّ الرجعيَّة كذلك تتجلَّى فيها بأعمق مظاهرها حين تستعمل للإفساد في الأرض: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٠٥].

إنه تعالى يقول: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ

ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾﴾ [ص: الآية ٢٨].

﴿وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴿١٤﴾﴾ [الانفطار: الآية ١٤]! . ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾﴾ [عَبس: الآيات ٤٠/ ٤٢].

* * *

فكل ما يؤدِّي إلى الإفساد في الأرض وتلويث النفوس وإزالة العقائد التي يدعمها العقل والمنطق الصحيح عمل رجعي يأخذ بهذا الإنسان المسكين إلى أسفل السافلين وإن سمَّاه البعض تقدماً!

وإنَّ الأحكام الأخلاقيَّة الإسلاميَّة التي بها تتكامل النفس الإنسانيَّة هي أحكام ثابتة لا تقبل التجديد والتحريف. حتى تكون في زمن ما من النوع التقدُّمي وفي زمن آخر من النوع الرجعي. ذلك لأنَّ الله تبارك وتعالى أعرف بحقيقة النفس الإنسانيَّة وطرق تكاملها: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾ [المُلك: الآية ١٤]. ذلك لأنَّ النفس من صقع ما وراء الطبيعة، وليست من المادَّة في شيء، والله الذي خلق الأرواح يعلم طرق تكاملها والطرق التي تؤدِّي إلى تطهيرها وتزكيتها ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾ [الإسرَاء: الآية ٨٥].

والفيلسوف بصفته فرداً من الأفراد مملوء بالنقائص. فمهما وضع من دساتير في النواحي الأخلاقيَّة والتكامليَّة لا يأتي بشيء كامل لا نقص فيه، لنقائص في نفسه ولتأثره ببيئته ومحيطه، وإنَّ تاريخ الفلسفة يؤيِّد ما أقول. فقد تضاربت آراء الفلاسفة ومشاربهم ونوازعهم وكلها بشريَّة بعيدة عن معالجة الأرواح المريضة. فبعد أن كانت نفس الفيلسوف مريضة بأنواع المرض وشتَّى النقائص، أنَّى له أن يصلح نفوساً أخرى مريضة، وقد قالوا: «فاقد الشيء لا يُعطيه».

فالإسلام يشجع كل جديد في مجالات العلوم الماديَّة على اختلاف أنواعها سواء في العلوم الرياضيَّة أو الفيزيائيَّة أو الكيميائيَّة أو الفلكيَّة أو الطبيعيَّة أو الطبيَّة أو غيرها. فقد كانت مكتبة (دار الحكمة) ببغداد في العهد العباسي تحوي ٤٠٠٠٠٠ كتاباً وإنَّ مكتبة أحد الخلفاء الفاطميين بمصر، (العزيز بالله) كانت تحوي مليوناً ونصف مليون

كتاباً. وقد اكتشف المسلمون الفوسفور وطريقة استحضار الأوكسيجين والهيدروجين وحامض الآزوت وحامض الكبريت. وهم مؤسّسو أوّل مرصد فلكي في اشبيلية باسپانيا، وهم واضعو نظام الامتحانات في كليّات الطب.

وما نراه من عدم اعتناء بعض المسلمين اليوم بالنظافة لا يدل على أنَّ الإسلام سير رجعي، فقد جاء في الحديث: النظافة من الإيمان.

وقد قال الطبيب المؤرّخ الأمريكي (ويكتور روبنسن): «إنَّ أُوروبا كانت في ظلام حالك بعد غروب الشمس، بينما كانت (قرطبة) تضيئها المصابيح العامة، كانت أورروبا قذرة، بينما شيِّدت في قرطبة ألف حمَّام. كانت أُوروبا تغطيها الهوام، بينما كان أهل قرطبة مثال النظافة. كانت أوروبا غارقة في الوحل، بينما كانت قرطبة مرصوفة بالشوارع. كانت سقوف القصور في أوروبا مملوءة بثقوب المداخن، بينما كانت قصور قرطبة (في الأندلس) تزيِّنها الزخرفة العربيَّة العجيبة. كان أشراف أوروبا لا يستطيعون كتابة أسمائهم، بينما كان أطفال قرطبة يذهبون إلى المدارس. وكان رهبان أوروبا يلحِّنون في تلاوة سفر الكنيسة، بينما كان مسلمو قرطبة قد أسَّسوا مكتبة تضارع في ضخامتها مكتبة الإسكندريَّة العظيمة».

ومن عجائب الرهبان في القرون الوسطى أن البعض منهم كان يعذِّب جسمه كمثل كامل في الدين والأخلاق! فالراهب (ماكاريوس) نام ستَّة أشهر في مستنقع ليقرص جسمه العاري ذباب سام. وكان يحمل دائماً قنطاراً من حديد، وصاحبه الراهب (بوسيبيس) كان يحمل نحو قنطارين من حديد، وقد أقام ثلاثة أعوام في بئر.

وقف عبد الراهب (يوحنا) ثلاث سنين قائماً على رجل واحدة وكان بعض الرهبان لا يكتسون دائماً وإنما يستترون بشعرهم الطويل ويمشون على أيديهم وأرجلهم كالأنعام وكان أكثرهم يسكنون في مغارات السباع والآبار النازحة والمقابر. ويأكل كثير منهم الكلأ والحشيش. وكانوا يعدون طهارة الجسم منافية لنقاء الروح ويتأثمون عن غسل الأعضاء. وأزهد الناس وأتقاهم أبعدهم عن الطهارة وأوغلهم في النجاسات والدنس.

يقول الراهب (اتهينس): إن الراهب (انتوني) لم يقترف إثم غسل الرجلين طول

عمره. وكان الراهب (إبراهرام) لم يمس وجهه ولا رجله الماء خمسين سنة وقد قال الراهب الإسكندري بعد زمن متلهِّفاً: وا أسفاه! لقد كنَّا في زمن نعد غسل الوجه حراماً، فإذا بنا الآن ندخل الحمامات!

وكان الرهبان يتجوَّلون في البلاد ويختطفون الأطفال ويهربونهم إلى الصحراء والأديار وينْزعون الصبيان من حجور أمهاتهم ويربُّونهم تربية رهبانيَّة والحكومة لا تملك من الأمر شيئاً[1].

يقول العلامة (سديو): «كان المسلمون في القرون الوسطى منفردين في العلم والفلسفة والفنون، وقد نشروها أينما حلَّت أقدامهم، وتسرَّبت عنهم إلى أوربا، فكانوا هم سبباً لنهضتها وارتقائها».

يقول الأستاذ (بيري): «لو لم يظهر العرب على مسرح التاريخ لتأخَّرت نهضة أوربا عدَّة قرون».

* * *

فلابدَّ لهذه النفس الإنسانيَّة بصفتها من عالم المجرَّدات من غذاء يتناسب وواقعها. وغذاؤها الروحي هو توجُّهها إلى الحق المتعال بعبادة وأخلاق ملكوتيَّة وأعمال صالحة. وهذا الغذاء سبب لإحيائها، على حد قوله تعالى:

﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ [الأنعام: الآية ١٢٢].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الأنفال: الآية ٢٤].

إنَّ الإسلام بصفته دين العقل والمنطق الصحيح يعطينا هذا الغذاء الروحي الذي عليه يتوقَّف حياة النفوس وإحياؤها. وإنَّ هذا الغذاء لا يتنافى مع الغذاء المادي الذي تحقِّقه المكتشفات الحديثة. بل إنَّ هذه المكتشفات تؤيِّد عظمة الله في أرضه وسمائه، وكلِّها على ما فيها من دقَّة نوع تسبيح لله تعالى إذ أنَّ التسبيح إنما هو تنزيه الله تبارك

---

(١) من كتاب: ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين.

وتعالى عن كل نقص وكل عيب وإسناد كل كمال إليه.

ففي المخترعات تتجلَّى ما أودع الله من عظيم الصنع وهندسة دقيقة رائعة في هذا الكون الواسع الأرجاء. ولولا ذلك لما تمكَّن المخترع من جمع هذه الشتات وتركيبها بفكر وتدبُّر وحسابات رياضيَّة. وما الفكر إلاَّ موهبة ربَّانيَّة لا دخل لجسامة المادَّة وصغرها في تقويته وتضعيفه.

كان يقول (پاستور) الموحِّد: «لا تنافي بين العلم والإيمان، وكلَّما زاد علم الإنسان زاد إيمانه».

وإني أضيف على كلام (پاستور) قائلاً: شريطة أن لا تتلوَّث النفس الإنسانيَّة بفسوقها وآثامها. فإنَّ الفسوق والآثام تحجب العقل الفطري من أن يعمل عمله، وهو توجيه الفرد إلى الله المتعال. إنه تعالى يقول: ﴿ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾﴾ [الرُّوم: الآية ١٠].

فالشاب الذي يريد تلويث نفسه إنما يتَّخذ كلمة (الرجعيَّة) وسيلة للانفلات عن كل فضيلة، ولكي يُدخل نفسه في زهرة المثقَّفين، فيبرِّر موقفه ممَّا هو فيه من انحلال خلقي! حين أنَّ الفضيلة هي هي: لا تتبدَّل بصياغة كلمات فارغة تأبى الانطباق مع واقع الإسلام وما جاء به الدين الإسلامي من قوانين ودساتير تكاملية للنفوس البشريَّة التائهة في شتَّى الحقول.

فلو رجعنا إلى ديننا وما أمرنا بالتمسُّك به من أخلاق وفضائل وأعمال صالحة ومن تجدُّد في العلوم الماديَّة ومواكبة الحضارة الحاضرة في المخترعات والمكتشفات ولفظنا ما جاء به الغرب المادي في حقول الفلسفة والأخلاق والاجتماع لعلمنا إذ ذاك أننا تقدميون بأسلوب إيجابي، غير رجعيين إلى جاهليَّة جهلاء.

ولو كان سير التدريس سيراً يقرب الفرد إلى الله المتعال ويذكره عظمة الله ويخوِّفه من عذاب الله، لرجع العالم الإسلامي إلى ما كان عليه من حضارة زاهرة، لا في عوالم النفس فحسب بل في عالم المادة أيضاً.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا

﴿يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۝٦﴾ [التحريم: الآية ٦] .

ولا بأس بذكر هذه الأحاديث، ليُعلم أنَّ الإسلام سير تقدُّمي لا في حقل المادة فحسب بل في حقل تكامل النفس أيضاً وذلك لإبلاغها أسمى مراتب الكمال وإلى الهدف الذي أوجد الله النفس في أرضه لأجله.

فقد جاء في الحديث: «ليس منّا من ترك دنياه لآخرته ولا آخرته لدنياه»[1] . .

وجاء أيضاً: «من أراد الدنيا فعليه بالعلم، ومن أراد الآخرة فعليه بالعلم، ومن أرادهما معاً فعليه بالعلم»[2] .

وورد عنه ﷺ أنه قبّل يداً ورمت من كثرة العمل وقال: «إن هذه يد يحبُّها الله ورسوله».

وعن النبي ﷺ: «اتجروا في مال اليتيم حتى لا تأكله الصدقة».

وعن جعفر بن محمد عليه السلام: «إزرعوا واغرسوا، فلا والله ما عمل الناس عملاً أحل ولا أطيب منه»[3] . وأيضاً عنه عليه السلام: «لا تكسل عن معيشتك فتكون كلاًّ على غيرك»[4] .

وفي خبر آخر: «ملعون من ألقى كلّه على الناس»[5] .

في الوسائل في حديث عن الإمام علي عليه السلام: «يا معشر التجار، اتقوا الله. . .» إلى أن قال: «تناهوا عن اليمين وجانبوا الكذب وتجافَوا عن الظلم وأنصفوا المظلومين ولا تقربوا الربا وأوفوا الكيل والميزان ولا تبخسوا الناس أشياءَهم ولا تَعثَوا في الأرض مفسدين»[6] .

وقد قال الإمام علي عليه السلام كما في نهج البلاغة في كتابه عليه السلام للأشتر النخعي: «فامنع من الاحتكار، فإنَّ رسول الله ﷺ منع منه. وليكن البيع بيعاً سمحاً بموازين عدل

---

(١) من لا يحضره الفقيه: ج٣، ص١٥٦، ح٣٥٦٨.
(٢) قريب منه في مشكاة الأنوار: ص١٣٥.
(٣) الكافي: ج٥، ص٢٦٠، باب فضل الزراعة، ح٣.
(٤) الكافي: ج٥، ص٨٦، باب كراهية الكسل، ح٩.
(٥) الكافي: ج٤، ص١٢، باب كفاية العيال، ح٩.
(٦) وسائل الشيعة: ج١٧، ص٣٨٢، باب ٢.

وأسعار لا تجحف بالفريقين من البائع والمبتاع»[١].

وعن الإمام علي عليه السلام: «اعلموا أن أبواب الرزق مقفلة، فافتحوها بالحركات فإنَّ في الحركات البركات».

وعن رسول الله صلى الله عليه وآله: «من وَلِيَ لنا عملاً وليس له منزل فليتَّخذ منزلاً، أو ليست له زوجة فليتَّخذ زوجة، أو ليس له خادم فليتخذ خادماً، أو ليست له دابة فليتَّخذ دابة»[٢].

«مَن كان معه فضلُ ظهر فليعد به على من لا ظهر له، ومَن كان له فضلُ زاد فليعد به على من لا زاد له».

ولا بأسَ بذكر ما قاله: (أرثر هاملتون) عن الإسلام. إنه يقول: «لو توخَّى الناس الحق، لعلموا أنَّ الدين الإسلامي هو الحل الوحيد لمشاكل الاشتراكيَّة، هو الذي يتَّسع للغني والفقير والقوي والضعيف جنباً إلى جنب».

لا رجعية في الإسلام

الرجعيَّة هي الرجوع إلى الوراء في الوسائل المادية للحضارة والبقاء على النمط القديم في فن الزراعة والصناعة ووسائل النقل والتنوير إلى ما هناك من الوسائل الماديَّة. أمَّا ما يتعلَّق بتكميل الروح الإنسانيَّة وتهذيبها أو توجيهها إلى خالقها وصانعها فذلك ما ليس للبشر أن تناله يده، ذلك لأنَّ اليد البشريَّة مهما كانت سليمة ونظيفة، فهي في واقع الأمر ملوَّثة بميول شتَّى وشهوات ونزوات وغرائز لا مفر منها. ولقد شاهدنا ذلك فيما كتبه الفلاسفة في الأخلاق والمثل العليا وما تبنوا من فلسفات زائفة، متضاربة، إن كانت قد أصلحت جانباً فقد أفسدت جوانب شتى لا تعد.

فوجب بحصر عقلي أن تأتي السنن والنواميس الكمالية والخلقية من منبع فياض نمير، من خالق هذه النفوس، من الله العلي القدير، لتهدي الناس إلى سبل السلام.

يقول آينشتاين: «العلم يخبرنا بما هو كائن، ولكن الوحي وحده هو الذي يخبرنا

---

(١) نهج البلاغة: ص٤٣٦، خ٥٣.

(٢) قريب منه في شرح نهج البلاغة: ج١٦، ص١٦٥، خ٤٠.

بما ينبغي أن يكون»، ويريد آينشتاين هنا بالعلم: العلم المادي. .

فلا رجعيَّة في الرجوع إلى ما سنَّ الله تعالى من قوانين ونظم في شتى الحقول التكامليَّة لهذا البشر الذي دأب أن يفسد في الأرض ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٠٥] . وهو القائل: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [الأعرَاف: الآية ٥٦] . فسنَّ قوانين في حقل الكمال البشري، في الأخلاق والشؤون الاجتماعيَّة والعائليَّة من قبل الفلاسفة وغيرهم إنما هو مخالفة لما أراده الله من كمال للناس في هذه الأرض، إنما هو إفساد وعُتُوٌّ في الأرض، والله تعالى يقول: ﴿وَلَا تَعْثَوْا فِي ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [البَقَرَة: الآية ٦٠] . ﴿وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾ [الرّعد: الآية ٢٥] . ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾﴾ [البَقَرة: الآيتان ٢٠٤/٢٠٥].

نعم، لعلماء الدين أن يسنّوا بعض القوانين على ضوء القرآن والسُنَّة النبويَّة مستخدمين في ذلك علم الأصول فيما يستجد من حوادث، شريطة أن لا تعارض النصوص السماويَّة الصريحة في شيء.

وللبشر أهواء، تتغيَّر من حينٍ لآخر، فيرى ما أمر الله به، في يوم، صحيحاً، وفي يوم آخر، غير صحيح، فيتبادر له أنَّ لكل زمان قانوناً خاصاً به ويجب أن تتبدَّل القوانين حسب الأزمنة.

ليت شعري، هل الفضيلة، في يوم من الأيام، يجب أن تنقلب إلى رذيلة؟ حتى يقوم مقام الزواج الشرعي الزواج الحر[١]، كل ذلك لأنَّ هناك تطوُّراً يجب اتِّباعه، والجمود هو الموت بعينه!

---

(١) الزواج الحر: هو الزواج دون أي عقد أو ميثاق. ويقول المتطرِّفون الحب أفضل دافع للزواج، فموته سبب الطلاق. وقد أخذ يتفشّى، ومع الأسف، هذا النوع من الزواج في المجتمعات الغربية لا سيَّما في الولايات المتحدّة.

أو يقوم مقام الزواج الشرعي، الزواج الثلاثي:

وهو أن يعيش زوج مع زوجه في بيت ورجل ثالث معهما كما بيَّنَّا سابقاً. أي تكون الزوجة خليلة لرجل آخر غير الزوج، وهم يعيشون معاً في دار واحدة.

وهل من التقدم التعاطي الخمور وقد نهى عن ذلك الدين الإسلامي والطب الحديث، فقد جاء في الحديث: «شارب الخمر كعابد وثن».

وهل أكل الربا من التقدُّم في شيء وإنَّ درهماً منه يعادل (من حيث الإثم) سبعين زنيةً مع المحارم في بيت الله الحرام، كما هو مؤدّي حديث نبوي.

وهل ترك الصلاة من التقدُّم في شيء، وهي مناجاة بين العبد والمعبود وشكر تجاه نعم المنعم جلَّ جلاله، تلك النعم التي لا تعد ولا تحصى: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: الآية ٣٤]. وهي خير وسيلة لإزالة القلق والاضطراب النفسي ومنع الانتحار(١)!.

وهل الصوم يعارض التقدم، وهو إذابة المادية في نفس الإنسان كي يشعر بجوع البائس المسكين، وهو نوع اقتصاد للتوفُّر على قوت الفقير، لو طبق تطبيقاً صحيحاً.

وهل الحج رجوع إلى الوراء، وهو مؤتمر إسلامي رفيع لو استفيد منه وعروج إلى مقامات القدس في تلك المواقف القدسيَّة الرهيبة في بيت الله الحرام.

وهل الوضوء أو الغسل خرافة من الخرافات وهي طهارة معنويَّة يستقبل بها العبدُ مولاه، يستقبله بهذه النظافة الظاهريَّة التي تؤثِّر في طهارة النفس، ذلك لأنَّ العبد لا يأتي بهما إلاَّ تقرُّباً إلى الله المتعال.

وهل الذهاب إلى المساجد يناقض التقدُّم؟ وهو كسب إفاضات ربانيَّة ينشط بها العبد كي يستقبل أمور الدنيا استقبالاً لا جشَع فيه ولا بغيَ ولا فساد.

وهل قطيعة الرحم من التقدُّم في شيء، حين أن صلة الرحم خير وسيلة للتساند الاجتماعي، وهل تحقير الأبناء آباءهم، لأنهم لا يعلمون شيئاً عن العلم الحديث، أمر

---

(١) في كل ثانية تقع حادثة انتحار في أمريكا. فالغرب مصاب بقلق نفسي وأمراض عصبيَّة وجنون من جرّاء فقدان الإيمان أو ضعفه.

تقدُّمي، أم دليل على الخبث ونكران الحق وعدم الوفاء وتكبر وتجبُّر على من أولاه أنواع العطف من نفسه وماله؟

وهكذا نرى. ليس في الإسلام ما يؤدِّي إلى التأخُّر الخلقي والتسافل النفسي، بل كل ما فيه تقدُّم في حقول شتَّى، في حقل النفس والأخلاق والتقرب إلى الله المتعال وفي حقل الاجتماع والقضاء والسياسة والاقتصاد وفي حقل العلوم الماديَّة.

* * *

الإسلام دين التقدُّم والازدهار، فقد كان للمسلمين الأوائل الفضل الأكبر في التقدُّم العلمي في مختلف مجالاته، سواء في ذلك، المجال العقلي والفلسفي والمجال الأدبي والاجتماعي ومجال العلوم الكونيَّة كالطب والكيمياء والفيزياء والعلوم الطبيعيَّة والرياضيَّة، إلى ما هنالك.

فقد ظلَّ العالم العربي المحصور ضمن حدود شبه الجزيرة العربيَّة عالماً غُفلاً لم يبدِ أي ازدهار ثقافي أو ما يدل على ذلك إلى أن تمَّ انتشار الإسلام. تشهد بذلك الجامعات في بغداد و(سالرنو) و(القاهرة) بل وفي (قرطبة) من بلاد الأندلس.

فقد أشاد رسول الله ﷺ بنيان العلم أيما إشادة، وهو القائل: «أنا مدينة العلم وعلي بابها فمن أراد المدينة فليأت الباب». وقد سئل الإمام علي عليه السلام عن مواضيع شتَّى في شتَّى العلوم فأجاب بالبديهة وهو المكتشف لقانون (أرخميدس) وقانون الأجسام الطافية. يظهر ذلك مما حلَّ من مسائل[١] لذلك كله، يحق لمؤرِّخ غير متعصِّب من مؤرِّخي فرنسا أن يقول:

«لو لم يكن حادث اغتيال علي لكان العالم الإسلامي قد شهد تحقّق تعاليم محمَّد في المزاوجة بين العقل والشرع وفي تجسيد المبادئ الأولى للفلسفة الحقَّة والعمل الإيجابي الخلاَّق».

لاحظوا الروح التقدميَّة في كلمات الإمام الصادق عليه السلام[٢]، فقد قال ما مؤداه: «إنَّ

---

(١) راجع كتاب: التكامل في الإسلام، الجزء الثاني ص٢١٤ ـ ٢١٧.

(٢) هو الإمام السادس؛ الإمام جعفر بن محمد عليه السلام.

استنارة القلب هي روح العلم»، ثمَّ يقول بالنسبة إلى العلم نفسه: «الصدق هدفه، والإلهام دليله، والعقل مستقره، والله موجِّهه».

حقاً، إنَّ المكتشفات الحديثة قد تجلَّت فيها ما أبانه الإمام الصادق سلام الله عليه في بيانه: فإنَّ تاريخ العلوم يذكر لنا إنه قد كان للإلهام أثر بالغ في الاكتشافات والمخترعات.

ومما لا مراءَ فيه: أنه قد كان لأهل بيت الرسول ﷺ الفضل الأكبر في تدعيم قواعد الفلسفة الحقَّة وتفهيم الناس حقائقَ القرآن كما يريده الله تعالى.

نعم، إنَّ الفلاسفة كـ(غالنوس) و(ديموقراطيس) و(ثمستيوس) و(أرسطوطاليس) و(أفلاطون) و(اقليدس) و(بطلميوس) و(ابولونبوس) قد بُعثوا بفضل علماء الإسلام من جديد: وإن علماء الإسلام قد صحَّحوا أخطاء هؤلاء الفلاسفة بالنسبة إلى المبدأ والمعاد على ضوء فلسفة القرآن الحقَّة وعلم الكلام، كي لا يتسرَّب الإلحاد والفلسفة البشريَّة الحالكة إلى معالم الإسلام.

كان المسيحيون يؤمنون الكليات الإسلامية من أقاصي أوروبا ويرجعون إلى بلادهم حاملين مشاعل العلم والمعارف. وكانت المدارس والأكاديميات زهرات زكيَّة الرائحة تنتشر في أكثر المدن الإسلاميَّة، فتؤتي أكلها كل حين، وقد كانت مزوَّدة بمكتبات عامرة تضم عدداً كبيراً من الكتب.

كانت في مكتبة القاهرة أكثر من مليون مجلد، ستة آلاف منها تبحث في الرياضيَّات والفلك.

نعم، قد سبق المسلمون (روكر بيكون) في الطريقة التجريبيَّة عدَّة قرون. فقد قال الإمام علي عليه السلام: «في التجارب علم مستأنف» وقد قال رسول الله ﷺ مخاطباً علياً عليه السلام: «لا فقرَ أشد من الجهل، ولا مال أعود من العقل، ولا وحشة أوحش من العُجب، ولا عقل كالتدبير ولا ورع كالكف عن محارم الله ولا حسب كحسن الخلق، ولا عبادة مثل التفكر»[1]. وكانت الطريقة التحليلية والاستقرائيَّة والإستنتاجيَّة معروفة في التحقيقات العلميَّة لدى المسلمين.

---

(١) من لا يحضره الفقيه: ج٤، ح٥٧٦٢، والحديث طويل.

أما في أُوربا، في القرون الوسطى، فقد أغلقت معاهد الدراسة إلى الأبد من قبل قسطنطين وأحرقت المكتبات العامَّة التي أسَّسها الأباطرة الوثنيُّون، وكانت العلوم تعتبر نوعاً من السحر ويُعاقب من يتعاطاها بتهمة الخيانة. كانت النزعة الدينيَّة تعارض العلم في أوروبا، كل المعارضة، وكانت هذه النزعة تتمثَّل في قولهم: «الجهل أبو الإخلاص لله». حين أنَّ علياً عليه السلام كان يقول منذ قرون: «بالعلم يُعرف الله ويوحَّد»[1].

لقد نَفت الكنيسة من روما جميع المشتغلين بالدراسات العلميَّة وأحرقت مكتبة (بلاتين) وأعدمت عشرات الآلاف من العلماء الكونيِّين.

ولقد سبق أبو الحسن (گاليلة) في اختراعه التلسكوب أو المرقب، واستعمل كل من مرصد القاهرة ومرصد مراغة التلسكوب بنجاح.

إنَّ المسلمين قد نبغوا نبوغاً مرموقاً في الفلك وجاؤوا بجداول هامَّة، وإنَّ نصف أسماء الأنجم لا تزال عربيَّة، وقد أدخل المسلمون (علم المثلَّثات) في الفلك وأخذ علم الفلك طوراً رياضيَّاً دقيقاً.

وقد تمكَّن المسلمون من حساب حجم الأرض وتصحيح أخطاء (بطليموس) في الفلك.

وللمسلمين اكتشافات هامَّة في انكسار الضوء وتعيين موقع النجم الصحيح، وكذلك في علم الميكانيك.

لقد بنى العرب المسلمون أوّل مرصد في أوروبا، وها هو جابر بن عافية العالم الرياضي الكبير يضع تصميماً، فيبني برج اشبيليَّة ليراقب منه أفلاك السماء، فيحوّله الإسبان بعد طرد المسلمين إلى حظيرة العجول!

وكذلك كانت حواضر غرب أفريقيا: طنجة، فاس ومراكش، تنافس قرطبة واشبيلية وغرناطة في كلياتها وتخريج علماء متضلِّعين.

لقد أقامت أوروبا المسيحيَّة الدنيا وأقعدتها لمجرَّد اتِّهام باطل: ذلك أنَّ المسلمين هم الذين أحرقوا مكتبة الإسكندريَّة أيَّام الفتح، حين أن حرق هذه المكتبة قد تمَّ زمن

---

(١) بحار الأنوار: ج١، ص١٦٦، باب ١.

(يوليوس القيصر). إلاّ أنَّ الكتّاب الأوروبيِّين لا يتلفَّظون بشيء عمَّا قام به الصليبيُّون بعد خمسة قرون!.

لقد اكتشف المسلمون المثلَّثات الكرويَّة وطريقة حل المعادلات من الدرجة الرابعة (في الجبر) وعلم تخطيط البلدان وطريقة تسطيح الأرض. وقد طبقوا علم الجبر على الهندسة، وهو فتح جديد للهندسة التحليليَّة.

وكانت أوروبا تعتقد أنَّ الأرض منبسطة. بينما كان العلماء المسلمون يعتقدون بكرويَّة الأرض وكرويَّة المدارات الفلكيَّة وعلى هذا الأساس بنوا علم الفلك.

وأما العلوم الطبيعيَّة فقد بُذل في ترقيتها جهد كبير وطبقت الطريقة التجريبيَّة. وكانوا يستعملون حدائق تجريبيَّة (مستنبتات) في كليَّات الزراعة وكليَّات العلوم الطبيعيَّة (فرع النبات)، فكان الأساتذة يستعينون بها.

أما الكيمياء، فالمسلمون هم المخترعون لها، ذلك لأنَّ تلميذ الإمام الصادق عليه السلام وأعني به جابر بن حيان، هو الأب الأصيل لعلم الكيمياء الحديثة ولا يزال اسمه خالداً في حقل الكيمياء في دائرة معارف العلوم في لغات مختلفة ولا تقل أهميته عن (برسلي) و(لاووازية)، وقد صنَّف جابر ألفي صفحة في الكيمياء من إملاء الإمام الصادق عليه السلام على ما ذكره ابن خلكان في تاريخه[1].

أمَّا اشتهار المسلمين في علم الطب وعلم الجراحة فحدث ولا حرج، فقد بلغوا شأواً قاصياً في هذين الفرعين.

لقد ظلَّ المسلمون طوال قرون عديدة يتدارسون الجسم البشري بموضوعيَّة مثاليَّة وانكباب عظيم. وكانت دراسة المواد الطبيَّة، تلك الفكرة التي ارتاع لها (ايوكريدس) في مدرسة الإسكندريَّة إبداعاً إسلامياً محضاً.

إنَّ المسلمين هم الذين اخترعوا علم الصيدلة وهم أوَّل من أسَّسوا مخازن لتوزيع الأدويَّة، فكانت توزَّع الأدوية مجاناً دونما عوض والموزِّعون يتقاضون رواتبهم من الدولة الإسلاميَّة. وإنَّ أسعار الأدوية وأصنافها كانت محدودة من قبل الدولة

---

(١) في كتاب وفيات الأعيان.

الإسلاميَّة. وكان على من يروم أن يعمل في حقل الصيدلة أن ينال إجازة رسميَّة، تقابل الشهادة الجامعيَّة في يومنا هذا.

كما أنَّ المسلمين أسَّسوا مستشفيات عامة (دور الشفاء) وكان المرضى يعالجون فيها مجاناً.

وها هو أبو جعفر (أحمد بن محمد الطالب) يؤلِّف كتاباً في الماء الأزرق في العين.

وأما ابن سينا فكان أبرع أطباء عصره، كان ذا عقل موسوعي فهو فيلسوف ورياضي وفلكي وشاعر وطبيب. فليس بمستغرب أن يسمِّيه رجال الفكر في أوروبا (أرسطو طاليس) الشرق.

وكتاب (حياة الحيوان) للدميري مشهور. فهو تاريخ الحيوانات، سبق مؤلفه (بوفون) بسبعة قرون.

وكان (الجيولوجيا)[1]: علم طبقات الأرض يدرس باسم: (علم تشريح الأرض).

وقد نبغ المسلمون في الفن المعماري وإن آثارهم تتجلّى فيما بنوا من مساجد وقصور وجسور وما هنالك من زخرفة ونحت جميل في حدود الشرع الشريف.

وللمسلمين اليد الطولى في البحث والتنقيب التاريخي والجغرافية وكذلك في الزراعة والتجارة وكثير من الصنائع.

أمَّا العمل فمقدَّس في الإسلام أيَّما تقديس، إنه تعالى يقول: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٩] وفي آية أُخرى: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّـٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَـٰيِشَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [الأعراف: الآية ١٠] وفي آية أخرى: ﴿فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾ [المُلك: الآية ١٥] وهو القائل جلَّ جلاله: ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [القَصَص: الآية ٧٣].

واقرأ معي أحاديث أهل البيت عليهم السلام في الحث على العمل:

فعن الإمام الصادق جعفر بن محمد عليه السلام قال: «إن الله عز وجل يبغض كثرة النوم وكثرة الفراغ»[2]. وعن موسى بن جعفر عليه السلام: «إياك والكسل والضجر، فإنهما يمنعانك

---

(١) Geologie.

(٢) الكافي: ج٥، ص٨٤، باب كراهية النوم، ح٣.

حظك من الدنيا والآخرة»[١]. وفي الوسائل عن جعفر بن محمد عليه السلام: «لا تكسلوا في طلب معايشكم، فإنَّ آباءنا كانوا يركضون فيها ويطلبونها»[٢].

وعن النبي صلى الله عليه وآله: «ملعون من ألقى كلَّه على الناس».

وعن جعفر بن محمد عليه السلام: «اقرؤوا من لقيتم من أصحابكم السلام، وقولوا لهم عليكم بتقوى الله عزَّ وجلَّ وما ينال به ما عند الله. إني والله ما آمركم إلاَّ بما نأمر به أنفسنا. فعليكم بالجد والاجتهاد. وإذا صلَّيتم الصبح فانصرفتم فبكروا في طلب الرزق واطلبوا الحلال، فإنَّ الله عزَّ وجلَّ سيرزقكم ويعينكم عليه»[٣].

وعن جعفر بن محمد عليه السلام: «لا تدع طلب الرزق من حلّه [فإنه عون لك على دينك] واعقل راحلتك وتوكَّل»[٤].

وعن فضل بن أبي قرة: قال: دخلنا على أبي عبدالله عليه السلام وهو يعمل في حائط له، فقلنا: جعلنا الله فداك، دعنا نعمله لك أو تعمله الغلمان، قال: «لا، دعوني، فإني أشتهي أن يراني الله عزَّ وجلَّ أعمل بيدي وأطلب الحلال في أذى نفسي»[٥].

وعن علي بن أبي حمزة قال: «رأيت أبا الحسن عليه السلام يعمل في أرضٍ له، قد استنقعت قدماه في العرق. فقلت: جعلت فداك: أين الرجال؟ فقال: «يا علي، قد عمل باليد من هو خير مني ومن أبي في أرضه. فقلت ومن هو؟ فقال: رسول الله وأمير المؤمنين وآبائي كلّهم كانوا قد عملوا بأيديهم وهو من عمل النبيِّين والمرسلين والأوصياء والصالحين»[٦]».

بمثل هذه الأحاديث، وجد نشاط عديم النظير في العالم الإسلامي في حقل التجارة والزراعة. وإن الحكام والقواد ما كانوا ليأنفوا من أن يلقِّبوا أنفسهم بأسماء

---

(١) الكافي: ج٥، ص٨٤، باب كراهية النوم، ح٢.

(٢) وسائل الشيعة: ج١٧، ص٦٠، باب ١٨.

(٣) وسائل الشيعة: ج١٧، ص٢٢، باب ٤.

(٤) وسائل الشيعة: ج١٧، ص٣٤، باب ٧.

(٥) من لايحضره الفقيه: ج٣، ح٣٥٩٥.

(٦) الكافي: ج٥، ص٧٥، باب ما يجب من الاقتداء بالأئمة عليهم السلام، ح١٠.

المهن التي كان يتعاطاها أجدادهم. كيف لا، وإن الرسول الأمينﷺ يقول: «إنَّ الله يحبُّ عبداً يتَّخذ المهنة ليستغني بها عن الناس، وإنَّ الله يحبُّ العبد المحترف»[١].

وفي الوقت الذي يحث الدين الإسلامي الناس على العمل المثمر يريد منهم أن لا يشذوا عن طريق الحق والصواب. وأن تكون الفضيلة هي الحاكمة في المعاملات.

فعن النبيﷺ: «ليس منَّا من غش مسلماً أو ضره أو ماكره»[٢]. وعن أبي عبداللهﷺ: «غبن المؤمن حرام»[٣].

وفي حديث عن جعفر بن محمدﷺ: عليك بصدق اللسان في حديثك ولا تكتم عيباً يكون في تجارتك ولا تغبن المسترسل فإن غبنه لا يحل، ولا ترضَ للناس إلا ما ترضى لنفسك وأعطِ الحق وخذه ولا تحف... إلى أن قال: «التاجر فاجر إلا من أعطى الحق وأخذه»[٤].

وعن النبيﷺ: «من غش مسلماً في شراء أو بيع فليس منا، ويحشر يوم القيامة مع اليهود، لأنهم أغش الخلق»[٥].

وقد حثَّ الإسلام الناس على تشغيل أموالهم وعدم تجميدها. ففي الوسائل، عن زرارة عن أبي عبداللهﷺ... قال: «ما يخلف الرجل بعده شيئاً أشد عليه من المال الصامت. قال: قلت له ﷺ: كيف يصنع به؟ قال: يجعله في الحائط والبستان والدار»[٦].

يقول الراوي سمعت أبا عبداللهﷺ يقول: «لا خير في مَن لا يحب جمع المال من حلال، يكف به وجهه ويقضي به دينه ويصل به رحمه»[٧].

واسمع ماذا يقول معلَّى بن خنيس عن أبيه. قال: سأل أبو عبداللهﷺ عن رجل وأنا عنده. فقيل له: أصابته الحاجة. قال: فما يصنع اليوم؟ قيل: في البيت يعبد ربه.

---

(١) قريب منه في الخصال للصدوق: ص٦٥٠.
(٢) وسائل الشيعة: ج١٦، ص٣١٦، باب ١٠.
(٣) الكافي: ج٥، ص١٥٣، ح١٥.
(٤) وسائل الشيعة: ج١٧، ص٣٨٥، باب ٢.
(٥) وسائل الشيعة: ج١٧، ص٢٨٢، باب٨٦.
(٦) وسائل الشيعة: ج١٧، ص٦٩، باب٢٤.
(٧) وسائل الشيعة: ج١٧، ص٣٣، باب٧.

قال: فمن أين قوته؟ قيل: من عند بعض إخوانه. فقال أبو عبدالله عليه السلام: «والله، للذي يقوته أشد عبادة منه»[١]. وعن أبي حمزة عن أبي جعفر عليه السلام. قال: «من طلب الدنيا استعفافاً من الناس وتوسيعاً على أهله وتعطفاً على جاره لقي الله عزَّ وجلَّ يوم القيامة ووجهه مثل القمر ليلة البدر»[٢].

وعن جعفر الصادق عليه السلام: مكتوب في التوراة: «إنه من باع أرضاً أو ماءً ولم يضع ثمنه في أرض أو ماء ذهب ثمنه محقاً»[٣] (أي بطل ثمنه وذهبت بركته). وعنه عليه السلام: «مشترى العقدة مرزوق، وبائعها ممحوق»[٤] (العقدة أي العقال).

لقد أنشأ المسلمون كثيراً من قنوات الري في البلاد التي فتحوها، وخير دليل على ذلك: آثار القنوات في أسبانيا.

لقد حفَر المسلمون مناجم النحاس والحديد والزئبق والكبريت في أسبانيا، كما نشروا هنالك صناعة نسج الحرير واستخلاص الورق ووشي الخزف والفخار ودبغ الجلود.

ولا تزال الأواني الصينيَّة التي عرفت بها (قرطبة) والمنسوجات الصوفيَّة التي اشتهرت بها (مرسية) وحرائر (غرناطة) و(المرية) و(اشبيليَّة) والحلى الذهبيَّة من (طليطلة) والكاغذ في (سالبة) مضرب المثل حتى في أوروبا الحديثة[٥].

وقد كان لحكام اسبانيا أسطول تجاري ينوف على ألف سفينة كما كان لهم وكلاء ومصانع أقاموها على ضفاف الدانوب.

نعم، كان للمسلمين منجزات هامَّة في حقل الفكر، ذلك لأنَّ تعاليم نبينا محمد صلى الله عليه وآله كانت تعاليم تدعو الناس إلى التفكر والتدبُّر في أسرار الكون، كيف لا وإنَّ القرآن الكريم ينادي منذ أربعة عشر قرناً: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾﴾ [العنكبوت: الآية ٢٠]. ﴿فَلْيَنظُرِ

---

(١) وسائل الشيعة: ج١٧، ص٢٥، باب٥.
(٢) وسائل الشيعة: ج١٧، ص٢١، باب٤.
(٣) وسائل الشيعة: ج١٧، ص٧٠، باب٢٤.
(٤) وسائل الشيعة: ج١٧، ص٧٠، باب٢٤.
(٥) روح الإسلام: للسيد أمير علي.

ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾﴾ [الطارق: الآية ٥]، ﴿قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾﴾ [يونس: الآية ١٠١]، ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾﴾ [الغاشية: الآيات ١٨/ ٢٠]. ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ﴾ [النحل: الآية ٤٨] .

نعم، خلال قرون الجدب الأدبي والفكري في أوروبا كان الإسلام يحمل مشعل المدنية ويتقدَّم إلى الأمام، فهل الإسلام إذن دين رجعي أم تقدمي؟

ومنذ القرن الرابع حتى القرن السابع عشر الميلادي ظلت سحب الضباب تنعقد في سماء أوروبا بعضها فوق بعض، وقد سادت طوال هذه العصور العصبيَّة الدينيَّة المقيتة في أوروبا، وكان الإسلام بثقافته الحرة ينفذ إلى مجاهيل العالم ليثير فيها حب الخالق والمخلوق وليدفع الإنسانية إلى عتبة مرحلة جديدة في مضمار التقدم والارتقاء. وهكذا كانت تظهر معالم التقدم في آكاديميات سالرنو وبغداد ودمشق وقرطبة وغرناطة.

كان الحكام يساعدون على نمو الفكر الحر في الحقل العلمي ولم يتعرَّضوا إلى بقيَّة الأديان، بل كان التسامح شعارهم، فازدهرت العلوم الطبيعيَّة كنتيجة حتمية لحريَّة الفكر في الإسلام. ولكن الضغط على حريَّة الفكر في أوروبا كان قد بلغ أقصاه. وبعد أن كان المسلمون قد حوَّلوا أسبانيا إلى حديقة غناء للعلوم والمعارف جاءت المسيحية فجعلتها صحراء مقفرة، فخلت الحواضر من الكليات والمدارس وحولت إلى كنائس وأحرقت الكنوز الأدبيَّة والعلميَّة هناك.

* * *

لقد أخطأ (ارنست رنان) في كتابه: «الإسلام والعلم» حيث قال «إن الإسلام قد حارب العلم والفلسفة» لعله في كلامه هذا أراد أن يقرن الإسلام بالمسيحيَّة التي حاربت العلم في القرون الوسطى وأبادت كثيراً من العلماء الكونيِّين، حتى أنك ترى أن (لاروس) يستهزئ في قاموسه بالدين حين يريد أن يفسِّر كلمة[1] Religion، ويقول: «الدين إنما هو مجموعة مقرَّرات تنافي العقل والفكر الحر!». حين أن الإسلام يقول

(١) الدين.

«لا دين لمن لا عقل له». ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ۝٣٦﴾ [الإسراء: الآية ٣٦]. ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ۝٤٤﴾ [الفرقان: الآية ٤٤].

يقول الإمام علي عليه السلام: «إنه أرسل أنبياء ليثيروا في الناس دفائن عقولهم يهدوهم إلى معايش تُحييهم»[1]: وهذا دستور يحقّق سعادة الدنيا في حقل الفكر والعلم والمخترعات وفي حقل الاقتصاد والاجتماع ويحقّق سعادة الآخرة في حقل التوجُّه إلى الله وتزكية النفوس والفلسفة الحقة.

إن القرآن الكريم قد عظّم أمر العلماء في جملة آيات بقوله: ﴿هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الزُّمَر: الآية ٩].

﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍۚ﴾ [المجادلة: الآية ١١]. ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِۚ﴾ [آل عِمرَان: الآية ١٨] وندب إلى البرهان وأراد بالناس أن لا يتقبلوا مبدأً أو عقيدة أو مسلكاً من المسالك دونما دليل بقوله: ﴿قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [البَقَرَة: الآية ١١١] وبقوله: ﴿قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ [الأنعَام: الآية ١٤٨].

وحظر عن الظن والعمل به في العقائد والمسالك: بقوله: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ۝١١٦﴾ [الأنعَام: الآية ١١٦]، وأراد بالناس اتباع العلم الصحيح لا الظنون والأهواء. فقال رداً على الدهريِّين: ﴿وَقَالُواْ مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ۝٢٤﴾ [الجَاثيَة: الآية ٢٤]. وبقوله: ﴿وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ۝٢٨﴾ [النّجم: الآية ٢٨].

* * *

كان العلم في القرون الوسطى منحصراً فيما كان قد قاله أرسطو أو أفلاطون أو

---

(١) نهج البلاغة: ص٤٣.

أحد الفلاسفة القدماء دون تمحيص أو تحقيق في أقوالهم. وإن أكبر برهان عندهم أن يقال: قال ماجستر[(١)] كذا وكذا.. يقصد بذلك أفلاطون أو أرسطو أو غيرهما من الفلاسفة القدماء. حين أنَّ نظريات فلاسفة اليونان عن الكون كانت تخيُّليَّة بحتة، ومن جملة أقوالهم: إن حركة الشمس حول الأرض يجب أن تكون دائرية، لأنَّ الدائرة أكمل الأشكال! وهكذا...

ولكن القرآن كان ينادي قبل ذلك بعدم قبول شيء دونما دليل أو برهان. وأسَّس للناس أسس الفلسفة الوضعية (Positivisme) التي لم تعرف في أوروبا إلا في القرن التاسع عشر الميلادي، فلسفة تبتني على الحقائق العلميَّة الثابتة لا الظنون والتخيُّلات الواهية. لذلك كان يقول (پوانكاره) العالم الرياضي: «نحن الرياضيِّين إنما نعمل لأجل الفيزياء والفلسفة».

كل ذلك لأن الفلسفة في القرن التاسع عشر صارت تستفيد من المكتشفات الحديثة لتقول كلمتها عن الكون والوجود.

وها هو (برگسون) صار من كبار الموحِّدين، وكان يستدل في توحيده تعالى بما أودع الله تعالى من نظام خارق دقيق في بطن الذرَّة، نظام محيِّر للعقول لا يتأتّى إلاَّ عن حكيم خبير. نظام دقيق الصنع ذي دساتير ثابتة وسرع معينة ومنحنيات عجيبة بعيد عن الصدفة كل البعد، نظام يذيب الشك ويفني كل تردد. إنه تعالى دعا إلى التوحيد بطريق برهاني بقوله: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَـٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿١١٧﴾﴾ [المؤمنون: الآية ١١٧]. ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ ۖ هَـٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِى ۗ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّ ۖ فَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الأنبياء: الآية ٢٤] وفي آية أخرى: ﴿وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ فَعَلِمُوٓا۟ أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [القصص: الآية ٧٥].

وكفى الإسلام فخراً أنه دعا إلى حريَّة الفكر وتقبل أصح الآراء وأسدها وذلك

---

(١) ماجستر Magister.

بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ﴾ [الزُّمَر: الآية ١٨] ومنع من التقليد الأعمى بقوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُواْ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٠٤﴾﴾ [المَائدة: الآية ١٠٤] .

وكم من آيات في القرآن الكريم تحث الناس على التفكر والتعقل: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾ [محمَّد: الآية ٢٤] ، ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الرُّوم: الآية ٢١] . ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾﴾ [البَقَرَة: الآية ١٦٤] ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [النّحل: الآية ٦٧] .

ولنذكر ما قاله بعض كبار الغربيِّين عن الإسلام: يقول (لواندر كوذرد) «ليس في الإسلام كهنوت ولا سلطة كنيسة، لكنه يضع للحكومات دستوراً» ويقول: (جيبون): «الدستور الإسلامي دستور شامل موحَّد بين الجميع من الرأس المتوَّج إلى أبسط الأشخاص، لأنَّه يقوم على حكمة أنتجها أوسع العقول معرفةً وعلماً بهذه الحياة».

ويقول (دافيد يوو): «القرآن دستور اجتماعي، مدني، تجاري، حربي، قضائي وهو فوق ذلك كله قانون سماوي عظيم».

ويقول (كارليل): «من المسلم به أن محمداً لم يكتب ولم يقرأ، ولم يتلق تعليماً مدرسياً، لكنه عُرِفَ منذ نشأته بالرجولة وسمو التفكير والأمانة وأصالة الرأي في كل ما يقول وما يعمل، وتاريخ حياته يثبت أنه كان دائماً رجلاً اجتماعياً وصديقاً صدوقاً ومخلصاً ودوداً».

ويقول (وليم موير): «جميع حجج القرآن طبيعية ودالة على عناية الله بالبشر».

ويقول (برناردشو): «لا بدَّ أن تعتنق الإمبراطوريَّة البريطانيَّة النظم الإسلاميَّة قبل نهاية هذا القرن، ولو أنَّ محمداً بُعث في هذا العصر وكانت له ديكتاتوريَّة على هذا العالم

الحديث لنجح تماماً في حلّ جميع المشكلات العالميَّة وقاد العالم إلى السعادة والسلام».

فإذا كانت الرجعيَّة معناها: كل عائق عن التقدُّم أو الرجوع إلى الأصول البالية المانعة عن الارتقاء والازدهار فأي أمر من أوامر الإسلام أو أي نهي من نواهيه وأي تعليم من تعاليم القرآن أو السُنَّة النبويَّة يقف حجر عثرة دون التقدُّم في تفهُّم الإنسان الحياة والكون والوجود تفهماً يعوقه عن الارتقاء في حقول التكامل النفسي والاجتماعي. أو حقول المكتشفات والمخترعات؟

إذن: القضيَّة ليست قضية الرجعية أو التقدمية بالمعنى الصحيح. وإنما مرض في النفس، يريد صاحبها أن ينفلت من دساتير وآيات بيِّنات أرسلها الله تعالى لتكميل البشر على ألسنة أنبيائه عليهم السلام. إنَّ الله تعالى يصف هؤلاء بمرض في القلب أو النفس. بقوله: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ [البَقَرَة: الآية ١٠].

والمرض النفسي لابدَّ من معالجته، معالجة روحية. وليس هذا المرض الروحي من النوع الذي يعالجه علماء النفس أو الأطباء النفسانيون. وإنما هو مرض روحي عقائدي جاء من جراء الذنوب والآثام: ﴿كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓاْ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [يُونس: الآية ٣٣]. نعم، الإجرام هو الذي سدَّ عليهم أبواب الإيمان وجعلهم مرضى في النواحي النفسيَّة. ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ ۚ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [السَّجدَة: الآية ٢٢].

والفسق هو السبب الرئيسي للضلال بقوله تعالى: ﴿فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [الأحقاف: الآية ٣٥]. وبقوله ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٦] وبقوله: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [البَقَرَة: الآية ٩٩].

إنَّ أطباء هذا المرض النفسي هم الأنبياء عليهم السلام وخاتمهم نبيِّنا محمد صلى الله عليه وآله فما لم يعالج هذا النوع من المرض بوصفات أو علاجات قد عيَّنها نبيِّنا محمد صلى الله عليه وآله لا يمكن أن يرجع المريض عن غيه، فيرى الحق حقاً والباطل باطلاً، يرى ما هو رجعي حقاً رجعياً وما هو تقدُّمي حقاً تقدُّمياً. ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحَجّ: الآية ٤٦].

فطوبى لأولئك الشبَّان الذين لم تخدعهم بهرجة الغرب بروائها وجمالها الخدَّاع، فميَّزوا بين الباطل والحق، بين نظام يدعو إلى الشهوات ونظام يدعو إلى تساند اجتماعي فيه الكمال الإنساني والفوز بسعادة النشأتين: ألا وهو نظام الإسلام... فتمسَّكوا به تمسُّكاً ملؤه الإخلاص وصاروا يضحون من نفوسهم ونفائسهم لإعلاء كلمة الله في الأرض، لا تأخذهم في ذلك لومة لائم، محقِّقين مصداق هذه الآية الشريفة: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ۝٦٩﴾ [العنكبوت: الآية ٦٩]. راجين في عملهم رحمة الله ومرضاته تعالى جاعلين هذه الآية الشريفة هدفاً لهم: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡرِي نَفۡسَهُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾ [البقرة: الآية ٢٠٧].

الزوجيَّة في الكون

يقول الله تبارك وتعالى: ﴿سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلۡأٓفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّۗ﴾ [فُصِّلَت: الآية ٥٣].

إنَّ هذه الآية تتحقَّق أكثر من ذي قبل كلما تقدَّمت العلوم الحديثة وتعرف العلماء إلى باطن الذرَّة وما فيها من عالم عجيب: عالم قائم بذاته من حيث الأنظمة والقوانين، لا يعتريها أي تغير وانثلام.

فترى أنَّ الله تعالى قد أودع في الذرَّة، (وهي ما لا ترى بالعين المجرَّدة ولا بالمكبِّرات أي المجاهر: ميكروسكوب)، إلكترونات في الأطراف وهي كهربائيَّة سالبة (-) تدور بصورة اهليليجية حول المركز بسرعة فائقة، بسرعة ألفي كيلومتر في الثانية، وهذه أعظم سرعة عرفت لحد الآن على وجه الأرض، وترى في مركز الذرَّة (النواة) قد تكدَّست البروتونات وهي كهربائيَّة موجبة (+).

وقد جعل الله في هذه الذرَّة خلاءً يحيِّر العقول وذلك بين الإلكترون والبروتون، بحيث لو رفع هذا الخلاء لكانت الأرض بحجم البرتقالة ولكن وزنها وزن الأرض تماماً.

فالبعد بين الألكترون الذي يدور في أطراف الذرَّة والبروتون المستقر في مركز الذرَّة كالبعد بين الأرض والشمس في منظومتنا الشمسيَّة تقريباً. فكأن كلَّ ذرَّة من حيث

التشكيلات والأبعاد والمسافات كالمنظومة الشمسيَّة مع حفظ النسبة. ذلك لأنَّ نواة الذرَّة تحتوي على ٩٩,٩ في المائة من الوزن الذرِّي، كما أنَّ الشمس تحوي ٩٩,٩ في المائة من وزن المجموعة الشمسيَّة: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ طِبَاقٗاۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلۡقِ ٱلرَّحۡمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٖۖ﴾ [المُلك: الآية ٣]. فأبسط الذرَّات، إنما هي ذرَّة (الإيدروجين).

(الإيدروجين) غاز مشتعل (قابل للاشتعال) يشغل قسماً عظيماً من هذا الكون الرحيب! ولذلك سمّي بالغاز الكوني. وهو أهم عنصر في الماء الذي نشر به. إذ أنَّ دستور الماء في علم الكيمياء: H_2O. أن يوجد في كل جزء من الماء حجمان من الإيدروجين وحجم واحد من الأوكسجين وهو غاز نتنفسه، ولولاه لاستحالت الحياة...

يوجد في ذرَّة (الإيدروجين) الكترون واحد (ـ) يدور حول پروتون واحد (+) في المركز. وهو أبسط العناصر.

ويأتي في ترتيب العناصر، بعد الإيدروجين، العنصر المسمَّى بـ(هليوم) وهو غاز غير محترق تملأ به المناطيد (البالون).

يوجد في أطراف ذرَّة (الهليوم) الكترونان (−)، (−) يدوران حول المركز. أمَّا في مركز الهليوم فيوجد پروتونان: (+)، (+) وبجنبها: نيوترونان: (∓)، (∓).

النيوترون، جسم صغير جداً مؤلَّف من شحنة كهربائيَّة موجبة وشحنة كهربائيَّة سالبة وهما متعادلتان. فالنيوترونات متعادلة من حيث الكهربائيَّة.

وأما العنصر الثالث من حيث (العدد الذرِّي) أو ترتيب العناصر. فهو: (ليثيوم). ففي نواته: أي في مركزه يوجد ٣ پروتونات (+)، (+)، (+) وبجنبها ٤ نيوترونات: (∓)، (∓)، (∓)، (∓)، وتدور في الأطراف (أي في أطراف عنصر الليثيوم) ٣ الكترونات: (−)، (−)، (−).

وأما ذرَّة الكالسيوم ففيها ٢٠ الكتروناً تدور في الأطراف في مدارات مختلفة وبسرعة معيَّنة وبنظام دقيق حول النواة (المركز) وفي المركز: ٢٠ پروتوناً وبجنبها ٢٠ نيوتروناً.

ثم، نحن إذا جمعنا عدد النيوترونات مع عدد الپروتونات في كل ذرَّة، يعطينا هذا المجموع: الوزن الذرِّي (mass number).

إنَّ ذرَّة الإيدروجين يختلف بعضها عن بعض حسب عدد النيوترونات الموجودة في المركز.

فإذا كان في المركز: (نيوترون واحد)، سمِّي هذا الإيدروجين بـ(الإيدروجين الثقيل). ففي نواة الإيدروجين الثقيل يوجد نيوترون واحد. وإنَّ المعادلة الآتية توضح الوزن الذرِّي للإيدروجين الثقيل: ١ پروتون + ١ نيوترون = ٢. فيقال: الوزن الذرِّي للإيدروجين الثقيل = ٢.

وعند اتحاد الإيدروجين الثقيل بالأوكسجين نحصل على ما يعرف الآن باسم: (الماء الثقيل).

فدستور الماء الخفيف الكيماوي هو: H_2O حين أنَّ دستور الماء الثقيل: H_2O_2.

فالإيدروجين تختلف طبيعة ذرَّاته، منها ما هي خفيفة تبلغ كثافتها نصف كثافة الذرَّات الثقيلة. فإذا اتَّحدت الذرَّات الثقيلة من الإيدروجين مع الأوكسيجين كوَّنت ماءاً يختلف عن الماء العادي. ولهذا تأثير سام على الكائنات الحيَّة، ويوقف نمو البذور ويميت أجنَّة الأحياء وهي في مهدها. هذه هي صفات الماء الثقيل.

ثم هناك نوع ثالث من الإيدروجين. فيوجد في مركز هذا النوع من الإيدروجين: نيوترونان بجنب الپروتون. ويسمى بالإيدروجين الثلاثي. ووزنه الذرِّي: ٣ ذلك لأنَّ ١ پروتون + ٢ نيوترون = ٣.

إذن هنالك ثلاثة أنواع من الإيدروجين. وتسمَّى هذه بالنظائر العادية.

وقد تكون للعنصر الواحد عدَّة نظائر لاختلاف عدد النيوترونات في النواة لنفس العنصر. ومعنى ذلك، أنه قد يكون لعنصر واحد: (مثلاً كاربون) عدَّة أوزان ذريَّة، لاختلاف عدد النيوترونات في النواة في نفس العنصر.

وقد وجدوا (للأورانيوم) ١٢ نظيراً. وأما عدد النظائر التي وجدوها لمختلف العناصر فتتجاوز الألف. وإنَّ العلم يعمل اليوم لأجل كشف هذه النظائر لمختلف العناصر. ويظفر العلم يوماً بعد يوم بما أودع الله تعالى في بطن الذرَّة، (هذه التي لو جمعت عشرة ملايين منها لما تجاوزت رأس الإبرة) من خصائص ونظام. نظام محيِّر

للألباب، نظام يجعل الفيلسوف الفرنسي برگسون: (Bergson) يؤمن بالله تعالى حينما يرى عالماً عجيباً في شيء بالغ في الصغر، بحيث لا يرى بأدق الآلات. عالماً يستدعي التفكير والبحث أبد الآبدين: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝٢٧﴾ [لقمان: الآية ٢٧].

وأمَّا النشاط الإشعاعي فهو نشاط ينتج من اضطِّراب نواة الذرَّة بسبب اختلال النسبة التي أرادها الله تعالى أن تكون بين عدد النيوترونات وعدد الپروتونات حال الاستقرار.

وإنَّ هذا الاضطراب إنما ينتج بإدخال بعض الپروتونات أو النيوترونات في النواة؛ وذلك بأنَّ تواجه النواة بإدخال پروتونات جديدة أو نيوترونات جديدة فيها. فتختل النسبة التي كانت موجودة في النواة حالة الاستقرار بين الپروتونات، ولهذا السبب تضطرب النواة وتضطر إلى محاولة لإصدار نوع خاص من الإشعاعات المختلفة حتى تصل إلى حالة الاستقرار.

هذا هو أساس تحطيم الذرَّة وتفتيتها. وهذا هو الأساس لتبديل العناصر بعضها إلى بعض، وهذا هو أساس تحوُّل المادة إلى الطاقة.

فإنَّ الطاقة المتحرِّرة من كتلة: (ك) تساوي مربع سرعة الضوء في الكتلة أي أنَّ الطاقة أو (ط) ط = ك س. ٢

وبما أنَّ سرعة الضوء = ٣٠٠٠٠٠ كيلومتر في الثانية أي ٣٠٠٠٠٠كم/ ثانية:

إذاً: الطاقة المتحرِّرة عند تحطيم ذرَّة كتلتها (ك) من الغرامات، أي: ط = ك × ٣٠٠٠٠٠ × ٣٠٠٠٠٠ = ك × ٩٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠ = ٩ × ١٠^١٠ ك

فالمادَّة إذن صورة من صور الطاقة. وإنَّ الغرام الواحد من المادة يتحوَّل إلى ألف مليون مليون وحدة من وحدات الطاقة. ووحدة الطاقة تسمَّى بـ (إرك: Erg) أو أن الغرام الواحد من المادة يتحوَّل إلى ٢٥ مليون كيلووات/ ساعة من القوة الكهربائيَّة أي ما ثمنه نحو (٥٥٠) ألف دينار.

* * *

وقد علم ممَّا سبق أنَّ النظريَّة الماديَّة قد فندت من أساسها بعد تحوُّل المادة إلى

طاقات هائلة. فيحكم العقل بصورة فطريَّة: أنَّ الله تبارك وتعالى قد خلق طاقات هائلة في بادئ ذي بدء بقوله: (كُن)، ثمَّ أمرها أن تنكدس تحت ترتيب خاص ونظام دقيق فتكون بإذنه تعالى سُدما (جمع سديم)، فهذه العناصر، فالأجسام، فالمجرَّات، فالأجرام، فالشمس، فالكواكب، فالأقمار... إلخ..

يلاحظ أن العالم كله مشكل من نوعين من الكهربائيَّة، كهربائيَّة موجبة: (+)، وكهربائيَّة سالبة: (-). وأمَّا النيوترون الذي هو يجنب الپروتون في نواة الذرَّة فهو خليط من كهربائيَّة موجبة وسالبة متعادلة: ∓، إذن العالم مشكَّل من نوعين من الطاقات: كهربائيَّة موجبة: (+) وكهربائيَّة سالبة: (-) وواضح أنَّ السالب غير الموجب، كما أنَّ الأنثى غير الذكر. وهكذا نرى أنَّ الزوجة متأصِّلة بأمر الله حتى في أدق الأشياء. فالغاز الكوني: (الإيدروجين) وهو من أبسط العناصر مشكَّل من الكترون واحد (-) وپروتون واحد (+). وهذا يفسِّر قوله تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [الذاريَات: الآية ٤٩].

ونرى أنَّ القوى أو الطاقات التي تتألَّف منها العوالم هي بالمآل إما كهربائيَّة أو مغناطيسيَّة. فالكهربائيَّة أيضاً تحصل على مغناطيسيَّة وذلك بلف سلك حول قطعة من حديد وإمرار تيار كهربائي في هذا السلك. فتتمغنط قطعة الحديد ويحدث فيها قطبان، القطب الشمالي والقطب الجنوبي كقطعة من مغناطيس طبيعي. وبتدوير ملف من الأسلاك في مجال مغناطيسي (كما في الداينامو) نحصل على الكهرباء. (التيار الكهربائي). لذلك كان يقول: (آينشتاين): إنما العالم مجموعة قوى (كهربائيَّة ـ مغناطيسيَّة) أو (كهرطيسية). فأين المادة التي كان يتشدَّق بها لينين؟!

نحن نشاهد الزوجية حتى في القوى والطاقات، وفي الجن أيضاً، كل ذلك، لتبقى الوحدانية خاصَّة بالله تعالى لا يشاركه فيها أحد.

وإنَّ الزوجيَّة معروفة في النباتات، ذلك لأنَّ في الزهرة عضو التذكير (الأعضاء الذكريَّة) وعضو التأنيث (العضو الأنثوي). وبعد أن تنضج الأعضاء الذكريَّة والأنثويَّة في الزهرة، يحصل التلقيح وتبدأ الثمرة بالتكوُّن من الجزء الأنثوي.

وإن الزوجيَّة متجلية في الحيوانات وكذلك في الإنسان: إنه تعالى يقول: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يس: الآية ٣٦]. فالله تبارك وتعالى أخبرنا قبل ١٤ قرناً أنَّ هناك زوجيةً في ما لا نعلم من أشياء. وقد اكتشف حديثاً أن الزوجيَّة متأصِّلة بأمر من الله تعالى حتى في الذرَّة التي لا ترى بالعين.

ويقول تعالى أيضاً: ﴿فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ [الشورى: الآية ١١]. (يذرؤكم أي: يكثركم).

لذلك يقول (مونتني) الفيلسوف الفرنسي: إن أعظم دليل على وجود الله هو وجود المرأة (الأنثى) للرجل. فهل يعقل أن الرجل خلق لنفسه أنثى لإدامة النسل البشري؟

وإنَّ الله تعالى تحقيقاً للزوجيَّة وهذا الانجذاب الجنسي جعل تردد صوت المرأة (٢٢٠) في الثانية كما هو معروف في الفيزياء وجعل تردد صوت الرجل (١١٠) في الثانية، ليكون صوت المرأة أرقَّ وأجمل من صوت الرجل. فيتحقَّق الانجذاب الجنسي إدامةً للنسل البشري.

وبصورة عامَّة لا يكون التوالد وتوليد المثل إلا باختلاط وانضمام خليَّتين إحداهما ذكر وتسمى (اسپرماتوزوئيد) والأخرى أنثى وتسمَّى (أوول).

* * *

إنَّ دراسة الطائر المسمَّى بـ(اكسپكلوپ) وما يقوم به من عمل دقيق لإدامة نسله خير دليل على وجود الصانع وإيحاء الله تعالى الطائر الطريقة الناجحة لإبقاء النسل. ذلك لأنَّ هذا الطائر لا يرى نسله ويموت فور إلقائه البيض. كما أنَّ الأفراخ لا ترى وجه الأم. ذلك لأنَّ الأفراخ هي كالديدان بعد الخروج من البيض، لا تقوى على تهيئة غذائها والدفاع عن نفسها ودفع الطوارئ التي تهدِّد حياتها. وعليها أن تقضي سنة كاملة في مكان وادع رصين وأن يكون الغذاء بجنبها وفي متناولها. ولذلك، فإنَّ الأم حين شعورها بأنه قد قرب أوان بيضها تحصل حالاً على قطعة من خشب وتحدث فيها ثقباً عميقاً. ثم تقوم فتفتش عن غذاء (لأفراخها التي لا تراها بعد موتها) من الأوراق

والأوراد ما يكفي لسنة كاملة وتضع هذا الغذاء في منتهى الثقب وتضع فوق هذا الغذاء بيضةً واحدة وتبني عليها سقفاً محكماً من عجين الأخشاب ثم تذهب لتجمع غذاء لسنة كاملة أيضاً، فتأتي به وتضعه في الثقب على ذلك السقف وتضع عليها بيضة وتبني عليها سقفاً ثانياً، وهكذا تصنع عدَّة طبقات وكل طبقة فيها غذاء لسنة كاملة وفوقه بيضة وهي تموت بعد إتمام العمل فوراً ولا ترى أفراخها. لا تقع للأم هذه الحادثة إلا مرة واحدة طوال عمرها وفي فصل الربيع فقط.

حقاً، لولا الإلهام الإلهي لما قامت الأم التي تموت حالاً بعد البيض، (الأم التي لا ترى أفراخها) بهذه العملية لإدامة نسلها، فإن قلنا أنها تعلمت فكيف حدث هذا الحادث لأول مرة، دون تجربة سابقة.

ثمَّ إنَّ الله تعالى جعل شريكاً للإنسان وهو الجن، فالإنسان لا يُحشر وحده يوم القيامة وإنما يُحشر معه الجن أيضاً. يقول تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ﴾ [الأنعام: الآية ١٢٨]. وفي آية أخرى: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا﴾ [الأنعام: الآية ١٣٠] وقوله تعالى: ﴿قَالَ ٱدْخُلُوا۟ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِى ٱلنَّارِ ۖ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا﴾ [الأعراف: الآية ٣٨] وفي آية أخرى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ [الأعراف: الآية ١٧٩].. إلى ما هنالك من آيات أخرى، كلها تدل على أنَّ الجن محاسبون يوم القيامة كالإنس وكلاهما مكلَّفان في هذه الدنيا بتكاليف وبأوامر ونواهٍ. وإنَّ محمداً ﷺ قد بُعث للإنس والجن كافة: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الأحقاف: الآية ٢٩] وفي سورة الرحمن: ﴿فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾﴾، فهنا يخاطب الله تعالى الإنس والجن معاً.

* * *

وقد عُلم أنَّ الزوجيَّة تتحكَّم حتى في النجوم. فهناك تزاوج ظاهري في النجوم. ومع كثرة النجوم في هذه السماء الواسعة غاية الوسع فإنَّ الفواصل بين النجوم

فواصل هائلة وأبعاد شاسعة جداً. وإنَّ أقرب نجم إلى شمسنا هذه يبعد عنها ٢٦ مليون مليون ميل. إذن يحق لنا أن نقول: ما أفرغ هذه السماء وما أشد وحشة النجم الواحد في هذا الفراغ الهائل! ولكن شاء الله تعالى، أن يجعل الأشياء كلها حتى النجوم مزدوجة! تتحكَّم فيها الزوجيَّة ليكون التفرُّد والوحدانيَّة خاصة به تعالى ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ﴾ [الشّورى: الآية ١١].

فإذا نظرت إلى السماء بالمنظار لرأيت نقطتين مضيئتين مقتربتين في السماء أشدَّ الاقتراب. واحدة زرقاء والأخرى برتقاليَّة أو حمراء. إنهما نجمان يشد بعضهما بعضاً ويدور أحدهما على الآخر. أي ينجذب أحدهما من قبل الآخر تحقيقاً للتزاوج. ونحن حيثما وجَّهنا المنظار (التلسكوپ) إلى السماء وجدنا أزواجاً من النجوم. إنها أُلوف أُلوف. إنها الثنائيات النجميَّة، مداراتها اهليليجية ذات تفرطح عظيم. هذه هي هندسة الكون، مدارات اهليليجيَّة وكم من الصعب رسم منحنٍ اهليليجي في الفضاء ثم جعل النجوم تدور بموجبه دونما حيَد. إنها هندسة دقيقة تدل على عظمة واضعها وهو الله الواحد القهّار.

ومن أشهر هذه الأزواج (الشعرى اليمانية) وصاحبتها بل صاحبها فإذا نظرت إلى الشعرى اليمانية في فصل الشتاء في أوسط السماء، قرب كوكبة الجبار. لا ترى منها إلا نجماً واحداً لامعاً أشد اللَّمعان، وهكذا نرى الأزواج من الكواكب رأيَ العين شيئاً واحداً. حتى إذا وجَّهنا نحوها المناظير (التلسكوبات) القويَّة رأيناها نجمين أو عدَّة نجوم. وقد نظر إلى (الشعرى اليمانية) صانع مناظير، يجرب منظاراً قد صنعه، قطره (١٨) إنجاً، فرأى صاحبها أول مرة وقد كان ذلك عام ١٨٦٢م.

ويدرس العلماء (الشِعرى) وصاحبها، فيكشفان عن مدار اهليليجي لهما، شديد التفرطح، وهما يقطعانه في خمسين عاماً. والفرق بين حجميهما هائل. الشعرى أكبر من الشمس، وصاحبها قزم من أقزام النجوم أبيض أكبر من الأرض ٣ مرات أو أكثر، ولكنه شديد الكثافة، فإن كثافته تبلغ ٣٠٠٠٠ مرة مثل كثافة النجوم. فالوزن النوعي (للشعرى) يساوي عدة آلاف من الوزن النوعي للذهب الأبيض وهو من أثقل العناصر.

إن الله تعالى يعظم شأن نجمة (الشعرى) بقوله جلَّ من قائل: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ[1] ﴿٤٨﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ وَثَمُودَا فَمَآ أَبْقَىٰ ﴿٥١﴾﴾ [النجم: الآيات ٤٨/٥١].

وقد علم بأن نجمة (الشعرى) تبعد عنا ١٠ سنوات ضوئيَّة، أي حوالي مائة مليون مليون كيلومتر. على أنَّ هناك ملايين المجرَّات في كل منها بلايين من النجوم تبعد عنَّا آلاف الملايين من السنين الضوئيَّة. فما أعظم ما خلق الله من عوالم وما أكثرها وأوسعها.

فيحق للمسلم وكل عبد لم يذهب بعقله الفطري ما اجترحت يداه من آثام أن يستقبل القبلة بأذان أو إقامة قائلاً، ليلَ نهار: الله أكبر، الله أكبر والجاذبيَّة قد تجمع بين أكثر من نجمين. فالنجمة القطبيَّة هي في الحقيقة ثلاثة نجوم، وزوجان يدوران بعضهما حول بعض في نحو من ٤ أيام. وهما معاً يدوران حول نجم ثالث في أكثر من ٢٠ عاماً. ونحن لا نرى منهما في السماء إلا شيئاً واحداً.

ومجموعة أُخرى تتشكَّل من أربعة نجوم وهي ترى كنجمة واحدة، إنها (رأس التوأم المؤخَّر). وقد عرف أنه يتألَّف من زوج وزوج، ثنائيان اثنان في كل منهما. ككل ثنائي يدور أحد نجميه حول صاحبه، ودورة الثنائي الأول ٣ أيام، ودورة الثنائي الثاني ٩ أيام، إلا أنَّ الزوج الثاني يدور كذلك حول أخيه الزوج الثاني مرة في حدود ٣٠٠ عام.

وهكذا نرى أنَّ قوله تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [الذّاريَات: الآية ٤٩] متجلّ حتى في النجوم على بعدها وكثرتها... فـ«سبحان الله بارئ النسم[2]، سبحان الله المصوِّر، سبحان الله خالق الأزواج كلها، سبحان الله جاعل الظلمات والنور، سبحان الله فالق الحب والنوى، سبحان الله خالق كل شيء، سبحان الله خالق ما يرى وما لا يُرى، سبحان الله مداد كلماته، سبحان الله رب العالمين»[3].

* * *

---

(١) أقناه: أغناه وأعطاه ما يقتني، والقنية ما يؤثَّل من الأموال.

(٢) النسم: جمع النسمة: الإنسان أو كل دابة فيها روح.

(٣) تهذيب الأحكام: ج٣، ص١١٧، في دعاء أول يوم من شهر رمضان.

ونرى أنَّ الله تعالى قد أودع الزوجيَّة في (العناصر) أيضاً. فهناك نوعان من العناصر، النوع الأول هو هذه العناصر التي نراها في أرضنا هذه، كالإيدروجين والحديد والأورانيوم... إلخ. فكل ذرَّة منها مؤلَّفة من الكترونات سالبة تدور حول پروتونات موجبة في النواة.

ولكن عُلم أخيراً أنَّ هناك (پروتوناً سالباً) منطلقاً في الفضاء حول الكرة الأرضيَّة ومن شأنه إفناء جميع أنواع المادة التي تصطدم بها. كما اكتشف أخيراً (الإلكترون الموجَب) وهو الكترون يضاد الإلكترون الذي نعرفه في أرضنا. ففي الوجود نوعان مختلفان من العناصر تُبنى منهما النجوم والشموس والكواكب وسائر الأجسام. وإذا حدث أن التقى نوع منهما بالآخر أو تصادم معه تحدث عمليات إفناء ذريَّة تختفي معها معالم المادة من الوجود، بينما تنطلق طاقات هائلة منها تلك التي هي الأصل في ربط جسيمات قويات وذرات تلك المواد.

وإنَّ تحطيم بعض الذرَّات يؤدِّي إلى تحرير نيوترونات ذات سرعة كبيرة وإنَّ النيوترونات المتحرِّرة حين التحطيم النووي تستطيع تحطيم ذرَّات أخرى فينتج من هذا تفاعل متسلسل مستمر.

ولنرمز للنوع الأول من المادة ذات البروتونات الموجبة والإلكترونات السالبة بالحرف (م) مثلاً، ولنرمز للنوع الثاني من المادة المضادة للأولى، أي ذات الپروتونات السالبة والإلكترونات الموجبة بالحرف (س). فعندما يتصادم (پروتون موجب) مع (پروتون سالب)، أو عندما يتصادم (الكترون سالب) مع (الكترون موجب) يعدم أحدهما الآخر من عالم الوجود. بينما تنطلق الطاقة الكلية حسب الدستور الآتي:

الطاقة المنطلقة = الكتلة المادية المختفية × مربع سرعة الضوء. وهكذا نرى عندما تدخل ذرَّة من نوع المادة (م) إلى عالم المادة (س) أو بالعكس تفنى الإلكترونات أولاً، ثمَّ تفنى الپروتونات.

فاتضح مما ذكر أن الزوجية متأصِّلة بأمر الله تعالى في أصغر موجود في هذا الكون الرحيب وهو الذرَّة. ففيها الكترون (كهربائيَّة سالبة) وپروتون (كهربائيَّة موجبة).

حتى إنَّ المادة نفسها على نوعين أي أنَّ الزوجيَّة متأصِّلة فيها، فالبعض منها الكترونها سالب وپروتونها موجب كما في العناصر المكتشفة لحد الآن وعددها (١٠٢) تبدأ بالإيدروجين وتنتهي بـ(نوبليوم) (Nobelium) وفي (نوبليوم) ١٠٢ إلكترون (سالب) تدور حول ١٠٢ پروتون (موجب) وبجنب الپروتونات توجد (١٥٥) نيوتروناً ويرمز إليه هكذا: $^{257}_{102}$No . . . (٢٥٧ ـ ١٠٢= ١٥٥ نيوتروناً).

والبعض الآخر: الكترونها موجب وپروتونها سالب.

فسبحان من لا تبيد معالمه، سبحان من لا تنقص خزائنه، سبحان من لا اضمحلال لفخره، سبحان من لا ينفد ما عنده، سبحان من لا انقطاع لمدَّته، سبحان من لا يشارك أحداً في أمره، سبحان من لا إله غيره.

فيرى المتتبِّع في أحوال الكون أنَّ الله قد أودع الزوجية في كل شيء، كي يعتبر الإنسان بهذه الزوجيَّة ويعلم أنَّ الله لا يُشبه ما خلق من جماد ونبات وحيوان وإنسان وقوى وطاقات في شيء، هو الله الذي لا إله إلا هو.

ولنختم هذا المقال بهذه الآيات البيِّنات، ليَعلم أن لا متصرِّف في الكون إلا الله تعالى، وأن ليس هنالك إلاَّ خالق ومخلوق، والاعتقاد بوحدة الوجود أو وحدة الموجود بضاعة يونانية مُضلّة جاءت من فلسفة بشريَّة حالكة تتنافى مع عظمة الله وقدسيته.

﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [الواقعة: الآيتان ٥٨/ ٥٩]. ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [الواقعة: الآيتان ٦٣/ ٦٤]. ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ(١) أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [الواقعة: الآيتان ٦٨/ ٦٩]. ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ(٢) ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴿٧٢﴾﴾ [الواقعة: الآيتان ٧١/ ٧٢]. صدق الله العلي العظيم. . .

الكون الرحيب

إنَّ الله تعالى يأمرنا بأن نتتبَّع السماء والأرض وأن ننظر إلى ما خلق من عوالمَ

---

(١) المزن: السحاب.　　(٢) تورون: تقدحون.

شتى: من كواكب وشموس ومجرَّات وسُدم، وكيف تتكوَّن الأنجم وكيف تبيد. وذلك بقوله جلّ من قائل: ﴿أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۚ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ﴾ [سَبَإ: الآية ٩] . . .

﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عِمرَان: الآية ١٩١] .

﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾﴾ [الغَاشية: الآيات ٧/ ٢٠].

إنَّ الله تبارك وتعالى يريد منا أن نتوغَّل في عوالم السماء وما خلق من عوالم أخرى، لكي نزداد يقيناً به تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ۖ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُم بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾﴾ [الرّعد: الآية ٢] .

حقاً: إن علم الفلك اللاسلكي والميكانيك الرياضي فتحا على الإنسان أبواب المعرفة بالنسبة إلى ما لا يتناهى من شموس ومجرَّات وسُدم ونيازك. إلى ما هنالك من عوالم تدهش الألباب.

فإن التلسكوب اللاسلكي يلتقط إشارات عن مسافة قدرها ثمانية آلاف مليون سنة ضوئيَّة. والسنة الضوئيَّة هي المسافة التي يقطعها الضوء (بسرعة ٣٠٠٠٠٠ كيلومتر في الثانية) خلال سنة كاملة، أي هي المسافة التي طولها ٩٤٦٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠ كيلومتراً، أو ٥٨٧٩٠٠٠٠٠٠٠٠ ميلاً.

فإنَّ القمر لا يبعد عنا إلا بقدر ثانية وثلث الثانية من السنة الضوئيَّة، والشمس تبعد عنَّا ٨ دقائق و٢٠ ثانية من السنة الضوئيَّة. والشمس خلال هذه المدة (أي ٨ دقائق و٢٠ ثانية) وهي المدة التي يجب أن تنقضي لوصول شعاعها إلينا تقطع في الفضاء في سيرها الطبيعي المقرَّر من جانب الله تعالى، خمسة ملايين كيلومتراً، مع العلم أنَّ الضوء يسير من أقصى الأرض إلى أقصاها خلال ١/ ١٤ من الثانية.

وإنَّ أقرب نجمة منا وهي (پروكسيما) الواقعة تقريباً بحذاء القطب الجنوبي من أرضنا تبعد عنا ٤ سنوات من السنين الضوئيَّة.

ونجمة (جَدي) وهي التي تحاذي القطب الشمالي من أرضنا على وجه التقريب تبعد عنا (٥٠) سنة ضوئيَّة ونجمة (عيوق) تبعد عنَّا تسعين سنة ضوئيَّة ونجمة (ثريا) تبعد عنا ١٤٠ سنة ضوئيَّة.

وإنَّ قطر المجرَّة التي تعلونا عندما ننظر إلى السماء (وكأنَّها سحابة) يعادل ما يقطعه الضوء بسرعته الفائقة خلال (٨٠,٠٠٠) سنة ضوئيَّة. وإذا أردنا أن نسير من رأس هذه المجرَّة التي هي فوق رؤوسنا (تقريباً) إلى منتهاها علينا أن نقطع مسافة يقطعها الضوء بسرعتها الهائلة خلال (٢٠٠,٠٠٠) سنة ضوئيَّة.

إنه تعالى يقسم بـ(الطارق) بقوله: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ۝١﴾ [الطارق: الآية ١]، ويُراد بها نجمة زحل.

ويقول تعالى في آية أخرى: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ ۝٤٩﴾ [النّجم: الآية ٤٩] . . . وهي نجمة مضيئة تبعد عنا ١٠ سنوات من السنين الضوئيَّة على وجه التقريب. والوزن النوعي لهذه النجمة (الشعرى) أكبر من الوزن النوعي للذهب الأبيض عدة آلاف مرة ومعلوم أنَّ الذهب الأبيض عنصر ثقيل جداً. ولنجمة (الشعرى) قمر خاص بها يدور حولها خلال خمسين سنة.

* * *

تختلف النجوم حسب درجات الحرارة، فمنها الأحمر الداكن ومنها الأحمر القاني ومنها البنفسجي والأصفر والأبيض وتتدرَّج من الداكن إلى الضعيف وتتراوح درجاتها الحرارية من ١٤٠٠°م (درجة مئويَّة) إلى ٣٩٠٠°م.

وقد قيس وزن النجوم بالنسبة لشمسنا هذه ولم يعثر على نجمة وزنها أقل من $\frac{١}{١٠}$ من وزن الشمس. وهناك نجوم وزنها ١٤٠ مرة بقدر وزن الشمس ولها حركاتها وقوانينها ومعادلاتها.

وقد علم أنَّ سرعة الأمواج اللاسلكيَّة تعادل سرعة الضوء تماماً. ولأجل أن نعلم مقدار معدَّل سرعة أقرب نجمة من هذه النجوم نقول: إن سارت الطائرة النفاثة دونما توقف مدة (٦) ملايين من السنين لها أن تصل إلى أقرب نجمة من كرتنا الأرضيَّة.

وإذا نظرنا إلى السماء وتأمَّلنا إحدى هذه النجوم القريبة، يجب أن نعلم أنَّ الذي

نراه في الواقع ليس إلا صورة متخلِّفة لما كان عليه هذا النجم منذ أربع سنوات. وإذا أردت أن تشاهد حفلة زواج والدك قبل ثلاثين سنة (مثلاً) عليك أن تركب صاروخاً سبق سرعة الضوء[١] فينقلك إلى نجمة (النسر الواقع) لتشاهد هنالك حفلة زواج والدك وبعد سنة كيفية ولادتك أنت.

* * *

إنَّ شمسنا هذه ما هي إلاَّ نجم متوسِّط الحجم من نجوم مجرَّة (درب التبَّانة) التي يبلغ عددها مائة ألف مليون نجم تقريباً. وشمسنا هذه غير واقعة في منتصف المجرَّة وليست بمركز، ولكنها واقعة قرب الطرف في موقع مدحور ليس من العظمة في شيء.

ويوجد في هذا الكون الواسع الرحيب من المجرات بعدد النجوم الموجودة في مجرَّتنا (درب التبانة). فإذن ما هي قيمة هذا الإنسان بالنسبة لما خلق الله من عوالم لا تتناهى ولا تحد؟ لاسيَّما بعد أن عرفنا أنَّ أرضنا هي هباءة بسيطة في حافَّة إحدى المجرَّات الكثيرة العدد التي لا تعد ولا تحصى. فليدع الإنسان عنه هذا الغرور وليتوجَّه إلى عبادة ربه وتقديسه وتسبيحه، إنه تعالى يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾﴾ [الأحزاب: الآيتان ٤١/ ٤٢]. ﴿وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ قَبۡلَ طُلُوعِ ٱلشَّمۡسِ وَقَبۡلَ ٱلۡغُرُوبِ ﴿٣٩﴾ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ وَأَدۡبَٰرَ ٱلسُّجُودِ ﴿٤٠﴾﴾ [ق: الآيتان ٣٩/ ٤٠].

يقول أحد الماديِّين: «إني طفت بالصاروخ حول الأرض سبع مرات فلم أرَ الله».

فأجابه الموحِّد قائلاً: ليس الله من الصغر بحيث تراه أنت...

حقاً، أنى للمتناهي والمحدود أن يحيط بالله الذي لا يحدُّه شيء ولا يحيط به شيء.

يقول الإمام علي عليه السلام في وصف الله تعالى: «الأول الذي لم يكن له قبل فيكون شيء قبله، والآخر الذي ليس له بعد فيكون شيء بعده، والرادع أناسي الأبصار عن أن تناله أو تدركه».

وإنَّ أعلم علماء القرن العشرين في الفيزياء وأعني به (آينشتاين) يقول: «يجب أن نتعرف إلى ألفباء عالم الوجود»!.

---

(١) وهذا محال، إذ ليس هناك شيء أسرع من الضوء حسب النظريَّة النسبيَّة لـ(البرت آينشتاين).

ويقول في مقام آخر: «ليس من المعقول أن يقال: يمكن التعرف إلى العالم كله».

وكان يقول پاسكال (Blaise Pascal) قبل حوالي ٣٤٠ سنة: «ما هو هذا الإنسان في هذه الطبيعة؟ إنه عدم «تجاه اللانهاية» قد قال هذا القول في يوم لم يكن قد اتسعت آفاق العلم هذا الاتساع الذي نلمسه اليوم، إنه اتساع علمي موضوعي محيّر للعقول، فما الذي يجب أن نقوله اليوم؟

إنَّ ما عثر عليه العلم الحديث من النجوم هو بمقدار من الكثرة بحيث يفوق عدد حروف نصف مليون كتاب في مكتبة ما. ولو كنا نعد النجوم كلها بسرعة ١٥٠٠ نجم في الدقيقة لاستغرق عدنا ٧٠٠ سنة. أما الأرض فهي أقل كثيراً جداً من نقطة على حرف في مكتبة تضم نصف مليون من الكتب من الحجم المتوسِّط. أو على الأصح يجب أن نشبهها بهباءة من التراب بين صفحتين في أي كتاب من كتب هذه المكتبة.

* * *

يبلغ حجم الواحدة من معظم الكواكب التي اكتشفت لحد الآن قدر حجم الأرض آلاف المرات في بعضها وملايين المرات في البعض الآخر وملايين الملايين في أكثرها. وأن من النجوم أكثرية مطلقة يبلغ حجم الواحدة منها حجم عدة ملايين من الأرض وما يزال يتسع لملايين.

* * *

إن هذه النجوم على كثرتها لا تصطدم بعضها بالآخر وهي سائرة في أفلاكها ومنحنياتها. وإذا شبهنا النجوم بالسفن في المحيطات (كالمحيط الهادي) فإن بعضها يبعد عن البعض الآخر ما يزيد على مليون من الأميال.

وفي سنة ١٠٠٠ الميلاديَّة اقتربت نجمة من المذنَّبات من الأرض وأيقن الناس أنها ستصطدم بالأرض لا محالة، وتكون نهاية العالم ويحلّ اليوم الموعود أيْ يوم القيامة. فاتَّجه الناس إلى الكنائس تائبة من ذنوبها وآثامها.

ولكن مرَّت النجمة ذات الذنب بالقرب من الأرض دون أي اصطدام!

ومجرَّة (درب التبّانة) التي شمسنا هذه إحدى نجومها منطلقة في الفضاء كباقي

المجرّات وتتباعد عن أخواتها. وتختلف سرعة تباعد المجرات عنا ما بين (٦٠٠ - ٤٠٠٠) ميل في الثانية. وإذا وصلنا إلى هذه المرحلة فمن الصعب أن نقول فيما إذا كانت المجرات الأخرى هي تهرب منا وتتباعد بهذه السرعة أو نحن نتباعد ونهرب منها بالسرعة نفسها أو أن كلانا هارب من الآخر بنصف السرعة المذكورة. إننا هنا لا نستطيع أن نتكلَّم عن سرعات كهذه إلاّ بمفاهيم (النسبيَّة). وهكذا نرى أنَّ هذا الكون آخذ في الاتساع اتساعاً هائلاً حسب قوله تعالى:

﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [الذّاريات: الآية ٤٧].

* * *

ليس هناك شيء ثابت أو ساكن في هذا الكون، فكل ما في الكون متحرِّك إما بحركة واحدة أو حركات متعددة. وهذا ما حدا بـ(آينشتاين) أن يؤسِّس معادلات النظريَّة النسبيَّة.

فإنَّ الإنسان يتحرَّك مع سطح الأرض حين تدور الأرض حول نفسها وسرعة الإنسان وهو على سطح الأرض باتجاه دوران الأرض، ربع الميل في الثانية، أو (٩٠٠) ميل في الساعة إذا كان هذا الإنسان على خط الاستواء. وسرعته تكون أقل كلما قارب القطبين.

والإنسان يتحرَّك مع هذه الأرض نفسها في دورتها السنويَّة حول الشمس. والأرض تسير في حركتها هذه بسرعة ١٨,٥ ميلاً في الثانية أو ٣٠كم/ ثانية. والشمس وكواكبها سائرة بالنسبة إلى جاراتها من النجوم نحو نقطة ما بين مجموعة (هرقل: Hercules) ومجموعة القيثار: Lyra بسرعة ١٢ ميلاً في الثانية، ويراد بالجارات هنا، النجوم التي تبعد عنا بضع مئات من السنين الضوئيَّة.

وأما الشمس فهي إحدى نجوم مجرَّة (درب التبانة)، وهذه المجرَّة كالمجرَّات الأخرى تدور حول نفسها بسرعة هائلة، وشمسنا تدور بها طبعاً وسرعتها في هذا الاتجاه ١٢٠ ميلاً في الثانية، أي (٤٣٢٠٠٠ ميل/ ساعة).

وهكذا نشاهد هذه الحركات المنظَّمة وفق دساتير معيَّنة ومعادلات رصينة في

الأجرام السماوية بحكمة إلهية عالية لذلك يقول الفلكي الكبير (فاي): «من الخطأ أن نقول: بأن العلم يفضي بصاحبه إلى نكران وجود الله».

ذلك لأنَّ نكران وجود الله تعالى إنما هو نتيجة الفسوق والفجور على حد قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓاْ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [يُونس: الآية ٣٣]. وفي آية أخرى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٧﴾﴾ [يُونس: الآية ١٧].

فالإسلام يضاد الإجرام وهو القائل: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [القَلم: الآيتان ٣٥/ ٣٦].

يقول (پاستور): «لا تنافي بين العلم والإيمان، وكلما زاد علم الإنسان زاد إيمانه بالله». وإني أضيف إلى كلمة (پاستور) قائلاً: شريطة أن لا تتلوث النفس بفسوقها ومجونها وآثامها وبغيها وظلمها.

يقول الدكتور (وتز Wetz) الكيميائي وهو عضو أكاديميَّة العلوم وعميد كليَّة الطب: «إذا أحسست في حين من الأحيان أن عقيدتي بالله تزعزعت وجهت وجهي إلى أكاديمية العلوم لتثبيتها».

وكذلك يقول الجيولوجي الذائع الصيت: (ادموند هربرت) المدرس بجامعة (السوربون): «العلم لا يمكن أن يؤدِّي إلى الكفر ولا إلى الماديَّة ولا يفضي إلى التشكيك».

وقد قال العلامة في التاريخ الطبيعي (فاير): «كل عهد له أهواء جنونيَّة، فإنِّي أعتبر الكفر بالله من الأهواء الجنونيَّة وهو مرض العهد الحالي؛ وأيسر عندي أن ينزعوا جلدي من أن ينزعوا مني عقيدتي بالله».

لذلك جاء في إحصاءٍ أن بين (٢٩٠) فيلسوفاً، ٩١٪ منهم مؤمنون و٥٪ منهم لا أدريون و٤٪ منهم ملاحدة!؟

انظروا إلى كلمة نابغة القرن العشرين، آينشتاين حين يقول معترفاً بالوحي أنه يقول: «العلم يخبرنا عما هو كائن إلا أنَّ الوحي وحده هو الذي يخبرنا بما ينبغي أن يكون».

فالعلم لا ينافي الإيمان بحال وإنما يؤيِّده ويقوِّيه ما لم تتلوَّث النفس بما حرم الله وما دامت هذه النفس قائمة بالتزكية والتطهير والإنابة والاستغفار.

وقد يصل الرجل الأمي بمشاهدة سطحية لما أودع الله من عظيم الصنع في هذا الكون الرحيب إلى إيمان رصين قلَّ ما يصل إليه عالم بالحشرات أو الجراثيم، وذلك لقيامه بتزكية نفسه وتصفيتها عن الأدران ورده إلى الناس ما لهم عليه من حقوق ولتخلقه بالأخلاق الفاضلة وصلته رحمه وقيامه بقضاء حوائج الناس. يقول الله تبارك وتعالى في وصفهم: ﴿كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ۝١٧ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ۝١٨ وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ۝١٩ وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ۝٢٠ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذّاريات: الآيات ١٧/ ٢١].

فدين الإسلام دين إحياء القلوب بتعاليمه ودساتيره التي جاءت من قبل خالق النفوس وموجدها: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: الآية ١٢٢].

حالات النفس مع اللّٰه تعالى

حقاً، إنَّ للنفس الإنسانيَّة غذاءاً خاصاً بها تتناسب مع تجرُّدها وبعدها عن الماديَّة الحالكة. وهذا الغذاء روحي بحت ليس من نوع المآكل والمشارب وليس من متع الدنيا في شيء. إنه غذاء فيه تكامل النفس وبلوغها أسمى مراتب القرب إلى الله تعالى، وهو غاية الغايات من وجودنا في هذه الدنيا الموقَّتة الناقصة في جميع مراحلها الفرديَّة والاجتماعيَّة، وذلك لنيل حياة أبديَّة كاملة في جميع مراحلها الاجتماعيَّة والفرديَّة، ألا وهي الخلود في جنة ﴿عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عِمرَان: الآية ١٣٣].

إن هذا الغذاء روحي بحت لا مجال فيه للشهوات والنزوات وكل ما يفسد النفس مما حرم الله تعالى على لسان نبيه محمد ﷺ. فلا تضاهيه أنواع الموسيقى ومجالس الأنس، وليس من نوعه أوركسترا وما يترنَّم فيه من مزمار وعود وطنبور. إنه عروج إلى السماوات العلى، إلى عوالم القدس إنه ارتقاء نفسي عن حضيض المادة العمياء إلى حيث الصفاء المحض، إلى حيث الطمأنينة الكاملة: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرّعد: الآية ٢٨].

فطوبى لنفوس وفقت أن تخلو بخالقها، وتناجي بكل خشوع وخضوع ربها، معترفة بذنوبها، مستغفرة من آثامها، نادمة على ما كان منها من بغي وظلم، باكية على خطاياها، راجية رحمة بارئها: ﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩ ﴿١٠٩﴾﴾ [الإسراء: الآية ١٠٩] تالية لأجزاء القرآن: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَٰنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ [مريم: الآية ٥٨].

وقد قال الإمام علي عليه السلام في وصفهم: «أما الليل فصافون أقدامهم تالين لأجزاء القرآن، يرتّلونها ترتيلاً، يحزنون به أنفسهم، ويستثيرون به دواء دائهم، فإذا مروا بآية فيها تشويق ركنوا إليها طمعاً، وتطلّعت نفوسهم إليها شوقاً، وظنوا أنها نصب أعينهم، وإذا مرُّوا بآية فيها تخويف أصغوا إليها مسامع قلوبهم، وظنوا أنَّ زفير جهنَّم وشهيقها في أصول آذانهم، فهم حانون على أوساطهم، مفترشون لجباههم وأكفهم وركبهم وأطراف أقدامهم، يطلبون إلى الله في فكاك رقابهم، وأما النهار فحلماء علماء أبرار أتقياء...»[1].

فإنك لو قمت جوف الليل، والناس نيام، وقلت كما كان يقول رسول الله صلى الله عليه وآله: «الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور» واستقبلت القبلة وصلّيت ركعات، محاسباً نفسك محاسبة دقيقة، «زنوا أنفسكم قبل أن توزنوا وحاسبوها قبل أن تحاسبوا»[2] وعددت ذنوبك وخطاياك وتوجَّهت بكلك إلى الله الرحيم المتعال، لشعرت إذ ذاك بروحانية فائقة تفوق أعظم ما في الحياة المادية من ملاذ وشهوات ولأحسست بعروج نفسك هذه إلى عوالم القدس، حيث الراحة المطلقة والدعة المتناهية والفرح الكثير وارتياح لا يضاهي ما نحن فيه من ارتياح مادي بحال، وصرت ترى أنك تخف ساعة بعد ساعة عما أثقل كاهلك من ذنوب ذهبت لذاتها وأقامت تبعاتها. وإنك لترى جلياً في ذلك الوقت، حيث يسود العالم صمت وهدوء كيف يُقذف في قلبك من أنوار المعارف الإلهيَّة ما يزيل عنك الشكوك ووساوس الشيطان، أنوار توصلك إلى اليقين بل إلى حق اليقين: فـ(العلم نور يُقذفه الله في قلب من يشاء) كما جاء في حديث مشهور عن الإمام الصادق عليه السلام.

وإنك لو تلوت القرآن في وقت كهذا، في وقت هجعت فيه العيون في وقت فتح

---

(١) نهج البلاغة: ص٣٠٣، خطبة المتقين.
(٢) من كلام الإمام علي عليه السلام.

الله على العباد أبواب رحمته، لألهمت معاني سامية رفيعة، ما كنت لتتوصَّل إليها في غير هذا الوقت ولأحطت بفلسفة هذا الكون والحياة، فلسفة لا يصل إليها فيلسوف عاش في أحضان المادية الهوجاء، فلسفة نيِّرة شرحها الله تعالى في كتاب ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾ [فُصِّلَت: الآية ٤٢] . بقوله جلَّ من قـائـل: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾﴾ [الزُّمَر: الآية ٩] .

فهذا العلم هو علم يترشَّح بإذن الله من نفس قد خضعت لربِّها وتجرَّدت عن أدرانها، هذا العلم علم اليقين بالله وملائكته وكتبه ورسله، إنه العلم بالحقيقة التي يبحث عنها الإنسان منذ آلاف السنين، هذا العلم هو معرفة النفس، ومعرفة النفس طريق إلى معرفة الله تعالى. فقد سألوا رسول الله ﷺ كيف الطريق إلى معرفة الرب. فقال ﷺ: «معرفة النفس» وعن الإمام الصادق عليه السلام: «لو علم الناس ما في فضل معرفة الله ما مدوا أعينهم إلى ما متع الله به الأعداء من زهرة الحياة الدنيا ونعيمها وكانت دنياهم أقل عندهم مما يطأونه بأرجلهم. فليتنعموا بمعرفة الله تعالى وليتلذَّذوا بها تلذُّذ من لم يزل في روضات الجنات مع أولياء الله. إنَّ معرفة الله آنس من كل وحشة وصاحب من كل وحدة ونور من كل ظلمة وقوة من كل ضعف وشفاء من كل سقم»(١) .

إنَّ موضوع معرفة الله تبارك وتعالى وحالات النفس مع الله جلَّ جلاله لموضوع هام خطير لا يمكن أن يعبِّر عنه تعبيراً يجلو غوره وحقيقته ما لم يدخل الإنسان نفسه في هذه الحياة الروحيَّة الرفيعة. ولعلَّه يشبه من يريد أن يتصوَّر للأشياء المادية بُعداً رابعاً وهو الزمان، وهو بعد لم يقطع شوطاً في الرياضيات العالية والنظريَّة النسبية، فإن لغة الكلام لا تصلح أبداً لأن تجول في مثل هذه الأمور. وإن موضوعاً عميقاً كهذا فوق متناولها، ولا يمكن للكلمات المشحونة بالصور الحسيَّة أن تعبِّر عمَّا يعلو على الحس ويسمو إلى التجريد المحض.

* * *

---

(١) الكافي: ج٨، ص٢٤٧، حديث القباب.

﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ [الحديد: الآية ١٦] .

وكفى بما في القيام جوف الليل والمثول بين يدي رب العباد من تأثير قوي في سير الإنسان التكاملي أمرُ الله تبارك وتعالى نبيه الكريمﷺ بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ۝٤ إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝٥ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا ۝٦﴾ [المُزمل: الآيات ١/٦].

وقوله جلَّ من قائل إلى الرسول الأمينﷺ: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ [الإسراء: الآية ٧٩] . فمن توخّى مقاماً محموداً فليتأس بنبي الرحمة محمدﷺ. وهكذا يمتدح الله تعالى المستغفرين بالأسحار بقوله: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ۝١٥ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ ۚ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ۝١٦ كَانُواْ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ۝١٧ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ۝١٨ وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ﴾ [الذّاريات: الآيات ١٥/١٩].

وبقوله: ﴿تَتَجَافَىٰ[1] جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [السَّجدَة: الآية ١٦] ، وبقوله: ﴿ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ﴾ [آل عِمرَان: الآية ١٧] .

* * *

وقد يستغرب البعض من ذكري صلاة الليل في ظرف لا يصلّى فيه الفرائض كثير من الشبّان المثقّفين. ولكن هذا الشاب المصلّي لو لم يكن له رادع في أوساط أوروبا وأمريكا عن الولوج في الشهوات لترك الصلاة شيئاً فشيئاً وضعف إيمانه بصورة تدريجية ولعلَّه يصبح بعد قليل من المستهزئين بالمقدّسات. ولكن لو تسلح بسلاح يمنعه عن الولوج في المحرّمات وهو القيام جوف الليل يتضرّع بين يدي رب العباد لا تؤثر فيه الخلاعة وفسوق الفاسقين، فيرجع إلى وطنه ثابت العقيدة، متمسّكاً بالمبدأ الإسلامي القويم ذلك لأنَّ قوة (الإيمان) تتناسب مع درجة ضبط النفس عن المحارم. وقال عليعليه السلام «وأشجع الناس من غلب هواه»[2]. وأن الإيمان ليزول وترد على الإنسان الشبهات بقدر ولوجه في المحارم. ﴿كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓاْ أَنَّهُمْ

---

(١) تتجافى: ترتفع.

(٢) من لا يحضره الفقيه: ج٤، ح٥٨٤٠.

لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ [يونس: الآية ٣٣] . يقول الإمام علي عليه السلام: «من قارف ذنباً فارقه عقل لم يعد إليه أبداً». وعن رسول الله صلى الله عليه وآله: «اتقوا فتنة الدنيا وفتنة النساء، فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت من قبل النساء».

وروي أنَّ الشيطان قال لموسى عليه السلام: «لا تخل بامرأة لا تحل لك، فإنه ما خلا رجل بامرأة لا تحل له إلا كنت صاحبه دون أصحابي حتى أفتنه بها»[1].

وعن رسول الله صلى الله عليه وآله: «لكل عضو من أعضاء بني آدم حظ من الزنا فالعينان تزنيان وزناهما النظر»، وقال أيضاً: «لا تدخلوا على المغيبات التي غاب عنها زوجها، فإن الشيطان يجري من أحدكم مجرى الدم». وقال عيسى عليه السلام: «إياكم والنظرة، فإنها تزرع في القلب شهوة، وكفى بها فتنة» وفي حديث نبوي: «المقيم على الزنا كعابد وثن». وفي حديث آخر: «إذا زنى الرجل خرج منه الإيمان، فكان عليه كالظلة، فإذا أقلع رجع إليه الإيمان»[2].

نعم قد أصبحنا في زمان لا يستطيع الشاب أن يبقى محتفظاً بتقواه إلا بعصمة من الله تعالى. وما من شيء يعصم الشاب من الانزلاق في بيئات يكثر فيها الفحشاء صباحاً ومساءاً وفي كل حين في شوارعها وأسواقها وغاباتها وعلى ضفاف الأنهار وسواحل البحار ويشجع المنكر في كثير من كتبها ومجلاتها وجرائدها ومناظرها وحدائقها العامة إلا المواظبة على صلاة الليل. ففي حياة الحيوان للدميري، عن الرسول صلى الله عليه وآله: «يأتي على أمّتي زمان يردُّون المساجد على المياثر[3] نساؤهم كاسيات عاريات. رؤوسهنَّ كأسنمة الإبل البخت، إلعنوهن فإنهن ملعونات»[4].

وفي حديث آخر عن الإمام علي عليه السلام: «يظهر في آخر الزمان واقتراب الساعة وهو شر الأزمنة نسوة كاشفات عاريات متبرِّجات، من الدين خارجات، داخلات في

(١) قصص الأنبياء، للراوندي: ص١٥٣.
(٢) بحار الأنوار: ج٦٦، ص١٢٢.
(٣) جمع الميثرة: شيء كالمرفقة أو المخدة يجعل على السرج.
(٤) حياة الحيوان: ج١، باب الإنسان.

الفتن، مائلات إلى الشهوات، مسرعات إلى اللذات، مستحلات للمحرَّمات، في جهنم خالدات»[١].

وقد شكا لي شاب جامعي قبل حوالي أربعين عاماً، أنه ابتلى بكبيرة من الكبائر، ولا يقوى على التخلي منها وقد أثرت في صحته كثيراً. فقلت له عليك بصلاة الليل. فسألني عن كيفيتها. فقلت له: إنها بسيطة جداً إنما هي إحدى عشر ركعة، تصلى بعد منتصف الليل. وكلما كان قريباً من السحر كان أفضل. وللشاب أن يصلِّيها قبل المنام إذا علم أنه لا يقوى على النهوض قبيل الفجر. وله أن يقضيها في النهار إذا لم يوفق لأدائها في الليل. ففي ذلك الأجر الكثير. وهذه الصلاة تؤثِّر كثيراً في كف النفس عن المحرَّمات وفي جلب الرزق. وكان رسول الله ﷺ مأموراً بأدائها طيلة حياته.

ينوي: أُصلي ركعتي النافلة قربة إلى الله تعالى. يصلِّيها كصلاة الصبح وهكذا أربع مرات. فيكون قد صلى ٨ ركعات (وله أن لا يقرأ السورة إذا شاء).

ثمَّ ينوي، فيقول: أصلِّي ركعتي الشفع قربة إلى الله تعالى.

ثمَّ ينوي، فيقول: أصلِّي ركعة الوتر قربة إلى الله تعالى. فإذا رفع يده للقنوت قال في قنوته: ٧٠ مرة: أستغفر الله ربي وأتوب إليه. ويستحب أن يقول ٧ مرَّات: هذا مقام العائذ بك من النار وأن يستغفر لأربعين مؤمناً. وأن يقول بعد ذلك ٣٠٠ مرَّة العفو العفو. وأن يقول بعد ذلك: ربِّ اغفر لي وارحمني وتب عليَّ، إنك أنت التواب الغفور الرحيم؛ ويستحب أن يقول في قنوته أيضاً: «رب أسأت وظلمت نفسي وبئس ما صنعت، وهذه يداي يا رب جزاءاً بما كسبت وهذه رقبتي خاضعة لما أتيت، وها أنا ذا بين يديك، فخذ لنفسك من نفسي الرضا حتى ترضى، لك العتبى، لا أعود»[٢].

فجاءني الشاب الجامعي بعد أسبوع قائلاً: رأيت شيئاً عجيباً، فقلت له: وما الذي رأيت؟

قال: رأيت كأنَّ قوة سحرية عجيبة تمنعني عن ارتكاب المحرَّم. فلم أرتكبه!

ثمَّ جاءني بعد شهر وشكرني على تعليمي إياه صلاة الليل. وهكذا صلحت سريرته

---

(١) من لا يحضره الفقيه: ج٣، ح٤٣٧٤.

(٢) من لا يحضره الفقيه: ج١، ح١٤١٠.

وتقدَّمت صحَّته ونجح في الامتحانات الجامعيَّة.

* * *

فصلاة الليل تنير القلب وتبعد الشيطان وتقوِّي الإيمان. فقد سئل الإمام علي بن الحسين عليه السلام: ما بال المتهجِّدين بالليل من أحسن الناس وجهاً. قال: «إنهم خلوا بربهم، فكساهم من نوره»(١).

وعن أبي عبدالله عليه السلام: «صلاة الليل تحسن الوجه وتحسن الخلق وتطيب الريح وتدر الرزق وتقضي الدين وتذهب الهم وتجلو البصر»(٢) وفي مجمع البيان عن النبي صلى الله عليه وآله: قال: «إذا أيقظ الرجل أهله وصليا من الليل، كتبا من الذاكرين الله كثيراً والذاكرات»(٣).

وعن الإمام علي عليه السلام: «صلاة الليل مصحة للبدن ومرضاة للرب عزَّ وجلَّ وتعرَّض للرحمة وتمسك بأخلاق النبيِّين»(٤).

وقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «ما اتخذ الله إبراهيم عليه السلام خليلاً إلاَّ بإطعامه الطعام والصلاة بالليل والناس نيام»(٥).

وعن الإمام الصادق عليه السلام: «إن العبد إذا تخلَّى بسيِّده في جوف الليل المظلم وناجاه أثبت الله النور في قلبه، فإذا قال: يا رب يا رب. ناداه الجليل جلَّ جلاله: لبَّيك عبدي، سلني، أعطك، توكَّل عليّ أكفك..». ثم يقول جلَّ جلاله لملائكته: «انظروا إلى عبدي، فقد تخلَّى بي في جوف هذا الليل المظلم والبطالون لاهون والغافلون نيام، أشهدوا أني قد غفرت له»(٦).

وعن الإمام الصادق عليه السلام: «إنَّ من روح الله ثلاثة: التهجد بالليل وإفطار الصائم ولقاء الإخوان»(٧).

---

(١) عدة الداعي: ص٢٠٧.
(٢) بحار الأنوار: ج٥٩، ص٢٦٨، باب ٨٨، ح٥٠.
(٣) بحار الأنوار: ج٨٤، ص١٥٨، باب٦، ح٤٤ نقلاً عن مجمع البيان للطبرسي.
(٤) بحار الأنوار: ج٨٤، ص١٤٤، باب٦.
(٥) وسائل الشيعة: ج٨، ص١٥٦، باب ٣٩.
(٦) أمالي الصدوق: ص٢٧٩، مجلس٤٧، ح٩.
(٧) من لا يحضره الفقيه: ج١، ح١٣٦١.

وقد ورد أدعية عدَّة عن الأئمَّة عليهم السلام يناجي بها العبد ربه، مسطورة في كتب الأدعية. منها مناجاة التائبين لمولانا وإمامنا علي بن الحسين عليه السلام وكذلك مناجاة الشاكين ومناجاة الخائفين ومناجاة الراجين ومناجاة الراغبين ومناجاة الشاكرين ومناجاة المطيعين ومناجاة العارفين(١) ومناجاة الذاكرين ومناجاة المعتصمين ومناجاة الزاهدين ومناجاة المريدين ومناجاة المتوسِّلين ومناجاة المفتقرين. فطوبى لمن وفق أن يناجي بها ربه ليرى كيف يتقرَّب إلى الله تعالى وذلك الفرح النفسي وتلك الحالات القدسيَّة التي تجلُّ عن الوصف والتعريف.

يقول الإمام علي بن الحسين عليه السلام في مناجاة المخبتين: «إلهي من ذا الذي ذاق حلاوة محبَّتك فرام منك بدلا، ومن ذا الذي أنس بقربك فابتغى عنك حولا». إلى أن يقول: «اللهم اجعلنا ممن دأبهم الارتياح إليك والحنين ودهرهم الزفرة والأنين، جباههم ساجدة لعظمتك وعيونهم ساهرة في خدمتك ودموعهم سائلة من خشيتك وقلوبهم متعلِّقة بمحبَّتك...»(٢).

وانظروا كيف يخاطب الإمام علي عليه السلام ربّه: «إلهي، كفى بي عزاً أن أكون لك عبداً وكفى بي فخراً أن تكون لي رباً، أنت كما أحب، فاجعلني كما تحب»(٣).

ومن مناجاة الإمام علي عليه السلام:

لك الحمد يا ذا الجود والمجد والعلى ... تباركت تعطي من تشاء وتمنع
إلهي وخلاّقي وحرزي وموئلي ... إليك لدى الإعسار واليسر أفزع
إلهي لئن أعطيت نفسي سؤلها ... فها أنا في روض الندامة أرتع

(١) «إلهي قصرت الألسن عن بلوغ ثنائك كما يليق بجلالك وعجزت العقول عن إدراك كنه جمالك وانحسرت الأبصار دون النظر إلى سبحات وجهك ولم تجعل للخلق طريقاً إلى معرفتك إلا بالعجز عن معرفتك. إلهي فاجعلنا من الذين ترسَّخت أشجار الشوق إليك في حدائق صدورهم، وأخذت لوعة محبَّتك بمجامع قلوبهم...».
(٢) الصحيفة السجادية للإمام زين العابدين عليه السلام.
(٣) معدن الجواهر: ص٦٧.

إلـهـي أذقـنـي بـرد عـفـوك يـوم لا بـنـون ولا مـال هـنـالـك يـنـفـع
إلـهـي إذا لـم تـعـف عـن غـيـر مـحـسـن فـمـن لـمـسـيء بـالـهـوى يـتـمـتـع
إلـهـي يـنـحـي ذكـر طـولـك لـوعـتـي وذكـر الـخـطـايـا الـعـيـن مـنـي يـدمّـع
إلـهـي حـلـيـف الـحـب فـي الـلـيـل سـاهـر يـنـاجـي ويـدعـو والـمـغـفـل يـهـجـع(١)

إن هذه المناجاة بصوت رخيم خافت، بصوت ملؤه الحزن والفرح، حزن على ما فرط العبد في جنب الله وقدم من ذنوب، وفرح لهذا التوفيق العظيم وهو المثول بين يدي رب العباد والاستغفار، لتضفي على النفس الإنسانيَّة من الحبور والشغف والارتياح ما لا يمكن وصفه بهذه المقاييس الماديَّة الحالكة في عالم الناسوت، إنه سرور لا يقاس بما يصيب الإنسان المسكين من سرور تسافلي في مجالس الأنس والطرب بما فيها من موسيقى وأوركسترا، مهما كان هذا الموسيقي ساحراً أخَّاذاً للنفوس، ذلك لأنَّ النفس مهما كانت متسافلة تؤنِّب الفرد بعد الفراغ من هذه المجالس وتوبِّخه. فإنَّ الله تعالى قد أودع فيها شعوراً يدرك معه أصول المحرَّمات وأصول الحسنات على حد قوله جلَّ من قائل:

﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨﴾ [الشمس: الآيتان ٧/٨] وفي آية أخرى: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ۝١٠﴾ [البَلَد: الآية ١٠].

إنها مناجاة يشعر الإنسان معها كأنَّه يتطهَّر ثانية بعد ثانية ويتقرَّب إلى مقامات القدس آناً بعد آن. لاسيَّما إذا تخلَّلها شيء من الدموع فقد جاء في الحديث عن النبي ﷺ:

«من بكى من ذنب غفر له، ومن بكى من خوف النار أعاذه الله منها، ومن بكى شوقاً إلى الجنة أسكنه الله فيها وكتب له أمان من الفزع الأكبر، ومن بكى من خشية الله حشره الله مع النبيِّين والصدِّيقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً»(٢).

وعن كتاب الغايات عن الإمام أبي عبدالله ﷺ، قال: قلت له: أخبرني جعلت

---

(١) ديوان الإمام علي ﷺ قافية العين.

(٢) إرشاد القلوب: ص٩٧، باب ٢٣.

فداك، أيَّ ساعة يكون العبد أقرب إلى الله والله منه قريب. قال: «إذا قام في آخر الليل والعيون هادئة فيمشي إلى وضوئه حتى يتوضأ بأسبغ وضوء. ثم يجيء حتى يقوم في مسجده، فيوجِّه وجهه إلى الله. ويصفّ قدميه ويرفع صوته ويكبِّر، ويفتتح الصلاة، فيقرأ أجزاءً، ويصلّي ركعتين، ويقوم ليعيد صلاته، ناداه منادٍ من عنان السماء، عن يمين العرش: «أيها العبد المنادي ربه، إنَّ البر لينشر على رأسك من عنان السماء. والملائكة لمحيطة بك من لدن قدميك إلى عنان السماء. والله ينادي عبدي لو تعلم من تناجي إذن ما انفتلت»[1].

وقد روي: «أنَّ البيوت التي يصلّي فيها بالليل ويتلى فيها القرآن، تضيء لأهل السماء كما يضيء الكوكب الدري لأهل الأرض»[2].

وقال رسول الله ﷺ: «إنَّ لله تعالى منادياً ينادي في السحر: هل من داع فأجيبه، هل من مستغفر فأغفر له، هل من طالب فأعطيه»[3].

فطوبى لنفوس انقطعت إلى الله تعالى جوف الليل فنالت من الزلفى والقربى ما يتحقَّق به العبودية والتخلُّق بالأخلاق التي يرتضيها الله تعالى لعباده، فأصبحت أنواراً يستضاء بها، ونبراساً للحق والواقع. وطوبى لنفوس وفقت إلى المناجاة خاضعة أمام عظمة الله التي لا تتناهى ونالت من الفيوضات الإلهيَّة ما لا يمكن وصفه. ففي المناجاة انجذاب نحو المبدأ الأعلى وخروج عن حضيض المادة إلى عوالم القدس.

فقد ذكر لي شاب جامعي أنه كان قد ترك صلاته وتسبيحه، وتأثر بالحضارة المادية البحتة، حتى اتفق أنه بات ذات ليلة في قرية نائية، فسمع قبيل الفجر صوتاً رخيماً من أعلى منارة لجامع قريب يناجي فيها عبد من عباد الله ربه، ويعدِّد ما هو فيه من خطايا وذنوب ويرجو رحمة ربه تأثر بهذا الصوت الملكوتي، فرجع إلى صلاته وتسبيحه، وأعمال صالحة.

* * *

---

(١) ثواب الأعمال: ص٣٥، ثواب الصلاة.
(٢) إرشاد القلوب: ص٩٢، باب ٢٢.
(٣) إرشاد القلوب: ص٩٢، باب ٢٢.

ومن المستحب أن يجهد من يصلي صلاة الليل نفسه لتخرج من عينيه دمعة هي أمارة الحب والخشية والانجذاب إلى عوالم القدس. فقد جاء في الحديث: «البكاء من خشية الله مفتاح الرحمة وعلامة القبول وباب الإجابة»[١].

وقد قال الإمام الصادق عليه السلام: «إذا اقشعر جلدك ودمعت عيناك ووجل قلبك فدونك دونك. فقد قصد قصدك»[٢].

وقد روي «إنَّ بين الجنة والنار عقبة لا يجوزها إلا البكاؤون من خشية الله»[٣].

وقال الإمام الصادق عليه السلام: «كل عين باكية يوم القيامة إلا ثلاثة أعين، عين غضت عن محارم الله وعين سهرت في طاعة الله وعين بكت في جوف الليل من خشية الله»[٤].

ليس هذا النوع من البكاء بكاءاً يورث الذل والمسكنة، إنه سرور محض وعروج إلى ساحات القدس وتطهير للنفس من كل رجس وخبث ومن ذمائم الأخلاق. إنه تزكية للنفوس وخروج عن الأدران، فإنَّ أقرب ما يكون العبد إلى الله المتعال حال كونه ساجداً يبكي. كما في مؤدى حديث.

وقد روى أبو حمزة عن أبي جعفر عليه السلام: ما من قطرة أحب إلى الله من قطرة دمع في سواد الليل مخافةً من الله لا يراد بها غيره[٥].

وقد أوحى الله إلى موسى على نبينا وآله وعليه السلام: «إنَّ عبادي لم يتقرَّبوا إلي بشيء أحب إلي من ثلاث خصال». قال موسى: يا رب وما هن؟.. قال يا موسى: «الزهد في الدنيا والورع عن المعاصي والبكاء من خشيتي..» قال موسى: يا رب، فما لمن صنع ذا؟ فأوحى الله عزَّ وجلَّ إليه: «يا موسى، أما الزاهدون في الدنيا ففي الجنة، وأما البكاؤون من خشيتي ففي الرفيع الأعلى لا يشاركهم فيه أحد، وأما الورعون عن معاصي فإني أفتش الناس ولا أفتشهم»[٦].

---

(١) إرشاد القلوب: ص٩٨، باب ٢٣.
(٢) أصول الكافي: ج٢، ص٤٧٨، باب الأوقات، ح٨.
(٣) وسائل الشيعة: ج٧، ص٧٦، باب٢٩.
(٤) أصول الكافي: ج٢، ص٤٨٢، باب البكاء، ح٤.
(٥) أصول الكافي: ج٢، ص٤٨٢، باب البكاء، ح٣.
(٦) أصول الكافي: ج٢، ص٤٨٢، باب البكاء، ح٦.

وإن البكاء من خوف الله يؤدي إلى معرفة الله وكسب مرضاته. فقد خاطب النبي إبراهيم عليه السلام ربه قائلاً: «إلهي ما لعبد بلّ وجهه من الدموع من مخافتك؟ قال تعالى: جزاؤه معرفتي ورضواني يوم القيامة»[١].

كما أنَّ البكاء مكفِّر للذنوب، فقد قال الإمام الباقر عليه السلام: «ما اغرورقت عين بمائها من خشية الله إلاَّ حرَّم الله وجه صاحبها على النار فإن سالت على الخدَّين دموعه لم يرهق وجهه قتر ولا ذلَّة، وما من شيء إلاَّ وله جزاء إلا الدمعة، فإنَّ الله تعالى يكفِّر بها بحور الخطايا...». إلى آخر الحديث[٢].

* * *

وإني إذ أختم هذا المقال أسأله تعالى أن يوفِّق شبابنا الجامعيِّين وغيرهم أينما كانوا في البلاد الإسلامية وغيرها أن يواظبوا على صلاة الليل ولو قبل منامهم أو بقضائها في النهار وأن يناجوا ربهم فإنَّ دمعة تنسكب على وجوههم تدفع عنهم مضلات الفتن وتعصمهم عن الانزلاق في أحضان المادية الهوجاء وتنجيهم عن الانجراف في هذا السيل الجارف من النزعات المضلَّة وتنقذهم من الويل والثبور في يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم. فقد ثبت أنه لا يحفظ إيمان الفرد شيء في هذا الجو المدلهم بالشهوات الجو الجامعي وغير الجامعي إلا المواظبة على بعض المستحبات: كصلاة الليل، وصلاة جعفر الطيار في يوم الجمعة وبعض الزيارات والأدعية فليجرِّب المجرِّبون.

﴿۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغۡفِرَةٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَجَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ﴾ [آل عمران: الآيات ١٣٣/ ١٣٦].

---

(١) مستدرك الوسائل: ج١١، ص٢٤٢، باب ١٥.

(٢) إرشاد القلوب: ص٩٧، باب ٢٣.

المدرسة الإسلامية

المدرسة الإسلامية هي مدرسة تجعل هدفها الوحيد توجيه طلابها إلى توحيد الله تعالى وتطبيق تعاليم الإسلام والتربية الإسلامية الحقة.

فالطالب عندما يدخل هذه المدرسة يرى قطعاً قد كتب عليها: لا إله إلا الله، محمد رسول الله. ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عِمرَان: الآية ١٩]. ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْآخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [آل عِمرَان: الآية ٨٥]. يرى طلاباً متخلقين بأخلاق إسلامية، فلا كذب ولا خديعة ولا غش، بل يجدهم متآخين، متراحمين فيما بينهم، عملاً بهذا الحديث: «الخلق كلهم عيال الله، فأقربهم إلى الله أحبهم لعياله»(١) وهم مصداق هذه الآية: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحُجرَات: الآية ١٠].

يرى المدرسة في غاية النظافة والجمال عملاً بالحديث النبوي القائل: «النظافة من الإيمان». والطلاب متعاونون فيما بينهم، يعلم بعضهم البعض وكل يحب التقدم لصديقه، عملاً بالحديث النبوي: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه المؤمن ما يحب لنفسه». فلا حسد ولا تباغض ولا تطاحن، بل حياة كلها دعة وطمأنينة وهناء. ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرّعد: الآية ٢٨].

يرى الطلاب جادين في دروسهم مجتهدين، ذلك لأنَّ الله تعالى يقول: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾﴾ [النَّجم: الآيتان ٣٩/ ٤٠].

ثم يرى أبدان الطلاب سالمة وهم يعملون في تقوية أبدانهم برياضات خاصة، عملاً بهذا الحديث: «إن لبدنك عليك حقاً» وتحقيقاً لأمر الله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [الأنفَال: الآية ٦٠].

فإذا ذهبوا إلى بيوتهم، سلّموا على آبائهم وأمهاتهم، وقبّلوا أيديهم وقاموا بمساعدتهم وخدمتهم في شؤون البيت وما يأمرونهم به، فهم يطيعون آباءهم وأمهاتهم إطاعة تامة لعلمهم أن: «الجنة تحت أقدام الأمهات».

---

(١) أصول الكافي: ج٢، ص١٦٤، ح٦.

يرى أنَّ المعلم كلما شرح موضوعاً عن الحيوان أو النبات أو الكيمياء أو الفيزياء عزا ذلك إلى عظمة الله تعالى ودقيق صنعه، وجعل الطلاب يتوجَّهون بكلهم إلى الله العلي القدير، وتسبيحه تعالى وتقديسه، فهم يشاهدون عظمة الخالق في العلوم الطبيعيَّة وما أودع الله تعالى من دقيق الصنع في هذا الكون الرحيب. وهكذا في علم الجغرافية وعلم الهيئة (وحركات النجوم). . .

يرى الطلاب يتهيأون بكل جد ونشاط لحياة سعيدة حرة ويتسلَّحون بسلاح العصر ويتزوّدون من علوم مادية مفيدة لكي يستغنوا بها عن الناس أجمعين عاملين بهذا الحديث: «ليس منا من ترك دنياه لآخرته ولا آخرته لدنياه». . .

يرى أنَّ الطلاب بعد رجوعهم من تناول طعام الظهر، يتهيأون للصلاة، لأداء واجب الشكر تجاه الله تعالى. يراهم يتوضأون ويصطفون، وإذا بأحدهم، يؤذّن بصوت عال رخيم، قائلاً: الله أكبر. . الله أكبر. . والطلاب كلهم يعلوهم خشوع وخضوع. فيركعون لربهم ويسجدون، منجذبين بكلهم إلى الخلاق العظيم الذي لا تحصى نعمه. ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [إبراهيم: الآية ٣٤].

وبعد الانتهاء من هذه الصلاة المقبولة عند الله من أطفال معصومين يذهبون إلى الصفوف للتزوُّد من علوم تجعلهم مسلَّحين بسلاح العصر للحصول على معيشة هنيئة وللتمكُّن من نصرة هذا الدين، دين الله القويم، تجاه تيارات الكفر والإلحاد وللقيام لبث الدعوة الإسلامية في أرجاء هذا العالم. فما أحوج هذا العالم إلى دين الفطرة: «الإسلام». إنهم يستعدون ليكونوا دعاة حقاً لدين الله في أرضه، عملاً بقوله تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عِمرَان: الآية ١٠٤].

إنَّ طلاب هذه المدرسة يترحَّمون على الطيور وأنواع الحيوانات، ديدنهم الرفق والعطف إلى كل ما خلق الله تعالى عملاً بالحديث النبوي فقد قال صلى الله عليه وآله: «اتقوا الله فيما خولكم وفي العجم من أموالكم. قيل وما العجم؟ قال ﷺ: الشاة والبقر والحمام وأشباه ذلك»[1].

---

(١) من لا يحضره الفقيه: ج٣، ص٣٤٩، ح٤٢٢٧.

إنَّ طلاب هذه المدرسة يعملون دوماً في مساعدة الآخرين عملاً بهذا الحديث: «الله في عون المؤمن ما دام المؤمن في عون أخيه» ويقومون في قضاء حوائج الجيران لأنه قد جاء في الحديث: «ما زال يوصي رسول الله بالجار حتى ظننَّا أن سيورثه»[(١)].

وقد بلغهم هذا الحديث عن رسول الله ﷺ: «من أصبح ولم يهتم بأمور المسلمين فليس منهم». وقد بلغهم قول رسول الله ﷺ: «من سمع رجلاً ينادي يا للمسلمين ولم يجبه فليس بمسلم»[(٢)]. إنهم يعطون من فضول أموالهم إلى الفقراء والمساكين بصورة سريَّة ومع احترام وتوقير. لأنَّ الإمام الصادق عليه السلام يقول: «إن الله فرض للفقراء في أموال الأغنياء ما يسعهم ولو علم أن ذلك لا يسعهم لزادهم»[(٣)].

وهكذا نرى أن هذه المدرسة الإسلاميَّة تبدأ في مفتتح أعمالها (عند الاصطفاف)، بتلاوة أي من الذكر الحكيم وهكذا عند الانتهاء من الدروس عند الانصراف. وهم يمتازون عن غيرهم باستظهارهم القرآن الكريم ومعاني الكلمات وكثيراً من الأحاديث. وفي أناشيدهم تحريض لخدمة الغير والتضحية لأجل رفع لواء الإسلام عالياً في أرجاء العالم. حتى يكون الإسلام ديناً عالمياً، فلا تسمع في أرجاء العالم كله إلاَّ من ينادي أوقات الصلاة بصوت رفيع: الله أكبر... أشهد أن لا إله إلا الله. أشهد أنَّ محمداً رسول الله...

وفي المدرسة لجان شتى، لجنة الإرشاد الديني ولجنة العلوم الاجتماعيَّة ولجنة الرياضة البدنيَّة ولجنة النظافة ولجنة تنظيم الحدائق ولجنة البر والإحسان إلى ما هنالك من لجان مفيدة أخرى.

أما لجنة الإرشاد الديني فلها اجتماعاتها الخاصة، وبرامج معيَّنة ووظائف موزَّعة على الأعضاء. فكلما اجتمعت اللجنة تقرأ المقرَّرات السابقة ويقدم على عضو تقريراً عما قام به من أعمال إرشاديَّة داخل المدرسة وخارجها وتوزع الأعمال على الأعضاء من جديد.

---

(١) من لا يحضره الفقيه: ج١، ح١٠٨.
(٢) أصول الكافي: ج٢، ص١٦٤، باب الاهتمام بأمور المسلمين، ح٥.
(٣) الكافي: ج٣، ص٤٩٦، باب فرض الزكاة، ح١.

وأما لجنة البر والإحسان فتقوم كل خميس بعد الظهر بتوزيع ما تمكَّنت من جمعه من نقود وثياب وأحذية وأفرشة وأوان إلى ما هنالك وذلك بالذهاب إلى بيوت الأرامل والأيتام والفقراء والمساكين، فتقدم ما جمعت إليهم بكل توقير واحترام وذلك بعد أداء التحيَّة الإسلاميَّة: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته. . .

فهنيئاً لطلاب مؤمنين يتربُّون في هذه المدرسة الإسلامية تربية إسلامية حقة، فيكونون قد جمعوا بين سعادة النشأتين. سعادة الدنيا ونعيم الآخرة طوبى لهم وحسن مآب. . .

اعتراف الماركسية بعجزها

يقول علماء الذرَّة وكبار العلماء في العلوم الطبيعيَّة وغيرها، أنه لا يوجد في كل ما اكتشف من قوانين وخواص في عالم الطبيعة شيء يدل على عدم وجود الخالق جلَّ جلاله، بل كلما نزداد بحثاً وكشفاً للحقائق الكونيَّة والمعادلات والدساتير والخواص المودعة في أجزاء هذا الكون وارتباط هذه القوانين والخواص بعضها ببعض نزداد يقيناً بالخالق جلَّ جلاله، بإله متناه في إتقانه الخلق بدقة وحكمة فائقتين. وقد قيل قبلاً:

وفي كل شيء له آيةٌ تدلّ على أنّه واحد

وهكذا يخاطبنا الله تعالى بقوله: ﴿أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [النَّمل: الآية ٦٤]. إنه تعالى يقول: ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ۚ﴾ [العَنكبوت: الآية ٢٠].

إنَّ الماديِّين، اليوم، قد اتخذوا: (المادة) إلهاً من دون الله وقالوا بقدم المادة وإنها تعمل بحكمة فائقة لأجل تنظيم هذا العالم وتكوينه بدساتير متقنة ومعادلات رصينة وخواص مناسبة وتدرج وتسلسل وتوالد في أوقات معينة وإيجاد ظروف ملائمة إلى ما هنالك! وقالوا إنَّ المادة هي التي تخلق الروح والنفس والعقل وهي فعالة لما تشاء ولكنها لا تحيد عن حكمة فائقة ومنطق رصين! وهي التي تودع في مخ الإنسان أسس التفكير، من تعميم وتجريد واستنتاج واستقراء وحدس وإلهام. . .

فما أعظمها من مادة خلاقة بعقل جبار يفوق عقول من كانوا على وجه البسيطة من

حكماء ومكتشفين، كآينشتاين ونيوتون وأفلاطون ودالامبر وپرن كاره، وبرگسون وغيرهم...

لذلك يخاطب الله تعالى هؤلاء الذين اتخذوا إلههم من مادة وأصنام وحيوان وشمس إلى ما هنالك، دون الله تعالى، يخاطبهم قائلاً: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةًۖ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَـٰنَكُمْۖ هَـٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِىۗ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّۖ فَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٤﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء: الآيتان ٢٤/ ٢٥].

فالمؤمنون بالفلسفة المادية يطلبون من أتباعهم أن يكفروا بكل شيء غير المادة، وأن يعتقدوا أن الأكوان تنشأ من هذه المادة، في دورات متسلسلة تنحل كل دورة منها في نهايتها لتعود إلى التركيب في دورة جديدة، وهكذا دواليك، ثم دواليك إلى غير انتهاء...

ويطلبون منهم أن ينتظروا النعيم المقيم على هذه الأرض، متى صحَّت نبوءتهم عن زوال الطبقات الاجتماعيَّة. فإذ زالت الطبقات الاجتماعيَّة في هذه السنة أو بعدها ببضع سنوات فتلك بداية الفردوس الأبدي، الذي يدوم ما دامت الأرض والسماوات وتنتهي إليه أطوار التاريخ.

ولكن لم يتحقَّق كل ما أرادوا، فسرعان ما رجعوا عن طيشهم بعد قليل وغيروا وبدّلوا، رجعوا إلى الديانة يستجدونها ويتمسَّحون بها واجتمع رؤساء القساوسة في حضرة زعماء المذهب الشيوعي، ليعلنوا العودة بمجلس الكنيسة إلى نظامه القديم.

* * *

رأيت من المناسب أن أنقل صورة كتاب أرسله شاب مسلم عامل بنصوص الدين من ألمانيا الشرقيَّة، كان يحضر مع إخوانه الشباب المتديِّنين في مجلس ديني في الكاظميَّة تلقى فيه محاضرات دينيَّة، وكان يعمل مجاهداً لبث حقائق الإسلام بين الطلاب في مدرسته وخارجها، لكي نقف على الجهود التي تبذل لغرس المبادئ المادية في تلك البلاد وكيف أنَّ هذا الشاب لتشبعه بالروح الإسلامية الطاهرة ومطالعته بعض الكتب الدينيَّة والفلسفيَّة يجيب ويدافع عن الحق ويعمل لأجل خدمة الدين في تشكيل جمعية إسلامية وهو في أحضان المادية الصماء.

فجدير بشبابنا وهم في بلد إسلامي أن ينهجوا نهجاً يتناسب ومسؤولياتهم تجاه دينهم ومقدساتهم وأن يعملوا مجاهدين مخلصين لأجل تشكيل جمعيات ولجان، لتثقيف الشباب تثقيفاً إسلامياً على ضوء القرآن والسنة النبويّة وتعاليم أهل بيت العصمة عليهم الصلاة والسلام.

فلا يمكن أن نغرس تعاليم الإسلام في النفوس ونبرهن للعالم، على أن الإسلام هو دين العصر ودين يستجيب لكل ما يحتاجه البشر من دساتير تؤدّي به إلى سعادة الدارين في جميع الحقول، من اعتقادية وعبادية وقضائية واقتصادية وإدارية وسياسية وعمرانية وأخلاقية إلى ما هنالك إلا بتشكيل لجان وجمعيات طلابية تقوم بتوزيع منشورات دينية وإلقاء خطب وترتيب دعوات خاصة ودعوات عامة وترتيب نواد إسلامية للشباب، فيها مسجد صغير، تقام فيه الصلاة. ويا حبَّذا لو بنيت هذه النوادي بجنب الحسينيات التي قد بنيت وتبنى من وقت إلى آخر. تؤثث هذه النوادي الإسلامية بالأثاث المناسب وما يحقِّق راحة الشباب وتؤسّس فيها مكتبات إسلامية يقضي الشاب المسلم فيها أوقات فراغه باستماع آي من الذكر الحكيم ومحاضرات دينيَّة ومطالعة كتب ومجلاَّت إسلامية وإقامة الصلاة والاشتراك في اجتماعات اللجان والمذاكرة في ما يجب أن يقام به لبث الدعوة الإسلامية ونجاحها بين الشباب في العراق وخارجه وإرسال وفود من الشباب وغيرهم إلى القرى والأرياف لتعليم الإسلام وتطبيقه في تلك الربوع بصورة عملية وتقديم تقارير عما قاموا به خلال أسبوع واحد أو شهر واحد، ثم الاتصال بالمدارس لإلقاء المحاضرات على الطلاب والعمل لأجل إقامة الصلاة بين جدران المدرسة إلى ما هنالك. إنه تعالى يقول: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ۝٦٩﴾ [العَنكبوت: الآية ٦٩] .

* * *

إن هذا الشاب المؤمن الغيور على دينه يقول:

«إننا شكلنا جمعية إسلامية في ألمانيا الشرقية وسنعمل إن شاء الله على دمجها بالجمعية الإسلامية في ألمانيا الغربية، ثم نتصل بالجمعيتين الإسلاميتين في انكلترا

والنمسا، لنكون من جميع ذلك اتحاداً عاماً. ولا يخفى ما في ذلك من أثر في اطلاع الرأي الأوربي العام على التعاليم الإسلامية القويمة ونظرته إلى الكون والحياة خاصة، لا سيما وإن الأوروبيِّين شديدوا الرغبة في حب الاستطلاع على الإسلام، ذلك لأن الإسلام يمثل ديناً رئيسياً في العالم أجمع».

«أدرس كما تعلمون هنا (التخطيط الاقتصادي)؛ إلا أن ذلك لا يعني سوى، (الماركسية ـ اللينينية)، و(المادية الديالكتيكية)، والاقتصاد السياسي، ولا يخرج ذلك أبداً عن نطاق، قال: لينين، وقال ماركس، وانگلز... وإذا ناقشت أو طرحت رأياً آخر، أو سألت سؤالاً يدل على أنك لا تصدق بذلك، فإنَّ ذلك يعني أنك تحتاج (إلى مراقبة أشد) وإلى اجتماعات معك أكثر»[1].

«المقدمة: إن لدينا أربعة طرق للدراسة»:

«١ ـ المحاضرات التي يلقيها البروفسور أو الدكتور في قاعات كبيرة تحوي ما لا يقل عن مائتي طالب. وهنا تلقى المحاضرة دون مناقشة أو سؤال أو اعتراض أو شيء آخر. إلا أننا نكتب عن ذلك ملاحظات في دفتر خاص وهذا ما يسمى: (فورليزونك Vorlessung)، تستغرق هذه عادة ساعتين، تتخلَّلها فرصة واحدة أمدها ١٥ دقيقة».

«٢ ـ ما يسمى باجتماع السمينار: Seminar وفيه ينبغي أن يسأل الطلبة عن مدى فهمهم للمادة وعن آرائهم بها، وعما إذا كان لديهم رأي آخر مناقض لذلك. إلا أن

---

(١) إن الله تعالى يقول: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ﴾ [البقرة: الآية ٢٥٦] ويقول أيضاً: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ ٢٤﴾ [محمد: الآية ٢٤] وفي آية أخرى ﴿إِنَّ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡبَصَرَ وَٱلۡفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنۡهُ مَسۡـُٔولٗا﴾ [الإسراء: الآية ٣٦].

فالإسلام لا يفرض تعاليمه على البشر فرضاً ولا يجبرهم على القبول جبراً، وإنما يخاطب العقل الفطري على ضوء المنطق الصحيح ويجعل العقل معياراً للقبول ويفسح المجال للنقاش والجدل بالتي هي أحسن. وكم من نقاش حدث بين الزنادقة والإمام الصادق عليه أفضل الصلاة والسلام وكذا بين الملاحدة والإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام.

ليس الإسلام بدين يقول: كن أعمى حتى تبصر الحق وكن أصم حتى تسمع الواقع. كما يصنع الماركسيون ومن يدعي النبوة زوراً وبهتاناً. وهذا ديدن من تعوزه الحجة وينقصه الدليل، ضغط ومراقبة شديدة وتجسُّس وسجن وتبعيد وتشريد وقتل وإبادة!..

هذا لا يحدث بصورة عملية. إذ أنَّ الطلبة الألمان قد اعتادوا على تقبُّل المادة دون مناقشة أو تمحيص. ثم إنهم يخافون إن ناقشوا، أن يؤثِّر ذلك على درجاتهم وعلى نظرات الأساتذة إليهم، وأنا حسب التنظيم الدراسي، مع گروب (جماعة) يتكوَّن فقط من طلبة الألمان بينما أنا الوحيد أجنبي بينهم».

«وفي أول اجتماع لنا قدمت الأستاذة مقدمة، قائلة: إنهم يرومون تربية الطلبة اشتراكياً كيما يتكون لهم كادر (ملاك)[١] في المستقبل يخدم الحكومة عن وعي. وإنهم سوف لا، ولن يدرسونا أي نظام أو مبدأ آخر لئلا تشوب الفكرة الاشتراكية من ذلك شائبة».

«أما عن الرأسمالية، فسوف لا ندرس إلا نقاط النقد التي ضرب ماركس على وترها... ثم استمرت في شرح الموضوع في ألمانيا وفي المقارنات بين الدولتين الألمانيَّتين».

«وملاحظتي على ذلك، إنني أتمكن من أن أقول: إن معظم بل جل دراستنا عن ذلك، كيف أن ألمانيا الغربية رأسمالية وأن الشرقية اشتراكية وتستند إلى المعسكر الاشتراكي الجبار وعلى رأسه الاتحاد السوفيتي، وإنها لا تخاف ألمانيا الغربية التي سلّحها حلف شمالي الأطلسي والرأسمالي الأمريكي».

«إن كان هذا صحيحاً أولاً، فأمر لا يهمَّني كما تهمَّني الدراسة، إنَّ هذا لا يعطينا تجارب ومعارف إلا في حقل ضيق جداً، حين أنه يشغل أكثر من نصف دراستنا».

«وهكذا بدأ (السمينار Seminai) الأول، وبدأنا نناقش المادية الديالكتيكية. فشرحت الأستاذة كيف أن العالم ينقسم إلى معسكرين من المفكرين، ماديين وخياليِّين: Materialistes, Idealistes ثم هاجمت الكنيسة[٢] لأكثر من ربع ساعة

---

(١) أي دخولهم في ملاك الدولة في عدد الموظَّفين.

(٢) قد تكون الأستاذة محقة في مهاجمتها الكنيسة، فإن الدكتور: (وولز أوسكار لندبرج) أستاذ الفسلجة والكيمياء يقول: «إن جميع المنظَّمات الدينيَّة المسيحيَّة تبذل محاولات لجعل الناس يعتقدون منذ طفولتهم في إله هو على صورة إنسان! بدلاً من الاعتقاد بأن الإنسان قد خلق خليفة لله على الأرض على حد قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿١٦٥﴾﴾ [الأنعام: الآية ١٦٥]. . . . وعندما تنمو =

وكيف أن كل فكرة غير مادية تستخدمها الطبقة المستغلة بصورة مباشرة أو غير مباشرة،

= العقول بعد ذلك وتتدرَّب على استخدام الطريقة العلميَّة، فإن تلك الصورة التي تعلموها منذ الصغر لا يمكن أن تنسجم مع أسلوبهم في التفكير أو أي منطق مقبول، وأخيراً عندما تفشل جميع المحاولات بين تلك الأفكار الدينية القديمة وبين مقتضيات المنطق والتفكير العلمي، نجد هؤلاء المفكِّرين يتخلَّصون من الصراع بنبذ فكرة الله كلية، وعندما يصلون إلى هذه المرحلة ويظنون أنهم قد تخلصوا من أوهام الدين وما ترتب عليها من نتائج نفسية، لا يحبون العودة إلى التفكير في هذه الموضوعات، بل يقاومون قبول أية فكرة جديدة تتصل بهذا الموضوع وتدور حول وجود الله».

ولكن الدكتور (وولتر)، قد فاته أن النفس الزكيَّة التي لم تلج في الموبقات وبقيت نقية طاهرة أو وفقت إلى توبة واستغفار بعد التلوث: «إن الحسنات يذهبن السيئات» تصل بالفطرة إلى معرفة صحيحة عن الله تعالى تتصحَّح انطباعاته الخرافية بإلهام من الله تعالى وترجع إلى الفطرة من تقديس الله تعالى وتعظيمه وإطاعته ولا تنبذ الدين. إنما ينبذ الدين من ربته المراقص ودور الخمور وتعاطي الربا ولحم الخنزير. وهم الأكثرية الساحقة في الغرب والشرق.

نعم، علينا أن نقول، ليس في الإسلام من (الأسرار) كما في المسيحيَّة. تلك الأسرار التي لا يصل أحد من رجال المسيحيَّة أنفسهم أن يدركها إدراكاً عقلياً صحيحاً، ولهذا يطلبون من اتباعهم الإيمان بها دون محاولة فهمها.

كما أن فكرة (الحجاب) في المسيحية بين الله وعباده فكرة لا يستسيغها العقل. فلا حجاب بين الله وبين أحد من خلقه حتى يتحتَّم توسيط رجل بينه وبين خلقه. فالإسلام يرى أن لكل أحد الحق في أن يتجه إلى الله ويتوسَّل به ويرفع حاجته إليه. ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البَقَرَة: الآية ١٨٦].

وأما الشفاعة، فلا يراد منها سد الطريق بين الله وعباده، بل العبد يدعو ربه ويخلو به جاعلاً أعز خلقه إليه شفيعاً لديه. على أنه تعالى يقول: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الأنعَام: الآية ١٦٤]. ومن ثم تطلب المسيحية من الإنسان أن يؤمن (بالصلب والفداء)، أي صلب (المسيح ـ الإله) تفدية للبشر مما لحقهم من هذه الخطيئة الأصلية.

هذه الخرافات وأمثالها التي ما أنزل الله بها من سلطان، لم تكن في الكتب المقدسة حين أوحى الله تعالى ما فيها إلى أنبيائه ﷺ، إلا أن الكنيسة لابتعادها عن النصوص وانحرافها عما أنزل الله أوجدتها بهذا الشكل. فيأبى الشاب الذي مارس المنطق الصحيح بدراسة نظريات هندسية واشتغاله في المختبرات تقبلها، ويراها خرافات. فيمقت الدين لما يرى من معتقدات تخالف الواقع إذا كان من أولئك الذين تلوَّثت نفوسهم بالموبقات. ولذلك من السهل جداً بث تعاليم الإسلام في أوساط الغرب العلمية لمطابقتها مع العلم الصحيح وخلوها من كل ما يخالف المنطق الصحيح ومن كل خرافة.

لتزيد من استغلالها للطبقة العاملة»[١].

«ثم بدأت تشرح المادة كأساس للمذهب المادي: «إنَّ المادة كانت قبل كل شيء[٢] ثم تطوَّرت خلال ملايين السنين إلى هذا العالم. أما الإنسان فقد تطوَّر عن

---

(١) أما الإسلام، فيهتم بالطبقة العاملة إلى أبعد حد، ولا يفرق بين العامل وصاحب العمل إلا بالتقوى. فقد قال أبو عبدالله ﷺ: «من أراد أن يدخله الله في رحمته ويسكنه جنته، فليحسن خلقه وليعطِ النصف من نفسه، وليرحم اليتيم وليعن الضعيف وليتواضع لله الذي خلقه. (النصف: الإنصاف والعدل)» [وسائل الشيعة: ج١٢، ص١٥٥].

وعن الرسول ﷺ: «سيد الأعمال: إنصاف الناس من نفسك ومواساة الأخ في الله وذكر الله على كل حال».

وعنه أيضاً: «من واسى الفقير من ماله وأنصف الناس من نفسه فذلكم المؤمن حقاً» [الكافي: ج٢، ص١٤٧].

فعلى صاحب العمل أو المعمل أن يعطي العامل ما يسد به حاجته وحاجة بيته حتى بعض الكماليات منها كي يكون مصداق الحديث المتقدم.

(٢) مما لا ريب فيه أن الكيمياء علم يبحث فيه عن التركيب والتغييرات التي تطرأ على المادة ويبحث فيه عن تحول المادة إلى طاقة (قوى) وتحول الطاقة إلى مادة. وأن الكيمياء من العلوم المادية والبحث عن موجد الكون عن الله تعالى بحث روحي بحت. فلا رابطة بين هذا البحث وبين الكيمياء (العلم المادي). فليس من شأن الكيمياء أن تبحث في أنَّ هذا العالم بما فيه من نظم ثابتة ودساتير متنوعة وتدبير وحكمة فائقة قد وجد بمحض المصادفة وأن جميع ما يحدث فيه يتم بالطريقة العشوائيّة أو بطريقة أخرى.

ولا يرى المتتبِّع في ما وجد من قوانين عند دراسة المادة والقوة محلاً للمصادفة، بل بعكس ذلك، يرى أنَّ هنالك نظاماً ثابتاً وقانوناً لا تحيد عنه المادة والطاقة والتفاعلات الكيميائية والحوادث الفيزيائية ويرى أيضاً أن سلوك أي جزء من أجزاء المادة مهما صغر أو تضاءل حجمه ليس بسلوك أعمى بل يخضع لقوانين معينة دقيقة مترابطة.

ويرى أن في كثير من الأحيان يتم اكتشاف القانون قبل اكتشاف أسبابه أو فهم طريقة عمله بفترة غير طويلة من الزمن، حتى أنهم تمكَّنوا من العثور على كثير من الخواص الكهربائيّة نتيجة ما يجري من الأعمال الرياضيّة على المعادلات التفاضلية (في الرياضيات العالية). فأنى للمصادفة أن تضع دساتير وأن يظفر الإنسان نتيجة إجراء أعمال رياضية بمكتشفات أخرى في حقل الكهرباء وغيرها.

وإن الترتيب الدوري الذي اكتشفه (مانداليف) وهو الترتيب الذي أودعه الله تعالى في العناصر الكيميائية دليل قطعي على عدم وجود أية مصادفة هناك. =

....

= وإن اكتشاف تركيب الذرّة (Atome) أثبت أن ما نشاهد من تفاعلات كيميائية وما نلاحظ من خواص تنتظم تحت قوانين خاصة، وليست هنالك مصادفة عمياء. فالمصادفة لا تولد آلاف الدساتير في مختلف الحقول ثم تربط هذه الدساتير بعضها ببعض لانتظام الكون المادي ومن ثم الحياة.
فالعناصر بما فيها الملون وغير الملون والهش والصلب والخفيف والثقيل والمغناطيس وغير المغناطيس والباقي مدة والفاني بعد فترة محدودة إلى ما هنالك تابعة لنفس قانون (مانداليف) الدوري.
فمن الذي جعل هذه العناصر في غاية الاختلاف من حيث الخواص لما هنالك من حاجة ماسة لوجود وانتظام هذا الكون ثم إخضاعها لنفس القانون. هل للصدفة أن تقوم بهذا العمل المنظَّم المحيِّر للألباب في ما لا يحصى من مراحل وأشياء.
ثم ماذا كانت هذه المادة في القديم؟ هل كانت طاقة ثم تكدَّست فكانت مادة؟ وماذا كانت هذه الطاقة، هل كهربائيَّة موجبة أم سالبة؟ أم ماذا؟ ثم لماذا ولأي سبب وكيف تكدَّست تلك الطاقات الهائلة فكانت مادة... أي عناصر.. ولماذا هذا الاختلاف في العناصر من حيث التركيب والخواص مع العلم أن كل ذلك لابدَّ من وجوده بهذا الترتيب لانتظام هذا الكون الرحيب.
ثم نحن إذا دخلنا في بناء الذرَّة نشاهد عالماً من الخواص والنظم والقوانين ما يحيِّر العقول.
وهذه الذرَّة (ليست بذرة واحدة وعلى نمط واحد) كيف صارت أنواعاً مختلفة تحت قانون دوري، وكلها موجودة حتى اليوم: هايدروجين: هليوم، ...، أورانيوم... إلخ.
من أين جاءت الكهربائيَّة السالبة (الكترون) وثم الكهربائيَّة الموجبة (الپروتون) وكلتاهما موجودتان في بنية الذرَّة مع تنافرهما.
فهل الذرَّة هي الله تعالى؟! فهي مركبة ومحتاجة إلى أجزائها، ثم من أين جاءت هذه الأجزاء ومن الذي ركبها بهذا التركيب المعقول تحت قوانين ثابتة معقولة. ثم لنحقِّق كلاً من الأجزاء، فنراها مركبة أيضاً أم هي طاقات لا نعلم حقيقتها وهكذا دواليك، فلنتسلسل إلى الأخير فلا مناص من الاعتراف بالله الخالق المتعال، ذلك لأنا لابدَّ لنا إما أن نعترف بعقل جبار داخل الذرَّة أو أن نعترف بخالق حكيم، قد أوجد هذه الأجزاء المختلفة الخاصيَّة والماهية ورتبها خير ترتيب. وبما أنَّ المادة ليست من العقل في شيء إذن لابدَّ من الاعتراف بالصانع العظيم وهو الله تعالى.
ثم لا يعقل: أنَّ المادة توجد نفسها بنفسها ثم تضع كل هذه الدساتير والقوانين، ذلك لأنَّ المادة عندما تتحول إلى طاقة أو تتحول الطاقة إلى مادة، فإنَّ ذلك كله يتم طبقاً لقوانين معينة، والمادة الناتجة تخضع لنفس القوانين التي تخضع لها المادة المعروفة التي وجدت قبلها.
ومن الثابت علمياً أنَّ الفرق بين ذرَّة عنصر معيَّن كعنصر الحديد مثلاً وعنصر الرصاص يرجع إلى الفرق في عدد الپروتونات والنيوترونات التي بالنواة وإلى عدد وطريقة تنظيم الإلكترونات التي هي خارج النواة والتي تدور حول النواة بسرعة هائلة وتحت دساتير معيَّنة وأبعاد محددة. إذن كل ما=

= في الكون من مواد مختلفة والتي تعد بالملايين أي كل مانع الكون من عناصر ومركبات، تتألف من جزيئات كهربائيَّة ليست في الواقع إلا مجرد صور (أو مظاهر) من الطاقة أي طاقة الإشعاع المخزونة. إذن، المادة ليست إلا صورة من صور الإشعاع ولا يزال العلم يعمل لأجل تفهم حقيقة الطاقة والإشعاع وسوف يعمل إلى مئات السنين ولن يصل إلى حقيقة الطاقة أو القوة كما لم يصل لحد اليوم إلى حقيقة (الجاذبية) وحقيقة الروح. ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾ [الإسراء: الآية ٨٥] .
لذلك يقول الفيلسوف والعالم الطبيعي الدكتور: (ماريت استانلي): إننا نحتاج في محاولتنا لوصف الخالق (ومن يقوى على وصفه، هو كما وصف نفسه) ومعرفة صفاته إلى مصطلحات ومعانٍ تختلف اختلافاً بيناً عن تلك التي نستخدمها عندما نصف عالم الماديات. فالصفات المادية والتفسيرات الميكانيكيَّة التي تقوم على نظريات السلوكيِّين تعجز أن تعيننا على تحقيق هذه الغاية، وبخاصة بعد أن تبين لنا أنَّ هذا الكون الذي نعيش فيه لا يمكن أن يكون مادة صرفاً وإنما هو مادة وروح، أو مادة وغير مادة. ولا نستطيع أن نصف الأشياء غير المادية بالأوصاف المادية وحدها».
ثم يقول الدكتور: (ماريت استانلي): «كثيراً ما طلبت إلى تلاميذي أن يصفوا لي شيئاً غير مادي مثل (الفكرة)، وطلبت إليهم أن يبيِّنوا لي التركيب الكيموي (للفكرة) وطولها بالسانتيمترات ووزنها بالغرامات ولونها وضغطها وأن يصفوا لي شكلها وصورتها. وقد عجزوا جميعاً عن تحقيق ذلك. وصار من الواضح أنه لكي نصف أمراً غير مادي لابدَّ من استخدام مصطلحات وأوصاف أخرى تختلف اختلافاً كبيراً عن المصطلحات التي نستخدمها في دائرة العلوم».
إنه يقول: «إننا لا نستطيع أن نسخر من هذه المشكلة أو نفر منها، فلو لم يكن هذا الكون ثنائياً (يعني المادة كالفكر والروح) لاستطعنا أن نعرّف الفكرة تعريفاً مادياً صرفاً، وهو مالم يحدث أبداً. والنظريات المادية التي قدمها ديموقريطس وهوبز والسلوكيون، وكذلك النظريات المثالية الصرفة التي تفسر هذا الكون تفسيراً معنوياً خالصاً مما قدمه (ليبنتز) و(بيركلي) و(هيجل)، نقول إن هذه النظريات الآحادية جميعاً لا تعدو أن تكون مجرَّد افتراضات تقوم على التخمين ولا تستند إلى أي أساس من الوجهة التجريبية. ولابدَّ لأيَّة فلسفة تحاول أن تفسِّر الطبيعة والكون من أن تختبر أولاً لمعرفة مدى قدرتها على تفسير سائر أنواع الحقائق والعوامل والعناصر التي يتألف منها هذا الكون أو تظهر فيه».
ويقول الفيلسوف (ماريت استانلي): «إن العلوم حقائق مختبرة، ولكنها مع ذلك تتأثَّر بخيال الإنسان وأوهامه ومدى بعده عن الدقَّة في ملاحظاته وأوصافه واستنتاجاته. ونتائج العلوم مقبولة داخل هذه الحدود. فهي بذلك مقصورة على الميادين الكميَّة في الوصف والتنبُّؤ. وهي تبدأ بالاحتمالات وتنتهي بالاحتمالات كذلك وليس باليقين. ونتائج العلوم بذلك تقريبية وعرضة =

....

= للأخطاء المحتملة في القياسات والمقارنات ونتائجها اجتهادية وقابلة للتعديل بالإضافة والحذف وليست نهائية، وإننا نرى أنّ العالِم عندما يصل إلى قانون أو نظريّة يقول: إنّ هذا هو ما وصلنا إليه حتى الآن ويترك الباب مفتوحاً لما قد يستجد من التعديلات» [قد أسهبنا القول في ما يقوله الدكتور (ماريت استانلي) في الجزء الأول من هذا الكتاب. قبل الظفر بمقاله هذا، فيرجى المراجعة].

وهناك من يقول بقدم المادة، لكن التجارب الكيميائيّة تدلنا على أنّ بعض المادة تزول وتفنى. وبعضها يسير نحو الفناء بسرعة كبيرة والآخر بسرعة ضئيلة، فالمادة تفنى، فهي ليست بأبدية، إذن يجب أن لا تكون قديمة أو أزليّة، فلها إذن بداية.

وتدل التجارب والشواهد من الكيمياء ومن علوم أخرى أنّ بداية المادة لم تكن بطيئة أو تدريجيّة، كما يقول به الماديون، بل وجدت بصورة فجائية حتى أنّ العلوم تستطيع أن تحد الوقت الذي نشأت فيه هذه المواد. وقد ثبت علمياً أنّ هذا الكون المادي لم يكن مخلوقاً ثم خلق وليس بقديم كما يظن الماديون جهلاً منهم أو مكابرة. وهو يسير تحت قوانين معيّنة ودساتير ثابتة أودعها الله هذا الكون: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ۝٤١﴾ [فاطر: الآية ٤١] (أمسكهما: أي ما أمسكهما).

وبعد أن علمنا أن ليس لهذا العالم المادي أن يخلق نفسه ويسن لنفسه هذه القوانين الرياضية الدقيقة وهذه الخواص المتنوعة التي بها تتحقق الحياة، إذن وجب أن نؤمن أن هناك خالقاً غير مادي وهو الله تعالى. ثم إن ما نلمسه من حكمة فائقة في تنظيم هذا الكون يدلنا على أنّ خالقه عاقل حكيم. إلا أن العقل لا يوجد هذه الخوارق العظيمة اللانهائية ولابدّ أن تكون هناك إرادة ومشيئة، إذن ثبت أن موجد هذا الكون عاقل، حكيم، مريد، فعال: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرَّحمٰن: الآية ٢٩].

وقد اعترف العلم الحديث الذي يحدِّد وقت حدوث المادة (أي الوقت الذي خلقها الله تعالى): أن حدوث الحياة وبدايتها حدث عجيب في تاريخ الكرة الأرضية واعترف بالعجز عن معرفة بداية (الحياة) وكيف كان ظهورها ويقول: العلم عاجز عن معرفة كل ذلك. ويعترف بشيء من التوكيد أن الحياة بدأت في المحيط الدافئ، الماء؛ وقد قال الله تعالى قبل أربعة عشر قرناً: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَاۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ۝٣٠﴾ [الأنبياء: الآية ٣٠] (رتقاً: أي متصلة).

قد حسب أحد علماء الفسلجة (Physiologiste) أنّ المادة السنجابية التي في تلافيف الدماغ فيها نحو: ستة ملايين خلية وكل خليّة تتألّف من ألوف الدقائق الظاهرة وكل دقيقة تتألّف من ملايين الجواهر. ثم إنّ هذه الجواهر تتألف مما سيقف عليه العلم في مستقبل قريب وهكذا نرى أنّ العلم كلما تقدم خطوة أصبح أمام أودية من المجاهيل حتى يضطر بالاعتراف بالله الخالق المدبِّر القادر المتعال.

ثم ترى أنّ طبقات العين، فيها القرنية والعدسية، وطبقات العين المائية الزجاجية تنتهي في =

حيوان، وقد لعب بذلك العمل البشري دوراً كبيراً».

«وسألتها قائلاً: إنه من الأحسن لنا أن نبدأ من البداية ونتساءل من أي شيء تتكوّن المادة؟ ومن أي شيء تكوّنت وخلقت؟ وكم كان حجمها؟ وكيف بعثت لها الحياة؟» فتململت قليلاً، ثم أجابت: «إنَّ المادة لا ترى ولا تفنى، إذ أنها تتشكّل بأشكال مختلفة، في كل جسم شكل»، «أما من أي شيء خلقت المادة، فهذا مالم يتوصل إليه العلم بعد»!!! . . . «ومن خواص المادة إنها غير قابلة للتصوُّر، أي أنَّ الإنسان لا يتمكّن أن يتصوَّرها أو يلمسها».

فابتسمت لذلك قائلة: إنكم (بصيغة الاحترام) تؤمنون بوجود شيء لا يمكن أن يتصوَّره أو يلمسه الإنسان، ثم إنكم لا تعلمون من أي شيء يتركَّب هذا الشيء وكم حجمه. . . إنَّ هذه هي الروحانية التي تسمُّونها Idealisme: الخيال. . . إذ أننا نعتقد بوجود الله تبارك وتعالى. وهذه الصفات التي ذكرتموها هي بالضبط صفات الله. أي

= الشبكية وأنَّ الطبقة الشبكيّة لا تزيد عن ثخن الورقة وتتألف مع ذلك من تسع طبقات، أبعدها يتألف من ثلاثة ملايين مخروط ونحو من ثلاثة ملايين أسطوانة.

فكيف يوفِّق المادي بين الصدفة وهذا النظام البالغ من الدقة أقصى المراحل. وإنَّ حساب الاحتمالات ينفي إمكان وجود ملايين من الأجزاء في عضو بصورة مرتبة ومنظّمة على سبيل الصدفة لتحقيق غاية معقولة. ولكن المادي لا يوافقه حساب الاحتمالات، Probabilite وما فيه من دساتير. أو هو أقل من أن يستوعب حساب الاحتمالات أو يكتشف في موضوعه بعض القوانين. ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥﴾ [الطارق: الآية ٥] . . .

كيف يفسِّر المادي ما نرى من مظاهر في (الأظافر) وقلَّ من يهتم بها. فقد كان يقول (أبقراط) مرجع الطب والحكمة منذ أكثر من ألفي سنة: «إنَّ الأظافر كالمرآة تنعكس فيها حالة الإنسان الصحيَّة». ولحد اليوم ترى أن الطبيب لو استعصى عليه تشخيص مرض فإنه يمسك بأظافر مريضه ومنها يشخص نوع المرض: فالأظافر الباهتة تدل على فقر الدم والمائلة للزرقة تؤكِّد مرض القلب وتقعر الأظافر يدل على اضطراب الدورة الدموية.

وقد وجد أنَّ عدد الكائنات الحية في الغرام الواحد من التربة يصل إلى بضعة ملايين! فما أعظم هذه (المادة) التي خلقت كائناً حياً بالغاً في الصغر فوق تصور الإنسان وفيه أعضاء وأجزاء ودقائق. . . سيظفر بها العلم في المستقبل. ولكن لن يصل العلم إلى حقيقة الحياة، إلا إذا فوض الأمر إلى موجد قادر متعال وهو الله تعالى، إنه تعالى يقول: ﴿سَأُوْرِيكُمْ ءَايَٰتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾ [الأنبياء: الآية ٣٧].

أنه غير قابل للتصور وغير قابل للمس أو المسك، لا يحويه مكان أو فراغ. وليس له شكل وهو خالد لا يفنى. . .

«أما المادة التي تشبهونها (بالفواكه) مثلاً فهي غير موجودة، إذ إن شيئاً اسمه (الفواكه) لا يوجد. نعم، يوجد تفاح. فيه بعض خواص الفواكه وليس كلها، نعم، يوجد برتقال، فيه قسم آخر من خواص الفواكه، وليس كلها. نعم يوجد (كمثرى) فيه خواص أخرى من خواص الفواكه وليس كلها. أما شيء حسي فيه كل خواص الفواكه، فأمر لا يوجد. إلا أنه توجد كلمة (فواكه) في القاموس. على أن ذلك لا يعني وجودها في الحقيقية الواقعية. إن (مثال الفواكه) ليس مني ولست أنا الذي أتيت به، إنما الذي أتى به هو أنتم مع قولكم إن (الفواكه) في هذه الحالة تشبه المادة في حالتها. فإذا ثبت لنا عدم وجود (الفواكه) فإنَّ ذلك يعني، باعترافكم، عدم وجود المادة التي أبنتم خواصها قبل دقائق».

«هذا هو أساس دراستنا. واستمر النقاش مدة نصف ساعة أو أكثر بقليل، ثم قالت ما نصَّه: سيد . . .، (ذكرت اسم الطالب): إنَّ لدينا برنامجاً خاصاً يجب تنفيذه خلال مدة (السمينار Seminar)، وإننا لا نريد أن ندخل البلبلة إلى أفكار طلابنا! أمَّا إذا كان لديكم شيء من هذا القبيل، فبإمكانكم أن تذهبوا معي إلى الپروفسور المختص بالمادية الديالكتيكية ونعمل اجتماعاً ثلاثياً نطلع فيه بمعزل عن الطلبة على نظرتكم الجديدة إلى الكون؟ . . فكان جوابي الموافقة طبعاً. . . ».

«أما الدراسات الأخرى: فتحضير مؤتمر الأحزاب الشيوعي، وأحزاب العمال في موسكو وتطبيقه على الوضع في ألمانيا، على سبيل المثال».

«والخلاصة إنا يجب أن ندرس في السنة الدراسية الأولى كتاب (رأس المال) لـ(كارل ماركس) بالألمانية بأجزائه الثلاثة، ثم كتاب الاقتصاد السياسي، ثم كتاب أسس الماركسية اللينينية، ثم كتاب (أسس الفلسفة الماركسية)، ثم كتاب: (التكنولوجيا : Technologie)[1] ثم الرياضيات الاقتصادية».

---

(١) علم يوضح تاريخ وأصول البحث المتبعة في الفنون والصنائع.

«أما الشكل الدراسي الثالث: فتؤلف مجاميع من الطلبة، تدرس كل مجموعة على حدة خارج الوقت الدراسي المشترك ويعاون أفراد المجموعة بعضهم البعض».

«والطريقة الرابعة هي دراسة ذاتية داخل البيت أو المكتبات وقاعات المطالعة».

* * *

وهكذا نرى أنَّ هذا الشباب المؤمن بإلهام رباني وإفاضات نفسه الطاهرة يحرج الأساتذة حتى لا تستطيع جواباً فتقول وملؤها الشك والارتياب: «المادة لا ترى ولا تفنى وتتشكل بأشكال مختلفة» فإذا كانت المادة لا ترى (كما تقول الأستاذة الماركسية) فكيف علم المادي بوجودها مع أنه لا يعترف إلا بما يقع تحت إحدى حواسه الخمس التي لا يعلم كيف تكوَّنت لديه وكيف جهز بها.

ولعلَّه يقول: إن العقل هو الذي دلنا على أنَّ المادة لا ترى ولا تلمس، فإذا كان العقل هو المدار للاعتراف بما لا يرى بالعين ولا يلمس، فبالعقل وبإرجاع السبب إلى المسبب يعترف الإنسان السوي بإله مرتِّب لهذا العالم أبدع ترتيب، إله تتجلّى حكمته في كل جزيء من جزيئات هذا العالم، المنظور وغير المنظور. إله لا يشبه مخلوقاته في شيء، لافتقار هذه المخلوقات بما فيها المادة إلى أجزاء مختلفة لم تكن قبلاً (كما ثبت علمياً) رُتبت بتدبير فائق. فالله الذي لا يشبه مخلوقاته في شيء هو واجب الوجود وهو أزلي قديم، لم يسبقه شيء من الأشياء. وبغير هذا المنطق السليم لا يمكن أن تحل مشكلة هذا التنظيم المادي وخلق العقول والأرواح والملائكة والجن والحيويَّة إلى ما هنالك.

قد ثبت على أن التطوُّر لا يحدث في الجسم عفواً ومن تلقاء نفسه، وإنَّ العلم ليعترف أنَّ هناك قصوراً ذاتياً في جميع الأجسام. ولولا إرادة فائقة ومشيئة ربانية لما حصل أيّ تطور وأيّة طفرة وأي تحوُّل فجائي، ولما وجدت هذه الحيويَّة والخوارق التي نلمسها في أعضاء الجسم الإنساني. إنَّ التجارب في شتى العلوم تؤيِّد ما قلناه إلا أنَّ النفوس إذا تحجَّرت فرضت إرادتها الديكتاتورية على العلم، فأبادت العلماء، أولئك الذين خالفوها في الرأي على ضوء ما قاموا به من تجارب والمنطق الصحيح

كما حدث ذلك في الاتحاد السوفيتي، مع الأسف الشديد.

تقول الماركسية! : «وأما الإنسان فقد تطوَّر عن حيوان لعب بذلك العمل البشري دوراً كبيراً جداً»، فهل لها أن تقول : كيف وجد الحيوان وكيف وجد الآميبا (الكائن الحي ذي الخلية الواحدة) بأسلوب علمي صحيح دونما مغالطة. لكنها تجيب حالاً : «إن العلم لم يصل بعد إلى مرحلة يتمكن معها من الإجابة على هذا السؤال».

فهل من المعقول التمسُّك بنظريَّة واهية وإزهاق النفوس من أجلها وهي بعد لم تتحقَّق علمياً.

إنَّ العلم يؤكد بصورة قطعية : أنَّ الحيوية إنما وجدت على وجه الأرض بإرادة الله تعالى ومشيئته، ذلك لأنَّ التجارب تدل أن ليس في إمكان المادة أن تؤثِّر في نفسها وأن تكون من تلقاء نفسها نباتاً، فحيواناً فإنساناً.

إن العلم ليعترف أنَّ الأرض كانت قطعة نارية في درجة عالية من الحرارة فهل كان بالإمكان أن تعيش على سطحها خلية من الخلايا أو جرثومة من الجراثيم أو نبات أو حيوان، فما هذا الهذيان؟ فالمادية هراء ما بعده هراء ودس ما بعده دس وتضليل ما بعده تضليل.

* * *

تقول الأستاذة الماركسية : «إنّ من خواص المادة أنها غير قابلة للتصور». فلسائل أن يسأل، كيف عرفنا أن عدم إمكان التصوُّر من خواص المادة، فالمادة إذن ليست بشيء متصور ملموس، فهي إذن ليست بشيء يحس بالحواس الخمس ولا يمكن أن تتصور، فما هي المادة إذن؟ لعلهم يريدون أن يقولوا : إنَّ المادة هي القوة، أو الطاقة. فإذا كانت المادة على ما يزعمون! هي القوة نفسها على ما ثبت في الفيزياء إذن : المادة، كما تؤيِّده التجارب، صورة من صور الطاقة (القوى) ومظهر من مظاهر الإشعاع. فلم تبق المادية كما يفهمها الماديون، وإنما المادة كانت في الابتداء طاقات وقوى تكدَّست تحت نظام خاص حتى كانت هذه العناصر (الحديد، راديوم، أورانيوم. . .).

فقد قال (آينشتاين Einestein): «في الذرَّة طاقة كبيرة يُمكن تسخيرها والإفادة منها وإنَّ المادة صورة من صور الطاقة. وإنَّ الغرام الواحد من المادة يتحوَّل إلى (ألف مليون مليون مليون) وحدة من وحدات الطاقة وهي الأرك (Erg) أو إلى ٢٥ مليون كيلووات/ ساعة أي ما ثمنه ٥٥٠ ألف ديناراً كما قلنا سابقاً. فإذا استطاع الإنسان أن يستخدم الذرَّة لتؤثِّر في الجو فيسقط مطراً حين يريد، فذلك لما أودع الله تعالى من نظام ودستور في تشكل الأمطار وحدوثها وتراكم السحب أو حدوثها عند انفلاق الذرَّة. فالسحب ليست إلا طاقة مكدَّسة في بطن الذرَّة، فإذا انفلقت الذرَّة تحرَّرت، فأمطرت مطراً غزيراً بإذن الله تعالى على ضوء ما وضع من خواص ودساتير. فماذا الغرور؟

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾ كَلَّا بَلۡ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ﴿٩﴾﴾ [الإنفطار: الآيات ٦/ ٩].

ثم لنا أن نسأل ما هذا الاختلاف بين القوة التي تتألف منها المادية (١) الكترون: شحنة كهربائيَّة موجبة. (٢) پروتون: شحنة كهربائية سالبة. (٣) نيوترون: كهربائية موجبة وكهربائية سالبة متعادلتان.

هل وجدت الكهربائية الموجبة قبل أم الكهربائية السالبة؟ وهو عين ما يقال في الأزواج كلها، من نبات وحيوان وإنسان... هل وجِدَ الذكر قبلاً أم الأنثى؟

إنه تعالى يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ﴾ [النِّساء: الآية ١]. وفي آية أخرى: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنۡ خَلَقَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا لِّتَسۡكُنُوٓاْ إِلَيۡهَا وَجَعَلَ بَيۡنَكُم مَّوَدَّةٗ وَرَحۡمَةًۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الرُّوم: الآية ٢١]. فالله يدعونا إلى التفكير في هذه المرحلة الخطيرة التي ترد النظرية المادية (Materialisme) في الصميم ولا يدع مجالاً للنقاش.

فالذي جعل بين الذكر والأنثى مودةً ورحمة جعل بين قوَّتين مخالفتين، الكهربائيَّة الموجبة والكهربائيَّة السالبة بعد خلقهما مودة ورحمة وتوافقاً ووئاماً، ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَزۡوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلۡأَرۡضُ وَمِنۡ أَنفُسِهِمۡ وَمِمَّا لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [يس: الآية ٣٦]. ﴿وَمِن كُلِّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَا زَوۡجَيۡنِ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [الذّاريات: الآية ٤٩].

فإن قلنا إنَّ الكهربائيَّة الموجبة كانت موجودة قبلاً، فكيف خلقت لنفسها كهربائيَّةً سالبة وكيف أحسَّت بهذه الحاجة لتكوين الذرَّة وهي أساس الموجودات الماديَّة على اختلاف أنواعها.

فلا مفر من الاعتراف بخالق أوجد قوَّتين مخالفتين إما في وقت واحد (والله العالم) أو في زمنين متعاقبين، ووفق بينهما. وإنَّ هذا التوفيق لهو أعظم دليل على وجود الله جلت عظمته. خلافاً لمنطوق نظرية الأضداد التي يتشدَّق بها الماديُّون، كارل ماركس وأتباعه.. دونما تعمق أو لإغواء الناس انتصاراً للصهيونيَّة!.

﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: الآية ٤٦]، ﴿فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴿٣٠﴾ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾﴾ [الحج: الآيات ٣٠/ ٣٢].

مولد الرسول الأعظم ﷺ

(علاقة الإسلام بالعلم والحياة[(١)])

إنَّ نظرة بسيطة إلى هذا الكون تجعلنا نعلم أنَّ ما خلق الله من عوالم ومخلوقات شتى على ضربين منها تابعة إلى نظم ثابتة وخواص معيَّنة لا تتعدَّاها ومنها ما هي مختارة، لها من الإرادة في أن تفعل وأن لا تفعل، في أن تتصدَّى للخير أو لا تتصدى، في أن تكون مصدراً للشر أو لا تكون.

فهذه الجاذبيَّة التي تضرب بأطنابها في هذا الكون الرحيب والتي لها قوانينها ودساتيرها مؤتمرة بأمر الله تعالى لا تحيد عنها قيد شعرة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ﴾ [فاطر: الآية ٤١].

وهذه الذرَّة التي تبلغ من الصغر بحيث لا ترى بأدق الآلات والتي لو جمع عشرة ملايين منها على شرط الكروية لا تتجاوز مليمتراً واحداً هي عالم في نفسها،

---

(١) كلمة أُلقيت في حفل ميلاد الرسول ﷺ.

فالالكترونات تدور حول المركز أي البروتونات بنظام خاص وبشكل اهليلجي بسرعة (٢٠٠٠) كم في الثانية ولا تتخلف عما رسم لها من جانب الله تعالى.

وهناك في المركز نيوترونات وآنتي نيوترونات يحكم بوجودها العقل الرياضي، ونظام خاص في عدد الالكترونات والپروتونات ينشأ من ذلك اختلاف هذه العناصر التي شكلت العالم المادي، وقد عبأ الله تعالى طاقات في هذه الذرَّة لو تحرَّرت لأفنت العالم في بضع دقائق. كل هذه تابعة إلى نظم ثابتة ودساتير معيّنة ليس لها أن تتحول عنها بإرادتها إلى غيرها. وهكذا في عوالم النبات والحيوان، إلا هذا الإنسان، فقد منَّ الله عليه بإرادة جزئيَّة وجعله مسؤولاً بهذه الإرادة تجاه الأوامر التي بلغه إياها بواسطة سفرائه وهم الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام دفعاً للفساد والإفساد ولكي يأخذ هذا الإنسان سيره التكاملي في هذا الكون. ذلك لأنَّ الذي أعطى الكمال لكل شيء مادي في هذا الكون يريد بالإنسان أن لا يحيد عن سن الكمال. وهو القائل ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [الدّخان: الآيتان ٣٨/٣٩]. فوجب حسب هذا المنطق الطبيعي أن لا يحيد هذا الإنسان عن اتباع أوامر الله تعالى في أرضه وأن لا يفسد في الأرض ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٠٥] كي يقطع سيره التكاملي في هذا الكون.

وآخر هؤلاء السفراء بين خالق البشر والبشر وأكملهم هو نبيُّنا نبي الرحمة محمد ابن عبداللهﷺ. فقد بعث في وقت كانت البشريَّة مضطهدة تحت نير العبودية والرقية والاستبداد وعبادة الأوثان والفحشاء إلى حد بعيد فالرسول لم يأتِ نتيجة تكامل اجتماعي ـ كما يقول بذلك علماء الاجتماع ـ وإنما هو خارق لنواميس علم الاجتماع. فقد بعث في بيئة بلغت من التسافل أقصاه وهذا خير دليل أنه سفير موفد من جانب الله تعالى ليس للتكامل الاجتماعي أثر في وجوده، فقد خالف منذ صغره ما كان عليه قريش من المجون والتسافل ولم يحضر مجالسهم بل كان يفكر ويتعبَّد بطهارة نفس مرضيَّة وأخلاق ملكوتية حتى سماه قومه بالأمين.

كما أن هذا الانقلاب العظيم الذي قام به نبيِّنا محمدﷺ في حقول شتَّى من روحيَّة واجتماعيَّة واقتصاديَّة وعسكريَّة وإداريَّة وأدبيَّة وعلميَّة والذي تمَّ خلال ثلاثة

وعشرين عاماً لا يمكن حدوثه بالقوة البشريَّة العادية المحدودة فلا بدَّ من تأييد رباني ونصر إلهي حققا هذا الانقلاب بشكل معجز.

كانت رسالة النبي محمد ﷺ تحطيماً لطاغوت الشرك بالله وطاغوت التعصُّب الديني ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٥٦] وطاغوت التعصُّب الجنسي ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ﴾ [الحُجرَات: الآية ١٣] وطاغوت التفرقة الاجتماعية «كلكم من آدم وآدم من تراب» وطاغوت الظلم والبغي والطغيان وطاغوت الرق وطاغوت الرجل طغيانه على المرأة، فقرَّرت للمرأة حقوقها الإنسانيَّة في صورة شريفة لا رجعة فيها ولا نكسة ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٞ مِّمَّا ٱكۡتَسَبُواْۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٞ مِّمَّا ٱكۡتَسَبۡنَۚ﴾ [النِّساء: الآية ٣٢].

فرسالة النبي محمد ﷺ رسالة شاملة عامة تجمع بين سعادة الفرد في دنياه وآخرته، رسالة روعي فيها الجانب الروحي والجانب المادي على ضوء العقل والمنطق (لا ضرر ولا ضرار)، فالإسلام في صميمه حركة تحريريَّة من براثن الشرك والطبقية والبغي والتفريق العنصري وكل ما يلوِّث النفس الإنسانية من شهوات ونزوات.

إلا أنَّ أوروبا عارضت هذا الدين عندما أشرق نوره على أوساط الغرب أشد المعارضة وشوهت سمعة الإسلام ووصمته بالشرك وإنَّ محمداً إله يعبد، لذلك يقول أحد فلاسفة الغرب: «إن أوروبا قد ارتكبت أعظم الجرائم عندما سدَّت أبوابها على المسلمين الفاتحين وحرمت العالم من تعاليم هذا الدين القويم دين الإسلام، ولولا هذه المعارضة الأثيمة لرأيت العالم اليوم يوحِّد الله في أرضه ويطبِّق أوامر الله وتعاليمه التي أوحى بها إلى نبيه الكريم، فلا تطاحن ولا تباغض».

ولم تكتف أوربا بخلق الأكاذيب فحسب بل أخذت تتهم الإسلام بأنه دين لا يساير العصر في نظمه وتعاليمه، فأملَوا على شبابنا بعد أن ولجوا في أحضان المادة بما فيها من مآثم وشهوات، شبهات واتهامات ما أنزل الله بها من سلطان.

فقالوا: إن الإسلام لا يساير العلم، حين أن المسلمين ـ حسب اعتراف فلاسفة الغرب وكبار علمائهم ـ هم مؤسِّسوا النهضة العلميَّة الحاضرة لأوربا، وهم مكتشفوا

الطريقة التجريبية التي تعرف اليوم بالطريقة البيكونية، وهم واضعوا الهندسة التحليلية والتحليل الرياضي وعلم الجبر والفلك العالي، ولهم مكتشفات هامة في الحجوم والمساحات، وإنَّ نصف أسماء النجوم في مراصد هامة في مختلف البلدان ولا سيَّما في الأندلس، وعندما أهدى الخليفة العباسي ساعة إلى شارلمان حسبوا أنَّ فيها جنياً يحركها.

غاية ما هنالك كان الدين والتقوى يرافقان العلم ولا ينفكّان عنه، فالمكتشف كان لو أشكلت عليه مسألة أو عسر عليه اكتشاف ما يريد اكتشافه توسَّل إلى الله وصلى ركعات وسأل الله عزَّ وجلَّ في حل مشكلته، وهذا مما أدى إلى أن لا يكون العلم آلة هدم وتخريب للمعتقدات والفضائل، بخلاف ما نشاهده في جامعات العالم اليوم.

وقالوا إنَّ الإسلام يدعو إلى الكسل والانزواء، حين أنَّ الإسلام يأمر بالعمل والجهد المتواصل بشكل لا يؤدِّي إلى الإفساد في الأرض وإهمال النواحي الروحية والعبادية. وهو القائل ﴿فَٱمۡشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزۡقِهِۦۖ وَإِلَيۡهِ ٱلنُّشُورُ﴾ [المُلك: الآية ١٥]. إن رسول الله ﷺ قبّل ذات يوم يد عامل قائلاً: «إنها يد يحبها الله» تقديراً لمقام العامل في المجتمع. وقد جاء في حديث: «إن لربك عليك حقاً ولنفسك عليك حقاً ولأهلك عليك حقاً فأعطِ كل ذي حقٍ حقه»[1].

وفي حديث قال رسول الله ﷺ: «ليس خيركم من ترك دنياه لآخرته أو ترك آخرته لدنياه، بل خيركم من أخذ من هذه وهذه».

وقالوا لمَ أقر الإسلام الرق؟ الإسلام لم يقر الرق وإنما نظام الحروب في العصر الجاهلي كان يحتم ذلك والإسلام قد ألغى الرق بصورة تدريجية في جعل أحد وجوه مصروفات بيت المال عتق الرقاب. بقوله تعالى: ﴿وَفِي ٱلرِّقَابِ﴾ [البَقَرَة: الآية ١٧٧].

وقالوا إنَّ الإسلام قام بالسيف، حين أنَّ الإسلام كان مدافعاً عن مبدئه وإن مئات الملايين في الصين وإندونيسيا والهند أسلموا بمجرَّد الدعوة، وهكذا أضافوا أكاذيب أخرى، الإسلام منها براء، ولا مجال لذكرها. فما على المسلمين لا سيما الشباب

---

(١) كشف الغمة: ج١، ص٢٦٢.

المؤمن إلا أن يقوموا بتطبيق قواعد الإسلام وإزاحة هذه الرواسب البعيدة عن الحق والواقع وأن يرفعوا لواء الإسلام عالياً بجهاد متواصل ليتحقَّق ما تنبأ به بعض علماء الغرب من جعل الإسلام ديناً عالمياً، فلا تسمع في جميع بقاع الأرض إلا: لا إله إلا الله، محمد رسول الله.

ليلة الميلاد(١)

ما أبهجها من ليلة وما أسعدها، إنها ليلة حافلة بالخيرات والبركات للناس كافة، ليلة تضم بين جوانبها رجلاً عظيماً يفوق العظماء ومنقذاً للبشريَّة جمعاء لا كسائر المنقذين(٢).

إنها ليلة يولد في صبيحتها في بيت الله الحرام سيِّد الوصيِّين وإمام المتَّقين وقائد الغر المحجلين عليٌّ أمير المؤمنين عليه أفضل الصلاة والسلام.

أنَّى لإنسان عادي أن يصف مَن بلغ مرتبة النبوة كمحمدﷺ أو مرتبة الإمامة كعليعليه السلام، إنها من عوالم القدس، حيث ليس للمقاييس المادية أن تخطو هنالك خطوة واحدة. إنه عالم تكاملي نفسي، ولا يمكن تفهم هذا الصُقع الشامخ من عوالم النفس بمقاييس متعارفة بشريَّة. لذلك يقول الغزالي، ليس للطفل أن يتفهَّم ما يقوم به فيلسوف متبحِّر من محاكمات واستنتاجات واستقراءآت. وذلك أشبه شيء بمن يريد تفهم الرياضيات العالية بمقاييس الرياضيات العادية.

فليس الإمام عليعليه السلام من يمكن وصفه بمقاييس معلومة يفهمها الناس، وإنما شأنه الأنبياءعليهم السلام. يمكن التعرف إليه بما صدر عنه من آثار ابداع.

حقاً إنه لمن الصعوبة بمكان، بل من المستحيل أن يقوى أحد على وصف رجلٍ يقول فيه رسول اللهﷺ مخاطباً إياه:

«لو كانت السماوات قرطاساً والأشجار أقلاماً والبحار مداداً والإنس كتاباً والجن

---

(١) ألقيت ليلة ميلاد الإمام علي عليه أفضل الصلاة والسلام.

(٢) عدا نبينا محمدﷺ.

حساباً، لما أحصوا معشار فضائلك، يا علي»(١).

أنى لرجل أن يصف علياً عليه السلام وهو الذي قال فيه رسول الله صلى الله عليه وآله: «لولا أني أخشى على أمتي أن تقول فيك ما قالت النصارى في المسيح لقلت فيك قولاً ما مررت بقوم إلا وأخذوا التراب من تحت قدميك يتبركون به»(٢)، وهو الذي قال فيه رسول الله: «من أراد أن ينظر إلى آدم في علمه وإلى نوح في عبادته وإلى إبراهيم في خِلته وإلى موسى في هيبته وإلى عيسى في زهده وإلى يحيى في ورعه، فلينظر إلى علي بن أبي طالب، فإن فيه سبعين خصلةً من خصال الأنبياء»(٣).

كيف يوصف من يقول فيه رسول الله صلى الله عليه وآله على ما يروي لنا عمر: «لو وُضع إيمان علي في كفة والسماوات والأرض في كفة لرجح إيمان علي»(٤)...

كيف لا يكون الإمام علي كذلك وهو الذي كان يُغمى عليه من خوف الله تعالى كل ليلة مرات. وكان يكتفي بالملح إداماً، وكان يحمل على ظهره الطعام جوف الليل إلى بيوت الأرامل والفقراء. وقد طلق الدنيا ثلاثاً وهو مصداق هذه الآية: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٧٤].

فإنَّ قوة إيمان الشخص ليتناسب مع درجة تطهير نفسه وقيامه بأعمال صالحة، ومَن مثل علي عليه السلام في هذا المضمار؟ فحقيق أن يقول بشأنه رسول الله صلى الله عليه وآله: «برز الإيمان كله إلى الشرك كله».

وقد جاء في الحديث: «عبدي أطعني، أجعلك مثلي تقول للشيء كن فيكون». ولذلك ظهر على يد الإمام علي عليه السلام كثير من المكرمات والمعاجز مما يحيِّر الألباب.

فنهج البلاغة كتاب حوى أصولَ الفلسفة الحقة عن الكون والحياة ومصير الإنسان وواقعه وأصول الاقتصاد، حيث لا يضحى بالفرد على حساب المجتمع ولا بالمجتمع

---

(١) قريب منه في أمالي الصدوق، ص٥٥٧، مجلس٨٥، ح٢٣.
(٢) عوالي اللآلي: ج٤، ص٨٦.
(٣) الفضائل لابن شاذان: ص٩٨.
(٤) بحار الأنوار: ج٣٨، ص٢٤٨.

على حساب الفرد، حوى أسس إدارة شؤون البلاد وما يربط الشعب بالهيئة الحاكمة من حقوق، فهو كتاب فلسفي، إجتماعي، عرفاني، اقتصادي، أدبي، وفيه فصل الخطاب في كل حقل يحتاجه الإنسان في سيره التكاملي.

فليس لله بعد رسول الله ﷺ آية أكبر من الإمام علي عليه السلام، في جميع الحقول من علمية وفلسفة وغيرهما.

يسأل الامام علي عليه السلام عن المسافة بين السماء والأرض، فيجيب عليه السلام: دعاءٌ مستجاب.

حقاً، إن هذا الجواب، آخر ما يمكن أن يقال بشأن هذا الفضاء اللانهائي الرحيب، فقد اكتشف أخيراً أنَّ هنالك مجرات وكواكب تبعد عنا آلاف الملايين من السنين الضوئيَّة وانها تتباعد بعضها عن بعض بسرعة هائلة وإن الكون يتسع كل يوم ولا يُعلم مدى ذلك وهو قوله تعالى ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ۝٤٧﴾ [الذّاريات: الآية ٤٧] معلوم أنه لا يخلو مكان منه تعالى وهو القائل: ﴿وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنۡ حَبۡلِ ٱلۡوَرِيدِ﴾ [ق: الآية ١٦]. فقول الإمام علي: «دعاء مستجاب» يسري في جميع أنحاء هذا الكون الواسع الأرجاء.

ثم سُئل صلوات الله عليه: كم بين الشرق والمغرب؟ فيجيب: «مسيرة يوم للشمس». ولم يكن ليعلم أن للشمس حركة إلا قبل حوالي ٥٠ عاماً حيث تقدمت العلوم الرياضية العالية والميكانيك السماوي والمراقب. فعلموا أن الشمس مع توابعها من عطارد و زهرة وأرض ومريخ ومُشتري وزُحل وأورانوس ونپتون وپلوتو كلها تسير في الفضاء بسرعة سبعين ألف كيلومتر في الساعة بشكل أولي نحو نجمة تسمى بالنسر الواقع. وهو قوله تعالى ﴿وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ۝٣٨﴾ [يس: الآية ٣٨].

يُسأل عليه السلام عن مسائل رياضية. فيجيب ارتجالاً دونما حساب وتفكير. يُسأل عن عدد يقبل القسمة على ٢، ٣، ٤ إلى ١٠ فيقول وهو يهمز فرساً له: «إضرب أيام سنتك في أيام أسبوعك».

يُسأل عن مسائل فيزيائية، فيحلّها بشكل عملي ومعلوم أنَّ علم الفيزياء لم يكن معلوماً في الجزيرة العربية في ذلك الوقت.

يسأل عن قطر الشمس، فيجيب ٩٠٠ في ٩٠٠ ميل بقي ٨١٠٠٠٠ ميل ومعلوم أن الميل: ٤٠٠٠ ذراع لرجل متوسط القامة، فلو حولنا الذراع إلى انجات فأقدام، فياردات، فأميال، لحصلنا على عين ما عليه الفلك العالي اليوم من أن قطر الشمس ٨٦٥٣٨٠ ميلاً (الميل = ١٧٦٠ ياردة).

وهكذا نرى علياً قد زق العلم زقاً، وهو القائل. «هذا لعاب رسول الله هذا ما زقني رسول الله، علمني رسول الله ألف باب من العلم ينفتح لي من كل باب ألف باب»... هذا هو تعظيم الإسلام للعلم.

يقول الإمام علي ﷺ: «بالعلم يُعرف الله ويوحد». ويقول في مقامٍ آخر. «كثرة العلم في غير طاعة الله مادة الذنوب».

لو قارنا بين هذين الحديثين لعلمنا أن العلم لا يمكن أن يكون موصلا للحق والواقع وطريقاً للهداية ما لم يكن مقروناً بطاعة الله تعالى، ما لمْ يكن مماشيا مع التقوى. فإنَّ تباعد العلم عن التقوى وصار في معزل عن تهذيب النفس، أصبح وبآلا على الفرد بل على البشريَّة جمعاء، كما نشاهد ذلك اليوم.

فضعف العقائد والاستهزاء بالمقدسات أو تسخيف الدين إنما هي نتيجة ثقافة عاريةٍ عن أساليب تكامل النفس وتهذيبها وتطهيرها من الدنس والرجس. ولم يكن شيوع المذاهب الباطلة من مادية ووجودية وغيرهما في أوروبا وغير أوروبا إلا بنتيجة انفصال العلم عن تكامل النفس الإنسانية وجعل العلم المادي وحده معبوداً يُعمد، حلالاً للمشكلات الاجتماعية والنفسية وغيرهما.

على أن عدداً يسيراً من رجال الفكر في أوروبا أخذوا يندون بهذه الحضارة المادية التي لا تنبض إلا بشهوات ونزوات، ولا تصدر إلا عن مادية مظلمة حالكة. ولكن تيارات الشهوات الجارفة لم تدع أذناً صاغية لنداءاتهم، حتى صرنا نجابه عالماً مسلوب الفضيلة والعاطفة شأنه الطيش والبطش.

فما الذي يُرجع العالم إلى طمأنينة ودعة. إنما هو علم يمازجه التقوى، يمازجه عبادة الله في أرضه، إنما هو علم مع إيمان بالله ورسوله محمد ﷺ.

فالعالم بحاجة إلى هُداة مهديين يهدون الناس سواء السبيل، فقد قال الإمام علي عليه السلام: «أرسل رسولاً ليزيل به علتهم». فالناس مرضى والأنبياء عليهم السلام ومن بعدهم الأوصياء هم المعدلون.

ويقول الإمام علي عليه السلام في موضع آخر: «أرسل أنبياء ليثيروا في الناس دفائن عقولهم ويهدوهم إلى معايش تحييهم»[1]. فالأنبياء مع إتمامهم مكارم الأخلاق ليحثون الناس على تعلم شتى العلوم ويهدونهم إلى طرق اقتصادية تتحقَّق فيها العدالة الاجتماعية والإيثار. ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: الآية ٩]. ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَـٰبِقُونَ﴾ [المؤمنون: الآيتان ٦٠/ ٦١].

فما واجب المسلم تجاه الوضع العالمي الراهن؟ عالم يسوده الزيغ والانحراف. وأما في الوطن الإسلامي، فتيارات مختلفة تجرف عقائد شبابنا وتجعل منهم أعداءً لدينهم ومقدَّساتهم.

فهنا واجبان خطيران، أولاً: هداية الشباب بطرق عصرية مجدية من فتح نوادٍ إسلامية بشكل جذاب وإلقاء محاضرات عليهم وتفهيمهم، أن الإسلام هو دين الحضارة الحقة وتعليمهم آداب دينهم. فالشاب المسلم يقضي أوقات فراغه في هذه النوادي لتهذيب نفسه وأخذها إلى مراتب الكمال ويتعلم كيف يرشد إلى الدين القويم.

ثانياً: أن ينبري ثلة من رجالات الإسلام لتشكيل جمعية ذات فروع تأخذ على عاتقها تهيئة دعاةٍ للإسلام من الشباب المؤمن. دعاة تسلحوا بسلاح التقوى وسلاح العلم من ديني وعصري، يوزعون في أرجاء العالم لدعوة البشر إلى دين الإسلام تحت نظام خاص ومناهج منظمة ومسؤوليات معيَّنة. وهكذا يستنير العالم بهداهم ويكون الإسلام دين الفطرة ديناً عالمياً كما تنبأ (برناردشو) من قبل.

---

(١) نهج البلاغة، خطبة في الأنبياء.

﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾﴾ [العنكبوت: الآية ٦٩].

فإلى العمل، إلى العمل المتواصل أدعو كل مسلم غيور.

* * *

مسألة رياضية يحلها الإمام علي عليه السلام

قال السيد الداماد في بعض مؤلَّفاته في كتاب قبس الأنوار في الأوفاق الحروفية والعددية: كان علي بن أبي طالب عليه السلام يقول بالحروف وكان أحسن الناس، ثم نقل هذه الرواية: أن يهودياً أتاه، فقال: يا علي، أعلمني أي عدد يتصحَّح منه الكسور التسعة جميعاً من غير كسر وكذلك من كل كسوره التسعة إلا من خمسة، فيكون له كل من الكسور التسعة مصحَّحاً من غير كسر إلاَّ الثمن لربعه والربع لثمنه والسبع لسبعه والتسع لتسعه والثمن لثمنه، قال عليه السلام: إن أعلمتك تسلم؟ قال: نعم. فقال: إضرب أسبوعك في شهرك، ثم ما حصل لك في أيام سنتك تظفر بمطلوبك، فضرب اليهودي سبعة في ثلاثين فكان المرتقى: (٢١٠)، فضرب ذلك في ثلاثمائة وستين، فكان الحاصل: (٧٥٦٠٠). فوجد بغيته، فأسلم.

حلٌّ وتوضيح: بما أنه يجب أن يكون للنصف، نصف وثلث وربع وخمس وسدس وسبع وثمن وتسع وعشر. إذن يجب أن يكون للعدد المطلوب ١/٢ × ١/٢ = ١/٤ = $\frac{١}{٢}$ ٢.

أي يجب أن يقبل العدد القسمة على ٢ × ٢ = $٢^{٢}$. ويجب أن يقبل القسمة على ٢ × ٣ لأنه يجب أن يكون للنصف ثلث أي ١/٢ × ١/٣ = ١/٦. أي يجب أن يكون للعدد سدس.

وهكذا يجب أن يكون لنصف العدد المطلوب ربع أي: ١/٢ × ١/٤ = ١/٨.

فيجب أن يقبل العدد القسمة على: ٢ × ٤ = $٢^{٣}$ وعلى ٢ × ٥ وعلى ٢ × ٦ = ٢ × ٢ × ٣ أو $٢^{٢}$ × ٣.

وعلى ٢ × ٧

وعلى ٢ × ٨ = ٢ × $٢^{٣}$ = $٢^{٤}$

وعلى ٢ × ٩ = ٢ × $٣^{٢}$

وعلى ٢ × ١٠ = ٢ × ٢ × ٥ = $٢^{٢}$ × ٥

وبما أنه يجب أن يكون لثلث العدد نصف وثلث وربع... وعشر فيجب أن يقبل القسمة على: ٣ × ٢ = ٣ × ٢ (لأنه ١/٣ × ١/٢ = ١/٦)

وعلى ٣ × ٤ = ٣ × $٢^{٢}$ (ب)

وعلى ٣ × ٥ = ٣ × ٥

وعلى ٣ × ٦ = ٣ × ٣ × ٢ = $٣^{٢}$ × ٢

وعلى ٣ × ٧ = ٣ × ٧

وعلى ٣ × ٨ = ٣ × $٢^{٣}$

وعلى ٣ × ٩ = ٣ × $٣^{٢}$ = $٣^{٣}$

وعلى ٣ × ١٠ = ٣ × ٢ × ٥

وبما أنه يجب أن يكون لربع العدد نصف وثلث وربع وخمس .....إلخ (١/٤ × ١/٢ = ١/٨).

إذن وجب أن يقبل العدد القسمة على ٤ × ٢ = $٢^{٢}$ × ٢ = $٢^{٣}$.

وعلى ٤ × ٣ = $٢^{٢}$ × ٣

وعلى ٤ × ٤ = $٢^{٢}$ × $٢^{٢}$ = $٢^{٤}$ (ج)

وعلى ٤ × ٥ = $٢^{٢}$ × ٥

وعلى ٤ × ٦ = $٢^{٢}$ × ٢ × ٣ = $٢^{٣}$ × ٣

وعلى ٤ × ٧ = $٢^{٢}$ × ٧

وعلى ٤ × ٨ = $٢^{٢}$ × $٢^{٣}$ = $٢^{٥}$

وعلى ٤ × ٩ = $٢^{٢}$ × $٣^{٢}$

وعلى ٤ × ١٠ = $٢^{٢}$ × ٢ × ٥ = $٢^{٣}$ × ٥

وبما أنه يجب أن يكون لخمس العدد نصف وكذلك ثلث وربع وخمس ... إلخ.

ولما كان (٥/١ × ٢/١ = ١٠/١).

إذن وجب أن يقبل العدد القسمة على ٥ × ٢

وعلى ٥ × ٣

وعلى ٥ × ٤ = ٥ × $٢^{٢}$

وعلى ٥ × ٥ = $٥^{٢}$

وعلى ٥ × ٦ = ٥ × ٢ × ٣ (د)

وعلى ٥ × ٧ = ٥ × ٧

وعلى ٥ × ٨ = ٥ × $٢^{٣}$

وعلى ٥ × ٩ = ٥ × $٣^{٢}$

وعلى ٥ × ١٠ = ٥ × ٥ × ٢ = $٥^{٢}$ × ٢

ويما أنه يجب أن يكون لسدس العدد نصف وكذلك ثلث وربع وخمس . . . إلخ.

إذن وجب أن يقبل العدد القسمة على ٦ × ٢ = ٢ × ٣ × ٢ = $٢^{٢}$ × ٣

وعلى ٦ × ٣ = ٢ × ٣ × ٣ = ٢ × $٣^{٢}$

وعلى ٦ × ٤ = ٢ × ٣ × $٢^{٢}$ = $٢^{٣}$ × ٣

وعلى ٦ × ٥ = ٢ × ٣ × ٥ (هـ)

وعلى ٦ × ٦ = ٢ × ٣ × ٢ × ٣ = $٢^{٢}$ × $٣^{٢}$

وعلى ٦ × ٧ = ٢ × ٣ × ٧

وعلى ٦ × ٨ = ٢ × ٣ × $٢^{٣}$ = $٢^{٤}$ × ٣

وعلى ٦ × ٩ = ٢ × ٣ × $٣^{٢}$ = ٢ × $٣^{٣}$

وعلى ٦ × ١٠ = ٢ × ٣ × ٢ × ٥ = $٢^{٢}$ × ٣ × ٥

ويما أنه يجب أن يكون لسبع العدد نصف وكذلك ثلث وربع وخمس. . . إلخ.

إذن وجب أن يقبل العدد القسمة على ٧ × ٢

وعلى ٧ × ٣

وعلى ٧ × ٤ = ٧ × $٢^{٢}$

وعلى ٧ × ٥ (و)

وعلى ٧ × ٦ = ٧ × ٢ × ٣

وعلى ٧ × ٧ = ٧^{٢}

وعلى ٧ × ٨ = ٧ × ٢^{٣}

وعلى ٧ × ٩ = ٧ × ٣^{٢}

وعلى ٧ × ١٠ = ٧ × ٢ × ٥

وبما أنه يجب أن يكون لثمن العدد نصفٌ وكذلك ثلث وربع وخمس. . . إلخ.

إذن وجب أن يقبل العدد القسمة على ٨ × ٢ = ٢^{٣} × ٢ = ٢^{٤}

وعلى ٨ × ٣ = ٢^{٣} × ٣

وعلى ٨ × ٤ = ٢^{٣} × ٢^{٢} = ٢^{٥}

وعلى ٨ × ٥ = ٢^{٣} × ٥ (ز)

وعلى ٨ × ٦ = ٢^{٣} × ٢ × ٣ = ٢^{٤} × ٣

وعلى ٨ × ٧ = ٢^{٣} × ٧

وعلى ٨ × ٨ = ٢^{٣} × ٢^{٣} = ٢^{٦}

وعلى ٨ × ٩ = ٢^{٣} × ٣^{٢}

وعلى ٨ × ١٠ = ٢^{٢} × ٢ × ٥ = ٢^{٤} × ٥

وبما أنه يجب أن يكون لتسع العدد نصف وكذلك ثلث وربع. . . إلخ دون باقٍ.

إذن وجب أن يقبل العدد القسمة على ٩ × ٢ = ٣^{٢} × ٢

وعلى ٩ × ٣ = ٣^{٢} × ٣ = ٣^{٣}

وعلى ٩ × ٤ = ٣^{٢} × ٢^{٢}

وعلى ٩ × ٥ = ٣^{٢} × ٥ (ح)

وعلى ٩ × ٦ = ٣^{٢} × ٢ × ٣ = ٣^{٣} × ٢

وعلى ٩ × ٧ = ٣^{٢} × ٧

وعلى ٩ × ٨ = ٣^{٢} × ٢^{٣}

وعلى $٩ \times ٩ = ٣^{٢} \times ٣^{٢} = ٣^{٤}$

وعلى $٩ \times ١٠ = ٣^{٢} \times ٢ \times ٥$

وبما أنه يجب أن يكون لعشر العدد نصفٌ وكذلك ثلث وربع وخمس. . . إلخ.

إذن وجب أن يقبل العدد القسمة على $١٠ \times ٢ = ٢ \times ٥ \times ٢ = ٢^{٢} \times ٥$

وعلى $١٠ \times ٣ = ٢ \times ٥ \times ٣$

وعلى $١٠ \times ٤ = ٢ \times ٥ \times ٢^{٢} = ٢^{٣} \times ٥$

وعلى $١٠ \times ٥ = ٢ \times ٥ \times ٥ = ٢ \times ٥^{٢}$ (ط)

وعلى $١٠ \times ٦ = ٢ \times ٥ \times ٢ \times ٣ = ٢^{٢} \times ٥ \times ٣$

وعلى $١٠ \times ٧ = ٢ \times ٥ \times ٧$

وعلى $١٠ \times ٨ = ٢ \times ٥ \times ٢^{٣} = ٥ \times ٢^{٤}$

وعلى $١٠ \times ٩ = ٢ \times ٥ \times ٣^{٢}$

وعلى $١٠ \times ١٠ = ٢ \times ٥ \times ٢ \times ٥ = ٢^{٢} \times ٥^{٢}$

فالمضاعف المشترك البسيط لجميع هذه الأعداد هو:

$٢^{٦} \times ٣^{٤} \times ٥^{٢} \times ٧^{٢} = ٦٤ \times ٨١ \times ٢٥ \times ٤٩ = ٦٣٥٠٤٠٠$

فلو رجعنا إلى حل المسألة كما في المنطوق وقمنا بالعملية الآتية: $٧ \times ٣٠ \times ٣٦٠$ (عدد أيام الأسبوع في عدد أيام الشهر في عدد أيام السنة).

$٣٠ = ٢ \times ٣ \times ٥$

$٣٦٠ = ٢^{٣} \times ٣^{٢} \times ٥$

إذن: $٧ \times ٣٠ \times ٣٦٠ = ٧ \times ٢ \times ٣ \times ٥ \times ٢^{٣} \times ٣^{٢} \times ٥$

$٧ \times ٢^{٤} \times ٣^{٣} \times ٥^{٢} = ٧٥٦٠٠$

فلا يوجد في حاصل الضرب الأخير $٢^{٦}$ أو $٢^{٣} \times ٢^{٣} = ٨ \times ٨$

فلا يكون له ثمن الثمن (كما هو منطوق المسألة).

ولا يوجد في حاصل الضرب الأخير $٩ \times ٩ = ٣^{٢} \times ٣^{٢} = ٣^{٤}$

إذن لا يكون له تسع التسع (كما في المنطوق) ولا يوجد في حاصل الضرب

الأخير ٤ × ٨ = $٢^{٢}$ × $٢^{٣}$ = $٢^{٥}$ = $٢^{٣}$ × $٢^{٢}$ = $٢^{٥}$.

إذن لا يكون له ربع الثمن أو ثمن الربع (كما في المنطوق) ولا يوجد في حاصل الضرب الأخير ٧ × ٧ = $٧^{٢}$.

إذن لا يكون له سبع السبع. (كما في المنطوق).

فطريقة الحل: أن يؤخذ المضاعف المشترك البسيط للنتائج الأخيرة، (أ)، (ب)، (ج)، (د)، (هـ)، (و)، (ز)، (ح)، (ط)، فيكون هذا المضاعف = $٢^{٦}$ × $٣^{٤}$ × $٥^{٢}$ × $٧^{٢}$.

وبما أنه يجب أن لا يكون للعدد المطلوب سبع السبع، ٧/١ × ٧/١ = $٧^{٢}$/١ إذن وجب أن يكون رأس ٧ في المضاعف المشترك البسيط واحداً أي لا يكون هناك العامل $٧^{٢}$.

وبما أنه يجب أن لا يكون للعدد المطلوب تسع التسع أو ٩/١ × ٩/١ أو $٣^{٢}$/١ = $٣^{٤}$/١، إذن وجب أن يكون أس ٣ في المضاعف المذكور ٣ أي يجب أن يكون العامل $٣^{٣}$.

وبما أنه يجب أن لا يكون للعدد المطلوب ربع الثمن أو ٤/١ × ٨/١ أو $٢^{٢}$/١ × $٢^{٣}$/١ = $٢^{٥}$/١ إذن وجب أن ينزل أس ٢ إلى ٤ فيكون $٢^{٤}$ في المضاعف المشترك البسيط. لأنَّ العدد لا يقبل القسمة على $٢^{٥}$ أو لا يكون له ربع الثمن ما لم يكن أحد عوامله $٢^{٥}$ وكذا الحال في ثمن الربع = ٨/١ × ٤/١ = $٢^{٣}$/١ × $٢^{٢}$/١ = $٢^{٥}$/١

وبصورة طبيعيَّة لا يكون للعدد المذكور: أي (٧٥٦٠٠) ثمن الثمن، ذلك لأنا نزلنا أس ٢ إلى ٤ أي جعلناه $٢^{٤}$ والعدد لا يكون له ثمن الثمن = ٨/١ × ٨/١ = $٢^{٣}$/١ × $٢^{٣}$/١ = $٢^{٦}$/١ ما لم يكن فيه العامل $٢^{٦}$ وقد حذفناه بجعل الأس ٣، ٤ (أربعة).

تتكون العوامل للعدد المطلوب إيجاده كما يلي:

٧ × $٢^{٤}$ × $٣^{٣}$ × $٥^{٢}$ = ٧ × ٥ × ٣ × ٢ × $٢^{٣}$ × $٣^{٢}$ × ٥ = ٧ × ٥ × ٣ × ٢ × ٨ × ٩ × ٥ = ٧ × ٣٠ × ٣٦٠ = ٧٥٦٠٠.

وهو حاصل ضرب أيام الأسبوع في أيام الشهر ثم في أيام السنة. كما قال به الإمام عليه أفضل الصلاة والسلام.

ميلاد الزهراء عليها السلام[1]

ما أبهجها من ليلة، إنها ليلة يُحتفى فيها بذكرى ميلاد سيدة النساء فاطمة الزهراء سلام الله عليها. فإنها كانت قد بلغت من الكمال أوجاً قاصياً. كان يحبها رسول الله ﷺ حباً جماً. فإذا دخلت عليه قام لها وأجلسها في مجلسه، وإذا قصد سفراً كان آخر الناس عهداً به فاطمة وإذا قدم من سفر أتى المسجد فصلّى فيه ركعتين ثم ثنّى بفاطمة عليها السلام ثم يأتي أزواجه. وهكذا كانت فاطمة عليها السلام موضع حفاوة رسول الله ﷺ. فقد روى كل من البخاري ومسلم والترمذي عن النبي ﷺ إنه قال: «كمل من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء إلا مريم ابنة عمران، وآسية بنت مزاحم امرأة فرعون، وخديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد».

ذلك لأنَّ النساء من حيث الطاقات أقل من الرجال كما يقول ذلك العالم الاجتماعي (پردون). إنه يقول: إن الحياة الاجتماعية تتألف من طاقات ثلاث: العلم والعمل والعدالة. وإنَّ نسبة طاقات الرجل إلى طاقات المرأة كنسبة ٣ إلى ٢ أي ٢/ ٣، فللعلم ٢/ ٣، وللعمل ٢/ ٣، وللعدالة ٢/ ٣، إذن ٢/ ٣ × ٢/ ٣ × ٢/ ٣ = ٨/ ٢٧ فيُعلم من هاهنا أنَّ نسبة طاقات الرجل إلى المرأة كنسبة ٢٧ إلى ٨ أي: ٨/ ٢٧.

يقول الله تبارك وتعالى: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾ [النِّساء: الآية ٣٤] وفي آية أخرى: ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٢٨].

ومما لا مراء فيه أن التكامل العلمي إنما كان من قبل الرجال، وإن عقول الرجال هي التي جاءت بهذه الكتلة من المكتشفات والمخترعات والنظريات فلم تنبغ امرأة في العلوم العقلية وفي المكتشفات الرياضية والفلكيَّة والفيزيائيَّة إلى ما هنالك إلا (مدام كوري)، أستاذة الفيزياء في جامعة (السوربون). فقد جاءت بنظرية الإشعاع حين أخفت في جيبها قطعة من الراديوم كانت قد علمت وزنها قبلاً. وقد أكمل الفيزيائيون

---

(١) ألقيت هذه الكلمة في حفلة أقيمت من قبل الطلاب الجامعيِّين إحياءً لذكرى ميلاد سيدة النساء عليها السلام في ٢٠ جمادى الآخرة لسنة ١٣٨٢هـ في الكاظميَّة.

هذه النظرية حتى بلغوا إلى تحطيم الذرَّة ودستور اكتشفه (آينشتاين) ط = ك ع٢.

أي أن الطاقة التي ادخرها الله تعالى في بطن الذرَّة تعادل مربع سرعة الضوء مضروباً في الكتلة. وما أعظم هذه الطاقة. فليتق الإنسان ربه عندما يشاهد ما أودع الله في هذا الكون من طاقات هائلة تحيِّر الألباب.

سادتي، إن العالم بأجمعه عالم كمال في الحياة المادية. فلو أبصرتم ما في بطن الذرة من كمال وما أودع الله من كمال فائق في كل جزء من أجزاء هذا الكون الرحيب، لعلمتم أن ما من شيء في هذا العالم المادي إلا وقد بلغ أقصى مراتب الكمال. وإن هذا الإنسان بغروره وخيلائه لهو شيء ضئيل وضئيل جداً في هذا الكون اللانهائي.

وقد يكون الإنسان مغروراً بمركزه في هذا الكون. ولكن شمسنا هذه التي هي أكبر من أرضنا هذه ١٣٠٠٠٠٠ مرة تقريباً ما هي إلا نجم متوسط الحجم من نجوم مجرَّة (درب التبانة) التي يبلغ عددها مئة ألف مليون نجم تقريباً. وليست شمسنا هذه ومع الأسف واقعة في منتصف هذه المجرَّة الكبيرة جداً ولكنها واقعة قرب الطرف على الحافة تقريباً في موقع مدحور، ليس من العظمة في شيء.

وأعظم من هذا فقد علم الفلكيون أن هناك من (المجرات) في الكون بعدد النجوم الموجودة في مجرَّتنا هذه: (درب التبانة). إذن ما قيمة هذا الإنسان المغرور بنفسه في هذا الكون الرحيب الذي لا يمكن الوصول إلى غوره وأعماقه. هذا الكون الذي كلما كملت آلات الرصد والعلوم الرياضية والفيزيائية والكيميائية عثروا فيه على شموس ومجرات وسُدم أخرى تدهش العقول والألباب.

والإنسان وهو على سطح الأرض يتحرك بحركات شتى. إنه يتحرك مع سطح الأرض حين تدور حول نفسها وسرعتها باتجاه دورانها تبلغ ربع الميل في الثانية أي (٩٠٠ ميل في الساعة) إذا كان على خط الاستواء وأقل من ذلك كلما قرب القطبين.

والإنسان يتحرَّك مع الأرض نفسها في دورتها السنوية حول الشمس والأرض تسير في حركتها هذه بسرعة ١٨,٥ ميلاً في الثانية أي ثلاثين كيلو متراً في الثانية.

والشمس وكواكبها تسير في هذا الكون الرحيب بالنسبة إلى جاراتها النجوم،

بسرعة هائلة (٧٢٠٠٠) كم/ ساعة على شكل لولبي نحو نجمة تسمى بالنسر الواقع، ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾﴾ [يس: الآية ٣٨].

وإنَّ الشمس كما قلنا هي نجم من نجوم مجرَّة «درب التبانة» وهذه كالمجرات الأخرى تدور حول نفسها بسرعة هائلة وشمسنا تدور معها طبعاً ونحن ندور مع أرضنا أيضاً وسرعة مجرتنا هذه حين دورانها حول نفسها مائة وعشرون ميلاً في الثانية أي: ٤٣٢٠٠٠ ميل/ ساعة.

وإنَّ المجرات تتباعد بعضها عن بعض بسرعة هائلة، بسرعة تتراوح بين (٦٠٠ ـ ٤٠٠٠٠) ميل/ ثانية فيتسع هذا الكون يوماً بعد يوم ويتحقق قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [الذاريات: الآية ٤٧].

فما هي قيمة الإنسان في هذا الكون الفسيح إن هو لم يعبد الله تبارك وتعالى ولم يخشع ولم يقم بأعمال صالحة تطهيراً لنفسه وإبلاغها مراتب الكمال. وهل يحق للإنسان أن يغتر بنفسه لأن الله منَّ عليه فعرَّفه شيئاً ضئيلاً مما أودع من كمال في هذا الكون. وهل كان للإنسان دخل في سر الشموس والمجرَّات وفي صنع الذرَّة!

﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ﴿٦﴾ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾ كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ ﴿٩﴾ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَاتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الإنفطار: الآيات ٦/ ١٢].

ليفكر الإنسان في ما أودع الله من دساتير رياضيَّة ومعادلات عميقة تربط أجزاء هذا الكون بعضها ببعض بكمال فائق ما بعده كمال، وكيف أنَّ هذا الكون إنما هو مجموعة قوى وطاقات كهربائيَّة ومغناطيسيَّة وجاذبية وإنه لا مجال للمادة (بالمعنى الذي يقوله الماديون) فيه وكيف أنَّ الله تعالى يسيِّر الإلكترون في بطن الذرَّة (هذه التي لا يمكن أن ترى بأدق الآلات) بسرعة ٢٠٠٠ كم في الثانية حول النواة، البروتون، وأنَّ قطر نواة الذرَّة = ٠,٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠١ مم؛ أي واحداً من ترليون جزء من الميليمتر. وكيف أنَّ الله تعالى جعل البروتونات وهي كهربائيَّة موجبة متماسكة بعضها مع بعض بطاقات هائلة لو تحررت أهلكت كل ما حواليها إلى مسافات شاسعة، ليفكر الإنسان في هذا الكمال الذي أودعه الله في كل ما خلق من عوالم شتى، عالم الجماد

والنبات والحيوان، لنرى أنَّ هنالك كمالين، كمالاً قسرياً نشاهده في الذرَّة وفي الشمس والقمر والكواكب والمجرات والنيازك والسدم والغاز الكوني: هيدروجين؛ وكمالاً تدريجياً اختيارياً لهذا الإنسان الناقص، الذي لابدَّ له أن يتكامل وأن يقطع سيره التكاملي. ذلك: لأنَّ الكامل على الإطلاق وهو الله تعالى لا يصدر منه إلا الكمال. فإما كمال قسري وهذا ما نشاهده في الذرة وغير الذرة وكمال تدريجي اختياري لهذا الإنسان على لسان الأنبياء والأوصياء عليهم السلام.

ـ ٢٠٢ ـ فالأنبياء والأوصياء معصومون من الزلل وهم قدوة للكمال البشري. وقد جعل الله تعالى للنساء قدوةً من النساء الصالحات، وأنَّ فاطمة الزهراء عليها السلام سيدة النساء الكاملات. بل هي قدوة للرجال وللبشر أجمع. كيف لا تكون كذلك وهي التي عبدت الله تبارك وتعالى حتى تورَّمت قدماها. يقول الإمام الحسن عليه السلام رأيت أمّي فاطمة عليها السلام قامت في محرابها ليلة جمعتها، فلم تزل راكعة ساجدة حتى اتَّضح عمود الصبح وسمعتها تدعو للمؤمنين والمؤمنات وتسميهم وتكثر الدعاء لهم ولا تدعو لنفسها بشيء. فقلت لها ألا تدعين لنفسك. فقالت: يا بُني، الجار ثم الدار. وهي التي أوصت أن توضع في كفنها قارورة كانت قد جمعت فيها بعض ما ذرفت من الدموع خوفاً من الله تعالى.

ونراها تبذل ما لديها في سبيل الله تعالى لتحكيم دعائم الإسلام. فقد روى أحمد ابن حنبل أن رسول الله صلى الله عليه وآله رأى ذات يوم مِسحاً (وهو كساء معروف) على باب دار فاطمة ورأى على الحسن والحسين قُلبين (أي سوارين) من فضة فرجع ولم يدخل عليها فظنَّت أنه لأجل ما رأى فهتكت الستر ونزعت القلبين عن الصبيَّين فقطعتهما، فبكى الصبيان فقسمته بينهما فانطلقا إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وهما يبكيان، فأخذه رسول الله صلى الله عليه وآله منهما وقال: يا ثوبان اذهب بهذا إلى بني فلان، واشترِ لفاطمة قلادة من عصب (فوسيلة دابة بحرية) وسوارين من عاج. فإنَّ هؤلاء أهل بيتي، ولا أحب أن يأكلوا طيباتهم في حياتهم الدنيا»(١).

---

(١) بحار الأنوار: ج٤٣، ص٨٩.

وروى الصدوق في الأمالي، قال: كان النبي ﷺ إذا قدم من سفره بدأ بفاطمة ﷺ فدخل عليها، وأطال عندها المكث. فخرج مرة في سفر فصنعت فاطمة مسكتين من ورق (أي فضة) وقلادة وقرطين وستراً للباب لقدوم أبيها وزوجها ﷺ. فلما قدم رسول الله ﷺ دخل عليها. فوقف أصحابه على الباب. فخرج عليهم وقد عرف الغضب في وجهه، حتى جلس عند المنبر. فظنَّت فاطمة أنه إنما فعل ذلك ﷺ لما رأى من المسكتين والقلادة والقرطين والستر. فنزعت ذلك وبعثت به إلى رسول الله ﷺ وقالت للرسول: قل له: «تقرأ عليك ابنتك السلام وتقول اجعل هذا في سبيل الله» فلما أتاه قال: «فعلت، فداها أبوها» ثلاث مرات، ليست الدنيا من محمد ولا من آل محمد[2]، ولو كانت الدنيا تعدل عند الله من الخير جناح بعوضة ما أسقى فيها كافراً شربة ماء، ثم قام، فدخل عليها[1].

يأتي رجل من مهاجرة العرب إلى رسول الله ﷺ وهو في المسجد، فيقول: إني جائع الكبد فأطعمني وفقير فأغنني وعاري الجسد فاكسني... فيقول له رسول الله ﷺ: «ما أجد لك شيئاً. ولكن الدال على الخير كفاعله انطلق إلى ابنتي فاطمة» ويأمر بلالاً أن يوقف به على منزل فاطمة ﷺ فنادى بأعلى صوته: «السلام عليكم يا أهل بيت النبوة ومختلف الملائكة. يا بنت محمد إني عاري الجسد جائع الكبد فواسيني يرحمك الله». وكان علي وفاطمة ثلاثاً ما طعموا طعاماً، فتعمد فاطمة إلى جلد كبش مدبوغ كان ينام عليه الحسنان وتعطيه الشيخ قائلة: «عسى الله أن يتيح لك ما هو خير منه». فيقول الشيخ: «أنا شكوت إليك الجوع فناولتني جلد كبش، فما أنا صانع به مع ما أجد من السغب» فتعمد فاطمة ﷺ إلى عِقد في عنقها، أهدته إليها فاطمة بنت عمها حمزة فقطعته من عنقها وتنبذه إلى الأعرابي. وتقول: «خذه وبعه فعسى الله أن يعوضك بما هو خير لك منه». فتُقضى حاجة الرجل ويرجع إلى أهله موفوراً[2].

كيف لا تكون فاطمة امرأة قد بلغت غاية الكمال، فإن رسول الله ﷺ قد دخل عليها ذات يوم فرأى عليها كساءً من أجلال الإبل وهي تطحن بيديها وترضع ولدها، فدمعت

(١) أمالي الصدوق: ص٢٣٤، مجلس٤١، ح٧ (٢) بحار الأنوار: ج٤٣ ص٥٦، باب٣.

عينا رسول الله ﷺ، فقال: «يا بنتاه تعجلي مرارة الدنيا بحلاوة الآخرة» فقالت: «يا رسول الله، الحمد لله على نعمائه والشكر على آلائه». فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ۝٥﴾ [الضحى: الآية ٥] (١).

انظروا إلى هذا الكمال الرائع الذي نشاهده عند فاطمة الزهراء سلام الله عليها. ذلك أنَّ رسول الله ﷺ يسأل ذات يوم نساء المدينة: ما هو أفضل شيء للمرأة. فتأتي الأجوبة، وبينها من تقول: «أفضل شيء للمرأة أن لا ترى رجلاً ولا يراها رجل». فيعلم رسول الله ﷺ أن هذا الجواب إنما هو من ابنته فاطمة الزهراء عليها السلام. فيقول ﷺ: «ذرية بعضها من بعض»(٢).

كل ذلك. لأنَّ اختلاط الجنسين يؤدي إلى فساد في الأرض والفساد يزيح الإيمان!. وهو قوله تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًاۚ لَّا يَسْتَوُۥنَ ۝١٨﴾ [السَّجدَة: الآية ١٨]. ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ﴾ [ص: الآية ٢٨]. وقد قال تعالى: ﴿حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓا۟ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: الآية ٣٣].

وهكذا يعمل الفسق في إزاحة الإيمان، حتى جاء في الحديث: «النظرة سهم من سهام إبليس لعنه الله، فمن تركها خوفاً من الله آتاه الله إيماناً يرى حلاوته في نفسه»(٣). لذلك يكره (كما جاء في الحديث) أن يجلس الرجل حيث جلست المرأة قبل أن يبرد محلّها.

سادتي، إن أوروبا بمجونها وشهواتها ونزواتها ومجالس الرقص فيها ترجع القهقرى، إنها ترجع إلى جاهلية جهلاء. وإنَّ هذه الحضارة كما قال بذلك كبار علمائها آئلة إلى انهيار عاجل.

فإذا رأينا أن امرأة أمريكية تأتي إلى باريس وتقف في وسط شارع (شانزيليزه)، تنزع ما عليها من ثياب وتصبح عارية وتمشي في الشارع لترى الناس ما بلغت أمريكا من الحرية، أو إذا رأينا أن البنات يختطفن الشبان في السويد وإذا رأينا أن لا بأس بما

---

(١) بحار الأنوار: ج٤٣، ص٨٥، باب ٤.
(٢) بحار الأنوار: ج٤٣، ص٨٥، باب ٤.
(٣) من لا يحضره الفقيه: ج٤، ح٤٩٦٩.

يحدث في السيارة في إيطاليا في شارع عام بين الرجل والمرأة ما دام هناك ستار، وإذا رأينا أن الناس يَنزو بعضهم على بعض علانية على سواحل البحار وضفاف الأنهار وخلف الأشجار بل على قارعة الطريق! وإذا رأينا أن الفتاة لها أن تعمل ما تشاء قبل الزواج. فإنما نرى ما كان عليه البدائيون قبل بعثة الرسل، وما عليه الآن القبائل المتوحشة من تقديم الرجل زوجته إلى ضيفه ليلاً ومن أن البنت لها أن تتصل بمن تشاء إذا بلغت الخامسة من عمرها وأن تقدم البنت ليلة زفافها إلى المدعوين واحداً بعد آخر. أو إلى رئيس القبيلة أو الملك حتى يأتي بعد ذلك دور الزوج!!!..

فوظيفة الشاب المؤمن أن يقوم بجد بالغ لنشر الدعوة الإسلامية وإنقاذ البشريّة مما ألمَّ بها من جاهلية جهلاء. وحري بجميع المؤمنين الأثرياء أن يقوموا بتأسيس أندية للشباب في كل بلد إسلامي، لكي يجتمع الشباب المؤمن في هذه الأندية في أوقات الفراغ فيتعلم فيها مبادئ الدين الإسلامي، وتفسير القرآن وشيئاً من الفقه والحديث، ويجب أن تضم هذه الأندية قاعة كبيرة للصلاة وقاعة للمحاضرات ومكتبة إسلامية وساحة للألعاب المشروعة التي تقوي العضلات وتجعل الشاب المؤمن قوياً في جسده. فقد قال الله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: الآية ٦٠]. وأهمها قوة الأبدان...

فكم من شبان كانوا سبباً لإسلام كثيرين. فهذه اليابان متعطشة إلى مبلغين ودعاة يدعونهم إلى الدين الحنيف وهكذا في أوساط إفريقيا وفي أمريكا وأوروبا.

ونحن نرى والحمد لله تقدماً محسوساً بين الشباب في التوجه إلى الإسلام والقيام بجهاد ملموس في خدمة الدين.

وهل سمعتم قبل هذا أن شباناً جامعيين وغير جامعيين يقيمون حفلة كبرى إحياءً لذكرى سيدة النساء فاطمة الزهراء سلام الله عليها أو يقومون بإقامة الصلاة في كليات جامعة بغداد. ككلية الهندسة والعلوم والآداب والتربية... وهل سمعتم شباناً أخذوا على عواتقهم أن يضحوا بالنفس والنفيس في سبيل نشر الدعوة الإسلامية في أصقاع الأرض ليرفعوا لواء الإسلام عالياً، فيعم الدين الإسلامي الأرض كلها فيكون الإسلام ديناً عالمياً كما تنبأ بذلك (برناردشو) قبل سنين.

فجزاكم الله أيها الشبان المجاهدون عن الإسلام خيراً. فأنتم القدوة الصالحة، يقتدى بكم في بقاع الأرض، في الجامعات وغيرها من المعاهد. فالإسلام لكم وإليكم، فهبوا مضحين. فلا شيء أثمن في هذا الكون من أن يأخذ شاب بيد شاب آخر يهديه إلى صراط الله القويم. ففي هذه الهداية حياة خالدة هنيئة تهديها أنت لأخيك الشاب. إنه تعالى يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الأنفال: الآية ٢٤].

كيف ننقذ الشباب

لاقيت في الليلة الماضية رجلاً فاضلاً، فقلت له: قد قمنا بتنظيم للشباب المؤمن الذي يحضر لسماع المحاضرات الدينية، ليالي الجمعة وليالي السبت، فشكلنا منهم لجنة بإسم: لجنة التنظيم، ولجنة بإسم: لجنة الثقافة الدينية، ولجنة بإسم: لجنة الإرشاد والتبشير، وسوف نشكِّل لجاناً أخرى تعمل كل لجنة في حدود واجباتها بإخلاص، وتبذل طاقاتها وأوقات فراغها في صقع نافع أمين لخدمة هذا الدين، تقدم كل لجنة تقريراً شهرياً عن أعمالها وفعالياتها وتتقبل الاعتراضات والاقتراحات وتعمل على معالجتها وتحقيقها.

فأجاب قائلاً: ليس هذا بعمل مجدٍ، وإنما علينا أن لا نرسل أولادنا إلى المدارس الحديثة. كي لا ينحرفوا، وكان معنا رجل فاضل كان قد عرك الحياة إلى حدٍّ ما، ووقف على الوضع الراهن، فقال له: هذا علاج سلبي، يُنجي بعض الأفراد من الانزلاق. ولكن هل تمكنت أنت أن تمنع ولدك من أن يذهب إلى المدارس الحديثة. قال: كلا، فقال: ففي أي صف هو الآن؟ أجاب: إنه في الخامس العلمي. قال: إن كنت أنت مع اهتمامك بالموضوع لا تقوى على ردع ولدك من الذهاب إلى المدارس الحديثة، فكيف بالآخرين؟!. ثم ما هي المعاهد التي نرسل إليها أولادنا لننقذهم من الجهل. هل هناك مدارس تُعنى بشؤون الطلاب الدينية والروحيَّة والعلميَّة بصورة جديَّة وبأسلوب حديث كي نرسل أولادنا إليها؟ وكم مقدار الميزانية (الأموال) التي يجب أن

تبذل لفتح عددٍ كافٍ من هذا النوع من المدارس؟ ثم من أين نجد المعلمين والمدرسين؟ ألسنا نستخدم نفس هؤلاء المدرسين الذين درسوا في المدارس الحديثة حتى إنك إذا قمت بتأسيس روضة للأطفال وأردت أن تربيهم مُنذ نعومة أظفارهم بأسلوب ديني صحيح تكاد لا تجد بالمقدار الكافي معلمات غير متبرِّجات، مصلِّيات، متَّزنات، عاملات بالنصوص الدينية ومع ذلك حاملات شهادة تخولهن ليكن معلمات في الروضة. ذلك لأن الأنظمة الحاضرة لا تسمح للمرأة ولا للرجل أن يقوم بمهمة التعليم حتى في الروضة ما لم يكن حاملاً شهادة تؤهله للتعليم. فكل شيء أصبح تحت نظام وقانون من قبل الحكومات الحاضرة. ثم إن الإنسان يجب أن لا يخرج عن واقع الحياة وأن يستفيد من التجارب الماضية خلال ٥٠ سنة خلت. أي منذ أن تأسست المدارس الحديثة في الأقضية.

ثم لو كان منع الطلاب من الدخول إلى المدارس أي لو كانت هذه المقاومة السلبية ناجعة لما بلغ عدد الطلاب هذا المبلغ الضخم، بحيث أن البناية الواحدة تشغل في اليوم ثلاث مرات من قبل ٣ مدارس مختلفة بشعبها الكثيرة. وإن بعض المدرِّسين ليدرِّس في الأسبوع ٤٠ ساعة لعدم كفاية المدرِّسين.

فأنى لك أن تصد هذه الرغبة الملحَّة التي هي وليدة الحاجة وضرورة الانطباق مع مقتضيات العصر وتحصيل الخبز والراحة إلى ما هنالك.

فقال: إن هذه المدارس تذهب بالعقيدة وتولد الإلحاد ولكن الابتعاد عنها قد يؤدي إلى عدم تطبيق النصوص الدينية برمتها ولكنه لا يؤدي أبداً إلى الإلحاد.

فقلت له: إن التجارب قد برهنت أن بعض التيارات الجارفة جرف بعض العوام الذين لم يداوموا في المدارس وتخلوا عن كل ما لديهم من مقدسات وعقائد وتسافلوا إلى أسفل السافلين. وهذا إن دلَّ على شيء فإنما يدل على أنَّ التربية الدينية كانت تربية سطحية غير مستندة إلى الدليل والبرهان ولم تكن راسخة في النفوس إلى حد لا تزعزعها التيارات الإلحادية الجارفة. فإن المنحرفين لهم فعالياتهم ومنظَّماتهم وجهودهم الجبارة. فما الواجب إذن تجاه الوضع الراهن.

فلم يحر جواباً. . .

وهذا مما حدا بي أن أتقدم بهذا المقال:

يدخل الطفل وعمره ثلاث أو أربع سنوات إلى روضة الأطفال، أو يدخل وقد أكمل السنة السادسة من عمره إلى مدرسة ابتدائية، وكذلك البنات، فيتلقَّون دروساً عملية ونظريَّة وتربية عصرية بعيدة عن روح الإسلام وقواعده، يحفظون بعض الآيات القرآنية والأحاديث النبوية في مدرسة ابتدائية دون أن تتجاوز الحناجر، ذلك، لأنَّ المعلم غير مؤمن بما يملي على الطلاب في موضوع دروس الدين إيماناً رصيناً لا شائبة فيه، إنما يقوم بأداء واجب ملقى على عاتقه، ولا أنكر أن هناك عدداً قليلاً جداً لا يعادل ١٪ (واحداً بالمائة) جديراً بأن يلقب بمعلم الدين، إلا أن تأثيره ضئيل وضئيل جداً في محيط لا يتجاوب مع بقية الأعضاء.

فإذا جاء دور المتوسطة تدخل بقية المدرسين: مدرس الأحياء، مدرس الاجتماعيات، مدرِّس الرياضيات... إلخ. في الموضوع وأخذ كل يشكك الطلاب في معتقداتهم ويعزو تكوين هذا الكون المعقَّد ودساتيره المتقنة الثابتة إلى الطبيعة العمياء. أو قال بعشوائية الكون دونما تحقيق!

وأما مدرِّس الدين، (وهو على الأكثر جاهل بالعلوم الحديثة والنوازع المستحدثة وردودها)، فلا يدرس في الأسبوع إلا درساً واحداً، وهو على الغالب ممن ضعفت عقيدته وتغير اتجاهه واختلف عمله عما يمليه على الطلاب في حقل الدين. فأنى لهذا الدرس الواحد على عِلانه (في موضوع الدين) خلال الأسبوع، أن يقاوم تزريقات سائر المدرِّسين المضلَّة. منها «إن الإسلام نظام كان مفيداً لأناس كانوا يعيشون قبل أربعة عشر قرناً أما الآن، فنحن بحاجة إلى نظام مدني جديد! فالظروف تبدَّلت! فيجب أن تتبدَّل النظم، فلا مجال لتطبيق نظم الإسلام!». ومنها: «أن الدين كان يقنع العقول البدائية، أما الآن وقد تقدَّم العلم، هذا العلم المحيِّر للعقول، فلا مجال للدين أن يسيِّر البشر! والعلم هو وحده كفيل بأن يسير البشر نحو الكمال المنشود وضروريات الحياة فلنكن علمانيِّين»[١].

---

(١) هذه الأفكار نتاج استعمار الغرب الفكري وفعاليات الكنيسة في أوروبا وأمريكا والمبدأ الماركسي.

إنَّ ضعف الدين في المدارس وفي أوساط أخرى أدى إلى انحلال خُلقي وهذا بدوره أدى إلى انحلال فكري، ثم تبنَّى أفكار جديدة تتصادم مع حقيقة الإسلام.

ولا مراء إن للمجالس الحسينية أثرها المرموق في التوجيه لو حضرها الشباب، إلا أن الشباب في وادٍ آخر، وهم يوجَّهون من قبل منظمات أخرى توجيهاً يؤكِّد لهم أن المجالس الحسينيَّة تبث الخرافة والأفكار البالية. وهي بعيدة كل البعد عن واقع الحياة، ويؤكِّدون لهم، دليلاً على ذلك، أنه لا يرى في هذه المجالس إلا العجزة والشيوخ، يتسلون بالتدخين وشرب الشاي، وهم، انفسهم، ينتقلون من مجلس إلى آخر دون غيرهم من الشباب والمثقَّفين، وكذا الحال في صلاة الجماعة وفي المساجد وغيرها.

على أن لنوع الإلقاء وتطبيق العلوم الحديثة على الحقائق الإسلامية أثراً خاصاً في جلب الشباب إلى المجالس الحسينية. ولكن قلما ترى في الخطباء مَن يجمع بين دراسات مختلفة موضوعيَّة، فيتكلَّم بأسلوب علمي رصين، وباصطلاحات حديثة مستعملاً الدساتير الرياضيَّة وما وصل إليه العلم الحديث من قوانين في الفيزياء والكيمياء والأحياء والفلك والطب إلى ما هنالك. ثم التعرف إلى المنازع الفلسفيَّة الحديثة والقيام بردها على ضوء العلم الحديث.

فما الذي يجب أن نقوم به لسد هذا التيار اللاديني الجارف الذي دبّ في الشرق منذ أكثر من خمسين سنة والانحلال الخلقي المميت؟

هنا طريقتان: طريقة غير عملية وبحاجة إلى تضحيات مرموقة من قبل الأثرياء من المؤمنين ولا أظنها تتحقَّق. وطريقة أخرى، قليلة النتاج، ولكن واجبة التطبيق ويجوز أن تؤتي أكلها بالغة موفورة لو طبقت بمقياس واسع.

* * *

أما الأولى: فهي تأسيس جمعية بإسم: جمعية التهذيب الديني، مهمتها جمع مبالغ طائلة من أثرياء المسلمين وبناء أبنية عصرية تتخذ مدارس أهلية للبنين والبنات وفتح دور (مدارس) لتهيئة معلمين ومعلِّمات بأسلوب علمي، وإيفاد قسم من الشباب المؤمن للتحصيل العالي إلى الغرب، وتأسيس مدارس أهلية للبنين والبنات اعتباراً من

الروضة إلى التحصيل العالي بمقياس واسع وتحت مناهج لم تتأثَّر بمناهج المستعمرين والمبشِّرين (بالكنيسة) أو بمناهج الإلحاد والمادية.

ولا شك أن هذا العمل الجبار سيولد جواً مفعماً بروح الإسلام وشباباً عاملاً بدستور الإسلام. وتتأثر، دون ريب، بقية المدارس بهذا النهج القويم، فلا ترى إذ ذاك إلا مؤمناً يقدِّس الإسلام ويطبقه.

* * *

وأما الطريقة الثانية: فهي تنظيم نوادٍ للشباب في كل مدينة أو قرية أو ناحية، يداومون فيها أوقات فراغهم. تلقى فيها عليهم محاضرات دينيَّة، يستمعون القرآن الكريم ويطبقون آياته على واقع حياتهم. فتشكل لجان مختلفة منهم، وتوزع أعمال وفعاليات على هذه اللجان. فيبذل قسم من طاقاتهم في العمل المنتج المفيد وهم مسؤولون عن تحقيق ما كلفوا به من أعمال. وإن كل لجنة تقدم تقريراً عن فعالياتها. يصلون في هذه النوادي أوقات الصلاة في مصلى كبير ويتعلمون فيها بعض الفروع الفقهية الضرورية.

يتلقى الراغبون من الشبان في هذه النوادي الدينية دروساً في التفسير والفقه وأصول الفقه وعلم الكلام والفلسفة الإسلامية بأسلوب حديث ويجاب على ما يختلج في صدورهم من شكوك وريَب، وتلقى عليهم دروس أيضاً في الرد على المذاهب المادية والوجودية والنفعيَّة إلى ما هناك من نزعات باطلة جاءت من وراء الشهوات النفسيَّة. ثم هم يتصلون ببقية الشباب في البلد مبشِّرين، فيشوقونهم للانتماء إلى هذه النوادي الدينية.

وهكذا تنظم نوادٍ من قبل المؤمنات الصالحات من النساء المتعلمات للفتيات طالبات المدارس وغيرهن في كل حارة بنفس الأسلوب وبنفس التنظيم.

ولا شك أن هذه الفعاليات والتضحيات من قبل البنين والبنات لتؤثِّر في تلطيف الجو المكفهر بالاتجاهات المضلة بعد تفهم حقيقة الإسلام ودسائس الاستعمار وأذناب الاستعمار وما أعقبت الحروب الصليبية من دسائس لم تنتهِ لحد الآن.

وللشبان أوقات فراغ كثيرة يمكن أن نستفيد منها في توجيههم توجيهاً صحيحاً لو تمكنَّا من تحقيق راحة الشبان في هذه النوادي راحة تتفق والتربية الإسلامية الحقة، فيبذل قسم من طاقاتهم في صقع مفيد. فإنه إن لم تستغل أوقات فراغ الشبان في أمور مفيدة موجَّهة توجيهاً صحيحاً، فهي تُصرف لا محالة في تحطيم الشباب وتسافلهم إلى أسفل سافلين.

وينبغي أن يكون في هذه النوادي:

١ ـ محل خاص للصلاة والمواعظ الدينية وتلاوة القرآن.

٢ ـ مكتبة إسلامية للمطالعة وإعارة كتب إسلامية مبسطة، ومجلات إسلامية فيها مقالات واضحة دونما تعقيد ونشرات إسلامية بلغة مفهومة.

٣ ـ صفوف خاصة لدراسات إسلامية من تفسير القرآن الكريم والفقه وأصول الفقه، وعلم الدراية والحديث، وعلم الكلام، ومقارنة بين حقائق الإسلام والفلسفات المعاصرة والنوازع الحديثة مع تطبيق آخر ما توصل إليه العلم الحديث وما أودع الله تعالى من عصارات العلوم في القرآن الكريم ضمن آيات بينات.

٤ ـ ساحة خاصة لبعض الرياضات البدنية المفيدة التي تنمي الجسم: «إن لبدنك عليك حقاً»[1] وعملاً بمنطوق هذه الآية الشريفة: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: الآية ٦٠]، مع العلم أن (السبق والرماية) وتعلمهما باب من أبواب الفقه الإسلامي.

* * *

لا شك أنه لو نُظمت هذه النوادي وأصبحت تدار من قبل هيئة عليا من كبار علماء الدين وكبار الموجِّهين المؤمنين وجب إذن فتح دورات (تدريسيَّة وتدريبيَّة) خاصة لموجِّهي هذه النوادي والقائمين بإدارتها في النجف الأشرف وفي غيرها من بعض المدن الكبيرة، يتعلَّمون فيها طرق التنظيم والتوجيه والعلوم التي تؤهلهم للإشراف على هذه النوادي الموجَّهة توجيهاً دينياً يتفق مع حقيقة الإسلام وواقعه.

* * *

---

(١) حديث نبوي. وأيضاً تراه في رسالة الحقوق للإمام زين العابدين ﷺ.

قد نرى أن بعض الأثرياء من المؤمنين يشيدون حسينية كبيرة ونعم ما يصنعون. فلو أسَّسوا بجنب هذه الحسينية نادياً دينياً للشبان لقاموا بخدمة جديرة بكل تقدير وعالجوا هذا الفراغ العقائدي.

فلا بد من توجيه الأخيار من الأثرياء وتفهيمهم الوضع الراهن وأساليب الدعوة حسب مقتضيات العصر الحاضر والأخذ بيد الشبان إلى ساحات التقوى والهداية وتنويرهم بنور الإسلام الوضاء. فإنهم مؤمنو المستقبل وحافظو بيضة الإسلام وحاملو لوائه الرفيع.

وقد لاحظت أن بعض هؤلاء المؤمنين المخلصين (مع تقديري لهم ولإيمانهم العميق) بعيدون كل البعد عما يحتويه الوضع الراهن من طرق التوجيه الديني وأساليب الدعوة ولعل البعض منهم يرى التقرب إلى الشباب بغية تهذيبهم تهذيباً دينياً مرموقاً عن الدين وخروجاً عما قرره الإسلام وانحرافاً عن الصراط السوي. إما لأنهم لم يتدرجوا في دراسات حديثة ولم يحتكوا بالشباب ليعلموا مواطن الضعف فيهم وما أصيبوا من أمراض نفسية من جراء دعايات إلحادية عنيفة أو لأنهم قليلو التضحية في هذا المضمار لا يهمهم مستقبل الإسلام والمسلمين. فكنت ألاحظ أن بعض هؤلاء المتديِّنين الأثرياء (مع تقديسي لهم)، لا يروق له أن يجهِّز حسينية أسسها بالكراسي و(التخوت)، كمن يستشكل أن يُسمع كلامه بالمكبرات إلى كثير من الناس.

* * *

فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لهما أسلوبهما الخاص في كل زمان حسب الظروف والعوامل المحيطة بالناس.

فإنَّ الاستمرار على أسلوب خاص في الدعوة لا يأتي بالنتيجة المطلوبة وترك أساليب أخرى للدعوة لا تتنافى مع روح الشرع ثم ترك ملايين من الشبان المسلمين دون موجه، تغزوهم الدعايات المضلَّة. فتخلق منهم أعداء للإسلام، إنما هو عمل لا يتفق مع منطوق هذا الحديث: «من أصبح ولم يهتم بأمور المسلمين فليس منهم» عدا أنه يخالف أمر الله تعالى حين يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا

مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ﴾ [التحريم: الآية ٦].

فإن الغرب يعمل منذ أكثر من ١٠٠ سنة بجد متواصل لأجل غزو الشباب المسلم وانتزاع عقيدته وجعله عدواً لدينه ومقدساته. فقد سمعت قبل ٢٨ سنة ممن كان قد أكمل دراسته في الجامعة الأمريكية ببيروت، سمعته يقول: «إن بلاء الشرق دينه، وإن هذا الدين (ويقصد به الإسلام) حجر عثرة دون تقدم الشرق! ولا سبيل إلى التقدم إلا بنبذ هذا الدين!...».

فيا أيها المسلمون، إن الوضع الراهن ومعالجته يستدعي شيئاً من التضحية. فهل من مجيب؟

فقد قال رسول الله ﷺ: «ويل لقوم لا يدينون بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر». وقال ﷺ أيضاً: «إذا ظهرت البدع، فليظهر العالم علمه، وإلا فعليه لعنة الله». وقال أيضاً: «الساكت عن الحق شيطان أخرس».

* * *

غذاء الروح في شهر شعبان

إن الإنسان روحٌ وبدن، فكما أنَّ للبدن غذاءاً كذلك للروح غذاء أيضاً. فمن تمكّن من أن يغذّيهما معاً فقد فاز بسعادة الدارين.

إن الإنسان كثير الهفوات والزلات. فهو يعصي الله في حركاته وسكناته معاصي كثيرة لا يلتفت إليها، ولا يحاسب نفسه عليها. كل ذلك، لأنَّ نفسه لم تبلغ مرتبة من الكمال كي تقدر أعمالها وتشخص السيء منها من الحسن تشخيصاً دقيقاً وذلك لتلويثها بذنوب سابقة. فهذه المعاصي صغائرها وكبائرها تتراكم على النفس الإنسانية، فتشكل حجاباً كثيفاً يمنع الإنسان عن رؤية الحق، فتتوارد عليه الشكوك والأوهام، فيستهزئ بالمقدّسات ويرى الباطل حقاً والحق باطلاً والرذيلة فضيلة، والفضيلة رذيلة!

فالله تبارك وتعالى قرر أعمالاً (تفضلاً منه)، تمحى بها الذنوب قبل أن تتراكم، كي لا يكون الإنسان مصداق هذه الآية الكريمة: ﴿ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن

كَذَّبُوا بِئَايَـٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾ [الرُّوم: الآية ١٠] .

فالصلوات الخمس والنوافل والأعمال الصالحة والمستحبات كلها تمحي الذنوب وتقرِّب العبد إلى الله تعالى بعد الابتعاد. ومن جملة تلك الأعمال: الأعمال التي وردت في شهر شعبان.

فقد جاء في ثواب الأعمال بسنده عن النبيﷺ، وقد تذاكر أصحابه عنده فضائل شعبان. فقال ﷺ: «شهر شريف وهو شهري، وحملة العرش تعظمه وتعرف حقه، وهو شهر تزداد فيه أرزاق المؤمنين لشهر رمضان وتزين فيه الجنان، وإنما سمي شعبان: لأنه يتشعب فيه أرزاق المؤمنين لشهر رمضان وهو شهر العمل، فيه تضاعف الحسنة سبعين والسيئة محطوطة والذنب مغفور والحسنة مقبولة والجبار جل جلاله يباهي فيه بعباده، ينظر من فوق عرشه إلى صوَّامه وقوامه، فيباهي بهم حملة عرشه»[1].

وبسنده عن الإمام الصادقعليه السلام، كان أبيعليه السلام يفصل بين شعبان وشهر رمضان بيوم، وكان علي بن الحسينعليهما السلام، يصل ما بينهما ويقول: «صوم شهرين متتابعين توبة من الله»[2].

وعن الإمام الرضاعليه السلام: «مَن صام ثلاثة أيام من آخر شعبان ووصلها بشهر رمضان كتب الله تعالى له صوم شهرين متتابعين»[3].

وقد قال رسول اللهﷺ كما في كتاب الاقبال: «شعبان شهري ورمضان شهر الله عزَّ وجلَّ. فمن صام يوماً من شهري كنت شفيعه يوم القيامة. ومن صام يومين غفر الله له ما تقدم من ذنبه ومن صام ثلاثة أيام قيل له: استأنف العمل»[4].

وعن أمير المؤمنين عليعليه السلام عن النبيﷺ، قال: «تتزين السماوات في كل خميس من شعبان، فتقول الملائكة: إلهنا، اغفر لصائميه، وأجب دعاءهم. فمن صلى

---

(١) ثواب الأعمال: ص٦١.
(٢) الكافي: ج٤، ص٩٢، باب فضل صوم شعبان، ح٣.
(٣) فضائل الأشهر الثلاثة: ص١١٥.
(٤) إقبال الأعمال: ص٦٨٤.

فيه ركعتين: يقرأ في كل ركعة فاتحة الكتاب مرة، وقل هو الله أحد، مائة مرة، فإذا سلم، صلى على النبي ﷺ مائة مرة، قضى الله له كل حاجة من أمر دينه ودنياه. ومن صام فيه يوماً واحداً حرم الله جسده على النار»[١].

وفي كتاب الإقبال بسنده عن الإمام الصادق عليه السلام: في حديث، أنه سئل: «ما أفضل ما يفعل في شعبان. قال: الصدقة والاستغفار، ومن تصدق بصدقة في شعبان رباها الله تعالى كما يربي أحدكم فصيله حتى يوافيها يوم القيامة وقد صارت مثل أحد»[٢].

ويستحب له أن يقول في كل يوم من هذا الشهر سبعين مرة: «استغفر الله وأسأله التوبة». . وأن يقول في كل يوم سبعين مرة: «استغفر الله الذي لا إله إلا هو الرحمن الرحيم الحي القيوم وأتوب إليه»[٣].

وعن النبي ﷺ: «مَن قال في شعبان ألف مرة: «لا إله إلا الله ولا نعبد إلا إياه مخلصين له الدين ولو كره المشركون» كتب الله له عبادة ألف سنة ويخرج من قبره يوم القيامة ووجهه يتلألأ مثل القمر ليلة البدر وكتب عند الله صدّيقاً»[٤].

ويستحب أن يصلي على النبي وآله في هذا الشهر كثيراً، فإنَّ الصلاة على النبي وآله تزيد في وزن الأعمال وثقلها: ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٦ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٨ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ۝٩ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ۝١٠ نَارٌ حَامِيَةٌۢ﴾ [القَارعة: الآيات ٦/ ١١].

هذه وصفات روحية يُدلي بها النبي ﷺ لمعالجة أرواح البشر المريضة وتسييرها نحو الكمال المنشود. فإن النفس الإنسانية إن لم تتصل بالملكوت الأعلى وتستقي من الإفاضات الإلهية وتستنير بالأنوار القدسية تتقهقر شيئاً فشيئاً فتكون من ﴿الَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ [الأنعَام: الآية ١٢] فتتسافل إلى أسفل السافلين.

فليجرب هذه الوصفات الروحية من كان يشك في تأثيرها، ليرى كيف يتنور يوماً بعد يوم، فيصبح إنساناً لا كسائر الأناسي، إنساناً يشعر بآلام الآخرين ويقدر نعم الله عليه،

---

(١) إقبال الأعمال: ص٦٨٨.
(٢) إقبال الأعمال: ص٦٨٥.
(٣) إقبال الأعمال: ص٦٨٥.
(٤) إقبال الأعمال: ص٦٨٥.

تلطف نفسه، وتزداد إحساساً وشعوراً، فلا تتصدى لإيذاء الناس وارتكاب المنكرات.

إنَّ الإنسان إذا قام يعبد ربه بإخلاص عميق دونما رياء يشعر عقيب ذلك بفرح يفوق جميع الأفراح، بفرح داخلي لا كدر فيه، وسرور ما بعده حزن إلا على ذنوب أدبرت لذاتها وأقامت تبعاتها، وهو دليل التكامل النفسي وأمارة التقدم الروحي. نعم. إن العبد إذا دأب على الاستغفار شعر بخفة في روحه وطمأنينة في نفسه وانجذاب لاهوتي.

إن الإنسان لم يخلق ليلهو ويلعب، بل خلق ليتكامل فيكون إنساناً قد اجتمعت فيه المعاني الإنسانية السامية، كي يفوز بالحياة الخالدة السعيدة، حياة لا مشاكل فيها ولا أحزان جزاءاً لما قام به في دنياه من عبادة وطاعة وأعمال صالحة. إن الله تعالى يقول: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾﴾ [المؤمنون: الآية ١١٥].

ما أحلى المناجاة في هذا الشهر والاعتراف بالذنوب بين يدي الغفور الرحيم. فقد علّمنا الأئمة الأطهار وعلى رأسهم أمير المؤمنين علي عليه السلام مناجاة تقشعر لها الجلود.

يقول الإمام علي عليه السلام في مناجاة له في شهر شعبان: «إلهي إن كنت غير مستأهل لرحمتك فأنت أهل أن تجود عليَّ بفضل سعتك. إلهي، كأني بنفسي واقفة بين يديك، وقد أظلها حسن توكلي عليك. فقلت ما أنت أهله وتغمدتني بعفوك. إلهي إن عفوتَ فمن أولى منك بذلك. وإن كان قد دنا أجلي ولم يُدنني منك عملي، فقد جعلتُ الإقرار بالذنب إليك وسيلتي. إلهي قد جُرت على نفسي في النظر لها، فلها الويل إن لم تغفر لها»[(١)].

وقد بيّن النبي صلى الله عليه وآله صلاة مستحبة خاصة لكل ليلة من ليالي شعبان يحتاج القيام بها إلى توفيق رباني وصفاء في النفس، وقد يقضي الإنسان ساعات في المقهى تتخللها الغيبة والنميمة. فلو صرف زمناً يسيراً منها في عبادة ربه لسار في مدارج الكمال ونحى عن نفسه وساوسها الشيطانية وتقشعت عنها غياهب الشكوك.

وقد وردت عن الإمام علي بن الحسين عليه السلام، صلوات خاصة وقت الزوال من كل يوم من شهر شعبان نذكر شطراً منها: «اللهم صلِّ على محمد وآل محمد شجرة النبوة

---

(١) مفاتيح الجنان، المناجاة الشعبانية.

وموضع الرسالة ومختلف الملائكة ومعدن العلم وأهل بيت الوحي. اللهم صلِّ على محمد وآل محمد الفلك الجارية في اللجج الغامرة، يأمن مَن ركبها ويغرق من تركها، المتقدم لهم مارق، والمتأخر عنهم زاهق، واللازم لهم لاحق»... إلى أن يقول: .. «اللهم صلِّ على محمد وآل محمد الطيِّبين الطاهرين الأبرار الأخيار الذين أوجبتَ حقوقهم ومودّتهم وفرضت طاعتهم وولايتهم...»[١].

وإن ليلة النصف من شهر شعبان من الليالي الشريفة العظيمة. وعن النبيﷺ: «إذا كان نصف شعبان، فقم ليله وصم نهاره، فإنه يجيء نداء من قبل الله تعالى من أول هذه الليلة إلى آخرها: هل من مستغفر فأغفر له، هل من مسترزق فأرزقه»[٢].

وقد سُئل الإمام الباقر عليه السلام عن فضل ليلة النصف من شعبان، فقال: «هي أفضل ليلة بعد ليلة القدر، فيها يمنح الله العباد فضله، ويغفر لهم بمنه. فاجتهدوا في القربة إلى الله فيها فإنها ليلة آلى الله عز وجل على نفسه أن لا يرد سائلاً فيها ما لم يسأل معصية. وإنها الليلة التي جعلها الله لنا أهل البيت بإزاء ما جعل ليلة القدر لنبيِّنا»[٣].

فيستحب ليلة النصف من شعبان: الغسل، فإنه يخفِّف من الذنوب ويوجب الرحمة. ويستحب فيها زيارة الحسين عليه السلام تخليداً لذكرى محيي الشريعة بعد الاندثار وتقديراً لأعماله الخالدة. وعن الإمام الصادق عليه السلام قال: «إذا كان النصف من شعبان نادى منادٍ من الأفق الأعلى: زائري الحسين، إرجعوا مغفوراً لكم، ثوابكم على ربكم ومحمد نبيكم»[٤].

وروى ابن قولويه في (كامل الزيارات)، بأسانيد عديدة معتبرة عن علي بن الحسين وعن الإمام الصادق عليهما السلام، قالا: «من أراد أن يصافحه مائة ألف نبي وأربعة وعشرون ألف نبي فليزر قبر أبي عبدالله الحسين عليه السلام في النصف من شعبان، فإن أرواح النبيِّين يستأذنون الله في زيارته، فيؤذن لهم، منهم خمسة أولوا العزم من الرسل، قلنا من هم، قال: نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمدﷺ. قلنا: ما معنى أولوا العزم؟ قال:

---

(١) مفاتيح الجنان، في أعمال شهر شعبان.
(٢) إقبال الأعمال: ص٧٠١.
(٣) وسائل الشيعة: ج٨، ص١٠٦، باب ٨.
(٤) الكافي: ج٤، ص٥٨٩، باب النوادر، ح٩.

بعثوا إلى شرق الأرض وغربها جنها وإنسها . . . الحديث»[١] .

وقد وردت أعمال وصلوات خاصة بليلة النصف من شعبان، مسطورة في الكتب المفصلة. نسأله تعالى التوفيق للقيام بتطبيقها، بإخلاص دونما رياء كي تطهر هذه النفوس مما علق بها من أدران وأوساخ. فـ ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ﴾ [هُود: الآية ١١٤] .

* * *

ميلاد الحسين عليه السلام[٢]

يولد في صبيحة هذه الليلة المثلُ الكامل ريحانة رسول الله ﷺ، سيد شباب أهل الجنة الحسين بن علي عليه أفضل الصلاة والسلام. ويجدر بالعالم الإسلامي أن يحتفل بمولده الكريم احتفالاً رائعاً لأنه هو الذي أنقذ العالم من الجاهلية الجهلاء والمادية العمياء ولولا تلك التضحية الغالية التي لا مثيل لها في عالم الوجود لاندرست معالم الدين ولما بقى للإسلام الحقيقي من أثر.

أنى للناقص أن يصف الكامل وإن الإمامة لمرتبةٌ رفيعة لا يمكن لأحد أن يتعرف حقيقتها وإنما نتعرف إليها بالآثار. وهل لطالب في الدراسة المتوسطة أن يعرف ما حقيقة الرياضيات العالية. كيف أصف من يقول فيه رسول الله ﷺ: «من أحب أن ينظر إلى أحب أهل الأرض إلى أهل السماء فلينظر إلى الحسين». كيف لا يكون كذلك وهو المثل الكامل في العبادة والشجاعة والتضحية والإيثار والسخاء. فقد وجد على ظهره يوم الطف أثر فسُئل زين العابدين عليه السلام عن ذلك، فقال: مما كان ينقل الجراب على ظهره إلى منازل الأرامل واليتامى والمساكين[٣] .

لقد مرَّ الإمام الحسين عليه السلام بمساكين يأكلون في الصُفَّة، فقالوا الغذاء، فنزل وقال: إنَّ الله لا يحب المستكبرين، فتغذى ثم قال لهم: «قد أجبتكم، فأجيبوني».

---

(١) كامل الزيارات: ص١٧٩، باب ٧٢.

(٢) كلمة القيت في الليلة الثالثة من شعبان سنة ١٣٧٨هـ في الروضة الحسينيّة بكربلاء.

(٣) بحار الأنوار: ج٤٤، ص١٩٠، باب ٢٦.

قالوا: نعم، فمضى بهم إلى منزله[١]. هذه صفة مثالية ليس للبشر العادي أن يصل إليها. وقد حج سلام الله عليه خمساً وعشرين حجةً ملبياً ماشياً.

جاءه رجل من الأنصار يسأله حاجة، فقال: يا أخا الأنصار، صُن وجهك عن بذلة المسألة وارفع حاجتك في رقعة، فكتب: «إن لفلان علي خمسمائة دينار، وقد ألح بي، فكلمه أن ينظرني إلى ميسرة». فلما قرأ الحسين الرقعة أعطاه: ألف دينار. وقال له: «أما خمسمائة دينار، فاقض بها دينك، وأما خمسمائة: فاستعن بها على دهرك ولا ترفع حاجتك إلا إلى ذي دين أو مروءة أو حسب»[٢]. انظروا إلى هذا الأدب الرفيع فإنه درس أخلاقي عظيم، لو أخذ به المسلمون.

ففي الإسلام من النظم الاجتماعية والتعاليم الأخلاقية المثالية والقواعد الاقتصادية ما يُريح البشر في الدنيا ويسعده في الآخرة. وأنى لهذا البشر أن يسن نظاماً كاملاً يؤدي إلى سعادة النشأتين.

فإن ما يترشح من الإنسان من أفكار يتناسب مع طهارة نفسه، فرشحات النفس الزكية رشحات طاهرة، تزكي النفوس وتقرّبها إلى الله تعالى وتعمل في سعادة الإنسان في دنياه وعقباه. لذلك جاء في الحديث: «من أخلص لله أربعين صباحاً جرت من قلبه على لسانه ينابيع الحكمة». وإن رشحات النفس الخبيثة الملوّثة بالذنوب والآثام مظلمة حالكة، تبعد الفرد عن الله تعالى. لأنّ هذا الفرد المذنب وإن عدَّ نفسه فيلسوفاً فقد فقدَ عقله الفطري الطبيعي، ذلك العقل الذي يوحد الله ويقدِّسه بالفطرة، «فالعقل ما عُبد به الرحمان واكتسب به الجنان» كما في الحديث. وقد قال الإمام عليّ عليه السلام: «من قارف ذنباً فارقه عقل لم يعد إليه أبداً».

وما أكثر الذنوب والفسوق والفجور في الغرب. وما وجود أبيقور (Epicure) المادي في اليونان قبل ميلاد المسيح عليه السلام بثلاثمائة سنة وظهور أمثال: بوخنر، فورباخ، نيتشه، في أوروبا إلا لنفوس تلوثت بأنواع الإجرام وضروب العصيان، فجاءت بهذه الفلسفة المادية في القرن التاسع عشر الميلادي! إن الله تعالى يقول: ﴿ثُمَّ كَانَ عَـٰقِبَةَ

---

(١) بحار الأنوار: ج٤٤، ص١٩٠، باب ٢٦. (٢) بحار الأنوار: ج٧٥، ص١١٨، باب ٢٠.

ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾ [الرُّوم: الآية ١٠] . وقال الإمام الباقر عليه السلام: «ما من شيء أفسد للقلب من خطيئةٍ، إن القلب ليواقع الخطيئة، فما تزال به حتى يغلب عليه، فيصير أعلاه أسفله»(١) .

ولذلك فإنّ المستعمر أول ما يقوم به من أعمال لإفساد العقائد وتلويث النفوس، هو فتح دور للخمور والفجور وإشاعة الفاحشة بطرق شتى. في الصحف ودور السينما والملاهي والراديو والتلفزيون.

ومن المصادفات العجيبة أن يكون (فرويد) صاحب نظرية الجنسية يهودياً. وإنَّ الحركة اليهودية قد استغلت نظرياته لمصالحها الخاصة، فقد جاء في كتاب: «پروتوكولات حكماء صهيون» الذي يرسم السياسة اليهودية العالمية ما يأتي: «يجب أن نعمل لتنهار الأخلاق في كل مكان فتسهل سيطرتنا. إنّ فرويد منا. وسيظل يعرض العلاقات الجنسية في ضوء الشمس لكي لا يبقى في نظر الشباب شيء مقدس ويصبح همه الأكبر هو إرواء غرائزه الجنسية وعندئذ تنهار أخلاقه». كما جاء في الكتاب «إشارة مماثلة عن وجوب استغلال مبادئ الفلاسفة الماديِّين! لتحطيم العقائد الدينيَّة ونشر المبادئ المادية التي تسهل لليهود السيطرة على العالم. ويقول الكتاب: «لقد رتبنا نجاح داروين ونيتشه بالترويج لآرائهم». وإن الأثر الهدام للأخلاق الذي تنشئه علومهم في الفكر غير اليهودي واضح لنا بكل تأكيد».

لقد بلغ بالفيلسوف المادي: «ومن بؤس الفلسفة أن يسمى الهُراء فلسفة!» الابتعاد عن المقدسات مرتبةً جعله يعتقد أنَّ الحقيقة الواحدة الأزلية هي الاقتصادا.. ولا شيء وراء ذلك. فإذا تغيرت علاقات الانتاج تغيرت معها القيم الأخلاقية. والدين افيون الشعوب، ومخدر الأمم. ابتدعه البشر لاستغلال الضعفاء وليس أمراً سماوياً.

حين أن الدين ركن من أركان الحياة. بل هو الحياة بعينها، إذ لا حياة إلا نفس ولا نفس بلا تكامل ولا تكامل إلا بالدين.

---

(١) أصول الكافي: ج ٢، ص٢٦٨، باب الذنوب، ح١.

لقد طبق بعض البلدان بعض النظم الاقتصادية الحديثة التي لا تتفق مع النظم الاقتصادية الإسلامية في شيء! فمنعوا البيع والشراء والملكية الخاصة. وساووا بين أجور العمال مع اختلاف الكفاءات، ثم سرعان ما عدلوا عن كل ذلك.

ليس هناك نظام اقتصادي كالنظام الاقتصادي الذي أمر به القرآن ولكن قلَّ من يعمل به. فلو اتبعنا جميعاً القرآن وعملنا بما فيه وبما جاء في السنة، فلا فقر ولا مرض ولا جهل.

فبيت المال مُعدّ لإعطاء الفقير ما يغنيه. ذلك لأنَّ دين الإسلام دين الحياة، وليس بأعمال عبادية فحسب لتطهير النفس الإنسانية مما علق بها من أدران وتقريبها إلى ربها. مع العلم أن فلسفة الإسلام لا ترمي إلى إشباع البطون فحسب، وإنما ترمي في الوقت نفسه إلى فلسفة أبعد، ألا وهي تزكية النفوس وتطهيرها وتزويدها بما يسعدها في الآخرة في حياة حقيقية تستمر ملايين السنين.

إنَّ الإسلام ليعظم أمر الإنفاق تعظيماً لا مزيد عليه، حتى ورد ما مؤداه يستحب للعبد أن يقبِّل يده حينما يتصدَّق بشيء، فكأنه يصافح الله. كل ذلك على سبيل المجاز وإفهام العبد أنه يقترب بتصدقه هذا إلى ربه. وليس الله بمن يصافح. ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: الآية ١١].

هذا دين يقول: «من أتاه أخوه المؤمن فأكرمه فإنما أكرم الله عز وجل والله هو الغني».

ولكن قد يكون المال الكثير وبالاً يؤدي بالفرد إلى التسافل والولوج في الموبقات. يقول الله تعالى: ﴿۞ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾﴾ [الشورى: الآية ٢٧]. وفي آية أخرى: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا۟ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُوا۟ۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَۚ وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٣٢﴾﴾ [النساء: الآية ٣٢].

إن الإسلام في الوقت الذي يهتم في رفع حاجة الفقراء إلى أبعد حدٍّ بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ﴾ وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ

وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [التوبة: الآية ٣٤] . وبقوله كما جاء في الحديث: «إذا أملقتم[1] فتصدقوا»، «صدقة السر تطفئ غضب الرب»[2]، «من كفارات الذنوب العظام إغاثة الملهوف والتنفيس عن المكروب»، يُملي على الفقير دستوره الإصلاحي، لعدم إمكان التساوي بين العباد في الرزق لحكمة هناك، بقوله: كما جاء في حديث قدسي: «وإن من عبادي من لا يصلحه إلا الفقر ولو صرفته إلى غير ذلك لهلك»[3].

إن الله تعالى وسعت رحمته كل شيء، فهو يعطي المؤمن والكافر على السواء. ولكنه قد يضيق على المؤمن في رزقه في هذه الدنيا ليوجهه إليه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝٧﴾ . ذلك لأنَّ الغنِي كثيراً ما يؤدي إلى الطغيان. فما على المؤمن المضيق عليه في رزقه إلا أن يصبر ويشكر ربه على تهذيبه إياه، وعدم جعله نسياً منسياً، ومصداقاً لهذه الآية: ﴿نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التوبة: الآية ٦٧] . وأن لا يتقاعس عن العمل في حدود طاقته وإنه تعالى يقول: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ۝١٨ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ۝١٩ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ۝٢٠ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْـَٔاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ۝٢١﴾[4]، [5] [الإسراء: الآيات ١٨/ ٢١].

فحسب الآيات المذكورة: من قصر جميع همّه على الدنيا فإنه يُعجل له في ما يشاء، ثم يدفع به إلى جهنم. ولكن من عمل لآخرته مشكور سعيه ثم إن الله تعالى لا يبخل لا على مريدي الآخرة ولا على مريدي الدنيا فحسب، فإنه تعالى يعطي هؤلاء وهؤلاء ولا يمنعهم رزقه مع تفضيل بعضهم على الآخر لحكمة هناك. ولكن درجات

---

(١) هو قول الإمام علي عليه السلام.

(٢) المصدر السابق نفسه.

(٣) أصول الكافي: ج٢، ص٣٥٢، باب من آذى المسلمين، ح٨.

(٤) مطروداً عن رحمة الله.

(٥) ممنوعاً.

الآخرة ونعيمها لا تقاس بما في الدنيا من درجات ونعيم زائل.

يقول الله تعالى في آية أخرى أيضاً: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾﴾ [الإسراء: الآية ٣٠]، أي إن الله إنما يبسط الرزق ويقدره لحكمة ومصلحة تعود على العبد بنفع قد لا يقف عليه في الدنيا. وهو (أي العبد) كمريض يشرب الدواء المر مع كراهية. ولكن عاقبته الشفاء.

إن الله تعالى هو الذي قسم بين العباد رحمته، فخص بالنبوة المخلصين من عباده، الشاكرين له. كما أنه تعالى خصَّ كلاً من عباده بنوع من المعيشة يصلح بها حالهم. على حد قوله تعالى: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [الزخرف: الآية ٣٢]. ومعنى ذلك: أن رحمة الله تعالى خير مما يُجمع من الأموال ويدخر من حطام الدنيا.

ثم لا ينبغي للمؤمن أن يتمنى ما للبعض من أموال وأولاد وجاه، فالله تعالى يقول: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [التوبة: الآية ٥٥].

فليست للدنيا قيمة عند الله تعالى. لأنها للمؤمن دار عمل واختبار واجتياز. «الدنيا مزرعة الآخرة». وقد جاء في الحديث: «لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة لما سقى الكافر منها شربة ماء»[(١)].

وفي حديث آخر: «الدنيا دار من لا دار له، ولها يعمل من لا عقل له». وفي حديث آخر: «الدنيا ساعة، فلا تجعلها إلا طاعة».

لذلك، لا يهم الله كما في الآية الآتية، كفر الكافرين. فيعطيهم في هذه الدنيا الفانية من الأموال الطائلة ويجعل لبيوتهم سقفاً من فضة... إلخ. ولكن قد حدد نعمته ولطفه على هؤلاء الكفار في الدنيا لئلا يرغب المؤمن في الكفر إذا ما رأى، أن كل كافر في سعة ودعة ورغد من العيش. وكل مؤمن في ضيق، فمنَّ على بعض المؤمنين

---

(١) أصول الكافي: ج٢، ص٢٤٦، باب الرضا، ح٥.

المطيعين بشيء من حطام الدنيا ونعيمها إنه تعالى يقول: ﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا ۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَٱلْـَٔاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾﴾ [الزخرُف: الآيات ٣٣/ ٣٥].

إن الإسلام يريد أن ينمي في الفرد قابلية العطاء لوجه الله وتقرباً إلى الله. ولذلك يفضل العطاء السري، ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٧٤]. ويحرض الإسلام المسلمين على الانفاق غاية التحريض ولا يريد بالانفاق أن يكون حكومياً فحسب، يؤخذ كل ما يؤخذ بصورة جبرية لأنَّ هذا النوع من العطاء لا ينمي في الفرد سجية السخاء والعطاء لوجه الله تعالى ولا يجعل صلة متينة بين العبد والمعبود لذلك جعل الإسلام الإنفاق على ضربين من إلزامي واختياري.

وبديهي أن لا سلامَ للعالم أجمع ولا اطمئنان إلا بتزكية النفوس.

ولا تزكو النفوس إلا باتباع أوامر الإسلام: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرّعد: الآية ٢٨].

فحري بالمسلم أن يفهم الإسلام وأن يعمل في نشر الإسلام وتطبيق نظمه الاقتصادية في أصقاع العالم وأن لا ينخدع بكلمات هؤلاء الذين أسمّوا أنفسهم فلاسفة وعَزوا نظريَّاتهم زوراً إلى العلم والعلم من كل ذلك براء.

فلتتخذ من الحسين عليه السلام دروساً في التضحية ونكران الذات لخدمة هذا الدين. فإنَّ دين الإسلام دين المستقبل كما صرح بذلك كبار الفلاسفة اللاهوتيين. إنه تعالى يقول: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾﴾ [العَنكبوت: الآية ٦٩].

ولا حياة لهذه البشرية الضالة، بالمعنى الصحيح، حياة تجعله يشعر بمركزه في هذا الكون، حياة توصله إلى معرفة الخالق جلَّ وعلا والقيام بواجب الشكر والتطهُّر والتكامل إلا بالعمل بهذه الآية الشريفة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الأنفال: الآية ٢٤].

الإمام أمير المؤمنين عليه السلام ومسألة رياضية

قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «أقضاكم علي» وقال أيضاً: «ليهنئك العلم يا أبا الحسن، لقد شربت العلم شرباً ونهلته نهلاً»[١].

في كتاب (مشكلات العلوم) للنراقي أن: ١٧ جَملاً كانت مشتركة بين ثلاثة أشخاص، فجاؤوا علياً عليه السلام وقالوا: إن نصف هذه الجمال لأحدنا وثلثها لآخر وتسعها لثالثنا، ونريد أن تقسمها بيننا على أن لا يبقى باقٍ.

فدعا علي عليه السلام بجمل له وأضافه إلى الجمال، فكانت ١٨ جملاً. فأعطى نصف الجمال (أي ١٨ جملاً) إلى من له النصف، أي أعطاه (٩) جمال. وأعطى ثلث الـ(١٨) إلى من كان له الثلث، أي أعطاه (٦) جمال وأعطى تسع الـ (١٨) إلى من كان له التسع، أي أعطاه جملين.

٩ + ٦+ ٢ = ١٧ ثم أرجع الجمل الذي أضافه إلى بيته.

* * *

قد يستغرب الشخص لأول وهلة عندما يلاحظ هذا الحل. ذلك لأن من كان له النصف يستحق ٢/٨^{١} من الجمال. ومن كان له الثلث يستحق ٣/ ٥^{٢} من الجمال. ومن كان له التسع يستحق ٩/ ٨^{١} من الجمال. وإن ٢/٨^{١} + ٣/ ٥^{٢} + ٩/ ٨^{١} = ١٨/ ١٦^{١}.

فالمجموع ١٦ جملاً وجزء من ثمانية عشر جزءاً من جمل. فبقى إذن ١٨/ ^{١٧} من جمل واحد لم يوزع بعد بين الشركاء. ولا يخفى أن الباقي وهو ١٨/ ^{١٧} أيضاً، على أن يأخذ الأول نصف هذا المقدار وأن يأخذ الثاني ثلث هذا المقدار وأن يأخذ الثالث تسع هذا المقدار. مع العلم أنه لا يراد نحر جمل أو تعويض بالقيمة في هذا التقسيم. فالتقسيم السابق على علاته غير مطلوب، لما يؤدي إلى تجزئة الجمل الواحد إلى كسور!

فلنأت بمثال حسابي بسيط بُغية التوضيح:

مثال: لو أن رجلين أراد أن نقسم بينهما مبلغاً بنسبة: ٢/ ^{١}، ٦/ ^{١}.

---

(١) بحار الأنوار: ج٤٠، ص١٧٥، باب ٩٣.

فنحن نقسم المبلغ بينهما بنسبة ٢/١، ٦/١ أي بنسبة ٦/٣، ٦/١ أي بنسبة ٣، ١ (بنسبة البسوط أو الصور). فالمبلغ يقسم إلى أربعة أقسام: ٣ منها تكون للشخص الأول، وقسم واحد أو حصة واحدة تكون للشخص الثاني. ذلك لأن نسبة ٢/١ إلى ٦/١ أي:

$$\frac{\frac{١}{٢}}{\frac{١}{٦}} = \frac{٦}{٢} = ٣ \text{، و } \frac{٣ \text{ حصص}}{١ \text{ حصة}} = ٣$$

فإذن: قسم المبلغ بين الشخصين بنفس النسبة المطلوبة. فإذا كان المبلغ ٤٠ ديناراً فللشخص الأول ٣٠ ديناراً وللشخص الثاني ١٠ دنانير.

ولكن لو اقترح علينا الشخصان: أن نقسم بينهما المبلغ على أن يكون نصيب أحدهما النصف ونصيب الآخر السدس دون أن يبقى شيء يعطى لغيرهما. أي أنهما قالا هكذا.

(١): قسم بيننا المبلغ ٤٠ ديناراً على أن يكون لأحدنا النصف وللآخر السدس. فعلينا أن نقسم المبلغ بشكل لا يؤدي إلى بقاء شيء من المبلغ. لأن المبلغ كله لهما.

فإذا قمنا بحل هذه المسألة حسب منطوق المسألة رقم (١)... يكون الجواب هكذا.

٢/١ + ٦/١ = ٦/٣ + ٦/١ = ٦/٤ = ٣/٢

فيبقى ٣/١ المبلغ دون مالك، حين أنه لهما.

فيجب إذن: أخذ نصف الثلث (الباقي) وإعطاؤه للأول وأخذ سدس الثلث (الباقي) وإعطاؤه للثاني.

أي ٢/١ × ٣/١ = ٦/١ يكون للأول.

و٦/١ × ٣/١ = ١٨/١ يكون للثاني... أو

(٢/١ + ٦/١) × ٣/١ = ٣/٢ × ٣/١ = ٩/١.

أي يجب إعطاء ٩/٢ المبلغ لهما. فيبقى أيضاً:

٣/١ × ٣/١ = ٩/١ دون مالك. ومعنى ذلك: أن في كل تقسيم يبقى ٣/١

الموجود دون مالك. حينئذ يبقى في التقسيم الثالث أيضاً ثلث الباقي قبلاً، أي ٣/ ١ × ٩/ ١ = ٢٧/ ١.

وفي التقسيم الرابع يبقى: ٣/ ١ × ٢٧/ ١ = ٨١/ ١ وهكذا دواليك.

إذن يكون نصيب الأول: المبلغ الأصلي × ٢/ ١ (١ + ٣/ ١ + ٩/ ١ + ٢٧/ ١ + ٨١/ ١ + . . .).

أو نصيب الأول = المبلغ الأصلي × ٢/ ١ (١ + ٣/ ١ +٣^٢/ ١ +٣^٣/ ١ +٣^٤/ ١ + ٣^ن/ ١.

نرى داخل القوس متوالية هندسية تنازلية أساسها: ٣/ ١.

ومعلوم أن مجموع حدود متوالية هندسية أساسها أقل من الواحد:

$$ح = \frac{ا}{١ - ر}$$ (فيما إذا كانت الحدود لا تتناهى أي ن = ∞)

ويراد بـ ح = المجموع

ا = الحد الأول

ر = الأساس

وبعد التطبيق: $ح = \frac{١}{١ - ١/٣} = \frac{١}{٢/٣} = ٣/٢$

∴ نصيب الأول = المبلغ الأصلي × ٢/ ١ × ٢/ ٣ = ٤/ ٣ من المبلغ الأصلي

ونصيب الثاني = المبلغ الأصلي × ٦/ ١ × ٢/ ٣ = ٤/ ١ من المبلغ الأصلي.

وهذه النتيجة تطابق تماماً ما نحصل عليه فيما إذا قسمنا المبالغ بنسبة ٢/ ١ ، ٦/ ١ كما بينا آنفاً.

وتوضيح: لا يخفى أن مجموع حدود متوالية هندسية:

$$ح = \frac{أ (ر^ن - ١)}{ر - ١} = \frac{أ ر^ن - أ}{ر - ١}$$ ، ن = عدد الحدود

لنضرب صورة الكسر ومخرجه في (- ١) فتكون النتيجة:

$$\text{حـ} = \frac{\text{أ (ر}^{\text{ن}} - \text{١)}}{\text{ر} - \text{١}} = \frac{\text{أ ر}^{\text{ن}} - \text{أ}}{\text{ر} - \text{١}}$$

ولـما كانت ر = ٣/١ ∴ ٣ن/١ = ٠ (إذا كانت ن = ∞)

∴ ا ر$^{\text{ن}}$ = ٠ (صفر)

$$\therefore \text{حـ} = \frac{\text{١}}{\text{أ - ر}} \qquad \frac{\text{١}}{\text{١} - \text{٣/١}}$$

لنعمم الموضوع ولنؤسِّس (نظرية حسابية). فنقول: لو أريد إعطاء أ/١ من مبلغ ما إلى شخص. وب/١ من نفس المبلغ إلى شخص آخر وكان أ/١ + ب/١ > ١ (أي مجموع أ/١ و ب/١، أقل من الواحد)، فإن تقسيم الباقي بصورة متسلسلة على نفس النسق يؤدي بالنتيجة إلى تقسيم المبلغ المذكور بنسبة الكسرين أ/١، ب/١ دون أي فرق.

البرهان: بديهي أنه في التقسيم الأول كان نصيب الشخص الأول: أ/١، ونصيب الشخص الثاني: ب/١ وما سيبقى هو كسر من المبلغ الأصلي أي يساوي.

$$\text{١} - (\text{أ/١} + \text{ب/١}) = \frac{\text{أب} - \text{أ} - \text{ب}}{\text{أ ب}}$$

وقد فرضنا المبلغ الأصلي = ١

$$\text{ولنفرض :} \quad \frac{\text{أب} - \text{أ} - \text{ب}}{\text{أ ب}} = \text{ك}$$

وحسب توضيحنا السابق، سيكون مجموع سهام الشخص الأول بعد تقسيمات متوالية، تقسيمات لا تتناهى مساوياً إلى كسر من المبلغ الأصلي يعادل:

نـصـيـب الـشـخـص الأول = ا/١ (١ + ك + ك^{٢} + ك^{٣} + ... + ك$^{\text{ن}}$) ويـكـون مجموع سهام الشخص الثاني كسراً من المبلغ الأصلي يعادل: = ب/١ (١ + ك + ك^{٢} + ك^{٣} + ... + ك$^{\text{ن}}$).

وإن ما في القوس من متوالية هندسية عدد حدودها ∴ = ∞ وأساسها ك، مجموعها يساوي:

$$\text{حـ} = \frac{\text{١}}{\text{١ - ك}} = \frac{\text{١}}{\text{١} - \frac{\text{أب - أ - ب}}{\text{أ ب}}} = \frac{\text{أ ب}}{\text{أ + ب}}$$

∴ يكون نصيب الشخص الأول كسراً من المبلغ الأصلي يعادل:

$$\text{١}/_{\text{أ}} \times \frac{\text{أ ب}}{\text{أ + ب}} - \frac{\text{ب}}{\text{أ + ب}}$$

ونصيب الشخص الثاني كسراً من المبلغ الأصلي يعادل:

$$\text{١}/_{\text{ب}} = \frac{\text{أ ب}}{\text{أ + ب}} - \frac{\text{أ}}{\text{أ + ب}}$$

وإذا فرضنا المبلغ: م، سيكون

$$\text{نصيب الشخص الأول} = \frac{\text{م ب}}{\text{أ + ب}}$$

$$\text{ونصيب الشخص الثاني} = \frac{\text{م أ}}{\text{أ + ب}}$$

ومن المعلوم أنه إذا أردنا تقسيم المبلغ م بين شخصين بنسبة ا/١، ب/١ يجب أن نقسمه حسب قواعد التقسيم المتناسب بنسبة الكسور كما يلي:

$$\text{نصيب الشخص الأول} = \frac{\text{م} \times \text{١}/_{\text{أ}}}{\text{١}/_{\text{أ}} + \text{١}/_{\text{ب}}} = \frac{\text{م ب}}{\text{أ + ب}}$$

$$\text{ونصيب الشخص الثاني} = \frac{\text{م} \times \text{١}/_{\text{ب}}}{\text{١}/_{\text{أ}} + \text{١}/_{\text{ب}}} = \frac{\text{م أ}}{\text{أ + ب}}$$

ويلاحظ أن العمليَّتين أي تقسيم المبلغ حسبما قسمه عليﷺ وحسب قواعد التقسيم المتناسب بنسبة الكسور تعطيان نفس النتيجة.

وهكذا يمكن أن نبرهن على صحة التقسيم فيما لو كان عدد الأشخاص أكثر من اثنين:

فإذا كان عدد الأشخاص ٣ وكسر الشخص الثالث حـ/١ فإن أ/١ من المبلغ (في التقسيم الأول) يكون للشخص الأول وب/١ من المبلغ يكون للثاني وحـ/١ من المبلغ للثالث. ويبقى من المبلغ الأصلي كسر يعادل:

$$\frac{1}{\text{أ}} + \frac{1}{\text{ب}} + \frac{1}{\text{حـ}} = \frac{\text{أ ب حـ} - \text{ب حـ} - \text{أحـ} - \text{أب}}{\text{أ ب حـ}} = \text{ك}$$

وبعد القيام بتقسيمات متوالية بمقدار لا يتناهى يكون نصيب الشخص الأول = ا/١ (١ + ك + ك٢ + ك٣ + ... + كن)، ونصيب الشخص الثاني = ب/١ (١ + ك + ك٢ + ك٣ + ... + كن)، ونصيب الشخص الثالث = حـ/١ (١ + ك + ك٢ + ك٣ + ... + كن).

وأما مجموع المتوالية الهندسية داخل القوس عندما تكون ن = ∞ يساوي:

$$\frac{1}{1 - \text{ك}} = \frac{1}{1 - \frac{\text{أب حـ} - \text{ب حـ} - \text{أحـ} - \text{أب}}{\text{أ ب حـ}}} = \frac{\text{أ ب حـ}}{\text{ب حـ} - \text{أحـ} - \text{أب}}$$

وإذا عوضنا عما في الأقواس: (للأول وللثاني وللثالث)، نحصل على ما يلي: (مع العلم أن المبلغ الأصلي = م).

∴ نصيب الشخص الأول = $\frac{\text{م ب حـ}}{\text{ب حـ} + \text{أحـ} + \text{أب}}$

ونصيب الشخص الثاني = $\frac{\text{م أ حـ}}{\text{ب حـ} + \text{أحـ} + \text{أب}}$

نصيب الشخص الثالث = $\frac{\text{م أ ب}}{\text{ب حـ} + \text{أحـ} + \text{م ب}}$

وهكذا إذا أردنا أن نقسم المبلغ: م بين ثلاثة أشخاص بنسبة ا/ ١ ، ب/ ١ ، حـ/ ١ (أي تقسيما متناسباً بنسبة الكسور) يكون:

$$\text{نصيب الأول} = \frac{\text{م} \times \frac{1}{\text{أ}}}{\frac{1}{\text{أ}} + \frac{1}{\text{ب}} + \frac{1}{\text{حـ}}} = \frac{\text{م ب حـ}}{\text{ب حـ} + \text{أحـ} + \text{أب}}$$

$$\text{نصيب الثاني} = \frac{\text{م} \times \frac{1}{\text{ب}}}{\frac{1}{\text{أ}} + \frac{1}{\text{ب}} + \frac{1}{\text{حـ}}} = \frac{\text{م أ حـ}}{\text{ب حـ} + \text{أحـ} + \text{أب}}$$

$$\text{نصيب الثالث} = \frac{\text{م} \times \frac{1}{\text{حـ}}}{\frac{1}{\text{أ}} + \frac{1}{\text{ب}} + \frac{1}{\text{حـ}}} = \frac{\text{م أ ب}}{\text{ب حـ} + \text{أحـ} + \text{أب}}$$

* * *

والآن نأتي لحل المسألة حسبما وضعناه من نظرية برهنا على صحتها: والمسألة هي: ثلاثة أشخاص طلبوا أن تقسم بينهم ١٧ جملاً، على أن يكون سهم الشخص الأول ٢/ ١ ونصيب الشخص الثاني ٣/ ١ وحصة الثالث ٩/ ١ ولا يبقى شيء.

ولما كان ٢/ ١ + ٣/ ١ + ٩/ ١ = ١٧/ ١٨ إذن يبقى من الجمال ١٨/ ١ منها. وهذا يوجب أن نقسم الباقي وأعني به: (١٨/ ١) بصورة متسلسلة حسب منطوق المسألة حتى لا يبقى شيء. وقد برهنا على أن نتيجة هذه التقسيمات المتسلسلة التي لا تتناهى من حيث العمل الحسابي تطابق تقسيم ١٧ جملاً بنسبة الكسور:

٢/ ١ ، ٣/ ١ ، ٩/ ١ فعليه يكون:

$$\text{نصيب الشخص الأول} = \frac{17 \times \frac{1}{2}}{\frac{17}{18}} = 18 \times \frac{1}{2} = 9$$

$$\text{نصيب الشخص الثاني} = \frac{17 \times \frac{1}{3}}{\frac{17}{18}} = 18 \times \frac{1}{3} = 6$$

$$\text{نصيب الشخص الثالث} = \frac{١٧ \times ١/٩}{١٧/١٨} = ١٨ \times ١/٩ = ٢$$

ويرى أن العمل حسب التقسيم المتناسب في إيجاد نصيب الشخص الأول أي $\frac{١٧ \times ١/٢}{١٧/١٨}$ يطابق العمل حسبما أمر به الإمام علي عليه السلام.

وهو ضرب ١٨ في ١/ ٢ أو: (١٧ + ١) × ٢/١ = ٩.

أي يضاف على ١٧ جملاً، جمل واحد. فيضرب المجموع في ٢/١ فيكون نصيب الشخص الأول، (أو يؤخذ نصفه). وهكذا بالنسبة إلى الثاني والثالث:

∴ ٩ + ٦ + ٢ = ١٧ جملاً (يطابق الأصل).

إن قيام الإمام علي عليه أفضل الصلاة والسلام بهذا النوع من التقسيم أي إضافة ١ على ١٧ وأخذ نصف المجموع وإعطاؤه إلى الشخص الأول، وأخذ ثلث المجموع وإعطاؤه إلى الشخص الثاني وأخذ تسع المجموع وإعطاؤه إلى الشخص الثالث أقرب إلى أذهان العوام الذين لا يمكنهم أن يتوصلوا إلى حقيقة تقسيم عدد بنسبة كسور اعتيادية على أن يكون نسبة ما للأول إلى الثاني كنسبة النصف إلى الثلث:

$$\frac{\text{الأول}}{\text{الثاني}} = \frac{١/٢}{١/٣} = \frac{٣}{٢}$$

ونسبة ما للثاني إلى الثالث كنسبة الثلث إلى التسع. أي:

$$\frac{\text{الثاني}}{\text{الثالث}} = \frac{١/٣}{١/٩} = \frac{٩}{٣} = ٣ \text{ وهو عدد مجرد}$$

ونسبة ما للأول إلى الثالث كنسبة النصف إلى التسع. أي:

$$\frac{\text{الأول}}{\text{الثالث}} = \frac{١/٢}{١/٩} = \frac{٩}{٢} = ٤\ ١/٢$$

وهكذا نرى أن بعد تقسيم المبلغ حسب قواعد التقسيم المتناسب بنسبة الكسور (أو تقسيم المبلغ بنسبة الصور بعد توحيد المخارج)، تتحقق نفس النسب:

$$\frac{\text{نصيب الأول}}{\text{نصيب الثاني}} = \frac{٩}{٦} = \frac{٣}{٢}$$

$$\frac{\text{نصيب الثاني}}{\text{نصيب الثالث}} = \frac{٦}{٢} = ٣$$

$$\frac{\text{نصيب الأول}}{\text{نصيب الثالث}} = \frac{٩}{٢} = ٤ \, ^{١}/_{٢}$$

وهكذا نرى أن علم الإمام علي عليه السلام يتجلى في حل المسألة المذكورة بشكل مفهوم لدى العوام في ذلك الوقت، حيث لم تكن العلوم الرياضية معروفة في الجزيرة العربية، حلاً يطابق ما نص عليه علم الحساب الاستدلالي وقد علمنا أن لا فرق بين المنطوقين: (١) تقسيم المبلغ بين ثلاثة أشخاص على أن يأخذ الأول ٢/ ١ والثاني ٣/ ١ والثالث ٩/ ١ ولا يبقى شيء وبين: (٢) تقسيم المبلغ بين ثلاثة بنسبة الكسور الاعتيادية ٢/ ١، ٣/ ١، ٩/ ١ من حيث المآل. وفي السؤال حالة خاصة، أي أن المضاعف المشترك البسيط للمقامات = عدد الجمال + ١ = ١٧ + ١ = ١٨. فاستفاد الإمام علي عليه السلام من هذه الحالة الخاصة وحل المسألة بإضافة جمل على عدد الجمال فكان المضاعف المشترك البسيط: ١٨، ولو ضربت الكسور في ١٨ (المضاعف) لما تغيرت النسب، ولكن كحالة خاصة يكون المجموع: ٩ + ٦ + ٢ = ١٧ مساوياً لعدد الجمال.

* * *

وقد رويت هذه المسألة بشكل آخر ولعلها هي مسألة أخرى، ذلك: أن ثلاثة أشخاص أتوا علياً عليه أفضل الصلاة والسلام ومعهم ١٩ جملاً وأرادوا أن تقسم كلها بينهم على أن يكون للأول ٢/ ١ وللثاني ٤/ ١ وللثالث ٥/ ١ ولا يبقى شيء. فقال الإمام عليٌ عليه السلام: أضيفوا على ١٩ جملاً جملاً واحداً. . فيكون (٢٠). خذوا النصف وأعطوه الشخص الأول. وخذوا الربع وأعطوه الشخص الثاني وخذوا الخمس وأعطوه الشخص الثالث.

١٠ + ٥ + ٤ = ١٩ جملاً.

فالحل حسبما أمر به الإمام عليﷺ: ١٩ + ١ = ٢٠ المضاعف المشترك البسيط (كحالة خاصة).

نصيب الشخص الأول = ٢٠ × $\frac{١}{٢}$ = ١٠ [لا تتبدل النسب أو ضربت كلها في نفس المقدار].

نصيب الشخص الثاني = ٢٠ × $\frac{١}{٤}$ = ٥

نصيب الشخص الثالث = ٢٠ × $\frac{١}{٥}$ = ٤

١٠ + ٥ + ٤ = ١٩ (عدد الجمال، كحالة خاصة أيضاً)

فالحل حسب قواعد التقسيم المتناسب:

$$\text{نصيب الشخص الأول} = \frac{١٩ \times \frac{١}{٢}}{\frac{١٩}{٢٠}} = ١٠$$

$$\text{نصيب الشخص الثاني} = \frac{١٩ \times \frac{١}{٤}}{\frac{١٩}{٢٠}} = ٥$$

$$\text{نصيب الشخص الثالث} = \frac{١٩ \times \frac{١}{٥}}{\frac{١٩}{٢٠}} = ٤$$

فلا فرق بين النتيجتين، لأن المنطوقين يؤديان إلى نفس النتيجة.

فسلام الله عليك يا علي، من إمام مطاع للمتقين وقاضٍ قدير ورياضي عظيم، وعالم بطرق السماء أكثر منه بطرق الأرض، ومخبر عن حركة الشمس قبل اكتشاف علم الميكانيك السماوي والتلسكويات والمراقب الجسام. وعالم بطول قطر الشمس قبل تقدم علم الفيزياء والفلك العالي.

وسلام الله عليك يا أمير المؤمنين، يا ميزان الأعمال وسيف ذي الجلال وساقي السلسبيل الزلال، وحجة الله البالغة ونعمته السابغة والصراط الواضح والنجم اللائح ورحمة الله وبركاته.

المثل الكامل في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فرعان مهمان من فروع الدين وواجب على كل مسلم أن يقوم بهما وجوب الصلاة، وهما ركنان مهمان، بهما تسعد الأمم وتبلغ أعلى مرتبة من الرقي والكمال. وقد قام على دعامتيهما الإسلام، فبلغ حيث بلغ.

إن الله تعالى يقول: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾ [آل عِمرَان: الآية ١٠٤]. وقد قال رسول الله ﷺ: «إذا ظهرت البدع في أمتي فليُظهر العالم علمَه. فمن لم يفعل فعليه لعنة الله». وقال أيضاً: «لا تزال أمتي بخير ما أمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر وتعاونوا على البر، فإذا لم يفعلوا ذلك نزعت منهم البركات وسلِّط بعضهم على بعض ولم يكن لهم ناصر في الأرض ولا في السماء».

وقال أيضاً: «إن الله ليبغض المؤمن الضعيف الذي لا دين له، فقيل وما المؤمن الضعيف الذي لا دين له، قال: الذي لا ينهى عن المنكر». وجاء في حديث: «ويل لقومٍ لا يدينون الله بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر». ولا شك أن ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يؤدّي إلى تفسّخ الأخلاق وهو علّة العلل في تدهور الأمم وسقوطها عدا ما هنالك من عذاب أخروي أليم. فعن أبي الحسن الرضا عليه السلام: «لتأمرنَّ بالمعروف ولتنهونَّ عن المنكر أو ليستعملن عليكم شراركم فيدعو خياركم، فلا يستجاب لهم». و«إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر سبيل الأنبياء ومنهاج الصلحاء» فريضة عظيمة بها تقام الفرائض وتؤمن المذاهب وتحل المكاسب وترد المظالم وتعمر الأرض وينتصف من الأعداء ويستقيم الأمر كما جاء في الحديث.

هذا الإمام الحسين عليه السلام قد أنكر على معاوية استخلاف يزيد ونهى عن المنكر لأن يزيد، لاستحلاله ما حرّم الله وهتكه حرمات الله، ما كان أهلاً ليتصدّى خلافة العالم الإسلامي، وهو في عنفوان نهوضه وازدهاره يخاطب الإمام الحسين عليه السلام معاوية في

كتاب له: «إن لله تعالى كتاباً لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها. وليس الله بناسٍ لأخذك بالظنة وقتلك أولياءه على التهم ونفيك أولياءه من دورهم إلى دار الغربة، وأخذك للناس ببيعة ابنك غلام حدث يشرب الخمر ويلعب بالكلاب. ما أراك إلا قد خسرت نفسك وبترت دينك وغششت رعيتك وأخزيت أمتك... إلخ»[1].

وإن معاوية ليعترف بفضل الإمام الحسين عليه السلام، فهو يقول لابنه يزيد: «وما عسيت أن أعيب حسيناً، نوالله ما أرى للعيب فيه موضعاً». وقد نصح الإمام الحسين عليه السلام معاوية أيضاً حين كان يريد أخذ البيعة ليزيد بقوله: «تريد ان توهم الناس في يزيد، كأنك تصف محجوباً أو تنعت غائباً، أو تخبر عما كان مما احتويته بعلم خاص. وقد دلّ يزيد من نفسه على موقع رأيه، فخذ ليزيد مما أخذ به من استقرائه الكلاب المهارشة عند التحارش، والحمام السبق لأترابهن والقينات ذوات المعازف وضروب الملاهي تجده ناصراً، ودع عنك ما تحاول، فما أغناك أن تلقى الله بوزر هذا الخلق بأكثر مما أنت فيه».

كيف لا يقوم الإمام الحسين عليه السلام بهذه النهضة الخالدة. وقد سمع رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: «من أرضى سلطاناً جائراً بسخط الله خرج عن دين الله» فإنه «لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق». كيف لا يضحي سلام الله عليه بنفسه ونفيسه وقد حفظ عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «لا تحل لعين مؤمنة ترى الله يعصى وتطرف حتى تغيره».

وعن أبي جعفر عليه السلام، قال: أوحى الله إلى شعيب النبي: أني معذِّب من قومك مائة ألف، أربعين ألفاً من شرارهم وستين ألفاً من خيارهم فقال عليه السلام: «يا ربِّ، هؤلاء الأشرار، فما بال الأخيار؟» فأوحى الله عز وجل إليه: «داهنوا أهل المعاصي ولم يغضبوا لغضبي»[2].

فالمؤمن حقاً هو ذلك المؤمن الذي يغضب عند انتهاك حرمات الله ويضحي بما لديه إعلاءاً لكلمة الله العليا، ففي حديث: «إن موسى بن عمران قال: «يا ربِّ من أهلُك الذين تظلُّهم في ظل عرشك يوم لا ظل إلا ظلك؟، فأوحى الله إليه: الطاهرة

---

(١) بحار الأنوار: ج٤٤، ص٢١٤، باب ٢٧. (٢) الكافي: ج٥، ص٥٥، باب الأمر بالمعروف.

قلوبهم والبريئة أيديهم، الذين يذكرون جلالي ذكر آبائهم إلى أن قال: والذين يغضبون لمحارمي إذا استحلت»[١].

وإن الصحابة الموجودين في عصر الإمام الحسين عليه السلام كانوا يعلمون فسق يزيد وظلمه فمنهم من رأى الخروج عليه كابن الزبير ومنهم من امتنع عن مبايعته كعبدالله بن عمرو بن العاص حتى دعا نائب أمير مصر بالنار ليحرق عليه بابه.

ولولا خروج الحسين عليه السلام لاندرست معالم الدين وتمركزت البدع وضاعت السنن: كيف لا يكون ذلك ويزيد يقول متمثلاً بقول ابن الزبعرى:

«لعبت هاشم بالملك فلا خبر جاء ولا وحي نزل»

إن للحسين عليه السلام وذويه وأصحابه آياتٍ باهرات من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر منذ خروجه من مكة حتى رجوع الأسرة النبوية بعد التضحية الغالية إلى مدينة جدهم ثانياً. وقد خطب الإمام الحسين عليه السلام حين عزم على الخروج من مكة إلى العراق فقال: «بسم الله الرحمن الرحيم: الحمد لله ما شاء الله ولا قوة إلا بالله، وصلى الله على رسوله، خُط الموت على ولد آدم مخط القلادة على جيد الفتاة وما أولهني إلى أسلافي اشتياق يعقوب إلى يوسف وخيّر لي مصرع أنا لاقيه، كأني بأوصالي تقطعها عسلان الفلوات بين النواويس وكربلا، فيملأن مني أكراشاً جوفاً وأجربة سغباً، لا محيص عن يوم خُط بالقلم، رضا الله رضانا أهل البيت، نصبر على بلائه ويوفينا أجور الصابرين، لن تشذ عن رسول الله صلى الله عليه وآله لحمته وهي مجموعة له في حظيرة القدس تقرّ بهم عينه وتنجز بهم وعده، ألا ومن كان باذلاً فينا مهجته وموطناً على لقاء الله نفسه، فليرحل معنا، فإني راحل مصبحاً إن شاء الله»[٢].

وقد حمل معه النسوة والأطفال كي يظهر للناس مبلغ الجور ومدى الظلم لئلا يركنوا إلى الظالم ولا يعرضوا عليه دينهم ولا يتابعوه في معالم دينهم.

يصل الحسين عليه السلام إلى كربلاء مع أفلاذ كبده وأرحامه الأقربين، فيقول: «ما اسم هذه الأرض، فيقال: كربلاء. فيقول سلام الله عليه: «اللهم إني أعوذ بك من الكرب والبلاء»

---

(١) وسائل الشيعة: ج١٦، ص١٤٧، باب ٨. (٢) بحار الأنوار: ج٤٤، ص٣٦٦، باب ٣٧.

ثم أقبل على أصحابه، فقال كلمته الخالدة التي يجب أن تكتب بأحرف من نور:

«الناس عبيد الدنيا والدين لعق على ألستهم يحوطونه ما درت معايشهم فإذا محصوا بالبلاء قلَ الديانون»[١]. ما أعظم هذه الكلمة إنها تفسر الطابع الذي طبع عليه الجنس البشري في كل زمان ومكان، ولا يشذ عن ذلك إلا الفذ الأوحدي. «وقليل ما هم». فطالما كان الدين سلعة تجارية تشتري بها الراحة والسلامة والمنافع الخسيسة الدنيوية. وطالما كان الدين وسيلة للبلوغ إلى مناصب زائلة فحرِّف وغُير تبعاً للسياسة المستحكمة.

انظروا كيف يخاطب الإمام الحسين عليه السلام جيش ابن سعد حين ركب فرس رسول الله ﷺ يوم عاشوراء إنه يقول:

«تباً لكم أيتها الجماعة وترحاً. أحين استصرختمونا والهين، فأصرخناكم موجفين. سللتم علينا سيفاً لنا في إيمانكم وحششتم علينا ناراً اقتدحناها على عدونا وعدوكم، فأصبحتم إلباً لأعدائكم على أوليائكم بغير عدل أفشوه فيكم ولا أمل أصبح لكم. فهلاً لكم الويلات، كرهتمونا والسيف مشيم والجأش طامن والرأي لما يستحصف، ولكن أسرعتم إليها كتهافت الفراش.

فسحقاً لكم يا عبيد الأمة وشذاذ الأحزاب. ونبذة الكتاب ومحرِّفي الكلم وعصبة الآثام ونفثة الشيطان ومطفئ السنن. هؤلاء تعضدون وعنا تتخاذلون، أجل والله غدر فيكم قديم وشجت عليه أصولكم وتأزّرت عليه فروعكم فكنتم أخبث ثمر، شجى للناظر وأكلة للغاصب، ألا وإن الدعيَّ ابن الدعي قد ركز بين اثنتين، بين السلَّة والذلة وهيهات منا الذلَّة، يأبى الله لنا ذلك ورسوله والمؤمنون، حجور طابت وطهرت وأنوف حمية ونفوس أبية من أن تؤثر طاعة اللئام على مصارع الكرام، ألا ترون أن الحق لا يُعمل به والباطلَ لا يُتناهى عنه فلا أرى الموت إلا سعادة والحياة مع الظالمين إلا بَرما، ألا وإني زاحف بهذه الأسرة وقلة العدد وخذلان الناصر»[٢].

ففي هذه الخطبة المنيفة عبر لا تتناهى ودروس محكمة لا تُستقصى، تتفهمها نفوس زكية وأرواح نقية.

---

(١) بحار الأنوار: ج٤٤، ص١٩٥، باب ٢٦. (٢) بحار الأنوار: ج٤٥، ص٨٣، باب ٣٧.

فقد تمَّ نهي الحسين عن المنكر بتقديم نفسه الزكية ونفوس أبنائه الأبرياء حتى ولده الرضيع وإخوته وأبناء أخيه وأبناء عمه للقتل وأمواله للنهب وخبائه للحرق وعياله للأسر ليفدي بكل ذلك دين جده ويستنقذه من أن يقضى عليه الخمور والفجور.

لا يمكن أن تستقصى مراحلَ هذا النهي عن المنكر في هذه العاجلة ونختم ذلك بنبذة يسيرة عن خطاب من تولَّت هذه المهمة بعد قتل الحسين عليه السلام ألا وهي شقيقته الكبرى زينب عليها السلام في مجلس يزيد:

«الحمد لله رب العالمين وصلى الله على رسوله وآله أجمعين صدق الله، كذلك حيث يقول: ﴿ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوأَىٰ أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ ﴿١٠﴾﴾ [الرُّوم: الآية ١٠]».

«أظننت يا يزيد، حيث أخذت علينا أقطار الأرض وآفاق السماء، فأصبحنا نُساق كما تساق الإماء، أنَّ بنا هوانا على الله ولك عليه كرامة وأنَّ ذلك لعظم خطرك عنده، فشمخت بأنفك ونظرت في عطفك جذلان مسروراً، حيث رأيت الدنيا لك مستوسقة والأمور متسقة، وحين صفا لك ملكنا وسلطاننا، فمهلاً مهلاً، أنسيت قول الله تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [آل عِمرَان: الآية ١٧٨].

«أمن العدل يابن الطلقاء تخديرك حرائرك وإماءك، وسوقك بنات رسول الله صلى الله عليه وآله سبايا، قد هتكت ستورهن وأبديت وجوههن...» إلى آخر ما قالت سلام الله عليها[(١)].

فليتخذ المسلمون من هذه التضحية الغالية دروساً بليغة لخدمة هذا الدين وقمع البدع وما جاءنا من وحشية وجاهلية في الأخلاق وتدنيس النفوس من جراء إتباع نوازع الغرب الأثيمة، التي هي خلاصة الشهوات الحيوانية المميتة.

وينبغي أن لا يبهرنا هذا التقدم الصناعي في عالم المادة، فالإنسان ليس بمادة فحسب، الإنسان إنسان بروحه ونفسه وملكاته المعنوية. وإن اتباع الغرب في حضارته الشهوانية مما يؤدِّي إلى إماتة النفس الإنسانية وتسافلها إلى أسفل السافلين. والإسلام

---

(١) بحار الأنوار: ج٤٥، ص١٣٣، باب ٣٩.

إذ يأمر بالعمل في شتى الحقول من زراعية وصناعية وتجارية وعمرانية لا يهمل النفس الإنسانية تتردى في دياجير الشهوات والآثام بل يجعل رائده الأسمى تكامل هذه النفس الإنسانية وإخراجها من حضيض البهيمية إلى أوج الملكوت. يعترف بذلك كبار فلاسفة الغرب المنصفون الذين لم يتابعوا الغرب في هذيانه وطيشه ومجونه وماديته الساحقة، وكثيراً ما كتبوا أن هذه المدنية المادية الطائشة مآلها الزوال والانقراض.

فطوبى لنفوس اتَّعظت بكلمات أهل بيت العصمة عليهم السلام فاتخذت منها مناراً للعروج إلى حيث الطمأنينة والخلود والكمال المنشود.

حسين مني وأنا من حسين

روى الحاكم في المستدرك بسنده عن يعلى العامري وصححه: إنه خرج مع رسول الله ﷺ إلى طعام دعوا له. فاستقبل رسول الله ﷺ أمام القوم وحسين مع الغلمان يلعب، فأراد رسول الله ﷺ أن يأخذه فطفق الصبي يفر هاهنا مرة وهاهنا مرة، فجعل رسول الله ﷺ يضاحكه حتى أخذه، قال فوضع إحدى يديه تحت قفاه والأُخرى تحت ذقنه، فوضع فاه على فيه يقبله، فقال: «حسين مني وأنا من حسين، أحبّ الله من أحبّ حسيناً، حسين سبط من الأسباط»[١].

وروى الحاكم في المستدرك أيضاً بسنده عن أبي هريرة، قال رأيت رسول الله ﷺ وهو حامل الحسين بن علي، وهو يقول: «اللهم إني أحبه، فأحبه»، وقال رسول الله ﷺ: «من أحبَّ أن ينظر إلى أحب أهل الأرض إلى أهل السماء فلينظر إلى الحسين» وعن صحيح الترمذي عن أنس بن مالك قال: «سئل رسول الله ﷺ، أي أهل بيتك أحب إليك قال: الحسن والحسين» وكان يقول لفاطمة: أدعي لي ابني فيشمهما ويضمهما إليه[٢].

وفي الإصابة عن أبي هريرة، قال: خرج علينا رسول الله ﷺ ومعه الحسن

---

(١)،(٢) بحار الأنوار: ج٤٣، ص٣٠٦، باب ١٢.

والحسين، هذا على عاتقه وهذا على عاتقه وهو يلقم هذا مرة وهذا مرة، حتى انتهى إلينا، فقال: من أحبهما فقد أحبَّني ومن أبغضهما فقد أبغضني. وكان النبي ﷺ يصلي فإذا سجد وثب الحسنان عليهما السلام على ظهره. فإذا أرادوا أن يمنعوهما، أشار إليهم أن دعوهما، فلما قضى الصلاة وضعهما في حجره وقال: من أحبني فليحب هذين[١].

وكان ﷺ يجثو للحسنين عليهما السلام فيركبان على ظهره، ويقول نعم الجمل جملكما ونعم العدلان أنتما[٢].

وحملهما ﷺ مرة على عاتقه، فقال رجل: نعم الفرس لكما، فقال ﷺ: ونعم الفارسان هما[٣].

وعن صحيحي الترمذي والنسائي كان رسول الله ﷺ يخطب، فجاء الحسن والحسين عليهما السلام وعليهما قميصان أحمران، يمشيان ويعثران، فنزل رسول الله ﷺ من المنبر، فحملهما ووضعهما بين يديه وقال: صدق الله، ﴿أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [الأنفال: الآية ٢٨]، نظرت إلى هذين الصبيَّين يمشيان ويعثران، فلم أصبر حتى قطعت حديثي ورفعتهما[٤].

وخرج رسول الله ﷺ ليلة في إحدى صلاتي العشاء وهو حامل حسيناً، فوضعه ثم كبَّر للصلاة. فأطال سجدة الصلاة. قال راوي الحديث فرفعت رأسي وإذا الصبي على ظهر رسول الله ﷺ وهو ساجد، فرجعت إلى سجودي فلما قضى الصلاة. قيل يا رسول الله، إنك سجدت بين ظهري صلاتك سجدة أطلتها، حتى ظننا أنه قد حدث أمر أو أنه يوحى إليك. قال ﷺ: كل ذلك لم يكن ولكن ابني ارتحلني فكرهت أن أعجله[٥].

ومرَّ ﷺ على بيت فاطمة، فسمع الحسين يبكي، فقال: «ألم تعلمي أن بكاءه يؤذيني».

وهناك حوادث وأحاديث أخرى تدل على شدة حب النبي للحسين عليه السلام لا مجال لذكرها مما يدل على عظمة منزلته عند الله وعند رسوله. وبديهي أن رسول الله ﷺ وهو سيد المرسلين لا يحب إلا عن دليل وهو أجل من أن تؤثر فيه العواطف.

---

(١)، (٢)، (٣)، (٤)، (٥) بحار الأنوار: ج٤٣، ص٣٠٦، باب ١٢.

وإن الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة وهما إماما قاما أو قعدا[1]، كما جاء في حديث صحيح.

وقد قال ﷺ مرات عدة وبعبارات متنوعة كما روته كافة كتب الحديث «إنما أنا بشر يوشك أن يأتي رسول ربي فأجيب، وإني تارك فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي، الثقلين: كتاب الله عز وجل وعترتي أهل بيتي فلا تتقدموهم فتهلكوا، ولا تقصروا عنهم فتهلكوا، ولا تعلّموهم فإنهم أعلم منكم، وإن اللطيف الخبير نبأني أنهما لن يفترقا حتى يردا علي الحوض»[2] وقد قال ﷺ أيضاً: «مثل أهل بيتي فيكم مثل باب حطة من دخله كان آمناً» وقال أيضاً: «مثل أهل بيتي فيكم كمثل سفينة نوح»[3].

كيف لا يحب رسول الله ﷺ حسيناً وهو الذي سماه حسيناً وأذن في أُذنه اليمنى وأقام في اليسرى وحنكه بريقه وعق عنه بكبش وأمر أمه أن تحلق رأسه وتتصدق بوزن شعره فضة. وهو الذي قام بتغذيته أربعين يوماً وليلة، لأنَّ لبن فاطمة سلام الله عليها قد جفَّ بعد أن ولدت حسيناً. فطلب رسول الله ﷺ مرضعة، فلم يجد، فكان يأتيه فيلقمه إبهامه، فيمصه ويجعل الله في إبهام رسول الله ﷺ رزقاً يغذّيه. فأنبت الله لحمه من لحم رسول الله ﷺ. وهذا ليس بشيء ينكره العقل السليم، إذا صدّق معاجز رسول الله ﷺ تلك المعاجز التي تفوق هذه المعجزة بدرجات. فكيف لا يقوم الحسين عليه السلام بعد الاطلاع على ما قدمناه بهذه النهضة المباركة وكيف لا نشارك أهل البيت في الحزن والأسى في هذه الأيام المحزنة، فإنَّ أهل البيت كانوا إذا أهلَّ شهر محرم الحرام اغتموا وحزنوا وأقاموا المآتم تخليداً لذكرى محيي الشريعة بعد الاندثار، أعني حسيناً عليه الصلاة والسلام.

نعم، إن رسول الله ﷺ لحزين في هذه الأيام، باك على ولده، كيف وقد بكى وحزن لهذه الفاجعة الأليمة قبل وقوعها وأقام المآتم لأجلها في مجمع أصحابه فأخبرهم بها وبكى وبكوا لبكائه، فكان هو الذاكر وأصحابه المستمعين وقد روى الشيخ أبو الحسن علي بن محمد الماوردي الشافعي في كتابه أعلام النبوة. فقال ما لفظه:

---

(١) بحار الأنوار: ج٤٣، ص٢٩١، باب ١٢.

(٢) بحار الأنوار: ج٤٤، ص٢٤٧، باب ٣٠.

(٣) بحار الأنوار: ج٣٦، ص٢٩٢، باب ٤١.

ومن إنذاره ﷺ ما رواه عروة عن عائشة رضي الله عنها قالت دخل الحسين بن علي (رضي الله تعالى عنهما) على رسول الله ﷺ وهو يوحى إليه فبرك على ظهره وهو منكب ولعب على ظهره، فقال جبرائيل عليه السلام: يا محمد إن أمتك ستفتتن بعدك ويقتل ابنك هذا من بعدك ومد يده فأتاه بتربة بيضاء وقال في هذه الأرض يقتل ابنك، اسمها، الطف. فلما ذهب جبرئيل خرج رسول الله ﷺ والتربة في يده وفيهم أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وحذيفة وعمار وأبو ذر وهو يبكي، فقالوا: ما يبكيك يا رسول الله. فقال: أخبرني جبرئيل: أن ابني الحسين يقتل بعدي بأرض الطف، وجاءني بهذه التربة فأخبرني أن فيها مضجعه[١].

وفي العقد الفريد، قال ومن حديث أم سلمة زوج النبي ﷺ، قالت: كان عندي النبي ﷺ ومعي الحسين. فدنا من النبي ﷺ، فأخذته، فبكى، فتركته، فدنا منه، فأخذته، فبكى، فتركته. فقال له جبرئيل: أتحبه يا محمد. قال نعم. قال: أما إن أمتك ستقتله، وإن شئت أريتك من تربة الأرض التي يقتل بها، فبسط جناحه فأراه منها، فبكى النبي ﷺ[٢].

وفي الصواعق المحرقة، أن علياً مرَّ بكربلاء عند مسيره إلى صفين وحاذى نينوى قرية على الفرات، فوقف وسأل عن اسم الأرض، فقيل كربلاء. فبكى حتى بل الأرض من دموعه، ثم قال: دخلت على رسول الله ﷺ وهو يبكي فقلت ما يبكيك؟ قال: كان عندي جبرئيل آنفاً وأخبرني أن ولدي الحسين يقتل بشاطئ الفرات بموضع يقال له كربلاء، ثم قبض جبرئيل قبضة من تراب أشمني إياه، فلم أملك عيني أن فاضتا[٣].

وقد قال الحسين عليه السلام: أنا قتيل العبرة، لا يذكرني مؤمن إلا استعبر[٤].

فالحسين عليه السلام عبرة كل مؤمن كما جاء في حديث صحيح. وكيف لا تفيض عينا المؤمن عندما يسمع أن حسيناً يتناول طفله الرضيع بعد أن جفَّت المراضع، فيشرف على الاعداء، قائلاً: «إن كنا في زعمكم مذنبين، فما ذنب هذا الرضيع، وقد ترونه

---

(١)،(٢) بحار الأنوار: ج٤٤، ص٢٣٠، باب ٣٠.

(٣) الصواعق المحرقة: ص١٨١.

(٤) بحار الأنوار: ج٤٤، ص٢٨٤، باب ٣٤.

يتلظى عطشاً، وهو طفل لا يعرف الغاية ولم يأتِ بجناية ويلكم اسقوه شربة ماء، فقد جفت محالب أمه وإن كنتم غير مصدقين خذوه مني واسقوه أنتم» فاختلف القوم فيما بينهم، منهم من قال: اسقوا الرضيع ومنهم من قال: إن الحسين قد بلغ الغاية من الظمأ لو صبرتم قليلاً أسلم أمره إليكم. فخشى ابن سعد العاقبة وأشار إلى حرملة قائلاً: إقطع نزاع القوم، فرمى الرضيع بسهم له في نحره، فذبحه من الوريد إلى الوريد، وصار الطفل يرفرف على يدي والده كالطير المذبوح، فأخذه إلى المخيم استقبلته ابنته، قائلة: «يا أبه، لعلك سقيت أخي ماء» فأجابها: «هاك أخاك مذبوحاً». ثم حفر الأرض بسيفه ودفن الرضيع مرملاً بدمه[١]...

الحسين عليه السلام يعلّم الناس الصلاة في أحرج ساعة

يقول الله تبارك وتعالى: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٣٨]. وفي موضع آخر: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُواْ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾﴾ [المدّثر: الآيتان ٤٢/٤٣] وفي مكان آخر: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ [المَاعون: الآيتان ٤/٥]. فلم يهتم الدين الإسلامي بشيء اهتمامه بالصلاة وقد جعلها أساساً لقبول بقية الأعمال بقوله: «الصلاة عمود الدين، إن قبلت قبل ما سواها وإن ردت رد ما سواها». «الصلاة قربان كل تقي»، «أول ما يحاسب العبد عليه الصلاة». «وإن أول ما فرض الله تعالى الصلاة وآخر ما يبقى عند الموت الصلاة. وآخر ما يحاسب به يوم القيامة الصلاة، فمن أجاب فقد سهل عليه ما بعده، ومن لم يجب فقد اشتد عليه ما بعده». وقال: «ما بين العبد وبين الكفر ترك الصلاة»[٢]. وفي هذه الأحاديث كفاية لبيان أهمية الصلاة.

إن النبي صلى الله عليه وآله كان كثير الصلاة حتى تورَّمت قدماه. وأما علي عليه السلام فكان يصلي كل يوم وليلة ألف ركعة. وقد قال فيه ابن أبي الحديد: «كان علي أعبد الناس وأكثرهم

---

(١) مقتل الحسين، للسيد ابن طاووس: ص١١٢.

(٢) الكافي: ج٣، ص٢٦٨، باب من حافظ على صلاته.

صلاة وصوماً ومنه تعلم الناس صلاة الليل وملازمة الأوراد وقيام النافلة وما ظنك برجل يبلغ من محافظته على ورده أن يبسط له نطع بين الصفين ليلة الهرير فيصلي عليه والسهام تقع بين يديه وتمر على صماخيه يميناً وشمالاً فلا يرتاع لذلك ولا يقوم حتى يفرغ من وظيفته»[١]. وأما الحسين عليه السلام فكما روى ابن عبد البر في الاستيعاب حج خمساً وعشرين حجة ماشياً ونجائبه تقاد معه وكان يصلي في اليوم والليلة ألف ركعة.

وقد صلى الحسين عليه السلام صلوات عدة مشهورات منذ خروجه من مكة، بغية الاستشهاد في موضع آخر، صيانة لحرمة بيت الله الحرام.

الأولى: أنه عليه السلام بعد أن سار من بطن العقبة ونزل شراف، أمر عند السحر فتيانه فاستقر الماء واكثروا ثم سار منها حتى انتصف النهار فلاقاهم الحر ومعه ألف فارس وكان قد أثر فيهم العطش فأمر الحسين عليه السلام فتيانه أن أسقوا القوم وارووهم من الماء ورشفوا الخيل ترشيفاً، ففعلوا وقد حضر وقت صلاة الظهر. فأمر الحسين عليه السلام الحجاج بن مسروق أن يؤذن فلما حضرت الإقامة، خرج الحسين عليه السلام فحمد الله وأثنى عليه، وقال: «أيها الناس، إني لم آتكم حتى أتتني كتبكم وقدمت علي رسائلكم أن أقدم علينا، فإنه ليس لنا إمام، لعلَّ الله أن يجمعنا وإياكم على الهدى والحق. فإن كنتم على ذلك فقد جئتكم فاعطوني ما أطمئن إليه من عهودكم ومواثيقكم، وإن لم تفعلوا وكنتم لمقدمي كارهين، انصرفت عنكم إلى المكان الذي جئت منه إليكم». ثم قال للمؤذن: أقم الصلاة، فأقام الصلاة. فقال للحر: أتريد أن تصلي بأصحابك، فقال لا، بل تصلي أنت ونصلي بصلاتك، فصلى بهم الحسين عليه السلام وكل دخل خيمته. فلما كان وقت العصر أمر الحسين عليه السلام أن يتهيؤا للرحيل. ثم أمر مناديه، فنادى بالعصر، وأقام، واستقدم الحسين عليه السلام فصلى بالقوم. ثم سلم وانصرف إليهم بوجهه. فحمد الله وأثنى عليه. وقال: «أما بعد، أيها الناس، إن تتقوا الله وتعرفوا الحق لأهله، يكن أرضى لله عنكم. ونحن أهل بيت محمد، أولى بولاية هذا الأمر عليكم، من هؤلاء المدَّعين ما ليس لهم، والسائرين فيكم بالجور والعدوان. فإن أبيتم إلا الكراهة لنا

---

(١) شرح نهج البلاغة: ج١، ص٢٧.

والجهل بحقنا وكان رأيكم الآن غير ما أتتني به كتبكم وقدمت علي به رسلكم انصرفت عنكم». فامتنع الحر وأصحابه وجعجعوا به حتى أوردوه كربلاء[1].

وإن ائتمام الحر بأبي عبدالله الحسين عليه السلام في صلاته يعرفنا قبلاً أن نفسه كانت قمينة لقبول الحق والفوز بالشهادة وحسن السمعة. لذلك يأتي حسيناً يوم العاشر نادماً تائباً فاراً من ابن سعد وأصحابه، قائلاً «هل لي من توبة». فيتوب على يد الإمام عليه السلام، ويستشهد بين يديه ويفوز بالخلود الأبدي في نعيم أبدي. وقد أتم الحر بهذا الرشاد الحجة على ابن سعد ومن والاه.

ونادى عمر بن سعد عشية يوم الخميس لتسع مضين من المحرم قائلاً: «يا خيل الله اركبي وبالجنة أبشري» فركب الناس وزحفوا بعد العصر، والحسين عليه السلام جالس أمام خيمته محتب بسيفه فجاءه العباس عليه السلام قائلاً: يا أخي أتاك القوم. فقال: يا عباس، «اركب بنفسك أنت حتى تلقاهم، وتقول لهم: ما بالكم وما بداكم، وتسألهم عما جاء بهم». فأتاهم العباس عليه السلام في نحو عشرين فارساً، فسألهم فقالوا: «قد جاء أمر الأمير أن نعرض عليكم أن تنزلوا على حكمه أو نناجزكم» قال: «لا تعجلوا حتى أرجع إلى أبي عبدالله فأعرض عليه». فلما أخبره العباس بقولهم، قال له: «ارجع إليهم. فإن استطعت أن تؤخرهم إلى غدوة وتدفعهم عنا العشية لعلنا نصلي لربنا الليلة وندعوه ونستغفره، فهو يعلم أني كنت أحب الصلاة له وتلاوة كتابه وكثرة الدعاء والاستغفار».
فرجع العباس عليه السلام وسألهم ذلك: فتوقف ابن سعد، فقال له عمر بن الحجاج الزبيدي، سبحان الله؛ والله لو أنهم من الترك أو الديلم وسألونا مثل ذلك، لأجبناهم. فكيف وهم آل محمد. فجمع الحسين عليه السلام أصحابه قرب المساء فقال: «اثني على الله أحسن الثناء وأحمده على السراء والضراء، اللهم إني أحمدك على أن أكرمتنا بالنبوة، وعلمتنا القرآن وفقهتنا في الدين وجعلت لنا أسماعا وأبصاراً وأفئدة، فاجعلنا لك من الشاكرين» ثم طلب إلى أصحابه أن يتفرقوا عنه جوف الليل، وقال لهم: أنتم في حل مني، فلم يقبلوا وقابلوه بكلمات تدل على عظمة الإيمان فيهم فقام الحسين عليه السلام

---

(١) بحار الأنوار: ج٤٤، ص٣٧٦، باب ٣٧.

وأصحابه الليل كله، يصلون ويستغفرون ويدعون ويتضرَّعون. باتوا ولهم دوي كدوي النحل ما بين قائم وقاعد وراكع وساجد.

سمة العبيد من الخشوع عليهم ... لله إن ضمتهم الأسحار
فإذا ترجلت الضحى شهدت لهم ... بيض القواضب أنهم أحرار

ولم يشغلهم ما هم فيه من الشدائد وانتظار القتل عن ذكر ربهم فعبر إليهم في تلك الليلة من عسكر ابن سعد اثنان وثلاثون رجلاً. ولا أعلم كيف أصف هذا التهجد. فإنهم كانوا يرون الحق علانية وقد رفعت عنهم الحواجب وكشف لهم الغطاء. لذلك تراهم مأنوسين فرحين مستبشرين. فهذا برير، يداعب عبدالرحمن الأنصاري ويضاحكه. فيقول له عبدالرحمن، يا برير، ما هذه ساعة باطل. فيجيب برير: «لقد علم قومي إني ما أحببت الباطل كهلاً ولا شاباً، وإنما أفعل ذلك استبشاراً بما نصير إليه، فوالله ما هو إلا أن نلقى هؤلاء القوم بأسيافنا ونعالجهم بها ساعة ثم نعانق الحور العين»[(١)].

وأعظم صلاة يصليها الحسين عليه السلام هي صلاة ظهر عاشوراء. ففي بحبوحة الوغى يأتي أبو ثمامة الصيداوي حسيناً عليه السلام قائلاً: «يا أبا عبدالله، نفسي لنفسك الفداء، هؤلاء قد اقتربوا منك. لا والله، لا تقتل حتى أقتل دونك، وأحب أن ألقى الله ربي وقد صليت هذه الصلاة». فرفع الحسين عليه السلام رأسه إلى السماء، وقال: «ذكرت الصلاة، جعلك الله من المصلين الذاكرين. نعم هذا أول وقتها»[(٢)]. فالحسين عليه السلام يدعو لأبي ثمامة أن يجعله الله من المصلين. كل ذلك، لأنه لا فضيلة ولا مقام أعلى من أن يعد الإنسان من المصلين. وهذا تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾﴾ [المَعَارج: الآيات ١٩/ ٢٢]. فاستثنى الله تعالى المصلِّين الذاكرين فهؤلاء بصلواتهم المقبولة تطهر نفوسهم فتأخذ بالكمال ويكونون إذ ذاك فوق البشر العادي، فلا يجزعون عند الشر ولا يمنعون إذا مسَّهم الخير.

---

(١) بحار الأنوار: ج٤٥، ص٥.

(٢) بحار الأنوار: ج٤٥، ص٥.

ثم قال الحسين عليه السلام سلوهم أن يكفوا عنا. ففعلوا. فقال لهم الحصين بن تميم إنها لا تقبل. فقال له حبيب بن مظاهر: زعمت لا تقبل الصلاة من آل رسول الله صلى الله عليه وآله وتقبل منكم يا خمار. فحمل عليه الحصين وحمل عليه حبيب رضوان الله عليه فقتل بديل بن صريم ثم قتل. فقال الحسين عليه السلام: «عند الله أحتسب نفسي وحماة أصحابي. لله درّك يا حبيب، لقد كنت فاضلاً، تختم القرآن في ليلة واحدة». وقال الحسين عليه السلام لزهير بن القين وسعيد بن عبدالله: تقدما أمامي حتى أصلي الظهر فتقدما أمامه في نحو من نصف أصحابه حتى صلى بهم صلاة الخوف. فوصل إلى الحسين عليه السلام سهم، فتقدم سعيد بن عبدالله ووقف يقيه النبال بنفسه، ما زال ولا تخطى، فما زال يرمى بالنبل حتى سقط إلى الأرض وهو يقول: «اللهم العنهم لعن عاد وثمود. اللهم، أبلغ نبيك عني السلام وأبلغه ما لقيت من ألم الجراح. فإني أردت ثوابك في نصرة ذريَّة نبيك». ثم قضى نحبه رضوان الله عليه، فوجد فيه ثلاثة عشر سهماً سوى ما به من ضرب السيوف وطعن الرماح، وقد خطب الحسين في أصحابه بعد الصلاة، فقال: «يا أصحابي، إنَّ هذه الجنة قد فتحت أبوابها واتصلت أنهارها واينعت ثمارها وتؤلفت ولدانها وحورها وهذا رسول الله صلى الله عليه وآله والشهداء الذين قتلوا معه، أبي وأمي يتوقعون قدومكم ويتباشرون بكم وهم مشتاقون إليكم، فحاموا عن دين الله وذبوا عن حرم رسول الله»[1].

هذه صلاة يصليها الحسين عليه السلام في أحرج ساعة بين السيوف والرماح فيعلم الناس عظمة الواجب وأنه لا يترك بحال، وإنَّ أمر الله فوق جميع الاعتبارات. وإنَّ الحرب والنضال إنما هما لتقويم دين الله وإحياء شعائر الله. يعلم الناس أن مبدأ الفضائل إنما هو في صلاة يؤديها الإنسان شكراً لخالقه وأن لا فضيلة دون صلاة وخشوع لله تبارك وتعالى. يقدم درساً عملياً، أن الشواغل الدنيوية من تجارة ومرض ولعب وسباق وجهاد وغيرها محكومة تجاه عظمة الصلاة، ولا عمل لمن لا صلاة له مهما عظم العمل في نظره أو في نظر الناس. وهو صلوات الله عليه يختم هذه الصلاة التي لا تشبهها أية صلاة بمناجاة يناجي بها ربه حين بقي وحيداً فريداً قائلاً:

---

(١) بحار الأنوار: ج٤٥، ص٥.

تركت الخلق طراً في هواكا   وأيتمت العيال لكي أراكا
فلو قطعتني في الحب إرباً   لما مال الفؤاد إلى سواكا

فإلى الاستفاضة من الدروس الحسينيّة والاستفادة من عظمته وآثاره الخالدة أدعو إخواني المسلمين.

لماذا أبكى حسينا عليه السلام(١)

ما هذا الحزن الذي يحيط بالعالم الإسلامي عند هلال محرم الحرام؟ ما هذا الأسى الذي يتداخل كل مسلم في هذه الأيام؟ ما هذا الوجوم الذي يعم الآفاق؟ لماذا هذه المآتم وهذه المجالس المتعدِّدات في شرق العالم وغربه لماذا تغلق المجوس حوانيتها ثلاثة أيام في هذا الشهر؟ لماذا اتباع براهما پوترا في الهند يقيمون المآتم ويبذلون وينفقون؟ لماذا تصرف ملايين الدنانير لإطعام الفقراء والمساكين في هذه الأيام؟ ذلك لأنَّ حدثاً عظيماً يهز العالم هزاً، ذلك لأنَّ الفضيلة تصطدم بالرذيلة فيكون من نصيبها الخفوق أولاً ثم الفتح والانتصار. ذلك لأنَّ الضلال يريد أن يعود فيأتيه الحسين عليه السلام بنفسه ونفيسه فيقمعه قمعاً. ذلك لأنَّ الجاهلية الجهلاء تريد أن تبرز من جديد فيقابلها السبط بما عزَّ لديه: بطفله وولده وسبي رحله وذراريه ذلك لأنَّ الشرك يريد أن يخرج من قرن الشيطان فتتداركه رحمة الله الواسعة حسين عليه السلام فيمحقه محقاً بأخبية تحرق وستور تهتك وثغور تقرع. كيف لا يهتز العالم لهذا الحادث العظيم وإنَّ حياته فيه، ألا وهي الخلود في نعيم أبدي بتطهير النفس من الدنس والرجس وبعبادة الرحمن، ذلك الذي خُلق الإنسان لأجله. كيف لا يضطرب العالم شكراً وتقديراً، فإنه لولا هذا الحادث الجلل لكان مستغرقاً في عبادة الشمس واللات والعزى. فلو بذل العالم كل ما فيه من مال وذاب حزناً وأسى وكآبة وسال دموعاً لما وفى حقاً من حقوق محيي الشريعة ومجددها أعني حسيناً عليه الصلاة والسلام.

---

(١) كلمة ألقيت في العشرة الأولى من شهر محرم الحرم.

ما هذا البكاء؟ إنما هو زفرات يزفرها الإنسان مصحوبة بالدموع بصورة غير اختيارية اعترافاً بعظمة الحسين عليه السلام وتقديراً لأعماله الجبارة الخالدة. إنما هو مظهر من مظاهر الحب والولاء. إنما هو إمارة من إمارات العشق والوداد. وقد جاء في الحديث: «هل الدين إلا الحب والبغض»؟...

نسمع كثيراً أن كبار الرجال من سياسيِّين عظام الذين لم يسمع أنهم بكوا لحادثة، يذكرون في تاريخ حياتهم أنهم بكوا مرَّتين أو ثلاثاً طيلة حياتهم إما على أم لهم توفيت أو أب خطفه ريب المنون. كل ذلك لحب يتجلى فيسيل دموعاً ساخنات. والحسين عليه السلام والله قد خدم البشرية أضعاف ما يخدم الوالد ولده والوالدة ولدها. لأنه أحيا نفوس العالم الضالة وأخرجها من الحيرة إلى نور الهداية وهداهم سواء السبيل.

لقد حضرت في إحدى العواصم حفلة رائعة لتخليد ذكرى العلم الكيميائي الشهير: برثلو (Berthelot) وإنَّ أكثر مدن العالم قد احتفلت في نفس اليوم بذكرى هذا الكيمياوي الذي خدم العالم خدمات مادية تفيد البدن خاصة وما هي نسبة إحياء النفس الإنسانية بصورة أبدية إلى خدمة بدنية يقدمها الكيمياوي مع تقديرنا لخدمته.

إنَّ الشرع الإسلامي قد نهى عن البكاء لأمور تافهة دنيويَّة وأمر بالصبر وجعل البكاء مبطلاً للصلاة واستثنى البكاء أثناء الصلاة خوفاً من الله تعالى أو حباً للحسين السبط، ولذلك يقول صلوات الله عليه: «أنا قتيل العبرة لا يذكرني مؤمن إلا استعبر». فالبكاء على الحسين عليه السلام من علامات الإيمان الواقعي الحقيقي. كان الإمام الصادق عليه السلام يقول: «الحسين عبرة كل مؤمن».

ليس البكاء على امحاء الفضيلة يبعث على الذل والمسكنة كما يظنه البعض. فإنَّ النفوس لتصدأ كما يصدأ النحاس، ولا يزيل هذا الصدأ إلا البكاء من خشية الخالق والبكاء على ملتقى الفضائل ومجمع التضحيات، الحسين عليه الصلاة والسلام.

كان صديق لي من الأفاضل في النجف الأشرف يقول لي: «إني أشعر أنَّ نفسي تصدأ إن لم أحضر مجلس الحسين عليه السلام في كل أسبوع مرة فأبكي، فإذا بكيت أشعر بعد البكاء بارتياح وفرح وسرور واطمئنان وترفع عن العالم المادي». فالميزة الفارقة بين

البكاء الباعث على الذل والهوان هو ذلك البكاء الذي يتعقَّبه حزن وكآبة وظلمات، ولكن البكاء من عقاب الخالق أو البكاء للندم الحاصل للإنسان من جراء ما اقترفت يداه من الذنوب يريح النفس ويبعث على السرور والفرح وكل من جرب ذلك يصدقني فيما أقول.

ولقد شاهدت أناساً كثيرين يبكون حسيناً بإخلاص لا تأخذهم في الله لومة لائم جربتهم وسبرتهم فرأيتهم من خيار الناس وأبرارهم. فكأن هذا البكاء الخالص لو كان عن معرفة يؤثِّر في النفس فيهديها سواء السبيل، فتبدو آثار هذه الهداية في الأفعال والمعاملات. أليست التجربة مدار البحث في علم النفس الحديث أو بالأحرى في علم مظاهر النفس. أليس أكثر مقتبسات علم النفس الحديث تتم بطريقة آنكت (Enquete) أي السؤال والتتبُّع والفحص عن نفسيات ثلة من الناس. وقد وجدت الذين لا يرتضون البكاء على الحسين عليه السلام أقل عطفاً وحناناً من الطبقة الأولى المارة الذكر. فإني أرى أنَّ من علائم الإنسان الكامل أن يحزن ويبكي لهذا الحادث العظيم الذي به تجلى الدين وبه عرف الله وبه عبد. كيف لا ويزيد يقول متمثلاً بقول ابن الزبعرى:

«لعبت هاشم بالملك فلا خبر جاء ولا وحي نزل
لست من خندف إن لم أنتقم من بني أحمد ما كان فعل»

فهذا البكاء بكاء للدين ولله تعالى وهذه الدموع يتجلَّى فيها التقدير والشكر والثناء، ومن تتبع أدوار هذا البكاء الحسيني علم كيف يأخذ بالإنسان فيجعله في وادٍ كله صفاء وكله نور... ولا يسع المجال أن أنقل مقالاً ضافياً طالعته في مجلة الكلية التي تصدر ببيروت عن فوائد البكاء المادية وكيف يفيد العين وكيف يكون سبباً لقتل كثير من الجراثيم التي تصاب بها العين. ذلك لأنَّ كل ما جاء في الشرع المحمدي من أعمال لها فوائد روحية تؤدِّي إلى كمال النفس الإنسانية وفوائد مادية تفيد الحياة المادية والاجتماعية.

ثم أليس عظماء الدين كانوا غزيري الدمعة مع بسالتهم وشجاعتهم وقيامهم بأعمال خارقة. هذا الإمام علي عليه السلام، يصفه ضرار بن ضمرة قائلاً: «كان والله غزير الدمعة...

إلى أن قال . . . لقد رأيته في بعض مواقفه وقد أرخى الليل سدوله وغارت نجومه، قابضاً على لحيته الشريفة يتململ تململ السليم ويبكي بكاء الحزين. . . إلخ»[١].

ليس البكاء على الفقيد ببدعة والأدلة على ذلك كثيرة، منها الأصل العملي يقتضي إباحة البكاء على الفقيد ورثاءه بالقريض وتلاوة مناقبه ومصائبه والجلوس حزناً عليه والإنفاق عنه في وجوه البر.

ويستفاد من الأدلة اللفظيّة والسيرة القطعيّة والأصل العملي استحباب البكاء، إذا كان الفقيد مستجمعاً لصفات الفضل أو مضحياً نفسه في سبيل إحياء الفضيلة، كي يتأسى به الآخرون ويقتدي به الباقون فتنمو الفضيلة وتستأصل الرذيلة. إنَّ النبي ﷺ قد بكى يوم أُحد على عمه حمزة حتى قال ابن عبد البر في ترجمته: «لما رأى النبي ﷺ حمزة قتيلاً بكى، فلما رأى ما مثل به شهق» (وذكر الواقدي أن النبي ﷺ كان يومئذٍ إذا بكت صفية يبكي وإذا نشجت ينشج قال: وجعلت فاطمة تبكي فلما بكت بكى رسول الله ﷺ)[٢].

وقد أخرج البخاري أن النبي ﷺ بكى على جعفر وزيد وقال: «أخواي مؤنساي ومحدثاي». . وقد بكى رسول الله ﷺ يوم مات ولده إبراهيم كما في الجزء الأول من صحيح البخاري صفحة: ١٤٨ فقال له عبدالرحمن بن عوف: وأنت يا رسول الله؟ قال «يابن عوف: إنها رحمة» ثم اتبعها (يعني عبرته) بأُخرى. فقال: «إنَّ العين تدمع والقلب يحزن ولا نقول إلا ما يرضي ربنا وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون»[٣].

ومنها يوم ماتت إحدى بناته ﷺ فجلس على قبرها كما في صحيح البخاري وعيناه تدمعان. ومنها يوم مات صبي لإحدى بناته إذ فاضت عيناه يومئذ ـ كما في صحيح البخاري وصحيح مسلم ـ فقال له سعد: ما هذا يا رسول الله، قال: «هذه رحمة جعلها الله في قلوب عباده، وإنما يرحم الله من عباده الرحماء»[٤].

وقد ذكر ابن عبد البر في استيعابه ما لفظه: دخلت فاطمة وهي تبكي وتقول واعماه. فقال رسول الله ﷺ: «على مثل جعفر فلتبكِ البواكي».

---

(١) بحار الأنوار: ج٣٣، ص٢٥٠، باب ٢٠. (٣)،(٤) صحيح البخاري: كتاب الجنائز.
(٢) المغازي، للواقدي: ج١، ص٢١٢.

وإنَّ أهل المدينة الطيِّبة لا يزالون إلى الآن إذا ناحوا على ميِّت بدأوا بالنياحة على حمزة. وما ذاك إلا مواساةً لرسول الله ﷺ بمصيبته في عمه، وأداءً لحق تلك الكلمة التي قالها في البعث على البكاء عليه وهو قوله ﷺ: «لكن حمزة لا بواكي له».

وأخرج ابن سعد كما في الفصل الثالث من الباب الحادي عشر من الصواعق المحرقة لابن حجر عن الشعبي قال: مرَّ علي عليه السلام بكربلاء عند مسيره إلى صفين وحاذى نينوى فوقف وسأل عن اسم الأرض فقيل كربلاء. فبكى حتى بلّ الأرض من دموعه. ثم قال عليه السلام: «دخلت على رسول الله ﷺ وهو يبكي فقلت ما يبكيك (بأبي أنت وأمي)؟». قال: «كان عندي جبرائيل آنفاً، وأخبرني أن ولدي الحسين يقتل بشاطئ الفرات بموضع يقال له كربلاء»[١].

وأخرج الملا (كما في الصواعق أيضاً) أنَّ علياً عليه السلام مرَّ بموضع قبر الحسين عليه السلام، فقال: «هاهنا مناخ ركابهم وهاهنا موضع رحالهم وهاهنا مهراق دمائهم. فتية من آل محمد يقتلون بهذه العرصة تبكي عليهم السماء والأرض»[٢].

ومن حديث أم سلمة كما نصَّ عليه ابن عبد ربه المالكي حيث ذكر مقتل الحسين عليه السلام في الجزء الثاني من العِقد الفريد. قالت: «كان عندي النبي ﷺ ومعي الحسين، فدنا من النبي ﷺ، فأخذته فبكى، فتركته فدنا منه، فأخذته فبكى، فتركته. فقال له جبرائيل أتحبُّه يا محمد قال: نعم. قال إنَّ أمتك ستقتله وإن شئت أريتك الأرض التي يقتل بها فبكى النبي ﷺ»[٣].

فإلى تعظيم الشعائر وإلى إحياء وتقوية الدين بتخليد اسم من خلد الدين وأحياه وأعني به حسين الفضيلة وحسين الإباء أدعو إخواني المسلمين.

كيف نجلب الشباب إلى حظيرة الإسلام

كل منا يعلم أن الأكثرية الساحقة من شبابنا اليوم بعيدون عن الإسلام كل البعد،

---

(١)،(٢) الصواعق المحرقة: ص٢٩٣. (٣) العقد الفريد: ج٢، ص٢١٥.

فهم بين مؤمن بمبادئ الإسلام غير مؤدٍ للفرائض ومنفلت عن الأخلاق الإسلامية إلا القليل وبين مستهزئ بالمقدَّسات والتعاليم الإسلامية وناظر إلى ما أوجبه الله من واجبات نظرة سخرية وازدراء وبين عدوٍ للإسلام ومبادئه. كل ذلك، لأنَّ الصهيونية والمسيحية والاستعمار قامت منذ مائتي سنة بأساليب شتى عن طريق التعليم وتأسيس نوادٍ للشباب وغيرها بانتزاع العقيدة الإسلامية عن الشباب وعرض الإسلام كمبدء بالٍ خرافي لا يماشي الترقي والتقدم، كمبدأ معارض لمفاهيم العصر والحضارة الغربية التي يجب أن تعتنق لمواكبة السير التقدُّمي بين الأمم وإلا فالموت والفناء!

فقد خسرنا نتيجة جهود بذلها الغرب ٨٠٪ من شبابنا. وإنَّ العدد ليتفاقم يوماً بعد يوم. مع العلم أنَّ الشباب طاقة لا يستهان بها بل هو الثقل الوزين الذي يجب أن يتحمَّل مسؤولية الاحتفاظ بالرسالة المحمَّديَّة ونشرها بين الأصقاع.

فما الذي يجب أن نقوم به لإرجاع الشباب المخدوع إلى حظيرة الإسلام وإلى تفهم الإسلام كمبدأ يفي بجميع ما يحتاجه الإنسان من دساتير لتكامله في جميع الحقول من اجتماعي واقتصادي وقضائي وعسكري وسياسي وعلمي وما يحتاجه من تعاليم لتحقيق آخرة سعيدة.

هذا ما يجب أن يفكر فيه المفكرون وأن يكون شغلهم الشاغل. لا شك: إن المنشورات الدينية تؤثِّر إلى حدٍّ ما في ردع الشباب عن غوايتهم وتحبيبهم الإسلام. ولكن قلّ من يحمله حب الاطلاع على اقتناء منشورات دينيَّة ومطالعتها وإن المجلات الخلاعية لا تدع مجالاً للتفكير في نواح أخرى تهذيبية.

ومن الواضح أن التدريس في المدارس من ابتدائية وثانوية وعالية لا يبتنى على توحيد الله تبارك وتعالى وعزو كل نظام وقانون في هذا الكون إلى الله المبدع الحكيم.. بل تدور على الألسنة: أن الطبيعة هي التي صنعت كذا وجهزت بكذا وإنَّ الطبيعة عالجت وتداركت!.. إلى ما هنالك. فينشأ الطالب بعيداً عن توحيد الله تبارك وتعالى في أرضه وسمائه، بعيداً عن تقديسه وعَزو كل كمال إليه[1]... وقد يؤول أمره

---

(١) قد يصرف أحدهم عشرين سنة من العمر للوقوف على حياة النملة بالتفصيل. أفلا يجدر به أن =

إلى الإلحاد! لا سمح الله.

هذا هو الواقع المرير الذي نلمسه اليوم في شبابنا. فهل تكفي المواعظ فحسب ومَن يرى الشباب حتى يَعظهم؟ وفي أي محل يعظهم؟ فهل هناك من مشوقات لاجتماعهم في محل خاص؟!

فأساليب الدعوة إلى حظيرة الإسلام يجب أن تتطوَّر حسب مقتضيات العصر. شريطة أن لا تتنافى مع ما قرره الشرع الشريف.

فلابدَّ أن ينبري الأثرياء من المسلمين مقدرين الوضع المبكي باذلين من نفوسهم ونفائسهم لتأسيس نوادٍ للشباب يرأسها من يعتمد عليه في دينه وتقواه وعلمه، فيطبق لتربية الشباب في أوقات فراغهم مناهج إسلامية رصينة.

إن هذه النوادي هي مدارس إسلامية تجذب الشباب إليها بأسلوب شيِّق، ففيها قاعة لإلقاء المحاضرات، وفيها مصلى كبير لإقامة الفرائض، وفيها مكتبة إسلامية وفيها ساحات لرياضات بدنية وما يقوي الأجساد وهناك صفوف لإلقاء دروس في الدين والأخلاق وعلم التجويد والتفسير وتاريخ الإسلام. وهناك امتحانات تعين مقدار أهلية الشاب للقيام بالدعوة الإسلامية فهذه النوادي أو المدارس الإسلامية لها مناهجها وساعات للعمل وفعاليات شتى، وتعلم في الوقت نفسه بعض الصنايع ليستعين بها المبشر بالدين الإسلامي، (الداعية) في بعض الأحيان وعند الضرورة.

إن في الشباب طاقات وقوى لابدّ وأن تتوجَّه بصورة طبيعية لتبذل في ناحية من النواحي بشكل سلبي أو إيجابي، فعلينا أن نستغل هذه الطاقات وأن نستفيد منها لتربية الشاب تربية سليمة، تربية إسلامية رصينة، تربية فيها مرغبات مشروعة ومشوِّقات يقرُّها الدين الإسلامي، جمال المحل، النظافة المتناهية، تلاوة القرآن بصوت رخيم، أخلاق فاضلة وتحابب وتواد أمر بهما الإسلام.

الشاب يريد أن يعمل، يريد أن ينتج، يريد الحركة والفعالية، فهذه النوادي تحقق رغبات الشباب وذلك بتقسيم واجبات وفعاليات شتى على الشباب المنتمين إلى هذه

= يصرف شيئاً من العمر لمعرفة خالق النملة!

النوادي: من إدارة مكتبة أو تطبيق منهج أو إلقاء كلمة أو هداية شاب أو المساهمة فيما يقوي الجسم من رياضة بدنية وألعاب رياضية مشروعة أو القيام بأعمال تجارية لترتيب قاعة المحاضرات إلى ما هناك من فعاليات لا تدع مجالاً لأن تصرف أوقات فراغ الشاب في ما يفسد دينه ودنياه.

وقد شاهدت في استانبول قبل حوالي أربعين عاماً نادياً هاماً أسَّسه قس أمريكي يرتدي الألبسة العادية، إن هذا النادي كان ينتمي إلى جمعية الشبان المسيحيِّين (Y. M. C. A). كنت ترى في هذا النادي ما يحقِّق راحة الشاب من مناضد وكراسي ووسائل للمطالعة وساحات للعب، وقد لاحظت أنه قد وضعت في القاعة الكبرى قطعة مكتوبة عليها سورة الفاتحة من القرآن الكريم وبجنبها قطعة أخرى مكتوبة عليها عبارات من الإنجيل المتداول!

وكانت تلقى محاضرات على الطلاب في كل أسبوع في أوقات معيَّنة لتوجيههم إلى هدف معيَّن، وكانت تقوم الجمعيَّة في الصيف بأخذ الشبان إلى سواحل البحر ونصب الخيم لتدريبهم تحت مناهج معينة واستمالتهم نحو الهدف المنشود!

يقول الأستاذ محمد مهدي الآصفي في كتابه: (من حديث الدعوة والدعاة):

دُعيت في طهران إلى الكنيسة الإنجيليَّة من قبل الدكتور (جان آلدر) زعيم الحركة المسيحية في إيران لنتحدث عن شؤون الإسلام والمسيحيَّة فأدهشني نشاط الحركة وتوسُّعها وقوَّتها وإيمان أصحابها بها واهتمام المسيحيِّين بتجهيزها وتمويلها. وأشجاني أكثر من أي شيء آخر، أنني رأيت ثلةً من الشباب المسلم المتنصر يعملون في تسيير هذه الحركة وتجهيزها. فكان ينادي أحدهم الآخر: مصطفى، محمد، حسن، علي، فسألت عن حالهم. فقالوا: «نحن من المسلمين المتنصرين، راقتنا الدعوة فاستجبنا لها». فسألتهم عما إذا كانوا يعرفون شيئاً عن الإسلام، فكان الجواب بالنفي. وكانوا لا يحسنون قراءة شيء من القرآن. مع العلم أنهم كانوا يحفظون جملاً طويلة من العهد الجديد والعهد القديم من الكتاب المدعو بـ(المقدس).

يقول الأستاذ الآصفي: «تعتمد المسيحية في التبشير على الأساليب العاطفية أكثر

من أي جانب آخر وتستغل العاطفة قبل أن تستغل العقل أو من غير أن تستغل العقل. فطقوس العبادة تجري في جو متكهرب بموسيقى عذبة وألحان شجية مثيرة والنشيد الديني يسبِّح على فضاء الكنيسة ممتزجاً بالأنغام الموسيقيَّة في جو مثير ساحر. والنشيد حقل من حقول الشعر العاطفي الرقيق، يلعب بأفكار الحاضرين وعواطفهم، فتستر عليهم منافذ العقل والتفكير. ثم هناك ضروب الإغراء والوعد الكاذب. فالمؤمن الخاطئ إذا اغتسل بماء التعميد واعترف للقسيس بكل شيء فقد وهب الله له ما تقدم من ذنبه، وما أدراك ما لمشهد التعميد من روعة وسحر».

مما لاشك فيه أن الغزو التبشيري كان يعتمد منذ أمد بعيد على فتح مدارس ابتدائية وثانوية وسلسلة من النشرات بورق جيد وطباعة أنيقة لمختلف الطبقات، للأطفال والشبان وغيرهم.

وأما التبشير المسيحي في أفريقيا فحدث عنه ولا حرج، فإنه يجري بمقياس واسع جداً، فهناك مبشِّرون يوفدون مع تعليمات خاصة للمستعمرات، وتفتح للأهلين معاهد للتدريس ثم يؤتى بمطبعة وتطبع فيها المنشورات المسيحية، فإذا حاولت هذه المستعمرة أن تتحرر، رجع هؤلاء المبشِّرون وحلَّ محلَّهم مبشِّرون آخرون من طراز آخر وتعليمات خاصة، فإذا تحرر البلد نهائياً واستقلَّ استقلالاً تاماً حلَّ محل هؤلاء القسِّيسين قسِّيسون آخرون وهكذا... ولكن الإفريقيِّين يميلون مع كل ذلك إلى الإسلام أكثر من أي دين آخر ويدخل منهم في دين الإسلام أفواج وأفواج، لعلمهم أنَّ الإسلام يأمر بالتحرر والاستقلال ويأبي الذل والاستعمار.

﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: الآية ٨].

وقد قرأت في إحدى المجلاَّت أنَّ عدداً كبيراً من الشبان المسلمين في (فينّا) عاصمة النمسا قد تقدَّموا بطلب إلى المراجع الدينيَّة يرجون فيه أن يرسل إليهم عالم ديني يعلِّمهم مبادئ الدين القويم.

وقد تأسَّس مركز إسلامي في جنيف (Geneve) في سويسرا باسم (Islamic center) لنشر تعاليم الإسلام والاتصال بالجمعيَّات الإسلامية في أرجاء العالم.

وهناك جمعيَّات إسلامية مهمَّة تأسَّست في الهند تعمل لأجل نشر الإسلام في أنحاء العالم ولها نشرات بلغات شتى، وهناك نداءات تأتي من اليابان يطلبون بإلحاح أن يرسل لهم دعاة يدعون الناس إلى الإسلام. وأما أفريقيا فخير بقعة لنشر الإسلام في الوقت الراهن فإن عدد المسلمين يزداد في أفريقيا (٥٠٠٠٠٠) نسمة في كل سنة، وقد كان في بداية القرن العشرين (٤٠٠٠٠) مسلم في الكونغو واليوم عددهم يزيد على (٢٣٦٠٠٠) وأن (لومبومبا) كان يميل إلى الإسلام، وكان يقول: «إني أتعجَّب أنَّ المسيحيِّين كانوا يعلموننا في المدارس أن نحترم الأسس المسيحيَّة وكانوا يقولون يجب أن يسود الحب والوئام بين أفراد البشر، ولكن المسيحيِّين أنفسهم كانوا يخالفون ما يقولون وكانوا يسحقون أسس المدنية والإنسانية تحت أقدامهم وأن التعليمات المدرسية تخالف مخالفة صريحة مع معاملتهم السود، الملوَّنين». كما أنَّ في أمريكا مجالاً واسعاً لتثبيت دعائم الإسلام.

فالإسلام دين الفطرة، دين العقل والمنطق، تتقبله النفوس بكل ارتياح، لذلك نراه ينتشر في أستراليا من قبل جمالين، وذلك أن القاطنين في أستراليا احتاجوا إلى وسائل النقل لبعد المدن بعضها عن بعض بمسافات شاسعة، وأرسل لهم من الأفغان عدد من الجمال مع أصحابها المسلمين، فنشر هؤلاء الجمالون الدين الإسلامي مع كونهم من عوام الناس في تلك الأصقاع، وبنى المسلمون هناك مساجد فخمة يتلى فيها كتاب الله وتقام فيها الصلوات فليعلم شبابنا أن الغرب لا يزال متمسكاً بدينه، وهو يحارب الإسلام بشتى الوسائل، ففي أمريكا (٢١٢٠٠٠) داعية للتبشير بدين المسيح عليه السلام، وعشرات الألوف من الكنائس والأديرة والمؤسَّسات التبشيريَّة وما إلى ذلك من المعاهد والمستشفيات. والحكومة الأمريكيَّة تبذل الدولارات في هذا السبيل، وللكنيسة سلطتها في أمريكا. ولقد ترجم الكتاب المقدس (الإنجيل) المتداول إلى ٦٣٠ لغة. وفي بعض الجامعات توضع صورة المسيح عليه السلام على شهادة التخرُّج.

فجدير بشبابنا أن لا تأخذهم في الله لومة لائم وأن يعملوا مجدِّين لنشر الإسلام في أصقاع الأرض، أينما حلوا، بعد دراسة الإسلام دراسة متقنة ودراسة القرآن الكريم

دراسة وافية وعلم الحديث وشيء من الفقه. ففي ذلك نجاتهم ونجاة العالم مما تنتابه من ويلات ولهم بذلك عند الله أجر عظيم.

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [فُصّلَت: الآية ٣٣].

شهر الغفران

إن الله تبارك وتعالى لعلمه بما ستجنيه هذه النفس الأمارة بالسوء من الموبقات والمدنسات والخبائث، هيأ لها شتى الوسائل لتتوب إلى ربها وتكفر عن سيِّئاتها وتحظى بغفران الله وجليل رحمته. ومن أهم تلك الوسائل المطهِّرة للنفس الإنسانية من الدنس والرجس هو شهر رمضان المبارك بما فيه من إمساك وتسبيح وتهليل وتحميد ومناجاة وتلاوة قرآن وصدقة وإطعام وكفِّ النفس والجوارح عن الأذى وكل ما يؤدِّي إلى التسافل والتدنس. فالصوم نعم المربي وإن شهر رمضان المبارك شهر تربية وتزكية، شهر تهذيب وتثقيف ديّنيين. فكما أنَّ بعض الأمم تخصص أسبوعاً لشؤون التربية فتسمى هذا الأسبوع أسبوع التربية أو أسبوع المعارف، كذلك فإنَّ الله تبارك وتعالى رحمة بعباده قد خصَّص شهراً للإنابة والاستغفار كفّ النفس عن مشتهياتها كي تكمل بالصبر والعزم على اقتحام الأذى. فإنَّ النفوس تقاس بدرجة تحملها النوائب وصبرها على المكاره. لذلك قد جاء في الحديث القدسي أن الله يقول: «الصوم لي وأنا أجزي عليه» وفي حديث آخر: «عمل ابن آدم له إلا الصيام فهو لي وأنا أجزي به». نعم إن الله يمتحن عباده بالصبر على البلاء والمكاره لأمرين: أوَّلهما: أن البلايا والمكاره مهذِّبة للنفس آخذة إياها إلى أرفع مراتب الكمال، ثانيهما: ليكون الجزاء عن جدارة ولياقة. وهو القائل: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾﴾ [النّجم: الآيات ٣٩/ ٤١]. ولا شيء أعلى مرتبة عند الله من الصبر والصوم تمرين ورياضة على الصبر؛ فقد قال الله تعالى كما جاء في الحديث «كل أعمال ابن آدم بعشرة أضعافها إلى سبعمائة ضعف إلا الصبر فإنه لي وأنا أجزي به»

فثواب الصبر مخزون عند الله والصبر هو الصوم: وقد روي في قوله تعالى: ﴿وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ﴾ [البَقَرَة: الآية ٤٥] أي بالصيام. ولما كان الصوم في الحر أشد لذلك جاء عن الإمام الصادقعليه السلام: «من صام يوماً في الحر فأصابه ظمأ وكَّل الله عز وجل به ألف ملك يمسحون وجهه ويبشِّرونه حتى يفطر وقال الله عز وجل: ما أطيب ريحك وروحك، ملائكتي أشهدوا أني قد غفرت له»[1].

ومن كلام رسول الله صلى الله عليه وآله: الشقي من حرم غفران الله في هذا الشهر. وإنما سمي هذا الشهر بشهر رمضان لأنه يرمض الذنوب (أي يحرقها) كما جاء في الحديث. وفي الإقبال عن كتاب الجعفريات عن الكاظم عن الصادق عن زين العابدين عن الحسين بن علي عن علي بن أبي طالب عليه السلام قال: لا تقولوا رمضان، فإنكم لا تدرون ما رمضان، فمن قاله فليتصدَّق وليصم كفارة لقوله: ولكن قولوا كما قال الله تعالى: شهر رمضان[2]. كل ذلك تنويهاً بعظمة هذا الشهر حتى سماه الله تعالى باسمه. ولكن قد ورد في بعض الأخبار لفظ رمضان مجرداً عن لفظ الشهر ولذلك حمل على الكراهة.

الصوم زكاة الأبدان ومطهرها إياها من الخبائث. فقد جاء في الحديث أن لكل شيء زكاة وزكاة الأبدان الصيام. وما أعظم الخطاب الذي خطب به رسول الله صلى الله عليه وآله الناس قبيل شهر رمضان المبارك، فإنه مستجمع لجميع الخصال التي يكون بها الإنسان إنساناً كاملاً، إنه خلاصة جميع الفضائل ودستور جامع لجميع الكمالات. فأين هذا البشر المادي المسكين من التمسك بهذه الفضائل وتتبع هذه المكرمات، ليست الوسائط المادية من النفس الإنسانية وكمالها في شيء. ولا أعلم ماذا ينتظر البشر بعد هذا الدستور الإلهي. فلا دستور بعد دستور محمد صلى الله عليه وآله وهل يجدون معشار ما في هذا الحديث النبوي من دساتير تكامل البشر في نظريات، دكارت أو اسپينوزا أو مالبرانش أو برگسون (Bergson) أو اسپنسر أو روسو.

فقد روى الصدوق في الأمالي بسنده عن الرضا عن أبيه عن آبائه عن الإمام

---

(١) الكافي: ج٤، ص٦٤، باب ما جاء في فضل الصوم، ح٨.

(٢) إقبال الأعمال في بداية فصل شهر رمضان.

علي ﷺ عن النبي ﷺ أنه خطب الناس ذات يوم فقال: «أيها الناس، إنه قد أقبل إليكم شهر الله تعالى بالبركة والرحمة والمغفرة. شهر هو عند الله أفضل الشهور وأيامه أفضل الأيام ولياليه أفضل الليالي وساعاته أفضل الساعات. وهو شهر قد دعيتم فيه إلى ضيافة الله وجُعلتم فيه من أهل كرامة الله، أنفاسكم فيه تسبيح ونومكم فيه عبادة وعملكم فيه مقبول ودعاؤكم فيه مستجاب. فاسألوا الله ربكم بنيات صادقة وقلوب طاهرة أن يوفقكم لصيامه وتلاوة كتابه، فإن الشقي من حُرم غفران الله في هذا الشهر العظيم. واذكروا بجوعكم وعطشكم فيه جوع يوم القيامة وعطشه. وتصدَّقوا على فقرائكم ومساكينكم، ووقِّروا كباركم وارحموا صغاركم وصلوا أرحامكم واحفظوا ألسنتكم وغضوا عما لا يحل النظر إليه أبصاركم وعما لا يحل إليه الاستماع أسماعكم وتحننوا على أيتام الناس يُتحنَّن على أيتامكم، وتوبوا إلى الله من ذنوبكم، وارفعوا إليه أيديكم بالدعاء في أوقات صلواتكم، فإنها أفضل الساعات، ينظر الله عزَّ وجل فيها بالرحمة إلى عباده ويجيبهم إذا ناجوه ويلبِّيهم إذا نادوه. ويستجيب لهم إذا دعوه»(١).

«أيها الناس إن أنفسكم مرهونة بأعمالكم ففكُّوها باستغفاركم، وظهوركم ثقيلة من أوزاركم، فخفِّفوا عنها بطول سجودكم، واعلموا أن الله جلَّ ذكره أقسم بعزَّته أن لا يعذِّب المصلِّين والساجدين، وأن لا يروعهم بالنار يوم يقوم الناس لرب العالمين».

«أيها الناس من فطر منكم صائماً مؤمناً في هذا الشهر كان له بذلك عند الله عتق رقبة ومغفرة لما مضى من ذنوبه، فقيل يا رسول الله وليس كلنا يقدر على ذلك. فقال ﷺ اتقوا النار ولو بشق تمرة. اتقوا النار ولو بشربة من ماء».

«أيها الناس من حسن منكم في هذا الشهر خلقه كان له جواز على الصراط يوم تزل فيه الأقدام. ومن خفَّف فيه منكم عما ملكت يمينه خفف الله عليه حسابه ومن كفَّ فيه شره كف الله غضبه عنه يوم يلقاه، ومن أكرم فيه يتيماً أكرمه الله يوم يلقاه. ومن قطع فيه رحمه قطع الله عنه رحمته يوم يلقاه. ومن تطوَّع فيه بصلاة كتب الله له براءةً من النار، ومن أدَّى فيه فرضاً كان له ثواب من أدى سبعين فريضة فيما سواه من الشهور.

---

(١) أمالي الصدوق: ص٩٣، مجلس ٢٠.

ومن أكثر فيه من الصلاة عليَّ ثقَّل الله ميزانه يوم تخف الموازين. ومن تلا فيه آية من القرآن كان له أجر من ختم القرآن في غيره من الشهور».

«أيها الناس إن أبواب الجنان في هذا الشهر مفتحة، فاسألوا الله ربكم أن لا يُغلقها عنكم، وأبواب النيران مغلقة، فاسألوا الله ربكم أن لا يفتحها عليكم، والشياطين مغلولة، فاسألوا الله ربكم أن لا يسلطها عليكم»(١).

قال أمير المؤمنين عليه السلام: فقمت وقلت يا رسول الله، ما أفضل الأعمال في هذا الشهر؟ فقال يا أبا الحسن، أفضل الأعمال في هذا الشهر، الورع عن محارم الله عزَّ وجل؛ ثم بكى. فقلت يا رسول الله، ما يبكيك؟ فقال يا علي، لما يُستحل منك في هذا الشهر. كأني بك، أنت تصلي لربك وقد انبعث أشقى الأولين والآخرين، شقيق عاقر ناقة ثمود، فيضربك ضربة على قَرنك تخضب بها لحيتك، قال أمير المؤمنين عليه السلام، فقلت: يا رسول الله وذلك في سلامة من ديني؟ فقال صلى الله عليه وآله: في سلامة من دينك ثم قال يا علي، من قتلك فقد قتلني ومَن أبغضك فقد أبغضني، لأنك مني كنفسي وطينتك من طينتي... إلى آخر الحديث(٢).

ساعات هذا الشهر المبارك

قد قال رسول الله صلى الله عليه وآله في أول خطبته المشهورة: «أيها الناس، إنه قد أقبل إليكم شهر الله تعالى بالبركة والرحمة والمغفرة». حقاً، إن هذا الشهر شهر الرحمة وشهر المغفرة. فقد جاء في الإقبال بسنده عن أبي عبدالله عليه السلام، قال: «إذا كان أول ليلة من شهر رمضان غفر الله لمن شاء من الخلق، فإذا كانت الليلة التي تليها ضاعفهم، فإذا كانت الليلة التي تليها ضاعف كلما أعتق إلى آخر ليلة في شهر رمضان يضاعف مثل ما أعتق في كل ليلة. وبسنده عن سعيد بن جبير، سألت ابن عباس: ما لمن صام شهر رمضان وعرف حقَّه؟ قال تهيأ يا ابن جبير حتى أحدثك بما لم تسمع أُذناك ولم يمر على

(١) أمالي الصدوق: ص٩٣، مجلس٢٠.
(٢) أمالي الصدوق: ص٩٣، مجلس٢٠.

قلبك. . (إلى أن قال): سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لو علمتم مالكم في شهر رمضان لزدتم لله شكراً. إذا كان أول ليلة منه غفر الله لأمتي الذنوب كلها سرها وعلانيتها. ورفع لكم الفي درجة وبنى لكم خمسين مدينة، ثم ذكر لكل يوم من أيامه فضلاً عظيماً، (إلى أن قال): فإذا تم ثلاثون يوماً كتب الله عزَّ وجلَّ لكم بكل يوم مرَّ عليكم ثواب ألف شهيد وألف صدِّيق وكتب الله عزَّ وجلَّ لكم عبادة خمسين سنة وكتب الله لكم بكل يوم صوم الفي يوم ورفع لكم بعدد ما أنبت النيل درجات وكتب الله عزَّ وجلَّ لكم براءة من النار وجوازاً على الصراط وأماناً من العذاب. وللجنة باب: يقال له الريَّان، لا يفتح إلى يوم القيامة. ثم يفتح للصائمين والصائمات من أمة محمد ﷺ. ثم ينادي رضوان خازن الجنة: يا أمة محمد، هلموا إلى الريان. فتدخل أمتي من ذلك الباب. فمن لم يغفر له في شهر رمضان ففي أي شهر يُغفر له». وفي حديث آخر: «إنَّ لله ملائكة موكَّلين بالصائمين يستغفرون لهم في كل يوم من شهر رمضان إلى آخره وينادون الصائمين كل ليلة عند إفطارهم: أبشروا عباد الله، فقد جعتم قليلاً وستشبعون كثيراً. بوركتم وبورك فيكم. حتى إذا كان آخر ليلة من شهر رمضان: ناداهم أبشروا عباد الله، فقد غفر الله لكم ذنوبكم وقبل توبتكم، فانظروا كيف تكونون فيما تستأنفون»(١).

كيف لا يكون كذلك، وإنَّ الصائم يعتزم ترك النميمة والغيبة والفحش والسباب وأكل أموال الناس بالباطل والكذب على الله ورسوله والنظر إلى ما حرَّم الله والجدل والمراء والخمر والميسر والربا وكل ما حرم الله ورسوله ﷺ. فإنه بتركه هذه الموبقات يوشك أن تحصل له طبيعة ثانية طاهرة وأن يصبح إنساناً كاملاً سوياً مقرباً إلى الله وموضعاً لرحمته وجزيل سيبه.

كم رأينا أناساً كانوا قد توغَّلوا في الشهوات والمدنسات، فتطهَّروا عنها بفضل شهر رمضان المبارك، فإنه كما قال رسول الله ﷺ في خطبته المشهورة «أيامه أفضل الأيام ولياليه أفضل الليالي وساعاته أفضل الساعات». وذلك لأنَّ الإنسان يشعر وهو صائم أنه يتقرَّب إلى ربه في كل لحظة وهو يذكر الله في كل آن، فكلما عطش أو جاع تذكر أن يطيع

---

(١) إقبال الأعمال وكتاب فضائل الأشهر الثلاثة.

الله ويمتثل أوامره بتحمُّله هذا العطش وذلك الجوع، فيتوجَّه بكلِّه إلى خالقه وتقوى هذه الرابطة بين العبد والمعبود. وإن النفس الإنسانية لتتطهَّر بدرجة قوة هذه الرابطة.

ما أحلى الصوم، فإنه ذكر عملي لله تعالى، ويلي هذا التذكر ما يقوم به الصائم من أعمال خيرية مؤكَّدة في هذا الشهر: أدعية خاصة بالنهار دعاء عند الإفطار وغسل في ليالي الإفراد وأدعية بعد الإفطار وصلوات مستحبة في كل ليلة وتلاوة القرآن وحضور مجالس الوعظ والإرشاد والقيام بصلاة الليل عند السحر ومناجاة الله تعالى في الأسحار وقراءة أدعية السحر.

حقاً، إن هذه الأعمال توصل الإنسان إلى يقين كامل وإلى اطمئنان نفسي يكون العبد فيه كأنه يرى الله تعالى ويناجيه.

ما أحلى الاستغفار والبكاء من خوف الباري عند السحر. وهو القائل: ﴿وَبِٱلۡأَسۡحَارِ هُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ ۝١٨﴾ [الذّاريَات: الآية ١٨].

أتذكر تلك الساعات الثمينة التي كنت أقضيها في حرم مولانا أمير المؤمنين علي ابن أبي طالب‌عليه السلام. فقد كنت أرى بجنبي رجالاً مؤمنين غمرهم حب إلهي، يقرؤون دعاء أبي حمزة الثمالي المروي عن زين العابدين علي بن الحسين‌عليه السلام، وهم يبكون بكاء الثكلى. تنهمل دموعهم على خدودهم خوفاً من الله تعالى وشوقاً إليه. وقد تمنعهم هذه الدموع المملوءة بفرح عظيم الاستمرار في القراءة. قد علاهم من الخشوع والخضوع والخلوّ بالله تعالى حالة لا يشعر بها إلا ذو حظ عظيم.

وها إني أذكر من هذا الدعاء بعض فقراته. ليعلم هذا الإنسان المادي إنه لم يُخلق للدنيا فحسب، وإنما خلق لحياة خالدة، لجنة ﴿عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ [آل عِمرَان: الآية ١٣٣]. فـ«الدنيا مزرعة الآخرة».

يقول زين العابدين‌عليه السلام في دعائه: «إلهي لا تؤدِّبني بعقوبتك، ولا تمكر بي في حيلتك، من أين لي الخير يا رب ولا يوجد إلا من عندك، ومن أين لي النجاة ولا تُستطاع إلا بك... (إلى أن يقول): الحمد لله الذي أناديه كلما شئت لحاجتي وأخلو به حيث شئت لسرِّي، بغير شفيع فيقضي لي حاجتي... (إلى أن يقول): معرفتي يا مولاي

دلتني عليك، وحبي لك شفيعي إليك، وإني واثق من دليلي بدلالتك، وساكن من شفيعي إلى شفاعتك، أدعوك يا سيدي بلسان قد أخرسه ذنبه، ربِّ، أناجيك بقلب قد أوبقه جُرمه. . . (إلى أن يقول): وما أنا يا رب وما خطري، هبني بفضلك وتصدَّق علي بعفوك، أي ربِّ جللني بسترك واعفُ عن توبيخي بكرم وجهك. . . (إلى أن يقول): فوعزَّتك يا سيدي، لو انتهرتني ما برحت من بابك ولا كففت عن تملقك لما انتهى إليَّ من المعرفة بجودك وكرمك. . (إلى أن يقول): سيدي لعلك عن بابك طردتني، وعن خدمتك نحيتني أو لعلك رأيتني مستخفاً بحقك فأقصيتني، أو لعلك رأيتني معرضاً عنك فقليتني، أو لعلك وجدتني في مقام الكاذبين فرفضتني، أو لعلك رأيتي غير شاكر لنعمائك فحرمتني، أو لعلَّكِ فقدتني من مجالس العلماء فخذلتني، أو لعلك رأيتني في الغافلين فمن رحمتك آيستني، أو لعلك رأيتني آلف مجالس البطَّالين فبيني وبينهم خليتني. . . (إلى أن يقول): وأعنِّي بالبكاء على نفسي، فقد أفنيت بالتسويف والآمال عُمري، وقد نزلت منزلة الآيسين من خيري، فمن يكون أسوأ حالاً مني إن أنا نقلت على مثل حالي إلى قبرٍ لم أمهده لرقدتي ولم أفرشه بالعمل الصالح لضجعتي. وما لي لا أبكي ولا أدري إلى ما يكون مصيري. وأرى نفسي تخادعني وأيامي تخاتلني وقد خفقت عند رأسي أجنحة الموت. فمالي لا أبكي. أبكي لخروج نفسي، أبكي لظلمة قبري، أبكي لضيق لحدي، أبكي لسؤال منكرٍ ونكيرٍ إياي، أبكي لخروجي من قبري عرياناً ذليلاً حاملاً ثقلي على ظهري: أنظر مرة عن يميني وأخرى عن شمالي، إذ الخلائق في شأنٍ غير شأني. . . (إلى أن يقول): إلهي، إن عفوت فمن أولى منك بالعفو، وإن عذبت فمن أعدل منك في الحكم. إرحم في هذه الدنيا غربتي، وفي اللحد وحشتي، وإذا نُشرت للحساب بين يديك ذلّ موقفي. واغفر لي ما خفي على الآدميِّين من عملي، وأدِم لي ما به سترتني. وارحمني صريعاً على الفراش تقلبني أيدي أحبَّتي وتفضَّل عليَّ ممدوداً على المغتسل يُغسلني صالح جيرتي وتحنّن علي محمولاً قد تناول الأقرباء أطراف جنازتي وُجد عليَّ منقولاً قد نزلت بك وحيداً في حفرتي، وارحم في ذلك البيت الجديد غربتي، حتى لا أستأنس بغيرك يا سيدي»[1].

---

(١) إقبال الأعمال: ص٧٤.

شهادة المثل الكامل الإمام علي عليه السلام

يفارق علي عليه السلام الدنيا الفانية في مثل هذا اليوم[١] بعد أن ألقى على الأمة الإسلامية دروساً خالدة ما بعدها دروس، دروساً فيها عز الدنيا وسعادة الآخرة، فيها راحة الفرد وراحة المجتمع، فيها طمأنينة النفس وراحة الضمير، فيها الوصول إلى الحق والزلفى إلى الله تعالى، فيها غنى الفقير وفلاح الغني، فيها العدل الاجتماعي المطلق وكل ما يؤدِّي بالفرد والمجتمع إلى ذروة الكمال.

ولكن البشر لسوء سريرته وفساد باطنه وتغلب الهوى والاطماع لم يكن جديراً ليستفيد من هذه الدروس. بل أراد البعض في كل فرصة إخماد قبسات هذا النور اللامع حتى ضرب عليه السلام بسيف ابن ملجم المرادي فجر اليوم التاسع عشر من هذا الشهر المبارك وهو في محرابه يناجي ربه.

وقد أخبر بذلك رسول الله صلى الله عليه وآله في آخر خطبته المشهورة التي خطب بها الناس قبيل شهر رمضان المبارك، يقول أمير المؤمنين عليه السلام فقمت وقلت: يا رسول الله ما أفضل الأعمال في هذا الشهر؟ فقال: يا أبا الحسن، أفضل الأعمال في هذا الشهر: الورع عن محارم الله عزَّ وجلَّ. ثم بكى فقلت: يا رسول الله، ما يبكيك؟ فقال: يا علي، أبكي لما يستحل منك في هذا الشهر، كأني بك وأنت تصلي لربِّك وقد انبعث أشقى الأولين والآخرين شقيق عاقر ناقة ثمود، فضربك ضربة على قرنك. فخضب منها لحيتك قال أمير المؤمنين عليه السلام: فقلت يا رسول الله، وذلك في سلامة من ديني؟ فقال: في سلامة من دينك. ثم قال: يا علي، من قتلك فقد قتلني، ومن أبغضك فقد أبغضني، ومن سبَّك فقد سبَّني. لأنك مني كنفسي وروحك من روحي وطينتك من طينتي...» إلى آخر الحديث[٢].

وقد روى النسائي في الخصائص بسنده عن عمار بن ياسر في حديث: قال:

---

(١) ألقيت هذه الكلمة في الـ(٢١) من شهر رمضان المبارك.

(٢) أمالي الصدوق: ص٩٣، مجلس ٢٠.

كنت أنا وعلي بن أبي طالب رفيقين في غزوة العشيرة، إلى أن قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: ألا أحدثكما بأشقى الناس، رجلين، قلنا: بلى يا رسول الله، قال: أحيمر ثمود الذي عقر الناقة، والذي يضربك على هذه، ـ ووضع يده على قرنه ـ حتى يُبل منها هذه وأخذ بلحيته[1].

وقد قدِم على علي وفد من أهل البصرة، فيهم رجل من الخوارج. يقال له: الجعد بن نعجة، فقال اتّقِ الله يا علي، فإنك ميت. فقال علي: «ولكني مقتول بضربة على هذا تخضب هذه ـ وأشار إلى رأسه ولحيته بيده ـ قضاء مقضي وعهد معهود وقد خاب من افترى». ثم عاب علياً في لباسه. فقال: «لو لبست لباساً خيراً من هذا»؟ فقال: «إن لباسي هذا أبعد لي من الكبر وأجدر أن يقتدي بي المسلمون»[2].

وكان الإمام علي عليه السلام في الشهر الذي استشهد فيه يفطر ليلة عند الحسن عليه السلام وليلة عند الحسين عليه السلام وليلة عند ابن جعفر، لا يزيد على ثلاث لقم ويقول: «أحبُ أن يأتيني أمر الله وأنا خميص»[3]. كيف لا يكون كذلك وهو القائل: «هيهات هيهات أن يغلبني هواي ويقودني جشعي إلى تخيّر الأطعمة، ولعل بالحجاز أو اليمامة من لا طمع له بالقرص ولا عهد له بالشبع، أأقنع من نفسي بأن يقال أمير المؤمنين ولا أشاركهم في مكاره الدهر وجشوبة العيش؟. وأيم الله يميناً، استثنى فيها بمشيئة الله لأروضنَّ نفسي رياضة تهش معها إلى القرص مطعوماً، وتقنع بالملح مأدوماً»[4].

نعم إنه صلوات الله عليه كان أزهد الناس، لم يشبع من طعام قط، وكان يلبس الخشن ويأكل جريش الشعير. فإذا ائتدم فبالملح، فإن ترقى فبنبات الأرض.

روى عن سويد بن غفلة: قال: دخلت على علي عليه السلام، فوجدته جالساً وبين يديه إناء فيه لبن، أجد ريح حموضته وفي يده رغيف، أرى قشار الشعير في وجهه وهو يكسره بيده ويطرحه فيه. فقال: «ادنُ فأصب من طعامنا». فقلت: إني صائم. فقال عليه السلام: «سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: من منعه الصيام من طعام يشتهيه، كان حقاً

---

(١) بحار الأنوار: ج٣٢، ص٣١٢، باب ٧.
(٢) بحار الأنوار: ج٣٣، ص٣٨٢، باب ٢٣.
(٣) بحار الأنوار: ج٤١، ص٣٠٠، باب ١١٤.
(٤) مستدرك الوسائل: ج١٦، ص٣٠١، باب ٧٢.

على الله تعالى أن يطعمه من طعام الجنة ويسقيه من شرابها». قال: فقلت لفضة ـ وهي تقرب منه قائمة ـ ويحكِ يافضة، ألا تتَّقين الله في هذا الشيخ، ألا تنخلين هذا الطعام من النخالة التي فيه؟ قالت: تقدّم إلينا أن لا ننخل له طعاماً(١).

وكان عليه السلام يجعل جريش الشعير في وعاءٍ ويختم عليه. فقيل له في ذلك. فقال عليه السلام: «أخاف هذين الولدين أن يجعلا فيه شيئاً من زيت أو سمن»(٢).

وإن علياً عليه السلام قد سهر تلك الليلة التي ضُرب فيها وأكثر الخروج والنظر إلى السماء، وهو يقول: والله، ما كَذبت ولا كُذبت. وإنها الليلة التي وعِدت فيها، ثم يعاود مضجعه. فلما طلع الفجر، شد إزاره وخرج وهو يقول:

أشدد حيازيمك للموت ... فإن الموت لاقيكا
ولا تجزع من الموت ... إذا حلّ بواديكا(٣)

ذلك لأنَّ أولياء الله مع علمهم بما سيكون لا يعلمون إلا حسب الأمور العادية. ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾ [الأنفال: الآية ٤٢].

يخرج الإمام علي عليه السلام، فجر اليوم التاسع عشر من هذا الشهر المبارك إلى المسجد لصلاة الفجر وينادي الصلاة الصلاة، فيضربه ابن ملجم على رأسه وهو ساجد فلما أحسَّ عليه السلام بالضربة، لم يتأوَّه وصبر واحتسب ووقع على وجهه، قائلاً: «بسم الله وبالله وعلى ملة رسول الله. هذا ما وعد الله ورسوله وصدق الله ورسوله، ثم صاح وقال: قتلني ابن ملجم، قتلني اللعين ابن اليهودية، فزت ورب الكعبة»(٤).

وإنما قال: فزت ورب الكعبة، لأنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله قد أخبره: أنه سيضرب هذه الضربة وهو في سلامة من دينه، فكانت هذه الضربة علامة ختام أعماله الجبارة في سلامة من دينه صلوات الله عليه، وهذا درس عملي للناس أجمعين في أن يبذلوا أقصى جهودهم لتنتهي أعمالهم مع حسن العاقبة وفي سلامة من دينهم. فقد يزعم الإنسان أنه

---

(١)،(٢) إرشاد القلوب: ص٢١٥.
(٤) مناقب آل أبي طالب: ج٣، ص٣١٢.
(٣) بحار الأنوار: ج٤٢، ص٢٤٠، باب ١٢٧.

صالح فتنتهي أعماله مع سوء العاقبة، وقد يتهم نفسه أنه غير صالح، فتنتهي أعماله مع حسن العاقبة، ونستعيذ بالله من الاغترار بأعمالنا والركون إليها ونرجو منه التوفيق وحسن العاقبة.

نعم إن هذا الإنسان يقول حين يرى ما يرى من آثار الموت وهول المطلع وعذاب البرزخ والحساب الدقيق والعقاب الشديد: ﴿رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّيٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾ [المؤمنون: الآيتان ٩٩/ ١٠٠]. ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّا كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿١٦٧﴾﴾ [البقرة: الآيتان ١٦٦/ ١٦٧]. وفي مكان آخر: ﴿وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٩٩﴾ فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٢﴾﴾ [الشعراء: الآيات ٩٩/ ١٠٢]. وفي مكان آخر: ﴿وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِي لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٩﴾﴾ [الزمر: الآيات ٥٥/ ٥٩] وفي مكان آخر: ﴿وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ﴾ [الشورى: الآية ٤٤].

وروى الشيخ أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسي في أماليه بسنده إلى الأصبغ بن نباتة، قال: لما ضرب ابن ملجم أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام. غدونا عليه نفرٌ من أصحابنا: أنا والحارث وسويد بن غفلة وجماعة معنا، فقعدنا على الباب، فسمعنا البكاء من الدار. فبكينا. فخرج إلينا الحسن بن علي عليهما السلام، فقال: يقول لكم أمير المؤمنين عليه السلام انصرفوا إلى منازلكم. فانصرف القوم غيري واشتدَّ البكاء في منزله، فبكيت. فخرج الحسن. فقال: ألم أقل لكم انصرفوا؟ فقلت: لا والله، يابن رسول الله، ما تتابعني نفسي ولا تحملني رجلاي أن أنصرف حتى أرى أمير المؤمنين وبكيت. فدخل الدار ولم يلبث أن خرج. فقال لي: أدخل. فدخلت على أمير المؤمنين عليه السلام.

فإذا هو مستند، معصوب الرأس بعمامة صفراء قد نزف دمه واصفرَّ وجهه. فما أدري وجهه أشد صفرةً أم العمامة، فأكببت عليه، فقبلته وبكيت. فقال لي: «لا تبك يا أصبغ، فإنها، والله، الجنة». فقلت له: جعلت فداك. إني أعلم والله أنك تصير إلى الجنة، وإنما أبكي لفقداني إياك، يا أمير المؤمنين.

نعم، يقول عليﷺ لأم كلثوم وهي تبكي، «أسكتي، فلو ترين ما أرى لما بكيت، هذه الملائكة وفود والنبيون، وهذا محمدﷺ يقول: يا علي، أبشر، فما تصير إليه خير مما أنت فيه».

ثم إنه صلوات الله عليه يوصي لابن ملجم، فيقول: «أبصروا ضاربي أطعموه من طعامي، واسقوه من شرابي، النفس بالنفس، إن هلكت، فاقتلوه كما قتلني. وإن بقيت رأيت فيه رأيي».

ثم تزايد ولوج السم في جسده الشريف حتى احمرت قدماه وامتنع عن الأكل والشرب وشفتاه تختلجان بذكر الله وجبينه يرشح عرقاً وهو يمسحه فقال له ابن الحنفية: أراك تمسح جبينك؟ فقال: «يا بني» إني سمعت رسول اللهﷺ يقول: «إن المؤمن إذا نزل به الموت عرق جبينه وسكن أنينه». ثم نادى أولاده كلهم بأسمائهم صغيراً وكبيراً وجعل يودعهم ويقول: «الله خليفتي عليكم، أستودعكم الله»(١).

وهكذا يفارق الدنيا هذا الإمام العظيم الذي لن يأتي الدهر بمثله أبداً، وهكذا تنتهي حياته الشريفة التي ملؤها الفضائل والمكرّمات والكرامات والمعجزات والبطولات والبلاغة والزهد والورع والتقوى إلى حد بعيد لن يصل إليها البشر العادي.

إن أكرمكم عند الله أتقاكم

إن الله تبارك وتعالى وهو الكامل على الإطلاق لا يريد بالناس بل بما خلق إلا الكمال. ذلك لأنَّ الكامل لا يترشَّح منه إلا الكمال. ألا نرى ما أودع الله تعالى من

---

(١) أمالي الطوسي: ص١٢٣، مجلس ٥، ح١٩١.

سنن الكمال في الجماد والنبات والحشرات والهوام والحيوان في تشكيلاتها الداخلية وفي وسائل الدفاع لتحقيق وسائل العيش والحياة.

فهذه المعادلات الفيزيائية والخواص الكيميائية ودساتير الفلك والميكانيك السماوي والأرضي وما أودع الله من خواص وقابليات ومعادلات ودساتير في الذرَّة: كلها تشير إلى الكمال الذي أودعه الله هذا الكون الرحيب، وكذلك ارتباط بعضها ببعض، وذلك بقوله تعالى: ﴿مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۝٣ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ۝٤﴾ [المُلك: الآيتان ٣/ ٤].

فجميع العوالم من مادية ونباتية وحيوانية تنادي بهذا الكمال الذي أودعه الله فيها. فكيف يسوغ للإنسان وهو، على ما يزعم أشرف المخلوقات، أن يستثنى من ذلك، وأن يخالف سنة الله تعالى في مخلوقاته، أن يفجر ويفسق، أن يبطش ويزني، أن يرابي ويغتاب، أن يقطع الرحم ويأكل الحرام، أن ينكر نعم الله تعالى عليه وهي التي لا تعدّ ولا تحصى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: الآية ٣٤] . . فلا يصلي لإداء واجب الشكر، ولا يصوم كذلك، ولا يزكّي ولا يخمس ولا يأمر بالمعروف ولا ينهى عن المنكر، فيرجع إلى جاهلية جهلاء، يعيش كالبهائم والأنعام بل أضل سبيلاً، فيكون راجعاً أو (رجعياً) نحو البهيمية والجاهلية بكل ما في الرجعية من معنى صحيح. وهذا ما يتنافى وسنة الكمال الإلٓهية التي نشاهد مظاهرها وآثارها في العالم أجمع.

إذن، يحكم العقل الفطري الذي لم يلوث بفسق وفجور ورقص وخمور، أن المقياس الذي يجب أن يفاضل به بين إنسان وإنسان، إنما هو الشيء الذي يؤدي إلى كماله وإلى تحقيق سنة الله في الأرض، ألا وهي التقوى. ذلك لأن التقوى هي تلك الحالة التي بها تزكو النفس من أدرانها وأوساخها، فتسير بدرجة تطهُّرها نحو الكمال المنشود. لذلك سنّ الله تعالى قانوناً للمفاضلة وجعل التقوى الأساس الذي تُبتنى عليه المفاضلة بين خلقه، ولم يقل: إنَّ أكرمكم عند الله أعلمكم أو أثراكم أو أكثركم جسامة أو أعلاكم نفوذاً أو أحسنكم وجهاً. ذلك لأنَّ من العلماء الماديِّين من هم في الدرجات

الواطئة من التكامل النفسي، كما نرى ذلك في الغرب. وأن من الفلاسفة والرياضيِّين والكيماويِّين والاجتماعيِّين من هم ملاحدة وفي الدرجة السفلى من المراتب الأخلاقية. ومنهم إباحيُّون يستسيغون كل محرم ولا يتناهون عن منكر فعلوه، مدلهمة نفوسهم، مظلمة أرواحهم، متحجِّرة قلوبهم. سلبوا العاطفة وعدموا الفضيلة. فليس هؤلاء الذين خالفوا التقوى بقادة، بل هم في الدرك الأسفل من مراتب التسافل. ولذلك كله لم يختر الله تعالى أنبياءه وأوصياء أنبيائه إلا من عباده الذين اتخذوا التقوى شعاراً والفضيلة دثاراً. وإنَّ أعلاهم شأناً في مراتب التقوى إنما هو خاتم الرسل نبيِّنا محمدﷺ. إذ يقول فيه ربنا تبارك وتعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾﴾ [القَلَم: الآية ٤].

ثم إن الله تبارك وتعالى يصف أهل التقوى بقوله: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾ وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الذّاريات: الآيات ١٥/٢١].

فعرَّف الله تعالى: التقوى: أنها ملازمة ذكر الله تعالى ليلاً ونهاراً ومراقبة هذه النفس الأمَّارة بالسوء وإطعام الفقراء والمساكين.

وكان رسول اللهﷺ والأئمة من بعده سلام الله عليهم أجمعين ملازمين العبادة والإيثار والخشوع والخضوع والقيام بحوائج الناس(١) ملازمة لا يضاهيهم فيها أحد، ممحّضين في عبادته تعالى بجميع ما في العبادة من معنى سامٍ رفيع. فهم حقاً قادة البشر أجمع. إذ هم بكمالهم النفسي يوجِّهون النفوس البشريَّة نحو الكمال المنشود. ومن سواهم لا يقوى على ذلك، لأنَّ فاقد الشيء لا يعطيه.

لنستمع إلى كلام الإمام عليعليه السلام في هذا المقام:

«اعلموا عباد الله، أن التقوى دار حصن عزيز، والفجور دار حصن ذليل، لا يمنع

---

(١) قال الإمام الكاظمعليه السلام: «إنَّ لله عرشاً لا يسكن تحت ظله إلا من أسدى لأخيه معروفاً، أو نفس عنه كربة، أو قضى له حاجة، أو أدخل إلى قلبه سروراً» وقال الإمام زين العابدينعليه السلام: «من قضى لأخيه حاجة فبحاجة الله بدأ» [مستدرك الوسائل: ج١٣، ص١٣٢، باب ٣٩].

أهله ولا يحرز من لجأ إليه. ألا وبالتقوى تقطع حمة[١] الخطايا وباليقين تدرك الغاية القصوى.

«عباد الله، الله الله في أعز الأنفس عليكم، وأحبها إليكم» إلى أن يقول:

«عباد الله، إنه ليس لما وعد الله من الخير مترك، ولا فيما نهى عنه من الشر من مرغب. عباد الله، احذروا يوماً تفحص فيه الأعمال ويكثر فيه الزلزال وتشيب فيه الأطفال»[٢].

انظروا كيف يؤدب الإمام محمد الباقر عليه السلام شيعته ويأمرهم بالتقوى ويحذّرهم مخالفة أمر الله تعالى.

فقد جاء في أصول الكافي عن جابر بن يزيد الجعفي عن الباقر عليه السلام أنه قال:

«يا جابر، أيكتفي من ينتحل التشيع أن يقول بمحبتنا أهل البيت. فوالله ما شيعتنا إلا من اتقى الله وأطاعه، وما كانوا يعرفون، يا جابر، إلا بالتواضع والتخشع والأمانة والإنابة وكثرة ذكر الله والصوم والصلاة والبر بالوالدين والتعاهد للجيران من الفقراء وأهل المسكنة والغارمين[٣] وصدق الحديث وتلاوة القرآن وكف الألسن عن الناس إلا من خير وكانوا أمناء عشائرهم في الأشياء».

فقال جابر: قلت: يا ابن رسول الله، ما نعرف اليوم أحداً بهذه الأوصاف.

فقال عليه السلام: «يا جابر، لا تذهبن بك المذاهب»: حسب الرجل أن يقول: «أحب علياً وأتولاّه. فوالله، لو قال أني أحب رسول الله صلى الله عليه وآله، فرسول الله خير من علي صلى الله عليهما وآلهما ولا يتبع سيرته ولا يعمل بسنَّته ما نفعه حبه شيئاً. ليس بين الله وبين أحد قرابة إلا بالتقوى!»[٤].

---

(١) الحمة، بضم ففتح: في الأصل: إبرة الزنبور والعقرب ونحوها تلسع بها والمراد هنا: سطوة الخطايا على النفس.

(٢) نهج البلاغة: ص٢٢١، خ١٥٧.

(٣) الغارمين: أهل الدين: المدينون.

(٤) لم نجده في الكافي ولكنه في وسائل الشيعة: ج١٥، ص٢٣٤، باب ١٨.

هذا دستور الكمال الإنساني، دستور ما بعده دستور. دستور لا يقوى على عرضه من تربى في أحضان المادية الهوجاء، دستور يتحقَّق بتطبيقه ما يريده الله لمخلوقاته في أرضه من كمال. دستور يتجلَّى في تطبيقه كمال لهذا الإنسان يضاهي ما أشاهد من كمال في بطن الذرَّة وفي السماوات العلى، في المجرَّات والسُّدم وفي مسافات تبعد عنا آلاف الملايين من السنين الضوئية، في مسافات شاسعة جداً محيرة للألباب.

حاش لله، أن يخلق كل ما خلق في غاية الكمال ويدع الإنسان ليفسد في الأرض ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٠٥] فلابد لهذا الإنسان من كمال على لسان أنبيائه وأوصياء أنبيائه ﷺ: كمال نفسي ليس من المادة في شيء، كمال تتجلى فيه راحة الضمير ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرّعد: الآية ٢٨] وارتياح نفسي إلى أبعد الحدود، وتقرب إلى الحق المتعال، ومراقبة لأعمال النفس مراقبة شديدة. فيكون هذا التكامل مصداق قول الإمام علي عليه أفضل الصلاة والسلام:

«فمن علامة أحدهم: أنك ترى له قوة في دين، وجزماً في لين، وإيماناً في يقين. وحرصاً في علم، وعلماً في حلم، وقصداً في غنى[١]، وخشوعاً في عبادة، وتجملا في فاقة[٢] وصبراً في شدة، وطلباً في حلال، ونشاطاً في هدى، وتحرُّجاً عن طمع[٣]. يعمل الأعمال الصالحة وهو على وجل، يمسي وهمه الشكر، ويصبح وهمه الذكر. يبيت حذراً، ويصبح فرحاً. حذراً لما حذر من الغفلة، وفرحاً بما أصاب من الفضل والرحمة، إن استصعبت عليه نفسه فيما تكره، لم يُعطها سؤلها فيما تحب». . (إلى أن يقول. .): «يمزج الحلم بالعلم، والقول بالعمل. تراه قريباً أمله، قليلاً زَلَلُه، خاشعاً قلبه، قانعة نفسه، منزوراً أكله، سهلاً أمره، حريزاً دينه، ميتة شهوته، مكظوماً غيظه. الخير منه مأمول، والشر منه مأمون». . (إلى أن يقول): «يعفو عمن ظلمه، ويعطي من حرمه، ويصل من قطعه. بعيداً فحشه، ليناً قوله، غائباً منكره، حاضراً معروفه، مقبلاً

---

(١) قصداً أي: اقتصاداً.

(٢) التجمل: التظاهر باليسر عند الفاقة: أي الفقر.

(٣) أي تباعداً عن طمع.

خيره، مدبراً شره. في الزلازل وقور، وفي المكاره صبور، وفي الرخاء شكور». (إلى أن يقول): «نفسه منه في عناء، والناس منه في راحة. أتعب نفسه لآخرته، وأراح الناس من نفسه».

أنظروا إلى ما يقوله الإمام علي عليه السلام عن صفات المؤمن الحقيقية، ذلك الذي يجمع بين الجهاد والدعوة إلى الإسلام وبين العباد والخضوع لله المتعال.

إنه عليه السلام يقول[1]:

«أين القوم الذين دعوا إلى الإسلام فقبلوه، وقرأوا القرآن فأحكموه، وهيجوا للقتال فولهوا وله اللقاح[2] إلى أولادها وسلبوا السيوف أغمادها، وأخذوا بأطراف الأرض زحفاً زحفاً وصفاً صفاً. بعض هلك وبعض نجا. لا يبشرون بالأحياء[3] ولا يعزون بالموتى، مره[4] العيون من البكاء خمص البطون من الصيام[5]، ذبل الشفاه من الدعاء[6]، صفر الألوان من السهر، على وجوههم غبرة الخاشعين. أولئك إخواني الذاهبون، فحقَّ لنا أن نظمأ إليهم، ونعض الأيدي على فراقهم».

فهؤلاء الذين وصفهم علي عليه السلام، قد جسموا التقوى خير تجسيم وهم الكرماء على الله وهم أتقى الناس ومصداق هذه الآية المباركة: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحُجرَات: الآية ١٣].

فطوبى لمن طبق هذه الدساتير التي تتلألأ نوراً وبهاءاً، كي يتلألأ نوراً وكمالاً. وطوبى لمن فكَّر في عقباه كما يفكر لدنياه ولم يكن من الغافلين. فقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «حفت الجنة بالمكاره، وحفت النار بالشهوات».

---

(١) من نهج البلاغة. الجزء الأول، ص: ٢٣٤.

(٢) اللقاح: جمع لقوح، وهي الناقة. و«ولهها إلى أولادها» فزعها إليها إذا فارقتها.

(٣) إذا قيل لهم: نجا فلان فبقى حياً لا يفرحون. لأن أفضل الحياة عندهم الموت في سبيل الحق. ولا يحزنون إذا قيل لهم: مات فلان، فإن الموت عندهم حياة السعادة الأبدية.

(٤) مره ـ ضم فسكون ـ جمع أمره، من «مرهت عينه» إذا فسدت، أو ابيضت حماليقها.

(٥) خمص البطون: ضوامرها.

(٦) ذبلت شفته: جفت ويبست لذهاب الريق.

«طوبى لنفس أدت إلى ربها فرضها[١] وعركت بجنبها بؤسها[٢] وهجرت في الليل غمضها، حتى إذا غلب الكرى[٣] عليها افترشت أرضها وتوسَّدت كفها، في معشر أسهر عيونهم خوف معادهم، وتجافت عن مضاجعهم جنوبهم، وهمهمت بذكر ربهم شفاههم وتقشعت بطول استغفارهم ذنوبهم ﴿أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ [المجَادلة: الآية ٢٢]».

وأختم هذا الجزء بآية هي: دستور الكمال الإنساني وغاية وجوده في هذا الكون: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ١٠٢﴾ [آل عِمـرَان: الآية ١٠٢].

انتهى الجزء الرابع من هذا الكتاب، والحمد لله، ويليه الجزء: الخامس، إن شاء الله تعالى...

---

(١) من كلام لعلي أمير المؤمنين عليه أفضل الصلاة والسلام.

(٢) عركه بالجنب: أي صبر عليه كأنه شوك فيسحقه بجنبه.

(٣) الكرى: النوم.

التكامل في الإسلام

بقلم

أحمد أمين

خرج مصادره وصححه

علاء الدين الأعلمي

الجزء الخامس

بسم الله الرحمن الرحيم

من كلام لعلي أمير المؤمنين عليه السلام يصف فيه المتقين والكمال الإنساني:

«فالمتقون فيها هم أهل الفضائل، منطقهم الصواب وملبَسهم الاقتصاد ومشيهم التواضع، غضُّوا أبصارهم عما حرَّم الله عليهم، ووقفوا أسماعهم على العلم النافع لهم، نزِّلت أنفسهم منهم في البلاء كالتي نزلت في الرخاء. ولولا الأجل الذي كتب عليهم لم تستقر أرواحهم في أجسادهم طرفة عين شوقاً إلى الثواب، وخوفاً من العقاب؛ عظم الخالق في أنفسهم، فصغر ما دونه في أعينهم، فهم والجنة كمن قد رآها، فهم فيها منعَّمون، وهم والنار كمن قد رآها، فهم فيها معذَّبون؛ قلوبهم محزونة، وشرورهم مأمونة، وأجسادهم نحيفة وحاجاتهم خفيفة، وأنفسهم عفيفة، صبروا أياماً قليلة، أعقبتهم راحة طويلة؛ تجارة مُربحة يسَّرها لهم ربهم، أرادتهم الدنيا فلم يريدوها، وأسرتهم ففدوا أنفسهم منها. أما الليل فصافُّون أقدامهم، تالين لأجزاء القرآن، يرتلونه ترتيلا (إلى أن يقول): وأما النهار فحلماء علماء، أبرار أتقياء، قد براهم الخوف بري القِداح، (إلى أن يقول): فمن علامة أحدهم: أنك تر له قوة في دين وحزماً في لين، وإيماناً في يقين وحرصاً في علم وعلماً في حلم وقصداً في غنى، وخشوعاً في عبادة، وتجمُّلا في فاقة وصبراً في شدة وطلباً في حلال ونشاطاً في هد وتحرجاً عن طمع؛ يعمل الأعمال الصالحة وهو على وجل. يُمسي وهمه الشكر ويُصبح وهمه الذكر. (إلى أن يقول): تراه قريباً أمله، قليلاً زلله، خاشعاً قلبه، قانعة نفسه، منزوراً أكله، سهلاً أمره حريزاً دينه، ميتة شهوته، مكظوماً غيظه. الخير منه مأمول والشر منه مأمون»[1].

---

(١) نهج البلاغة: ص٣٠٣، خ١٩٣.

من حقائق القرآن

﴿والشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ العَزِيزِ العَلِيمِ﴾

في القرآن الكريم سبعمائة وخمسون آية كونية، تدل على عصارة ما توصل إليه العلم الحديث وما سيصل إليه في المستقبل. فقد قال ابن عباس ﷺ: «إن في القرآن معانٍ سيكشفها الزمن». ومن جملة تلك الآيات الباهرات، الآية الثامنة والثلاثون من سورة يس: ﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَاۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ [يس: الآية ٣٨].

فقد اختلف العلماء قبل ميلاد المسيح ﷺ بقرون، إلى قبل حوالي خمسين عاماً، في أن: هل للشمس حركة أم لا؟

فقد ذهب العلماء في اليونان قبل الميلاد إلى أن الأرض مركز العالم، وبما أن أكمل الأشكال حسب زعمهم هو الكرة، إذن يجب أن يكون شكل الأرض كروياً، وأن الشمس تدور حول الأرض على شكل دائرة، ذلك لأن الدائرة في نظرهم أكمل الأشكال الهندسية.

لم يكن العلم قبل الميلاد وبعده إلى القرون الوسطى مستنداً على التجربة والاستقراء والاستنتاج، وإنما حجتهم فيما يدعون: نظرية الكمال، دون تحقيق تجريبي، مستندين في ذلك إلى قول العالم الكبير عندهم، أي كانت حجتهم قول عالمهم المسمى بـ (ماجستير)، حين أن علياً ﷺ كان يقول: «في التجارب علم مستأنف»[1].

بقيت هذه النظرية اليونانية بالنسبة إلى حركة الشمس والأرض حاكمة عدة قرون،

---

(١) روضة الكافي: ص٢٢.

حتى جاء دور التجربة والمشاهدة، أي دور (بيكن: Bacon) المكتشف للطريقة التجريبية، كما يزعم الغربيون. فاكتشف (غاليليو) أو گاليلة) التلسكوب. وقال عند ذلك، مستنداً إلى التجربة والعلوم الرياضية حول الشمس على شكل اهليليجي، أي على شكل القطع الناقص، الذي معادلته كما جاء في الهندسة التحليلية:

$$\frac{س^2}{ب^2} + \frac{ص^2}{حـ^2} = ١$$

ب = نصف القطر الكبير.

حـ = نصف القطر الصغير.

ومعنى ذلك: أن الله تعالى قد حرَّك الكواكب حسب قربها من الشمس: عطارد، الزهرة، الأرض، المريخ، المشتري، زحل، أورانوس، نبتون، بلوتو، حول الشمس على شكل اهليليجي.

والجدول الآتي يبيِّن بعد كل من الكواكب عن الشمس:

البعد	عطارد	الزهرة	الأرض	المريخ	المشتري	زحل	أورانوس	نبتون	بلوتو
بملايين الأميال عن الشمس	٣٦	٦٧	٩٢	١٤٢	٤٨٣	٨٨٦	١٧٨٣	٢٧٩٤	٣٦٧٠

ومعلوم أن رسم الشكل الأهليليجي من الصعوبة بمكان، ولا يقوى على رسمه إلا من درس المخروطات.

وكان القرآن ينادي، قبل اكتشاف الطريقة التجريبية في أوروبا بقرون، باستعمال السمع والبصر والعقل، وذلك بقوله: ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسرَاء: الآية ٣٦] (١).

وأن علياً عليه السلام قد حل مسائل جمة، مستنداً إلى الطريقة التجريبية: قانون

(١) يراد بالفواد هاهنا: العقل. والله العالم.

أرخميدس، قانون الطوفان. . .

إن ما اكتشفه (كوبرنيك) و (كيلر) في القرن السابع عشر من ثبوت الشمس في محلها، كان يخالف ما جاء في القرآن الكريم من أن للشمس حركة خاصة بها . حتى إذا تقدمت العلوم الرياضية العالية، بما فيها المكانيك الرياضي، واخترعت مراقب كبيرة جداً، علم قبل حوالي ٥٠ عاماً، أن الشمس مع كواكبها تسير في الفضاء على شكل لولبي أو حلزوني، متجهة نحو نجمة تسمى بالنسر الواقع، بسرعة قدرها في الساعة حوالي (٧٠) ألف كيلو متراً. وقد ثبت علمياً قول الله تعالى قبل أربعة عشر قرناً، حين يقول: ﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَاۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ [يس: الآية ٣٨] .

الأمطار في القرآن

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى(١) سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ(٢) يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ(٣) فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُۖ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ﴾ [النُّور: الآية ٤٣] .

إن قوله تعالى: ﴿يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ﴾ أي أن الله تعالى يؤلف بين السحاب. وهو يدل بوضوح على الحقيقة الكهربائية التي تقوم عليها الظواهر الجوية، فإن التأليف بين السحاب ما هو إلا إشارة واضحة للتقريب بين السحاب المختلف الكهربائية، حتى تتجاذب وتتعبأ في الجو حسبما يريده الله، فيتكون بأمره تعالى من بين السحاب برق أو صواعق ومطر وبَرَد.

وإن عملية الركام أو التكثّف تأتي بعد عملية التأليف. ويؤيد ذلك قوله تعالى:
﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ﴿٢٢﴾﴾ [الحِجر: الآية ٢٢] .

---

(١) يزجي: يسوق السحاب أو البخار.

(٢) الودق: المطر.

(٣) البرد: قد تنخفض درجة حرارة الجو الأعلى تحت الصفر، وتحمل إليه قطرات المطر بطريقة ما، فتنزل على الأرض متجمدة، ويسمى برداً.

إن هذه الآية تعلمنا أن للرياح اللواقح أثراً فعالاً في نزول الماء من السماء وإسقائه الناس. فهذه الآية لا تريد أن تشير إلى أن الرياح لواقح للزرع، بل تقول أن الرياح تلعب دوراً خطيراً في الاتحاد بين كهربائية وكهربائية في سحابتين مختلفتين. أي أن الرياح تعمل في الجمع بين الكهربائية الموجبة والكهربائية السالبة، فتقع الملاقحة بين سحابتين.

فهذه الآية معجزة خالدة، لأنها تخبر قبل أربعة عشر قرناً تقريباً عن شيء هو عصارة العلم الحديث. وهذا دليل واضح على التطابق التام بين العلم الحقيقي والدين في الإسلام، وبرهان قطعي على تأخر العلوم عن الحقائق القرآنية.

وأما تنزيل جبال من السماء فيها من برد، فمنها الثلوج التي نشاهدها في شمال (النروج) في المنطقة المتجمدة الشمالية. تتحرك هذه الجبال الثلجية أو الثلاجات (Iceberg) مع التيار (كولف استريم) في المحيط الأطلانتيكي متجهة نحو خليج (المكسيك) بين أميركا الشمالية والجنوبية، فتلطف الجو هناك ببرودتها.

* * *

وقد تحقق قوله تعالى: ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصۡرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُۖ﴾ [النُّور: الآية ٤٣]. وذلك عندما تحركت سفينة كبيرة جداً، صنعتها أمريكا قبل حوالي أربعين عاماً، فيها مكائن عدة وساحات للألعاب، متجهة نحو لندن.

ففي حوار جرى بين القائد الأعلى للسفينة ومعاونه، قال المعاون مخاطباً القائد «إنا سنصل إلى لندن بعد عشرين يوماً إن شاء الله». فامتعض القائد، وقال لمعاونه: «أوَ تقول إن شاء الله، مع ما ترى ما لهذه السفينة من مكائن متعددة وقوة فائقة. إنا سنصل إلى لندن بعد عشرين يوماً حتماً ودون ريب».

حتى إذا تحركت السفينة وصارت في وسط المحيط الأطلانتيكي، وإذا بسفينة أخرى تخابر هذه السفينة الكبيرة قائلة: «إن أمامكم ثلاجة كبيرة، اجتنبوها، فإنها إن اصطدمت بسفينتكم، فستحطمها تحطيماً».

فصار القائد الأعلى يسير بالسفينة يمنة ويسرة، فلم تفد محاولاته، حتى اصطدمت الثلاجة بالسفينة فحطمتها تحطيماً. وقد تحقق قوله تعالى: ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ

بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ وهي السفينة الثانية الكبيرة، ﴿وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ﴾ [النُّور: الآية ٤٣] وهي السفينة الأولى.

وقد أمرنا الله تعالى أن نعلق الأمور إلى مشيئته ورحمته، وأن نقول كلما اعتزمنا أمراً: ﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [البَقَرَة: الآية ٧٠]. وذلك بقوله جلَّ من قائل: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴿٢٤﴾﴾ [الكهف: الآيتان ٢٣/ ٢٤].

على أن الله جلَّ جلاله لا يريد بذكر هذه الآية وغيرها من الآيات الكونية تعليم الناس العلوم الكونية، لأن كلمات الله تعالى وما أودع في المادة والأجسام من خواص وقوانين رياضية تكاد لا تتناهى، وهو القائل: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ﴾ [لقمَان: الآية ٢٧] ولكن الله تعالى يريد أن يُري عباده جليل قدرته وعظيم صنعته، إتماماً للحجة. وهو القائل: ﴿قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ [الأنعَام: الآية ١٤٨]. وفي آية أخرى: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ﴾ [الأنعَام: الآية ١٤٩]. وهو القائل أيضاً: ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ﴾ [الأنفَال: الآية ٤٢].

﴿وكل شيء عنده بمقدار * عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال﴾

إن ما نشاهد في علم الكيمياء، من شتى المعادلات وأنواع التفاعلات، تحت مقادير معينة وشروط محددة، وما نرى من ضروب الدساتير في الفيزياء والفلك والمكانيك السماوي والأرضي، خير دليل على أن العدد (أو المقدار) يحكم العالم عن تدبُّر وحكمة فائقة، وتحت قوانين ثابتة، لذلك: كان يقول فيثاغورث، قبل الميلاد بقرون: «العدد يحكم العالم». وكان يقول (لورد كلوين) الفيزيائي المعروف، قبل أقل من قرن: «كل حادثة فيزيائية لا يمكن التعبير عنها بدستور أو معادلة رياضية، ليست بحادثة معروفة، مفهومة».

وأبرز مثال لمفهوم الآية المتقدمة: إن جعل الله تعالى الكثافة العظيمة للماء في الدرجة الرابعة من الحرارة المئوية، رأفةً بالحيوانات البحرية، لتبقى حية. من المعلوم أن الأجسام تتمدد بالحرارة وتتقلص بالبرودة، أي عند تقليل درجة الحرارة، إلا الماء، ففي الدرجة الرابعة من الحرارة المئوية يكتسب الماء الكثافة العظمى. فإذا قللنا درجة الحرارة عن (٤ °م) تقل كثافة الماء ويزداد حجمه، فيكون ١ سم^3 (سانتيمتر مكعب) من الماء في درجة الصفر المئوي أقل وزناً عن ١ سم^3 (سانتيمتر مكعب) من الماء في ٣ °م، أي في الدرجة الثالثة من الحرارة المئوية، بخلاف بقية الأجسام. لذلك، يكون الجليد أخف من الماء، مع اتحاد الحجم، فيطفو على سطح الماء.

وقد وجد أن حجم الغرام الواحد من الجمد أو الجليد في درجة الصفر المئوي = ١,٠٩١سم^3. فإذا ساح إلى الماء في درجة الصفر أيضاً، أصبح حجمه = ١,٠٠٠١٢سم^3. فالجليد أو الجمد أخف من الماء حتى في درجة الصفر. ولولا هذا الشذوذ بأمره تعالى في تغير الكثافة، أي لو كانت كثافة الماء العظمى في درجة الصفر على المعتاد لا في الدرجة الرابعة من الحرارة المئوية (٤ °م) كبقية السوائل، لغاص كل ما تجمد من سطح الماء ورسب في القعر، وتجمد ما يزيحه الجليد الراسب الساقط في قعر الماء إلى الأعلى.. وعلى هذا المنوال كان يتجمد البحر أو البحيرة من الأعلى إلى الأسفل، ولأصبحت البحيرة قطعة ثلج! فلا ترى حيواناً يتنعم بالحياة في أعماق البحار والبحيرات. ولانقلب البحر برمته إلى ثلاجة ما كان يكفي لذوبانها حرارات الفصول، ولاسيما، في المناطق الباردة، ولانتفى بعد ذلك انتفاع الإنسان بالبحر.

وبما أن الله تعالى قد جعل كثافة الماء العظمى في (٤ °م)، فإذا برد الجو وصارت درجة حرارة الماء للسطح العلوي (+ ٤ °م)، نزل هذا الماء إلى القعر لثقله بالنظر إلى وزن الماء في الطبقات السفلى.. وهكذا، حتى تصبح درجة حرارة الماء في القعر (+ ٤ °م). ثم إذا نقصت درجة الحرارة انجمد السطح الأعلى فقط من البحيرة عن قشرة غير سميكة، ولما أمكن نزول هذه القشرة لخفّته، وبقي القسم الأسفل من البحيرة سالماً من الانجماد، تعيش فيه الحيوانات بهناء وسرور.

فيرى لو اطّرد انقباض الماء بالبرودة وتمدده بالحرارة كبقية الأجسام (أي لولا هذا الشذوذ رأفةً بالحيوانات البحرية لتبقى حية) لانقلب البحر كله إلى جليد في فصل الشتاء، ولتلفت الحيوانات كلها بتجمده، ولامتنعت التجارة البحرية، ولانقلب الجو بارداً بتأثير الثلوج البحرية، وتعسرت الحياة البشرية. . . فيستنتج من ذلك كله أن ليس للعلية العمياء أن تفكر في حياة الحيوانات البحرية والتجارة البشرية، فتجعل كثافة الماء في (+ ٤ °م) في النهاية العظمى، خلافاً لبقية الأجسام.

وكمثال آخر، تفسيراً لقوله تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ [الرّعد: الآية ٨]، نقول: من الواضح المعلوم أن الأرض تدور حول محورها في كل ٢٤ ساعة مرة واحدة. وسرعة حركتها في هذه الحالة (١٠٠٠) ميل في الساعة. فلو كانت الأرض تدور حول محورها بسرعة ١٠٠ ميل في الساعة، لكان طول الليل عشرة أمثال ما عليه الآن، وكذا طول النهار. وكانت الشمس المحرقة في الصيف تحرق في تلك الأيام الطوال جميع النباتات وما ينمو على الأرض. وفي الليالي الباردة الطوال كان ينجمد كل ما على الأرض من مياه ونبات وحيوان. فيرى أن كل تغيير فيما قدره الله تعالى من (قدر) يؤدي إلى انتفاء الحياة على وجه البسيطة.

وإن درجة الحرارة على سطح الشمس التي هي مصدر الحياة لهذه الكرة الأرضية هي: ١٢٠٠٠ ° فاهرانهايت. ويصل إلينا من هذه الحرارة ما يؤدي إلى استقرار الحياة على الأرض منذ ملايين السنين. وإذا تغيرت درجة الحرارة على سطح الأرض خلال السنة بمعدل: (٥٠ °) لانعدمت الحياة كلها وهلك الناس لما من شدة الحرارة أو من شدة البرودة.

إن الأرض تسير في مدارها حول الشمس بسرعة ١٨ ميلاً في الثانية. فلو كانت هذه السرعة ٦ أميال في الثانية أو ٤٠ ميلاً في الثانية، لكان بعدنا أو قربنا من الشمس مقداراً يستحيل معه الحياة على وجه الأرض.

ومعلوم أن ميلان محور الأرض عن دائرة الخسوف: ٢٧/ ٢٣ ° يؤدي إلى حدوث الفصول الأربعة. فلو لم يكن محور الأرض مائلاً هذا الميلان لبقي القطبان في

الشمال والجنوب في ضياء ضئيل كضياءِ الشفق بصورة دائمة ولكانت أبخرة مياه المحيطات متوجهة من الشمال إلى الجنوب وأدت إلى إيجاد قارات من الثلج، وكانت هذه القارات الثلجية تؤثر على القطبين وتؤدي إلى تحطيمها وتحطيم القشرة الأرضية وجفاف المحيطات إلى ما هنالك من حوادث جمة تعدم الحياة على وجه البسيطة.

فلو كان الأرض بقدر القمر وكان قطرها ربع ما عليه الآن لما كانت قوة الجذب عليها (أي سطح الأرض) تكفي لجذب المياه والهواء، ولما استقر الماء على سطحها، لأن قوة الجذب تكون إذ ذاك سدس قوة جاذبية الأرض اليوم. ولارتفعت درجة الحرارة إلى حد يؤدي إلى إبادة الحياة عليها.

ولو كان قطر الأرض ضعف ما عليه الآن لكان سطح الأرض أربعة أمثال ما عليه الآن. ذلك لأن سطح الكرة = ٤ط نق٢، وهو يتناسب طردياً مع مربع نصف القطر. ونتيجة لذلك، كانت قوة الجذب ضعف قوة جذب الأرض الحالية، ولقل ارتفاع الجو إلى حد مخطر ولارتفع الضغط الجوي من كيلوغرام واحد على كل سانتيمتر مربع إلى كيلوغرامين ولأشكلت الحياة على وجه الأرض.

ولو كانت الأرض من حيث الكبر بقدر الشمس، لأمست قوة الجذب عليها (١٥٠) مرة أكثر مما عليه الآن حسب قانون (نيوتن):

$$ق = ى \times \frac{ك\,كَ}{م^{٢}}$$

ولنقص ارتفاع الجو حوالي ١٠ كيلومترات ولما أمكن تبخر المياه ولكان الضغط الجوي على كل سانتيمتر مربع يساوي ١٥٠ كيلوغراماً، أي لكان وزن حيوان يزن الآن كيلوغراماً واحداً يساوي ١٥٠ كيلو غراماً، ولكان طول الإنسان بطول السنجاب في الوقت الحاضر ولاستحالت الحياة العقلية لمثل هذه الموجودات.

نعم، إن تنظيم الأحوال الطبيعية يتم على نظام عددي متقن من جانب الله تعالى، والأنظمة الكونية مبنية على حسابات رياضية دقيقة، لا يبقى معها مجال لاحتمال تأثير الصدفة في تنظيم هذا الكون كما ثبت في حساب الاحتمالات من مواضيع الرياضيات العالية.

وقد وجد (مانداليف) منذ مائة سنة قانوناً في ترتب العناصر، وذلك أن العناصر الكيميائية كالايدروجين والحديد والراديوم. . .الخ، قد رتبها الله تعالى تبعاً لتزايد أوزانها الذرية ترتيباً دورياً. وأن العناصر التي تقع في قسم واحد تؤلف فصيلة واحدة تكون لها خواص متشابهة. ولذلك تمكن العلماء بفضل هذا الترتيب أن يتنبأوا بوجود عناصر لم يكن قد علم بها قبلاً. حتى أن العلم الحديث قد تنبأ بفضل هذا الترتيب بخواص هذه العناصر المجهولة وجاءت صفاتها مطابقة تماماً للصفات التي توقعوها مستفيدين من القانون الذي وجدوه.

فالعلوم جميعها تبرهن على أن المقادير متحكمة في الكون من جانب الله تعالى، وأن هذه العلوم يرتبط بعضها ببعض في تفسير هذه الآية: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾ [الرّعد: الآية ٨]. فأمواج الراديو التي وضعها (مكسويل) في معادلات رياضية وأثبت (هرتز) وجودها وانتفع بها (لودج وبرانلي وماركوني) في المخاطبات اللاسلكية تعين علماء الفلك اليوم على دراسة أجرام فلكية، لا نستطيع أن ننفذ إليها بمرقب أو بمصورة ضوئية.

والنظائر المشعة التي كشفت في الكيمياء والفيزياء أولاً، تعيننا اليوم على فهم التركيب الضوئي ومحاكاته وقد تعيننا غداً على التحكم بأفعال الوراثة في النبات والحيوان.

فليس في وسع العلماء أن ينفذوا إلى فهم أسرار الكون والحياة دون دراسة الذرات والنجوم. فجميعهم يطوفون على أجنحة فكر يجنحه الشوق والخيال وتضبطه مقتضيات المنهج العلمي. وكل ما وجدوه وسيجدونه في المستقبل من معادلات ودساتير تفسر هذه الآية الكريمة ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾﴾ [الحِجر: الآية ٢١]. وتفسير لقوله تعالى: ﴿قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ [الطّلَاق: الآية ٣]، وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ [الأحزَاب: الآية ٣٨]. وقوله: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ [الفُرقان: الآية ٢]. وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴿٣﴾﴾ [الأعلى: الآية ٣]. وقوله جلَّ من قائل: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ ﴿١٨﴾﴾ [المؤمنون: الآية ١٨]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾ [القَمَر: الآية ٤٩].

﴿فَلا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجومِ * وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لوْ تَعْلَمون عَظِيمٌ﴾

إن الله تعالى يقسم بمواقع النجوم، لما لهذه المواقع من حيث التوازن والجاذبية المتعادلة من أهمية كبرى. ويعدُّ هذا القسم لما هنالك من خطورة قسماً عظيماً.

حقاً، لو تغيرت مواقع النجوم عما عليه الآن اختل التوازن وانعدمت الحياة على وجه الأرض.

فلو كان بُعد الأرض عن الشمس ضعف ما عليه الآن، لنقصت الحرارة التي تأتينا من الشمس إلى (ربع) ما عليه الآن، ذلك لأن شدة الحرارة على سطح ما تتناسب عكسياً مع مربع المسافة من مصدر الحرارة.

كذلك لو بعدت الأرض عن الشمس ضعف البعد الحالي لقلَّت سرعة حركة الأرض إلى النصف، ذلك لأن محيط الدائرة يتناسب تناسباً طردياً مع نصف القطر.

م = ٢ نق ط

ولطال فصل الشتاء إلى ضعف ما عليه الآن ولانجمد نتيجةً لذلك جميع ما على الأرض من كائنات حية، ولاستحالت الحياة عليها.

ولو كان بُعد الأرض عن الشمس نصف ما عليه الآن لأصبحت حرارة الأرض أربعة أمثال ما عليه الآن بنفس السبب ولتضاعفت سرعة الحركة ولنقص طول مدة كل فصل من الفصول الأربعة: (الربيع والصيف والخريف والشتاء) إلى النصف[1] ولتبخر ما على الأرض من مياه ولما أمكن السكنى عليها من شدة الحرارة.

فقانون الجذب العام يحكم العالم بأمر من الله تعالى، ذلك القانون الذي اكتشفه (إسحاق نيوتون):

---

(١) ذلك لأن حاصل ضرب السرعة الزاويوية في المسافة عن المركز مقدار ثابت: لا × نق = ث.

$$ق = ي \frac{ك\ كَ}{م^{٢}}$$

ي= النسبة الثابتة ومقدارها: $\frac{١}{١٥,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠}$ من ثقل الغرام أي:

ي= $٦,٦٧ \times ١٠^{-٨}$ من ثقل الغرام = $\frac{١}{١٥,٠٠٠,٠٠٠}$ من الداين (dyne)

وأن الله تعالى يشير إلى هذه القوة الجاذبة الهائلة بقوله جلَّ من قائل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ **[فاطر: الآية ٤١] . وبقوله عزَّ وجلَّ:** ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٥﴾﴾ **[الحج: الآية ٦٥] .**

وبقوله: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَاۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّىۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾﴾ **[الرعد: الآية ٢] .**

فإن الكواكب تسير في مداراتها وتتباعد بعضها عن بعض بمسافات معينة حسب قواعد الجاذبية وهي مسخرة في حركاتها وجذبها وانجذابها بأمره تعالى حسب قانون الجذب العام، وتجري في مداراتها ومنحنياتها التي هي على الأكثر اهليليجية: (القطع الناقص) إلى يوم البعث حيث ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ **[إبراهيم: الآية ٤٨] ، حيث ينال المجرم جزاءه بقوله:** ﴿وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ(١) ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم(٢) مِّن قَطِرَانٍ(٣) وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴿٥٠﴾ لِيَجْزِىَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٥١﴾ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٢﴾﴾ **[إبراهيم: الآيات ٤٩/ ٥٢].**

وقد أكد تعالى وجود هذه الجاذبية التي لا ترى بالعين وهي كالعمَد في قوله:

---

(١) الأصفاد: القيود والأغلال.

(٢) سرابيلهم: جمع سربال: القميص أو كل ما يلبس.

(٣) قطران: سيال دهني يؤخذ من بعض الأشجار كالصنوبر.

﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾﴾ [لقمان: الآية ١٠] .

فالكواكب والأنجم تسبح في الفضاء في مداراتها وكذلك الشمس والقمر بقوله تعالى:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأنبياء: الآية ٣٣] .

وبقوله: ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: الآية ٤٠] .

فإذا اعتبرنا السماء اسماً لما علانا أو ارتفع فوق رؤوسنا، فإنه يعني ولا شك، هذا الكون بأسره الذي من حولنا، يبدأ بجوف الأرض، فسائر الكواكب ومن بعدها الشمس، النجوم الضاربة في أعماق الفضاء في مجرَّتنا[1] وما يليها من مجرات، وتجري كل هذه الأجرام السماوية في مساراتها أو تدور في مداراتها، هذه هي السماء وقد بناها الله ورفعها وجعل كل جرم فيها بمنزلة لبنة من بناء شامخ ورفع هذه الأجرام كلها بعضها فوق بعض بقوى من نوع القوة الطاردة المركزية، كما ربطها في نفس الوقت برباط الجاذبية العالمية، والجاذبية والقوى الطاردة المركزية الناجمة عن الدوران في مسارات شبه دائرية أو قطاعات ناقصة هما بمثابة الأعمدة القائمة فعلاً.

* * *

واستناداً على هذا القانون تمكنوا من كشف كوكبين هما، نبتون، وبلوتو، يدوران حول الشمس بعد (أورانوس).

فقد اكتشف ليفرييه (Leverier) استناداً إلى القانون المذكور وقوانين الحركة الكوكب المسمى بـ (نبتون Neptune) وعين موضعه قبل أن يراه، فحرر الراصدون تلسكوباتهم إلى هذا الموضع المزعوم فرأوه رأي العين بعد أن كان (ليفرييه) رآه رأي

---

(١) المجرة: على سطح السماء نطاق عريض منير يمتد من فوقنا وينتهي بالأفق من طرفيه، إنها ملايين النجوم بعضها جنب بعض وبينهما مسافات شاسعة إن هذا الطريق العظيم فوق رؤوسنا ليس إلا جزءاً من (المجرة) التي تطوق السماء كحلقة، كأنها نهر من لبن.

الفكر ورأي العلم والحساب. ثم رأى الفلكيون أن هناك أيضاً اختلافاً يسيراً في مدار الكوكب (أورانوس). زعموا من أجله أن كوكباً أبعد من (نبتون) ما زال مختبئاً في السماء، فاكتشفوه وأسموه (بلوتو) سنة ١٩٣٠ الميلادية، وهكذا يتنبأ العلم والدساتير والمعادلات عن أشياء لا ترى بالعين، فتكشف، لتبرهن مرة أخرى على أن ما أودع الله من نظام رياضي رصين في سير الكواكب والأنجم ومداراتها وحركاتها قد بلغت من الدقة والضبط ما يدهش الألباب.

* * *

ثم أن بعد القمر عن الأرض ٢٤٠٠٠٠ ميل والقمر هو العامل الأهم لحدوث الجزر والمد على سطح الكرة الأرضية في كل يوم مرتين. وأن ارتفاع المدَّ في بعض النقاط على الأرض يبلغ ٦٠ قدماً، حتى أن القشرة الأرضية لتنجذب نتيجة جذب القمر لها عدة اينچات، ونحن لا نشعر بحدوث هذا الانجذاب من قبل القمر للقشرة الأرضية ولمياه البحار والأنهار.. يحدث كل ذلك بنظام وهدوء.

ولو كان بعد القمر عنا ٦٠٠٠ ميل فحسب عوضاً عن ٢٤٠٠٠٠ ميل لبلغ ارتفاع المدَّ والجزر للبحار بمقدار يؤدي معه إلى انغمار جميع السهول والوديان تحت المياه نتيجة هذا المد الشديد. ولكان ضغط الماء في كل مرة شديداً جداً إلى درجة يؤدي إلى إبادة الجبال وما كان لأية قارة من القارات أن تبرز من تحت المياه ليسكن عليها البشر. ذلك لأن عمق الماء، إذ ذاك، كان يبلغ ميلاً ونصف ميل، فما كان عند ذلك لأي إنسان أن يبقى حياً. وإن الحيوانات البحرية أيضاً كانت تتغذى بعضها بالبعض الآخر وتفنى عن بكرة أبيها وينقرض نسلها.

فعلم من كل ذلك، أن لموقع القمر ومقدار بعده عن الأرض أهمية عظمى لإدامة الحياة على وجه الأرض.. وهكذا يتحقق قوله تعالى (وهو الواقع الحقيقي الذي لا ريب فيه) أن مواقع النجوم ومنها القمر من الأهمية بحيث لولاها لاختل نظام الكون الرحيب.

﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ ءَايَاتِهَا مُعْرِضُونَ﴾

﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَـٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [الأنبياء: الآية ٣٢]

لولا أن الله تعالى قد أحاط أرضنا بغلاف غازيٍّ ثخنه ٨٠٠ كيلو متراً لحفظها مما تتوجه نحوها من أحجار سماوية: (٢٠,٠٠٠,٠٠٠) حجارة في كل ثانية بسرعة ٥٠ كيلو متراً في الثانية، لما عاش على سطحها كائن حي ولاستحالت الحياة على وجه البسيطة[1].

على أن لهذا الغلاف الغازي أو الدرع الحصينة أثراً هاماً في إيصال حرارة الشمس إلى الأرض بدرجة من الاعتدال والتناسب كي يمكن أن تعيش على سطحها النباتات والحيوانات والإنسان، وكذلك لهذا الغلاف أثر هام في نقل المياه وبخار الماء من المحيطات (البحر المحيط) إلى القارات فلولا وجود هذا الغلاف الجوي لتحولت القارات كلها إلى أراضٍ قاحلة. ومن المعلوم أن أجرام السماء متنوعة الحجوم والصفات، منها الشموس والنجوم والكواكب، كما أن منها الشهب والنيازك. وكلها تجري في مساراتها في اتزان مع بعضها البعض وقد شُدت برباط الجاذبية. حسب دستور اكتشفه نيوتن، وعدَّله أينشتاين.

وقد يختل هذا التوازن أحياناً لسبب من الأسباب، أو قد تدخل الأرض في مجرى من مجاري الشهب في الفضاء وهي تسبح من حول الشمس، وقد تصل سرعة حركة بعضها في الفضاء ٤٥ ميلاً في الثانية الواحدة تقريباً. ولهذا يقدَّر بأن شهاباً واحداً وزنه جزءٌ من ألف جزء من الغرام الواحد عند ما يصبح بمثل هذه السرعة يكون مدفوعاً بقوة تضاهي تلك القوة التي تصحب رصاص البنادق. ورغم أن حجم مثل هذا الشهاب قد لا يزيد على حجم حبة من الرمال فإن خطر المباشر إذا ما أصاب جسم الإنسان لا يقل عن خطر الإصابة بقذيفة نارية.

---

(١) وقد دلت دراسة المعلومات التي ترسلها الأقمار والصواريخ على أن حوالي عشرة آلاف طن من مواد الشهب والنيازك تتساقط نحو الأرض كل يوم.

وتهوي آلاف الملايين، كما قلنا، من مثل هذه الشهب بلا هوادة إلى جو الأرض العلويّ كل يوم عندما تخترق الأرض مساراتها، إلا أنها سرعان ما تتبخر أو تحترق. ويتم ذلك على أبعاد تصل من ٨٠ إلى ١٠٠ كيلومتراً من سطح الأرض. وذلك بسبب الحرارات العالية التي تتولد أثر احتكاكها بالغلاف الجوي العلوي.

فمن المعروف أن الاحتكاك السريع يولِّد الحرارات العالية، وهذه بدورها تعمل على تبخير وإشعال الشهب، ولهذا لا تصل هذه الأجرام السماوية إلى سطح الأرض، ويحمينا الغلاف الجوي من أخطارها، وهذا أيضاً ما يحدث للنيازك، إلا أنها كثيراً ما تصل إلى سطح الأرض بسبب حجومها الكبيرة.

ومن أشهر النيازك التي وصلت إلى سطح الأرض نيزك سيبيريا العظيم الذي سقط عام ١٩٠٨ وهز سطح الأرض وجوهاً، وسبب تلفاً عظيماً في دائرة زاد قطرها على ٤٠ من الكيلومترات.

ونيزك آخر هو نيزك (الأريزونا) بأمريكا، وقد أحدث هوة عميقة في سطح الأرض زاد قطرها على ميل وربا عمقها على ٢٠٠ متر. وقد نجم عن تصادم ذلك النيزك بسطح الأرض أن انفجر النيزك وتطايرت أجزاؤه المختلفة في صورة شهب تناثرت من حول الحافة على مساحة واسعة جداً.

وبطبيعة الحال تكون النيازك والشهب مصدراً من أكبر مصادر الأخطار والأهواء على المسافر عبر الفضاء الكوني خارج نطاق جو الأرض. وما حديث الشهب التي تتعقب الشياطين عندما تحاول الصعود في السماء بجديد. ويقص لنا القرآن في سورة الجن وينقل لنا من أنباء عالم الغيب هذه الآية:

﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْءَانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ﴿٩﴾﴾ [الجنّ: الآيتان ٨/ ٩].

* * *

إنه تعالى يقول: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ ﴿٣٣﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٤﴾ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا

تَنتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾﴾ [الرّحمن: الآيات ٣٣/ ٣٥].

تكشف لنا هذه الآية الكريمة الشيء الكثير عن أسرار الفضاء، وتنبئنا أن الفراغ الكوني (الفضاء الكوني) ليس فراغاً بالمعنى المعروف.. وقد ثبت علمياً أنه تنتشر فيه الكثير من الجسيمات المشحونة ونوى العناصر والكهارب التي لا تستقيم معها بحال. ولم يعرف البشر هذه الحقائق عن الفراغ الكوني إلا في عصر الفضاء عندما أطلق أقماره الصناعية وكواكبه الصناعية لتسبح في أعماق فراغ الكون. وظهر أن هنالك من حول الأرض أحزمة برمتها هي مجموعات عظيمة من الكهارب المحتجزة في الفراغ بفعل مجال الأرض المغناطيسي. وهي أقرب شيء ما شواظ النار[1]. إذ أنها تنطلق من الشمس وكأنها لفظتها لهبها المستعرة. ولا يمكن لأي كائن حي أن يتعرض لهذه الأحزمة أو يخترقها دون وقاية تامة، ولا يعرف حتى الآن مدى هذه الوقاية ومدى النجاح المقدر لها. ويُطلق العلماء على أغلب مكونات هذه الأحزمة الفراغية اسم: (الأشعة الكونية)، ولعل ذلك، لأن جانباً منها يُقبل من أعماق الكون، ومرةً أخرى يحول غلاف الأرض الجوي بأمره تعالى دون وصولها إلينا.

* * *

إن الله قادر على أن يهلك هذا الإنسان، لولا رحمته، التي وسعت كل شيء بذنوبه التي لا تعد ولا تحصى في طرفة عين، لو رفع وسائل وقاية الإنسان عن الأخطار المتوجهة إليه من السماء، فلا ينبغي أن يركبه الغرور فيفسد في الأرض ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٠٥]، وعليه أن لا يأمن مكر الله تعالى ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [الأعـراف: الآيـة ٩٩]. ﴿أَمْ أَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا[2] فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴿١٧﴾﴾ [المُلك: الآية ١٧].

فهذه المصابيح هي الشهب التي تنقضّ في سماء الأرض بلا هوادة ومن كل اتجاه وتكون أكبر أخطار السفر عبر الفضاء الكوني. إنه تعالى يقول: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا

---

(١) الشواظ: لهب لا دخان فيه. واللهب: لسان النار.

(٢) حاصباً: الريح الشديدة تحمل الحصباء.

بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ﴿٥﴾﴾ [المُلك: الآية ٥][1].

ثم أنه تعالى يشير في الآية الآتية إلى فعل الزلازل المدمرة وما قد ينجم عنها من اختفاء معالم بعض أجزاء سطح الأرض، ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ﴿١٦﴾﴾ [المُلك: الآية ١٦][2].

فما على هذا الإنسان إلا أن يزداد خشوعاً لله تبارك وتعالى وخشية، في حركاته وسكناته، ثم يرجو رحمة ربه، فـ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: الآية ٥٦].

فليس الإنسان كل شيء في هذا الكون التي لا تتناهى جوانبه، إنما جيء به إلى هذه الدنيا الفانية ليتكامل في هذه الحقبة من الزمن، في مدة لا تتجاوز على الأكثر مائة سنة، المتقلبة أحوالها. «الدنيا ساعة، فلا تجعلها إلا طاعة» كما جاء في متن الحديث، و«الدنيا مزرعة الآخرة» كما جاء في حديث آخر. «وما قيمة مائة سنة من العمر تجاه الزمان الذي يمتد بأمر الله تعالى إلى ما لا حدَّ له. فنسبة مائة إلى اللانهاية صفر: $\frac{١٠٠}{\infty}$ = ٠ (صفر) إنه تعالى يقول:

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِي حَرْثِهِۦ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِي ٱلْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾﴾ [الشورى: الآية ٢٠].

فطوبى لنفوس توجهت إلى الحق المتعال، بخشوعها وخضوعها، سجودها وركوعها، ومثولها بين يدي الله العلي الكبير، جوف الليل، حيث لا يراه أحد إلا الله تعالى، فذابت ببكائها واعترافها بذنوبها وانغمارها في حب الله حتى بلغت مرتبة اليقين.

ما أعظم هذه المرتبة، حقاً، إنها غاية الغايات، إنها لتعادل آلاف الشهادات من (دكتوراه) وغيرها، وما فائدة شهادة الدكتوراه إن كان حاملها لم يخط في عوالم تكامل النفسي أي في تكميل نفسه، وهي أعز الأنفس إليه، خطوةً واحدة.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم

---

(١) الرجم: ما يرجم به، جمعه: رجوم.
(٢) تمور: مار البحر، يمور: ماج واضطرب، تحرك كثيراً وبسرعة من جهة إلى أخرى.

بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ﴿٢﴾ [الحج: الآيتان ١/ ٢].

وعن علي بن إبراهيم عن محمد بن عيسى عن يونس. قال: سألت أبا الحسن الرضا عليه السلام عن الإيمان والإسلام. فقال أبو جعفر: إنما هو الإسلام والإيمان فوقه بدرجة، والتقوى فوق الإيمان بدرجة، واليقين فوق التقوى بدرجة، ولم يقسَّم بين الناس شيء أقل من اليقين. قال: قلت، فأي شيء اليقين؟ قال: التوكل على الله والتسليم لله والرضا بقضاء الله والتفويض إلى الله. قلت: فما تفسير ذلك؟ قال: هكذا قال أبو جعفر عليه السلام»[1].

وإن باب التقوى هو التوبة عن الذنوب، ذنوب أدبرت لذاتها وأقامت تبعاتها ولنتعلم حقيقة التوبة من مولانا وإمامنا سيد الساجدين الإمام الرابع علي بن الحسين عليه السلام. أنه يقول:

«اللهم إني أتوب إليك من كبائر ذنوبي وصغائرها، وبواطن سيئاتي وظواهرها، وسوالف زلاتي وحوادثها، توبة من لا يحدث نفسه بمعصية، ولا يضمر أن يعود في خطيئة، ولك، يا رب شرطي أن لا أعود في مكروهك، وضماني أن لا أرجع في مذمومك، وعهدي أن أهجر جميع معاصيك»[2].

اسمعوا إلى كلام السجاد عليه السلام كيف يعظم الذنب الصغير تجاه العلي الكبير. كل ذلك لينبه من خالف أوامر الله من سباته، فيبادر إلى التوبة بانكسار لا مزيد عليه وندم عميق وحزن شديد.

إنه عليه السلام يقول:

«يا إلهي لو بكيت إليك حتى تسقط أشفار عيني، وانتحبت حتى ينقطع صوتي، وقمت لك، حتى تنتشر قدماي، وركعت لك حتى ينخلع صلبي، وسجدت لك حتى تنفقأ حدقتاي، وأكلت تراب الأرض طول عمري، وشربت ماء الرماد آخر دهري، وذكرتك في خلال ذلك حتى يكل لساني، ثم لم أرفع طرفي إلى آفاق السماء استحياءً

(١) أصول الكافي: ج٢، ص٥٢، باب فضل الإيمان.

(٢) الصحيفة السجادية: ص١٣٨.

منك، ما استوجبتُ بذلك محو سيئة واحدة من سيئاتي وإن كنت تغفر لي حين أستوجب مغفرتك، وتعفو عني حين أستحق عفوك، فإن ذلك غير واجب لي باستحقاق، ولا أنا أهل له باستيجاب»[1].

إذا كان إمامنا المعصوم يخاطب ربه بهذا الخطاب، فكيف بنا وقد ملئنا معاصي وآثاماً، ألا يجدر بنا أن نخاف الله من شديد عذابه وأليم عقابه وأن نعمل مجاهدين في أيام الفرصة، في هذه الأيام القليلة لئلا نكون من ﴿ٱلْخَـٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٥﴾ لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ۚ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ ۚ يَـٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ﴿١٦﴾﴾[2] [الزُمر: الآيتان ١٥/١٦].

﴿وَهُوَ الَّذي جعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدوا بِهَا في ظُلُماتِ البِرِّ والبَحْرِ﴾

من حقائق القرآن: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَـٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۗ﴾ [الأنعام: الآية ٩٧].

إن هذه الآية تبيِّن لنا في إعجاز علمي رائع كيف أن النجوم ـ دون الكواكب السيارة التي هي في منظومتنا الشمسية ـ يمكن أن تستخدم في تعيين الاتجاهات على كرتنا الأرضية وكيف يمكن أن يهتدي بها روَّاد الصحاري والبحار.

لقد عرف القدماء من الفراعنة والإغريق والعرب وغيرهم الكثير عن النجوم وتجمعاتها. وأطلقوا على بعض النجوم كما تبدو في كبد السماء أسماءً مختلفة المصدر مثل: السماك الرامح والسماك الأعزل والشعرى اليمانية.

كما أطلقوا على تجمعاتها أسماء أخرى مثل: مجموعة الدب الأكبر، ومجموعة العقرب، ومجموعة المرأة المسلسلة ومجموعة الجاثي على ركبتيه، ومجموعة الحمل ومجموعة الأسد. الخ وعددها ٩٠ مجموعة هي البروج.

---

(١) الصحيفة السجادية: ص٨٣.
(٢) ظلل: أطباق من النار.

ويبدو لنا أن هذه النجوم تتحرك عبر السماء من الشرق إلى الغرب بسبب دوران الأرض حول محورها من الغرب إلى الشرق مرة كل يوم. فيشرق بعضها من جميع اتجاهات الأفق الشرقي، ثم ترتفع في السماء حتى تصل أقصى درجات ارتفاع لها لحظة عبورها خط الزوال. ثم تبدأ بالانخفاض حتى تصل إلى الأفق الغربي وتختفي وراءه. وهناك نجوم تتحرك دون أن تشرق أو تغرب، ولكنها ترسم في مساراتها اليومية دوائر مركزها النجم القطبي الذي هو في اتجاه الشمال على امتداد محور دوران الأرض، يستخدمه الملاحون ورواد الصحارى في تعيين الشمال.

وقد أوضح الله تعالى الإهتداء بالنجوم في آية أخرى بقوله:

﴿وَعَلَٰمَٰتٍۚ وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ ١٦﴾ [النحل: الآية ١٦].

ثم أن الله تعالى لا يريد منا أن نهتدي في أسفارنا بالنجوم فحسب، بل يريد منا ما هو أهم من كل ذلك، ما يجعل هذه النفوس تعرج في عوالم القدس وتقترب من الساحة القدسية الإلهية بتسبيحها، خشوعها وخنوعها، وذلك بقوله جلَّ من قائل: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ وَإِدۡبَٰرَ ٱلنُّجُومِ ٤٩﴾ [الطُّور: الآية ٤٩][1]. وهو تسبيح الله تعالى بعد منتصف الليل أو بين الطلوعين. كان يقول سيد الساجدين عليّ بن الحسين عليه السلام في مناجاته: «إلهي، غارت نجوم سماواتك وهجعت عيون أنامك، وأبوابك مفتحات للسائلين»[2].

وقد جاء في الحديث: تتجلى العبادة في خمسة أشياء: ١ ـ خلاء البطن، ٢ ـ تلاوة القرآن، ٣ ـ صلاة الليل، ٤ ـ التضرع عند الصباح، ٥ ـ البكاء من خشية الله تعالى.

* * *

انظروا كيف يصف الله تعالى في الآية المباركة الآتية في دقة عملية وملاءمة لفظية عواصف البحر وأنواءه مما لم يشاهده الرسول صلى الله عليه وآله ولم يعرف عن حقيقته شيئاً لولا تعليم الله تعالى إياه.

---

(١) والآية المتقدمة نذكرها لعظيم فائدتها وهي: ﴿وَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعۡيُنِنَاۖ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ٤٨﴾ [الطُّور: الآية ٤٨].

(٢) مصباح المتهجد للطوسي: ص١٣٢، وغيرها من كتب الأدعية.

﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ[1] يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ظُلُمَٰتُۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾﴾ [النّور: الآية ٤٠].

وإن هذه الآية كانت سبباً لإسلام ملاح غربيّ، ذلك، أنه كان يقود سفينة في الجنوب الشرقي من آسيا. وإذا بعاصفة عظيمة تغيِّر حالة الجو فتتعالى الأمواج بعضها فوق بعض ومن فوقها سحاب، ويسود ظلام وأي ظلام، بل ظلمات بعضها فوق بعض لا يكاد المرء إذا أخرج يده يراها.

يحار الملاح في أمر السفينة، ماذا يصنع؟ وكيف ينجو؟ فصار يجول في السفينة، يصعد وينزل، وإذا به يرى رجلاً باكستانياً قد انكب على كتاب يتلوه، فسأله قائلاً، وما الذي تقرأ؟

قال: إنه كتاب الله، إنه القرآن، فقال: ترجم لي الآية التي تقرأها، فكانت الآية المتقدمة: ﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ﴾ [النّور: الآية ٤٠] . . .

فتحيَّر الرجل عندما رأى أن ما جاء في القرآن الكريم وصف رائع لما فيه الآن من حالة عصيبة، وصف لا يقوى عليه إلا من جاب البحار وشاهد حالة العواصف الشديدة المظلمة، وقال: إن محمداً لم يكن قد خرج من الجزيرة العربية إلى مثل هذه البحار ولم يشاهد هذه الحالات الغريبة الاستثنائية، إذن، ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴿٥﴾﴾ [النّجم: الآيتان ٤/ ٥]. فآمن من ساعته. فأصبح منوَّراً بنور الإسلام الوهاج، وتحقق قوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النّور: الآية ٤٠].

* * *

إن الله تعالى يذكر في آيات جمة أن الجبال أوتاد لهذه الأرض عن الميدان والميلان. وإن الأرض مهاد. وذلك بقوله:

﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ﴿٦﴾ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾﴾ [النّبأ: الآيتان ٦/ ٨] ومعلوم أن الأرض كالمهاد أو الفراش لهذا الإنسان فهي موطن البشر ومأواهم في الحياة الدنيا. وأما تشبيه الجبال بالأوتاد التي تحفظ توازن الخيمة عندما تشد إليها فهو تشبيه علمي معجز لا يصل إلى كنهه وسره إلا

---

(١) لجي: عميق.

الراسخون في علم طبقات الأرض. وقد علم أخيراً بعد تقدم (الجيولوجيا Geologie) أي علم طبقات الأرض أنه لولا الجبال لكانت قشرة الأرض الصلبة في جملتها دائبة الاضطراب بسبب دوام اختلال التوازن القائم بين جوف الأرض المنصهر وما يعاني من ضغوط عالية وقشرتها الصلبة وما تتعرض له من عوامل التعرية. وأهم عوامل التعرية هي الأمطار والسيول والأنهار والرياح واختلافات الحرارة ما بين الليل والنهار والشتاء والصيف وكلها تفتت القشرة الصلبة.

إن قشرة الأرض الصلبة هي ميزان دقيق حساس إلا أنه ميزان من النوع المركب. فكل مكان من القشرة هو بمثابة كفة متوازنة تماماً مع أي مكان مجاور. والميزان الدقيق تكون كلتا كفتيه متوازيتين تماماً. وهما يظلان كذلك ما دامت الأثقال التي توضع على إحداهما مساوية للتي توضع على الأخرى. فإذا ما تغير الثقل على إحدى الكفتين لسبب من الأسباب اضطربت هذه الكفة وتأثرت الكفة المقابلة لها حتماً. ويظل هذا الاضطراب قائماً حتى تتساوى الأثقال مرة أخرى ويعود التوازن إلى حالته الأولى. وجميع أجزاء القشرة الأرضية متزنة تماماً مع ما يجاورها من أجزاء لحفظ هذا التوازن تحمل أجزاء منها أعلى الجبال، بينما تكون الأجزاء المتجاورة قيعاناً. فالجبال إنما سببت مجرد حفظ هذا التوازن كما يشير إلى ذلك قوله تعالى:

﴿وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا ۝٣٢﴾ [النَّازعَات: الآية ٣٢].

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا﴾ [الرّعد: الآية ٣] ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ﴾ [الحجر: الآية ١٩] ﴿وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا﴾ [النّحل: الآية ١٥] ﴿وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ﴾ [الأنبياء: الآية ٣١].

إلا أن المشاهد أنه: لا الحالة الداخلية لباطن الأرض ولا الظروف الخارجية التي تتعرض لها الجبال والهضبات تترك هذا الميزان في حالة هدوء واستقرار. فباطن الأرض المنصهر تجتاحه تيارات تؤدي إلى التواء القشرة الصلبة مهما كانت هذه التيارات بطيئة، وتجري المياه إلى المنخفض التي تتكون بالتواء القشرة. وهي التي نسميها البحار. وبمرور الزمن تصيرهما هذه البحار مأوى لأحمال ثقيلة كثيفة جداً من

الرسوبيات التي تأتي بها عوامل التعرية من المناطق المرتفعة في القشرة كالجبال والهضاب وترسب بقايا الكائنات البحرية، وكلما ثقلت هذه الأحمال هبطت تحت ثقلها قيعان البحار. وتظل هذه الرسوبيات تتراكم حتى تكون جذوراً لجبال مستقلة نتيجة للضغط الشديد الذي يقع على حافتي الجزء الهابط من القشرة عليها فتلتوي القشرة وتنثني وترتفع رويداً رويداً لحفظ التوازن.

هذه القصة تصور لنا باختصار الثورات الجيولوجية أو حركات بناء الجبال. ولما قامت أول ثورة جيولوجية نتيجة للاضطرابات التي اجتاحت باطن الأرض في أول أمرها، جاء رد الفعل في القشرة الأرضية بظهور القارات وما رسا على سطحها من الجبال الأولى. ثم اختل التوازن تحت تأثير عوامل التعرية التي تنحت الجبال وتفتتها وتحمل أنقاضها لترسبها في أعماق البحار والمحيطات، وعند ذلك، بدأت القشرة الأرضية تستعيد توازنها المختل، وعلا سطح المحيط تدريجياً حتى فاض الماء وظهرت بحار جديدة على أطراف القارات تركت آثارها بما أعطت من رواسب نراها اليوم.

وهكذا نجد الجبال هي من الوجهة العلمية بمثابة الأثقال التي تحفظ توازن القشرة الأرضية وتبقى على ثبوتها وعدم انهيارها خلال أحقاب طويلة يظل خلالها التوازن قائماً رغم ما يعانيه باطن الأرض من ضغوط عالية وما يجتاحه من تيارات حَمل بطيئة، وهذا المعنى الرائع هو عين ما أشارت إليه الآيات المتقدمة والآيات الآتية:

﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ وَأَسْقَيْنَاكُم مَّاءً فُرَاتًا ﴿٢٧﴾﴾ [المُرسَلات: الآية ٢٧].

﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ﴾ [الحِجر: الآية ١٩].

﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا﴾ [فُصّلَت: الآية ١٠].

﴿وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ﴾ [لقمَان: الآية ١٠].

﴿أَمَّن جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ﴾ [النَّمل: الآية ٦١].

* * *

لم يدوِّن الله تعالى الآيات الكونية المتقدمة وغيرها التي تربو على (٧٥٠) آية في كتابه المجيد لتعليمنا علمَ طبقات الأرض أو الفلك أو غيرهما من العلوم. ذلك لأن ما أودع الله

تعالى من قوانين وخواص في حقل طبقات الأرض أو في حقل علم الفلك وغيرهما من الكثرة بحيث لا يمكن حصرها أو عدها. ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾﴾ [الكهف: الآية ١٠٩]. ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ﴾ [لقمان: الآية ٢٧].

وإنما أراد إبداء عظمته وجليل قدرته كي يعتبر الإنسان ويعلم أن الإبداع لا يأتي جزافاً ولا يتكوَّن بصدفة في مراحل لا تعد ولا تُحصى، أراد أن يفهم العالم أن الدين الصحيح الذي لا شائبة فيه، الدين الذي لم تمسه يد البشر المحرِّفة هو ذلك الدين الذي يقوم على أساس تعاون وثيق وانسجام كامل بين النظرة العلمية أو الفكرية التي يُستعان بها في كشف حقائق الكون بالحس والتجربة والاستقراء والاستنتاج والنظرية الدينية التي تربط الكون والإنسان بالإله الخالق المبدع. فتتولد من جهة علوم وضعية نظرية وعملية وتجريبية، وتتطور وتتقدم وتتآخى في الوقت نفسه مع الروح الدينية الصافية التي تستشعر وجود الخالق وعظمته وتحاول الرقي الخلقي والروحي منسجمة ومتآلفة مع الروح العلمية والتقدم الفكري.

هذه ظاهرة واضحة في الحضارة الإسلامية، بخلاف ما كان في القرون الوسطى في أوروبا من اضطهاد وإعدام العلماء الكونيين. فقد حررت النظرة الإسلامية الفكر العلمي من الشوائب المعوِّقة باسم الدين وصفت الروح الديني وارتقت بها وأكملت بها الرقي المادي.

هذه الظاهرة هي التي دعا إليها القرآن بقوله: ﴿قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [يونس: الآية ١٠١]. إنها نظرة جديدة إلى الكون والإنسان والحياة حيث لا تنافي ولا منافاة بين العلم المادي والتوجه نحو الخالق المتعال. وقد قال الإمام علي عليه السلام: «بالعلم يُعرف الله ويوحّد».

إنها ظاهرة واضحة كل الوضوح في الحضارة الإسلامية منذ بدايتها. فقد كان ارتقاء العلوم المادية وارتقاء العلوم المعنوية يسيران في اتجاه واحد في هذه الحضارة، من غير أن يكون بينهما هوة فاصلة أو تنافٍ أو مخالفة، خلافاً للحضارات السابقة واللاحقة.

فيجدر بالعالم أجمع أن يتخذ الدين الإسلامي ديناً عالمياً لينعم به البشر في دنياه ويسعد في الآخرة. ويترك ما أملته اليد البشرية من خرافات لا يسندها العقل والعلم.

ـ حركة الأرض في القرآن الكريم ـ

كان قد أجمع علماء اليونان قبل الميلاد على أن الأرض ثابتة لا حراك لها وأن الشمس والأنجم تدور حولها، حتى كان القرن السابع عشر الميلادي وجاء (غاليليو) بمرقبه وثبت لدى العلماء الكونيين: أن الأرض تتحرك حول الشمس وأن الشمس ثابتة لا حراك لها. وحصل من جراء هذه العقيدة شجار عنيف بين الكنيسة التي كانت تقول بسكون الأرض والعلماء الكونيين الذين قالوا بحركتها، فأعدم نتيجة هذا التصادم في الرأي كثير منهم.

إلا أن القرآن الكريم كان ينادي قبل ذلك بقرون: أن الأرض أو الجبال التي عليها تتحرك كما يتحرك السحاب وتمر كما يمر. وذلك بقوله جلَّ من قائل:

﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [النَّمل: الآية ٨٨].

وحركة الجبال ومرورها أو حركة الأرض هذه، هي في الحقيقة حركتان: حركة في دورانها حول الشمس على شكل أهليلجي أو قطع ناقص، وحركة أخرى أو مرور آخر مع الشمس وبقية كواكب المجموعة الشمسية بسرعة، ٧٠,٠٠٠ كيلومتراً تقريباً في الساعة الواحدة على شكل لولبي في هذا الفضاء اللانهائي متجهة نحو النجمة المسماة بالنسر الواقع كي تبلغ مستقرها كما أخبرنا الله تعالى في محكم كتابه بقوله: ﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾﴾ [يس: الآية ٣٨]. ويعتبر اكتشاف حركة الأرض بدورانها حول نفسها وحركتها أو دورانها حول الشمس من أروع ما اكتشفه العلم الحديث، وقد سبق القرآن هذا الاكتشاف ما يزيد على ألف سنة تقريباً.

ولا يراد بمرور الجبال في الآية المتقدمة: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً﴾ [النَّمل: الآية ٨٨] ما يحدث يوم القيامة، ذلك لأنه لا تبقى الجبال إذا كان يوم القيامة حتى يراها

الإنسان في ذلك اليوم فيحسبها جامدة. وهو القائل: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ۝١٠٥﴾ [طه: الآية ١٠٥]، وبقوله: ﴿وَإِذَا ٱلْجِبَالُ نُسِفَتْ ۝١٠﴾ [المرسلات: الآية ١٠]، وبقوله: ﴿وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ۝٥ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ۝٦﴾ [الواقعة: الآيتان ٥/٦].

ويقول حجة علماء الفلك: (سيمون) بشأن حركة الأرض ضمن المجموعة الشمسية: «إن من أعظم الحقائق التي اكتشفها العقل البشري في كافة العصور هي أن الشمس والكواكب السيارة التي هي في المجموعة الشمسية (مجوعتنا هذه) وأقمارها تجري في الفضاء متجهة نحو برج النسر، بسرعة غير معهودة لنا على الأرض، يكفي لتصورها أننا لو سرنا بسرعة مليون ميل يومياً، فلن تصل مجموعتنا الشمسية إلى هذا البرج إلا بعد مليون ونصف مليون سنة من وقتنا الحاضر، وهذه دون مراء إحدى معجزات القرآن العلمية».

* * *

ودليل آخر على حركة الأرض قوله تعالى:

﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَـٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَـٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا﴾ [الأعراف: الآية ١٣٧].

ومعلوم أن مشارق متعددة ومغارب عديدة لا تحدث إلا بحركة الأرض حول محورها حتى تكون كل نقطة منها تارة مشرقاً وأخرى مغرباً حسب حركة الأرض ودورانها بالنسبة إلى الشمس التي تُرى لبعدها ثابتة على وجه التقريب.

ويقول الله تعالى في آية أخرى:

﴿رَّبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ ٱلْمَشَـٰرِقِ ۝٥﴾ [الصَّافات: الآية ٥].

وفي آية أخرى أيضاً:

﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَـٰرِقِ وَٱلْمَغَـٰرِبِ﴾ [المعَارج: الآية ٤٠]. مما يدل على أن كل ما في هذا الكون من أجرام ومجرات وغيرها في حركة دائمة حول محاورها ولها مشارق ومغارب وهذا عين ما اكتشفه علم الفلك الحديث وعلم الفلك اللاسلكي بالنسبة إلى الأنجم النائية في أغوار الفضاء والمجرات كذلك.

* * *

وأن الآيتين تدلان دلالة واضحة على حركة الأرض لئلا يبقى قسم منها في ظلام دائم والقسم الآخر في ضياء دائم.

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا[1] إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [القصص: الآيتان ٧١/ ٧٢].

وبما أن الله تعالى أخبرنا في الآية القائلة: ﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾﴾ [يس: الآية ٣٨] إن الشمس تسير في الفضاء إلى حيث تستقر وهذا لا يتلائم مع دورانها حول الأرض حيث يخالف الجري الذي مآله الاستقرار في محل يعلمه الله تعالى، إذن وجب أن نقول إن الشمس بحكم الآية المتقدمة لا تدور حول الأرض، وبما أن خروج الأرض من ظلام دائم أو خروج الأرض من ضياء دائم يتوقف على حركتها حول محورها، إذن يعلم من الآيات المتقدمة بعد الجمع بينها أن الأرض متحركة حول نفسها، أو حول محورها.

ويقول الله جلَّ جلاله في الآية: أنه لو كان في جهة من الأرض ليل لكان في الجهة الأخرى نهار بصورة حتمية، وهذا لا يتم إلا بدوران الأرض حول محورها أو بدوران الشمس حول الأرض. وبما أن الله أخبرنا أن الشمس تجري في الفضاء لمستقر لها، أي: ليس لها دوران حول الأرض إذن وجب أن نقول: إن الأرض هي التي تدور حول نفسها ليتمَّ الليل والنهار في كل ٢٤ ساعة.

والآية هي:

﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [يونس: الآية ٢٤].

فقوله تعالى: ﴿أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا﴾ يشير إلى حركة الأرض حول نفسها ودورانها حول محورها، ذلك لأن الليل والنهار يكونان على الكرة الأرضية في وقت واحد في موضعين مختلفين. والله تعالى لا يتردد في تعيين وقت يريد فيه إفناء الأرض

---

(١) سرمداً: أي بصورة دائمة.

وإبادتها: هل يكون ذلك في الليل أم النهار، وهو خالق كل شيء والعالم بكل شيء، عالم بما هو كائن وبما سيكون، إذن، يشير قوله تعالى: ﴿لَيۡلًا أَوۡ نَهَارٗا﴾ [يونس: الآية ٢٤] إلى أن قسماً من الأرض يتلقى أمر الفناء ـ من جانب الله تعالى ـ ليلاً، والقسم الآخر في نفس اللحظة يتلقى هذا الأمر نهاراً. وهذا لا يتم إلا بحركة الأرض أو دورانها حول محورها لحدوث الليل والنهار في نفس الوقت نتيجة هذا الدوران.. وقد نفينا دوران الشمس حول الأرض بالآية المتقدمة.

ويقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ﴾ [يس: الآية ٤٠] ومعنى ذلك: أن الليل لا يسبق النهار وكلاهما يحدثان في وقت واحد. حقاً، عندما انفصلت الكرة الأرضية بحالة نارية ملتهبة عن الشمس[(١)]، كان الطرف الذي يلي الشمس نهاراً والطرف الآخر ليلاً، وعندما بدأت تدور حول نفسها وحول الشمس أيضاً بحكم الجاذبية على ما ثبت في علم الميكانيك كان الطرف المتوجه إلى الشمس نهاراً والطرف الآخر ليلاً. فالليل والنهار كلاهما يحدثان في آن واحد دون أن يسبق أحدهما الآخر. ثم إذا أضفنا إلى هذه الآية قوله تعالى في سورة يس: ﴿وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ﴾ [يس: الآية ٤٠]، هذه الآية: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ خِلۡفَةٗ لِّمَنۡ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوۡ أَرَادَ شُكُورٗا ﴿٦٢﴾﴾ [الفُرقان: الآية ٦٢].

نعلم أن الليل يتلو النهار، فهما متعاقبان. وهذا لا يتم إلا بدوران الشمس حول الأرض، أو بدوران الأرض حول محورها. وبما أن الآية:

﴿وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ﴾ [يس: الآية ٣٨]. تنفي دوران الشمس حول الأرض ذلك لأن الشمس تجري لمستقر لها، ولا استقرار مع الدوران في نفس المدار، إذن: يُعلم أن لابد لتعاقب الليل والنهار من حركة الأرض حول محورها ليكون بصورة دائمة الطرف المتوجه نحو الشمس نهاراً والطرف الآخر غير المتوجه نحو الشمس ليلاً.

---

(١) إنه تعالى يقول: ﴿أَوَلَمۡ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ كَانَتَا رَتۡقٗا فَفَتَقۡنَٰهُمَاۖ وَجَعَلۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ كُلَّ شَيۡءٍ حَيٍّۚ أَفَلَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الأنبياء: الآية ٣٠].

ومما لا مراء فيه: أن ليس للأجسام الصامتة، الصماء أن ترتب لنفسها حركاتٍ مترتبةً منتظمة تحصل بسببها، أي بسبب دوران الأرض حول محورها، حياة على الكرة الأرضية، فتعيش النباتات والحيوانات عليها، إذن، يحكم العقل بصورة فطرية: أن الله تبارك وتعالى هو الذي أعطى هذه الحركات المنتظمة للكواكب والشموس كي تحصل بسببها حياة. ذلك، لأن الأرض لو كانت ثابتة، لبقي طرف منها متوجهاً نحو الشمس ولاحترق كل ما على الأرض من نبات وحيوان ولتبخرت المياه، وانعدمت نتيجة لذلك الحياة عليها وكذلك الطرف الآخر: الطرف غير المتوجه نحو الشمس لبقي في ظلام دائم وبرودة قارصة، وانجمد بسببها كل ما على الأرض من نبات وحيوان ومياه وانعدمت الحياة عليها أيضاً.

فالله تعالى جعل هذه الدقة المتناهية في الخلق، من تعاقب الليل والنهار إلى ما هنالك من ملايين الأنظمة والقوانين والخواص تذكرةً لمن أراد أن يذكَّر وعبرةً لمن أراد أن يعتبر، لمن أراد أن يقوم بواجب الشكر تجاه نعمه التي لا تعد ولا تحصى[1] فيشكر الله تعالى بصلاة يصليها وصوم يطهّر به نفسه وزكاة يطهر بها ماله وخمس يؤدي به ما فرض الله عليه، وحج يتقرب به إلى الله، وإنفاقٍ وبذل وقيام بحوائج الناس وأعمال صالحة، وبر الوالدين وصلة الرحم، وتسبيح الله تعالى وتقديسه.

فلا يعتبر بآيات الله تبارك وتعالى وما أودع في الكون من حركات وقوانين إلا مَن آمن ولا يؤمن حقاً إلا مَن اتقى الله، ولا تتم التقوى إلا بالقيام بواجب الشكر. ولكل عضو من أعضاء الإنسان شكر يناسب ذلك العضو، ولكل جارحة من الجوارح شكر يناسبها، ولكل ما مَنَّ الله على الإنسان من مال ومنال وأرض وعقار شكراً عملياً يناسبها. ولا يكفي قولك: الحمد لله، إذا منَّ الله عليك بدور متعددة حتى تسكن في إحداها بعض المعوزين من أيتام وأرامل وغيرهم. فقد جاء في الحديث: «مَن كانت له دار، فاحتاج مؤمن إلى سكناها، فمنعه إياها، قال الله عزَّ جلَّ: ملائكتي بخل عبدي على عبدي بسكنى الدنيا، وعزتي، فلا يسكن جناني أبداً»[2].

---

(١) ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [إبراهيم: الآية ٣٤].

(٢) أصول الكافي: ج٢، ص٣٦٧، باب من منع مؤمناً شيئاً.

اللطف وسنة الكمال

كثيراً ما نقرأ في الكتب الكلامية أن الله تبارك وتعالى قد أرسل أنبياء مبشرين ومنذرين عملاً بقاعدة (اللطف) وأن الله تعالى أراد أن يلطف بالبشر ويرفق بهم، فجعل منهم أنبياء ومرسلين، منَّ عليهم بصفة العصمة لقابلية هناك ليهدوا الناس سواء السبيل.

يستنتج من ذلك أنه لولا (قاعدة اللطف) لبقي البشر في دياجير الجهل لا يعرف ربه ولا يعرف كيف ينال سعادة الدنيا ونعيم الآخرة ولبقي كالبهائم أو أتعس حظاً من البهائم أبد الآبدين.

ولكني أرى: أن الله تبارك وتعالى منَّ على البشر بتعاليم السماء وأرسل أنبياء ومرسلين ومن بعدهم أوصياء سلام الله عليهم أجمعين عملاً بسنة الكمال هذا الكمال الذي نشاهد آثاره وآياته في كل جزء من أجزاء العالم من الآميبا (الكائن الحي ذي الخلية الواحدة).

إلى أكبر ما خلق الله من مجرات وشموس تعادل شمسنا هذه آلاف المرات.

كمال نشاهد آثاره في الذرة، ذلك لأن الذرة عالم مستقل في ذاته، لها قوانينها ودساتيرها، وأي كمال أعظم من أن نرى حركة (الإلكترون) بسرعة ألفي كيلو متر في الثانية حول النواة: (المركز)، أي حول البروتون على شكل اهليليجي: قطع ناقص، وأي كمال أعظم من رسم منحنٍ اهليليجي يكون المحيط فيه محلاً هندسياً لنقاط تبعد بمقدار القطر الكبير عن نقطتين معينتين: (البؤرتين)، ومتى علم البشر أن معادلة القطع الناقص هي: $\frac{س^2}{ب^2} + \frac{ص^2}{حـ^2} = ١$.

لم يتعرف البشر على هذه المعادلة إلا في القرن الثامن عشر الميلادي، بعد قطع الرياضيات مراحل متعددة استغرقت آلاف السنين.

وهل للإلكترون وهي شحنة كهربائية سالبة، أن تسلك هذا الطريق الاهليليجي وأن يرسم من تلقاء نفسه هذا المنحني المعقد الذي لم يقو البشر على تفهمه إلا بعد آلاف السنين.

إنه كمال محير للعقول في بطن الذرة.

وقل مثل ذلك بالنسبة إلى حركة الكواكب حول الشمس وبالنسبة إلى هذه الأبعاد التي نشاهدها بين الأنجم السابحة في الفضاء بنظام محيِّر للألباب. فلو كان البعد بين الأرض والقمر عشر ما عليه الآن لكان المد الحاصل لمياه البحار والأنهار نتيجة جذب القمر لما على الأرض من مياه أضعاف ما عليه الآن ولانغمرت الأراضي والبقاع كلها تحت المياه، ولما وجد مكان جاف للسكنى، وهو قوله تعالى:

﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ۝٧٥ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ۝٧٦﴾ [الواقعة: الآيتان ٧٥/ ٧٦].

وهكذا القول بالنسبة إلى بعد الشمس عن الأرض. فإن الشمس تبعد عن الأرض: ٨ دقائق و ٢٠ ثانية بحساب السنة الضوئية أي أن الطائرة لو كانت سرعتها في الساعة ١,٠٨٠,٠٠٠,٠٠٠ كيلومتراً لوصلت إلى الشمس خلال هذه المدة: (٨ دقائق و ٢٠ ثانية). فلو كان هذا البعد نصف ما عليه الآن، لكانت درجة الحرارة على وجه الأرض أربعة أضعاف ما عليه الآن ولاحترق كل شيء وتبخرت المياه واستحالت الحياة على وجه البسيطة. وقد قال تعالى:

﴿وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ۝٨ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ۝٩﴾ [الرعد: الآيتان ١٢/ ١٣]. فلا ترى في كل ما خلق الله شيئاً عبثاً يناقض سنة الكمال.

إن الماديين كانوا يتذرعون بأشياء تافهة لإثبات نظريتهم العشوائية، وقد تقدم العلم وفند آراءهم الإلحادية.

إنهم كانوا يقولون: إن بعض الأعضاء في البدن الإنساني لا فائدة منها وهذا يخالف سنة الكمال. حين أن الحكمة متأصلة من جانب الله في كل شيء. وقولهم هذا كان منبعثاً عن جهل ونقص في العلم، إنهم كانوا يقولون: إن (الزائدة الدودية) شيء زائد لا فائدة منها وقد علم بعد تقدم العلم أن لهذه الزائدة (Apendis) حساسية فائقة إزاء التعفنات الداخلية وهي بمثابة صافرة خطر.

وأما اللوزتان فكان يقال عنهم: أنهما زائدتان أيضاً، يجب اجتثاثهما في الصغر لئلا تكونا في المستقبل غدداً نتنة، ثم علم أخيراً أن لهاتين اللوزتين أثراً هاماً في سلامة البدن الإنساني..

كان يقول الإمام علي عليه السلام: «لو شئت لجعلت من هذا الماء نوراً» والنور أو الضوء طاقة، كما أن الإشعاع طاقة. وقد علم أخيراً معنى قول الإمام علي عليه السلام بعد اكتشاف شيء عما في بطن الذرة وتحطيمها. فالله مصدر عظيم للطاقة. وإن الهيدروجين الثقيل الذي نحصل عليه من الماء العادي مصدر عظيم للطاقة. وإن مفاعلات الاندماج سوف لا تختلف في حجمها عن المفاعلات الذرية (مفاعلات الانشطار) عند فلق الذرة وتحطيمها.

فالعلماء كما استخلصوا الطاقة من انشطار ذرات العناصر الثقيلة كاليورانيوم، بذلوا الجهود للحصول على الطاقة أيضاً من الماء العادي، وذلك بعملية الاندماج النووي لذرات العناصر الخفيفة كالديوتيريوم والترتيوم كما في القنبلة الهيدروجينية، ولكن تحت وسائل التحكم.

ويحتوي الهيدروجين العادي على قدر من الهيدروجين الثقيل الثنائي، وهو إحدى مركبات الماء الذي يشغل خمسة أسباع مساحة الكرة الأرضية. وقد بلغ اهتمام علماء الذرة لظاهرة الاندماج النووي مبلغاً كبيراً. لاعتقادهم الراسخ أنه في الإمكان استخلاص كميات هائلة من الطاقة بهذه الطريقة بتكاليف زهيدة ودون التعرض لأخطار الإشعاعات الذرية وغيرها التي تنتج في عمليات الانشطار.

فالطاقة التي نحصل عليها من اندماج الهيدروجين الثقيل الموجود في ليتر من الماء العادي، تعادل الطاقة الحرارية الناتجة من ثلاثمائة ليتر من الگازولين.

ولو أمكن التحكم في طاقة التفاعلات الاندماجية، واستخدمت لخير البشرية لتوفر للعالم قدر من الطاقة يكفيه حقبةً من الزمن، تبلغ عشرة آلاف مليون سنة، دون اعتماد على مصدر آخر للطاقة، وقد أمكن الوصول إلى هذه النتيجة باعتبار أن: مساحة الكرة الأرضية تساوي ٢٠٠ مليون ميل مربع، والماء يشغل من هذا السطح خمسة أسباعه، بمتوسط عمق قدره ميلان، والهيدروجين العادي يكوِّن تسع ماء البحار والمحيطات، وواحد من خمسة آلاف من هذا الهيدروجين من الهيدروجين الثقيل والعالم يستهلك الفحم بمعدل ستة آلاف مليون طن سنوياً.

ومما هو جدير بالذكر، إن الاندماج الهيدروجيني هو التفاعل الذي تنتج به

الشمس طاقتها الحرارية العظيمة، وهو التفاعل الذي بنيت عليه التفجيرات الهيدروجينية المروعة التي تثبت إمكان الحصول على الطاقة بعملية الاندماج ولكن دون تحكُّم.

وقد تنبأ العالم الهندي «هومي بابا» بأن إطلاق طاقة الاندماج بطريقة تمكننا من التحكم فيها سيتم خلال العشرين سنة القادمة، وهو يعتقد أن العصر التاريخي الذي نقتحمه قد يعتبر يوماً ما فترةً بدائية للعصر الذري.

كل ذلك يدل على أن الكمال المودع من جانب الله تعالى في العالم المادي قد بلغ أقصاه، فلابد من شمول هذا التكامل أو الكمال عوالمَ الأنفس والأرواح، أي لا يستثنى من هذا الكمال الإنسان، فلابد من فطرة توجه الفرد الإنساني إلى معرفة ربه والقيام بالأعمال الصالحة.

وكمثال آخر على الكمال المودَع في العالم المادي وارتباطه بعوالم النفوس أقول: إن العلماء المحدثين قد حسبوا أنهم لو أرادوا أن يخترعوا جهازاً يقوم بما يقوم به العقل الإنساني من أعمال خارقة لاحتاجوا إلى جهاز بسِعة كرتنا الأرضية. وعلموا أيضاً أن الفكر أو الحكمة المبذولة في تركيب مفصل من المفاصل في البدن الإنساني لهي أعظم من الفكر المبذول في صنع القنبلة الذرية، مع وجود أجزائها من جانب الله تعالى في هذه الأرض قبلاً.

كما أن ظاهرة الطيران في الطيور بمراحلها الثلاث[1] هي من أعجب الظواهر الطبيعية، بسبب صعوبة القيام بها وتفسيرها تفسيراً قاطعاً علمياً مانعاً بل هي من المسائل التي لم يستطع علماء الطير حلها. فما أعظم ما أودع الله فيه من كمال!.

إن الكمال الذي أودعه الله تعالى في كل جزء أو جزيء من هذا العالم الرحيب يتجلى بوضوح لا مزيد عليه بحيث يوحي إلينا أن ليس في الكون المادي شيء إلا وقد

---

(١) الأولى وتعرف بالانزلاق: يبسط الطير فيها جناحيه دون أن يحركهما. والثانية وهي الدفيف: يضرب فيها بجناحيه رفعاً وخفضاً ضربات متتابعة، والثالثة: طيران الصف ويأتيه الطير بجناحين منبسطين فلا يحركهما.

بلغ أقصى مرتبة من مراتب الكمال أو هو متكامل، يتابع ما منَّ له من مراتب كمالية متسلسلة حتى يبلغ الغاية القصوى من الكمال المحدد له، مع العلم أن في كل مرحلة من مراحل الكمال من الدقة والتفكير ما يحير الألباب.

هذا ما نشاهده في العالم المادي. وإن العالم المادي مخلوق الله الكامل على الإطلاق. وبما أنه لا يترشح من الكامل على الإطلاق إلا الكمال، وجب أن يتجلى الكمال في كل زاوية من زوايا هذا الكون مع ارتباط بين الزوايا والأجزاء، ارتباط يحتم هذا التكامل ويشير أن الصانع له، واحد متفرد في الوحدانية لا يشاركه في خلقه إياه أحد: ﴿مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ﴾ [المُلك: الآية ٣].

إذن يجب أن لا تشذ عن سنة الكمال النفوس، هذه النفوس البشرية التي خلقها الله بإرادته وركب فيها توحيده وتقديسه بمشيئته وهو قوله تعالى: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَاۚ﴾ [الرُّوم: الآية ٣٠].

فقضية توحيد الله، تبارك وتعالى، أمر فطري داخل في ناموس الكمال العالمي، دون أن نحتاج إلى التمسك بـ (قاعدة اللطف). كل ذلك لأن الكامل على الإطلاق وهو الله تعالى لا يصدر عنه إلا الكمال. ومن أهم نقاط الكمال لهذا الإنسان: توحيد الله تعالى وتقديسه وتسبيحه.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾﴾ [النُّور: الآية ٤١].

ويقول تعالى: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾﴾ [البَلَد: الآية ١٠] أي طريقي الخير والشر. فقد ألهمنا الله تعالى طريق الخير وطريق الشر. فالإنسان محكوم لما تمليه عليه فطرته أو عقله الباطني قبل بعثة الرسل، وهكذا أولئك الذين لم تصل إليهم الدعوة الإسلامية. إنما أقول: الدعوة الإسلامية، ذلك لأن الإسلام، دين الله في أرضه منذ أن خلق آدم أول الأنبياء ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [آل عِمرَان: الآية ٦٧].

إنه تعالى يقول: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾ [الشمس: الآيتان ٧/٨].

لذلك، يرى الفرد في عنفوان حياته، وإن لم تبلغه تعاليم السماء، أنه ينكمش عند ارتكابه أول معصية ويتردد ويرتبك، كأن قوة خفية تدفعه عن اقتراف الذنب، لأن الله أودع في النفس الإنسانية بالفطرة هذا الرادع النفسي. وقد قال رسول الله ﷺ «العقل نور القلب، يفرق بين الحق والباطل»[١].

فالنفس الإنسانية تنكمش عند أول معصية والعقل الطبيعي: غير الملوث بالموبقات يمنعها ويردعها. فقد جاء في الحديث: «العقل ما عُبد به الرحمن واكتسب به الجنان»[٢].

ولكن هذه النفس لو تمادت في غيها وضلالها ولم ترتدع بنداء الفطرة تكون محكومة لشيطانها. فينسحب العقل.

يقول علي عليه السلام: «لو قارف عبد ذنباً فارقه عقل لم يعد إليه أبداً».

وقد قال رسول الله ﷺ ذات يوم لأصحابه: ألا أخبركم داءكم عن دوائكم، قالوا بلى، يا رسول الله. قال: داؤكم الذنوب، ودواءكم الاستغفار[٣].

إنه تعالى يقول: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ [الأعراف: الآيتان ١٧٢/ ١٧٣].

فالله تعالى قد غرس أسس التوحيد في النفس الإنسانية، عملاً بسنة الكمال، فالذي ينحرف، إنما ينحرف لظلمات في نفسه، جاءته من ناحية الذنوب وعدم القيام بمعطيات الفطرة: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَـٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَـٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَـٰلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ ﴿٣٨﴾﴾ [الزخرف: الآيات ٣٦/ ٣٨].

فالله الذي لا يصدر عنه إلا الكمال، قد أكمل الإنسان من النواحي الروحية: بأن غرس فيه أصول المعارف الإلهية، وقد جاء في الحديث: «كل مولود يولد على الفطرة، فإنما أبواه هما اللذان يهودانه وينصرانه ويمجسانه» لذلك، يقول أحد علماء

---

(١)،(٢) أصول الكافي: ج١، ص١١، كتاب العقل والجهل.

(٣) بحار الأنوار: ج٩٠، ص٢٨٢، باب ١٥.

الآثار: لا يمكن أن ترى منذ أن وجد البشر على وجه البسيطة جماعة، أو قرية أو ناحية مهما كانت صغيرة إلا ولها معبد يتعبد الناس فيه.

والفرق بين القوانين الكونية كقوانين الجاذبية العامة، قوانين الضوء الهندسي أو الحكمي أو قوانين تفاعل العناصر إلى ما هنالك، وفطرة النفس الإنسانية: إن هذه الفطرة (أو الإسلام والتوجه إلى الحق المتعال) قابلة للتحول، وليست كالمادة مسلوبة الاختيار والإرادة. فقد منَّ الله تعالى على هذا الإنسان بالإرادة بعد أن جهزه بعقل وأراه النجدين[1]. ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾ [الأنفال: الآية ٤٢].

فلا عذر لمن انحرف عن الصراط السوي واتبع هواه: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم ﴿١٤﴾﴾ [محمَّد: الآية ١٤].

وإن الله تعالى قد عرف الإنسان منذ أن خلقه، الشيطان ودسائسه: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ [فاطر: الآية ٦].

فعلى الإنسان أن لا يطيع الشيطان وأن لا يذعن لمكائده ودسائسه. مع العلم أنه ليس للشيطان أية سلطة على الإنسان: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ ۖ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾ [إبراهيم: الآية ٢٢].

يظهر مما أسلفنا أن سنة الكمال ضاربة بأطنابها في الجماد والنبات والحيوان والإنسان. وبما أن التكامل الإنساني بما هو إنسان ينحصر في المعارف الإلهية والأخلاق الفاضلة، لذلك، غرس الله تعالى أصول المعارف وأعني بها: التوحيد، وتقديس الله تعالى، الميل إلى العبادة والخشوع.

ذكر الله تعالى في الشدائد والتوجه إليه. إلى ما هنالك في النفوس البشرية تثبيتاً لسنة الكمال، هذه السنة التي لابد وأن تتحقق في كل ما خلق الله تعالى بصورة ضرورية، وقد أكمل الله ذلك بإرسال الرسل لهدوا الناس سواء السبيل ويعرفهم طرق السعادة المقربة

---

(١) طريقي الخير والشر.

إليه تعالى ويعلموهم الحلال والحرام على حد قول الإمام علي عليه السلام، إذ يقول: «وأرسل أنبياء ليثيروا في الناس دفائن عقولهم ويهدوهم إلى معايش تحييهم»[١].

فبعث الأنبياء أمر طبيعي، لابد من تحققه عملاً بسنة الكمال من جانب الله تعالى في هذا الكون أو الوجود، وتحقيقاً للكمال العالمي في الجماد والنبات والحيوان والإنسان والجن والملائكة.

ولما كانت تزكية النفوس من أهم عناصر الكمال لذلك جعل الله سبب بعث الأنبياء، التزكية. بقوله جلَّ من قائل: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ۝٢﴾ [الجُمُعَة: الآية ٢].

وأما الرحمة فهي من صفات الله تبارك وتعالى وكذا اللطف، وهو القائل: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَـٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأنعام: الآية ٥٤]. ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ۝٦٣﴾ [الحج: الآية ٦٣] ﴿ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ۝١٩﴾ [الشورى: الآية ١٩].

فلطف الله تبارك وتعالى يأتي بعد هذا الدور التكاملي، ليمنّ على من يشاء من عباده بالتوبة ومزيد النعمة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾ [الأحزاب: الآية ٣٤].

سنة الكمال في الكون الرحيب

إن نظرة واحدة إلى هذا الكون الواسع الأرجاء وما فيه من نظم وقوانين وعلاقات تكاد لا تتناهى توصل الإنسان إلى هذا الحكم القطعي أن سنة الكمال ضاربة بأطنابها في هذا الكون المادي الرحيب إلى أبعد الحدود.

فتكوَّن الشمس والأرض والقمر والكواكب وملايين النجوم في ملايين من المجرات وملايين الشموس التي هي على الأكثر أكبر من شمسنا هذه، قد جرى تحت

---

(١) نهج البلاغة: ص٤٣.

قوانين رياضية وطبيعية ثابتة أودعها الله هذا الكون. وهو مما يدل على أن الخالق لهذا الكون قد بلغ من القدرة والتدبير إلى حد لا يتناهى وأن ما وصل إليه هذا الإنسان من معلومات ودساتير لا يعادل شيئاً مما هو كائن أو يكون.

إن نسبة علم الله تعالى إلى علم الإنسان المحدود هي نسبة المحدود إلى غير المحدود أو نسبة المتناهي إلى غير المتناهي أي كنسبة $\frac{ب}{\infty}$، ومآل هذه النسبة لا محالة هو الصفر.

والقرآن الكريم هو أول كتاب علَّم الناس العلاقة بين الرياح وهبوبها وتكاثف بخار الماء بإثارة السحب ونزول المطر وذلك بقوله جلَّ من قائل: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ﴾ [الرُّوم: الآية ٤٨].

فمن سنة الكمال هذه الدورة المائية التي نشاهدها ما بين البحار والمحيطات وجو الأرض. فإن أشعة الشمس تعمل على تبخير المياه من سطوح المحيطات، وعندما يحمل الهواء هذه الأبخرة إلى أعلى وتبرد، تتحول إلى نقط من الماء أو بلورات من الثلج أو هما معاً داخل السحب، ثم لا تلبث أن تنهمر هذه المكونات إلى سطح الأرض وتعود إلى المحيط من جديد إما مباشرة أو عن طريق الأنهر أو المياه الجوفية... الخ. ولا سبيل إلى إيقاف هذه الدورة.

هذه دورة واحدة من دورات الحياة ومثلها توجد دورات تعد بالعشرات في شتى حقول الحياة من عضوية وغير عضوية يعزى إليها استمرارية الحياة في هذا الكون بأمر من الله تعالى. وهناك أيضاً دورات أخرى لا تعد ولا تحصى خارج منظومتنا الشمسية لا يعلمها إلا الله تعالى.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ[1] وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾﴾ [إبراهيم: الآيات ٣٢/ ٣٤].

---

(١) دائبين: جاريين في فلكهما لا يفتران.

وقد جعل الله تعالى غاز الأوكسيجين أساس الحياة على الأرض، إذ تستنشقه الكائنات الحية، فيحدد نقاء الدم فيها ويكسبها القدرة على العمل وهو يخرج مع هواء الزفير في صورة غاز (ثاني أوكسيد الكاربون)، ويذوب الأوكسيجين في الماء (٠,٤ سانتيمتر مكعب منه يمكن أن تذوب في غرام واحد من الماء في الأحوال العادية). ولذوبانه هذا في الماء أهمية عظمى، إذ تستمد الحيوانات والنباتات المائية ما يلزمها للتنفس من الأوكسيجين المذاب في الماء.

والغلاف الهوائي فوق الأرض طبقات مرصوصة من الهواء بعضها فوق بعض. ونجد أن أكثر الطبقات كثافةً وتضاغطاً هي الطبقات القريبة من سطح الأرض، حيث يتركز نحو نصف كتلة هواء الأرض بأسره في الستة الكيلومترات الأولى، بينما ينتشر النصف الآخر في الطبقات التي تعلو ذلك وتمتد إلى مشارف الفضاء الكوني.

وكلما نقص الهواء في المرتفعات (أي مع الارتفاع) نقص كميات الأوكسيجين كذلك، بحيث أننا إذا بلغنا ارتفاعاً معيناً لا يكفي الأوكسيجين الجوي للتنفس، ويشعر المرء إذ ذاك بضيق الصدر والاختناق.

وإن القرآن الكريم قد أوضح ذلك قبل كشف هذه الحقيقة من قبل علماء الطبيعة، يقرون. وذلك بقوله جلَّ من قائل؛

﴿وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأنعام: الآية ١٢٥].

* * *

رغم محاولة الإنسان مدة مديدة لمعرفة كيفية تكوُّن العالم، فإنه لا يزال في دور التخمين والحدس. ولذلك قلّما نجد علماء العصر الحاضر يتصدون إلى وضع نظرية مبنية على أسس علمية من شأنها أن توضح كيفية تكوّن العالم بأجمعه وأن ما وضع من نظريات لحد اليوم تجرح وتعدَّل من حين إلى حين وهي بعيدة عن الواقع كل البعد. إنه تعالى يقول: ﴿۞ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾﴾ [الكهف: الآية ٥١].

غير أن النظام الشمسي بمفرده ليس مجهولاً تمام الجهل، والحقائق الكثيرة التي نعرفها عنه حدت بعدد غير قليل من العلماء إلى وضع بعض الآراء والنظريات عن كيفية حدوثه وتكونه.

منها: أن النظام الشمسي لم يتألف ولم يكتسب شكله الحالي بطريق الصدفة، فأجزاء المادة التي تتصل كيفما اتفق بالشمس (كالمذنبات وما شابهها) لا يعقل أن تجتمع كلها في مستوى واحد على وجه التقريب وأن تكون مداراتها وأفلاكها قليلة التفلطح (على شكل قطع ناقص) وقريبة من الدائرة. فلو كانت السيارات قد التحقت بالشمس عن طريق الصدفة لاقتضى أن تكون أفلاكها ومداراتها مختلفة التفلطح والميل بشتى الأشكال. غير أنا نرى أن النظام الشمسي مرتبط بعلائق كثيرة منظمة منها:

١ ـ أن مدارات الكواكب أو السيارات حول الشمس بأجمعها على شكل اهليليجي (القطع الناقص) تقرب من الدائرة.

٢ ـ تقع هذه الأفلاك أو المدارات بأجمعها في مستوى واحد تقريباً (ما عدا أفلاك النجيمات).

٣ ـ أن الكواكب أو السيارات تدور بأجمعها حول الشمس باتجاه واحد.

٤ ـ تبعد الكواكب أو السيارات عن الشمس بعداً منتظم الاطّراد.

٥ ـ أن المستويات التي تدور فيها الكواكب أو السيارات على محورها تنطبق تقريباً على المستويات التي تدور فيها حول الشمس.

٦ ـ أن اتجاه دوران السيارات (الكواكب) على محورها هو نفس اتجاه دورانها حول الشمس.

٧ ـ تدور أقمار السيارات والكواكب حولها في مستوى ينطبق تقريباً على مستوى دوران الكوكب (السيارات) حول الشمس.

٨ ـ أن أقمار الكواكب (السيارات) تدور على الغالب في نفس الاتجاه الذي تدور فيه السيارات والكواكب حول الشمس.

٩ ـ أن السيارات أو الكواكب الضخمة هي أسرع السيارات في الدوران على محورها.

فهذه العلاقات المنظمة توحي إلينا أن يداً قديرة أنشأت هذه الأفلاك والكواكب بحكمة فائقة ونظام بديع إلى أبعد الحدود. ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعۡفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعۡدِ ضَعۡفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعۡدِ قُوَّةٍ ضَعۡفًا وَشَيۡبَةً يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُ وَهُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡقَدِيرُ ﴿٥٤﴾﴾ [الرُّوم: الآية ٥٤].

* * *

وكمثال على أن النظريات التي توضع من قبل العلماء ولا تؤيدها التجارب والحوادث المتأخرة نذكر نظرية (بوفون).

قال (بوفون): إن الأرض وما يدور حولها من كواكب كانت في بداية الأمر كتلة غازية نارية مندمجة في الشمس، وأنها انفصلت عن الشمس على أثر تصادمها مع مذنب أو مذنبات كبيرة. فكل مصادفة من هذا النوع كانت تؤدي إلى انشطار كتلة عظيمة من الشمس وتشكل إحدى السيارات (الكواكب).

ولقد فُنِّدت هذه النظرية لعلمنا أخيراً عن تركيب المذنبات وقواعد الميكانيكا. ذلك لأنه:

١ ـ لم يشاهد لحد اليوم مذنب ذو كتلة كبيرة تصطدم بالشمس، فتقذف على أثر هذه المصادمة كتلاً كبيرة كالكواكب.

٢ ـ لو كانت السيارات قد انفصلت عن الشمس على أثر تصادم جسم غريب لوجب أن تكون مدارات السيارات (الكواكب) مفلطحة تفلطحاً كبيراً طولانياً بمقتضى قواعد الميكانيكا.. أي وجب أن تكون نسبة نصف القطر القصير إلى نصف القطر الطويل كسراً بعيداً عن الواحد.

إن أشهر النظريات اليوم في تكوّن المنظومة الشمسية هي نظرية وضعها الفيلسوف الألماني (عمانوئيل كنت) وأصلحها العالم الفرنسي الرياضي الشهير (لابلاس) في أوائل القرن التاسع عشر الميلادي، وقد حاول لابلاس أن يطبقها على القواعد الرياضية، فجاءت كما يلي:

١ ـ أن المادة التي تتألف منها الشمس والكواكب كانت فيما مضى مبعثرة بشكل (سديم) كبير.

٢ ـ وأن هذا السديم الغازي كان شديد الحرارة منتشراً كالسحاب.

٣ ـ فلما برد قليلاً تجاذبت دقائقه نحو مركزها المشترك فدار على نفسه في الجهة التي تدور فيها السيارات حول الشمس وكان دورانه مداً عن اختلافات عرضية في كثافات أجزاء السديم الأصلي وشرعها، ثم استمرت الحرارة على الانتشار، فازداد بذلك تكاثفاً وانقباضاً وازدادت سرعته الدورانية على أثر انقباضه لأسباب ميكانيكية.

٤ ـ فكان من جراء هذه الحركة الدورانية أن تفلطحت تلك الكتلة الكروية عند القطبين واستمر هذا التفلطح حتى أتى يوم أصبحت فيه قواعد التباعد عن المركز في الأجزاء الاستوائية مكافئة لقوة الجذب نحو المركز، فانفصلت على أثر ذلك حلقات سديمية تماثل حلقات زحل من تلك الأجزاء الاستوائية.

٥ ـ وكانت الحلقة المنفصلة حين انفكاكها تدور بأجمعها حول السديم الأصلي مدة مديدة من الزمن، ثم تنفرط فتتجمع دقائقها بشكل كرة غازية وتأخذ هذه الكرة بالدوران حول الكتلة الأساسية، فتتشكل بهذه الصورة إحدى السيارات (أو الكواكب).

٦ ـ والسيارة بدورها كانت تتعرض لنفس الحالة التي تعرَّض لها السديم الأصلي. فتنفصل عنها حلقات سديمية يؤول بها الأمر إلى تشكيل أقمار لتلك السيارة. أما حلقات زحل فإنها احتفظت بشكلها حتى الآن؟

* * *

إن النظريات التي تؤسس لحل مشكلة النظام الشمسي أو تكوّن العوالم التي خلقها الله تعالى بقدرته وقدَّر فيها أقواتها في هذا العالم الرحيب من مجرات لا تعدُّ مجرات في كل منها ملايين النجوم وملايين الشموس التي تبعد عنا مسافات لا تقدر بملايين الأميال على ما ثبت أخيراً، هي نظريات مضطربة، قلقة، تعدَّل من حين لآخر كلما عثروا على ظاهرة لا يمكن أن تفسر على النظرية الموضوعة. ذلك، لأن الإنسان لم يقف بعد على جميع ما أودع الله من قوانين في علم الميكانيك السماوي، وما وضع من خواص تكاد لا تتناهى في العناصر والأجسام. وهذه النظريات محاولات علمية تكشف عن بعض ما أودع الله من قوانين ميكانيكية وخواص طبيعية في هذا الكون الرحيب.

يقول الله تبارك وتعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا﴾ [الأنبياء: الآية ٣٠] . فالله تعالى يخبرنا في الآية المتقدمة، أن كل ما في هذا الكون المادي من أجرام ونجوم وشموس وأقمار ومجرات ونيازك وسدم وغازات كل ذلك كان في بادئ الأمر، بأمره تعالى، ملتصقة بعضها بالبعض الآخر، وأنها انفصلت وتناثرت بقوله جلَّ من قائل: كُن، حسب ما يريد وتباعدت وصارت تدور في مدارات اهليليجية أو شبه دائرية حسبما سنَّ الله من قوانين ميكانيكية وخواص معينة فيما خلق من عناصر: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ [يس: الآية ٨٢] .

لذلك يعتقد علماء العصر الحاضر أن السديم هو الحالة الابتدائية للنجوم أو المجموعات النجمية، وأنها في الوقت الحاضر في حالة التكاثف والتقلص. ولذلك. لابد وأن تنتج آجلاً أو عاجلاً مجموعة من الكواكب أو عدداً من الشموس المماثلة لشمسنا .

إن السُدم[1] تختلف اختلافاً تاماً عن الكواكب المجتمعة وإن شابهتها في ظاهرها. فإنها لا تنحل إلى كواكب مستقلة لا بالمرقب ولا بالتصوير الشمسي، كما أنه يتبين من التحليل الطيفي[2] أنها تتألف من مواد غازية محتوية على عنصر يجهله علماء الكيمياء على الأرض، ويدعونه (الغاز السديمي) نسبة إلى السديم .

وقد قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾﴾ [فُصلَت: الآية ١١] .

وقوله تعالى في سورة: الدخان:

﴿يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ يَغْشَى النَّاسَ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١﴾﴾ [الدّخان: الآيتان ١٠/١١]. إن أشكال السدم تختلف اختلافاً كلياً. فبعضها تظهر بشكل منظم كروي أو لولبي أو عدسي أو حلقي وأما البعض الآخر فيظهر في أشكال غير منتظمة لا يمكن حصر أنواعها .

---

(١) السدم: جمع سديم.

(٢) إن أطياف النجوم وتحليل ضوءها الأبيض وما يظهر من خطوط عند التحليل تعرفنا على ما في النجوم من عناصر وذلك بعد قياس طول موجات تلك الخطوط الطيفية.

وإن الرصد قد أظهر أن منظر السديم يتغير كلما ازدادت قوة تكبير المرقب (تلسكوب) حيث تبدو عندئذ بعض أقسام وفروع لم تكن مرئية في المراقب الضعيفة أو المتوسطة، وهكذا ترى أنه كلما اتسع أفق العلم في اختراع مراقب كبيرة والوقوف على خواص الذرة ومعادلاتها المعقدة وفي الميكانيك السماوي والتحليل الرياضي كلما شاهدنا عوالم أخرى فأخرى إلى حيث لا يتناهى في هذا الكون الرحيب.

﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَـٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَـٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾﴾ [الكهف: الآية ١٠٩].

* * *

لنتكلم قليلاً عن المجرة. لو نظرنا إلى السماء في ليلة ظلماء لا قمر فيها ولا نور لرأينا منطقة طويلة تمتد فوق رؤوسنا كالقوس، يمتد من أفق إلى أفق وقد تركزت فيها النجوم بمقدار كثير، وتكثفت فيها إلى حد بعيد، بعضها فوق بعض. وبما أن هذا المنظر يكاد يشبه بياض ماء النهر في سواء الأرض، لذلك سمي بالمجرة أي النهر الجاري.

وقد سميت المجرة من قبل العامة بسكة التبانة، أو درب التبانة، كأن هنالك تبناً منثوراً سقط من تبان عند سلوكه طريقاً من الطرق. وقد سماها اليونانيون (طريق اللبن).

فالمجرة مجموعة نجوم كثيرة جداً عدد الرمل، وفي المجرة من السدم ما يحول بيننا وبين ما ورائها من نجوم.

يمكن تشبيه المجرة إلى قرص مفرطح كالرغيف ولو أننا جعلنا للرغيف قطراً وجعلنا له ارتفاعاً لكان قطر القرص أو المجرة عشرة أمثال ارتفاعه.

إن مجرة درب التبانة التي تضم كوكبنا يبلغ قطرها حوالي مائة ألف سنة ضوئية. وبما أن الضوء يقطع في سنة واحدة مسافة قدرها ٩,٥ مليون مليون كيلومتراً إذن قطر مجرتنا هذه يساوي مائة ألف مضروباً في تسع ونصف مليون مليون كيلومتراً.

ولما كانت شمسنا هذه نجماً لا يعتد به، يقع على مسافة حوالي ٣٠ ألف سنة ضوئية من مركز المجرة ويدور في مدار خاص به كل ٢٠٠ مليون سنة أثناء دوران

المجرة. وبهذا ندرك مدى صعوبة تصوُّر المقياس الهائل للكون الذي يقع وراء المجموعة الشمسية.

إن الفضاء الذي يقع بين النجوم في مجرتنا ليس نهاية هذا الكون، فوراءه، ملايين من المجرات الأخرى، تندفع جميعاً، كما يبدو، مبتعدة عن بعضها البعض بسرعات خيالية ، قد تبلغ نصف سرعة الضوء في الثانية أي حوالي ١٥٠٠٠٠ كيلومتراً في الثانية، وتمتد حدود الكون الذي يمكن رؤيته بالمجهر مسافة ٢٠٠٠ مليون سنة ضوئية على الأقل في كل اتجاه. وهو قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [الذّاريَات: الآية ٤٧] .

إن ما ذكرناه من مسافات ومجرات يعرفنا ضخامة هذا الكون الرحيب، وهكذا يرى أن أصغر شيء مادي أو أصغر جسيم عرف لحد الآن أي الذرة تشبه في تركيبها المجموعة الشمسية غاية الشبه، ذلك لأن الذرة مكونة من الكترونات تدور بسرعة هائلة حول النواة (المركز) أي حول البروتون.

هذا ويرى الإنسان أن أصغر شيء في هذا الكون وأعني به الذرة إلى أضخم شيء يمكن تصوره وهو المجرات الضخام التي تبعد عنا آلاف الملايين من السنين الضوئية كلها تسير في مدارات مرسومة محددة في علاقة كل منهما بالآخر.

قد بلغ رائدوا الفضاء إلى حوالي سرعة قدرها (٢٩) ألف كيلو متراً في الساعة في الدوران حول الأرض أي حوالي ٨ كيلومترات في الثانية، وهي سرعة كبيرة تماماً بالنسبة إلى مقاييسنا الأرضية، وهذا الرائد يكون إذ ذاك على ارتفاع ١٦٠ كيلو متراً عن سطح الأرض.

فكوننا هذا يضم ألوف الملايين من المجرات وكل مجرَّة منها تحوي ألوف الملايين من النجوم، وعند الحافة الخارجية لإحدى هذه المجرات وهي مجرة طريق التبانة أو (درب التبانة) نجم متوسط الحجم معتدل الحرارة ازداد لونه اصفراراً بسبب الشيخوخة. . . هو شمسنا.

والأرض واحدة من أجزاء مختلفة بدأت بأمر من الله في يوم ما بطريقة لم تعرف

(ولن تُعرف) تدور حول الشمس. ولا يزيد سمك قشرة الأرض على بضعة كيلومترات. تحتها صخور منصهرة ومعادن تغلي وسط حرارة شديدة. لا يمنعها من أن تتحول إلى لهيب إلا الغلاف الذي يحولها من (الغرانيت والبازلت). وبين هذين النارين حيث الجمرات المكدسة لهذا الجزء الذي نعيش فوقه من هذا النجم البارد والنجم المتوهج الذي نرتبط به، يقف الإنسان في الحياة مع الطيور والحيوانات ولكن ما أضعفهم جميعاً: ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾ [النِّساء: الآية ٢٨].

فهذه الشركة من الحياة يمكن أن تفنى إذا حدث أي تغيير دائم لنسبة ضئيلة من طاقة الشمس سواء بالزيادة أو النقصان.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا(١) مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ﴾ [فَاطِر: الآية ٤١].

فأرضنا هذه إنما هي هباءة في موضع مدحور، قرب الطرف من مجرة (درب التبانة) التي فيها مئات الملايين من النجوم. على أن هنالك مئات الملايين من المجرات وفي كل مجرة مئات الملايين من الأنجم. إذن، ما قيمة هذا الإنسان بالنسبة إلى ما خلق الله تعالى مما لا يتناهى من عوالم، هي من حيث الكبر أضعاف أضعاف أرضنا هذه، فليدع الإنسان من نفسه الغرور:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ۝٦ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ۝٨﴾ [الإنفطار: الآيات ٦/٨]. وليعبد ربه: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾ [الذّاريَات: الآية ٥٦]. وليعلم أنه لم يُخلق عبثاً: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ۝١١٥﴾ [المؤمنون: الآية ١١٥]، ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ۝٣٨ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝٣٩﴾ [الدخان: الآيتان ٣٨/ ٣٩]. ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ۝١٦ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ۝١٧﴾ [الأنبياء: الآيتان ١٦/ ١٧].

على الإنسان أن يعبد ربه بجميع ما في العبادة من معنى سامٍ رفيع، يعبد ربه

---

(١) إن أمسكهما: أي: ما أمسكهما.

بخشوع وخضوع في صلاة يؤديها لوجه الله، يعبد ربه بقيامه بأداء حقوق الوالدين والأرحام والأصدقاء، وبقضاء حوائج الناس ودفع الكُرب عنهم. فقد جاء في الحديث: «من أصبح ولم يهتم بأمور المسلمين فليس منهم»، يعبد ربه بنشره حقائق الإسلام بين الناس ولاسيما بين المثقفين بثقافة العصر، فما أحوجهم إلى تفهم الإسلام تفهماً صحيحاً لا شائبة فيه، وبتضحيته بنفسه ونفيسه في سبيل نشر الإسلام في أرجاء الأرض، فلا أجر أعظم من أجر من قام ببث حقائق الإسلام في العالم، فقد قال رسول الله ﷺ حين أوفد علياً عليه السلام إلى اليمن: «يا علي، لئن يهد الله بك رجلاً واحداً كان خيراً لك مما طلعت عليه الشمس»[1].

* * *

ولنعد إلى هذا الكون الرحيب وما أودع الله فيه من سنن الكمال. نحن لا نزال ضمن نطاق مجرتنا (درب التبانة)، فإذا انتقلنا إلى المجرات الأخرى وجدنا أرقاماً لا تكاد يصدقها العقل. فالتلسكوبات الحديثة اكتشفت مجرات على بعد ألف مليون سنة ضوئية وأكثر. ويقدّر (شارليه Charlier) أن قطر الكون (حسبما توصل إليه علم البشر أخيراً) عشرة آلاف مليون سنة ضوئية. أي أن الحادث الذي يحدث في مجرة واقعة طرف الكون لا تعلم (أو يستحيل أن تعلم به) مجرة في الطرف الآخر قبل مرور عشرة آلاف مليون سنة من سنواتنا.

فالكون واسع جداً، مترامي الأطراف، كل شيء فيه في حركة مستمرة منتظمة، ولا يوجد رابط زمني يربط ما بين أجزائه حسب نظرية (أينشتين) فكلمة: (الآن) لا معنى لها إلا في هذه الأرض!.

* * *

إن علماء الطبيعة الفلكية يعلنون أن ليس هناك نجوم ثابتة. خذ مثلاً: النجمين الشهيرين (نيِّر التوأمين) و (رأس هرقل) اللذين عرفا دائماً بأنهما: (زوج واحد)، وقد

---

(١) الكافي: ج٥، ص٢٨، باب وصية رسول الله ﷺ.

بلغ من تقاربهما في السماء، وتقارب نفس الدرجة من البريق بينهما وعدم التغير في ملازمة كل منهما للآخر، أن العلماء كانوا يسمونهما بالتوأمين. إلا أن التلسكوب والمرقب الطيفي واللوحات الفوتوغرافية تقول: أن لا صلة بين هذين النجمين في أية ناحية من النواحي. فهما يسيران في طريقين مختلفين، والأول يبعد عن الأرض أكثر من مرة ونصف مرة من المسافة التي يبعدها عنها النجم الثاني. والواضح أن هذين النجمين غريبان عن بعضهما البعض. تصادف فقط ظهورهما مقتربين إلى حد ما عندما ننظر إليهما من موقعنا الحالي على ظهر الأرض. أما بالنسبة للكون المترامي الأطراف الذي فيه ما لا يعد من نجوم، فإنه لا يظهر فيهما أي تغيير محسوس، وهما دقيقان نسبياً في حركتيهما عبر السماء بالمقارنة مع أعماق الفضاء. ولا تستطيع العين البشرية أن تدرك الفروق بينهما من مثل هذا الفضاء الفسيح.

ولكن الكثير يختفي من عيوننا. فنحن إذا ركزنا اهتمامنا من خلال التلسكوب على (نير التوأمين) وحده، وجدنا أنه ليس نجماً واحداً، بل نجمان، يفصل بين كل منهما والآخر مسافة تزيد مائة ضعف على المسافة بين الأرض والشمس. وأننا عندما نستخدم أكثر الأجهزة دقة في المراصد نكتشف أن ما يبدو للعين نجماً واحداً ثابتاً هو في الواقع مجموعة تضم ستة نجوم معاً، في ثلاثة أزواج، يدور كل نجم منها في فلك خاص وبسرعة خاصة.

ولما كان رجال البحر يعرفون الحالة الداخلية الحقيقية للنجم (بير التوأمين) والدوامات التي تدور في داخله ودوراته السريعة في مكانه القديم المعتاد في خريطة النجوم، فإن ذلك يجعله علامة ثابتة تصلح للاسترشاد بها في قيادة السفن.

وقد أثبت علم الفلك الحديث أن السماء الهادئة مكان لا تناسق فيه، يحوي شموساً لا حصر لها، تندفع في كل اتجاه تقريباً بمفردها أو في أعداد كثيرة، كأنها جزيئات متحركة لغاز من الغازات.

فالنجم (النسر الواقع) يقترب بسرعة تبلغ ١٣ كيلومتراً في الثانية، بينما يتراجع النجم (الدبران) بسرعة ٥٣ كيلو متراً في الثانية. و حارس السماء يعبرها بسرعة

١٣٥كيلو متراً في الثانية. . أما نجما الطرفين من (العُطاس الكبير) فيتحركان في اتجاه واحد، في حين أن نجوم هذه المجرة الأخرى تتجاذب بسرعة عظيمة في الاتجاه المضاد.

* * *

ونجمنا الذي نعيش فيه ليس مستثنى من ذلك، فإن الشمس تدور في طريق شاهق نحو الحافة الخارجية بطريق التبانة بسرعة ١٩ كيلو متراً في الثانية وهي تجر الأرض في أذيالها ومعها كل الكواكب الأخرى، وقد تحقق قوله تعالى (وهو الحق الأزلي): ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾﴾ [يس: الآية ٣٨].

وفي نفس الوقت تدور المجموعة الشمسية في قوس هائل بسرعة ٢٤٠ كيلو متراً في الثانية، بينما تدور المجرة نفسها كعجلة ضخمة من النجوم. إن كل شيء في هذا الكون إنما يشاهد كما كان، لا كما يكون. فنحن نرى الشمس كما كانت منذ ثمان دقائق وعشرين ثانية مضت، ونرى النجم الشعرى كما كان منذ تسع سنوات ونرى (برج الثريا) كما كان منذ ٥٠٠ عام. ذلك لأن وصول شعاع (برج الثريا) إلينا يستغرق ٥٠٠ عام. وقد تميز العين في ليلة صافية لا قمر فيها سحابة من الضوء الباهت لا تزيد على القمر، تدور في برج (المرأة المسلسلة)، وهذه سحابة واحدة من المجرات الخارجية، وهي تبدو لنا كما كانت منذ مليوني عام. أما ما حدث لنجومها التي لا تحصى بعد ذلك، فشيء لا يمكننا معرفته.

وبرج (المرأة المسلسلة) يقع عند الحد الخارجي للرؤية بالعين المجردة ولكنا قد نصل بالتلسكوب إلى ملايين السنين من ماضي هذا الكون. وعندما نستخدم لوحة فوتوغرافية حساسة في أقوى تلسكوب، فقد تصل بنا إلى ألوف الملايين من السنين. وقد أطلق على أشعة هذه الأجسام البعيدة اسم. (الضوء الحفري)، وهي تسبق في تاريخها، حقاً، أكثر الحفريات التي وجدت على سطح الأرض. وأن الإنسان ليعجب كيف يمكن وقف ضوء بمثل هذا الضعف بواسطة طبقة غازية رقيقة أو ذرة من الغبار وهو قادر على أن ينطلق بأقصى سرعته المستمرة وقدرها ٢٩٩٨٦٠ كيلو متراً في الثانية

أو ٣٠٠,٠٠٠كم في الثانية تقريباً طيلة ملايين السنين. وهذه الإشعاعات تظهر الفراغ النسبي للفضاء بالمقياس الرحب لهندستها المعمارية: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ۝٨ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ۝٩﴾ [الرّعد: الآيتان ٨/ ٩]. ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [النّمل: الآية ٨٨]. ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٥﴾ [يُونس: الآية ٥] ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢﴾ [الأعلى: الآيتان ١/ ٢]. ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: الآية ٥٠].

* * *

وإذا صورنا قطاعات معينة من السماء استطعنا إجراء إحصاء للنجوم. ففي مرصد جامعة (هارفارد) صورة فوتوغرافية تحوي صور أكثر من ٢٠٠٠ مجرة خارجية وألفي طريق للتبانة ويقدر العلماء عدد المجرات التي يحويها الكون ٥٠٠ مليون مجرة وقد علم بطرق علمية أن مجرة درب التبانة تحوي حوالي (١٠٠) ألف مليون نجم.

نعلم من كل ما تقدم أن الكون واسع جداً، لم يبلغ البشر مع هذا التقدم العلمي في عوالم المادة إلا إلى جزء ضئيل منه، وسيقف على شيء من عظمة هذا الكون كلما اتسع أفق العلم، لاسيما علم الذرة والرياضيات العالية والميكانيك السماوي وسيعلم حتماً أن ليس هنالك: (عبَثية أو عَشوائية) في هذا الكون: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ۝١١٥﴾ [المؤمنون: الآية ١١٥].

نعم، جاء (أينشتاين) بقوانينه لنفي العبثية عن الكون وليثبت أن الظواهر الكونية كلها تخضع لقوانين رياضية ثابتة، هي أشبه بالنواميس الإلهية، تتحكم في الكون الذي غدا وجوداً هندسياً بديعاً. وقد حلَّت القوانين الرياضية والنظام محل العبثية والفوضى في نظر المتطرفين.

* * *

وكمثال لما أودع الله من نظام ودقة في الكائنات الدقيقة نذكر ميكروب (كوكات البكتريا) الدقيقة الحجم. فإن طول كل من هذا الميكروب (ميكرون) واحد.

والميكرون يساوي جزءاً من ألف جزء من الميليمتر نعم، أي إنا إذا صففنا ألفاً من هذه الكائنات التي يبلغ طول كل منها ميكروناً واحداً لوجدنا أن طول هذا الصف عبارة عن ميليمتر واحد. فإذا أخذنا سطحاً مربعاً طول ضلع من أضلاعه ميليمتراً، فإننا نستطيع أن نضع على تلك المساحة الصغيرة مليوناً من تلك الميكروبات: (١٠٠٠ × ١٠٠٠ × ١٠٠٠) فإذا عرفنا أن مجموع سكان الكرة الأرضية في مختلف الممالك والأقطار يصل إلى ما يقرب من ثلاثة آلاف مليون نسمة فإننا ندرك بسهولة أن مثل هذا العدد من الميكروبات يمكن حشده فيما يعادل ٣ ميلميتر مكعب فقط.

ولتوضيح هذه الدقة في الحجم نأخذ مثلاً ميكروب الملاريا. «والميكروب في هذه الحالة عبارة عن حيوان أولي دقيق». فإذا لسعت البعوضة الناقلة للملاريا إنساناً سليماً فإنها تنقل إليه أعداداً كبيرة من الميكروبات الموجودة في لعابها. وتصل هذه الميكروبات الدقيقة إلى الدم حيث تبدأ في مهاجمة الكرات الحمراء إذ يقتحم كل واحد منها إحدى هذه الكرات حيث يثقب غشاءها الخارجي دافعاً نفسه إلى الداخل، وعند استقراره داخل الكرة الحمراء يتخذ من محتوياتها غذاءاً له فيلتهمها تدريجياً حيث ينمو ويزداد حجمه ثم يأخذ بعد ذلك في الانقسام إلى ميكروبات جديدة، ويتم كل هذا داخل الكرة الحمراء ولكن ما هو حجم هذه الكرة التي يتخذ منها الميكروب مسكناً له يتسع لاستقراره ونموه وتكاثره؟. . الواقع أن الكرة الحمراء نفسها دقيقة الحجم جداً. ولا يمكن رؤيتها بالعين المجردة. إذ يبلغ قطرها حوالي ٨ ميكروناً، ويوجد فيها ما يقرب من ٥ ملايين كرة في الميليمتر الواحد من الدم العادي. إذا كان هذا هو حجم الكرة الحمراء فإننا نستنتج بلا جدال أن الميكروب الذي يستوطنها أصغر منها بكثير.

فإذا اتخذت الكرة الحمراء ـ وهي معروفة لدينا جيداً لأنها تسبح في دمائنا بأعداد لا حصر لها ـ كوسيلة للمقارنة فإنها تحتل مركزاً متوسطاً في عالم الأحجام الدقيقة[١].

وقد ثبت أن جميع الميكروبات تشترك في صفة واحدة هامة وهي استمرار حياتها بصفة لا نهائية. فبينما تموت النباتات والحيوانات على اختلاف أنواعها بعد فترة زمنية

---

(١) صراع مع الميكروب، للدكتور: محمد رشاد الطوبي، ص: ٤.

ـ تطول أو تقصر تبعاً للنوع ـ نرى أن الميكروبات لها حياة مستمرة، فإن الميكروبات، لا تموت إلا في الظروف الخارجية الطارئة كتعريضها للحرارة الشديدة أو معالجتها بالمركبات الكيميائية القوية التي تقتلها. وأما في الظروف العادية فحياتها مستمرة.

وتتضح هذه الحقيقة من طريقة تكاثرها. فالخلية الميكروبية. وهي كما ذكرنا دقيقة الحجم. تتغذى وتنمو ثم تنقسم إلى نصفين، يكون كل منهما ميكروباً جديداً، ويعيد كل من هذين النصفين القصة من جديد. فينقسم كل منهما إلى نصفين آخرين وهكذا في متوالية هندسية لانهائية أساسها: ٢

(١، ٢، ٤، ٨، ١٦، ٣٢، ٢,٠٠٠$^{ن-١}$).

ويتم تكاثر الميكروبات بسرعة مذهلة عند وجود الظروف الملائمة. إذ تنقسم الخلية الميكروبية في بعض أنواع البكتريا بعد نصف ساعة فقط من وجودها. ومعنى ذلك أن الجيل الجديد ـ وهو الذي يستغرق ظهوره في حالة الإنسان عدة سنوات ـ لا يحتاج إلا إلى نصف ساعة فقط، ومعناه أيضاً أن هناك ثمانيةً وأربعين جيلاً متتابعاً في اليوم الواحد. فما بالك بعدد الأجيال التي تتكون في سنة واحدة أو في عدة سنوات. لا شك أن العدد يتضاعف إلى درجة يصعب على العقل إدراكها أو تصورها من ضخامته[(١)].

* * *

فلنعد إلى النجوم ولننظر إلى ما تقوم به من حركات معينة وفق دساتير رياضية متقنة حسبما حدده الله تعالى، فهذه النجوم تسبِّح الله تعالى في حركاتها ومداراتها: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍۢ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾﴾ [النُّور: الآية ٤١]. ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١﴾﴾ [الحَديد: الآية ١]. ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ [الإسراء: الآية ٤٤].

فكل شيء في هذا الكون خاضع لله، يسبح الله تعالى بأنواع التسبيح سواء أكان هذا الشيء مادياً أو غير مادي، ذلك لأن مآل المادة: الذرات، وهي القوى الكهربائية من موجبة وسالبة، هي الطاقات. والطاقات تسبح الله تعالى كما يسبح الإنسان

---

(١) صراع مع الميكروب، للدكتور: محمد رشاد الطوبي، ص: ١١.

والحيوان، ولكنا لا نفقه تسبيحها ﴿وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: الآية ٤٤].

فالجبال تسبح الله تعالى مع داود عليه السلام: ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ﴾ [سبإ: الآية ١٠].

قال تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ [الحشر: الآية ٢١]. ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾﴾ [الأحزاب: الآية ٧٢].

نعم، كل ما في السماوات والأرض خشوع لله وخضوع... لا يستثنى شيء أبداً. وهو القائل.

﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾﴾. [مريم: الآيات ٩٣/ ٩٥]

فأنى لهذا الإنسان أن يشذ عن تسبيحه تعالى ويتبجح باكتشافه القمر الصناعي وذهابه إلى بعض الأنجم القريبة بسرعة لا تتجاوز ١٠ كيلومترات في الثانية. فما باله يلفظ المقدسات التي فيها الكمال النفسي، فيعود ليصبح خشبة عارية عن كل فضيلة، وروحاً جامداً أشبه شيء بالصخرة الصماء. ﴿وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: الآية ٧٤].

إن الله يأمرنا بتسبيحه كل يوم قبل طلوع الشمس وقبل الغروب بقوله جلَّ من قائل: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ ءَانَآيِٕ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ﴾ [طه: الآية ١٣٠].

وبقوله: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مريم: الآية ١١].

وبقوله: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾ [آل عمران: الآية ٤١].

وبقوله: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾﴾ [الحجر: الآيتان ٩٨/ ٩٩].

وبقوله: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٥٥﴾﴾ [غافر: الآية ٥٥].

وبقوله: ﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ ﴿٤٠﴾﴾ [قَ: الآيتان ٣٩/ ٤٠].

فما ألذ التسبيح لو كان خالياً عن كل شائبة فهو انغمار في الحب الإلهي، وذوبان في العشق اللاهوتي، إن في هذا التسبيح الخالص لذةً تفوق كل لذة مادية، لذة لا تضاهيها أية لذة، لذة لا يريد الإنسان أن يفارقها طرفة عين، لذة تأخذ بمجامع القلب إلى حيث الطمأنينة والارتياح النفسي.

﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرّعد: الآية ٢٨] . لذلك نرى أن إبراهيمعليه السلام يقدم ما عنده من الغنم وكان يملي ما بين الجبلين، يقدمها إلى من نادى من بعيد بصوت رخيم: «سبوح قدوس، ربنا ورب الملائكة والروح».

ما أحلى التسبيحات في أيام شهر رمضان المبارك ومنها: «سبحان الله خالق ما يرى وما لا يرى، سبحان الله مداد كلماته، سبحان الله رب العالمين، سبحان الله الذي ينشئ السحاب الثقال ويسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء ويرسل الرياح بُشراً بين يدي رحمته وينزل الماء من السماء بكلمته، وينبت النبات بقدرته ويسقط الورق بعلمه، سبحان الله الذي لا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين»[(١)].

* * *

ولنستمع إلى ما يقوله الإمام عليعليه السلام حين تلا هذه الآية المباركة.

﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [النُّور: الآية ٣٧] .

«إن الله سبحانه وتعالى جعل الذكر جلاء للقلوب، تسمع به بعد الوقرة[(٢)]، وتبصر به بعد العشوة، وتنقاد به بعد المعاندة.

---

(١) راجع كتاب إقبال الأعمال وكتب الأدعية.

(٢) الذكر: استحضار الصفات الإلهية. والوقرة: ثقل في السمع. والعشوة: ـ مثلثه العين ـ ضعف البصر.

وما برح لله عزت آلاؤه في البُرهة بعد البرهة وفي أزمان الفترات[١] عباد ناجاهم في فكرهم، وكلمهم في ذات عقولهم، فاستصبحوا بنور يقظة في الأبصار والأسماع والأفئدة. يذكّرون بأيام الله، ويخوّفون مقامه، بمنزلة الأدلة في الفلوات. من أخذ القصد حمدوا إليه طريقه وبشروه بالنجاة. ومن أخذ يميناً وشمالاً ذموا إليه الطريق وحذروه من الهلكة. وكانوا كذلك مصابيح تلك الظلمات وأدلة تلك الشبهات.

وإن للذكر أهلاً أخذوه من الدنيا بدلاً، فلم تشغلهم تجارة ولا بيع عنه، يقطعون به أيام الحياة. ويهتفون بالزواجر عن محارم الله في أسماع الغافلين. ويأمرون بالقسط ويأتمرون به، وينهون عن المنكر ويتناهون عنه. فكأنما قطعوا الدنيا إلى الآخرة وهم فيها، فشاهدوا ما وراء ذلك. فكأنما اطلعوا غيوب أهل البرزخ في طول الإقامة فيه، وحققت القيامة عليهم عداتها[٢] فكشفوا غطاء ذلك لأهل الدنيا، حتى كأنهم يرون ما لا يرى الناس. ويسمعون ما لا يسمعون.

فلو مثلتهم لعقلك في مقاومهم[٣] المحمودة، ومجالسهم المشهودة، وقد نشروا دواوين أعمالهم وفرغوا لمحاسبة أنفسهم على كل صغيرة وكبيرة أُمروا بها فقصَّروا عنها، أو نُهوا عنها ففرطوا فيها، وحملوا ثقل أوزارهم ظهورهم، فضعفوا عن الاستقلال[٤] بها. فنشجوا نشيجاً[٥]، وتجاوبوا نحيباً، يعجون إلى ربهم في مقام ندم[٦] واعتراف، لرأيت أعلام هدىً، ومصابيح دجى، قد حفت بهم الملائكة، وتنزلت عليهم السكينة، وفتحت لهم أبواب السماء، وأعدَّت لهم مقاعد الكرامات،

---

(١) الفترة بين العملين: زمان بينهما، يخلو منهما، والمراد: أزمنة الخلو من الأنبياء مطلقاً. وناجاهم: خاطبهم بالإلهام.

(٢) العدات: جمع عدة. أي: كأنها القيامة كشفت لهم عن الوعود التي وعد بها الخيار والأشرار.

(٣) مقاوم: جمع مقام، مقاماتهم في خطاب الوعظ.

(٤) ضعفوا عن الاستقلال بها: أي القيام بحملها.

(٥) نشج الباكي، ينشج، نشيجاً: غص بالبكاء في حلقه. والنحيب أشد البكاء. وتجاوبوا به: أجاب بعضهم بعضاً يتناحبون.

(٦) عج، يعج: صاح ورفع صوته، فهم يصبحون من مواقف الندم والاعتراف بالخطأ.

في مقام اطلع الله عليهم فيه، فرضي سعيهم وحمد مقامهم، يتنسمون بدعائه روح التجاوز[١]. رهائن فاقة إلى فضله، وأسارى ذلة لعظمته، جرح طول الأسى قلوبهم[٢]، وطول البكاء عيونهم. لكل باب رغبةٍ إلى الله منهم يد قارعة، يسألون من لا تضيق لديه المنادح[٣]، ولا يخيب عليه الراغبون. فحاسب نفسك لنفسك، فإن غيرها من الأنفس عليها حسيب غيرُك»[٤]. فطوبى لأولئك الذين طال سجودهم وزاد خشوعهم وخنوعهم. فصفت نفوسهم وتزكت أرواحهم فخلت من أدرانها وآثامها، ثم عرجت إلى معالم القدس، حيث لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، ﴿وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَـٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ [البقرة: الآية ١٢٥].

﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَـٰشِعُونَ ۝٢﴾ [المؤمنون: الآيتان ١/ ٢].

﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا۩ ۝١٠٩﴾ [الإسراء: الآية ١٠٩]

﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُ ٱلرَّحْمَـٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ [مريم: الآية ٥٨].

﴿أَمَّنْ هُوَ قَـٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ ۝٩﴾ [الزُمَر: الآية ٩].

هل للعلم الحديث
أن يمد يداً إلى ما وراء الطبيعة؟

من الواضح المعلوم أن العلم الحديث إنما يعمل في استخراج خواص المادة والقوانين التي محكوم لها (المادة) وتابعة لها والدساتير الرياضية التي تحكم المادة وتسيطر عليها، فلا تحيد المادة عنها قيد شعرة.

---

(١) تنسم النسيم: تشممه، والروح ـ بالفتح ـ النسيم. أي يتوقعون التجاوز بدعائهم له.

(٢) الأسى: الحزن.

(٣) المنادح: جمع مندوحة وهي كالندحة ـ بالضم والفتح ـ والمنتدح ـ بفتح الدال ـ المتسع من الأرض.

(٤) نهج البلاغة، ص٣٤٠، خ٢٢٢.

العلم الحديث يعمل في المختبرات لإجراء تجارب متعددة تحت شروط معيّنة وشروط مختلفة ثم يربط المشاهدات بعضها ببعض حسب قوانين رياضية عقلية بحتة دون أن يكون للتجربة دخل في المحاكمات المجردة الرياضية، ثم يستخرج العلم الحديث قانوناً رياضياً أو خاصية تحكم المادة ما دامت الظروف قائمة والشروط هي هي. لذلك كان يقول الفيزيائي المشهور: (لورد كلوين): «كل حادثة فيزيائية لا يمكن أن يعبر عنها بدستور رياضي، ليست بحادثة معروفة».

فالعلم المادي يبرهن: «على سبيل المثال» في الفيزياء الرياضية العالية: أن الجسمين يتجاذبان بنسبة حاصل ضرب كتلتيهما: ك، كَ مضروباً في النسبة الثابتة: ي[1] مقسوماً على مربع المسافة بينهما:

$$ق = ى \frac{ك\,كَ}{م^{2}}$$

فالكتلة تقاس بـ (غرام ـ كتلة) والمسافة تقاس بالسانتيمتر = سم، فتستخرج قوة الجذب بالنسبة إلى أصغر وحدة من وحدات قوة الجذب فيما إذا كانت:

ك = ١غم، كتلة   كَ = ١غم، كتلة

م = ١سم

أما حقيقة هذه القوة، أي حقيقة الجاذبية، فمسكوت عنها في العلم الحديث. ذلك، لأن القوة وكل شيء قواني[2] ليست من المادة في شيء: أي ليست القوة من الغرام أو السانتيمتر أو الزمن في شيء. (كما سترى أيضاً). وهكذا في دستور الرقاص:

$$ن = ٢\,ط \sqrt{\frac{ل}{حـ}}$$

فمدة الذبذبة الواحدة للرقاص تتناسب مع جذر طول الرقاص تناسباً طردياً وتتناسب عكسياً مع جذر التعجيل الأرضي في محل يتحرك فيه الرقاص. فمدة الذبذبة

---

(١) النسبة الثابتة في دستور الجذب العام يساوي ١ على ١٥٠٠٠٠٠٠٠٠٠ من ثقل الغرام.

(٢) إسم منسوب إلى القوة.

الواحدة تختلف باختلاف مقدار الجذب. والمقاييس هاهنا هي: الثانية والسانتيمتر. وليس واحد منهما من حقيقة القوة الجاذبية في شيء.

فلا سبيل إلى استعمال هذه المقاييس: الثانية، سانتيمتر، غرام ـ هذه التي تستعمل في استخراج القوانين التي تتحكم في العالم المادي ـ لتفهم حقيقة الجاذبية أو النفس أو الروح أو العقل إلى ما هنالك من عوالم غير مادية. ولذلك بقيت حقيقة القوة الجاذبية مجهولة لدى الفيزيائيين.

وهكذا حقيقة القوة الكهربائية أو المغناطيسية وحقيقة الطاقة، سواء أكانت طاقة حرارية أم كهربائية، أم حركية أم ذريَّة، إلى ما هنالك. والفيزيائيون يعترفون بعجزهم عن تفهم حقيقة كل ما ليس بمادي بحت. حتى أنهم ليعترفون بعدم تفهمهم حقيقة المادة. ذلك لأن المادة يؤول أمرها إلى الجزيء، فالذرة (atome). والذرة مجموعة قوى كهربائية موجبة: (بروتون) وقوى كهربائية سالبة: (إلكترون) وقوى أخرى لا يزال يعمل العلم الحديث للتعرف على آثارها.

ولسائل أن يسأل: هل يمكن تعريف «الفكر» وتحديد معالمه بمقاييس مادية أي بمقياس الطول: سانتيمتر، والوزن: غرام، والزمن: ثانية. وهكذا لا يمكن تعريف النفس أو العقل بهذه المقاييس المادية لأنهما ليسا من صقع المادة في شيء.

فقد اشتبه المادي حين أراد أن يرى الله تعالى في مخبره: (أنبوب التجربة tube) ذلك لأن المخبر محل محدود، إنه محل مادي تحلُّ فيه المادة وليس الله تعالى بمادة أو بشيء يقاس بالسانتيمتر والغرام والثانية. كي يحل في المخبر: «أنبوب التجارب» أو المختبر (Laboratoire) فيراه المادي بعينه أنه لا يشبه المادة ولا يشبه بقية الأشياء في شيء ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: الآية ١١] .

ولكن ما يكتشف في المختبر من قوانين ثابتة ودساتير رياضية رصينة ومعادلات دقيقة تلك التي تحكم هذا الكون المادي يرشدنا إلى واضح هذه المعادلات التي بلغت من الدقة ما يحير الألباب. ذلك لأنا كلما اكتشفنا قانوناً لخواص المادة، فتحت لنا

أبواب من المجاهيل يجب أن يعمل العالم المادي[١] في مختبره مئات السنين كي يتمكن من حل البعض منها. وقد لا تساعده في مختبره مئات السنين كي يتمكن من حل البعض منها. وقد لا تساعده العلوم الرياضية الحاضرة لكشف معضلات تلك القوانين التي أودعها الله تعالى بين جزيئات المادة وذراتها. فكم من معادلات تفاضلية غير محلولة وكم من قوانين رياضية يجب أن تكتشف لحل ما لا يتناهى من مجاهيل تتراءى لنا في عالم الرياضيات.

فلا تزال الرياضيات ناقصة وهي في دور الألفباء، وسيبقى هكذا آلاف السنين بل أبد الآبدين: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ۝١٠٩﴾ [الكهف: الآية ١٠٩].

فالله الذي لا يحده شيء، فالله الذي لا تتناهى عظمته، فالله الذي لا يخلو منه مكان (هذا المكان اللانهائي الذي خلقه الله بقدرته الأزلية التي لا نفاد لها ولا انتهاء) لا يمكن أن يكون محدوداً بحدود الأنبوب: tube أو بحدود المختبر كي يراه المادي في مخبره أو مختبره.

ليس الله تعالى من صقع المقادير المحدودة ولا من المادة في شيء، وهو خالق المادة.

فنحن نعرف الله تبارك وتعالى بما خلق من عوالم، عوالم شتى لا تتناهى، نعرف الله بما أودع من كمال في بطن الذرة، هذه التي لا يمكن أن ترى بأدق الآلات، حتى بالتلسكوب الإلكتروني.

نعرف الله تعالى بما أودع من كمال خارق وتركيبات معقدة، مترتبة بعضها أثر بعض في البدن الإنساني إلى حد لا يتناهى، إلى حد لا يدع (حسب قوانين حساب الاحتمالات) للصدفة مجالاً ولا قيمة. كل ذلك إذا طهرت النفس الإنسانية من مجونها وطيشها، فجورها وفسوقها. أي أصبحت النفس الإنسانية قمينة لتحلَّ فيها معرفة الله

---

(١) لا أظن أن المادي القائم بتجارب دقيقة في المختبر يبقى مادياً، فهو لا محالة يعترف بواضع هذه القوانين الكثيرة الدقيقة التي لا يمكن أن تأتي وتتحكم في المادة وتنظمها بطريقة عشوائية.

جلّ جلاله. لذلك، يقول الإمام علي عليه السلام: «لا تدركه العيون بمشاهدة العيان، ولكن تدركه القلوب بحقائق الإيمان»[1].

إنه تعالى لا نهائي في قدرته وهيمنته وعظمته وحكمته وعزته وعلمه وكماله ورحمته ونعمه وملكه وجبروته: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾﴾ [الحشر: الآيتان ٢٣/ ٢٤].

* * *

إن الرياضي ليرى بصورة واضحة أن الأعمال الحسابية: (هذه التي نستعملها في الكميات المحدودة لا تجري على اللانهائيات.

نحن نعلم أن: $٥ \times ٤ = ٢٠$.

ولكن ماذا يساوي: $\infty \times \infty$ (اللانهاية مضروبة في اللانهاية).

ونعلم أن: $٢٠ \div ٥ = ٤$.

ولكن ماذا يساوي ∞ تقسيم ∞

اللانهاية قسمة اللانهاية

نحن نعلم أن: $٢^{٣} = ٢ \times ٢ \times ٢ = ٨$ مثلاً

ولكن ماذا يساوي: ∞^{∞} (لا نهاية مرفوعة إلى اللانهاية)

ونحن نعلم $\sqrt{٢٥} = +٥$

ولكن ماذا يساوي $\sqrt{\infty}$ (جذر اللانهاية)

ثم ما معنى: $\infty + \infty$

(١) بحار الأنوار: ج٤، ص٣٣، باب ٥.

مع العلم أنا نعرف معنى ٤ + ٥ = ٩

وهكذا عند الطرح: ∞ - ∞ = ٠٠٠؟

فنرى أن العمليات الحسابية التي تجري على الكميات المحدودة لا يمكن تطبيقها على اللانهائيات.

ولذلك ليس من المعقول أن نستعمل مقاييسنا المحدودة للتعرف إلى الله الذي لا تتناهى عظمته وإن بعد التشبيه.

* * *

هناك نوعان من الكميات: منها ما هي مبهمة: (تخيلية) ومنها ما هي معلومة. فالكميات المبهمة هي التي لا يمكن أن نعلم مقدارها بالضبط ولا يعلم ما هي؟ وهي التي معاملها √-١ ، ف(٥√-١) لا تعلم حقيقته.

فلو أدخلنا في معاملات معادلة الخط المستقيم √-١ : أي لو كانت هذه المعاملات: أ، ب، حـ من معادلة: أ س + ب ص + حـ =٠ كميات مبهمة فإن النتائج التي نلمسها في المقادير المحدودة تضطرب هاهنا وترينا نتائج غريبة جداً فيتقاطع المستقيمان المتوازيان وينطبق المستقيمان المتقاطعان. فليلتفت المادي أنه حين محاولته معرفة الله تعالى إنما يستعمل مقاييس مقتضبة مادية، ليست من صقع اللانهاية في شيء، وعليه أن يستعمل مقياساً واحداً هو مقياس نفسي تشعر به النفس الإنسانية كلما نمت وتكاملت في مضمار التقوى والورع وتطهرت بالتزكية من أدرانها وأرجاسها.

يقول الإمام علي عليه السلام: «يشهد بذلك العقل لو سلم من أسر الهوى». فهوى النفس يكون حجاباً حاجزاً دون رؤية الحق ودون الاعتراف بالله المتعال ولذلك لابد من تزكية لهذه النفس كي ترجع إلى رشدها وصفائها، حتى تحلَّ فيها معرفة الله تعالى. وهو القائل: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾﴾ [الشمس: الآيتان ٩/ ١٠].

نعم، إن معرفة الخالق تتوقف على طهارة النفس وخلوها من الأدران لذلك بعث الله الأنبياء عليهم السلام ليطهروا الإنسان من الدنس ويزكوه. وقد قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى

ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾﴾ [الجُمُعَة: الآية ٢] .

وقد قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ [الشُّعراء: الآيتان ٨٨/ ٨٩]. أي أن النجاة يوم القيامة: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾﴾ [المطفِّفِين: الآية ٦]؛ إنما تكون بسلامة القلب وسلامة النفس. وكل ما جاء في الدين الإسلامي من نواهٍ وأوامر ترمي إلى سلامة القلب وتزكية النفس.

فالحدود التي شرعها الشارع المقدس على مرتكبي الكبائر من شرب الخمر والزنا والربا والقذف والقيادة. . . إلى ما هنالك، كلها ترمي إلى قلع الكبائر والموبقات عن وجه البسيطة، كي لا تظلم النفس الإنسانية بارتكابها إياها. فتجحد بارئها، لقوله تعالى: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [القَلم: الآيتان ٣٥/ ٣٦] وقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠٠﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٢٠١﴾﴾ [الشُّعراء: الآيتان ٢٠٠/ ٢٠١] ولنفس السبب شرع الشارع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وهكذا سائر ما ندب إليه الشرع وأمر به من مستحبات وواجبات، إطعام الطعام، مساعدة الجار، صلة الأرحام، البرّ بالوالدين، قضاء حاجة المؤمن، الإيثار، الصلاة، الصوم، الزكاة، الخمس إلى ما هنالك كلها ترمي إلى تعمير القلب، فالنفس: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبَة: الآية ١٠٣] . وعند ذلك، أي بعد القيام بما أمر به الشرع من واجبات وترك المحرمات وما ندب إليه من بعض المستحبات يتفتح القلب، فيحلُّ فيه حب الله تعالى ومعرفته ويقذف فيه نور يرى القلب من خلاله عظمة الله وقدرته التي لا تتناهى ويعزو القلب بصورة طبيعية كل ما يرى من هذا الإبداع في الخلق إلى العلي القدير. فقد جاء في الحديث: «العلم نور يقذفه الله في قلب من يشاء»[1] .

عند ذلك يرى الفرد علانية أن ما يقوم به المادي من استعمال مقياس محدود مقتضب لمعرفة الخالق وأعني به المقاييس المادية أو استعمال الحواس الخمس التي قد حددت من جانب الله قابلياتها وطاقاتها هي مقاييس تفيد في المجالات المادية

---

(١) مصباح الشريعة: ص١٦، باب ٦.

المحدودة فقط، أما لمعرفة الله الذي لا تتناهى عظمته، فلابد من مقياس غير مادي، وهو هذا النور الذي نوهنا عنه، هذا النور الذي يقذف في قلب العبد، إذا أطاع الله وكفَّر عن ذنوبه. وهو قوله تعالى: ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ﴾ [النُّور: الآية ٣٥].

وليس هذا النور من نور الشمس المادي في شيء. فالضوء أو النور إنما هو شيء مادي حسبما اكتشفه (أينشتاين) وليس بشيء معنوي. وقد حصل اختلاف شديد في مادة الضوء. ولكن (أينشتاين) برهن على أن النجوم في يوم كان قد كشفت فيه الشمس. شاهد مسار هذا الضوء فرآه منحنياً وليس بمستقيم، رآه ينحني حيث الجاذبية أكثر من قبل نجوم أخرى. فعلم أن الضوء إنما هو جرم مادي فيه قابلية الانجذاب كبقية الأجسام المادية حسب قانون نيوتون للجاذبية العامة.

إذن كان من صقع المادة يمكن التعرف إليه بمقاييس مادية: سانتيمتر، غرام، ثانية. وما لم يكن كذلك، كالنفس والعقل، لا يمكن التعرف إليه، وإنما نحكم بوجوده بما نشاهد من آثار في أنفسنا. لذلك اعترف (دكارت): Deacartes الفيلسوف بوجود الخالق بعد أن شك في كل شيء، إلا أنه لم ينكر شعوره، فقال: «أنا موجود، ذلك لأني أحس وأشعر». ثم تدرج بمقاييس غير مادية إلى معرفة الخالق جلَّ جلاله. فقال: «إني أحمل فكرة الكمال، فكان الأحرى أن أكمل نفسي من النواقص إن كنت أنا خالقاً نفسي، وأن أجعل عيني تبصر إلى مسافات شاسعة وأذني تسمع من أماكن بعيدة وهكذا بقية الأعضاء. ولما كانت هذه الحواس محدودة القابلية وليس لي أن أعدل فيها وأن أكملها كيفما أريد؛ إذن خالقها غيري. كما أنه ليس خالقي إنساناً آخر يشبهني، لأنه ناقص مثلي. فلابد أن هناك كاملاً وهو الله تعالى قد خلق كل ما نشاهده تحت قوانين ثابتة ونظم دقيقة يحار فيها الألباب».

وإني أختم هذا المقال بقول الإمام علي عليه السلام، ففيه فلسفة المعارف الإلهية والطريقة التي لو اتبعها الإنسان بلغ مرتبة اليقين.

«إن من أحب عباد الله إليه عبداً أعانه الله على نفسه، فاستشعر الحزن وتجلبب الخوف فزهر مصباح الهدى في قلبه»(١).

---

(١) نهج البلاغة: ص١١٨، خ٨٧.

علي عليه السلام والعلم الحديث

كان علي عليه السلام رياضياً ملهماً وفلكياً بارعاً وفيزياوياً عظيماً وكيمياوياً كاملاً وهكذا في بقية الفروع العلمية من نبات وفسلجة وطبقات الأرض... إلى ما هنالك.

لقد بلغ الدرجة القصوى من الإتقان والكمال. وما كان ليتردد، عليه أفضل الصلاة والسلام. عند الإجابة على سؤال. وقد سئل عن مسائل شتى في شتى المواضيع فأجاب بالبديهة وبصورة ارتجالية دونما تفكير وبشكل موجز مفهوم.

سأله ذات يوم (ابن الكواء)، قائلاً: يا علي، كم المسافة بين السماء والأرض؟ فأجاب عليه السلام قائلاً: دعوة مستجابة[1]..

حقاً، إن هذا الجواب لهو عين الواقع، لعدم تناهي الأبعاد بصورة ظاهرية بين السماء والأرض. فهذا الكون الأحدب ـ على حد تعبير ـ (أينشتاين) لا يمكن أن يستقصى غوره، وإنه ليتوسع يوماً بعد يوم. وكلما تقدمت آلات الرصد وعلم الفلك اللاسلكي وعلوم الذرة والإشعاع عثروا على شموس أخرى وكواكب ومجرات وسدم تدهش الألباب، ويتحقق قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ۝٤٧﴾ [الذاريات: الآية ٤٧].

يقول (بليفن): «إن الكون أوسع وأرحب وأعظم ممّا كنا نتخيله. وإن الأجزاء النائية من الكون تندفع في الفضاء بسرعة مخيفة».

فلا يمكن أن يعبر عن المسافة بين السماء والأرض بحدود رياضي ومعلوم المقدار لعدم تناهي الأبعاد.

ثم إن الله تبارك وتعالى لا يخلو منه مكان: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجۡوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمۡ وَلَا خَمۡسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمۡ وَلَآ أَدۡنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمۡ أَيۡنَ مَا كَانُواْۖ﴾ [المجادلة: الآية ٧].

وإن هذا الدعاء أو الدعوة في جواب الإمام علي عليه السلام: «دعوة مستجابة» ليسري في هذه الأجواء التي لا تتناهى إذا استجيب ورفع ولم يحجب عن الصعود في العوالم اللانهائية.

---

(١) بحار الأنوار: ج١٠، ص٨٤، باب ٦.

وما أقام الأقدمون من أدلة على محدودية الكون إنما يجري على الكميات المحدودة، ولا يجوز تطبيق القواعد الرياضية في الكميات المحدودة على اللانهائيات: ∞ .

كان يقول قسم من الفلاسفة والعلماء أن الكون محدد.

ودليلهم على ذلك: «أننا لو أخذنا نقطة على سطح الأرض ومددنا من تلك النقطة خطين مستقيمين حصلت بينهما (في تلك النقطة) زاوية. وإذا قطعنا ضلعي تلك الزاوية بمستقيم آخر (مستقيم ثالث) حصل هنالك مثلث من ضلعي الزاوية والمستقيم القاطع لهما. يقولون: إن المستقيم القاطع أي الثالث يبقى محصوراً بين ضلعي الزاوية مهما مددنا ضلعي الزاوية إلى اللانهاية. إذن، الكون محدود!؟..

إن هذا الدليل يمكن تطبيقه على المسافات المحدودة ولا يجري على اللانهائيات، ذلك لأنا إذا فرضنا النقطة المفروضة، (تلك التي مددنا منها ضلعين وشكلنا الزاوية المعلومة)، مركزاً للكرة الأرضية وجعلنا نصف القطر (ضلع الزاوية) مستقيماً يمتد إلى ما لا يحدُّ من المسافات، أي إلى اللانهاية: ∞ لأصبح سطح الكرة مستوياً وخرج عن كونه كروياً أو شيئاً ذا انحناء ذلك، لأن درجة الانحناء لمنحنٍ ما = $\frac{١}{ر}$ (ر = نصف قطر الانحناء)، كما هو معلوم في الهندسة التحليلية.

فكلما كان نصف قطر الانحناء أصغر كان الانحناء أكبر وكلما كان نصف قطر الانحناء أكبر كان الانحناء أقل. فإذا أصبح نق = ∞ (أصبح نصف قطر الانحناء لا نهائياً)، يكون:

$$\frac{١}{ر} = \frac{١}{\infty} = ٠ \text{ (صفر)}$$

أي لا انحناء هنالك.

ألا ترى أن الشاقولين على سطح الكرة يكونان متوازيين إذا كانت المسافة بينهما عدة أمتار. حين أن الشاقولين يلتقيان في مركز الأرض وبينهما زاوية ضئيلة جداً لا يمكن قياسها بأدق الآلات.

إذن ليس من المعقول أن نقول: إن الضلع الثالث يبقى محصوراً بين الضلعين الآخرين إذا بلغت الفاصلة بينهما لا نهائياً. فإن اللانهائي يجل عن الحصر والحدود وإلا فليس بلا نهائي.

لنستعن بعلم المثلثات زيادةً في التوضيح:

لنفرض النقطة على وجه الأرض أو بالأحرى في مركز الأرض م وقد مدَّ منها نصف القطر: م حـ نصف القطر: م د.

فيكون الضلع الثالث المحصور: حـ د.

فلنكتب قيمة حـ د حسب قواعد المثلثات:

(حـ د)٢ = (د م)٢ + [حـ م]٢ ـ ٢ × د م × حـ م × جتام[١].

فإذا فرضنا: م ح = ∞، م د = ∞[٢]

وعوضنا:

(ح د)٢ = ∞ + ∞٢ − ٢ × ∞ × ∞ × جتام

ولما كان (٢ جتام) مقداراً محدوداً، فلا أثر له تجاه اللانهاية عند التضعيف أو التقسيم:

∴ (حـ د)٢ = ∞ + ∞٢ − ∞ × ∞

أو (حـ د)٢ = ∞ + ∞ − ∞٢

(حـ د)٢ = ∞٢

فيكون المستقيم المحصور بين ضلعي الزاوية لا نهائياً».

مع العلم أنه لا يصح إجراء الأعمال الأربعة والجذر والرفع في اللانهائيات كما في المقادير المحدودة.. فلا يعلم ماذا ستكون هذه المستقيمات في اللانهاية.

* * *

ثم نحن باستطاعتنا أن نمد مستقيمات متعددة من مركز الأرض على أن تكون الزوايا المركزية صغيرة جداً.

---

(١) جتام = أي الجيب اتمام لزاوية م: Cosinus، يراد بزاوية م، زاوية د م حـ.

(٢) يراد بـ ∞ اللانهاية.

ثم نمدُّ (أنصاف الأقطار) أو هذه المستقيمات إلى ما لا نهاية، فماذا تكون المستقيمات المحصورة بين أضلاع الزوايا المركزية التي هي كثيرة جداً. ستكون، ولاشك، هذه المستقيمات المحصورة مثل حـ د، د هـ، هـ ط، محيطاً لدائرة مركزها الكرة الأرضية. وتحصل عند ذلك دوائر متحدة المركز تحيط بعضها ببعض وتتباعد كالدوائر التي نشاهدها عندما نلقي حجراً في حوض ماء راكد. وتتباعد هذه الدوائر إلى ما لا نهاية، حيث لا يعلم مداها. فيصبح سطح الكرة التي نصف قطره ∞ = لا نهاية، مستوياً. ويصبح محيط الدائرة التي نصف قطرها ∞ = لا نهاية، خطاً مستقيماً. فيخرج عما نشاهده في الكميات المحدودة على سطح الأرض أو ما هو قريب من الأرض بحدود معينة.

فنحن نتصور اللانهائية ولكن لسنا محيطين بها تمام الإحاطة كي نتمكن من تقديرها وتطبيق القواعد التي تجري في صقع محدود، عليها.

وقد اشتبه كثير من الفلاسفة، قديماً وحديثاً، عندما فسّروا نظرياتهم وفق مقاييس محدودة مقتضبة، فإذا سئل أحدهم عن الله تعالى طبق الكونيات المحدودة أو القوانين الفيزيائية الأرضية على «الله» الذي لا تنتهي عظمته ولا تحد قدرته، فهو الذي: «لا ينعت بتمثيل ولا يمثل بنظير، ولا يغلب بظهير. قد حارت في كبرياء هيبته دقائق لطائف الأوهام، وانحسرت دون إدراك عظمته خطائف أبصار الأنام»[١].

وقد جاء في دعاء يقرأ ليلة القدر:

«يا موصوفاً لا يبلغ بكينونيته موصوف. ولا حد محدود، يا غائباً غير مفقود ويا شاهداً غير مشهود، يطلب فيصاب، ولم تخل منه السماوات والأرض وما بينهما طرفة عين، لا يدرك بكيف ولا يؤيَّن بأين ولا بحيث. أنت نور النور»[٢].

يلاحظ أن تفسيرات بعض الفلاسفة للكون والوجود ونظرياتهم عن خالق السماوات والأرضين مشوبة بمقاييس مادية حالكة وتطبيقات مادية سخيفة، من تطبيق العوالم

---

(١) من دعاء يقرأ في كل يوم من أيام شهر رجب.

(٢) بحار الأنوار: ج٩٥، ص١٦٥.

اللانهائية على العالم المحدود بمقاييسه وحدوده لذلك قالوا نتيجة تطبيق مادي سخيف:

١ ـ الواحد لا يصدر منه إلا الواحد. . «يراد به الله».

٢ ـ العقول عشرة.

٣ ـ إن الله غير عالم بالجزئيات.

وقالوا مثل ذلك أشياء كثيرة وبنوا على أسسهم المغلوطة أبنية واهية، هي أوهن من بيت العنكبوت، فأدى بهم إلى وحدة الوجود! بل وحدة الموجود!!؟..

إنه تعالى يقول: ﴿مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ﴾ [الكهف: الآية ٥١]

ويقول بالنسبة إلى كيفية خلقه الخلق:

﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ [يس: الآية ٨٢].

وقد قرأت مقالاً لأستاذ الفيزياء الرياضية العالية في جامعة الآستانة قبل حوالي ثلاثين عاماً يخطئ فيه بعض علماء الغرب في نظرياتهم عن اللانهاية، فكثيراً ما نجد أنه يعامل مع اللانهاية في الأعمال الحسابية عين ما يعامل مع الكميات المحدودة. ويقاس اللانهائيات بنفس المقياس الذي يقاس به المتناهيات. وهذا بعينه يشاهد في ما يقوم به الماديون من سرد براهين وأدلة لتثبيت دعائم كفرهم وجحودهم وهذيانهم!..

* * *

فما قيمة هذا الإنسان تجاه عظمة الله التي ليس لعدد ولا مقدار أن يحدها، تلك العظمة التي هي فوق متناول العقول وحدود الأفكار. والغريب أن يريد الإنسان المادي المحدود في طاقاته وقابلياته (مهما حاول واجتهد واستفاد بأمره تعالى وإلهامه وتوفيقه مما أودع الله تعالى من نظم وقابليات في هذا الكون الرحيب) أن يحيط بالله وأن يرى الله بعينه التي يبصر بها، هذه العين المادية لا تزال ولن تزال حقيقتها وجميع خواصها وقوانينها مجهولة. ذلك لأنه ليس للبشر أن يستقصي جميع ما أودع الله من خواص وقوانين في العين. مع العلم أن العين محدودة في قابلياتها وطاقاتها.

فقد قال (لنكولن بارنت): «إن ما يدركه الإنسان عن الحقيقة التي تحيط به محدود، بسبب عجز جهاز الإبصار عنده. ولو أن عينه كانت أكثر حساسية، فتدرك

مثلاً موجات الأشعة السينية (X-Rays) لبدت له الدنيا مختلفة تماماً عما يراها الآن».

كما ينفي (الدكتور الكسيس كارل) في كتابه: «الإنسان ذلك الكائن المجهول»! إمكان التعرف إلى الإنسان معرفة تامة.

فإذا كان الإنسان لا يقوى على معرفة نفسه، فأنى له أن يحيط بخالقه وهو اللانهائي الذي لا يحده شيء؟! ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ (٦) الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ (٧) فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ (٨) كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ (٩) وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ (١٠) كِرَامًا كَاتِبِينَ (١١) يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ (١٢)﴾ [الإنفطار: الآيات ٦/ ١٢].

حقاً، ﴿قُتِلَ الْإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ (١٧) مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ (١٨) مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ (١٩) ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ (٢٠) ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ (٢١) ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشَرَهُ (٢٢) كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ (٢٣)﴾ [عبس: الآيات ١٧/ ٢٣].

* * *

إن أينشتاين بما وجد من قوانين رياضية رصينة نفي العبثية والعشوائية في الكون. وبرهن على أن الظواهر الكونية تخضع لقوانين رياضية ثابتة، وهي النواميس الإلهية التي تتحكم في الكون. هذا الذي غدا وجوداً هندسياً بديعاً يدهش الألباب.

أراد أينشتاين أن يحسب مقدار كتلة النجوم التي يمكن مشاهدتها في السماء. ولكنه عدل عن هذا الرأي عندما رأى أن أنجماً جديدة تتشكل في كبد السماء من حين لآخر.

فالتلسكوبات الحديثة اكتشفت مجرات على بعد ألف مليون سنة ضوئية. ويقدّر (شارليه) أن قطر الكون عشرة آلاف مليون سنة ضوئية! وأن الحادث الذي يحدث في مجرة في طرف الكون لا تعلم به (أو يستحيل أن تعلم به) مجرة في الطرف الآخر قبل مرور عشرة آلاف مليون سنة من سنواتنا.

هذا ما اكتشف حديثاً. ولكن لا يبقى الاكتشاف موقوفاً على هذا الحد، فكلما تقدمت العلوم رأوا عوالم أخرى لا تحدُّ.

والسنة الضوئية تقدر بمسافة قدرها عشرة مليارات كيلو متراً تقريباً. أي أن الضوء يقطع في السنة الواحدة بسرعته المعلومة (٣٠٠,٠٠٠) كيلو متراً في الثانية مسافةً قدرها عشر مليون مليون كيلو متراً تقريباً.

لذلك يقال أن بعد القمر عنا ٣/١ ١ من الثانية (ثانية وثلث الثانية). فإذا أردنا تعيين بعد القمر عنا علينا أن نضرب ٣/١ ١ من الثانية في سرعة الضوء.

أي ٤/٣ × ٣٠٠,٠٠٠ = ٤٠٠,٠٠٠ كيلومتراً.

وأن الشمس تبعد عنا ٨ دقائق و ٢٠ ثانية أي أنا لو ضربنا ٨ × ٦٠ + ٢٠ = ٥٠٠ ثانية في سرعة الضوء أي في ٣٠٠٠٠٠ كيلو متر لوجدنا بعد الشمس عنا وهو مائة وخمسون مليون كيلومتراً. (أو ٩٣,٠٠٠,٠٠٠) ميلاً.

فإذا حدث انفجار في نجم (الألفا السنتوري) سنة ١٣٨٣ هجرية، فنحن لا نشعر به إلا في سنة ١٣٨٧هـ أي بعد ٤ سنوات، ذلك لأن نجم (الألفا السنتوري) تبعد عنا أربع سنوات ضوئية. فإذا نظرنا إلى السماء في ليلة غار فيها القمر، لا نرى إلا الضوء الذي صدر عن هذه النجوم قبل سنوات.

فإذا كنت تنظر إلى نجم (الألفا سنتوري) فإنك ترى ما صدر عنه من ضوء قبل ٤ سنوات، حتى وإن كانت نجمة (الألفا سنتوري) قد اختفت عن الوجود بأمر الله تعالى منذ سنة أو سنتين أو ثلاث سنوات. . وهكذا بالنسبة إلى النجمة التي تبعد عنا مليون سنة ضوئية. نحن إنما ننظر إلى الشعاع الذي صدر منها قبل مليون سنة، وإن هذا الشعاع يحدثنا عن حالة تلك النجمة في الوقت الذي بدأ فيه ظهور الإنسان على الأرض بأمره تعالى، أما النجوم التي تبعد عنا ألف مليون سنة ضوئية، فإننا نرى الآن شكلها وحالتها عندما كانت الحياة على الأرض بادئة في التكوين بأمره تعالى، وعندما لم تكن قد نشأت اللبونات والزواحف والطيور ولم يكن قد ظهر أي من الفقريات.

ولا يدري أحد، غير الله تعالى، ماذا حدث لهذه النجوم في هذه السنين الطويلة، قد تكون قد انطفأت أو انفجرت منذ ملايين السنين، ونحن لا نزال نراها حتى الآن! . : ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾ [المُلك: الآية ١٤].

والكون واسع جداً، مترامي الأطراف، كل شيء فيه في حركة مستمرة منتظمة وليس الكون بدرجة من الضيق حتى يبرهن على محدوديته بمدِّ ضلعين من نقطة على الأرض وتصور أن القاطع لهما محصور بين الضلعين، فيستدل بذلك على تناهي الأبعاد.

فسلام الله على أمير المؤمنين حين يقول: «دعوة مستجابة» جواباً على سؤال من سأل: كم بين السماء والأرض؟...

* * *

يقول الإمام علي عليه السلام: «في التجارب علمٌ مستأنف» وهو حقاً واضع الطريقة التجريبية في العلوم الطبيعية. وقد سبق عليه السلام في قوله هذا (بيكون: Bacon) قروناً.

إن علماء «الغرب ينسبون اكتشاف الطريقة التجريبية في العلوم الطبيعية إلى (بيكون) وقد فاتهم أن الإسلام يشجع الطرق التجريبية بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾﴾ [الإسراء: الآية ٣٦] ».

سئل الإمام علي عليه السلام عن وزن فيل، فطبق قانون الطوفان في الفيزياء. وسئل عن ثقل قيد في رجل أحدهم، فعين ثقله دون إخراج القيد من رجل الرجل معتمداً على قانون أرخميدس في الفيزياء ولم تكن إذ ذاك دراسة للعلوم اليونانية في الجزيرة العربية. وسئل عن مسائل رياضية صعبة فأجاب عنها بالبديهة، قد ذكرنا البعض منها في نهاية الجزء الثاني من كتاب التكامل في الإسلام وفي الجزء الرابع من نفس الكتاب. وسئل عن قطر الشمس فأجاب مرتجلاً، وهو عين ما نقرأه في كتب الفلك اليوم. وسئل عن مسائل معقدة في الفرائض (الإرث) فأجاب دون تفكير أو تأمل.

وقد أملى الشيء الكثير في موازين الصناعة على بعض أصحابه.

وللمسلمين أيادٍ بيضاء في حقل الرياضيات ومكتشفات هامة، وقد شرح ما أضافه المسلمون من قوانين ودساتير واكتشافات في الرياضيات أستاذ الفيزياء الرياضية في جامعة استانبول: صالح زكي في أربعة مجلدات أسماها: «الآثار الباقية» وهو كتاب ممتع، يطلع الإنسان عند مطالعته على مدى عمق التفكير والتتبع الرياضي لدى المسلمين. وهذا نصير الدين الطوسي له مكتشفات في تسطيح الأرض وتربيع الدائرة ومساحة الأشكال الكروية والمنحنيات وكتابه: «كتاب الشكل القطاع» كتاب وحيد من نوعه. ترجمه الغربيون إلى اللاتينية والفرنسية والإنكليزية وبقي قروناً عديدة مصدراً

لعلماء أوربا، يستقون منه معلوماتهم في المثلثات المستوية والكروية(١). والطوسي أول من استعمل الحالات الست للمثلث الكروي القائم الزاوية.

ولأبي جعفر المصري وأبي سعيد السجستاني وعلي بن أحمد الموصلي وأبي يوسف الكندي ومحمد بن ميسر البغدادي آثار هامة في الرياضيات ومكتشفات جديرة بالذكر والتقدير.

وأما أبو العلاء البيهقي فقد ألف في الميكانيك والأثقال كتاباً قيماً وكذلك في دقائق المخروطات.

كما أن لأبي الريحان البيروني مكتشفات رياضية جديرة بكل تقدير. وهكذا نرى أن المسلمين يعدون آباء العلم الحديث على حد تعبير «نهرو».

إن علياً عليه السلام كان له اليد الطولى في وضع أسس العلم الحديث ولكنه عاش في وقت الجدب العلمي في العلوم الكونية في الجزيرة العربية، فلم تستفد الناس من مواهبه وكمالاته.

فيحق لأحد المفكرين أن يقول: «الإسلام هو الدين الوحيد الذي يماشي العلم المادي والفلسفة الحقة».

ويحق لـ (وولتر) أن يقول: «إن (مارتن لوتر) لا يقوى على حلِّ عقد خيوط حذاء محمد». كل ذلك عندما يرى عظمة الإسلام في حقول شتى، في حقل الفلسفة الحقة والأخلاق المثالية والعدالة الاجتماعية وإدارة البلاد والسياسة الدولية والعلوم المادية بفروعها المتنوعة. مع أنه لم تكن لدى (وولتر) مصادر كافية عن الدين الإسلامي.

فحقيق بشبابنا الجامعي أن يقدر الإسلام حق قدره، وأن يضحي لأجل تحكيم دعائمه ونشره في أرجاء المعمورة. فإنه تعالى يقول:

﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٦٩﴾﴾ [العَنكبوت: الآية ٦٩].

---

(١) كتاب: فلاسفة الشيعة، ص: ٩٤.

الصادق عليه السلام والعلم الحديث

قد يتساءل الناس. هل أن الإمام الصادق عليه السلام كان مستوعباً للعلم الحديث، أو كان يعلم الفيزياء والكيمياء والرياضيات وغيرها من العلوم؟ إن ما نقرأه عن أحوال الأئمة عليهم السلام ـ يشير إلى ذلك، وأنهم كانوا يجيبون بصورة ارتجالية دونما تفكير على أسئلة صعبة في حقول العلم الحديث، مسائل يحتاج حلها إلى تفكير وقت لا يستهان به، مسائل ما كان ليقوى على حلها العلماء من جميع الأمم في ذلك العهد. ولم نجد في ما نقرأه عن أحوال الأئمة عليهم السلام.. أنهم استمهلوا للإجابة على مسألة، أو عينوا موعداً للجواب، عدا ما بدر عن جميعهم عليهم السلام إخبار بالغيب طابق الواقع تماماً: فقد قال الإمام الرضا عليه السلام: «سوف لا يحج من ملوك بني العباس أحد بعد هارون» وكان كما أخبر به الإمام الرضا عليه السلام. وقال عليه السلام: «هارون وأنا كهاتين. وضم إصبعيه». قال الراوي: ما عرفنا معنى حديثه حتى دفناه معه[١].

وإن هذا العلم وأعني به علم الإمام عليه السلام على ضربين:

١ ـ علم مستقى من رسول الله صلى الله عليه وآله على حد قول الإمام علي عليه السلام: «علّمني رسول الله ألف باب من العلم، ينفتح لي من كل باب ألف باب»، وقوله: «سلوني قبل أن تفقدوني، هذا سفط العلم، هذا لعاب رسول الله، هذا ما زقني رسول الله زقاً»[٢]، وقوله: «سلوني، فإن عندي علم الأولين والآخرين... إلى ما هنالك من روايات كثيرة، كلها تدل على أن رسول الله صلى الله عليه وآله هو المعلم الأول لعلي عليه السلام في شتى العلوم، وعلي عليه السلام معلم الأئمة عليهم السلام».

٢ ـ وعلم يأتي من طريق الإلهام، وهو علم لدني (إن صح التعبير). فإن المكتشفات الحديثة تعتمد ـ في الدرجة الأولى ـ على الإلهام والحدس (Intuition) وما يراه المكتشف في حلمه (في عالم الرؤيا).

(١) أصول الكافي: ج١، ص٤٩١، باب مولد الرضا عليه السلام.
(٢) بحار الأنوار: ج١٠، ص١١٧، باب ٨.

يرى المكتشف في عالم الرؤيا أنه يُلهم مراحل حل مسألة رياضية صعبة لم يقوَ على حلها مدة مديدة. ويلهم صنع آلة، أو تركيب مواد وعناصر لصنع دواءٍ ناجع لمرض تعسر شفاؤه. . . إلى ما هنالك.

وقد جاء في الحديث: «العلم نور يقذفه الله في قلب من يشاء».

هذا العلم ليس بالعلم المادي فحسب، وإنما هو المعارف الإلهية أو الفلسفة الإلهية الحقة، تأتي كرشحاتٍ للنفس الزكية، برياضاتها وقيامها بأعمال صالحة، إنه علم بحقيقة الكون والحياة والوجود، إنه علم يفسر هذه الآية الشريفة، وهي قوله تعالى:

﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَـٰٓؤُا۟﴾ [فَاطِر: الآية ٢٨].

إنه علم جاء من مراقبة النفس وجعلها مطيعة لأوامر الله تعالى في كل صغيرة وكبيرة. . . إنه علم يورث الخشية، علم يمنُّ الله تعالى به على عبد هو مصداق هذا الحديث: «إن من أحب عباد الله إليه عبداً أعانه الله على نفسه، فاستشعر الحزن وتجلبب الخوف، فزهر مصباح الهدى في قلبه»(١).

إنه علم يتأتى من الإخلاص عند الصباح، على حد ما جاء في هذا الحديث: «من خلص لله أربعين صباحاً، جرت من قلبه على لسانه ينابيع الحكمة»(٢).

هذا النوع من العلم ـ العلم بما وراء الطبيعة والوقوف على فلسفة الكون الحقة ـ لا يتأتى إلا من ناحية التقوى وتزكية النفس: ومَن مثل الإمام المعصوم في مراتب التقوى وتزكية النفس؟ فنفوسهم عليهم السلام معصومة من الزلل، بالغة أسمى مراتب الزلفى، نتيجة التقوى، تقوى لا يقوى عليها غيرهم ـ صلوات الله عليهم، فهم منهج الإيمان، ومعادن الحقائق، وشفعاء الخلائق، ومفاتيح رحمة الله، ومقاليد مغفرته، وسحائب رضوانه، ومصابيح جناته، وحملة فرقانه، وخزنة علمه، وحفظة سره، ولهم القلوب التي تولى الله رياضتها بالخوف والرجاء وجعلها أوعية للشكر والثناء وآمنها من عوارض الغفلة وصفاها من سوء شواغل الفترة.

---

(١) نهج البلاغة: ص١١٨، خ٨٧.

(٢) بحار الأنوار: ج٥٣، ص٣٢٦.

فهم، على ما جاء في زيارة الجامعة: «خُزان العلم، ومنتهى الحلم وأصول الكرم وقادة الأمم وأولياء النعم، وعناصر الأبرار ودعائم الأخيار وساسة العباد وأركان البلاد وأمناء الرحمن وسلاسة النبيين وصفوة المرسلين وعترة خيرة ربِّ العالمين»[١].

* * *

نعم، إن الإلهام الرباني كان حليف المكتشفين وهم لم يقطعوا شوطاً في عالم التزكية. وإنهم ليعترفون بالإلهام الرباني في مكتشفاتهم ومخترعاتهم، ويقولون: تُملى علينا الحقائق والمعادلات والقوانين كأن شخصية مجهولة تلفتنا وتُملي علينا مراراً ومراراً، ونحن ندوِّن ما يملى علينا من خارج أنفسنا دون أن تكون لنا تجارب سابقة توصلنا إلى ذلك.

لقد سئل (فراداي) عن سر نجاحه الكبير فيما اكتشفه في العلوم الطبيعية والكيميائية والكهرباء ووضعه بعض الدساتير دون أن يكون بارعاً في الرياضيات التي تعتبر أساساً لما اكتشفه فقال:

«إنه ينظر إلى طبيعة الأشياء، فيرى ريشة سحرية تخط على صفحات عقله الآراء المبتكرة، فيمتحنها في مخبره ومختبره، فإذا بها هي الحقيقة (المنشودة)».

أما (ألبرت أينشتاين)، الذي يعدُّ من أعلم علماء العلم الحديث في القرن العشرين، فقد كان بطيء النمو والنطق، ضعيف العقل في صغره، حتى صار والده يقدم له أنواع الهدايا واللعب كي يتلافى ما عليه من نقص. وكان غير مختلط بالأطفال منعزلاً عنهم. وفجأة نظم أينشتاين أناشيد في مدح العزة الإلهية والدعاء والاستغفار. ويلج بعد ذلك ميادين الطبيعة والرياضيات العالية. ويقول هو عن ذلك: «كأن عاصفة قد انطلقت في رأسي تُلهمني المكتشفات».

والطبيب العلمي (باتنينك) مكتشف (الأنسولين) الذي يعالج مرض البول السكري، قد يئس من كشف دواءٍ ناجع بعد دراسات طويلة على الكلاب دامت مدة مديدة. وفي ليلة أجهد فيها نفسه في البحث. فلما ذهب إلى فراشه نام نوماً قلقاً. وفي

---

(١) مفاتيح الجنان؛ من زيارة خاصة جامعة لأئمة المؤمنين عن الإمام الهادي عليه السلام.

الساعة الثانية بعد منتصف الليل هب من سريره، وهو يستمع إلى قول يتردد في أذنه، ودوّنه في مذكرته وهو يغالب النوم: «اربط قناة البنكرياس في الكلب، ثم انتظر ستة أسابيع إلى ثمانية حتى تضمر، ثم استأصل بقيتها واصنع منها خلاصة».

وبعد أن دوّنها نام إلى الصباح. فذهب إلى (مكلود): رئيس قسم الفسلجة في كلية الطب بجامعة (تورنتو) الذي استمع إليه وهو يضحك مما يعتقد أنه أضغاث أحلام، أو أحلام متعب مكدود. فلما علم أن (بانتينك) يريد أن يبيع عيادته ليجري هذه التجارب وافق (مكلود) بدون اقتناعٍ بصحة ما سمع وسافر في إجازة وترك (بانتينك) ليجري تجاربه على عشرة كلاب. وقد نجحت تجاربه في ٢٧ يوليو ١٩٢١ وكان كما سمعها تتردد في أذنه وهو في منامه.

ويقول (جونسون) في كتابه: (المسألة الكبرى)، إن (دي ليفد) الموسيقيّ الشهير، إنما اشتهر في اختراعه: (لحن السماء) و (أغنية العميان) لأنه سمع هذين اللحنين وهو نائم، فلقن حالة النوم، ويقول: ليس هذان اللحنان من اختراعه!

وأما العلامة الرياضي الشهير: (هانري بوانكاره) حاول غير مرة أن يستكشف قانوناً عاماً لحل مجموعة معادلات جبرية، ولم يتمكن من ذلك إلا بعد أن رأى الحل مكتوباً تفصيلاً في نومه وهو القائل كلمته المشهورة: «نحن الرياضيون، إنما نعمل لأجل الفيزياء والفلسفة»!، علماً منه أن الفلسفة الحقيقية يجب أن تبتني على العلم الصحيح الذي لا غبار عليه وقد خرج من مرحلة الظن والاحتمال ولا يقبل الشك والترديد وهو الرياضيات البحتة.

عندما كنت أدرس في المتوسطة، عصت مسألة هندسية على مدرس الهندسة، فلم يقوَ على حلها وطلب إلي أن أحلها. فحاولت أن أحلها وأنا في الترام في طريقي من بغداد إلى الكاظمية فلم أستطع، واشتغلت فيها ليلاً، فلم أستطع، حتى إذا كان الصبح، فصليت صلاة الصبح، ثم قلت في نفسي لأصلّي ركعتين وأسأل الله بعدهما أن يمن علي بالحل. فبينما أنا في التشهد إذ تتراءى لي خطوط أوصلتها فحلت المسألة بصورة بسيطة وأنا في حال التشهُّد.

كان المسلمون الأوائل: عندما كان الغربيون يؤمون جامعات الشرق، المستنصرية، جامعة القاهرة جامعات الأندلس، يسألون الله تبارك وتعالى في حل مشاكلهم العلمية ويقال عن كثير منهم: إذا تعسرت على أحدهم مسألة، صلى ركعات وسأل الله تعالى حل مسألته وإذا بها تحل بأمر الله وإلهامٍ منه تعالى.

والمعروف؛ أن الدكتور جيمس كريكوري الفلكي الرياضي الأسكتلندي إنما حصل على أبرع آرائه العلمية خلال أحلامه.

فالله تبارك وتعالى هو الملهم للنحل لصنع بيوتها الهندسية على شكل مسدسات منتظمة، ذلك لأن من لم يدرس في المدارس المتوسطة لا يقوى على رسم مسدس منتظم. ولا يعلم أن ضلع المسدس المنتظم يساوي نصف قطر الدائرة المحيطة به إلا مَن درس الهندسة ونظرياتها. وفي أية مدرسة متوسطة درس النحل البراهين الهندسية ونظرياتها حتى يبني بيته العجيب على شكل مسدسات منتظمة تنعدم المسافة بينها، مسافات لا فائدة منها؟.

ولا يوجد إلا ثلاثة أشكال تبنى منها غرف متصلة تنعدم الفاصلة بينها. وهذه الأشكال هي: المثلث المتساوي الأضلاع والمربع والمسدس المنتظم وهو أصعبها في التنفيذ. وهو ما يقوم به النحل. لذلك يقول العالم: (مترلينك): «لو أن أحداً من عالم آخر هبط إلى الأرض وسأل عن أكمل ما أبدعه منطق الحياة، لما وسعنا إلا أن نعرض عليه مشط الشمع المتواضع الذي يبنيه النحل».

وأن النظام المعماري العجيب الذي نجده في أعشاش النمل مما يدل دلالة واضحة أن الله هو الذي يُلهم النمل في صنع عشه، صنعاً كان يعجز عنه الإنسان القديم مع ما أوتي من عقل وفكر. فالنمل يصنع بناءاً ذا عشرين طابقاً، قد حقق في كل طابق ما يحتاجه النمل من حرارة مناسبة ورطوبة وتهوية وقاعات للاجتماع وغرف لتربية الصغار.. إلى ما هنالك.

على أن النمل يملك جيوشاً منظمة، يمارس من أنواع الحروب التي يمارسها الإنسان، كالحرب المكشوفة، والهجوم الشامل والتعبئة العامة وحرب الخنادق

والمفاجآت وخطط التسلل وحرب الإبادة الشاملة والحصار والاقتحام والهجوم والتقهقر والانسحاب الاستراتيجي. إلا أنها تتميز بميزتين أساسيتين، عجيبتين، الأولى: احترام ملكية الغير احتراماً كاملاً والثانية: تقديم الطعام للنمل الجائع.

وللنظر إلى أخلاق النمل عندما تقدم طعاماً لغيرها من النمل من داخل معدتها، إذ أنه حين تخرج الطعام لغيرها من معدتها تصبح واضحة السعادة فرحة. حتى أن النملة لا تستطيع مقاومة تضرعات العدو الجائع، فتقدم له حاجاته من الطعام قبل احتدام القتال.

فليتعلم الإنسان من النمل هذه الأخلاق الرفيعة!

وهكذا نرى أن الإلهام من جانب الله تعالى ضارب بأطنابه في أرجاء الكون. وإن حصة الإنسان من هذا الإلهام الرباني أكبر من غيره من المخلوقات وكيف لا يكون الإمام عليه السلام مع ما أوتي من نفس زكية طاهرة مُلهماً علوماً شتى ومعارف جمّة يعجز عن الوصول إليها البشر العادي.

* * *

يروي لنا الجنابذي في معالم العترة الطاهرة عن صالح بن الأسود: سمعت جعفراً الصادق يقول: «سلوني قبل أن تفقدوني، فإنه لا يحدثكم أحد بعدي بمثل حديثي. فكان يقول: حديثي حديث أبي، وحديث أبي حديث جدي، وحديث جدي حديث علي بن أبي طالب، وحديث علي حديث رسول الله»[١].

نعم، قد أملى الإمام الصادق عليه السلام خمسمائة رسالة في علم الكيمياء على جابر بن حيان.

يقول: (هولميارد): «إن جابراً هو تلميذ جعفر الصادق أو صديقه، وقد وجد إمامه الفذ سنداً ومُعيناً وراشداً أميناً وموجهاً لا يستغنى عنه. وسعى جابر بن حيان أن يحرر الكيمياء بإرشاد أستاذه من أساطير الأولين التي علقت بها من الاسكندرية[٢] فنجح في هذا السبيل إلى حد بعيد، ومن أجل ذلك يجب أن يقرن اسم جابر مع أساطين هذا الفن في العالم مثل: بويله، بريستله، لاووازيه وغيرهم من الأعلام».

---

(١) كشف الغمة: ج٢، ص١٦٢.
(٢) الإمام الصادق: ملهم الكيمياء. ص: ٣٧.

وقد يستغرب بعض الكيميائيين من علم الإمام عليه السلام في الكيمياء مع كونه في المدينة! لذلك، يقول: (روسكا): «إنه لمن المستحيل على جعفر أن يكون كيميائياً، فليس من الممكن أن يتعاطى تلك الصنعة سواءً كان نظرياً أم عملياً وهو في المدينة».

ذلك، لأن روسكا وأمثال روسكا لم يصلوا إلى حقيقة الإمامة. وكيف أن الله تعالى يُجري على يدي الإمام الخوارق والمعاجز إظهاراً لإمامته، كما يجري ذلك على أيدي الأنبياء عليهم السلام، وهو على كل شيء قدير.

فجابر بن حيان الذي يُعد من أساطين علم الكيمياء يذكر في رسائله: أن جعفر بن محمد هو الذي، قال له، أو علّمه، أو ألقى عليه، أو حدثه بكذا، ويقول في رسائله الموسومة بـ (المنفعة) أخذت هذا العلم عن جعفر بن محمد عليه السلام.

كان يقول الإمام علي عليه السلام: «في التجارب علم مستأنف». وها هو جابر بن حيان تلميذ الإمام الصادق عليه السلام، يقول[١]: ملاك هذه الصنعة العمل. فمن لم يعمل ولم يجرب لم يظفر بشيء أبداً، ويقول جابر بن حيان في مقام آخر:

«إن الأصل كان من الطبائع لا من غيرها. فالوصول إلى معرفتها ميزانها. فمن عرف ميزانها عرف كل ما فيها، وكيف تركبت. والدربة مخرج ذلك. فمن كان درباً، كان عالماً حقاً، ومن لم يكن درباً لم يكن عالماً. وحسبك في الدربة في جميع الصنائع. إذ الصانع الدرب يحذق وغير الدرب يعطل».

نعم، إن جابراً قد تعلم من أستاذه الصادق عليه السلام علماً سماه: علم الموازين، في الكيمياء وهي المعادلات الكيمياوية التي نجدها في الكتب الحديثة، مثال ذلك[٢]:

$$2H_2\,SO_4 + CU = CU\,SO_4 + SO_2 + 2H_2O$$

$$S + CU + O_4 = CU\,SO_4$$

---

(١) فلاسفة الشيعة: ص، ٢١٢.

(٢) يراد بـ: S الكبريت؛ وبـ: (CU) النحاس؛ وبـ: (O) الأوكسجين؛ وبـ: (H_2SO_4) حامض الكبريتيك؛ وبـ: (H_2O) الماء؛ وبـ: ($CuSO_4$) كبريتات النحاس؛ وبـ: (SO_2) ثاني أوكسيد الكبريت.

وقد علمه الإمام الصادقعليه السلام كيفية استحضار الحامض الكبريتيك، والحامض النيتريك، وهو أول من اكتشف (الصودا الكاوية)، وأول من استحضر ماءَ الذهب وأول من أدخل طريقة فصل الذهب عن الفضة بالحل بواسطة الحامض، ولا تزال هذه[1] الطريقة تستخدم إلى الآن في تقدير عيارات الذهب في السبائك وغيرها، وهو كذلك أول من لاحظ ما يحدث من راسب (كلورور الفضة) عند إضافة محلول ملح الطعام إلى محلول نترات الفضة.

ويُنسب إلى جابر أيضاً، وهو ما تعلمه من إمامه الصادقعليه السلام، استحضار مركبات أخرى غير التي مرت، كـ (كاربونات البوتاسيوم)، و (كاربونات الصوديوم)، واستعمل (ثاني أوكسيد المنغنيز) في صنع الزجاج، وتعلم جابر خصائص ومركبات الزئبق واستحضرها. وقد استعمل بعضها فيما بعد في تحضير (الأوكسيجين). ولا يخفى أن جميع هذه المركبات ذات أهمية كبرى في عالم الصناعة، فبعضها يستعمل في صنع المفرقعات والأصبغة، وبعضها الآخر في السماد الصناعي والصابون والحرير الصناعي.

وقد تعلَّم جابر من أستاذه الإمام الصادقعليه السلام الطرق التجريبية والعمل في المختبر، ثم المشاهدة والاستنتاج. وكان يقول: «إن واجب المشتغل بالكيمياء هو العمل وإجراء التجربة، وأن المعرفة لا تحصل إلا بها».

* * *

كان الإمام الصادقعليه السلام، عدا علمه بموازين الكيمياء يعلم منطق الطير. وإن العلم الحديث ليعترف بمنطق الطير وحركات خاصة، لها معانٍ يتفهمها الطير المخاطب.

فقد قال جابر بن حيان: «كنت عند مولاي الصادقعليه السلام، إذ سقطت بين يديه حمامتان، فهدل الذكر على الأنثى، ثم جاء إليها وأحكم برأسها منقاره، وبعد قليل طارا. فقلت يا مولاي، ما كان من أمرهما؟ فقال: الذكر إتهم الأنثى بفرية، فأنكرت، وما زال بها حتى حلفت بالبراءة من المولى، عندئذ صدقها»[2].

* * *

---

(١) فلاسفة الشيعة: ص: ١٨٨.

(٢) أصول الكافي: ج١، ص٤٧٠، باب مولد الصادقعليه السلام.

قد وضع جابر بن حيان ألف وثلاث مائة مؤلّفاً في الحيل (الميكانيك) و خمس مائة مؤلّفاً في الطب، ولا شك أن جابراً، ما كان ليقوى على أن يأتي بهذه المؤلفات لاسيما، في الميكانيك، إلا إذا استقاها من منبع فياض نمير ألا وهو إمامه الصادق عليه السلام، ذلك لأن ما هو مدوَّن الآن في علم الميكانيك بصورة موضوعية دون تكرار نفس الموضوع، مثل ما يدون (في دائرة المعارف للعلوم) لا يمكن أن يتجاوز ٣٠٠٠ صفحة بما في ذلك: الميكانيك العادي والميكانيك الرياضي: Mecanique rationnelle ولو كانت مؤلفات جابر بن حيان في الميكانيك موجودة لحد الآن لخطا العلم في حقل القوى والحركات خطوات ناجحة، سريعة، ولكانت ثروة عظيمة في حقل العلم المادي، للمخترعين والمكتشفين.

* * *

إن جابر بن حيان كان يعظم إمامه الصادق عليه السلام أيما تعظيم ويقسم به كثيراً في المعضلات، من جملة ذلك: قوله:

«وهذا، وحق سيدي كلام جوهري، نقي، ما فيه شوب ولا رمز». ومن جملة كلامه:

«أتعلم ما قد كشفت للناس فيه، فإن لم تصل إليه فاطلبه فإنه يخرج لك جميع غوامض كتبي وجميع علم الميزان، وجميع فوائد الحكمة، وتصبر به، وحق سيدي عليه السلام، من أهل الصنعة، وتعلم الصالح من الفاسد والسلام»[١].

* * *

ويقول في مقام آخر: «وحق سيدي، ما وقعت كتبي إلى إنسان، فضيعه الله، بل يكون له رزق، ولو اجتهد الناس كلهم على حرمانه ما أمكنهم».

* * *

وقد سئل أبو عبدالله الصادق عليه السلام: كما جاء في الوسائل في باب الإجارة: عن رجل قبّل رجلاً حفر بئرٍ عشر قامات بعشرة دراهم. فحفر قامة، ثم عجز. فقال له: جزء من خمسة وخمسين جزءاً من العشرة دراهم[٢].

---

(١) الإمام الصادق: ملهم الكيمياء، ص: ١١٣. (٢) وسائل الشيعة: ج١٩، ص١٥٩، باب ٣٥.

من الواضح المعلوم أن التعب الذي يصيب الرجل في حمل مقدار من التراب إلى مسافة مترين ضد الجاذبية الأرضية هو ضعف ما يصيبه لنقل مثل ذلك المقدار من التراب إلى مسافة متر واحد فقط ضد الجاذبية الأرضية. فإن القوة التي تصرف ضد الجاذبية الأرضية لرفع كيلوغرام واحد إلى مسافة متر واحد يطلق عليها في الفيزياء (كيلوغرام ـ متر) = كغم/ متر.

فإذا رفعنا الكيلوغرام الواحد إلى مسافة مترين كانت القوة المصروفة تعادل ٢ كيلو غرام ـ متر: ٢ كغم/ م. وإذا رفع ٣ كيلو غرامات إلى أعلى كانت القوة المصروفة ٣ كغم/ م. وهكذا.

فالطاقة التي صرفت لرفع مقدار معين من التراب ضد الجاذبية الأرضية إلى ارتفاع قامتين هي ضعف ما يصرف إلى ارتفاع قامة واحدة وهكذا. فلنحسب وحدات الطاقات المصروفة لحفر البئر كلها بهذا الاعتبار:

١ + ٢ + ٣ + ٤ + ٥ + ٦ + ٧ + ٨ + ٩ + ١٠ = ٥٥ وحدة أو حصة. فيجب أن يقسم ١٠ دراهم على ٥٥ حصة: $\frac{١٠}{٥٥}$ من الدرهم وهذا ما يستحقه المستأجر من المبلغ كله إزاء حفره قامة واحدة.

فيها: ١ + ٢ + ٣ + ٤ ... + ... + ١٠ متوالية عددية أساسها = ١

والحد الأول = ١ وعدد الحدود = ١٠ والحد الأخير = ١٠

أي د = ١، أ = ١، ن = ١٠، ل = ١٠

فمجموع الحدود حسبما معروف في الجبر:

$$\text{ح} = \frac{\text{ن}}{٢}(\text{أ} + \text{ل}) \quad \text{وبالتعويض}$$

$$\text{ح} = \frac{١٠}{٢}(١ + ١٠) = ٥ \times ١١ = ٥٥$$

أو باستعمال الأساس:

$$\text{ح} = \frac{\text{ن}}{٢}[٢\text{أ} + (\text{ن} - ١)\,\text{د}] \text{، وبالتعويض}$$

$$\text{ح} = \frac{١٠}{٢}(٢ + ٩) = ٥ \times ١١ = ٥٥$$

وإن الإمام الصادق عليه السلام كان عالماً بالطب إلى حد بعيد. وأن ما دوَّنه جابر بن حيان في الطب في مؤلفات جمة إنما هو مستقى من علم الإمام الصادق عليه السلام وما جاء في توحيد المفضل عن طبائع الأشياء وفوائد الأدوية وما جاء فيه من معرفة الجوارح التي تكفل بها علم التشريح ومناظراته مع الطبيب الهندي، كل ذلك دلائل واضحة على ما كان للصادق عليه السلام من علم واسع في حقل الطب وطبائع الأشياء. وهو القائل: «إن لكل ثمرة سماً. فإذا أتيتم بها، فمسوها بالماء أو اغمسوها في الماء»(١).

وبقوله: «إنا أهل بيت لا نتداوى إلا بإفاضة الماء البارد، يُصب علينا»(٢). وقد نطقت الأخبار ودلت الآثار أن الإمام الصادق عليه السلام قد كلم الفرس بلسانهم وأهل اللغات المختلفة بلغاتهم وناظر أهل كل علم وفن فخصمهم مثل علماء النجوم والفلك، والطبيعيات والطب وما عداها.

* * *

والإسلام دين يحث على العلم والتعقل والتفكر والنظر إلى حد بعيد وذلك بقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ۝١٧ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ۝١٨ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ۝١٩ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ۝٢٠﴾ [الغاشية: الآيات ١٧/ ٢٠].

وبقوله:

﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝١٦٤﴾ [البقرة: الآية ١٦٤].

وبقوله: ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ۝٥٨﴾ [المائدة: الآية ٥٨].

وبقوله: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝٣٢﴾ [الأنعام: الآية ٣٢].

---

(١) الكافي: ج٦، ص٣٥٠، أبواب الفواكه.

(٢) الكافي: ج٤، ص٢٢٩، باب كراهة أن يؤخذ من تراب البيت.

وبقوله: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأنعام: الآية ٥٠].

وبقوله: ﴿قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ﴾ [يونس: الآية ١٠١]...

وبقوله: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾﴾ [ق: الآية ٦].

وبقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾﴾ [فاطر: الآيتان ٢٧/٢٨].

وقد أمر الله تعالى رسوله الكريم أن يدعوه بهذا الدعاء: «رب زدني علماً».

فكان للمسلمين مكتشفات هامَّة استجابةً للآيات القرآنية المتقدمة وأحاديث نبوية، منها: «تعلموا العلم من المهد إلى اللحد». «تعلموا العلم ولو بالصين».

* * *

واضح أن الإمام الصادق عليه السلام لم يجد بيئةً صالحة لبث علومه الجمة، إذ أن الوسط الاجتماعي لم يكن وسطاً علمياً مركزاً كما نراه اليوم. لذلك، لم يكن للمسلمين حظ وافر للاستفادة من علومه في حقول شتى. على أن ما أودع الله من خواص ومعادلات وقوانين في أجزاء هذا الكون تكاد لا تتناهى، فكلما عثرنا على قانون أو خاصية جاءت وراءها قوانين وخواص تدهش الألباب.. فالكيمياء الذرية الحديثة علم حديث يحاول الوقوف على سر الخلق! وهيهات!! نعم، صاروا يقولون: الحياة، تفاعلات كيميائية، ولكنها ليست كتلك التي تجري في الأواني والأوعية في المختبرات، فللأوعية والمخابر كيمياؤها وللحياة كيمياؤها؛ أنهم بحثوا عن المادة الكيميائية التي يختبئ وراءها سر الحياة، فوجدوها في حمض، سموه: الحمض النووي! وأشاروا إليه بأحرف: D N A ثم صاروا يقولون: إن سر الحياة يختبئ وراء هذا الحمض، حتى قالوا أن الحياة هي هذا الحمض نفسه لا غير[1]!؟

---

(١) مجلة حضارة الإسلام: السنة الرابعة، العدد السادس.

ولقد أخذ علماء الكيمياء الحيوية يبحثون في الحموض النووية، فألفوها متصفة بصفات خاصة لا عهد لهم بأمثالها في الحوامض المعروفة. وكان أعظم هذه الصفات شأناً قدرة الحوامض المذكورة على التكاثر العفوي وتمكنها من التمثل، ولقد أمكن بطرق كيمياوية معقدة وأساليب دقيقة استخلاصها، فتبين أنها تتألف من ثلاثة عناصر رئيسية تؤلف وحدة صغيرة تتسلسل وتتكرر بشكل شريط أو سلسلة طويلة تقابلها سلسلة أخرى مثلها، تصطف أمامها وتلتف إحداهما حول الأخرى بشكل حلزوني ويربط بين السلسلتين، بمسافات متساوية الأبعاد، روابط هيدروجينية تجعل شكلها النهائي كشكل سلم لولبي أو درج مأذنة مستديرة. ولقد تبيَّن أن ما يميز حمضاً نووياً من آخر هو طريقة ترتيب المواد الواحدة الداخلة في كل منها، كما أن غياب أحدها واستبداله بنوع آخر يؤدي إلى تغير في طبيعة الحمض النووي، وقد شبهوا ذلك بكلمات من حروف محدودة يتبدل معناها ويتباعد باختلاف ترتيبها، فإن حرف: ح، س، ب، إذا تتابعت فيها الحروف ح، س، ب، كان معناها: حسب، من الحساب، وإذا تعاقبت بالترتيب الآتي: س، ح، ب، كان معناها سحب من السحب. لقد صاغوا الحمض النووي وبلوروه، فكان من ذلك: حمض: ظنوه سر الأسرار! ولكنه بدا عاجزاً عن التكاثر بصورة عفوية، كما يتكاثر الحمض النووي الذي وجد في الحمات. كانت صبغات الحمضين واحدة ولكن الفرق بينهما عظيم جداً؛ هو الفرق بين الحياة والموت، هو الفرق بين الصم العديم الروح والجسد الحي الآهل بالروح. لقد كان عنصراً طبقوا عليه تعبير سرّ الأسرار!!.. ولكن ينقصه الواجب الوجود الأزلي وهو قدرة الباري جلَّ جلاله الخلاقة واهبة الحياة ونافخة الروح.

فما هي الروح كيف تدب في الأجسام الكيمياوية سؤال شغل العلماء والفلاسفة منذ قديم الزمان. ولا يزالون في أول المرحلة، وهو الاعتراف بواجب الوجود وهو الله تعالى وسيبقون كذلك أبد الآبدين. وهو قوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾ [الإسراء: الآية ٨٥].

لذلك، يقول عدد من علماء الفضاء والذرة الأمريكيين والروس: «وكلما ازددنا علماً بالفضاء وأسباب الحياة زاد جهلنا».

ويقول: (لنكولن بارنت): «إن ما يدركه الإنسان عن الحقيقة التي تحيط به محدود، بسبب عجز جهاز الإبصار عنده، ولو أن عينه كانت أكثر حساسية، فتدرك مثلاً موجات الأشعة السينية لبدت له الدنيا مختلفة تماماً عما يراها الآن».

حقاً، إن الإنسان لا يزال ناقصاً في ملكاته وقابلياته سواء منها الحواس وقابلية التفكير، وسيبقى ناقصاً ويظل يتتبع ويجد فيفتح له باب من العلم بهذا الكون الرحيب وإذا به أمام أبواب لا تتناهى من المجاهيل وهكذا أبد الآبدين. ذلك، لأن ما أودع الله تعالى من خواص وتركيبات معقدة في كل جزء أو جزيء أو ذرة من هذا الكون المعقد تكاد لا تتناهى وهو قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ﴾ [لقمَان: الآية ٢٧].

نعم، كل هذه المكتشفات وما أملاه الإمام من علوم تساعد على معرفة الله، لو طهرت النفوس من أدرانها وأرجاسها ولم تحجب عن التقرب إلى الله بالمدنسات. ذلك لأن: «كثرة العلم في غير طاعة الله مادة الذنوب»(١).

وإن معرفة الله تعالى غاية الغايات والعلوم المادية تبرهن على عظمة الله تعالى وسعة علم الله الذي لا يتناهى. ولا شيء ألذ من معرفة الله تعالى وتسبيحه وتقديسه. ولنستمع إلى ما يقوله الإمام جعفر بن محمد عليه السلام في معرفة الله تعالى:

إنه عليه السلام يقول: «لو يعلم الناس ما في فضل معرفة الله عزَّ وجلَّ ما مدوا أعينهم إلى ما متع الله به الأعداء من زهرة هذه الحياة الدنيا ونعيمها وكانت دنياهم أقل عندهم مما يطؤونه بأرجلهم ولنعموا بمعرفة الله عزَّ وجلَّ وتلذذوا بها تلذذ من لم يزل في روضات الجنان مع أولياء الله. إن معرفة الله عزَّ وجلَّ أُنس من كل وحشة، وصاحب من كل وحدة، ونور من كل ظلمة، وقوة من كل ضعف، وشفاء من كل سقم»(٢).

استمعوا إلى ما يقوله الشهرستاني في إمامنا جعفر الصادق عليه السلام: «هو ذو علم غزير في الدين، وأدب كامل في الحكمة وزهد بالغ في الدنيا، وورع تام عن الشهوات، وقد أقام بالمدينة مدة يفيد الشيعة المنتمين إليه، ويفيض على الموالين له أسرار العلوم، ثم

---

(١) من كلام للإمام علي عليه السلام.

(٢) الكافي: ج٨، ص٢٤٧، حديث القباب.

دخل العراق وأقام بها مدة، ما تعرض للإمامة قط، ولا نازع أحداً في الخلافة، ومن غرق في بحر المعرفة لم يطمع في شط، ومن تعلى إلى ذروة الحقيقة لم يخف من حط. وقيل: من أنس بالله استوحش من الناس، ومن استأنس بغير الله نهبه الوسواس»[١].

ومن كلماته سلام الله عليه: «من طلب الرياسة هلك».

يُروى: أن سفيان الثوري، الذي كان محدث العراق وواعظ الكوفة حضر مجلس الإمام الصادق عليه السلام والإمام صامت لا يتكلم، فقال الثوري: «لا أقوم حتى تحدثني». فقال الصادق عليه السلام: «أنا أُحدثك، وما كثرة الحديث لك بخير يا سفيان... إذا أنعم الله بنعمة، فأحببت بقاءها ودوامها، فأكثر من الحمد والشكر عليها، فإن الله عزَّ وجلَّ قال في كتابه: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: الآية ٧]، وإذا استبطأت الرزق فأكثر من الاستغفار، فإن الله عزَّ وجلَّ قال في كتابه: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا ﴿١٢﴾﴾ [نوح: الآيات ١٠/١٢]... يعني في الآخرة، يا سفيان، إذا حزنك أمر من سلطان أو غيره فأكثر من «لا حول ولا قوة إلا بالله» فإنها مفتاح الفرج. وكنز من كنوز الجنة، فعقد سفيان بيده، وقال: «ثلاث وأي ثلاث»[٢].

وكان أبو حنيفة يروي عن الإمام الصادق عليه السلام، ومع أنه كان في مثل سن الصادق عليه السلام لم يتأبَّ عن الأخذ عنه، فقد صحب الصادق عليه السلام سنتين وكان يقول: «لولا السنتان لهلك النعمان».

وإن الإمام الصادق سلام الله عليه كان إذا التقى بأبي جعفر المنصور يقول الحق تصريحاً وتلميحاً، ويروى أن ذباباً حام حول وجه المنصور حتى أضجره، وأبو عبدالله عليه السلام في المجلس، فقال: «يا أبا عبدالله، لِمَ خلق الله الذباب»؟ فقال الصادق عليه السلام: «ليذلَّ به الجبابرة»[٣].

---

(١) الملل والنحل للشهرستاني: ص ١٦٣.
(٢) بحار الأنوار: ج٧٥، ص٢٢٦، باب ٢٣.
(٣) بحار الأنوار: ج٤٧، ص١٦٦، باب ٦.

وقد كتب إليه المنصور قائلاً: «لِمَ لا تغشانا كما يغشانا سائر الناس»؟ فأجابه الصادق عليه السلام: «ليس لنا ما نخافك من أجله، ولا عندك من أمر الآخرة ما نرجوك له، ولا أنت في نعمة فنهنيك، ولا نراها نقمة فنعزيك». فكتب إليه المنصور: «تصحبنا لتنصحنا»، فأجابه: «من أراد الدنيا لا ينصحك، ومن أراد الآخرة لا يصحبك»(١).

انظروا إلى ما يقوله (مالك) عن الإمام الصادق عليه السلام، إنه يقول: «لقد كنت آتي جعفر بن محمد، وكان كثير التبسم، فإذا ذكر عنده النبي صلى الله عليه وآله، اخضر واصفر، ولقد اختلفت إليه زماناً، فما كنت أراه إلا على إحدى ثلاث خصال: إما مصلياً، وإما صائماً، وإما يقرأ القرآن، وما رأيته قط يحدث عن رسول الله صلى الله عليه وآله إلا على الطهارة، ولا يتكلم فيما لا يعنيه، وكان من العلماء العباد الزهاد الذين يخشون الله. وما رأيته إلا يخرج الوسادة من تحته وجعلها تحتي». وجعل يعدد فضائله.

ولقد سئل سلام الله عليه: لماذا حرم الله الربا؟ فأجاب: «لئلا يتمانع الناس»(٢). وهو الحق، ذلك لأن الناس إذا كانوا لا يقرضون إلا بالربا ما وجد تعاون بينهم وعند عدم وجود التعاون حصل التمانع بينهم وإذا حصل التمانع أحضرت الأنفس الشح.

وقد بلغ الإمام مرتبة قاصية من السخاء، فكان يعطي حتى لا يبقي لعياله شيئاً. وكان يقول: «لا يتم المعروف إلا بثلاثة: بتعجيله وتصغيره وستره»(٣).

وكان الإمام الصادق عليه السلام حليماً، سمحاً، إلى أبعد حد، ويقابل الإساءة بالتي هي أحسن عملاً بقوله تعالى: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾ [فُصّلَت: الآية ٣٤]. وكان يقول: «إذا بلغك عن أخيك شيء يسوؤك فلا تغتم، فإنه إن كان كما يقول فيه القائل كانت عقوبة قد عجلت، وإن كانت على غير ما يقول، كانت حسنة لم يعملها»(٤).

وكان عليه السلام رفيقاً مع كل من يعامله من عشراء وخدم. يروى في ذلك: أنه بعث غلاماً له في حاجة فأبطأ فخرج يبحث عنه، فوجده نائماً، فجلس عند رأسه، وأخذ يروِّح له

---

(١) بحار الأنوار: ج٤٧، ص١٨٤، باب ٦.
(٢) مستدرك الوسائل: ج١٢، ص٣٤٤، باب ١.
(٣) أعلام الدين للديلمي: ص٢٧٥.
(٤) بحار الأنوار: ج٧٥، ص٢٠٥، باب ٢٣.

حتى انتبه، فقال له: «ما ذلك لك. تنام الليل والنهار! لك الليل، ولنا منك النهار»[١].

وكان عليه السلام يدعو الله أن يغفر لمن أساء إليه. فقد كان إذا بلغه نيل منه أو شتم له في غيبته، يقوم ويتهيأ للصلاة، ويصلي طويلاً، ثم يدعو ربه: ألا يؤاخذ الجاني، لأن الحق حقه، وقد وهبه الجاني غافراً له ظلمه وكان يعتبر: من ينتقم من عدوه ـ وهو قادر على الانتقام ـ ذليلاً. وقد نقل عن رسول الله ﷺ إنه قال: «ما نقص عَفو من عزّ، وما نقص مال من صدقة»!.

وكان الإمام الصادق عليه السلام صبوراً إلى حد بعيد. فقد مات بين يديه ولد صغير له، فبكى وقال: «لئن أخذت لقد أبقيت، ولئن ابتليت لقد عافيت» ثم حمله إلى النساء، فصرخن حين رأينه، فأقسم عليهن أن لا يصرخن، ثم أخرجه إلى الدفن وهو يقول: «سبحان من يقبض أولادنا، ولا نزداد له إلا حباً»، ويقول بعد أن واراه التراب: «إنا قوم نسأل الله ما نحب فيمن نحب فيعطينا، فإذا أحبَّ ما نكره فيمن نحبُّ رضينا»[٢].

وهكذا كان الإمام الصادق عليه السلام مثالاً رائعاً في كل فضيلة، وكان رجلاً مثالياً في كل صفة من صفات الكمال. فهو الإمام حقاً بعلمه، وعبادته وسيد صفاته وجهاده المبين. فيجدر بفلاسفة العالَم أن يستقوا من علمه ويقتدوا بسيرته ويصححوا فلسفتهم على ضوء معارفه فيخرجوا الناس من الظلمات إلى النور. فقد قال الله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النُّور: الآية ٤٠].

هل ينقذنا العلم فحسب

كانت أوروبا في القرون الوسطى تتسكع في دياجير الجهل والخرافة والانحطاط المرير نتيجة الرهبانية التي كان يتعاطاها القساوسة ورجال الدين، وانتشرت حياة العزوبة التي كانت الرهبان يزينونها للناس ويرغبون فيها، مما أدى إلى قلة النفوس وانتشار الأوبئة والأمراض في طول القارة الأوربية وعرضها، وقد دس هؤلاء الرهبان

---

(١) بحار الأنوار: ج٤٧، ص٥٦، باب ٤.
(٢) بحار الأنوار: ج٤٧، ص١٨، باب ٤.

في كتبهم المقدسة معلوماتٍ بشرية ومسلمات عصرية عن التاريخ والجغرافية والعلوم الطبيعية بمقدار ما كان موجوداً في ذلك العصر، وعدوا ذلك مقررات دينية لا يمكن أن تتبدل أو تتغير، حين أن العلوم الطبيعية رهينة التجربة والبحث. ولم تكن الطريقة التجريبية متأصلة في ذلك الوقت. فجاء دور التجربة والمشاهدة والبحث على ضوء التجارب المتكررة، بالآلات والأدوات وأجهزة خاصة، فثبت إذ ذاك عدم صحة ما دوَّنه الرهبان في كتبهم الدينية عن الفلك والأمطار والزوابع والرعد والبرق... إلى ما هنالك فحصل شجار وتضارب بين المكتشفات المستندة إلى التجربة والاستقراء وبين ما دوَّن من الخرافات في الكتب الدينية من قبل الرهبان. أي حصل كفاح مشئوم بين الدين والعقل، والعلم الذي انهزم فيه الدين، ذلك الدين المختلط بعلم البشر المتغير من وقت إلى وقت، ذلك العلم الذي فيه الحق والباطل والخالص الزائف هزيمةً منكرة، وسقط رجال الدين في أوروبا سقوطاً لم ينهضوا بعده، وكانت نتيجة ذلك: أن أمست أوروبا لا دينية على وجه التقريب.

ولم يكتف الرهبان بما أدخلوه من معلومات بشرية زائفة في كتبهم الدينية، بل صبغوا هذه المعلومات الطبيعية أو الجغرافية الناقصة أو الزائفة صبغة دينية يجدب الاعتقاد بها، ووصموا غير المؤمن بها بالكفر، حتى أنهم ألقوا كتاباً أسموه: «الجغرافية المسيحية»! : Christian geography فيه من الخرافات ما أنزل الله به من سلطان وقالوا بكفر مَن يدين بها. إلا أن علماء الطبيعة حطموا سلاسل التقليد الديني، فرفضوا هذه النظريات، الجغرافية المغلوطة وغيرها من معلومات زائفة المدوَّنة باسم الدين في كتب الدين. وأعلنوا اكتشافاتهم ونتائج اختباراتهم، فقامت قيامة الكنيسة وقام رجالها المتصرفون في زمان الأمور في أوروبا، وكفّروا كل من لا يؤمن بما جاء من الخرافات المدسوسة في كتب الدين، (والدين منه براء)، واستحلوا دماءهم وأموالهم وأنشأوا محاكم التفتيش التي كانت تعاقب وتُعدم أولئك الملحدين والزنادقة! أي الذين لا يؤمنون بمعلومات مشوشة مغلوطة جغرافية دسَّت في كتب الدين باسم الدين.

وقد عاقبت هذه المحاكم ثلاث مائة ألف عالم وأحرقت منهم (٣٢٠٠٠) أحياءاً،

كان منهم العالم الطبيعي المعروف برونو، نقمت منه الكنيسة آراءاً من أشدها قوله بتعدد العوالم، وحكمت عليه بالقتل واقترحت بأن لا تُراق قطرة من دمه. ومعنى ذلك أنه يجب أن يُحرق حياً.

كما أنه حكم على (گاليلة Calilio) بالقتل لقوله بحركة الأرض حول الشمس، ولكنه كان صديقاً للبابا وحلف بالأناجيل كلها أمام محكمة التفتيش أن لا حركة للأرض! فسجن مدة من الزمن. ونجا من الإعدام.

ونتيجة لهذا الصراع بين العلم والكنيسة قرر الثائرون من علماء الطبيعة الذين كان علمهم مستنداً إلى الطريقة التجريبية: أن العلم والدين ضرتان لا تتصالحان[1]، وإن العقل والنظام الديني ضدان لا يجتمعان، فمن استقبل احدهما استدبر الآخر، ومن آمن بأحدهما، فقد كفر بالآخر.

وإذا جاء ذكر الدين، تذكروا تلك الدماء البريئة التي أريقت في سبيل التحقيق العلمي على أساس التجربة والمشاهدة والبحث العلمي الصحيح وتلك القسوة التي أظهرتها رجال الكنيسة ضد العلم والعلماء. تذكروا تلك الوجوه الكالحة والعابسة التي قست على رجال البحث وأعدمتهم دون مبرر عقلي أو ديني، (لا الدين الذي تقول به الكنيسة)!؟.

ولم يكن عند هؤلاء الثائرين من حسن التفكير أن يميزوا بين الدين الصحيح والزائف وأن يبحثوا عن الإسلام دين الحق والعقل والتفكير الصحيح.

فلم يرسلوا مَن يبحث لهم عن هذا الدين وأعني به الدين الإسلامي، ليعلموا كيف أن الإسلام يؤيد العلم ويشجع البحث العلمي الحر، وهو قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ[2] مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾﴾ [الإسراء: الآية ٣٦]. ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾ [محمّد: الآية ٢٤].

وقولهتعالى: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا

---

(١) وقد أسهبنا الموضوع في الجزء الأول من كتاب التكامل في الإسلام في أن لا تنافي بين الدين والعلم التجريبي.

(٢) ولا تقف: ولا تتبع.

يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾﴾ [البقرة: الآية ١٦٤].

وبقوله تعالى: ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [يونس: الآية ١٠١].

وبقوله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ﴾ [العنكبوت: الآية ٢٠].

وبقوله: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الرُّوم: الآية ٢١].

وبقوله: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾﴾ [ق: الآية ٦].

وبقوله: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾﴾ [الغاشِيَة: الآية ١٧].

وبقوله: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ [الرُّوم: الآية ٨].

وبقوله: ﴿يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾﴾ [النّحل: الآية ١١].

وبقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [آل عِمرَان: الآية ١٩١].

وقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٤٢﴾﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٤٢]

وقوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [القَصَص: الآية ٦٠].

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [المَائدة: الآية ٥٨].

وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٦٩].

وقوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ(١) كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢١٩].

وقوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأنعَام: الآية ٥٠].

---

(١) العفو: الفاضل عن الحاجة.

وقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَٰمُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [السَّجدَة: الآية ٢٧] [(١)].

وقوله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ﴾ [ص: الآية ٢٩].

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [الأنعام: الآية ٩٧].

وقوله تعالى: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المجَادلة: الآية ١١].

حتى آل أمر العلماء المحدثين إلى معاداة الدين، أي دين، والكفر بما وراء الطبيعة والتمسك بالمبدأ المادي والإلحاد والزندقة، وإنكار كل ما لا يُرى بالعين أو بالميكروسكوب، أو التلسكوب، وعدم الإيمان بالغيب. حتى قال هكسلي صراحة في كتابه: (الإنسان في العالم الحديث).

«إن الجهل والعجز فقط هما اللذان يخضعان الإنسان لله! فإذا ازدادت معرفته وقوته، فلا موجب إذن لفكرة الله وما يرتبط بها من عبادات... وليكن الإنسان هو الله!».

ولو كان لدى المسلمين في تلك الحقبة من الزمن عددٌ وافٍ من المبشرين بالدين الإسلامي العظيم فذهبوا إلى أوروبا، وقرأوا على الناس الآيات القرآنية التي تؤيد اكتشافات العلماء المحدثين:

﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾﴾ [يس: الآية ٣٨].
وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأنبياء: الآية ٣٣]، ﴿كُلٌّ يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [لقمان: الآية ٢٩]... ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾﴾ [الرّعد: الآية ٢].

﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [النّمل: الآية ٨٨].

---

(١) الجرز: اليابسة التي لا نبات فيها.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِي[(١)] سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ[(٢)] ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ[(٣)] يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ ۖ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٣﴾﴾ [النُّور: الآية ٤٣] .

﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [الحَاقة: الآيتان ٣٨/ ٣٩].

﴿وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [الذّاريَات: الآية ٤٩] .

﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ﴾ [المعَارج: الآية ٤٠] .

﴿يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ﴾ [الزُّمَر: الآية ٦] . إلى آيات كونية أخرى تبلغ ٧٥٠ آية، هي عصارة المكتشفات الحديثة وما سيكتشف في مستقبل قريب أو بعيد، لأسلمت برمتها ولآمنت بالدين الإسلامي: دين العلم والعقل والعلم الصحيح. هذا الدين الذي ﴿يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ[(٤)] وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعرَاف: الآية ١٥٧] .

فاتجه الغرب، نتيجة تصرفات الكنيسة الخاطئة وتقاعس المسلمين عن التبشير بالإسلام، إلى المادة بكل ما تتضمنه هذه الكلمة من عقيدة ووجهة نظر ونفسية وعقلية وأخلاق واجتماع وعلم وأدب وسياسة وحكم بصورة تدريجية، فأنكر العلماء المحدثون كل شيء وراء المادة، وقالوا إن المادة هي الخلاقة والمفكرة والمدبِّرة والمحيط (أو البيئة) هو المؤثر الوحيد العالي التفكير والمدير اللبيب والمهندس البارع المبدع دونما نظير، فصاروا يستهزؤون بكل نظرية تبرهن على وجود الباري جلَّ جلاله وأسموها الطريقة التقليدية البالية الخرافية التي لا تجدي نفعاً ولا تكشف شيئاً. جحدوا كل شيء وراء الحركة والمادة، وأبوا الإيمان بكل ما لا يأتي تحت الحسن والاختبار ولا يدخل تحت الوزن والمساحة والزمان أو لا يقاس بالغرام والسانتيمتر

---

(١) يزجي: يسوقه برفق.

(٢) أي يتكاثف البخار، فتقترب أجزاؤه بعضها من بعض نتيجة البرودة وتأين الهواء (الكهربائية).

(٣) الودق: المطر.

(٤) القيد والتكاليف الشاقة.

والثانية، فأصبح عندهم الإيمان بالله وبما وراء الطبيعة من قبل المفروضات أو المواضيع التي لا يؤيدها العقل ولا يشهد بها العلم.

نعم، قد بقي ثلة من الناس في أوروبا يؤمنون بالغيب ولكن منهج التفكير كان ينكر ذلك ولا يؤدِّي بالإيمان بالله والوحي والنبوات والحياة الأخروية، ذلك لأنه لا شيء من المذكورات يدخل تحت منهجهم الفكري الذي لا يؤمن إلا بالحس والاختبار، وما يصدقه القياس الزمني: الثانية... والقياس البعدي: السانتيمترات... والقياس الوزني: الغرام... فصاروا يزدادون كل يوم شكاً في العقائد الدينية!!..

ونتيجةً لهذا التفكير المنهجي نهض الكتَّاب والمؤلفون يؤيدون وجهة نظر المادية ويكتبون كتباً اجتماعية تؤيد النواحي المادية في الحياة، وأن لا شيء وراءَ المادة أو الطبيعة العمياء! ويفسرون الأخلاق تفسيراً مادياً وينشرون الفلسفة النفعية وفلسفة اللذة الأبيقورية (Epicure) ويقولون: إن الفكر من نتائج المادة[١].

وقد جعل هؤلاء الحواس الخمسة أساساً للمعلومات والعلم أي علم حين أنه يقول (لنكولن بارنت): «إن ما يدركه الإنسان عن الحقيقة التي تحيط به محدود بسبب عجز جهاز الإبصار عنده. ولو أن عينه كانت أكثر حساسية، فتدرك مثلاً موجات الأشعة السينية (Rayons X) لبدت له الدنيا مختلفة تماماً عما يراها الآن».

ثم أن السياسيين دعوا إلى فصل الدين عن السياسة، وقالوا: إن الدين إذا كان لابد منه، فإنما هو قضية شخصية، لا ينبغي أن يتدخل في أمور السياسة، ولا معنى لتشكيل دولة على أسس دينية[٢]!؟ وإن النصرانية إنما موضوعها الحياة الأخروية، والمتدينون لا يفيدون الدولة في شيء وإن كان وجودهم يفيد الكنيسة لتقيدهم بأحكام

---

(١) قد علم أخيراً أن لا تناسب بين حجم المخ وقوة التفكير. فمخ الاسكيمي أضخم لو قيس بحجم بدن صاحبه، ويأتي بعده مخ اليابانيين. وقد وجد أن أصغر مخ هو مخ العبقري الإيطالي: (دانتي). وعلم كلما ابتعد الشيء عن حالته المادية وآل أمرها إلى الإشعاع والقوى والطاقات كان أكثر فعالية وإنتاجاً وتأثراً.

(٢) كما كان في صدر الإسلام والناس في دعة واطمئنان، قد نالوا سعادة الدنيا ونعيم الآخرة.

دينهم، والملوك والأمراء لهم أن يكذبوا ويخونوا وينقضوا العهود والمواثيق إذا اقتضت الحالة ودعت سياسة الوقت إلى ذلك.

فالكذب والخيانة والغش والنفاق دعائم لكل دولة تريد أن تعيش، وهكذا أولدت الفكرة المادية فصل الدين عن الدولة وأوجدت سياسة الغش والكذب.

وثار المؤلفون على الأخلاق القديمة والنظم الاجتماعية السابقة وزيَّنوا للناس الإثم والفحشاء والمنكر والشهوات والنزوات ودعوا الناس إلى التهام الحياة البهيمية وإرضاء الشهوات وانتهاب المسرات، فكانت المراقص ودور الخمور والفجور. وصار الغرب يؤمن بكل ما يحمل «خاتم» التجريب ويأخذونه قضية مسلَّمة لا تحتمل الشك أو التأويل، أما ما لا يخضع للمعمل فهو خُرافة أو هو على الأقل شيء ساقط عن الحساب، ولما كان الله سبحانه وتعالى لا يدخل إلى المعمل! ولا يخضع للتجريب العلمي! فقد استغنوا عنه وأعلنوا أنه غير موجود!

نعم، قد فعلت هذه الموجة الإلحادية العاتية الغاشمة فعلها وانتشرت كالنار في الهشيم وأدى ذلك إلى تقسيم الدين وانهيار الأخلاق والتقاليد وتلوث كل تراث بشري في حقل النبل والأخلاق والفضائل.

* * *

ثم إن هؤلاء العلماء الماديين قد فسروا نظرية (دارون) تفسيراً خاطئاً يحقق ميولهم المادية، وقالوا بالتولُّد الذاتي، حين أن (دارون) نفسه كان يعزو نظريته التكاملية إلى خالق مدبّر عظيم، نظم هذه الخطوات التكاملية التي لا تعدُّ ولا تحصى اعتباراً من آميبا: (الكائن الحي ذي الخلية الواحدة) إلى ما هنالك من نباتات وحيوانات تكاد لا تتناهى. إذن هذه الخطوات من الدقة والتعقيد ما يحيِّر الألباب. وهي من التنوُّع وتعدد المراحل ما ينفي الصدفة ويجعلها في مرتبة الصفر على ما ثبت في حساب الاحتمالات من أبحاث الرياضيات العالية: حقاً، ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ۝٦ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ۝٧﴾ [العاديات: الآيتان ٦/ ٧]. ﴿۞ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ۝١٩﴾ [الرّعد: الآية ١٩] . إن هذا الإنسان يمر كل يوم على آيات وشواهد على عظمة الله

تعالى. تكاد لا تتناهى، يمر عليها معرضاً عنها، غير معتبر بها لغشاوة على عينيه من جراء ما تلوثت به يداه من إجرام وآثام وفسوق وفجور، نعم، ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [يوسف: الآية ١٠٥]. ولكن الله تعالى يمنُّ على هذا البشر بأنواع الآيات كل يوم لعل هذا الإنسان يرتدع عن غوايته: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلْآفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾﴾ [فُصِّلَت: الآية ٥٣].

* * *

وجاء فرويد، بعد (دارون) بنصف قرن، فزاد في الطين بلة وصوَّر الإنسان حيواناً عرياناً لا حياء له[1]، حيواناً عرياناً من كل خُلق ومن كل دين ومن كل شعور نظيف، وقال: ليس هنالك حقيقة في العالم إلا الشهوة والشعور بالجنس، فالجنس هو كل شيء، وكل شيء نابع عن الجنس! الطفل يرضع ثدي أمه بلذة جنسية! ويتبوَّل ويتبرز بلذة جنسية، ويحرك عضلاته بلذة جنسية، ويرتبط بأمّه بشعور جنسي، كما ترتبط الطفلة الأنثى بأبيها بشعور جنسي. وهكذا ينمو هذا الشعور الجنسي مع نمو الطفل، فلا معنى للكبت، وليعمل كل من الجنسين لتحقيق اللذة الجنسية كيفما كان، دون قيد وشرط!!!...

لقد تلقف الشباب بصورة خاصة تعاليم فرويد وتشبثوا بها تشبثاً وراحوا يوسعون رقعتها في كل اتجاه.

نعم، دعا (فرويد) إلى العلنية في ممارسة الجنس من دون خجل، وأضفى الصيغة الشرعية على سلوكه البهيمي، وتخصص قسم من الأدباء في تحبيب ممارسة الجنس إلى الشبان بطريق غير مشروع أمثال: (و. هـ. لورنس)، ونظموا موسيقى كاملة في إثارة الجنس والتعبير عنه بشتى صنوف التعبير مع مصحوبة بالرقص وحركاتٍ شهوانية، وكانت نتيجة ذلك أن اسودت القلوب وادلهمت النفوس، فاتجه العلماء المحدثون، هؤلاء الذين تشبعت أفكارهم بعبادة الطبيعة العمياء وتلوثت نفوسهم بأنواع الموبقات

---

(١) جاء في الحديث عن النبيﷺ: الإسلام عريان ولباسه الحياء. وفي حديث آخر: «لا إيمان لمن لا حياء له».

إلى الطريقة العلمانية في الدولة والشؤون الاجتماعية والاعتقاد بأن العلم البشري والقوانين الوضعية كافيان للكمال البشري، وأن ليس وراء المادة شيء، ولم ينزل الله تعالى من السماء كتاباً يهدي الناس سواء السبيل، كل ذلك لإتباعهم هوى نفوسهم فكان أمرهم فرطاً، على حد قوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ [الكهف: الآية ٢٨].

* * *

ثم إن الثورة الصناعية الكبرى التي قضت على المعامل الصغرى في القرى والأرياف أدت إلى نزوح القرويين إلى المدن ابتغاءاً للرزق، وانطلق هؤلاء العمال إلى الفسق والفجور وأوغلوا في البغاء، وبعد أن اطمأنوا إلى حياتهم الجديدة أرسلوا إلى أسرهم لتلحق بهم في المدن، إلا أن هذا لم يقض على الضرورة التي كانت من قبل، بل ظلت قائمةً للأجيال الجديدة التي رأت فيها طريقة سهلة للتخلص من وطأة الجنس بغير تبعات. وأصبح البغاء بصوره المختلفة من أول الصداقة الفردية إلى بيع الجسد لكل راغب هو المتعارف في الأوساط. وسمي هذا تطوراً يتفق ومفاهيم العصر الحديث.. وما عداه خرافة وتقاليد بالية يجب على المثقف أن يتركها ليعدَّ من المثقفين!

ثم ان النساء بحكم الضرورة التحقن بالمعامل أيضاً، ذلك لأن رواتب الرجال كانت قليلة، والبغاء كان منتشراً إلى حد بعيد مما منع الشاب من التزوج إلى مدة مديدة، فزاد التحاق النساء بالمعامل مع الرجال جنباً إلى جنب في الفحشاء والمنكرات مما لوَّث النفوس وأبعدها عن عالم التكامل النفسي أيما إبعاد.

فماتت النفوس من جراء تلوثها بأنواع الموبقات على الشواطئ والطرقات والترام وفي كل مناسبة، فصارت، لإدلهمامها، لا تؤمن إلا بالمادة وهذا العلم المادي، وزعمت أن العلم المادي هو الكمال المطلق وأنه موصل هذا الإنسان إلى الكمال المنشود، أنه هو المعبود الذي يجب أن يعبد وهو حلاّل المشكلات.

فالعلم المادي هو الأخلاق الفاضلة وهو غذاء الروح وموصل هذا الإنسان إلى غاية الغايات.

فالأنبياء والوحي والجنة والنار والبعث والحساب والاعتراف بالذنب والغفران مفاهيم خرافية أولدتها جهالة القرون الوسطى والأولى، قضى عليها العلم المادي حيث لا رجعة ولا عَود.

وهكذا تحجرت النفوس، فنشأت المذاهب المادية وعلى رأسها مذهب ذوي العاهات على حد تعبير الأستاذ المرحوم عباس محمود العقاد، حين أنه لا رابطة بين العلم المادي والتكامل النفسي بوجه من الوجوه، ولكن شهوة التجريب لم تقف بالتجريبيين عند المادة، ميدانهم الأصيل، بل راحوا يجربون في كل شيء وكل ميدان حتى عَنَّ لهم في مبادئ هذا العصر أن يجعلوا النفس مادة للتجريب يخضعونها لتجارب العمل والمختبرات، ويستنتجون من هذه التجارب قوانين يحكمون بها النشاط النفسي ويفسرون بمقتضاها الإنسان والإنسانية! وصاروا يخضعون حتى المعنويات لتجارب المعمل للوصول إلى حقائق موضوعية ثابتة!

* * *

التكامل النفسي إنما هو نتيجة تعاليم روحية تؤدي إلى كمال النفس الإنسانية وهي ليست من العلم المادي أي من السانتيمتر والغرام والثانية في شيء.. إنما هو دساتير روحية تكاملية قررها الله تعالى على لسان أنبياءه عليهم السلام.

ذلك، لأن العلم المادي إنما هو نتيجة التجربة والاختيار والمشاهدة والمقارنة والاستقراء والاستنتاج والتجريد والتعميم إلى ما هنالك من فعاليات ذهنية لا تتصل بالنفس من حيث السمو والضعة أو التكامل والتسافل في شيء فإن عملية:

$$٣^{ن+١} \times ٣^{ن+١}$$

أو رسم المنحني: القطع الزائد: $\frac{\text{س}^{٢}}{\text{ب}^{٢}} - \frac{\text{ع}^{٢}}{\text{حـ}^{٢}} = ١$

أو رسم القطع الزائد المجسم: $\frac{\text{س}^{٢}}{\text{ب}^{٢}} + \frac{\text{ع}^{٢}}{\text{حـ}^{٢}} - \frac{\text{ص}^{٢}}{\text{د}^{٢}} = ١$

أو حل معادلة تفاضلية: (Equation differentielle) أو فيزيائية أو كيميائية، كل ذلك يجري من قبل النفوس بأجمعها دون تفريق بين المتعالية منها أو المتسافلة، المتألهة منها أو الملحدة، المتصفة منها بأخلاق ملكوتية أو المتردية بإغواءات شيطانية، فلا تؤثر تجربة كيميائية أو عملية حسابية أو معادلة تفاضلية: Equations differentielle أو دستور كسوف الشمس أو دساتير ليبنيتز في التحليل الرياضي Analyse Mathematique في سمو النفس أو تسافلها، إنما يتأتى سمو النفس بالقيام بأعمال صالحة من مساعدة الغير وخدمة الأبوين والأرحام والقيام بحوائج الناس بصورة سرية ولوجه الله تعالى ونكران الذات في سبيل الخير والتضحية لإنقاذ الآخرين والمثول بين يدي رب العالمين بخشوع وخضوع وصلوات مقبولة والتهجد جوف الليل ببكاء وخنوع، وبتزكية النفس من أدرانها وأوساخها على ما قرره الشرع[1] وإعطاء فضول الأموال إلى الفقراء والمعوزين، لاسيما الأرحام إلى ما هنالك من واجبات ومستحبات يطول ذكرها.

فالعلم مجرد عملية ذهنية وفكرية لا تمت إلى صناعة تهذيب النفس وتكاملها بصلة.

يقول (ماريت ستانلي كونجدن) وهو عالم أمريكي معاصر، في مقال له بعنوان: (درس من شجيرة الورد): «إن العلوم حقائق مختبرة، ولكنها مع ذلك تتأثر بخيال الإنسان وأوهامه ومدى بعده عن الدقة في ملاحظاته وأوصافه واستنتاجاته، ونتائج العلوم مقبولة داخل هذه الحدود، فهي بذلك مقصورة على الميادين الكمية في الوصف والتنبؤ. وهي تبدأ بالإحتمالات وتنتهي بالإحتمالات كذلك.. وليس باليقين.. ونتائج العلوم بذلك تقريبية وعرضة للأخطاء في القياس والمقارنات، ونتائجها اجتهادية، وقابلة للتعديل بالإضافة والحذف.. وليست نهائية».

ويقول سير (جيمس جينز) عالم الطبيعيات والرياضيات:

---

(١) قال الإمام علي ﷺ: «ليس الدين بالرأي، إنما هو إتباع».

«لقد كان العلم القديم يقرر تقرير الواثق أن الطبيعية لا تستطيع أن تسلك إلا طريقاً واحداً، وهو الطريق الذي رسم من قبل لنسير فيه من بداية الزمن إلى نهايته. وفي تسلسل مستمر بين علة ومعلول. وأنه لا مناص من أن الحالة (أ) تتبعها الحالة (ب). أما العلم الحديث فكل ما يستطيع أن يقوله حتى الآن هو أن الحالة (أ) يحتمل أن تتبعها الحالة (ب) أو (جـ) أو (د) أو غيرها من الحالات الأخرى التي يخطئها الحصر؛ نعم، إن في استطاعته أن يقول: إن حدوث الحالة (ب) أكثر احتمالاً من حدوث الحالة (حـ) وإن الحالة (حـ) أكثر احتمالاً من الحالة (د)... وهكذا.

بل أن في مقدوره أن يحدد درجة احتمال كل حالة من الحالات (ب) و (حـ) و (د) بعضها بالنسبة إلى بعض. ولكنه لا يستطيع أن يتنبأ عن يقين: أي الحالات تتبع الأخرى. لأنه يتحدث دائماً عما يحتمل. أما ما يجب أن يحدث فأمره موكول إلى الأقدار».

وقد يكون العلم مع نفس متردية آلة تخريب وفساد: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٠٥]. وقد قال الإمام علي عليه السلام: «كثرة العلم في غير طاعة الله مادة الذنوب».

فالعلم يكون وسيلة تخريب وهدم إن لم تحلَّ النفوس بمكارم الأخلاق وفضائل الخصال على ما قرره الشرع ووفق ما يريده الله تعالى وهو العارف بطرق تكامل النفوس.

وكم من عصابات في أمريكا وغير أمريكا تقوم بأعمال منكرة من اختطاف البنات أو البنين وسرقات خطيرة، فيسرق ما في المصارف والبنوك التجارية بشتى الوسائل من قبل عصابات هم من خريجي المدارس العالية!!.

والجيل الناشئ في أوروبا يعاني أقصى درجات التحلل والانحدار! فعصابات الخطف والسلب والنهب والاغتصاب، عصابات من الأطفال لمهاجمة القطارات وقذف نوافذها بالأحجار، عصابات ـ من الأطفال ـ تضع الأحجار على القضبان لتخرج من عليها القطارات! عصابات الحشيش والأفيون وبقية المخدرات. «التزويغ» من دفع أجرة الركوب... كل الرذائل التي يمكن أن يتصورها الإنسان!...

ولقد علمت أن أستاذاً في الفيزياء الرياضية العالية نال مكافأة ثمينة على مؤلف خطير، فأنفد المكافأة في شهواته ونزواته وابتلي بمرض السيفيليس ومات وهو

مجنون، وآخر مع كونه دكتوراً في التربية وعلم النفس كان يشرب الخمرة ويستمر في العربدة حتى يُمسي مهزلة للآخرين وآخر دكتوراً في مواضيع ثلاثة كان يفتخر بارتياده دور البغاء ويقول متبجحاً . . . !؟

ليس لهذا العلم المادي تأثير في توجيه الشباب نحو الكمال والأخلاق الفاضلة وضبط النفس عن الولوج في الشهوات والموبقات. كان يقول كندي «إن الشباب الأمريكي مائع منحل مترف غارق في الشهوات، وأنه من بين سبعة شباب يتقدمون للتجنيد يوجد ستة غير صالحين بسبب انهماكهم في الشهوات، وأنذر بأن هذا الشباب خطر على مستقبل أمريكا، وأهاب بالعلماء والمصلحين الاجتماعيين أن يبحثوا هذا الخطر ويقرروا العلاج».

يقول (ول ديوارنت): «إن اختراع موانع الحمل وذيوعها هو السبب المباشر في تغيير أخلاقنا. فقد كان القانون قديماً يقيد الصلة الجنسية بالزواج لأن النكاح يؤدي إلى الأبوة بحيث لا يمكن الفصل بينهما، ولم يكن الوالد مسؤولاً عن ولده إلا بطريق الزواج، أما اليوم فقد انحلت الرابطة بين الصلة الجنسية وبين التناسل وخلقت موقفاً لم يكن آباؤنا يتوقعونه، لأن جميع العلاقات بين الرجال والنساء آخذة في التغيير نتيجة هذا العامل، ويجب على القانون الأخلاقي في المستقبل أن يدخل في حسابه هذه التسهيلات الجديدة التي جاءت بها الاختراعات لتحقيق الرغبات المتأصلة».

حتى أن في بعض الدور التي أعدت للعبادة والصلاة، فبعد أن ينتهي الأب من الموعظة في الكنيسة الأمريكية، يطفئ الأنوار الكبرى ويضيء المصابيح الخافتة المغرية بالخلسة ويدير اسطوانات الرقص للشباب والفتيات بنفسه، وهكذا تعمل النظرية القائلة دعه يعمل: (Laissez faire) بلا حواجز. فأدت إلى تفسخ مرير في الأخلاق والأنفس.

وهكذا نرى أن ليست هنالك أية صلة بين الكمال النفسي، وما يتعلمه الإنسان من دساتير في الفيزياء والكيمياء وما يكتشفه من قوانين في الفلك أو الرياضيات أو دساتير تتعلق بعلم الاجتماع أو علم آثار النفس أو ما يضعه من قوانين لتنظيم شؤون الناس. أنهما: أي الكمال النفسي والإنتاج العلمي وأعني به العلم المادي أو القوانين البشرية الموضوعة، من واديين مختلفين.

فالكمال النفسي يتأتى من تطبيق دساتير السماء ومراقبة النفس في خلواتها والخشوع أمام عظمة الله التي لا تتناهى والاستغفار بشتى أنواعه، والآخر، وأعني به العلم المادي أو الثقافة العصرية صيغاً ذكائية وفكرية يقوم بها العالم المادي، بغية الكشف أو نيل درجة في الأوساط الاجتماعية أو الشهوة بين الناس.

ولا مراء أن الإنسان مهما سما وتعالى لا يأتي بسنن أخلاقية رصينة ودساتير تكاملية ناصعة لنقائص في نفسه، فوجب أن يتبع العالم المادي سنن الأنبياء ﷺ لو أراد التكامل الناصع الذي لا شائبة فيه، لأن الله تعالى هو الذي وضع سنن تكامل النفس الإنسانية وأوحاها إلى أنبيائه ﷺ ليهدوا الناس سواء السبيل.

فالعلم المادي والتعرف إلى ما أودع الله تعالى من دساتير في عالم الفيزياء والكيمياء وفي الميكانيك السماوي والأرضي ومن قابليات النمو والتكاثر والتنوع في حياة النبات والحيوان يزيد في إيمان الشخص ويعطيه من الاطمئنان ما ترتاح له النفوس، فالعلوم الطبيعية منافذ ينفذ منها التفكير الإنساني ليرى ما أودع الله تعالى من دقيق الصنع في هذا الكون الرحيب.

فالمعارف الإلهية وتعاليم الأنبياء ﷺ تفتح القلوب وتجعلها مندرجة نحو الكمال المنشود.

فقد قال الإمام علي عليه السلام، بالنسبة إلى المعارف الإلهية ومعرفة الله تعالى، إلى كميل:

«يا كميل، إن هذه القلوب أوعية، فخيرها أوعاها للعلم، فاحفظ عني ما أقول لك: الناس ثلاثة، عالم رباني ومتعلم على سبيل نجاة وهمج رعاع[١]، أتباع كل ناعقٍ غاوٍ، يميلون مع كل ريح، لم يستضيئوا بنور العلم ولم يلجأوا إلى ركن وثيق»[٢].

هؤلاء الذين يميلون مع كل ريح هم أولئك الماديون المثقفون بثقافة العصر، من طب وكيمياء وفيزياء ونبات وعلم طبقات الأرض... إلى ما هنالك فلم يتعرفوا إلى

(١) همج رعاع: الهمج ذباب صغير كالبعوض، يقع على وجوه الغنم، والرعاع: الأحداث الطغام أي أوغاد الناس.

(٢) نهج البلاغة: ص٤٩٥.

المعارف الإلهية وعوالم ما بعد الطبيعة ولم يعملوا لأجل التدرج في عوالم تكامل النفس، فصاروا أشبه شيء بدابة همها علفها، لم يستضيئوا بنور العلم الإلهي ولم يلجأوا إلى ركن وثيق، فصاروا لا يخشون الله تبارك وتعالى مع كونهم من العلماء في عوالم المادة، فلا ينطبق عليهم قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فَاطِر: الآية ٢٨]، ذلك لأن المراد في هذه الآية من كلمة «العلماء» أولئك الذين يذكرهم الإمام علي عليه السلام بقوله: «فخيرها أوعاها للعلم».

نعم، إن هؤلاء قد قست قلوبهم وصار عليها غشاوة حجبت عنهم مشاهدة أنوار القدس من جراء أنواع الفسوق والآثام. وقد جاء في الحديث «ما ضُرب ابن آدم بعقوبة أشد من قسوة القلب»[(١)] وإن القلب ليقسو من:

١ ـ ترك ذكر الله تعالى

٢ ـ كثرة الأكل والشرب، ففي الحديث: لا تميتوا القلوب بكثرة الطعام والشراب، فإن القلب يموت كالزرع إذا كثر عليه الماء.

٣ ـ لقمة الشبهة، أي من مال مشكوك حليّته أو من مال غير مزكّى أو غير مخمّس، الخ، ففي الحديث: «في حلالها حساب وفي حرامها عقاب وفي الشبهات عتاب»[(٢)].

٤ ـ كثرة أكل اللحم، ففي الحديث: «لا تجعلوا بطونكم قبور الحيوانات»[(٣)].

٥ ـ التعجيل في الأكل.

٦ ـ كبر اللقمة.

٧ ـ تأخير الصلاة عن وقت الفضيلة، ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾﴾ [المَاعون: الآيتان ٤/ ٥].

٨ ـ كثرة الكلام، لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾﴾ [المؤمنون: الآية ٣]

٩ ـ الأكل بالشمال، أي: باليد اليسرى.

١٠ ـ كثرة النوم، لقوله تعالى: ﴿كَانُواْ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾﴾ [الذّاريَات: الآية ١٧]

---

(١) تحف العقول: ص٢٩٦.

(٢) بحار الأنوار: ج٤٤، ص١٣٨، باب ٢٢.

(٣) شرح نهج البلاغة: ج١، ص٢٥.

١١ ـ كثرة الضحك، ففي الحديث: «لا يكمل إيمان أحدكم حتى يترك المزاح جدّه وهزله»(١).

١٢ ـ الهمُّ بالدنيا للدنيا، لقوله تعالى: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي ٱلْبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَٰعٞ قَلِيلٞ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾﴾ [آل عِمران: الآيتان ١٩٦/ ١٩٧].

١٣ ـ طول الأمل. ففي الحديث عن رسول الله ﷺ: «إن أخوف ما أخافه عليكم اثنان، إتباع الهوى وطول الأمل، أما إتباع الهوى، فيصد عن الحق، وأما طول الأمل فينسي الآخرة»(٢).

١٤ ـ كثرة المال، لقوله تعالى: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابٗا وَخَيْرٌ أَمَلٗا ﴿٤٦﴾﴾ [الكهف: الآية ٤٦]، ولقوله تعالى بالنسبة إلى قارون: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِي زِينَتِهِۦۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِيَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٖ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ(٣) وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٞ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗاۚ وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٖ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾﴾ [القَصَص: الآيات ٧٩/ ٨١].

١٥ ـ مجالسة الأنذال، فقد جاء في الحديث: «عاشروا مَن يذكّركم الله».

١٦ ـ الخلوة بالنساء. فإن الشيطان هو الثالث لهما كما جاء في مضمون حديث.

١٧ ـ مجالسة الأغنياء.

١٨ ـ مجالسة الضال والجائر في الحكم. ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ﴾ [هُود: الآية ١١٣].

١٩ ـ ترك مجالسة العلماء، فلقد جاء في الحديث: «النظر إلى وجه العالم عبادة».

نعم، إذا ماتت النفوس بشهواتها ومراقصها واستهتارها، شقيت، وللشقي علامات وأمارات، فعن رسول الله ﷺ: «علامات الشقاء أربعة: نسيان الذنوب

---

(١) أصول الكافي: ج٢، ص٣٤٠، باب الكذب، وفيه: حتى يترك الكذب.

(٢) أصول الكافي: ج٢، ص٣٣٥، باب اتباع الهوى.

(٣) يراد بهذا العلم: المعارف الإلهية.

السابقة، وذكر الحسنات الماضية لا يدرى، قبلت أم رُدَّت والنظر إلى مَن فوقه في الدنيا، والنظر إلى مَن دونه في الدين»(١).

* * *

يقول (روبرت هتشنس) بالنسبة إلى العلم المادي: «لقد بلغ العلم في آن واحد إلى الأوج في المعرفة والتكنولوجيا(٢) والتحكم في الطبيعة وإلى الحضيض في حياته الأخلاقية والسياسية».

فهذا القول إن دل على شيء، فإنما يدل أن ليس للعلم المادي، ومختلف الدساتير في الرياضيات أي أثر في توجيه الإنسان نحو الكمال وإيجاد سياسة عالمية ترتاح لها النفوس ويرتضيها الله تبارك وتعالى.

ويؤيِّد ما أقول: قول أحد أعضاء مجلس الوزراء الأمريكي «أندرسن»(وهو رجل في مقتبل عمره، متمالك لقواه العقلية وقد كان أستاذاً للقانون): «إذا كان للإنسان أن يحكم على نفسه بشكل موثوق، فإن المقاييس التي يستخدمها للحكم على سلوكه يجب أن تكون، بالضرورة، من الطراز الذي يتعدى قدرته على تحويرها أو تحديدها، إذ لو أعطي القدرة على تحديد هذه المقاييس لأضحت حتماً ما يريدها أن تكون، وعليه، فإن ما لدي الآن من قدرة غير محدودة على تبرير الأمور قد يجعل الأكاذيب تبدو عند ذاك وكأنها حقائق، والخديعة وكأنها تتجلبب ثوب الشرف، والاضطهاد وكأنه يستخدم مكان العدالة، هذه بالنسبة إليَّ، هي الخطيئة الكبرى للفلسفات المادية والإنسانية ولكل منهج فلسفي آخر لا يقر بوجود مستقل لقيم أخلاقية وروحية مطلقة... هذه القيم هي روحية مطلقة لا مادية نسبية، وهي أعلى وأبعد من أن يصل إليها الإنسان في تطوره. وعلى الإنسان أن يدرك أنها قيم ثابتة أزلية من صنع الله. وعليه أن لا يتصور

---

(١) لم أجد هذا الحديث ولكني وجدت في أصول الكافي ج٢، ص٢٩٠: «علامات الشقاء جمود العين وقسوة القلب وشدّة الحرص في طلب الدنيا والإصرار على الذنب».

(٢) التكنولوجيا: Technologie العلم الذي يبحث عن تاريخ وأصول الفنون والصنايع على اختلاف أنواعها.

أنها ملك خاص لعقله يكيفها لتنطبق على كل حالة عارضة. وعلى هذا فإننا نؤكد اعتقادنا بوجود مصدر إلهي للقيم الروحية المطلقة، ونرى أنه لا يجوز للإنسان أن يعمل فيها يد الهدم والتخريب»[(١)].

ولو كان قد تشرف (أندرسن) بالدين الإسلامي العظيم لوجد في الإسلام من التعاليم ما يجعله أن يقول: إن حياة الإنسان في النشأتين تتوقف على اعتناقه دين الإسلام. فهو حقاً، حياة القلوب: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: الآية ٢٤]. ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَـٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَـٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَـٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ [الأنعام: الآية ١٢٢].

كيف يؤمن بالغيب من أظلمَّت نفسه بالمادية الصماء، كيف يؤمن بالغيب من اتخذ الفحشاء شعاراً والخمرة دثاراً. لا يؤمن بالغيب إلا الأتقياء الخاشعون فلابد للمؤمن بالغيب من خشيةٍ في خلواته، فيما بينه وبين ربه، فإن لم يكن هناك خوف وخشية فلا قبول للمعارف الإلهية، بل يقوم مقامه الجحود والاستهزاء. وقد جاء في الحديث: «رأس الحكمة مخافة الله». ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ[(٢)] ﴿٤٩﴾﴾ [الأنبياء: الآيتان ٤٨/ ٤٩].

* * *

فالفرق بالنسبة إلى الأخلاق والعقيدة في القديم والجديد أنه قد وجدت مذاهب ونظريات في القديم كانت تبرر الانحراف والتحلل دون أن تلبَّس ثوباً علمياً. ولكن اليوم تلبس هذه النظريات والمذاهب الهدامة للنفوس والمميتة للأرواح ثوباً علمياً ويبرهن على صحتها بما يترشح (من عنديات) من نفوس أظلمت بفجورها ومجونها، فأصبحت مدلهمة لا ينفذ إليها بصيص من نور الحق والواقع.

وقد يُغري الشاب مجاملة بعض الغربيين لاسيما أهل فرنسا. فيقول: إنهم ظرفاء،

---

(١) R.B Anderson, Time, October 26-1953. P.27

(٢) مشفقون: خائفون.

مهذبون. نعم، إنهم ظرفاء للمنفعة. فحين يستقبلك أهل باريس بالأدب والظرف و (الأتيكت) ويمنحونك عواطفهم إنما يريدون أن تنفق في فرنسا أكثر ما تستطيع إنفاقه من النقود!.

* * *

إن الله تعالى يفتح على هذا الإنسان أبواب رحمته كي يقربه من الاعتراف بالغيب ولكي يزيد في إيمانه بشتى الطرق، ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ [فُصِّلَت: الآية ٥٣] ﴿سَأُوْرِيكُمْ ءَايَٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾ [الأنبياء: الآية ٣٧] ومنها: الرؤيا. فكم من رؤيا تشير أن هناك عالماً آخر وراء المادية الحالكة وأن المدبِّر للأمور هو الله تعالى...

فقد ذكر لي أحدهم أنه رأى والده في عالم الرؤيا يقول له: ولدي، إن لصديقي: (الروحاني) مشكلةً، عليك أن تحلها وتدفعها عنه.

يقول: فذهبت عند الصباح إلى بيته ورأيته قد حمل بساطاً له في سيارة يريد الذهاب به إلى السوق ليبيعه، فيقضي دينه الذي طولب به حثيثاً فسألته عن مقدار الدين، فقال لي (١٠٠) دينار. فدفعت إليه المبلغ امتثالاً لأمر والدي. وأرجعت بساطه إلى بيته.

كيف يفسر لنا المادي هذه الرؤيا مع أن الرجل يدّعي أنه لم يلاق (الروحاني) منذ أكثر من ستة أشهر.

ذكر لي أستاذي في الأصول أنه ضايقه صاحب الدار ببدل الإيجار مضايقة شديدة، وهو لا يملك ما يدفع به بدل الإيجار، فأمسى في قلق شديد. وصار يتوسل إلى الله تعالى في أن يمنَّ عليه بحلِّ مشكلته، فإذا بالباب تطرق، يفتح الباب، فيرى صاحب الدار قد جاء معتذراً قائلاً: «إبق في الدار ما شئت، ولا أطالبك بعد هذا بشيء، ذلك لأني رأيت في عالم الرؤيا مَن يُهددني بالقضاء عليَّ والهلاك إن أنا طالبتك بشيء من بدل الإيجار».

أنى للصدفة أن تلعب دوراً في هذه الرؤيا مع تنوع المراتب والمراحل، وإن حساب الاحتمالات كما أسلفنا، يجعل الصدفة في مرتبة الصفر لو تعددت المراحل، ولقد جُرِّب أن الشخص لو فكَّر في موضوع فإنه لا يراه كما يريد في طيفه، خلافاً لما يظنه البعض.

فالإيمان بالغيب لا يرتضيه المادي ولا يعترف به ويراه خرافة ورجعية وتقهقراً إلى ما هنالك من تعابير. وإن اختلاف التعابير وتعددها لا ينفي ما هو واقع مشاهد كالملموس. كيف يؤمن بالغيب من أظلمت نفسه وتلوثت جوارحه ولم يفكر في توبة أو تكفير، فإن الذنوب إذا تراكمت أصبحت حجاباً حاجزاً دون رؤية الحق والواقع، فيصدأ القلب فلا يبقى فيه نور يبصر به عوالم الغيب ﴿بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: الآية ١٤].

نعم، إن استعمال الـ (هروئين) من قبل بعض الشباب المثقف والتفسخ الخلقي الفظيع بين الشباب والشابات وسهولة الحصول على المرأة زميلة في العمل وفي الشارع وفي دور التعليم وفنون الإغراء التي زوّدت المرأة بها عن طريق الصحافة والإذاعة والسينما ثم التليفزيون والبغاء المتاح في جميع صوره وألوانه من بيوت للدعارة رسمية وغير رسمية ومسارح وملاهي تصطاد الزبائن وتقدم لهم البضاعة الدنسة والتوجيه الفكري بأن الحياة خُلقت للاستمتاع، ثم فقدان الأولاد تتراوح أعمارهم بين (١٥ ـ ٢٠) سنة بعدد لا يستهان به كل يوم واضطراب أهليهم وذويهم لأجلهم، وما يجري بواسطة التلفونات من تواصل غير مشروع وما نلمسه من فراغ عقائدي نتيجة هذا التفسخ المرير، كل ذلك يدل على أن الطريقة العلمانية في الحكم أو إصلاح المجتمع من حيث الصفات الكريمة والفضائل دون خشية الله ومراقبة الله أي دون التمسك بتعاليم السماء وسنة أهل البيت عليهم السلام تؤدي إلى انهيار النفوس ومن ثمَّ إلى الهلاك والثبور. تؤدي إلى قلق نفسي وأنواع الانتحار وأمراضٍ عصبية وشذوذ ومرض وجنون! كما نشاهد اليوم.

إنه تعالى يقول: ﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ [المؤمنون: الآية ٧١].

فللّه شريعته الغرّاء ولا نجاة لهذا البشر إلا باتباعها ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾﴾ [الجاثية: الآية ١٨].

فلا علاج لإصلاح هذا البشر إلا بأن يتمسك بتعاليم السماء وأن لا يقتصر على ما أنتجته التجارب البشرية في حقول العلوم المادية أو الاجتماعية فإن العلوم المادية لا تمت إلى الكمال النفسي بأية صلة، وليست منه في شيء وأما العلوم الاجتماعية، فهي

علوم بشرية حالكة، مضطربة، متغيرة، إن أصلحت جانباً، فإنها تُفسد جوانب أخرى كثيرة ولا تهيِّئ الفرد لآخرة سعيدة ولا يوجهه نحو الكمال النفسي، ذلك الكمال الذي يرتضيه الله تعالى لعباده الصالحين.

فلابدَّ لهذا الإنسان إن أراد السير في مدارج الكمال أن يتمسك بكلام الله والعترة الطاهرة على حد قول الإمام علي عليه السلام حيث يقول:

«إن نبي الله ﷺ، خلّف فيكم كتاب الله وأهل بيته، فعندهم علم ما تأتون وما تتقون، وهم الطريق الواضح والنور اللائح وأركان الأرض القوامون بالقسط(١). بنورهم يستضاء، وبهديهم يُقتدى من شجرة كرم منبتها، فثبت أصلها وبسق(٢) فرعها وطاب جناها(٣).

نبتت في مستقر الحرَم وسقيت ماء الكرَم. وصفَت من الأقذاء(٤) والأدناس وتُخيِّرت مِن أطيب مواليد الناس. فلا تزولوا عنهم فتفرقوا(٥)، ولا تتحرفوا عنهم فتمزَّقوا(٦). والزموهم تهتدوا وترشُدوا، واخلفوا رسول الله ﷺ فيهم بأحسن الخلافة، فقد أخبركم أنهما لن يفترقا حتى يردا عليَّ الحوض، أعني كتاب الله وذريته(٧)».

فقد جاءنا من جانب الله تعالى: ﴿نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾﴾ [المائدة: الآيتان ١٥/١٦].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٧﴾﴾ [الأحزاب: الآيات ٤٥/٤٧].

---

(١) العدل.
(٢) طال فرعها وارتفع إلى السماء.
(٣) طاب ثمرها.
(٤) الأقذاء: جمع قذى، وهو ما يسقط في العين والشراب.
(٥) أي تفترقوا، فتذهب قوتكم.
(٦) أي تصيروا متمزقين في كل واد لا يهديكم هاد ولا يجمعكم جامع.
(٧) من كتاب: دستور معالم الحكم. للقضاعي.

الإسلام هو الدين العالمي في مستقبل قريب

مما لا مراء فيه أن الله تبارك وتعالى قد أودع في النفس الإنسانية غريزة التوجه إليه تعالى والاعتراف بربوبيته وهو القائل: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [يونس: الآيتان ٢٢/ ٢٣].

﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا﴾ [الإسراء: الآية ٦٧] . ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [العنكبوت: الآية ٦٥] . ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ[(١)] وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴿٣٢﴾﴾ [لقمان: الآية ٣٢] . فإن هذه الغريزة: التوجه إلى الحق المتعال عند الشدائد والمحن متأصلة في نفس الإنسان يشعر به من بقي على فطرته السليمة إلى حدٍّ ما: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الرُّوم: الآية ٣٠] . فإن الطفل حسبما أودع الله فيه من غريزة التوجه إليه يشعر بعد أن يبلغ الخامسة أو السادسة من عمره بقوة خارقة مهمة عليه، يستعين بها ويتوجه إليها في الشدائد وهذا المهيمن اللانهائي في صفاته وكمالاته هو الله تعالى. هكذا كل مَن في السماوات والأرض مضطر بأن يتوجه إلى الحق المتعال بصورة فكرية وهو القائل: ﴿وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ [آل عِمرَان: الآية ٨٣] .

حتى أن الجمادات أسلمت لله تعالى في حركاتها وقوانينها التي أودعها الله فيها، فهي مطيعة منقادة مُسيرة، ليس لها أن تنحرف عمّا رسم لها قيد شعرة: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ [الإسراء: الآية ٤٤] . ألا ترى أن الإلكترون يدور حول البروتون في باطن الذرة بسرعة ٢٠٠٠ كيلومتراً في الثانية بشكل اهليليجي، فهذا نوع من التسليم إلى

---

(١) مقتصد: متوسط بين الكفر والإيمان، ختار: غدار.

مشيئة الله تعالى ونوع انقياد وإسلام يتناسب مع حياة الذرة، كذلك تتجاذب الأجسام. والكرات مستسلمة إلى أمر الله حسبما أودع فيها من قانون:

$$ق = ى \frac{ك ك َ}{م^٢}$$

(قوة الجذب بين كتلتين، ك، كَ) تتناسب طردياً مع حاصل ضربهما وعكسياً مع مربع المسافة بينهما، و (ي) هي النسبة الثابتة ومقدارها:

$\frac{١}{١٥,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠}$ من ثقل الغرام

ويقول الله تعالى في هذا المقام:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنۡ أَمۡسَكَهُمَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ﴾ [فَاطِر: الآية ٤١].

وكذلك الرقاص يطيع الله تعالى في تذبذبه وحركاته التابعة لقانون وضعه الله تعالى:

$$ن = ٢ ط \sqrt{\frac{ل}{حـ}}$$

فإن مدة الذبذبة الواحدة لهذا الرقاص يتناسب طردياً مع جذر طول الرقاص وعكسياً مع التعجيل الأرضي و(ط) هي النسبة الثابتة وتساوي ٣,١٤١٦ أو $\frac{٢٢}{٧}$ تقريباً.

وإن حدوث الماء من امتزاج حجمين من الأيدروجين (H_2) مع حجم من الأوكسيجين (O) بعد إفراز تيار كهربائي نوع تسبيح لله تعالى.

وإن التيار الكهربائي يسبح الله تعالى بإتباعه قانوناً منَّ الله على (جورج سيمون أوم) الفيزيائي الألماني الشهير باكتشافه: $ت = \frac{ف}{م}$ أي شدة التيار تتناسب طردياً مع الجهد الكهربائي وعكسياً مع مقاومة السلك.

ومئات القوانين في الفيزياء العالية كلها أدلة واضحة على تسبيح كل شيء في أرضنا هذه لله تبارك وتعالى وكم من قوانين فيزيائية في كواكب أخرى ومجرات لا تعد لا تشبه ما على الأرض من قوانين لاختلاف الشروط والأحوال لا يعلمها إلا الله تعالى: ﴿وَلَوۡ أَنَّمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن شَجَرَةٍ أَقۡلَٰمٞ وَٱلۡبَحۡرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦ سَبۡعَةُ أَبۡحُرٖ مَّا نَفِدَتۡ

كَلِمَٰتُ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [لقمان: الآية ٢٧]. وما أعظم قول الله تعالى حين يقول: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدۡ أَحۡصَىٰهُمۡ وَعَدَّهُمۡ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمۡ ءَاتِيهِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَرۡدًا ﴿٩٥﴾﴾ [مريم: الآيات ٩٣/ ٩٥].

فحين يعمل جهاز الرادار الذي وضعه الله تعالى بفضله في جسم الوطواط دون حاجة من الحيوان إلى انتباه أو إصلاح إنما يسبح الله تعالى أيما تسبيح وأن عمليات الهضم والامتصاص في الجسم الإنساني والتفاعلات الكيمياوية التي تنطوي عليها والخميرة التي تقوم بكل تفاعل والخرائط التي تبين التفاعلات الدائرية العديدة وما يدور بين كل منها والآخر من تفاعلات أخرى والجذور حين تمتص المواد الكيمياوية من التراب ويوصلها إلى الأغصان فالأوراق وعملية التنفس والتغذي بالهواء المحيط كل أولئك استسلام لأمر الله تعالى دون زيغ أو حيد. وفي الوقت نفسه يوحي أن وراء كل ذلك النظام خالقاً أعلى نظم الكون أبدع تنظيم ولم يكن الإنسان في جميع هذه المعلومات إلا مستكشفاً عما أودع الله من قوانين وخصائص، بلطف منه تعالى.

فكل شيء في هذا الكون حتى الطير يسبح لله تعالى بأنواع التسبيح، وله صلاته الخاصة به وقد أسلم وجهه إلى الله: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلطَّيۡرُ صَٰٓفَّٰتٖۖ كُلّٞ قَدۡ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسۡبِيحَهُۥۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِمَا يَفۡعَلُونَ ﴿٤١﴾﴾ [النّور: الآية ٤١].

وهكذا الرعد يسبح لله تعالى بتسبيح لا نفهمه على حد قوله تعالى: ﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعۡدُ بِحَمۡدِهِۦ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ مِنۡ خِيفَتِهِۦ﴾ [الرّعد: الآية ١٣].

﴿وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَنۡ عِندَهُۥ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسۡتَحۡسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفۡتُرُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الأنبياء: الآيتان ١٩/ ٢٠].

فالتسبيح إنما هو تقديس الله تعالى وتنزيهه عن كل نقص وهو توجه على الله تعالى واستسلام وإسلام.

والإسلام دين الله في أرضه منذ أن خلق السدم والكواكب والشموس والمجرات والنبات والحيوان والإنسان، والإسلام دين الله منذ أن بعث آدم عليه السلام نبياً، ودين الأنبياء جميعاً، وقد قال الله تعالى مخاطباً نبيه الكريم: ﴿مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدۡ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبۡلِكَۚ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغۡفِرَةٖ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٖ ﴿٤٣﴾﴾ [فُصّلت: الآية ٤٣] ﴿قُلۡ مَا كُنتُ بِدۡعٗا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ

أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٩﴾﴾ [الأحقاف: الآية ٩] .

وإن دين إبراهيم عليه السلام هو «الإسلام» وكان حنيفاً مسلماً على حد قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [آل عِمران: الآية ٦٧] .

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟ وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۩ ﴿٧٧﴾ وَجَٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ۚ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٧٨﴾﴾ [الحج: الآيتان ٧٧/٧٨] .

﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾ [البقرة: الآيات ١٣٠/ ١٣٢].

﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾﴾ [البقرة: الآيتان ١٢٧/ ١٢٨].

كانت التوراة تدعو إلى الإسلام، وذلك بقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟﴾ [المَائدة: الآية ٤٤] . وإن حواريَّ عيسى كانوا مسلمين: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾ [المَائدة: الآية ١١١] .

﴿۞ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [آل عِمران: الآية ٥٢] .

وإن سحرة فرعون قد أسلموا أيضاً، وذلك بقوله تعالى: ﴿وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا ۚ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾﴾ [الأعراف: الآية ١٢٦] .

إن يوسف عليه السلام كان من المسلمين: ﴿۞ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾﴾ [يُوسُف: الآية ١٠١] .

ويقول الله تعالى في قصة لوط عليه السلام: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾﴾ [الذاريات: الآيتان ٣٥/ ٣٦].

فكل شيء أسلم وجهه لله من جماد ونبات وحيوان ولابد لهذا الإنسان الذي منَّ الله عليه بعظيم النعم وسخر له الشمس والقمر ورزقه من الطيبات أن يسلم وجهه لله تعالى وأن لا يحيد عن سنة الله في أرضه وسمائه، وهو القائل: ﴿۞ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٢٢﴾﴾ [لقمان: الآية ٢٢]. ولذلك ما من شيء يقرب العبد إلى الله تعالى كجلب الناس ولاسيما الشباب إلى حظيرة الإسلام في أرجاء الأرض ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [التوبة: الآية ٢٠]. ﴿وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾﴾ [العنكبوت: الآية ٦].

وقد انبرى في السنوات الأخيرة ثلة من المسلمين للدعوة إلى الإسلام ونشر حقائق الإسلام. دين الله الخالد في الكون الرحيب، فتأسس مركز إسلامي باسم Islamic Center. 333 في جنيف (سويسرا) ويصدر هذا المركز مجلة «المسلمون».

ويزداد عدد المسلمين في أفريقيا في كل سنة مئات الآلاف، والأفريقيون يرحبون بالإسلام أيما ترحيب، ذلك لأن الإسلام في نظرهم يأبى الاستعباد والاستعمار، وهو دين الحرية والانطلاق. لذلك يوفد ثلة من المبشرين بالدين الإسلامي والدعاة من قبل الجامع الأزهر في مصر وكلية الشريعة في دمشق إلى أفريقيا وغيرها من البلاد. وأما في الأيام الأخيرة فقد تأسست جمعيات إسلامية متعددة في أنحاء العالم. وهم يوجهون نداءاتهم إلى العالم الإسلامي لإرسال دعاة مجاهدين يقومون بدعوة إسلامية شاملة، فاليابان أرض خصبة للدعوة إلى الإسلام. وفي الهند فعاليات مشكورة لنشر حقائق الإسلام بشتى اللغات. وقد شيد مسجد فخم في هانبورك: (هانبورغ) بألمانيا الغربية ويسلم كل يوم نفر من الألمان، ويعملون بما نص عليه الدين الإسلامي.

* * *

ومن الطريف جداً أن أنقل هنا باختصار من مجلة حضارة الإسلام[١] إسلام امرأة فرنسية من مواليد بلجيكا اسمها (بوليت كيو). كانت تسكن في شقة بناء في حي فخم بجوار بحيرتي (أكسل) على مقربة من جامعة بروكسل عاصمة بلجيكا. وكان نزيلا الدور الثاني من هذا البناء (محمد وعدنان) من الطلاب السوريين.

وكان مألوفاً أن يتلاقى محمد وعدنان وهذه الجارة الفرنسية (بوليت كيو) معظم الأيام على مدخل الدار السفلي، أو أثناء الدرج، فلا يكون بينهم أكثر من تحية طائرة تفرضها المجاملة، دون أن تجر وراءها كلمة واحدة. وإن هذه الامرأة الفرنسية (بوليت كيو) كانت تعتني عناية صارخة بزينتها اليومية إلى حد الإفراط، فكانت نموذجاً من الاستهتار الذي لا يقيم وزناً لأي مقياس أو تقدير. ومع ذلك فهي تمر بالطالبين السوريين وزائريهما كما تمر بالآخرين من الناس في الشارع والترام والسيارة والشركة التي كانت تعمل فيها كسكرتيرة لمديرها. إنها ما كانت تثبت نظرها في أي وجه، إلا بمقدار ما يتطلب الموقف. فكان غرضها الوحيد من ذلك الاستهتار هو فقط اجتذاب الأبصار وإثارة الفضول دون أي شيء آخر..!

ـ ٢ ـ

وحدث ذات يوم أن محمداً، وهو اكبر الطالبين، قد عاد من إجازته الصيفية، ليستأنف دراسته بقسم الدكتوراه في الكيمياء الصيدلية، وكدأبهما في مثل هذه المناسبة كان عليه أن يخص جيرانه ببعض الهدايا الشرقية، فملأ لصاحبي البناء طبقاً من الحلوى، ثم مضى بمثله إلى الجارة المجهولة، هذه الفرنسية (بوليت كيو) ولما أطلّت الجارة الفرنسية تتعرف الطارق، فوجئت بما لم تتوقع، وجمدت قليلاً قبل أن ترد تحيته، ثم سألت في لهجة لم تخلُ من الاستغراب: ماذا؟

ومد محمد يده بالطبق الشهي، وهو يقول: إنها هدية صغيرة من حلويات دمشق، قدمت مثلها إلى جيراننا الآخرين، فهل تتكرمين بقبولها. تناولت (بوليت) الهدية

(١) مجلة حضارة الإسلام، العدد السادس والسابع من السنة الرابعة.

شاكرة. ودعته إلى الدخول، وألحت بذلك، فلم يسعه إلا الاستجابة، واتخذ مجلسه في الغرفة، ودخلت (بوليت) بالهدية إلى غرفة الطعام، ثم عادت ومعها صحفة فضية يعلوها قدح صغير مذهَّب وانحنت وهي تقدمه إليه، ولكن محمداً وضع يده على صدره وهو يعتذر: سأكون شاكراً إذا أعفيتني.

ـ ولكنها خمرة جيدة، من أحسن أنواع الكونياك.

ـ لا شك في حسن ذوقك، ولكن لا أشرب الخمر..

ـ لماذا؟..

ـ لأنني مسلم.

ـ مسلم!!!

وانزلقت الكلمة في عفوية ممزوجة بالدهشة وجمدت عيناها لحظة على وجه ضيفها، كأنها تريد أن تتبين خصائص هذه الكلمة الغريبة من خلال ملامحه وقسماته.

ولم تشأ أن تخر الفتى بالإلحاح، فوضعت الكأس في الصحفة الفضية على النَضد النصفي، ثم أخذت مجلسها في مقعد مجاور، وجعلت تنظر إليه، وهي تقول: الإسلام! هذا شيء أذكر أني قرأت عنه في بعض الكتب، وقد أعجبني منه دعوته إلى النظافة.

فقال محمد: إن النظافة في الإسلام من الصفات الأساسية، ولكني أرجو مع ذلك أن يكون الكتاب الذي قرأتِه عنه من الكتب النظيفة، التي لا تتعمد تشويه الحق.

فقالت: الحق أنني لم أقرأ الكثير عن هذا الدين الشرقي، ولم أعمد البحث عن مضمونه.

فقال محمد: فهل ترغبين في قراءة شيء عن الإسلام؟.. لدي كتاب بالفرنسية، ذو أسلوب أدبي معجب، وفيه كثير من الحقائق الموضوعية عن هذا الدين الإلهي.

فقالت (بوليت) سأكون شاكرة إذا أعرتني هذا الكتاب ما دمت واثقاً من موضوعيته.

ولم يشأ أن يؤخر الأمر، فاستأذن ليأتيها، وما هي إلا دقيقتان حتى أقبل عليها، وهو يقول: إنه مقدمة لكتاب ضخم ألفه مصري اسمه (عبدالله دراز) بعنوان (أخلاق القرآن)، لينال به إجازته الدكتوراه من باريس.

ـ ٣ ـ

كانت شقة محمد وأخيه عدنان أشبه بمكتبة الجامعة، يرتادها العديد من طلاب العرب في مختلف أوقات النهار. وقد تطور أمرها أخيراً، حتى أصبح بين روادها الأفريقي الأسود، والهندي الأحمر والأسباني الأبيض. وبذلك لم يقف دور الشقة عند حدود المذاكرات الجامعية، بل تجاوزها إلى المدارسات الإسلامية، والعبادات وإقامة الفرائض، وطبيعي أن هؤلاء الرواد لم يكونوا من طبقة الطلاب وحدها، بل تعددت مستوياتهم كما تعددت جنسياتهم ففيهم الطالب والعامل والتاجر، والفقير والثري، يفدون إلى الدار من أنحاء العاصمة، ليتعاونوا على فهم دينهم، وتجديد عقيدتهم، والبحث في شؤون شعوبهم، وأوطانهم. وقد رأوا أخيراً أن يخصصوا يوماً في الأسبوع يتلاقون فيه على حصص منظمة من الدراسة والعبادة، ، فحصص للقرآن، وأخرى للحديث، ومثلها للفقه، ووقت خاص لبعض المؤلفات الإسلامية الحديثة وفترات خاصة للاستجمام وللعبادة، وهكذا كان يوم الاثنين من كل أسبوع هو اليوم الجامع لهؤلاء الرفاق. يتزودون منه بما يعوزهم لبقية الأيام، ويتهيئون له بالأفكار الجديدة والأسئلة العديدة.

وفي جو هذه الاجتماعات يتعذر على من يحضرها لأول مرة أن يعرف مؤسسيها ودعاتها. لأن روح الأخوة لا يدع مجالاً لأي تمييز بين الواحد والآخر من روادها. ولكن القدامى منهم يعلمون أن الأخوين الدمشقيين محمداً وعدنان، هما نقطة الانطلاق والارتكاز في هذا التجمع. وقلما تمضي عليهما ليلة دون أن يحاسبا نفسيهما على ما صنعا في نهارهما. وكانا قد شقَّا لنفسيهما طريقاً آخر إلى عمل مثمر، ينسجم مع أخلاقهما التي لم تألف الانحراف عن سبيل الحق. وهكذا انتهيا إلى الاتفاق على مخطط مدروس، ذي شعبتين: أولاهما ذاتية تتركز في تعهد نفسيهما بالجهاد المتصل سواء في حقل الدراسة، أو التهذيب الروحي، حتى يحصّناها من تلك المفاسد التي تكتسح الكثرة من مواطنيهم في مختلف أقطار أوروبا، وأما ثانيتهما، فموضوعية وبالأصح إنسانية، تستهدف تنظيم الطاقات الإسلامية في نفوس الشباب المؤمن، ليس

فقط في بروكسل، بل في أي مكان يمكن أن يتاح لهما الاتصال به في بلجيكا وخارجها.

ومنذ ذلك اليوم بدأ نشاطهما في نفسيهما والأقربين من رفاقهما، ثم قضوا جميعاً متعاونين في توسيع مجالات هذا النشاط. حتى استطاعوا أن ينقلوا خطواتهم الأولى في سبيل إنشاء المركز الإسلامي الذي يحلمون به. وكان ذلك حين أحرزوا موافقة الحكومة البلجيكية على إعطائهم البناء الخاص بالحكومة التركية في معرض (بروكسل)، وهو البناء الذي أنشئ على صورة المسجد بقبته ومنارته. ثم أصبح فارغاً معطلاً بعد ارفضاض العرض. وهاهم أولاءِ يعدون عدتهم منذ اليوم ليقيموا فيه صلاة عيد الفطر الذي بات موعده وشيكاً. ثم ليجعلوه فيما بعد مسرح نشاطهم الذي لم يعد يتسع له البيت.

وقد أصبح لديهم مكتبة متنقلة تحتوي على طائفة من أنفس الكتب الإسلامية بالعربية وغيرها، وتقدم بطريق العاربة للرجال والنساء على سواء. ولقيت حركتهم عطفاً مشجعاً لدى بعض السفارات الإسلامية، وبخاصة سفارة (السينغال) التي يقوم على رأسها رجل يهمه أمر الإسلام وانتشاره في أصقاع الأرض ويحيط به قلة من الموظفين لا يقلون عنه حباً للإسلام واهتماماً بشؤون المسلمين. ولم تعد حركتهم محصورة في حدود المسلمين وحدهم، بل بدأت الاتصالات بعناصر مثقفة من البلجيكيين والأوروبيين أنفسهم. وها هو ذا عدد منهم نساءً ورجالاً يحضرون اجتماعاتهم الأسبوعية، ليستمعوا إلى معاني القرآن والحديث، وليشاركوا في مناقشة الأفكار المختلفة التي تقرأ في بعض هذه الاجتماعات عن الإسلام والمسلمين.

علم محمد أن المرأة الفرنسية تريد أن تترك شقتها الكبيرة في هذا البناء إلى شقة صغيرة في بناية أخرى فاقترح على صاحبة البناء أن يقدم شقةً كان يسكن فيها هو وأخوه عدنان إلى المرأة الفرنسية وهما ينتقلان إلى الشقة الكبيرة، فحصلت الموافقة.

ـ ٤ ـ

وعاد الأخوان مساءً ليجدا كل شيء قد تم على ما يرام، بل فوق المرام لقد بُدلت الدار بالدار، ورتبت أشياؤهما من كتب وثياب وحقائب وما إلى ذلك مما يملك

المسافر في أمكنتها المناسبة من المنزل الجديد، وكانت الدار بأثاثها الأصلي الفاخر غاية في الأناقة التي يحلم بها طالب في منزل أجرة (بانسيون). فاستشعرا روح الهناءة، ووقفا هنيئة يخططان للاجتماعات المقبلة، ولم ينسيا أن يخصصا قاعة مناسبة لصلاة الجماعة وقيام الليل المشترك في أوقاته الأسبوعية. وأشدَّ ما أدهشهم منظر بياضهم مغسولاً مطوياً، وثيابهم منظفة مكوية، وقد نسقت على مشاجبها في الخزائن! فقدروا فضل الجيران الذين نهضوا بهذا العبء متبرعين، وفي هذه الآونة فوجئا بالجرس يدق، ولما فتح الباب أطلت منه المرأة الفرنسية تحييهما وتسألهما إذا كانت ثمة من خدمة أخرى تستطيع تقديمها لهما..!

واستجابت المرأة لدعوتهما، فجلست لترشف قدح الشاي الذي صبَّ لها، وقالت رداً على الثناء الذي وجهاه إليها...: لم أفعل شيئاً كبيراً، لقد وجدت نفسي في فراغ الأحد، وكان لابد من نقل أمتعتي إلى داركما الأولى كما اتفقنا، فبدلاً من أن أعود فارغة إلى فوق، في كل مرة، كنت أحمل بعض أمتعتكما بطريقي، بمساعدة الجارة الكريمة صاحبة البناء، ثم وجدت لدي بقية من فراغ فسليت نفسي بإنجاز بعض الأشياء قد يضيق وقتكما عن إنجازها في الوقت المناسب.

قال عدنان: ولكن هذا كثير، أيتها الجارة المحترمة.

وقال محمد: لقد وضعتنا بذلك تحت عبء من الفضل قد نعجز عن مكافأته، وهنا أثبتت قليلاً نظرها في وجه الفتى الذي صبغه الحياء، وبرق ببوادر الشعور بالجميل... ثم قالت: «بل لعل الأمر على العكس، ولو علمت ما أحدثت عاريتك في نفسي لأدركت أنك أنت المتفضل...»

وفجأة وثب إلى خيال محمد صورة تلك الليلة التي طواها وراء ستة أشهر، وتذكر الكتاب الذي أعارها إياه... فقال: أرجو أن يكون وقتك قد اتسع لقراءة الكتاب...

ـ لقد أعدت قراءته خمس مرات...

ـ وبالطبع كتبت ملاحظاتكِ عليه.

ـ الملاحظات كثيرة... ولكني لم أكتب واحدة منها خارج قلبي... أجل.. لقد نقشت انطباعاتي هنا، على صفحة قلبي التي لا تقبل المحو...

وسكتت، وسكت الفتيان بما يسمعان. وينظر كل منهما إلى الآخر دون كلام. . . حتى عادت المرأة تقول: كنت أحسب أن تجاربي الماضية كانت كافية لصرفي نهائياً عن أي تفكير ديني. ولكن هذا الكتاب قد كشف لي بشكل مباغت أنني على أتم الجهل بجوهر الدين. وإنني لأول مرة أجد نفسي في مواجهة الحقائق الإلهية، التي قضيت شطراً كبيراً من عمري في البحث عنها بغير طائل.

قال عدنان: ذلك حال طبيعي، فالقلب الإنساني كالقفل الدقيق، لا يستجيب إلا إلى مفتاحه، وليست الحقائق الإلهية إلا ذلك المفتاح.

ـ تمثيل رائع، وأستطيع القول بنتيجة خبراتي الشخصية أن هذه الحقائق هي وحدها التي تروي عطش القلب الضائع في صحراء المجهول. وكل تفكير ديني مجرد عنها هو كالماء الملح لا يزيد النفس الظامئة إلا تلهُّباً واحتراقاً.

وفي غير تعمد انسرب بصر محمد يجول في مظهر هذه المرأة، كأنه يفتش عن الدليل الذي يؤكد أنها جادة في الذي تقوله. فإذا هو يصطدم بالواقع، الواقع البعيد عن كل صلة بهذه الحقائق. . . !

إن الأحمر الذي يغرق شفتيها. . والركبتين تشدان النظر إلى ما وراءهما في إغراء وقح. والضغط الصارخ الذي يلصق الثوب القزم بكل جزء من أنحاء هذا الجسم المصنَّع، والذي لا يزال محتفظاً بالكثير من مُغريات الفتوة كل أولئك من شأنه أن يفرغ كلامها المحكم من كل معنى جادٍّ. وبخاصة في مقياسه هو الذي لا يستطيع التفريق بين الفضائل الروحية وسلوك مدعيها ولذلك لم يستطع منع وجهه من ابتسامة خفيفة لا يفوت الذكي ما وراءها!! . .

وعادت الفرنسية إلى الكلام: «لقد اطمأن عقلي وقلبي إلى هذا الدين وأريد أن أسألكما عن السبيل إلى اعتناقه. . .».

قال محمد: إن مجرد الاقتناع به هو اعتناقه. ويبقى إعلان ذلك بالشهادتين: أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله. . .

ـ فأنا أشهد أن لا إله إلا الله، لأني مقتنعة من قديم بهذه الحقيقة، وأما رسالة محمد، فلا ينكرها إلا كافر بعقله، أو كاره للحق. فهل أنا إذن مسلمة الآن!؟

ـ بالتأكيد. . . ولكن هناك مشكلة. . .

ـ مشكلة! . . . وما هي؟ .

ـ هي: أن الإسلام نظام. . . يؤخذ جملةً لا تفاريق. . . وهو يفرض على معتنقه سلوكاً معيناً، ومظهراً خاصاً، وخلقاً مميزاً. . . بحيث يمثل في شخصه المتميز، الخطوط العملية الكبرى لحقيقته الإلهية.

ـ أدركت هذا من سلوككم. . الذي أعطاني في الواقع كثيراً من التفسيرات التي لم يتسع لها الكتاب. لقد سئمت الأديان التي تفصل بين السلوك الشخصي والمعبد. وتتساهل حتى في الفضائل الرئيسية. فلا تتورع عن استخدام المسابح المختلطة، والملاهي العابثة، والمراقص المنكرة، كوسيلة لاستبقاء الرباط بينها وبين الشباب الطائش، وكرهت من رجال هذه الأديان بوجه خاص وقوفهم في نطاق الطقوس الرمزية داخل حدود المعبد، فيفصلون بذلك بين المعبد والشارع. إذ يفصلون بين لحظات العبادة وبقية الحياة. فيكتفون من المتديّن أن يظلّ على صلة بمعبدهم ولو ساعة في الأسبوع ثم لا عليه بعد ذلك أن ينطلق وراء غرائزه في سباق محموم لا يعترف بأية رقابة لعين الله. ولا أية مسؤولية تجاهه. وذلك بخلاف الإسلام الذي تبيَّن لي أنه من الشمول بحيث يعتبر الأرض كلها معبداً. وكل عمل صالح ما دام المؤمن يأتيه وهو مستهدف رضوان ربه. ومن هنا كان المسلم الحق صورة صحيحة للإسلام. . . وهو لاشك سعيد بذلك. لأنه لا يستشعر أي تناقض بينه وبين قوانين الطبيعة من حوله وفي داخله. بل، أنه ليشعر بديل ذلك بأتم الانسجام بينه وبين الحياة. وأن كل شذوذ عن موجبات هذا الدين مؤدٍ إلى شقائه لأنه تصادم مع مبدئ الحياة نفسها.

وأمسكت قليلاً أحدق ما بين يديها دون تركيز على شيء بعينه، وقد غرق البهو كله في صمت عميق وأطرق كل من الفتيين مثلها يسبح في غمرة هذه المعاني، التي فتحت أمام نفسيهما آفاقاً ماتعة، يخيل إليهما أنهما يستشرفانها لأول مرة.

وقطعت الصمت مرة أخرى لتقول «من أجل ذلك استجابت نفسي كلها لهذا الإسلام. إذ وجدت فيه دعوة الله المتجاوبة مع أعماق الفطرة الإنسانية. . . وقد صممت على أن أخضع جميع تصرفاتي إلى أحكامه. . .»

ولم يشأ محمد أن يؤخر ملاحظاته أو يجمجم بها فقال: «ولو قضت هذه الأحكام بتغيير نظام حياتك كلها. . .»؟

في تصميم قاطع أجابت، وما فائدتي من الإسلام إذا هو لم يغير طريقتي في الحياة!. . . وهل نفسي كانت راضية عن نفسي ونظام حياتي. . وعن أي شيء مما حولي!. . .

ثق أيها الجار الكريم إنني كنت إنسانة ضائعة، بل غريقة، يتلاعب بها تيار المجتمع على كره منها. ولم تكن تصرفاتي الشخصية جميعها إلا محاولة للهروب من الواقع الحائر، الذي تفرضه عليَّ حضارة لا أؤمن بها لأنها حضارة عوراء، لا ترى من الإنسان إلا جانبه الجسدي، ولا تقيم وزناً لأي ظمأ داخلي خارج نطاق المادة، ولقد كان لقائي بك ليلة الهدية أول صدمة شدتني إلى الاتجاه الآخر، ثم جاء كتاب الدكتور (دراز) فدفعني شوطاً بعيداً في هذا الطريق. وكان لطريقة حياتكم في هذا الجوار الطيب أثرها العملي في صيرورتي إلى هذا التقرير المطمئن. . . وأنا اليوم بما أدركته من هذا الدين أشعر بأنني عثرت على نفسي ووجدت حقيقتي، ووضعت قدميَّ في الطريق السويّ، فكيف لا أخضع وجودي كله لحقائق الإسلام. وهو الذي أنقذني من ذلك التمزق، وهداني السبيل بعد ذلك الضياع الوبيل. . . !.

وعقب عدنان على ذلك قائلاً: ولكن عناءاً جديداً ينتظر القابض على هذا الدين. . . لعل أهون منه قبض الجمر. . إنه يفرض تطهير الجسد كما يفرض تطهير داخله سواء بسواء. ويتطلب من المسلمة بوجه خاص التخلص نهائياً من مثل هذه الثياب إلى أشكال أخرى تتم بها الحشمة، دون تضييق ولا تقصير ولا خلاعة، حتى الشعر، لا يأذن بظهوره لأجنبي. . . وهناك صلوات خمس في كل يوم وليلة لا مندوحة من أدائها. . . ثم صيام شهر رمضان الذي نحن فيه هذه الأيام. ثم كف النفس عن كل شهوة حرمها الله كالخمر والرقص المختلط، والخلوة بالأجنبي. . . وأقل ما يجره هذا الاتجاه هو أن تُصبحي هزأة لدى الذين سيرون منك كل هذا التغيير دون مسوِّغ مقنع في أنظارهم.

وكفَّ عن الكلام ليرى أثره في نفسها، فإذا هي تقول: أما هذه الثياب فستتغير في أسرع وقت. . . وفي الصلوات الخمس فرص سعيدة يتاح لي فيها أن أروي ظمأ قلبي

إلى مناجاة الله. وسأجد في الصيام دون ريب متعة رائعة، إذ تعرفني حاجة الإنسان إلى نعم الله التي أَلِف أن لا يعيرها تفكيراً . .

ولقد مجت نفسي تلك الشهوات التي لم تزدني إلا استشعاراً للفراغ الروحي الذي طالما عانيته . . . أما هزأ الناس فقد توقعته، ووطنت نفسي على احتمال كل شيء . . .

ولم يبق لدى الفتيين ما يقولانه بإزاء هذا الإصرار الحاسم . . فاكتفيا بأن قدما إليها الأوراق التي كتب فيها بالفرنسية صيغ الوضوء والصلاة . . . وما لا مندوحة عن معرفته للمسلم المبتدئ. ثم قال محمد: سنكون جميعاً مسرورين باستقبالك أصيل كل اثنين. إذا شئت أن تحضري معنا بعض الدراسات والعبادات . . . وسترحب بك أخوات من السنغال وألبانيا وأندونيسيا وأنحاء أخرى من العالم . . .

وقد اختارت (بوليت كيو) الفرنسية لنفسها اسماً جديداً (هدى) بعد اعتناقها دين الإسلام ودخلت في صباح اليوم التالي على مدير الشركة البلجيكي فقالت له: لدي خبر، أرى من واجبي إطلاعك عليه لكن لا يفاجئك. وابتسم المدير لسكرتيرته في لطف أبوي وقال: اعرضي ما تريدين . .

ابتداءً من الغد سترون تغيراً بل انقلاباً في حياتي كلها، وأول ما تلمحونه من ذلك في ثيابي التي ستكون أدنى إلى أردية الرواهب . . .

ـ لعلك راغبة في اللجوء إلى الدير!؟ . . .

ـ كلا . . لا شيء من ذلك . . إنما قررت أن أكون مسلمة . . .

ـ مسلمة! . . وهل يعني ذلك أن تتركي الكاثوليكية . . ؟

ـ هو ذاك، لأن الإسلام شيء غير المسيحية المعروفة كلها . . . وسأعرفك به عندما تريد . . .

ـ ولكن الإسلام كما قرأت وكما أخبرنا بعض القسس يحتقر المرأة. . . ويجعلها قعيدة بيتها لا تصلح لأي عمل . . !

ـ ذلك من دسائس أعداء الإسلام الذي لا تعرفه مع الأسف إلا عن طريقهم. أما الواقع فهو أن المرأة لم تسترد اعتبارها الإنساني إلا في ظل الإسلام . . . وقد لبثت

أحقاباً لا تعدو منزلة الشياطين في حكم رجال الكنيسة حتى هبت على أوروبا نفحات الحضارة الإسلامية عن طريق الأندلس والحروب الصليبية، فإذا رجال الكنيسة يعدلون رأيهم في المرأة، ثم لا يزالون يعدلونه حتى انتهوا إلى الاعتراف ببعض حقوقها التي قررها الإسلام منذ أربعة عشر قرناً. . . ومهما يكن فذلك بحث نرجئه إلى وقته المناسب. ولكن هذا لن يؤثر في إخلاصي في عملي بل سيزيدني رغبةً فيه واتقاناً له، لأنني بذلك أحقق أحد تعاليم ديني الجديد. . .

ولم يرَ المدير في أمر سكرتيرته أي أمر ذي بال. ما دام إسلامها لن يحول دون استمرارها على عملها بالنشاط المعتاد نفسه. . . وقلَّب شفتيه ويديه وهو يقول لها: ذلك أمر يخصك ولا يهمني.

ثم مضت هدى إلى زملائها من مستخدمي الشركة، تنقل إليهم النبأ في لهجة مثقلة بالجد. وأكدت لهم جميعاً أنهم ينكرون غداً مظهرها الجديد، لأنه مخالف لمألوفهم، ولكنها ترجو منهم أن يدعوها وشأنها، وأن يكونوا على أتم الثقة بأن عقلها لم يتغير، وأنها لن تسبب شيئاً من الإزعاج.

وجاء اليوم الثاني. . . وغادرت هدى الشقة إلى عملها اليومي في زيها الإسلامي الجديد. الذي أعدته لها أختها فاطمة الأندنوسية: ثوب سابغ أبيض يمتد من أعلى النحر إلى أسفل الساق. وقد اتسع حتى لا يمثل أي عضو تحته. وخمار زبدي اللون أدبر على الرأس وحول العنق، بصورة لا أناقة فيها إلا سذاجة. وفي القدمين المجوربتين حذاء قليل الارتفاع لا يوحي بأي إغراء أو تبذل. . . وقد تعمدت أن تكون نظارتاها من اللون الأسود. . لتستطيع حجب تأثرها من الأشياء المزعجة التي تتوقع أن تراها أثناء اليوم. وربما كان أغرب ظواهرها هو هذا الوجه الذي تقابل به الناس لأول مرة منذ ثلاثين سنة ونيف خالياً من كل أثر للزينة أو الطلاء. . . فلا أبيض، ولا دهان، ولا أحمر، اللهم إلا حمرة الخجل الذي غشي وجهها جميعاً.

وفي سيارة الشركة، التي اعتادت أن تمر بها كل صباح، تلقت أول صدمة، وذلك حين انصبَّت عليها أحداق العمال والمستخدمين فاغري الأفواه من الدهشة. لا تكاد

أعينهم تصدق أن هذه هي سكرتيرة المدير! وحتى الرجال والفتيات الذين أنبأتهم خبرها بالأمس لم يتمكنوا من كتمان دهشتهم، فراحوا يتغامزون ويتهامسون وهم يسارقونها النظر. وهي في هذه الغمرة من المفاجآت لم تلحظ هدى أن أحداً رد عليها تحيتها، كأنهم لم يسمعوها، أو كأنهم شغلوا عن الرد بهذا المنظر، حتى جعلت تراجع نفسها فلا تدري: أألقت تحيتها أم صرفها انشغال فكرها عن ذلك!...

ولم تتمالك رعشة سرت في جسدها وهي تستقبل هذه المفاجأة، ثم غلبها الضعف، فإذا دمعتان كبيرتان تتدحرجان على خديها[1]، فتسرع إلى مسحها بمنديل صغير كانت تشغل أصابعها بلمسه وتقليبه!

وودت لو تطير بها السيارة لتخلص من هذا الجو، وقد قررت أن تلوذ بغرفتها فلا تغادرها إلا لضرورة قاهرة، وأن تتجنب هذه الأنظار، فلا تخالط أصحابها إلا بعد أن يألفوا منظرها الغريب.

ولكن سرعان ما خاب فأل المسكينة، إذ ما كادت تهبط من السيارة إلى داخل مكتبها حتى فوجئت بالمدير. يطل عليها من الباب الخاص، ليقلب نظره طويلاً في هذا الزي الذي لمحه عن بعد، والذي سمع المستخدمين يتهامسون بشأنه..!

وانتبه المدير إلى موقفه، فلم يسعه إلا أن يتكلم، أسعدتِ صباحاً أيتها الآنسة، أرجو أن لا تجدي ما يزعجك طوال اليوم!..

وأدركت ما يريد، وتذكرت كلمات عدنان... وتصميمها السابق، فردت تحيته بكل ما استطاعت من لطف، ثم قالت: ليثق حضرة المدير أن لا شيء يزعجني... لأنني مطمئنة إلى أن مسلكي هو الأفضل.. وكل استغراب له إنما يرجع إلى بعد المستغربين عن فهم الحقائق الإلهية...

ولم يجب المدير بشيء.. وترك لشفتيه أن تتمتما ببعض الكلمات الغامضة... ثم انسحب إلى مكتبه...

---

(١) ما أعظم فضيلة الصبر، فإنه تعالى يقول: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزُّمَر: الآية ١٠]. وقال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ﴾ [القَصَص: الآية ٨٠]. ويقول الإمام علي عليه السلام: «في البلاء تحاز فضيلة الصبر».

وانتضت (هدى) بتصميمها. وتذكرت أيضاً أن الإسلام يستحق منها أكثر من هذه المزعجات. أنه غريب في (بروكسل) كغربته من قبل في مكة، ولقد تلقى أتباعه الأولون، بين إخوتهم الكافرين به، ألوان العذاب في سبيله قبل أن يحتل مكانته الطبيعية في وطنه الأول، فلمَ لا تحتمل هي اليوم بعض ذلك العذاب في سبيل تعريفه إلى الناس في هذا البلد البعيد عن روحه وحقائقه. واستمرت حياة هدى على هذا المنوال أياماً طوالاً... لقيت أثناءها الأمرين من فضول الناس... فلم تجتز شارعاً ولم تطأ حانوتاً، ولم تركب حافلة، ولم تدخل مركز الشركة إلا سمعت الهمس ورأت الغمز واللمز... وقابلت ذلك كله بجلد هائل... ولكنها ما تكاد تخلو إلى نفسها في بيتها حتى تستسلم إلى بكاء طويل نشيج محرق[1]...!.

وجاءت صاحبة البناء ذات يوم إلى دار الطلاب، لتخبرهم أن جارتهم التي من حقها أن تكون سعيدة في عيد ميلادها اليوم، قد أغلقت عليها بابها لتنخرط في بكاء حزين...

وهبطوا: عدنان ومحمد والبلجيكية لاستطلاع خبرها، وبعد أكثر من دقيقة استجابت لدعوة الجرس وفتحت لهم الباب. فدخل الفتيان إلى الردهة ليأخذا مكانهما بانتظارها... ولما عادت نحوهما في رداء الاستقبال، كان أثر الدمع لا يزال بارزاً من تحت نظارتيها السوداوين... ورحبت بهم في صوت لم تستطع إخلاؤه من أثر البكاء...

وتكلم محمد في كثير من التحفظ، فقد كثرت أحزانك في هذه الأيام.. ولابد لأنها نتيجة لوضعك الجديد. ولما يواجهك بسببه من مزعجات. وكان الأولى أن تقابلي ذلك بالصبر الذي وراءه الأجر...

وكأنها أحست في تلك العبارة ما حرك أشجانها من جديد، فلم تستطع منع عينيها من الدمع... وترددت ملياً تغالب نفسها، وتسترد أنفاسها، حتى استطاعت أن

---

(١) قال رسول الله ﷺ: «إذا أحب الله عبداً نصبت في قلبه نائحة من الحزن، فإن الله تعالى يحب كل قلب حزين، وإذا أبغض الله عبداً نصب له في قلبه مزماراً من الضحك. وما يدخل النار من بكى من خشية الله حتى يعود اللبن إلى الضرع، ولم يجتمع غبار في سبيل الله ودخان من جهنم في منخري مؤمن أبداً» [إرشاد القلوب: ج١، ص٩٦، باب ٢٣].

تستأنف: «. . حقاً، أنها لأحداث مزعجة: تلك التي أصادفها في كل مكان. . . ولكنها لا تزيدني إلا شعوراً بالرضى وإشفاقاً على هؤلاء المساكين الذين لا يعلمون ما يعملون. . . ولعل كثيراً من دموعي وأحزاني لا تعدو أن تكون تعبيراً من الغبطة الروحية التي تستغرقني، عندما أشعر بأنني أتحمل بعض التضحية في سبيل الله. . . غير أن أخوف ما يخيفني هو أن يكون البعض الآخر من هذه الدموع والأحزان نتيجة لضعف خفي في قوتي الروحية!. . .

وتهدج[1] صوتها، ثم عاقها النشيج عن متابعة الكلام. . . فأمسكت لتمسح دموعها وتهدئ أعصابها».

ورأى محمد أن يساعدها على هواجسها، فقال: إن مثل هذه الظاهرة تبدو جلية في جميع الذين هُدوا إلى الإسلام من إخوتنا الأوروبيين. وهذا إسماعيل الذي كان اسمه روجيه، كثيراً ما تهيج مشاعره حتى لا يجد راحة لقلبه في غير البكاء وهذا كما يبدو لي نتيجة رهافة بالغة في العواطف ولدتها الأشواق الروحية والتأمل المستديم في معاني القرآن الحكيم[2]. . . وهنا رفعت هدى بصرها إلى محدثها وقد شاع في وجهها بشر خفي، ثم قالت وفي صوتها رنة السعادة: «لكم يسرني أن يكون استنتاجك مصيباً أيها الأخ. . . الحق، إنني أحس في قلبي رقة لم أعهدها قبل إسلامي. . . وكثيراً ما يطغى عليَّ هذا الشعور حتى أغيب في فيضه عن كل شيء. . . إلا تلك الإشارات السماوية التي اكتشفها كل يوم في الآيات القرآنية. أو الأحاديث النبوية. .».

وتوقفت قليلاً، كأنما اعترضها خاطر مفاجئ. . . ثم قالت: لقد عرضت على أختي بنت سفير السنغال أن أترك الشركة إلى سفارتهم، أجد الجو الإسلامي الذي يريحني من مضايقات المخالفين. فترددت أولاً، ثم رأيت أن أقبل هذا العرض وإن كان دخله دون مرتبي الأول. لأنه سيوفر لي من الراحة النفسية ما أنا في مسيس

---

(١) تهدج الصوت: تقطع في ارتعاش.

(٢) ﴿وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّواْ سُجَّدًا وَبُكِيًّا۩ ﴿٥٨﴾﴾ [مريم: الآية ٥٨]. ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا۩ ﴿١٠٩﴾﴾ [الإسراء: الآيتان ١٠٧/١٠٨].

الحاجة إليه. وفي هذه المناسبة أقول لكما أنني قررت الاكتفاء بالضروري من دخلي، لأجعل ما يزيد عن حاجتي في خدمة الدعوة، ولمساعدة الفقراء من لاجئي الألبان المسلمين. وسوف أفتح منزلي لاستقبال أطفال هؤلاء الذين تضطر أمهاتهم إلى تركهم للعمل أثناء النهار. وعندي اقتراح آخر هو أن نتخذ من هذا المنزل مركزاً خاصاً لاجتماعات نسوية أسبوعية تضم المسلمات وغير المسلمات، من المثقفات الأوربيات اللواتي نأنس فيهن رغبة في الحق، وقدرةً على فهمه.

وكانت الساعة قد بلغت الخامسة مساءً. فتذكر الإخوان موعدهما مع بعض زملائهما الجامعيين من البلجيك والهولنديين، فاستأذنا بالخروج لاستقبالهم، بعد أن اتفقا مع هدى على جميع النقاط التي أثارتها. ووضعوا لكل منها الترتيب المناسب. . .

* * *

فالمرجو من الشباب المؤمن أن يتأسى بتضحية هذين الشابين وطريقتهما في إعلان الإسلام ونشره بين رجالات الغرب ونسائهم، وأن يتعلم منهما الصبر والأناة والعفة والعفاف، والثبات على المبدأ.

فللشاب أوقات فراغ يستطيع فيها أن يخدم دينه، ويخدم الإنسانية جمعاء، بل ينقذها من هوتها السحيقة وويلاتها الفادحة، وغيها وضلالها الفظيع، فليست المناصب العلمية: (ماجستير ودكتوراه. . .) كل ما يزيِّن الإنسان ويجعله في مصاف الآدميين، وإنما النفس هي الميزان في كمال الشخص، لا ما أملته الحافظة أو أنتجته الذاكرة بمساعدة الذكاء فالإنسان إنسان بنفسه، بكمالها وفضائلها وجهادها، لا باختراعاته وابتكاراته فحسب فرب رقاع أعلى نفساً وأرفع كمالاً وأقرب إلى الله ممن بلغ مرتبة «أينشتاين» في عالم الكشف والاختراع وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحُجرَات: الآية ١٣] ولم يقل أكثركم ذكاءً أو علماً أو اختراعاً. وقد قيل:

أقبل على النفس واستكمل فضائلها ... فأنت بالنفس لا بالجسم إنسان

وكم رأينا من شبان حازوا على شهادتين عاليتين أو أكثر، أو نالوا درجة الدكتوراه، إلا أنهم لم يتقدموا في الكمال النفسي شبراً واحداً. فهم يتقلبون في دور الخمور والفجور وهم من أسوأ الناس أخلاقاً وأقلهم وفاءً وأشدهم بخلاً وأكثرهم

تكبراً وأبعدهم عن الفضيلة، حتى أنهم يتكبرون على الآباء ولا يقومون بأداء حقوق الأمهات في سبيل نشوئهم أنواع الأتعاب والتضحيات. فبئس العلم المادي الذي لا يرافقه رقة ولطف وأخلاق وفضيلة. وبئس العلم المادي الذي يجعل النفس الإنسانية من الغلظة والخشونة والقسوة كالحجارة أو أشد قسوة، ﴿وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البَقَرَة: الآية ٧٤].

فلابد من انقلاب جذري في حياتنا التعليمية في معاهد التدريس، من رياض الأطفال إلى التحصيل الجامعي،انقلاب أخلاقي على ضوء تعاليم الإسلام، فلم يترك الإسلام كل ما يؤدي إلى كمال هذا الإنسان منذ نعومة أظفاره إلى أن يترعرع إلّا وقد بيَّن فيه حكمه بوضوح وجلاء، فنحن بحاجة إلى إيجاد جيل يمثل الإنسانية والكمال الإنساني خير تمثيل. وهذا لا يتحقق مع تقليد رجال التربية في الغرب في حقول الأخلاق والكمال النفسي، بل يتحقق بإتباع تعاليم القرآن، ﴿قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾﴾ [المَائِدة: الآيتان ١٥/ ١٦]. وقد قال الإمام علي عليه السلام: «إن هذا القرآن هو الناصح الذي لا يغش والهادي الذي لا يُضل والمحدث الذي لا يكذب»(١).

فلا أخلاق فوق أخلاق نبينا محمد صلى الله عليه وآله ولا كمال فوق كماله، وقد خاطبه الله تعالى قائلاً: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾﴾ [القَلَم: الآية ٤].

وقد صرح نبينا محمد صلى الله عليه وآله أن الله تعالى هو الذي أدبه، بقوله: «أدبني ربي، فأحسن تأديبي». فعلى حملة لواء العلم والأخلاق في مدارسنا على اختلاف مراتبها ودرجاتها أن يتأدَّبوا بأخلاق الرسول صلى الله عليه وآله وأهل البيت عليهم السلام كي يتأدب مَن يربونهم بآداب محمد صلى الله عليه وآله وأهل بيته عليهم السلام: بآداب الإسلام المثالية، ليمثلوا الكمال الإنساني قبل أن يكونوا علماء في مختلف الفروع من العلم المادي.

---

(١) نهج البلاغة: ص٢٥٢، فضل القرآن.

فقد قال الإمام علي عليه السلام: «كثرة العلم في غير طاعة الله مادة الذنوب». وقال أيضاً: «إن الناس إلى صالح الأدب أحوج منهم إلى الفضة والذهب». وقال أيضاً: «إن الحازم من شغل نفسه بجهاد نفسه، فأصلحها وحبسها عن أهويتها ولذّاتها، فملكها. وإن للعاقل بنفسه عن الدنيا وما فيها وأهلها شغلاً». وقال أيضاً: «إن العاقل من نظر في يومه لغده، وسعى في فكاك نفسه، وعمل لما لابد له ولا محيص عنه». وقال أيضاً: «إن الحازم من قيَّد نفسه بالمحاسبة وملكها بالمغاضبة وقتلها بالمجاهدة»[1].

وقال عليه السلام أيضاً: «إن من أحب العباد إلى الله سبحانه عبداً أعانه على نفسه فاستشعر الحزن وتجلبب الخوف، فزهر مصباح الهدى في قلبه وأعد القِرى ليومه النازل فيه»[2].

وقال أيضاً: «إن أفضل الناس عند الله من أحيا عقله وأمات شهوته وأتعب نفسه لصلاح آخرته»[3].

وقال أيضاً: «إن الكيِّس من كان لشهوته مانعاً ولنزوته عند الحفظة واقماً قامعاً[4]»[5].

فطوبى للمجاهدين في سبيل نشر حقائق الإسلام في البلاد الإسلامية وخارجها وهو القائل: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العَنكبوت: الآية ٦٩].

وقد قال الإمام علي عليه السلام: «إن من بذل نفسه في طاعة الله سبحانه ورسوله بانت نفسه ناجية سالمة، وصفقته رابحة غانمة»[6].

* * *

ويجدر بنا أن نذكر هاهنا بإيجاز آراء بعض الشخصيات الذين اعتنقوا الدين الإسلامي في الغرب نتيجة بحث وتنقيب وتتبع عميق دليلاً على أن الإسلام هو الدين

---

(١) غرر الحكم ودرر الكلم للآمدي.
(٢) نهج البلاغة: ص١١٨، خ٨٧.
(٣) غرر الحكم: ص٥٠.
(٤) واقماً: وقم الدابة: جذب عنانها لتقف. والحفيظة: الغضب والحمية في الشيء الذي ينبغي أن يحفظ.
(٥) غرر الحكم: ص٥٠.
(٦) غرر الحكم: حرف الألف.

العالمي في مستقبل قريب وأنه هو دين الله في أرضه وسمائه: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عِمرَان: الآية ١٩] (١).

١ ـ اللورد هيدلي رئيس الجمعية الإسلامية البريطانية: يحدثنا بقوله: «ينظر الأوروبيون دائماً إلى الإسلام كأنه وحشية وهمجية. فلو علموا كل ما فعله محمد لإزالة التوحش والهمجية التي لقيها داخل بلاد العرب لغيروا تلك الأفكار حالاً. إنهم هم المبشرون المسيحيون الذين لم يدخروا وسعاً في تحريف الديانة الإسلامية، وإن هذا لأعظم الكذب الذي يخزيهم وإن كانوا ليظنون أن ما يفعلونه حسن، فما أعظم الفرق بين الطمس التعمدي للحقيقة وبين الحالة التي يسير عليها المبشر المسلم في عمله. روح الإسلام تحلق فوق أشياء أرقى وأرفع من تلك الأطماع الدنيئة والاختلافات الجنسية في الشرق والغرب».

«روح الشكر هي خلاصة الدين الإسلامي، والابتهال أصل في طلب القيادة والإرشاد من الله. وإن كان شكري لله على كرمه وعنايته كان متأصلاً فيَّ من صغري وأيام حداثتي، إلا أنني لا أستطيع أن أشاهد ذلك من خلال السنين القليلة الماضية التي قرع فيها الدين الإسلامي لبي حقاً وتملك رشدي صدقاً وأقنعني نقاؤه وأصبح حقيقة راسخة في عقلي وفؤادي إذ التقيت بسعادة وطمأنينة ما رأيتها قط من قبل ونجوت من العقائد الغربية المتعلقة بسائر فروع الكنيسة المسيحية المختلفة واستنشقت تلك النجاة كما استنشق هواء البحر الخالص النقي. وبتحقيقي من سلاسة وضياء وعظمة الإسلام ومجده أصبحت كرجل قفز من سرداب مظلم إلى فسيح من الأرض تضيئه شمس النهار».

«حياة محمد كمرآة أمامنا تعكس علينا التعقل الراقي والسخاء والكرم والشجاعة والإقدام والصبر والحلم والوداعة والعفو وباقي الأخلاق الجوهرية التي تكوّن الإنسانية ونرى ذلك فيها بألوان وضاءة».

---

(١) اقتبسنا هذا الفصل بكل إيجاز من كتاب: «لماذا اخترنا الدين الإسلامي» الذي صدر حديثاً لمؤلفه الأستاذ السيد محمد الرضي الرضوي.

«لم يشهر السلاح محمد إلا عند الحاجة القصوى لحماية الحياة البشرية وربما ادُّعي بأن الإسلام استعمل السيف في نشر الدين ولكن ألدُّ أعداء الإسلام القادحين فيه عجزوا عن أن يأتوا ولو بأقل دليل أو مثل من الأمثلة التي أثر فيها الحرب في هداية أية قبيلة أو شخص إلى الإسلام».

«والحق أننا نرى من بين جميع الأنبياء الذين أسسوا ديانات، أن محمداً هو الوحيد الذي استطاع أن يستغني عن مدد الخوارق والمعجزات المادية معتمداً فقط على بداهة رسالته ووضوحها وعلى بلاغة القرآن الإلهية وأن في استغناء محمد عن مدد الخوارق والمعجزات لأكبر معجزة على الإطلاق».

«ومن مميزات الإسلام الأصلية ملائمته لجميع الأجناس البشرية. فلم يكن العرب وحدهم هم الذين اتبعوا الإسلام. فدين الرسول محمدﷺ قد أكّد من الساعة الأولى لظهوره، وفي حياة النبيﷺ أنه دين عام صالح لكل زمان ومكان، وإذا كان صالحاً بالضرورة لكل جنس كان صالحاً بالضرورة لكل عقل، إذ هو دين الفطرة، والفطرة لا تختلف في إنسان عن آخر، وهو لكل هذا صالح لكل درجة من درجات الحضارة».

٢ ـ المستر آرثر، يقول: «يريد كل منا أن يختار لنفسه الأحسن، أحسن الأطعمة، أحسن المساكن، أحسن المراكز، أحسن الإخوان، ولكن، كم منا فكر في أن يختار أحسن الديانات، إن معظمنا راضٍ بالدين الذي وجد عليه آباءه، وفراراً من التعب نترك البحث ونكون مصداق هذه الآية المباركة ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ۚ أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [المَائدة: الآية ١٠٤] .

إني لأتجاسر على أن أقول: إذا عينت لجنة من الإنكليز الأكفاء حقيقة ممن هم على شاكلة المأسوف عليه: اللورد سالسبري والمأسوف عليه اللورد: بيكو نسفيلد والمستر بلفور واللورد هالدين والسير روفس إسحاق. . الخ. لفحص الدين الذي يجب أن يتدين به العالم كله لأجمعوا أمرهم على أن يختاروا الدين الإسلامي الذي يشهد له العقل، والذي يجيب رغبة الفؤاد والروح الشديدة من الاتصال بالخالق سبحانه وتعالى. . . ».

٣ ـ و. ب. فارمر: W. B. Farmer يقول: أولاً: إن الدين الإسلامي دين عملي، دين منزه من المخبئات والخرافات دين يسهل فهم مغزاه، دين مُبرأ من كل ما يخالف العقل، ولم تتراكم فيه عُقد الفلسفة الألوهية.

ثانياً: أنه دين يتعرض للأمور الأساسية الأصلية، وإنه دين يزاول القوانين الأولية للطبيعة والفطرة وأنه لا يعرف فصلاً بين الدين والعلم ضمن ترجيحه لعلم الديانة على سائر العلوم. لأنه علم المكرمات وعلم الحياة السعيدة الموفقة.

ثالثاً: للإسلام أحكام تامة وقوانين كاملة في جميع مراحل الحياة البشرية على هذه البسيطة في كل ناحية من النواحي الاجتماعية والإدارية والعسكرية والتجارية.

يشتمل الإسلام على دساتير توضح السبل وترشد إلى الطريق، الإسلام ينظم كل عمل تحتاج البشرية إلى مزاولته.

الإسلام له المام بالظروف الراهنة في الحياة وهو دين جاء لهذا البشر العائش في عالم الدنيا.

٤ ـ الدكتور جرموناس الأستاذ بجامعة بودابست يقول: «خالجني منذ طفولتي حنين إلى أرض الإسلام وكأنها أرض الميعاد الخيالية. فإن الاندفاع نحو الأهداف المادية والرغبة الملحة في السرعة وهما طابع الحضارة الأوروبية أبديا لي الشرق الإسلامي دنيا سحرية تفيض بالشعر وتزدان بالمثل الإنسانية. وإني أنا الرجل الأوروبي الذي لم يجد في بيئته إلا عبادة الذهب والقوة والسطوة الميكانيكية، تأثرت أعمق التأثر ببساطة الإسلام وعظمة سيطرته على نفوس معتنقيه».

«وبينما التمس الأوروبيون أسباب سعادتهم في الاستزادة من نعيم البدن كفل الإسلام للإنسان راحة نفسه، إذ قامت تعاليمه على أن السعادة لا تكون في عرض زائل كسيارة أو طيارة، بل في رضا الضمير، وسبيله أن يقوم الإنسان بواجبه نحو ربه ونحو الناس، فيحس الأفراد بعد الوفاء بهذه الواجبات اطمئناناً قلبياً أطول عمراً من السعادة العابرة التي تصدر عن طريق الأسلحة وتنبعث عن الرغبة في التدمير».

«ولقد وهم السطحيون من الناس ـ حين قارنوا حال الدول الإسلامية بتزايد نفوذ

الدول المسيحية ـ أن الدين الإسلامي هو علة سقوط دولة المسلمين. ولكني أستطيع أن أجهر بمنتهى الجرأة بعد أن قرأت كتاب المسلمين المقدس وثقافة الإسلام بأنه لا يوجد في تعاليم الإسلام كلمة واحدة أو عمل واحد من شأنه أن يعوق تقدم المسلمين أو يمنع زيادة حظه من الثروة والمعرفة والقوة».

«إن محمداً رسول الله ﷺ لأعظم مصلح ثوريّ عرفه التاريخ مؤيّد بوحي من عند الله.. ونحن مأمورون أن نفهم تعاليمه ونطبقها على شؤون حياتنا الدنيوية مع الإيمان بأن ما أوحي به إليه أنما هو أساس لا يهتز ولا يتعثر لكونه إلهياً».

«ولقد أخطأ المسيحيون إذ لم يفهموا الإسلام على حقيقته وبالتالي لم يتشبعوا بروحه».

«إني لأجرُؤ على القول: بأن الإسلام منح المرأة حقوقاً قانونية أكثر مما كان لها في ظل المسيحية، ولقد اعترف بإباحة تعدد الزوجات في حدود معقولة، بالأمر الواقع أي بما تقتضيه غريزة الرجل، فحال بهذا دون تعدد الزوجات غير المشروع الذي يسود الجماعة الأوروبية في هذه الأيام».

«لقد كانت المادية الصارخة والتشيّع للأجداد أي الإيمان باللحم والدم هي الدوافع المحركة قبل الإسلام، وكان العنف هو الحكم الأسمى، وهنا جاء وحي القرآن وهبطت كلمة الله معلنة بأن التفاخر بالأنساب والاعتزاز بصلة الدم والتشيع للجنس لن تؤدي إلى صيانة الحياة الإنسانية ولا إلى تحقيق الهدوء والنجاح، وأن الطريق إلى ذلك هو تقوى الله والصلاح وإتباع قوانين السماء».

«لقد وضع الإسلام حداً للنظرية التي كانت تعتبر الإنسان وحده في قبيلة أو وحدة في شعب أو ابناً للغة من اللغات، وسمى بالأفراد من وهدة الحيوانية إلى أفق إنسانية فسيحة.

وإني لأؤمل بل أتوقع أن يكون الإسلام قادراً مرة أخرى على تحقيق هذه المعجزة في الوقت الذي تحيط بنا فيه ظلمة كثيفة، وإني لأمد يدي لأخواني المسلمين وانخرط في صفوفهم مجاهداً في سبيل الإسلام باذلاً ما أستطيع من إخلاص وحسن طوية كاشفاً عن الجروح باحثاً عما يطهرها ويشفيها متحملاً في سبيل ذلك ما يتحمله المجاهدون من نصب مؤملاً في النجاة التي كتبت للمتقين».

٥ ـ الدكتور بنوه (علي سلمان): الكاثوليكي الفرنسي يعتنق الدين الإسلامي، فيقول: «كان شعوري بوحدانية الله يمنع عليَّ قبول مبدأ: «ثالث ثلاثة» كما أنه بطريق التبعية يحول بيني وبين الإقرار بألوهية المسيح. وبهذا كنت على اتفاق تام من حيث لا أشعر مع ما يتضمنه الشطر الأول من شهادتنا (لا إله إلا الله) ومع روح سورة الإخلاص: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾. وعليه يتبيَّن أن اعتناقي الإسلام كان راجعاً أول مرة إلى أسباب روحية، إلا أن أسباباً أخرى حملتني على دخول هذا الدين ومن بينها عدم الرضى بالرهبانية التي يجترئ أصحابها على نيل سلطة يعتقدون من ورائها أنه يمكنهم محو السيئات البشرية، وما كانت ترضيني كذلك الطريقة المتبعة عند الكاثوليكيين: (التعميد) وهي زعم إدماج روح المسيح في الأطفال بواسطة تناول القربان المتمثل في بدن المسيح».

«ثم أن نصوص بعض آي الكتاب الموحى به على نبينا منذ ما يزيد على ثلاثة عشر قرناً تتناسب وأحدث مبادئ العلوم العصرية، وكان من جراء هذه الملاحظات أن آمنت نهائياً، فأصبحت بهذا على وفق الشطر الثاني من شهادتنا: (محمد رسول الله). . . ».

٦ ـ الدكتور حميد ماركوس الألماني يعتنق الدين الإسلامي الحنيف ويقول: «زاد الإسلام في أفكاري وتصوراتي كثيراً مما يرجع إلى الشؤون البشرية والوداد الإنساني مما لم أجدها في مجالات أخرى ولم أسمع بها من سواها، أن التوحيد الإسلامي عقيدة قدسية منزهة عن الخرافات التي لا تتلائم والعلوم الحديثة، ولذلك لا مضادة بين العقيدة والعلم في الدين الإسلامي، فهذا امتياز خاص عظيم في الدين الإسلامي يهتدي به رجل صرف جلَّ مقدرته واستعداداته في سبيل العلوم».

«والامتياز الثاني لهذا الدين: أنه ليس جملة من تعاليم فارغة، وأماني خلابة تأخذ في طريقها العمياء في الحياة، بل هي قواعد وأحكام نافذة في حياة البشرية مباشرة».

«إن القوانين الإسلامية لا تسلب الاختيار والحرية الفردية، بل هي إرشادات تهدف إلى تأسيس حرية جماعية عامة. إن الإسلام واسطة ذهبية لربط الحياة الفردية بالحياة الاجتماعية».

٧ ـ الأستاذ دونالد ركيول الأمريكي يعتنق الدين الإسلامي، فيقول: «لفت نظري بساطة العقيدة الإسلامية وسهولتها، فليست هناك أسرار ولا ألغاز تؤمن بها ولا نناقشها، بل مردّ الإيمان إلى العقل والنظر في ملكوت الله، وما في الكون من نظام بديع، يهدي، بالضرورة، على وجود إله متصرف له الخلق والأمر».

فإذا عرفت الله وآمنت به، فالإسلام يقول لك أن الله أقرب إلى الإنسان (من حبل الوريد) والله يخبرك عن نفسه فيقول: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ﴾ [البَقَرَة: الآية ١٨٦]، فلا ضرورة من ثم للوسيط بينك وبين خالقك، ولا حاجة بك إلى كاهن تعترف له فيقبل التوبة منك[1]، أو هيكل لا تتم العبادة إلا فيه، ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾ [البَقَرَة: الآية ١١٥].

«وراعني تلك السماحة التي يعامل بها الإسلام مخالفيه، سماحة في السلم وسماحة في الحرب ولين مع أهل الكتاب من نصارى ويهود».

«والجانب الإنساني في الإسلام واضح ملموس في كل وصية من وصاياه وفي كل تشريع جاء به، فالناس وإن اختلفوا في حظوظ الدنيا ومتاعها فهم متساوون أمام الله، لا فضل لأحد على آخر بسبب غنى أو جنس أو لون وإنما يتفاضلون بالتقوى»[2].

«وللفقير والعاجز والمحتاج (حقه المعلوم) على القادرين، يؤدونه زكاةً واجبة». والإسلام لا يقعد بمتبعيه عن ركب التقدم والعمران، بل يأمر الناس أن يأخذوا بالأسباب، فقد قال النبي الكريم: (إعقلها وتوكل). «وهو لا يحرم الإنسان الطيب من متاع الدنيا»[3].

---

(١) ﴿وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [آل عِمران: الآية ١٣٥].

(٢) ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحُجرات: الآية ١٣].

(٣) ولا بأس بذكر صك الغفران بالمناسبة هاهنا. فقد ذكر الشيخ رحمة الله الهندي في كتابه: «إظهار الحق»: «اخترع البابا: (لاون العاشر) المغفرة تذاكر تعطى منه أو من وكيله المشتري بمغفرة خطاياه الماضية والمستقبلة أيضاً، وكان مكتوباً فيه: «ربنا يسوع المسيح يرحمك ويعفو عنك باستحقاقات الأمة المقدسة. وبعد، فقد وهب لي بقدرة سلطان رسله بطرس وبولس والبابا الجليل في هذه النواحي أن أغفر لك، أولاً: عيوبك الأكليروسيه مهما كانت، ثم خطاياك =

٨ ـ كونراد (خالد) الإنكليزي يعتنق الدين الإسلامي الحنيف، وهو من الأسرة الملكية، وقد أذاع في أواخر العام الماضي رسالة باللغة الإنكليزية عنوانها: (الإسلام دين البشر)، جاء فيها قوله: إني لسعيد ومغتبط أن أجدني قادراً على القول بأني مسلم، وإن الإسلام وحده هو الدين الحق وأن رسالته بسطت للبشر رواق الأمل في الحياة على حين أن غيره من الأديان ينهار اليوم ويتداعى للسقوط.

٩ ـ كنود هلميو (علي أحمد كنود هلميو) كاتب صحفي دانماركي كبير يعتنق الدين الإسلامي الحنيف، وهو مؤمن من أعماق قلبه أن مستقبل العالم للإسلام. وأن النصرانية قد فشلت، وإن الإسلام هو الحياة بذاتها وسيبقى إلى الأبد. ويقول: قد منيت الكتب السماوية قبل القرآن بالتحريف فليس إلا القرآن هادياً للإنسانية.

١٠ ـ The Reverand R. G. Flowers (رج فلورز) قسيس بريطاني يعتنق الدين الإسلامي. إنه يقول: «العلة التي دعتني لمتاركة فرقتي الغربية (الفرقة الأرثوذكسية) واعتناق الدين الإسلامي ذات أهمية، تمس صميم الحياة، فليست هي من الطفيليات الآنية وليدة العواطف والأحاسيس الطارئة، بل هي نتيجة المراجعات الكثيرة التفصيلية الضرورية، ووليدة التفكير العميق واستجابة للأدعية والطلبات من الباري جلَّ شأنه».

ويقول أيضاً في كتاب أرسله إلى رئيس جمعية الشيعة الإمامية في لندن «إن قلوبنا وأرواحنا لتتلهف على أشد الاشتياق الممكن لنكون دعاةً فعالة إلى الدين الإسلامي في العالم. ونسأل الله العظيم أن يمنحنا حياة سليمة مقرونة بالصحة كي نوفق إلى هذا الهدف المقدس».

١١ ـ Count Edward gioja (الكونت أدوارد كيوجا) الإيطالي يعتنق الدين

= ونقائصك، ولو كانت تفوت الإحصاء، بل أيضاً الخطايا المحفوظ حلها للبابا وبقدر امتداد مفاتيح الكنيسة أغفر لك كل العذابات التي سوف تستحقها في المطهر، وأردك إلى أسرار الكنيسة المقدسة وإلى اتحادها وإلى ما كنت حاصلاً عليه عند عمادك من العفة والطهارة. حتى أنك متى مت تغلق في وجهك أبواب العذابات وتفتح لك أبواب الفردوس، وإن لم تمت الآن فهي باقية لك بفاعلية تامة إلى آخر ساعة موتك باسم الأب والأبن والروح القدس، آمين».

الإسلامي الحنيف ويقول: «قمت في تحقيق ومطالعات حول الأديان كلها: قديمها وحديثها، وقايست بين واحد واحد منها، ونظرت إليها بمنظار النقد والتمحيص، فكانت النتيجة أن جهودي في ذلك حفزتني شيئاً فشيئاً إلى الاعتقاد بأن الإيمان والعقيدة الإسلامية هو الدين الثابت الحقيقي. وأن القرآن ليتضمن بين دفتيه كلما تحتاج إليه الروح الإنسانية في ارتقائها وكمالها المعنوي».

١٢ ـ J. W. Lovegrove (ج. و. لاف كروف) يعتنق الدين الإسلامي، فيقول: «لا يعتقد إنسان بدين خرافة[1] ما لم يسحق نداء عقله بقدميه. فوظيفة الإنسان تجاه ربه ومع جاره يجب أن تكون أساساً وهدفاً لكل دعوة دينية، أما الإسلام فقد جعل من هذا القانون الخلقي دستوراً عملياً نافذاً عاماً».

١٣ ـ محمد رايموند لويس ـ يعتنق الدين الإسلامي. ويصم السعادة في أوربا؛ إنه يقول: «السعادة، يا لها من خيال ملؤه الأوهام، أي سعادة؟ فالبعد بينهم وبين السعادة شاسع جداً. وأن جميع مزايا المدنية الغربية وتلك الأماني المتفشية في دنيا الغرب لم تؤثر في نيل السعادة الحقيقية ولا يوجد لها أي أثر بتاتاً». ويقول: الحجر الأساسي لكل صرح قويم تبتني عليه الأخوة البشرية.

١٤ ـ Tbrahim Voo (إبراهيم فو) المسيحي، يعتنق الدين الإسلامي. فيقول: «إني قبل اعتناقي الإسلام كنت كاثوليكياً رومانياً، بصورة لم أكن لأعتقد بمراسيم

---

(١) ومن الخرافات التي أشار إليها ما جاء في الباب التاسع عشر من سفر التكوين: أن لوطاً ﷺ زنى بابنتيه بعد أن شرب الخمرة، فحملتا منه بالزنا، (٣٠ ـ ٣٨). وفي الباب الثامن والثلاثين من السفر المذكور: أن يهوذا ابن يعقوب ﷺ زنى بثامار كنته فحملت بالزنا منه وولدت توأمين: فارص (جد سيدنا عيسى عند المسيحين) وزارح، وداود وسليمان وعيسى ﷺ كلهم أولاد فارص المذكور كما هو مصرح به في الباب الأول من إنجيل متى). وجاء في الباب الحادي عشر (٢ ـ ١٦) من سفر صموئيل الثاني: أن داود ﷺ زنى بامرأة أوريا الحثي وحملت منه، فأهلك زوجها بالمكر وأخذها زوجة له. وفي الباب الحادي عشر من سفر الملوك الأول (٤ ـ ١٣). إن سليمان ﷺ ارتد في آخر عمره، وكان يعبد الأصنام بعد الارتداد وبنى المعابد لها ولم يحفظ ما أوصاه به الرب.

التثليث، والعشاء الرباني ومعجزات المضيف. فكنت مخالفاً للأسرار والمخبئات الدينية في حال لم أوع الإيمان بالله تعالى، فلم يساعدني أي قسيس كاثوليكي في توضيح هذه المسائل بصورة مقنعة أبداً. والجواب الوحيد الذي كنت أتلقاه على استمرار هو: ينبغي للأسرار أن تبقى أسراراً، إن المسيح آخر الأنبياء، ومحمد مبطل في دعواه (هداهم الله إلى الصواب)[١] . . .».

فعلمت بعد أن صادفت جماعة من المسلمين في (مالايا): أن الإسلام دين العقل وأن هذا الدين هو الدين الذي كنت أتطلبه باسم الحقيقة الواقعية، فلا أحد ولا شيء يُعبد سوى الله تعالى، ولا توجد في معبد إسلامي صورة وتمثال أو نقوش. إن الصلاة في المسجد سخرت قلبي إلى الأبد. . .

١٥ ـ الأستاذ ويرنر الفريد المسيحي الكاثوليكي يعتنق الدين الإسلامي ويعمل في نشره، وهو الآن رئيس الجمعية الإسلامية في هامبورك واسمه الجديد: الشيخ عمر شوبرت[٢].

١٦ ـ لوماكس (محمد عز الدين) المسيحي الأمريكي يعتنق الدين الإسلامي وهو يقول: إن المسيحيين لا يزالون يعلّمون الناس: أن المسلمين عبدة أوثان، ولكن والحمد لله في عام ١٩١٧م اعترتني مشاعر نفسانية دخيلة حركت قلبي ودفعت إرادتي

---

(١) يقول مؤلف كتاب «على حافة العالم الأثيري» فندلاي: يحدثنا مذهب القديس، أثنا سيوس: أننا إذا لم نصدق غير المعقول فأننا لن ننجو بل نهلك دون شك إلى الأبد، فكيف يستطيع عاقل أو عاقلة أن يقرأ هذا المذهب، ثم يقول في نزاهة: إن من خليط هذه الكلمات عديمة المعنى يتألف دينه الذي يعتنقه. وغير خاف أن أسقف كانتربري يؤيد الاعتقاد القائل: «بأن القسيس بتدشينه القربان يمكنه أن يجعل المسيح يجيء ويحل في خبز العشاء الرباني وخمره».

(٢) إنه يوالي أهل البيت واختار مذهب أهل البيت من بين المذاهب الإسلامية، وعندما سئل، أجاب، بقوله: من ذا الذي يترك عترة آل النبي مصطفى ﷺ ومن ذا الذي هو في غنى عن شفاعتهم يوم الحساب. حيث روي عن الإمام علي؏ عن النبيﷺ أنه قال: «ألم تسمع قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ۝٧﴾ [البيّنة: الآية ٧] هم أنت وشيعتك وموعدي وموعدكم الحوض، إذا جاءت الأمم للحساب، تدعون غراً محجلين. . وأضاف قائلاً فإنني أطمع في أن أكون أحد الذين ينالون شربة من يد الإمام الكريمة».

إلى اجتياز ٥٠٠ ميل لأقتات من فضلات موائد المسلمين ولآخذ من أدبيات روح الدين الإسلامي نصيباً.

١٧ ـ Oscar. J. Pfaus أوسكار. ج، بفوس (جعفر حسن علي) المسيحي الألماني الطالب في المدرسة الصناعية العالية في فاكسو والمؤسس للجمعية الإسلامية في المدينة نفسها (فاكسو ـ السويد). إنه يقضي أكثر أوقاته في سبيل بث الدعوة الإسلامية هناك في شتى الأساليب، في قطر يرى عدم رغبة أهله في أن يسمعوا عن الإسلام شيئاً. لأن دعاة السوء ملؤوا أسماعهم بأراجيف اختلقوها وأحاديث مشوهة للإسلام ابتدعوها، ومع هذا فلم يفتر في عمله ولم يتوانَ في سيره، وتأتي البشائر أنه ناجح في إيجاد تاريخ إسلامي جديد.

١٨ ـ ليوبولد فايس (محمد أسد) النمساوي ـ يعتنق الدين الإسلامي وهو من كبار الصحفيين ـ أخذ يجاهد مجاهدة الأبطال بعد اعتناقه الدين الإسلامي لبث الدعوة الإسلامية وتفهيم حقائق الإسلام. إنه يتأسف للإسلام فيقول: إن الحياة الإسلامية في الواقع تظهر على كل حال في أيامنا الحاضرة بعيدة جداً عن الإمكانيات المثلى التي تقدمها التعاليم الدينية في الإسلام. من ذلك مثلاً: أن كل ما كان في الإسلام تقدماً وحيوية أصبح بين المسلمين اليوم تراخياً وركوداً، وكل ما كان في الإسلام من قبل كرماً وإيثاراً أصبح اليوم بين المسلمين ضيقاً في النظر و(أنانية) وحباً للحياة الهنيئة.

لقد تحققت أن ثمة سبباً واحداً فقط للانحلال الاجتماعي والثقافي بين المسلمين، ذلك السبب يرجع إلى الحقيقة الدالة على أن المسلمين أخذوا شيئاً فشيئاً يتركون أتباع روح التعاليم الإسلامية، فنتج من ذلك أن الإسلام ظل بعد ذلك موجوداً، ولكنه كان جسداً بلا روح. واعتقد أن الإسلام من وجهتيه الروحية والاجتماعية لا يزال بالرغم من جميع العقبات التي خلقها تأخر المسلمين أعظم قوة نهاضة بالهمم عرفها البشر. وهكذا تجمعت رغباتي كلها منذ ذلك الحين حول مسألة بعثه من جديد.

١٩ ـ المستر هاري أ. هنيكل يعتنق الدين الإسلامي بعد بحث وتحليل عميقين؛ إنه يقول: «من المفروض في كل مسيحي أن يعتقد بأن الكتاب المقدس ليس ككتاب

ديني يجب قراءته، بل قطعة نفيسة يزين بها بيته، ولا أبالغ إذا قلت أنه قد تنقضي السنون دون أن يخطر ببال أحد أن يلقي نظرة على الكتاب المقدس، بل يظل كما صدر من المطبعة».

قال الأستاذ: شارلس فرانسيز في كتابه (قصة الدين): الإنجيل كتاب لا يعرفه أحد في أمريكا، أما القرآن فهو كتاب يعرفه كل مسلم. وهذه عين الحقيقة، ومن حسن حظ الديانة المسيحية أن الإنجيل كتاب لا يعرفه أحد.

ويقول المستر هاري: الإسلام دين العقل والتسامح وهو خالٍ من كل شائبة. وجدت الإسلام يشجع على متابعة الحقيقة، وإن صحائف التاريخ مملوءة بالحقائق التي تثبت عرقلة الأديان الأخرى للمدنية والعمران وذكر الكاتب أحاديث نبوية كثيرة عن العلم والسعي للمعرفة.

وقال يوسف مكاب، أحد الملحدين: ومن الصعب جداً وجود علم غير مدين بفضله للإسلام.

ويقول المستر هاري المسلم: «ولا أتردد لحظة في القول ثانية: لو كان الإسلام متشراً في الغرب أكثر من انتشاره اليوم لأدهش العالم المتمدن بكثرة أنصاره ومشايعيه ويرجع السبب في عدم انتشاره إلى تشويه الحقائق التي يتعمدها البعض ممن يتصدون لترجمة الكتب الإسلامية إلى اللغات الأخرى. ومع هذا فالزمان وحده كفيل بإزالة هذه الصعوبة».

٢٠ ـ الأستاذ فؤاد غريب يعتنق الدين الإسلامي الحنيف معجباً بالعدالة الإسلامية وبالسيرة النبوية وبالديانة الإسلامية الغراء.. ويقول:

قد بلغت قسطاً من الثقافة يدلني على المحجة ويومئ لي بالفوز. ووقفت يوماً أتأمل هذه الروح المتأججة في صدري والثائرة بين جوانحي والتي تحاول أن تتنفس بشيء لم أكن لأستطيع التعبير عنه آنذاك، وأفقت من حيرتي واضطرابي، ودلفت مستهدياً إلى أخي (الأديب)، أسأله أن يدلني على (روح الإسلام) التي قصرت عنها حتى ذلك الحين بكل صراحة فلا يتبع معي مجاملة أو غيرها، وكنت من الاندفاع بحيث قلت متمثلاً: (فإن لم تفعل ما تؤمر فما بلّغت). فانفجر بين يديَّ باكياً يضمني

إلـى صـدره ويـقـول: ﴿۞ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلْحَقِّۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [المائدة: الآيتان ٨٢/ ٨٣].

وغرقت في دموعه وغرق في دموعي، فما كنت أناجيه، أخي: نعمان، إلا كأني أحس بصوت إلهي يتردد في كياني ويهزني بعنف وقوة، حيث كان يسمع صوت محمدﷺ يتردد في حديثه لأصحابه: أخي عيسى، وانتبهت بعد غفوة لأجد هدية صاحبي بضعة كتب تصور الإسلام بأجلى صوره وتنافح عن الروحانية الحقة وتفتح في النفس آفاقاً من الحرية والإنسانية. وعلمت أن الإسلام التحرير الأعظم للإنسانية.

ثم يقول: «وقد يكفي للتدليل، موقفه يوم حنين وكيف كان يسند صحابته المنهزمين من الانهيار، فينال الأذى الكبير، ولكن لم ينس واحداً منهم، فقد كان يتفقدهم واحداً واحداً، ويناجي ربه داعياً: «ربِّ إن تُهلك هذه العصابة فلن تعبد في هذه أبداً»، »؟

وبمثل هذا الإيثار وهذه التضحية لم يكن النبي محمدﷺ ليفرق نفسه عن أصحابه ولا الكتاب. فقد جاء في سورة البقرة: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾﴾ [البقرة: الآية ٢٨٥] .

«فأي عدالة سماوية واجتماعية هذه التي لا تفرق بين الكتب المنزلة، ولا بين الرسل، أنها رسالة محمد، وإنه القرآن العظيم، اللهم فاشهد: إني آمنت بمحمد»

٢١ ـ الأستاذ يني يماني (زايد يحيى يماني). يعتنق الدين الإسلامي الحنيف بعد دراسات وبحوث في الأديان، إنه يقول:

«عندما يسألني سائل لماذا أسلمت؟ أكاد أُجيب ولماذا لا أُسلم! ولماذا لا يسلم كل باحث عن الحقيقة التي لا تخفى كثيراً وراء الحجب ولكنها مستعدة أن تتجلى له إذا رغب حقاً فيها، وخطب ودها وسعى لها سعيها».

«إن هذا السؤال لماذا أسلمت؟ يوازي السؤال لماذا اهتديت؟ وهذا يدخل في نطاق الغيبيات والإجابة عليه إجابة صحيحة كاملة من الخوارق، لأن الله وحده هو علام الغيوب. هو الذي شاء لي الهدى فهداني: ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى﴾ [الأعراف: الآية ١٧٨]».

يقول: كان أبي مسيحياً متديناً وكانت أمنيته أن أسير على نهجه في تدينه، فلم يدخر جهداً لهذا. فبعث بي إلى مدارس (الفرير Frerer) لكنني بدل أن أؤمن بما كانوا يلقنونني إياه أصبحت أشك فيه، حتى إذا بلغت أربعة عشر ربيعاً كنت زنديقاً لا أؤمن بشيء، وضاعف من زندقتي خرافات دينية لا يصدقها العقل المجرَّد. فصرت أدرس العقائد والديانات جميعاً وأقارن بينها، فعرفت أن الله هو الحقيقة العظمى وأن كل شيء سواه باطل. عرفت أن الله كما يقول (ابن سينا) الوجود المحض، والحق المحض، والخير المحض، والعلم المحض، والقدرة المحضة، والحياة المحضة.

ولما كان الذي جاء بالإسلام هو محمد رسول الله ﷺ فلقد كان طبيعياً أن أؤمن به وأشهد بصدق رسالته وبالقرآن الذي أنزل معه وبالتعاليم الإنسانية التي جاء بها.

٢٢ ـ أرنست تشريري البرازيلي (محمد عبد الرحمن) يعتنق الدين الإسلامي فيقول: «الإسلام ليس دين تفرقة عنصرية ولا يدعي أبناؤه أنهم الشعب المميَّز أو الجنس المختار وأكثر من ذلك فهو دين عالمي للناس جميعاً».

٢٣ ـ Feysal W. Wagener (فيصل و. واكنر) الهولندي أحد أعضاء الكنيسة الكاثوليكية يعتنق الدين الإسلامي، في كانون الثاني لسنة ١٩٥٢م، فيقول:

«علائق متعددة الجوانب وفحص دائم عن الدين الحق حفزتني نحو الكتب والمنشورات الإسلامية».

ويقول: «إن قول الرسول ﷺ: اطلبوا العلم ولو بالصين عرفتني شدة الأواصر الوثيقة بين الإسلام والعلم، وهذه ميزة لهذا الدين لا تجدها في تاريخ الكنائس المسيحية بتاتاً».

«وإن دراسة أعمق حول الإسلام أبدت لي أن الإسلام مجموعة من قوانين

وأحكام كافلة لنواحٍ شتى، دينية وأخلاقية، اجتماعية واقتصادية، سياسية وقضائية».

٢٤ ـ اشميتس دور مولين المهندس (محمد عادل بك) المهندس الألماني يعتنق الدين الإسلامي ويعمل لأجل نشر الإسلام بين أهل وطنه والدفاع عنه وعن المسلمين فألَّف كتباً عدة، أشهرها: (الإسلام)، (في الحرام)، (استانة)، (بلدة الإسلام)، وقد أثبت عادل بك في مؤلفاته أن الإسلام قريب جداً من النصرانية الحقيقية، وإن ما عليه العالم المسيحي الآن من التقاليد والعادات مفسدة كبيرة ومدعاة إلى الشهوات البهيمية والفقر المدقع وغير ذلك من المصائب والأمراض الاجتماعية.

٢٥ ـ الفونس اتيين دينيه (ناصر الدين) الفنان الفرنسي يعتنق الدين الإسلامي بعد دراسة طويلة، فيقول: «إن العقيدة المحمدية لا تقف عقبة في سبيل التفكير، فقد يكون المرء صحيح الإسلام وفي الوقت نفسه حر التفكير، وكما أن الإسلام قد صلح منذ نشأته لجميع الشعوب والأجناس فهو صالح كذلك لكل أنواع المدنيات».

ويقول: «إن الإسلام يلائم جميع ميول معتنقيه على اختلاف مشاربهم فهو ببساطته المتناهية... يهدي علماء أوروبا وآسيا إلى الطريق المستقيم ويجدون فيه تعزية وسلوى من غير أن يحول بينهم وبين حريتهم التامة في آرائهم وأفكارهم، كما أنه تعزية وهدى لزنوج السودان الذين ينتزعهم من أحضان أوهامهم الوثنية... ويرقى في بروج ذلك التاجر الإنكليزي رجل العمل الذي يعتبر الوقت من ذهب، كما يرقى بروح الفيلسوف المتدين ويسمو بنفس الغربي الشغوف بالفن والشعر، بل هو يسحر لب الطبيب العصري بما قرره من الوضوء المتكرر كل يوم وبما في الصلاة من حركات منتظمة تفيد الجسم والروح معاً».

ومن جملة مؤلفاته في الإسلام: (السيرة النبوية) في مجلد كبير وضعه باللغة الفرنسية وزينه بالصور الملونة البديعة الكثيرة المتنوعة من ريشته الخاصة، يمثل فيها المناظر الإسلامية ومشاهد الدين ومعالمه، ونشره كذلك باللغة الإنكليزية بنفس الحجم الكبير والإتقان التام.

٢٦ ـ وارتون كرباسين (حسين اثنا عشري) الشاب الباريسي، يعتنق الدين

الإسلامي الحنيف، فيقول: «وكانت الليالي فرصة مغتنمة للمطالعة حول الدين الإسلامي، وقرأت القرآن عدة مرات، ولكني أصبت مدة إقامتي بالمحمرة (خُرَّم شهر) بمرض (سينوزيت) بصورة شديدة جداً فكان يؤلمني ليل نهار. وانتهت نظريات الأطباء إلى العمل الجراحي ولم تطاوعني نفسي. وصادفت تلك الأيام وهي السنة الماضية شهر المحرم (شهر الإمام الحسين عليه السلام) وفي جواري دار واسعة، مغطاة بخباء كبير أعدَّت للتعزية بمناسبة الوقت، وكانت المآتم تقام في الليالي وتلقى فيها ذكريات المصائب وكلمات الوعظ والإرشاد، فاعتدت الجلوس وراء الشباك، والاستماع إلى المصائب والكلمات».

فاتفق ذات ليلة أن قدَّم إلي أحد خدمة المأتم طبق شاي وقال: أيها السيد تشتهي أن تشرب شاي الإمام الحسين عليه السلام؟ فقبلت منه على اشتياق ورغبة تامة، وعندما لمست شفتاي ذلك الشاي أحسست أن نوراً خاطفاً في فكري، فناجيت ربي: «إلهي بحرمة الإمام الحسين ومنزلته أرني معجزة خارقة لأستريح من هذا الألم ومن شدة مرض (السينوزيت) المهولة، وفي اليوم التالي وعند نهوضي من فراش النوم رأيت عجباً، أن المعجزة وقعت وشفيت رأساً».

فكانت مطالعاتي السابقة حول الإسلام وهذه الواقعة العجيبة التي شاهدتها عيناي أثرت أثرها في نفسي، فصممت على اعتناق الدين الإسلامي وبعد أشهر عدت إلى طهران ومنها إلى (قم) وحضرت مجلس آية الله (شريعتمداري)، وأجريت مراسيم الشهادتين واعتنقت الإسلام وسُميت باسم: (حسين إثنا عشري).

وقد ذكرت مجلة (نور دانش) الزاهرة أن عمر هذا الشاب ٣٢ سنة ويعرف ست لغات.

٢٧ ـ (فرانسيسكو بايللي) الإيطالي يعتنق الإسلام ويقول: «إن الفطرة الإسلامية مبثوثة بطبيعة الحال في نفوس كثيرين من الأوروبيين على غير علم منهم بأن ما يشعرون به هو عين المبادئ التي قررها الإسلام. فلو جاءهم الدعاة ووضعوا بين أيديهم الحقائق الإسلامية باللغات الأوروبية وبالأساليب التي يأنس الأوروبيون بها لتحوَّل

هؤلاء جميعاً لهذه الدعوة يجاهدون في سبيلها ويفتحون الفتوح لهدايتها».

٢٨ ـ فيتورادي الميدا (عبدالله الإسلامي) الشاب البرتغالي يعتنق الدين الإسلامي بعد دراسة وافية.

يقول الصحفي جبرائيل بقطر في مقال كتبه عن الشاب البرتغالي المسلم: «وبعد عام ونصف عام ورد علي خطاب مكتوب بلغة عربية... من هذا الشاب البرتغالي المسلم... إنه يذكرني بالمقابلة التي تمت بيننا في (لشبونة) ويروي لي قصة حياته بعد أن افترقنا، فيقول: أنه ترك لشبونة إلى طنجة بعد أن تزوَّج من سيدة برتغالية أسلمت بعد أن عرفت منه حقيقة الإسلام، وأنه أنجب طفلة سماها (زهرة الورد). أما هو فقد أعلن إسلامه باسم (عبدالله الإسلامي)، وأنه أخذ في دراسة اللغة العربية ليستطيع قراءة القرآن الكريم وفهم معانيه... وأنه ما زال يتمنى أن يحج ويزور مكة المكرمة حيث بيت الله الحرام وكعبة المسلمين».

٢٩ ـ الأستاذ نشكنتا بادهيايا (محمد عز الدين) رئيس جامعة حيدر آباد سابقاً وأستاذ التاريخ في جامعة مهراجا في ميسوري يعتنق الدين الإسلامي بعد بحث عميق. واسمه بعد إسلامه: (محمد عز الدين).

كان في أول أمره شديد الإعجاب بمذهب العقليين ولكنه لم يلبث أن تحول عنه لأنه لم يُروِ له غليلاً. وأخذ بعد ذلك في درس الدين البوذي وأعجب بظاهر رفعته الأخلاقية، لكنه وجده أخيراً على عكس طبيعة البشر، فمله. ثم صار يقارن بين اليهودية والزردشتية والبرهمية والبوذية والنصرانية والإسلام. وفرغ نفسه مدة لدرس التصوف وعاد منه أيضاً غير مقتنع. ثم عاد إلى دراسة الإسلام بصورة مفصلة فاستماله وشعر بصحته وأسلم. وهو يبني رضاءه بالإسلام على أبواب ثلاثة:

١ ـ صحة أخبار الإسلام وأنه الدين التاريخي الوحيد.

٢ ـ موافقته للعقل.

٣ ـ أنه عملي (لا خيالي).

٣٠ ـ كروب الشاب المسيحي الأرمني يعتنق الدين الإسلامي رغبةً في الحجاب

الذي يأمر به الدين الإسلامي وتحريمه التبرج والسفور ويدعى بـ (علي إسلامي)، وهو مسلم جعفري يتابع مذهب أهل البيت ﷺ.

٣١ ـ (عبدالله وايسر) أحد علماء اللاهوت يعتنق الدين الإسلامي الحنيف وذلك أن في روما كانت الكنيسة الكاثوليكية قد أعدت (عبدالله وايسر) للتبشير في الهند وزودته بالدراهم الكافية، وأدخلته أحد المستشفيات الكاثوليكية ليتعلم صناعة التمريض لتساعده للتأثير في الهنود.

وقدم المستشفى مسلم هندي واحتكَّ بعبدالله على مبادئ الإسلام وكان قد درس أيضاً شيئاً عن الإسلام، فعبدالله، قبل أن يسافر إلى الهند للقيام بمهمة التبشير، عدل عما أنيط به ونطق بالشهادتين، وصار يحاضر عن الدين الإسلامي ونَدد بالكنيسة واستعبادها للعقول وسيطرتها على حرية التفكير.

٣٢ ـ عليجاه محمد البطل المتحرر والملون الأمريكي يعتنق الدين الإسلامي ويتبعه في ذلك (٢٥٠,٠٠٠) من الملونين الأمريكيين في أمريكا حالياً. وقد بنيت نتيجة جهوده المشكورة مساجد جميلة على أساليب حديثة في حارات الملونين يجتمعون فيها كل يوم لأداء فريضة الظهر جماعة، وإن أصوات المؤذنين بكلمة التكبير والتوحيد من مآذن تلك المساجد كل صباح ومساء لتدوي في أرجاء مدينة نيويورك. وتوسعت دائرة نشاط (عليجاه محمد) إلى ٢٥ بلدة أمريكية منها: ديترويت، شيكاغو، بوستون، فيلادلفيا، سان فرانسيسكو، لوس أنجلس، كليولند، رايتون، أتلانتا، نيويورك.

٣٣ ـ بقيا الشاب المسيحي الأرمني يعتنق الدين الإسلامي عام ١٣٨٠ الهجرية. إنه يقول قد قرأت في إنجيل يوحنا المطبوع في لغتنا الأرمنية قولاً عن عيسى أن نبياً يأتي من بعدي هو خاتم الأنبياء.

ويقول: إن الأرامنة بعد أن يموت الميت منهم يزين بملابس عرسه وبالحلي والحلل ويوضع في صندوق ويدفن في الأرض وبعد الفراغ من الدفن يشربون الخمر على قبره ويطربون، ثم يتوجهون إلى الكنيسة للمغازلة ولأعمال تخل بالشرف. وكان لهذه الأعمال أثر سيء في نفسي، فاتفق إني حضرت تشييع جنازة أحد المسلمين

وشاهدت صنع المسلمين عند دفن موتاهم وما يقومون به من أعمال بعد الدفن، فرأيت الحقيقة في الإسلام، فذهبت إلى العلامة الشيخ مصطفى الآملي في (دزفول) وأسلمت على يديه وسماني (محمداً) ولقبني بـ (إسلامي).

وبعد، أن أسلم محمد تبرع جماعة من المسلمين بمال ليتجر به ولكنه أبى وعاش بكد يمينه وقال: لم يكن إسلامي طمعاً في المال.

وقد أراد أحد العلماء اختباره قبل أن يعلن إسلامه، فقال له: إن في الإسلام فقراً وعسراً وضيقاً، فما بالك تسلم، فأجاب: إني أسلم لأني وجدت الحقيقة، غير مبالٍ لما يصيبني من ضيق وعسر.

٣٤ ـ صاحبة السمو الأميرة الإنكليزية (ديانخ مود) أميرة سرواك تعتنق الدين الإسلامي وتقول: لقد دهشت عندما رأيت ما في الدين الإسلامي من طهارة وحكمة ويُسر. وقد شعرت بأن قلبي كله وروحي جميعاً مغموران بهذه الهداية التي هي في غاية الملائمة للبشر والعقول. وقد قالت بعد إسلامها: إني عازمة على إصدار مجلة باسم (الأخبار الإسلامية) في باريس. وذاهبة إلى ألمانيا وغيرها للعمل على نشر الإسلام.

٣٥ ـ (ليدي أولين كابولد) إحدى المثقفات البريطانيات تعتنق الدين الإسلامي وتقول: إني لست أتذكر اللحظة الخطيرة التي هبطت علي حقيقة الإسلام فيها، بل وليس في وسعي تعيينها، فكل ما أدري هو أني لم أزل مسلمة ولا أزال. وليس يثير العجب هذا الأمر عندما يتذكر الإنسان أن الإسلام هو دين الفطرة الموافق للطبيعة البشرية ولحياتها الاجتماعية، فإذا ترك الطفل ونفسه ينشأ على هذا الدين الفطري البتة، كما يقول أحد علماء أوروبا: (الإسلام دين الحس المشترك البشري)، يعني الفطرة البشرية.

وتقول: «فكلما قرأت وكلما توصلت إليه في تحصيلاتي العلمية واختبرت بها الأمور ثبت لدي أن الإسلام هو الدين الوحيد الذي يمكن للبشرية العمل وفق منهاجه القويم. وهو الدين الوحيد الذي يحل عقد المسائل الاجتماعية ويذهب بكل مشكلة أبهم على العالم طريق حلها وهو الذي يجلب للإنسانية السلام العام والسعادة الأبدية».

٣٦ ـ فاطمة ج. ب. كاترجي الهولندية تعتنق الدين الإسلامي سنة ١٩٥٥م وتقول: يتجلى الإسلام حلاً لعُقد الحياة المعنوية والمشاكل الاجتماعية في عالمنا المتقطع الأشلاء، لا يقتصر الإسلام على النواحي الروحية والمعنوية فحسب، بل يعالج الجوانب المادية والطرق العلمية أيضاً.

وتقول: الإسلام يراود الروح البشرية مباشرة وله مقدرة ليوفر لنفوسنا المضطربة ذلك الاطمئنان والراحة اللائقة.

٣٧ ـ Mrs Cecilia Connolly سيسليا (محمودة) كونلي الاسترالية تعتنق الدين الإسلامي بعد دراسة وتحقيق وتقول: قبلت الإسلام لما وجدت نفسي مسلمة بطبعي حتى وقبل أن أعرف ذلك، فقد تخليَّت عن المسيحية أبان شبابي لعدة أسباب، منها:

أني كلما واجهت أحد الروحانيين المسيحيين وسألته عن مشكلة دينية سلبت راحتي وأخذت بأفكاري كلها أو عن تعاليم الكنيسة الثقيلة كانت الإجابة على أسئلتي من طراز واحد، وعلى نسق مطرد في الجميع وهي لا ينبغي لكم السؤال والتجسس حول تعاليم الكنيسة، بل الواجب عليكم هو الإيمان الخالص.

٣٨ ـ وقد اهتدت إلى الإسلام في هذه الأيام: عزيزة روشه لرون الفرنسية وهي عضوة جمعية الأخوة الإسلامية في فرنسا وهي تخدم في هذه الجمعية من غير تعب ولا ضجر. وقد أنشأت مجلة أسمتها: (النظر إلى الشرق) الغاية منها تفهيم الفرنسيين الإسلام.

٣٩ ـ البروفسور القسيس داود بنيامين (عبد الأحد داود)، يعتنق الدين الإسلامي، وهو يقولِ: لست أعلل إسلامي بسبب سوى العناية الإلهية وأراه لا يرتبط بشيء غير الهداية من الذات الأحدية فقط. فلولا العناية الإلهية لكانت المساعي والجهود وجميع المعارف والعلوم للوصول إلى الحق والحقيقة أقرب إلى الضلالة والعمى.

٤٠ ـ الدكتور دي كابريو الإيطالي يعتنق الدين الإسلامي وهو اليوم رئيس مجلس إدارة المركز الثقافي الإسلامي في (سان فرانسيسكو) وقد سئل عن سبب اعتناقه الإسلام، فأجاب: أنه التقى بزوجته في مدينة (سان فرانسيسكو) فأعجب بمسلكها في الحياة والأسلوب التي تنتهجه في حياتها، فلما سألها عن سبب ذلك، قالت: إنها

مسلمة ومن أبوين روسيين، وقد ولدت في اليابان ثم هاجرت مع أهلها إلى أمريكا وشرحت له التعاليم الإسلامية فوجدها ـ على حد قوله ـ هي التعاليم التي كان يتصور أنها يجب أن تكون عليه المعتقدات البسيطة المعقولة لكل البشر، وعلى ذلك اعتنق الإسلام. ولم يجد شريكة لحياته أفضل من تلك السيدة التي يمكن أن تعينه على أن يحيا حياة إسلامية صحيحة.

٤١ ـ الدكتور خالد شيلدريك أسلم عام ١٩٠٣م ومنذ اعتناقه الدين الإسلامي قام بواجبه في بث الدعاية الإسلامية في إنكلترة وفرنسا وكندا. وهو يقول: أن المبشرين في الصين بذلوا أموالهم وأنفسهم ونساءهم لتبليغ المسيحية في الأيام الماضية، ولكن لم يتبعهم سوى عدد قليل جداً إزاء الجماهير التي تعتنق الإسلام. وأما أتباع المسيحية فلرغبة في المال، أو الوظائف أو النساء اللاتي يردن على المبشرين من حين لآخر.

والدكتور خالد منهمك اليوم بتصنيف الكتب والمقالات الإسلامية على طريقة مذهب أهل البيت عليهم السلام في جرائد الهند الإنكليزية وهو أول مسلم إنكليزي استجاب إلى العقائد الشيعية الإمامية الاثني عشرية. وهو خطيب بارع يصلي بالإنكليز وغيرهم كل الأوقات المفروضة.

٤٢ ـ الدكتور توماس بالنتين أيبزتنك الأمريكي يعتنق الدين الإسلامي وقد أعجبه ما في الإسلام وتعاليمه السمحة من عدل وإخاء ومساواة وقد أصدر عدة مجلات في باكستان وجنوب أفريقيا.

٤٣ ـ المحامي: زكي عريبي رئيس الجالية اليهودية في مصر يعتنق الدين الإسلامي الحنيف وهو من أشهر المحامين في مصر.

يقول: إني نظرت في رسالة هذا الرجل العظيم (محمد بن عبدالله صلى الله عليه وآله) الذي لم تؤهله للرسالة ثقافة ولا علم ولا دين، نشأ كما ينشأ الناس، وعاش عيشتهم وحيا حياتهم، ثم إذا به قد أوحى إليه بهذا الكتاب الخالد الآتي من وراء الحجب، وهو مليء بأخبار الأولين.

«وأعجبني من هذا الدين أنه جاء مصدقاً لما قبله، فالمؤمن به من أهل الكتاب لا

يقتلع مع دينه اقتلاعاً ولا ينخلع عنه انخلاعاً. فإن كان يهودياً وجد في القرآن تمجيد موسى ودين موسى الحقيقي، بل وتمجيد أبناء إسرائيل الذين فضلهم الله على العالمين في وقت من الأوقات. وإن كان مسيحياً وجد في القرآن تمجيد المسيح بن مريم وتمجيد أمه. بل وتمجيد آل عمران جميعاً بل واعترف بهم الإسلام كأخوة مكرمين حيث يستأمنون لهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين. وإني لأحب أن يدلني الناس على دين آخر فيه هذا التسامح وفيه هذا البعد عن النصب».

«ووجدته دين سياسة رشيدة، لا يعلو فيها الحاكم ولا يذل المحكوم».

٤٤ ـ المهندس: البرهمي الروحي الهندي: كل ماني مسرات: (گل محمد) يعتنق الدين الإسلامي الحنيف بعد مناقشات طويلة وقد حسن إسلامه بالتزامه بالعبادات كلها وكتب كتباً مهمة في الإسلام.

٤٥ ـ (يوسف. م. بينيوا ليونارد تشيروا) يعتنق الدين الإسلامي فيقول: قلما يوجد كتاب أو تصادف مقالاً على صحيفة يبحث عن الإسلام وعن القرآن المقدس. إلى أن سافرت إلى بايرا Beira وفي إحدى الليالي جاء مدير الفندق واصحبني وسائر المسلمين إلى مسجد حديث البنيان لأداء فريضة الصلاة، والتمست منهم قرآناً. وفي الغد أعطوني قرآناً مترجماً بالإنكليزية بقلم (مارما دوك بيكتال) وشعرت بعد ذلك أني بحاجة إلى من يكلمني حول الدين الإسلامي، إلى أن ذهبت إلى (لندن) وحضرت ساحة (هايد) عند دكة الجمعية الإسلامية البريطانية لاستمع إلى محاضراتهم، وهناك تعرفت حقاً إلى كثير من حقائق الإسلام. فاعتنقت الإسلام وعلمت أن الدين الإسلامي هي الرابطة الكبرى العالمية لجميع أبناء البشر وباستطاعة كل أحد أن يفهمه عملياً وهو أنفع دين عرفته البشرية حتى اليوم.

٤٦ ـ ذو الفقار مسيح (ذو الفقار علي) المسيحي يعتنق الدين الإسلامي فيقول: اعتنقت الدين الإسلامي لما وجدته ديناً كاملاً حافلاً بجميع ما يحتاج إليه البشر في حياته الدنيوية والدينية، وليس هو يختص بعصر دون عصر أو جيل، وأن النجاة في الدارين لا تحصل إلا بالتمسك بدين الإسلام.

٤٧ ـ رابرت والديا (حسين إسلام دوست) يعتنق الدين الإسلامي وهو يقول: كنت من سكنة (رضائية)[١] فاتفق بيني وبين جماعة من أهلها مشاجرة في اليوم الثامن عشر من شهر رمضان المبارك ١٣٨١هـ.

وكان سبب ذلك أنهم أساؤا الأدب إلى نبينا عيسى عليه السلام[٢]. وكنت أقابلهم متحاملاً عليهم، وأوشكت أن أسيء إلى مقدسات الإسلام، غير أني أحجمت، إلى أن جن الليل وأردت المنام، فعمدت إلى إطفاء المصباح، وإذا بالغرفة أضاءت من جديد، فهرعت إلى مصدر الضوء، وإذا بإنسان على زي عربي، واضعاً يده على قائم سيفه وسط الغرفة، وتوجه إلي وقال: نِعم ما صنعت اليوم، أمسكت عن النزاع وعن الإهانة بمقدسات المسلمين. وها أني أعرض عليك ثلاثة أمور، لابد لك من امتثالها. قلت: سمعاً وطاعة قال: ليس هكذا ولابد أن تحلف بموت أمِّك، فحلفت له بذلك. قال: عليك أولاً أن تتشرف بالذهاب إلى قم وتُسلم هناك، وتمكث عشرة أيام، ثم تزور قبر الإمام الرضا عليه السلام. وتمكث أيضاً هناك عشرة أيام وبعدها تذهب إلى الأعتاب المقدسة، كربلاء والنجف وسائر الأئمة عليهم السلام وسأكون معك في حرم الإمام أمير المؤمنين علي عليه السلام وكان هذا آخر كلامه وغاب عني[٣].

وقد قام هذا الشاب بما أمر به وأسلم وحسن إسلامه.

٤٨ ـ ١٢٠٠ من الهندوسيين يعتنقون الدين الإسلامي. وقد ألف أحد الأساتذة البلجيكيين كتاباً عن الديانة الإسلامية جاء فيه: إن انتشار هذه الديانة في ازدياد، خصوصاً في جهات آسيا، وإن الإسلام الذي كان الأوربيون يتوهمونه خطراً كبيراً ينتشر انتشاراً سريعاً في الشرق الأقصى وخصوصاً في الصين. ففي الصين الآن عشرون مليوناً من المسلمين وفي الهند والسند يزداد عدد الداخلين في الإسلام ازدياداً مرموقاً.

---

(١) رضائية: مدينة تقع في محافظة أذربيجان في إيران وتسمّى اليوم بـ «أروميّه».

(٢) عيسى عليه السلام من أنبياء أولي العزم، على كل مسلم تقديسه وتبجيله ومن اعتقد سوء فيه عليه السلام ونال من كرامته فقد خرج من زمرة المسلمين.

(٣) صار كثير من رجالات الغرب يؤمنون بالغيب بتجسد الأرواح وبعوالم ما بعد الموت وقد ألفت في ذلك مئات الكتب، ومنها: على حافة العالم الأثيري، لمؤلفه: j. Arthur Findlay وكتاب: «الإنسان روح لا جسد»، وكتاب: العالم غير المنظور.

وذكرت جريدة النهضة الغراء نقلاً عن جريدة (البلاغ السماوي) التي تصدر بالإنكليزية في بومباي ما يأتي:

لقد اتسع نطاق الإسلام في البلاد الأمريكية اتساعاً عظيماً وانتشر المبشرون الإسلاميون في طول البلاد وعرضها، فكانوا يتلقون من أهل البلاد إقبالاً عظيماً وتشجيعاً منقطع النظير.

وقد تأسست في (ريودوجانيرو) عاصمة البرازيل جمعية إسلامية كبرى همها إلقاء المحاضرات وبث الدعوة الإسلامية، ولا يمضي أسبوع إلا ويعتنق فيه أفاضل القوم هناك الدين الإسلامي، وقد بلغ عدد المسلمين في شمال البرازيل خمسين ألفاً كلهم من ذوي المقامات العالية.

٤٩ ـ علي أكبر (عباسي) البهائي يعتنق الإسلام ويقول: «كان السبب الأساسي لنزوعي إلى الإسلام هو أن البهائية لا تراعي جانب العفاف رأساً، وليس لاحترام الأعراض والنواميس وحفظها مفهوم ولا معنى في لغة هذا المبدأ. فكنت أتحرج وأتألم على أثر ذلك كثيراً. ولم يكن ضميري ليقبل حسب الفطرة الإنسانية التغاضي عن تلك التجاوزات العرضية في منتدياتنا البهائية. فكان التطاول على عرضي أو عرض غيري من زملائي البهائيين أمراً لم أكن لأتحمله بتاتاً. وكنت أفكر دائماً: (لو كنت إنساناً فمن واجبي التحفظ على عرضي وناموسي). فلأجل هذا وغيره من الأمور الروحية اندفعت نحو التحقيق حول الدين الإسلامي النزيه. فرأيت العفاف والتقوى ونزاهة الجانب والطهارة، وبكلمة جامعة، رأيت الفضيلة الإنسانية بجميع معنى الكلمة وبواقعها الحقيقي متوفرة في الإسلام».

٥٠ ـ حبيب الله (إغماضي) البهائي(١) يعتنق الدين الإسلامي، ويقول: «على أثر

---

(١) ومن جملة ما جاء من صفات الله تعالى في كتاب (البيان) لزعيم البابية: «بسم الله السلط ذى السلطيات: بسم الله السلط ذى المستلطيات! بسم الله السلط ذى التسالطيات! بسم الله السلط ذى المسلوطيات؟ . . . وأيضاً في مكان آخر: بسم الله الأقدم القدام القادم القدمان المتقدم القيدوم المقادم ذى المقدامين ذي القدمات ذي الأقدام ذي القدومين، ذي المقاديم المستقدم، المستقدمان ذو القداديم . . . الخ!!؟ ».

جهلي قضيت ثلاثين عاماً مغفلاً ملتزماً للفرقة الكاذبة ذات المبدأ المزيَّف الذي يعتنقه أناس غير مقيدين بشيء ولا ثابتين على عقيدة. شعارهم التزوير والتدليس. أناس تعمل فيهم أيادي الأجانب منذ مئة عام في بلادنا الإيرانية».

«كلنا نعلم أن منطقة (عشق آباد) في البلاد الروسية غرست شجرة خبيثة، كانت من ثمرتها تلك الجناية الفادحة التي كونت أمثال (الباب والبهاء) عملاء المستعمر الغاشم. فاستطاعوا على أيدي جماعة استهوتهم اللذائذ الوقتية لا يعرفون للضمير معنى، ولا يراقبون الله في شيء، أن يخدعوا شرذمة من الجهال».

«كان من سوء الحظ أن كنت أحد هؤلاء المغترين لمدة ٣٠ عاماً كما ذكرت، شاهدت خلالها فجائع وفضائح بعيدة عن الشرف والناموس. ولكن جهلي المطبق، وعدم اتصالي بالطبقات المثقفة جعلاني لا أشعر بفظاعة الأمر. ولم أكن أعرف عن الإسلام سوى مجموعة مشوهة، كان زملائي البهائيين وأقطابهم يعرفونها إلينا كما يريدون».

* * *

وهكذا نرى أن كل من تشرف بدين الإسلام علم أنه الدين الحق، أنزله الله رحمة للعالمين، وهو آخر الأديان، لم تتسرب إليه يد البشرية بتحريف أو تغيير، وأن محمداً ﷺ خاتم النبيين وسيد الرسل أجمعين، وإن إصلاح هذا العالم لا يتم إلا بجعل الإسلام ديناً عالمياً خالداً، ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الأحزاب: الآية ٤٠]. ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سَبَإ: الآية ٢٨].

فعلى المسلمين في أنحاء العالم أن يقوموا بتضحيات غالية لنشر الإسلام وتفهيمه وتطبيقه، فإنه دين الفطرة، والفطرة السليمة هي التي تجلب الناس إلى قبوله وتطبيعه. فقد برز في أمريكا، التي ترصد أكبر قواها لمحاربة الإسلام في آسيا وأفريقيا، حركة إسلامية شابة تدعو إلى إقامة حكم إسلامي، على الرغم مما يسلطونه عليها من الدعاية للتشويه والتنفير. كل ذلك لأن الإسلام دين الفطرة ودين الله في أرضه في مستقبل قريب. ولذلك نقرأ في كتاب La Conquete du monde musulman[(١)]. «ينبغي

---

(١) تسخير العالم الإسلامي.

للمبشرين أن لا يقنطوا إذا رأوا نتيجة تبشيرهم للمسلمين ضعيفة. إذ من المحقق أن المسلمين قد نما في قلوبهم الميل الشديد على علوم الأوروبيين وتحرير النساء، وأن المرأة المسلمة المتعلمة هي أبعد أفراد المجتمع عن تعاليم الدين، وأقدر أفراد المجتمع على جرِّ المجتمع كله بعيداً عن الدين»[١].

إلا أن بالرغم من كل هذه المحاولات، أن الفطرة هي الغالبة وهي القوة القاهرة المسيطرة على النفوس، وإن قليلاً من التضحيات في أوساط أفريقيا وأمريكا واليابان سوف يجعل الدين الإسلامي ديناً عالمياً شاملاً، فلا ترى في أية بقعة من بقاع الأرض إلا من يقول: لا إله إلا الله ـ محمد رسول الله.

﴿إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمَّد: الآية ٧].

﴿إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ﴾ [آل عِمرَان: الآية ١٦٠].

أثر الحاجات في تكامل النفس

إن الله تبارك وتعالى قد أودع الكمال في كل بقعة من بقاع الأرض وفي كل جزء وجزيء وذرة، فما من شيء مادي إلا وترى فيه النظم والقوانين المحيرة للألباب وخواص مدهشة مرتبطة بعضها ببعض ارتباطاً وثيقاً: ﴿مَا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن تَفَاوُتٍ﴾ [المُلك: الآية ٣] ودساتير رياضية تربط أجزاء هذا الكون بعضها ببعض، قد عثر على جزء ضئيل منها هذا الإنسان بلطف منه تعالى. ولكن الإنسان[٢] لظلمات في نفسه (بما اجترحت يداه!) لم يؤدِّ ما عليه من واجب الشكر تجاه نعمه تعالى، فصار يتخبط تخبط عشواء في دياجير الظلم والفساد: ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٠٥].

وإن الإنسان كموجود خلقه الله تعالى لابد له أن يتبع ما سنَّ له من مراحل تكاملية، كي يحقق الكمال الإنساني، هذا الكمال الذي سنه الله تعالى على لسان

---

(١) جاهلية القرن العشرين: ٣٣٣. محمد قطب.

(٢) ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ۝٦ وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ۝٧ وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ [العَاديات: الآية ٦/٨].

أنبيائه ﷺ. كل ذلك، لئلا يشذَّ هذا الإنسان عن بقية الموجودات في البلوغ إلى أقصى مراتب الكمال كل بحسبه ومرتبته. وواضح أن الله تعالى وهو الكامل على الإطلاق لا يصدر منه (لا يخلق) إلا الكمال. فـ(الكمال) شعار هذا الوجود بأمر منه تعالى.

ومن جملة أسباب الكمال الإنساني: حاجاته المتنوعة وعرض هذه الحاجات على الله المتعال إذ كلما زادت العلاقة بين العبد والمعبود كلما تكامل الفرد وتقرب إليه تعالى. ولا يراد بهذه إلا الزلفى إذ لا سنخية بين الخالق والمخلوق خلافاً لما ذهب إليه بعض الحكماء! ولابد للإنسان في حياته الدنيوية من أمراض وشدائد وغايات مشروعة وآمال طيبة يريد تحقيقها. فإلى من يذهب لتحقيق آماله المشروعة أو لدفع مرضه العضال يقول الإمام زين العابدين عليه السلام[(١)]: «من أين لي الخير يا رب ولا يوجد إلا من عندك، ومن أين لي النجاة ولا تستطاع إلا بك، لا الذي أحسن استغنى عن عونك ورحمتك ولا الذي أساء واجترأ عليك ولم يرضك خرج عن قدرتك»

فلابد لهذا الإنسان أن يتوسل إلى الله المتعال الذي بيده مفاتيح الأمور كلها وذلك بعد قطعه المراحل التي أمرنا الله تعالى بها.

فالمريض يراجع الطبيب. ولكن الطبيب قد لا ينجح في معالجته ويطول به المرض أو يشتبه في تشخيص المرض. فالله هو الذي يهيء لهذا الإنسان أسباب الشفاء من حيث يحتسب، ومن حيث لا يحتسب. وقد يبرأ الشخص من مرض عضال مستعصٍ بمجرد الدعاء إذا كان من المقربين المخلصين[(٢)].

---

(١) من دعاء يرويه أبو حمزة الثمالي عن الإمام السجاد عليه السلام؛ مفاتيح الجنان، للشيخ عباس القمّي.

(٢) ننقل هذه الحادثة تأييداً لما قلنا ومثلها حوادث جمة من كتاب: «بين الله والإنسان» (ص: ١٠٢) من مؤلفات العلامة الشيخ محمد جواد مغنية: تقع بلدة حبوش في جنوب لبنان ـ جبل عامل ـ قرب النبطية، ويوجد فيها الآن رجل اسمه حسن طالب نعمة، تشاجر مع آخر، فطعنه هذا بسكين غاصت بكاملها في أمعائه، ومزقتها تمزيقاً، وخرج ما فيها، وأشرف حسن على الهلاك، فعرضه أهله على عدد من الأطباء، منهم الجراح المعروف نبيه الشاب الموجود حالياً في صيدا، فأجمع الأطباء كلمة واحدة على أنه ميت بعد لحظات لا محالة، وإن التطبيب لا يجدي شيئاً وقبل أن يلفظ النفس الأخير أصابته غفوة رأى فيها الحسين بن علي سيد الشهداء عليه السلام، فاستغاث به، =

كما أن الإنسان قد يقوم بفعاليات خطيرة في سبيل تحقيق غاية مشروعة ولكنه يخفق في جميعها فلا ينجح فلابد له من التوسل إلى الله والخشوع والخضوع بين يديه والتضرع والبكاء والدعاء والقيام بصلوات مستحبة كي يمنَّ الله عليه بقضاء حاجته المشروعة.

فالحاجات عامل قوي في التوجه إلى الحق المتعال، إذا كان الفرد ممن يؤمن بالله ورسوله واليوم الآخر، ويؤمن أن التوفيق منحصر به تعالى، مع العلم أن على الإنسان أن يطرق الأبواب المشروعة التي بها يمكن أن يتحقق ما يريد على شرط المشروعة.

* * *

ولامراء أن الله تبارك وتعالى موجود في كل مكان وفي كل آن وحين ولا يخلو منه مكان. فللعبد أن يسأل حاجته من الله تعالى في أي مكان شاء وفي أي وقت أراد، فالله تعالى يستجيب دعاءه ويقضي حاجته عاجلاً أو آجلاً حسب حكمته تعالى إن كان منقطعاً إليه تعالى غاية الانقطاع، متوسلاً إليه توسلاً ملؤه الإخلاص.

وللأوقات أثر في استجابة الدعاء، فأبواب السماء مفتحة لیالي الجمعة من أول الليل إلى طلوع الفجر الصادق، ويستجاب الدعاء فيها من أول الليل إلى طلوع الفجر وأما في بقية الليالي ففي الثلث الأخير منها يستجاب الدعاء، لأن أبواب السماء مفتحة بلطفٍ منه تعالى في الثلث الأخير ويستجاب الدعاء عند الزوال على ما جاء في بعض الروايات. وهناك أوقات أخرى لا حاجة لذكرها فالأوقات كلها صالحة لاستجابة الدعاء، إذا أخلص العبد في دعائه واستجمع شروط الاستجابة وكان موضوع الدعاء موضوعاً مشروعاً يرتضيه الله تعالى ولا يخالف أوامر الشرع ولا يؤدي إلى سوء العاقبة والضلال. ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [سَبَإ: الآية ٣][(١)].

= فوضع الحسين ﷺ يده الشريفة على مكان الجرح فعاد كل شيء صحيحاً كما كان، وقام الرجل من ساعته معافى كأن لم يكن شيء وهو الآن حي يرزق، ويعرف ذلك جميع أهل حبوش، البالغ عددهم أكثر من ٣٠٠٠ نسمة».

(١) لا يعزب: لا يغيب ولا يخفى.

كما أن الله تعالى لا يتوقف عن عمل ما يريد ولا يتردد. فلمشيئته تتحقق في كل آن: ﴿يَسْئَلُهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴿٢٩﴾﴾ [الرَّحمٰن: الآية ٢٩] ولا يشغله شأن عن شأن.

كذلك يستجاب الدعاء في كل بقعة من بقاع الأرض والسماء، إلا أن لبعض الأماكن أثرها في استجابة الدعاء. منها المساجد، والعتبات المقدسة: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٣٧﴾ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُواْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٨﴾﴾ [النور: الآيات ٣٦/٣٨].

* * *

وها أني أذكر هنا بإيجاز بعض الأعمال والأدعية التي لها أثرها الفعال في قضاء الحاجة بإذنه تعالى.

١ ـ المواظبة على صلاة جعفر الطيار ﷺ، ولا بأس بذكرها هاهنا مع كونها مسطورة في الجزء الثالث من هذا الكتاب:

هي أربع ركعات كل ركعتين بسلام. يقول في كل ركعة بعد قراءة السورة ١٥ مرة: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر. ويقولها ١٠ مرات حال الركوع و١٠ مرات بعد الركوع حال القيام و١٠ مرات في السجدة الأولى و١٠مرات بين السجدتين و١٠ مرات في السجدة الثانية و١٠ مرات بعد السجدة الثانية قبل القيام، فيكون مجموع التسبيحات في كل ركعة ٧٥ مرة وفي الركعات الأربع ٣٠٠ مرة.

والأفضل أن يقرأ في الركعة الأولى بعد الحمد سورة ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ﴾ وفي الركعة الثانية بعد الحمد سورة: ﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ﴾ وفي الركعة الثالثة بعد الحمد سورة النصر. ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ﴾ . وفي الركعة الرابعة بعد الحمد سورة الإخلاص: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾﴾ .

وأن يقول في السجدة الأخيرة بعد التسبيحات: «سبحان من لبس العز والوقار، سبحان من تعطّف بالمجد وتكرم به، سبحان من لا ينبغي التسبيح إلا له، سبحان من أحصى كل شيء

علمه، سبحان ذي المن والنعم سبحان ذي القدرة والكرم، اللهم إني أسألك بمعاقد العز من عرشك ومنتهى الرحمة من كتابك وباسمك الأعظم وكلماتك التامة التي تمت صدقاً وعدلاً صلِّ على محمد وأهل بيته وافعل بي كذا وكذا، ويذكر حاجته».

وروى الشيخ في المصباح والسيد في جمال الأسبوع عن المفضل بن عمر قال: رأيت أبا عبدالله عليه السلام يصلي صلاة جعفر بن أبي طالب عليه السلام ورفع يديه ودعا بهذا الدعاء: يا ربِّ يا رب، حتى انقطع النفس. يا رباه يا رباه حتى انقطع النفس ربِّ ربِّ، حتى انقطع النفس، يا الله يا الله، حتى انقطع النفس، يا حي يا حي، حتى انقطع النفس، يا رحيم يا رحيم، حتى انقطع النفس، يا رحمن يا رحمن سبع مرات، يا أرحم الراحمين: سبع مرات. ثم قال: «اللهم إني أفتتح القول بحمدك، وأنطق بالثناء عليك، وأُمجدك ولا غاية لمدحك، وأُثني عليك ومن يبلغ غاية ثنائك وأمد مجدك، وإني لخليقتك كنهُ معرفة مجدك وأي زمن لم تكن ممدوحاً بفضلك، موصوفاً بمجدك، عوَّاداً على المذنبين بحلمك، تخلَّف سكان أرضك عن طاعتك فكنت عليهم عطوفاً بجودك، جواداً بفضلك عواداً بكرمك، يا لا إله إلا أنت المنان، ذو الجلال والإكرام». وقال لي يا مفضل، إذا كانت لك حاجة مهمة، فصلِّ هذه الصلاة وادع بهذا الدعاء وسل حاجتك يقضيها الله إن شاء الله تعالى(١).

٢ ـ المواظبة على صلاة يوم الخميس وهي أربع ركعات بسلامين، في الركعة الأولى بعد الحمد ١١ مرة سورة الإخلاص: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ وفي الركعة الثانية بعد الحمد ٢١ مرة سورة الإخلاص وفي الركعة الثالثة بعد الحمد ٣١ مرة سورة الإخلاص وفي الركعة الرابعة بعد الحمد ٤١ مرة سورة الإخلاص.

وبعد السلام يقرأ سورة الإخلاص ٥١ مرة وبعدها يقول: اللهم صلِّ على محمد وآل محمد ٥١ مرة يسجد ويقول في سجوده: مائة مرة ربِّ. . . ثم يسأل حاجته.

٣ ـ المواظبة على صلاة الليل والدعاء بعدها لقضاء الحاجة لاسيما إذا دمعت عيناك حال توسلك وتضرعك.

(١) جمال الأسبوع: ص٢٩٤.

٤ ـ المواظبة على صلاة خاصة لرسول الله ﷺ، وصلاة خاصة لعلي عليه السلام، وكذلك لكل من الأئمة عليهم السلام، لها آثارها في قضاء الحوائج مسطورة في كتب الأدعية.

٥ ـ وقد ذكر الكفعمي في (البلد الأمين) دعاءاً يرويه مقاتل عن الإمام زين العابدين عليه السلام قائلاً: من قرأ هذا الدعاء مائة مرة ولم تقض حاجته فليلعني: (أي فليلعن الراوي).

«إلهي كيف أدعوك وأنا أنا، وكيف أقطع رجائي منك وأنت أنت. إلهي إذا لم أسألك فتعطيني فمن ذا الذي أسأله فيعطيني إلهي إذا لم أدعُك فتستجيب لي فمن ذا الذي أدعوه فيستجيب لي. إلهي إذا لم أتضرع إليك فترحمني فمن ذا الذي أتضرع إليه فيرحمني، إلهي، فكما فلقت البحر لموسى عليه السلام ونجيته أسألك أن تصلي على محمد وآله وأن تنجيني مما أنا فيه وتفرج عني فرجاً عاجلاً غير آجل بفضلك ورحمتك يا أرحم الراحمين»[١].

وهناك أدعية كثيرة وصلوات متنوعة مذكورة في كتب الأدعية، تفيد في قضاء الحوائج بإذنه تعالى.

مع العلم أن بعض الحاجات قد لا تقضى فيؤجر الإنسان أضعاف ذلك في الآخرة، ويتمنى عند ذاك: ليت حاجاته كلها لم تقضَ في الدنيا لينال مراتب عالية في جنة ﴿عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عِمرَان: الآية ١٣٣].

فعن أبي عبدالله عليه السلام كما في الكافي. قال: إن المؤمن ليدعو الله عزَّ وجلَّ في حاجته، فيقول الله عزَّ وجلَّ: «أخروا إجابته شوقاً إلى صوته ودعائه، فإذا كان يوم القيامة، قال الله عزَّ وجلَّ: عبدي، دعوتني، فأخّرت إجابتك، وثوابك كذا وكذا، ودعوتني في كذا وكذا فأخرت إجابتك وثوابك كذا وكذا. قال: فيتمنّى المؤمن أنه لم يستجب له دعوة في الدنيا مما يرى من حسن الثواب»[٢].

---

(١) لم أجده في البلد الأمين؛ ولكنه في المصباح للكفعمي: ص٢٨٩، ط. الأعلمي؛ وكذلك في مفاتيح الجنان، للشيخ عباس القمّي.

(٢) أصول الكافي: ج٢، ص٤٩٠، باب من أبطأت عليه الإجابة.

وفي خبر عن أبي عبدالله عليه السلام. قال: «لا يزال المؤمن بخير ورجاء رحمة من الله عزَّ وجلَّ ما لم يستعجل فيقنط ويترك الدعاء، قلت له، كيف يستعجل؟ قال: يقول: قد دعوت منذ كذا وكذا وما أرى الإجابة»[١].

ومعنى هذا الحديث: أن الله تعالى لمصلحة هناك قد يؤخر الاستجابة، أو لا يستجيب دعاء العبد ليعطيه أضعاف ذلك في الآخرة. وهو على التقديرين في خير لاشتغاله بالدعاء الذي هو من أعظم العبادات. فقد جاء في الحديث: «الدعاء مخ العبادة». فهو والحالة هذه في أشرف الحالات.

ومن المعلوم، كما جاء في منطوق حديث، كان بين قول الله عزَّ وجلَّ ﴿قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا﴾ [يُونس: الآية ٨٩] وبين أخذ فرعون أربعون سنة.

وعن أبي عبدالله عليه السلام: «إن العبد ليدعو، فيقول الله عزَّ وجلَّ للملكين: قد استجبت له، ولكن: احبسوه بحاجته، فإني أُحب أن أسمع صوته، وإن العبد ليدعو، فيقول الله تبارك وتعالى: عجلوا له حاجته، فإني أُبغض صوته»![٢].

* * *

لنستمع إلى كلام علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام حين يدعو ربه، ففيه أدب الدعاء الرفيع:

«إلهي، يا منتهى مطلب الحاجات، ويا من عنده نيل الطلبات، ويا من لا يبيع نعمه بالأثمان، ويامن لا يكدر عطاياه بالإمتنان، ويا من يستغنى به ولا يستغنى عنه، ويا من يرغب إليه ولا يرغب عنه، أنت أهل الغنى عن خلقك وهم أهل الفقر إليك، فمن حاول سد خلَّته من عندك، ورام صرف الفقر عن نفسه بك فقد طلب حاجته في مظانها وأتى طلبته في وجهها، ومن توجه بحاجته إلى أحد من خلقك أو جعله سبب نجحها دونك، فقد تعرض للحرمان واستحق من عندك فوت الإحسان»[٣].

ويقول الإمام زين العابدين عليه السلام في مقام الحاجة في موضع آخر:

---

(١) أصول الكافي: ج٢، ص٤٩٠.
(٢) أصول الكافي: ج٢، ص٤٨٩.
(٣) الصحيفة السجادية: ص٦٨.

«اللهم ولي إليك حاجة، قد قصَّر عنها جهدي، وتقطعت دونها حيَلي، وسوَّلت لي نفسي رفعها إلى من يرفع حوائجه إليك، ولا يستغني في طلباته عنك، وهي زلَّة من زلل الخاطئين وعثرة من عثرات المذنبين، ثم انتبهت بتذكيرك لي من غفلتي، وقلت سبحان ربي: كيف يسأل محتاج محتاجاً، وأنى يرغب مُعِدم إلى معدم، فقصدتك يا إلهي بالرغبة، وأوفدت عليك رجائي بالثقة بك، وعلمت أن كثير ما أسألك يسير في وُجدِك، وان كرمك لا يضيق عن سؤال أحد، وأن يدك بالعطايا أعلى من كل يد»(١).

فعلى الإنسان أن ينغمر في حبه لله تعالى وأن يلتذ بالدعاء حين طلبه حاجة من الله تعالى ويزداد إلحاحاً في الطلب والدعاء، فالله تعالى يحب من العبد أن يكون ملحاً كثير الدعاء متضرعاً خاشعاً، فقد جاء في حديث: «إذا أحب الله عبداً ابتلاه ليسمع تضرعه»(٢).

وقد يبلغ الحال بالإنسان عند الدعاء، لاسيما جوف الليل، إذا نامت العيون وهدأت الأصوات، أنه يريد من الله تعالى أن يكون دائماً هكذا متوسلاً مناجياً، داعياً ربه بفنون الدعوات، منقطعاً إليه غاية الانقطاع، لما يرى في تلك الحالة من السمو والعروج، والفرح والسرور فوق حد الوصف والتعريف فهو في حالة الدعاء والتضرع أقرب ما يكون من الله تعالى، وهذا التقرب غاية الغايات وخاتمة السعادات. فتراه ينسى حاجته ويراها شيئاً تافهاً إزاء هذا الانغمار اللاهوتي والتسبيح الملكوتي، فلا يريد قضاء حاجته أمراً من أمور الدنيا الزائلة، فإنه بدعائه هذا قد وجد الله الذي بيده كل الأمور ومعرفة غاية السعادات.

فقد قال الإمام الحسين عليه السلام، مخاطباً ربه: «ماذا وجد من فقدك؟ وما الذي فقد من وجدك»؟(٣).

ويقول عليه السلام في موضع آخر في مقام طلب الحاجة: «اللهم حاجتي التي إن أعطيتنيها لم يضرني ما منعتني وإن منعتنيها، لم ينفعني ما أعطيتني، أسألك فكاك رقبتي

---

(١) الصحيفة السجادية: ص٦٨.

(٢) إرشاد القلوب: ج١، ص١٨٣، باب ٥١.

(٣) بحار الأنوار: ج٩٥، ص٢٢٦، باب ٢، دعاء يوم عرفة للإمام الحسين عليه السلام.

من النار»[(١)]. وقال أيضاً: «إلهي إن اختلاف تدبيرك وسرعة طواء مقاديرك منعا عبادك العارفين بك من السكون إلى عطاء واليأس منك في بلاء»[(٢)].

نعم، إن العبد في حالة الدعاء وانقطاعه إلى الله المتعال، يصبح وكأنه يرى الله تعالى علانيةً وكأنه يخاطبه وهو قريب منه، فيبلغ درجة الخشية والزلفى في هذا العالم اللاهوتي، فيكون مصداق كلام أبي عبدالله الحسين عليه السلام، حيث يقول: «اللهم اجعلني أخشاك كأني أراك وأسعدني بتقواك، ولا تشقني بمعصيتك، وبارك لي في قدرك حتى لا أُحبّ تعجيل ما أخرت ولا تأخير ما عجلت»[(٣)].

ثم أن الإنسان عندما يقوم بأعمال من أدعية وصلوات مع إلحاح وإصرار لقضاء حاجته، يبلغ بعد مدة إلى درجة من التقرب إلى الله تعالى بحيث يشعر في قرارة نفسه أن حاجته قد قضيت، وإن دعاءه قد استجيب. فيُلهم إليه قضاء حاجته فترتاح نفسه ويطمئن قلبه. وقد اعترت لي هذه الحالة مراتٍ في حياتي، فما أحلى الحاجات المشروعة وما أحلى الحالات التي تعتري الإنسان عند قيامه بأعمال تؤدي إلى قضاء حاجته من دعاء وصلوات وأعمال صالحة.

* * *

ثم إياك أن ترفع حاجتك إلى أحد من البشر من سلطان أو غيره، فإنه نوع من الشرك بالله تعالى، فقد قال الإمام الصادق عليه السلام:

«اتقوا الله وصونوا دينكم بالورع والاستغناء بالله عن طلب الحوائج إلى صاحب سلطان. واعلموا أنه من خضع لصاحب سلطان، أو لمن يخالفه على دينه طلباً لما في يده من دنياه أخمله الله ومقته عليه ووكّله إليه، فإن هو غلب على شيء من دنياه فصار إليه منه شيء نزع الله البركة منه ولم يؤجره على شيء ينفقه في حج ولا عتق ولا بر»[(٤)].

وجاء في الحديث الشريف عن الرسول الأعظم: «اللهم ارزق محمداً وآل محمد

---

(١)، (٢)، (٣) بحار الأنوار: ج٩٥، ص٢٢٦، باب ٢، دعاء يوم عرفة للإمام الحسين عليه السلام.

(٤) مستدرك الوسائل: ج٨، ص٥٢، باب ٣٣.

ومن أحب محمداً وآل محمد الكفاف والعفاف»[1].

* * *

ولامراء أن دين الإسلام، دين اجتماعي يضمن للمسلم سعادة الدنيا والآخرة، ويأمر المسلمين أن يكونوا متضامنين متعاونين فيما بينهم، يعمل كل منهم لإسعاد الآخر ورفع حاجاته، وإن قضاء حوائج الناس ودفع المكروه عنهم لفي الدرجة الأولى في قائمة الأعمال الصالحة، وكم من آيات في القرآن الكريم تحثنا على العمل الصالح بعد الإيمان بالله تعالى مباشرة:

«بسم الله الرحمن الرحيم: والعصر إن الإنسان لفي خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر».

﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٥] .

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [البقَرَة: الآية ٨٢] .

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [البقَرَة: الآية ٢٧٧] .

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [آل عِمرَان: الآية ٥٧] .

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [النِّساء: الآية ١٧٣] في عدة مواضع ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٩﴾﴾ [المَائدة: الآية ٩] ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا﴾ [الفَتح: الآية ٢٩] .

﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا۟ إِذَا مَا ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [المَائدة: الآية ٩٣] .

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِ ۖ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٢﴾ ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ۗ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [الشّورى: الآيتان ٢٢/ ٢٣].

﴿لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِ ۚ﴾ [يُونس: الآية ٤] .

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ ﴿٢٩﴾﴾ [الرّعد: الآية ٢٩] .

---

(١) أصول الكافي: ج٢، ص١٤٠، باب الكفاف.

﴿وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ ۖ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ﴿٢٣﴾﴾ [إبراهيم: الآية ٢٣] .

﴿وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾ [الشورى: الآية ٢٦] .

﴿وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾﴾ [طه: الآية ٧٥] .

إلى كثير من آيات أخرى لم نرد تدوينها كلها، تشير إلى أن الدين الإسلامي قد بنى على دعامتين: هما: الإيمان والعمل الصالح.

ويتجلى العمل الصالح في قضاء حاجات المسلمين حتى وغير المسلمين بغية جلبهم إلى حظيرة الإسلام كما كان يعامل مع المؤلفة قلوبهم في صدر الإسلام، وفي إدخال السرور إلى قلوب المؤمنين وصلة الرحم. عيادة المرضى والعمل لأجل دفع الأسقام عنهم بشتى الوسائل إلى ما هنالك، فقد قال الإمام أبو جعفر عليه السلام.

«إن في ما ناجى الله عزَّ وجلَّ به عبده موسى عليه السلام قال: إن لي عباداً أُبيحهم جنتي وأُحكمهم فيها، قال: يا رب، ومن هؤلاء الذين تبيحهم جنتَّك وتحكمهم فيها، قال: من أدخل على مؤمن سروراً، ثم قال: إن مؤمناً كان في مملكة جبار فولع به[1]، فهرب منه إلى دار الشرك، فنزل برجل من أهل الشرك، فأظلَّه وأرفقه وأضافه، فلما حضره الموت أوصى الله عزَّ وجلَّ إليه: وعزَّتي وجلالي، لو كان لك في جنتي مسكن لأسكنتك فيها، ولكنها محرمة على من مات بي مشركاً، ولكن يا نار هيديه[2] ولا تؤذيه، ويؤتى برزقه طرفي النهار، قلت من الجنة؟ قال: من حيث شاء الله»[3].

وكذلك عن أبي جعفر عليه السلام قال: «تبسم الرجل في وجه أخيه حسنة وصرف القذى عنه حسنة وما عُبد الله بشيء أحب إلى الله من إدخال السرور على المؤمن»[4].

وفي أصول الكافي عن أبي عبدالله عليه السلام قال: من أحب الأعمال إلى الله عزَّ وجلَّ: إدخال السرور على المؤمن وإشباع جوعته[5].

---

(١) ولع به: استخف به.

(٢) هيديه: أي أزعجيه وانزعيه وحركيه وأصلحيه.

(٣)،(٤) أصول الكافي: ج٢، ص١٨٨، باب إدخال السرور على المؤمنين.

(٥) أصول الكافي: ج٢، ص١٨٨، باب إدخال السرور على المؤمنين.

وقال رسول الله ﷺ: «من حمى مؤمناً من ظالم بعث الله له ملكاً يوم القيامة يحمي لحمه من نار جهنم». وقال ﷺ: «انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً، فقيل، كيف ننصره ظالماً؟ قال: تمنعه من الظلم». وقال أبو عبدالله الصادق عليه السلام: «من أغاث أخاه المؤمن اللهفان اللهثان عند جهده، فنفس كربته وأعانه على نجاح حاجته، كتب الله تعالى له بذلك اثنتين وسبعين رحمة من الله، يعجل له منها واحدة يصلح بها أمر معيشته ويدخر له إحدى وسبعين رحمة لأفزاع يوم القيامة وأهواله»(١). وقال عليه السلام «من نفس عن مؤمن كربة نفس الله عنه كرب الآخرة وخرج من قبره وهو ثلج الفؤاد»(٢). وقال رسول الله ﷺ: «من سر مؤمناً فقد سرني، ومن سرَّني فقد سر الله»(٣).

وقال ﷺ: «إن أحب الأعمال إلى الله عزَّ وجلَّ إدخال السرور على المؤمنين»(٤).

ولا شك أن من أوضح مصاديق إدخال السرور على المؤمن: قضاء حاجته ودفع الكرب عنه، لذلك حث الدين الإسلامي المؤمنين على القيام بقضاء حوائج الناس بما لا مزيد عليه. فعن أبي عبدالله عليه السلام: «قضاء حاجة المؤمن خير من عتق ألف رقبة وخير من حُملان ألف فرس في سبيل الله»(٥).

وفي الكافي أيضاً، عن أبي جعفر عليه السلام، قال: أوحى الله عزَّ وجلَّ إلى موسى عليه السلام: «إن من عبادي من يتقرب إليَّ بالحسنة، فأحكمه في الجنة، فقال: موسى: يا ربِّ، وما تلك الحسنة؟ قال: يمشي مع أخيه المؤمن في قضاء حاجته، قضيت أو لم تقض»(٦).

وقد قال أبو عبدالله الحسين عليه السلام: «اعلموا أن حوائج الناس إليكم من نعم الله عليكم، فلا تملوا النعم، فتحوَّل نقماً»(٧).

وقال أيضاً: «أيها الناس من جاد ساد، ومن بخل رذل، وإن أجود الناس من

---

(١) أصول الكافي: ج٢، ص١٩٩، باب تفريج كرب المؤمن.
(٢) اصول الكافي: ج٢، ص١٩٩، باب تفريج كرب المؤمن، ح٣.
(٣)،(٤) أصول الكافي: ج٢، ص١٨٨، باب إدخال السرور على المؤمنين.
(٥)،(٦) أصول الكافي: ج٢، ص١٩٥.
(٧) بحار الأنوار: ج٧٥، ص١٢١، باب ٢٠، وفيه: فتحور نقماً.

أعطى مَن لا يرجوه»[١]. وقال أيضاً: «من نفَّس كربة مؤمن فرج الله عنه كرب الدنيا والآخرة، ومن أحسن، أحسن الله إليه والله يحب المحسنين»[٢].

ويحدثنا الحسين بن محمد عن معلَّى بن محمد عن أحمد بن محمد بن عبدالله عن علي بن جعفر، قال: سمعت أبا الحسن عليه السلام يقول: «من أتاه أخوه المؤمن في حاجة فإنما هي رحمة من الله تبارك وتعالى ساقها إليه، فإن قبل ذلك فقد وصله بولايتنا وهو موصول بولاية الله، وإن ردَّه عن حاجته وهو يقدر على قضائها سلط الله عليه شجاعاً من نار ينهشه في قبره إلى يوم القيامة مغفوراً له معذباً، فإن عذر الطالب كان أسوأ حالاً»[٣].

وقال الإمام الصادق عليه السلام: «أيما رجل من شيعتنا أتاه رجل من إخوانه فاستعان به في حاجته فلم يعنه وهو يقدر إلا ابتلاه الله تعالى بأن يقضي حوائج غيره من أعدائنا، يعذبه الله عليها يوم القيامة»[٤].

وهكذا نرى أن الإسلام فرض على المؤمنين أن يقوموا بقضاء حاجة إخوانهم مع القدرة وإلا فهم معاقبون، في الدنيا والآخرة، فـ «أهل المعروف في الدنيا أهل المعروف في الآخرة» كما جاء في متن حديث. والعكس بالعكس وهذا تفسير للحديث القائل: «الدنيا مزرعة الآخرة»، فطوبى لأولئك الذين يهتمون بحوائج الناس أيما اهتمام سواء نجحوا أم أخفقوا فـ «مَن همّ بحسنة فلم يفعلها كتبت له حسنة، ومن هم بسيئة ولم يفعلها لم يكتب عليه شيء»... الحديث.

وإن قضاء الحاجة أكثر أجراً من التعبد في زاوية من الزوايا على ما جاء في حديث رسول الله صلى الله عليه وآله: حيث يقول: «من قضى لأخيه المؤمن حاجة فكأنما عبدالله دهره»[٥].

وفي حديث آخر عن الرسول صلى الله عليه وآله: «من مشى في حاجة أخيه ساعة من ليل أو نهار

---

(١)،(٢) بحار الأنوار: ج٧٥، ص١٢١، باب ٢٠.

(٣) أصول الكافي: ج٢، ص١٩٦.

(٤) أصول الكافي: ج٢، ص٣٦٦، باب من استعان به أخوه.

(٥) وسائل الشيعة: ج١٦، ص٣٦١، ح٢١٧٦٣.

قضاها أو لم يقضها كان خيراً له من اعتكاف شهرين»[١].

وقال أبو جعفر عليه السلام: «من مشى في حاجة أخيه المسلم أظله الله بخمسة وسبعين ألف ملكاً، ولم يرفع قدماً إلا كتب الله له حسنة وحط عنه سيئة، ويرفع له بها درجة، فإذا فرغ من حاجته كتب الله عزَّ وجلَّ له بها أجر حاجٍّ ومعتمر»[٢].

وقال عليه السلام: «إن المؤمن لترد عليه الحاجة لأخيه فلا تكون عنده فيهتم بها قلبه، فيدخله الله تبارك وتعالى بهمّه الجنة»[٣].

وقال عليه السلام: «من طاف بالبيت طوافاً واحداً كتب الله له ستة آلاف حسنة ومحى عنه ستة آلاف سيئة، ورفع له ستة آلاف درجة ـ وفي رواية، وقضى له ستة آلاف حاجة، حتى إذا كان عند الملتزم فتح له سبعة أبواب من الجنة». قلت له: جعلت فداك، هذا الفضل كله في الطواف؟ قال: «نعم، وأخبرك بأفضل من ذلك: قضاء حاجة المؤمن أفضل من طواف وطواف حتى بلغ عشراً»[٤].

وقال عليه السلام: «تنافسوا في المعروف لإخوانكم، وكونوا من أهله فإن للجنة باباً، يقال له المعروف، لا يدخله إلا من اصطنع المعروف في الحياة الدنيا، فإن العبد، ليمشي في حاجة أخيه المؤمن فيوكل الله عزَّ وجلَّ به ملكين واحداً عن يمينه وآخر عن شماله، يستغفران له ربه ويدعوان بقضاء حاجة المؤمن إذا وصلت إليه من صاحب الحاجة»[٥].

وقال أبو عبدالله عليه السلام: «قال الله عزَّ وجلَّ: «الخلق عيالي، فأحبهم إلي ألطفهم بهم وأسعاهم في حوائجهم»[٦].

وقد روي أن عابد بني إسرائيل كان إذا بلغ الغاية في العبادة صار مشاءاً في حوائج الناس عانياً بما يصلحهم[٧].

وهكذا نرى المفاضلة بين التعبد والقيام بحاجات الناس، وإن الدين الإسلامي دين فيه من التساند الاجتماعي والتضامن والتكافل ما يؤدي إلى إسعاد البشر في

---

(١) أصول الكافي: ج٢، ص١٩٨، باب السعي في حاجة المؤمن.
(٢)،(٣) جامع السعادات: ج ٢، ص: ٢٢٦.
(٤)،(٥)،(٦)،(٧) أصول الكافي: ج٢، ص١٩٤ ـ ١٩٩.

الدارين. ولسنا بحاجة أن نستمع إلى كلمات فلاسفة الغرب في سنن التكامل والرقي. فقد جاء الإسلام بالقول الفصل، كيف لا يكون كذلك وهو دستور السماء، دستور الله في أرضه، وأنى للبشر الناقص مهما سمى نفسه حكيماً أو فيلسوفاً أن يأتي بمثله، ذلك لأن النفس المتسافلة أو البعيدة عن الحق، النفس المحكومة لشيطانها وشهواتها لا تأتي إلا بدساتير ناقصة، لا توصل الفرد إلى الدرجات العلى من التقرب إلى الله في عوالم القدس، ولا تؤدّي إلى حياة سعيدة في الدنيا، وأن حالة الغرب اليوم في عوالم تكامل النفس أكبر شاهد على ما أقول.

لنستمع إلى ما يقوله أبو عبدالله عليه السلام بالنسبة إلى التنفيس عن المؤمن، أنه عليه السلام يقول: «أيما مؤمن نفَّس عن مؤمن كربة وهو مُعسر يسر الله له حوائجه في الدنيا والآخرة، قال: ومن ستر على مؤمن عورة يخافها ستر الله عليه سبعين عورة من عورات الدنيا والآخرة، قال: والله في عون المؤمن ما كان المؤمن في عون أخيه، فانتفعوا بالعظة وارغبوا في الخير»(١).

ولنذكر حديثاً واحداً في إطعام المؤمن وسقيه: «فقد قال الإمام علي بن الحسين عليه السلام مَن أطعم مؤمناً من جوع، أطعمه الله من ثمار الجنة ومَن سقى مؤمناً من ظمأ سقاه الله من الرحيق المختوم»(٢).

وحديثاً في إكساء المؤمن:

فعن أبي عبدالله عليه السلام: «من كسا أخاه كسوة شتاء أو صيف كان حقاً على الله أن يكسوه من ثياب الجنة وأن يهون عليه سكرات الموت وأن يوسع عليه في قبره وأن يلقى الملائكة إذا خرج من قبره بالبشرى وهو قول الله عزَّ وجلَّ في كتابه: ﴿وَتَتَلَقَّاهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [الأنبياء: الآية ١٠٣] (٣)».

وحديثاً في إكرام المسلم:

فعن أبي عبدالله عليه السلام قال: «من أتاه أخوه المسلم فأكرمه، فإنما أكرم الله عزَّ وجلَّ»(٤).

---

(١)،(٢)،(٣)،(٤) أصول الكافي: ج٢، ص٢٠٠ ـ ٢٠٧.

وحديثاً في خدمة المسلمين:

فعن أمير المؤمنين عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «أيما مسلم خدم قوماً من المسلمين إلا أعطاه الله مثل عددهم خداماً في الجنة»[1].

* * *

وهكذا نرى أن الحاجات طريق للاتصال بالله تعالى والانقطاع إليه وخير وسيلة لتكامل النفس الإنسانية التي تنحصر كمالها في اقترابها إلى الله المتعال وتذكرها خالقها في كل حين.

فما أحلى حالة المتعبِّد حين يقوم بعمل عبادي ليقضي الله حاجته وكم يزداد اعتقاداً بالله وحباً إليه بعد انقضاء حاجته المشروعة، ولقد كان القيام بقضاء حاجات الآخرين، لاسيما الأرحام، سبباً هاماً لهداية كثيرين.

وقد عرفت أشخاصاً كثيرين كانوا قد تركوا الصلاة وخاضوا فيما خاض فيه الطائشون، ولكنهم بعد أن قاموا بخدمة ملموسة تجاه أحد أرحامهم وقضوا بعض حاجاتهم، تفتحت قلوبهم لقبول معالم الهداية والكمال وزالت عنهم غياهب الشك والارتياب، وكادوا أن يبلغوا مرتبة اليقين، فراقبوا أعمالهم وأصلحوا أنفسهم على ضوء تعاليم الإسلام الحقة، وخرجوا بإذن ربهم، من الظلمات إلى النور. فطوبى لهم وحسن مآب.

تم بحمد الله الجزء الخامس من الكتاب ويليه الجزء السادس إنشاء الله والله المُوفِّق والمُستعان

---

(١) أصول الكافي: ج٢، ص٢٠٧.

التكامل في الإسلام

بقلم

أحمد أمين

خرج مصادره وصححه

علاء الدين الأعلمي

الجزء السادس

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي منع الأوهام أن تنال إلى وجوده وحجب العقول أن تتخيل ذاته لامتناعها من الشبه والتشاكل. بل هو الذي لا تتفاوت ذاته ولا تتبعض بتجزية العدد في كماله. إلى أن يقول:

أيها الناس، إنه لا شرف أعلى من الإسلام، ولا كرم أعز من التقو ، ولا معقل أحرز من الورع، ولا شفيع أنجح من التوبة، ولا لباس أجّل من العافية ولا وقاية أمنع من السلامة، ولا مال أذهب بالفاقة من الرضى والقنوع، ومن اقتصر على بلغة الكفاف فقد انتظم الراحة، والرغبة مفتاح التعب، والاحتكار مطية النصب، والحسد آفة الدين. والحرص داع إلى التقحم في الذنوب وهو داع إلى الحرمان. والبغي سائق إلى الحين[1] والشره[2] جامع لمساوي العيوب.

إلى أن يقول: أيها الناس، إنه لا كنز أنفع من العلم ولا عز أنفع من الحلم. ولا حسب أبلغ من الأدب، ولا نصب أوجع من الغضب، ولا جمال أحسن من العقل ولا قرين شر من الجهل، ولا سوأة أسوء من الكذب، ولا حافظ أحفظ من الصمت، ولا غائب أقرب من الموت[3].

(١) الحين: بفتح المهملة: الهلاك والمحنة.

(٢) الشره: غلبة الحرص والغضب والطيش والحدة والنشاط وفي بعض النسخ الشره: هو الحرص أيضاً.

(٣) من كلام لمولانا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام مقتبس من تحف العقول. طبع مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ص: ٩٢.

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الإنقلاب الصناعي وما أعقب من ويلات والانحلال الخلقي والتفكك الاجتماعي وعدم الإيمان بالمقدسات ومعاداة الكنيسة للعلماء الكونيين وإعدامها كثيراً منهم وكتابات الفلاسفة الماديين وتفنيدهم ما قررته الكنيسة أو المسيحية من أخلاق وعادات، والحرية المطلقة في الأعراض كل أولئك أولدت فلاسفة ورجالاً ماديين صاروا يستهزئون بالدين والفضائل وما كان يسمى شرفاً ونبلاً وأخلاقاً وفضيلة: حتى صار أحدهم يفتخر أن يوم وفاة أمه قام بمعانقة بغية من البغايا وآخر يقول مخاطباً رب العباد: «أنت رب، إلا أني حر»[1]: كلام سوفسطائي من مستهتر لا يعلم معنى الحرية على الوجه الصحيح. ولا يقدر ضآلة نفسه أمام عظمة الله التي لا تحد.

إن شبابنا اليوم يقتبس فكرته الاجتماعية والخلقية بل الدينية مما يقرأ في كتب الغرب والروايات التمثيلية وغيرها. وهو يرى أن كل ذلك يترشح من مدنية راقية تطلق الصواريخ وتسير بين الكواكب. فتصل إلى القمر وعطارد وزهرة إلى ما هنالك. فيلتبس عليه الأمر. فيظن بل يعتقد أن أفكار أوربا وفلسفتها الاجتماعية والدينية هي كعلومها المادية، حقائق ناصعة لا غبار عليها وهي واجبة الإتباع لنيل مدارك الكمال وقد فاته أن النفس لأمارة بالسوء. فتميل نحو ما يحقق شهواتها ونزواتها على ضوء الفلسفة المادية. فيسخر نتيجة هذا الإتباع مما كان يعتقد قبلاً من مقدسات ويظنها خرافة. ويجزم أنه قد خرج من عالم كله قيود إلى عالم آخر كله انطلاق وحرية وسرور.

وهذه (السويد) بلد الحرية والحضارة النموذجية، قد وجد فيها منذ زمن غير بعيد شباب مخنثون، يتشبهون بالبنات من حيث شعر الرأس واستعمال المساحيق ويرتدون ألبسة الفتيات من الداخل والفساد ضارب بأطنابه بينهم وبين الآخرين إلى أقصى حد.

---

(١) من كلمات (سارتر) الوجودي.

وفي ألمانيا من أصل مائة شاب في مصح المدمنين على الخمر يوجد ١٤ فتى أعمارهم دون الـ ٢٥ سنة. وكثير من هؤلاء اعترفوا بأنهم تناولوا الكأس الأولى على يد أحد الكبار، بل منهم من تناولها من أحد الأبوين! ودلت الإحصاءات أخيراً أن أكثر من نصف الـ ١٠ مليار ليتر خمراً التي تشرب في ألمانيا سنوياً تشرب داخل البيوت. وجاء في تقرير رسمي: أن ثلث الشباب الأمريكيين الذين هم في الثامنة عشرة لا يصلحون للخدمة العسكرية ويؤكد أن السبب في ذلك يعود إلى كثرة ارتكاب الموبقات من الآباء مما يؤدي إلى إنجاب ذرية ضعيفة غبية ولكثرة إدمان الخمر والفواحش.

وفي تقرير آخر نشر في استوكهولم أن نسبة الإصابات بالأمراض التناسلية تزداد في أوروبا من جديد.

وفي تقرير آخر: إن الإصابات بالسيلان في بريطانية والسويد وبلغاريا قد ازدادت زيادة كبيرة في السنوات الأربع الماضية، وأن الإصابات بالزهري ازدادت في الدنمارك والسويد وفرنسا خلال السنوات الخمس الماضية.

وفي (نيويورك)، ألف وخمس مائة عصابة محترفة، شأنها السرقة، كل عصابة تتألف من مائة شخص أو أكثر، وفيهم حملة الشهادات العالية!؟

وإن أهالي شيكاغو في أمريكا يدفعون في كل سنة ١٦٥ مليون دولار إلى السرّاق المحترفين وقاية لأموالهم، وما يقدم في الولايات المتحدة كلها كهدية للسراق يبلغ ١٢ مليون في السنة، وهناك في أمريكا فئة خاصة تصطنع الأسناد والأوراق الرسمية. ووارداها السنوي ٤٠٠ مليون دولار.

وإن (روبرت بورن) كان يسرق في السنة ٣٠٠ سيارة ويبيعها وأن بعض الموظفين كانت لهم حصة في الموضوع.

يقول الدكتور الكسيس كاريل. في كتابه: «الإنسان ذلك المجهول» في معرض انتقاده للحضارة الغربية ص٣٨ ما نصه:

«إن الحضارة العصرية تجد نفسها في موقف صعب لأنها لا تلائمنا لقد أنشئت دون أية معرفة بطبيعتنا الحقيقية، إذ أنها تولدت من خيالات الاكتشافات العلمية،

وشهوات الناس وأوهامهم ونظرياتهم ورغباتهم. وعلى الرغم من أنها أنشئت بمجهوداتنا إلا أنها غير صالحة بالنسبة لحجمنا وشكلنا».

ويقول في مكان آخر، ص٤٣:

«وهؤلاء النظريون يبنون حضارات، بالرغم من أنها رسمت لتحقيق خير الإنسان. إلا أنها تلائم فقط صورة غير كاملة أو مهولة للإنسان. إن نظم الحكومات التي أنشأها أصحاب المذاهب في عقولهم عديمة القيمة فمبادئ الثورة الفرنسية وخيالات ماركس ولينين، تنطبق فقط على الرجال الجامدين (غير الأحياء أو المتحركين). فيجب أن نفهم بوضوح أن قوانين العلاقات البشرية ما زالت غير معروفة. فإن علوم الاجتماع والاقتصاديات علوم تخمينية».

ويقول في مكان آخر، ص٤٤:

«يجب أن يكون الإنسان مقياساً لكل شيء. ولكن الواقع هو عكس ذلك. فهو غريب في العلم الذي ابتدعه، إنه لم يستطع أن ينظم دنياه بنفسه. لأنه لا يملك معرفة علمية بطبيعته. ومن ثم، فإن التقدم الهائل الذي أحرزته علوم الجماد على علوم الحياة، هو إحدى الكوارث التي عانت منها الإنسانية. فالبيئة التي ولدتها عقولنا واختراعاتنا غير صالحة لا بالنسبة لقوامنا ولا بالنسبة لهيئتنا، إننا قوم تعساء، لأننا ننحط أخلاقياً وعقلياً، إن الجماعات والأمم التي بلغت فيها الحضارة الصناعية أعظم نموٍّ وتقدّم على وجه الدقة، الجماعات والأمم الآخذة في الضعف والتي ستكون عودتها إلى البربرية والهمجية أسرع من عودة غيرها إليها، ولكنها لا تدرك ذلك. إذ ليس هناك ما يحميها من الظروف العدائية التي شيدها العلم حولها. وحقيقة الأمر أن مدنيتنا ـ الحضارة الغربية ـ مثل المدنيات التي سبقتها أوجدت أحوالاً معينة للحياة من شأنها أن تجعل الحياة نفسها مستحيلة وذلك لأسباب لا تزال غامضة»!.

ويقول الفيلسوف جود، في كتابه: philosophy. by Jaod «إن العقل البشري لا يزال يافعاً، فلا يتوقع حالياً أن يستطيع فهم الكثير جداً عن العالم الذي وجد نفسه فيه، فنحن في الحقيقة نشعر أننا كلما ازدادت معرفتنا صرنا أكثر إدراكاً لدى ما نحن فيه من

جهل. أُفرض أن المعرفة الإنسانية تمثل رفعة ضئيلة مضيئة في بحر يلفه الظلام الدامس من جميع نواحيه. فهذه المساحة اللانهائية من الظلام هي التي تمثل الجهل وكلما وسعنا مساحة الرقعة المضيئة (المعرفة) وسعنا كذلك مدى تماس محيط معرفتنا بظلام الجهل من حولنا».

ويظن كثير من شبابنا أنه لم يكن للإسلام قسط في حقل الحضارة الصناعية ويردهم: كوستاولوبون في كتابه: النفسية السياسية بقوله: «قد يكون من الأوربيين مستعمرون ماهرون. ولكن منذ عهد روميه كان المسلمون من الشعوب الوحيدة التي حملت علم التمدن حقيقة وهم الذين فازوا وحدهم بنشر المواد الجوهرية من المدنية وأعني بها: الدين والمصانع والصناعة بين ظهري عناصر جديدة من غير عنصرهم».

ويقول في مكان آخر:

«هل من الواجب أن نذكر أن العرب، والعرب وحدهم، هم الذين هدونا إلى العالم اليوناني واللاتيني. وإن الجامعات الأوروبية ومنها جامعة باريس، عاشت مدة ستمائة سنة من مترجمات كتبهم وجرت على أساليبهم في البحث وكانت المدنية العربية من أدهش ما عرف التاريخ».

ويقول في مكان آخر:

«كلما تعمق المرء في دراسة المدنية العربية، تجلت له أمور جديدة واتسعت الآفاق أمامه، وثبت له أن القرون الوسطى لم تعرف الأمم القديمة إلا بواسطة العرب، وإن جامعات الغرب عاشت خمسمائة سنة بكتب العرب خاصة. وإن العرب هم الذين مدنوا أوروبا في المادة والعقل والخلق ومتى درس المرء ما عمل العرب وما كشفوه في العلم يثبت له أنه مامن أمة أنتجت مثل ما أنتجوا. في هذه المدة القصيرة التي كتب لملكهم قضاؤها».

«وإذا نظر المرء في صناعاتهم وفنونهم. لا يسعه إلا الاعتراف بأنه كانت لهم ميزة خاصة لم تبلغها أمة. ولئن كان تأثير العرب في الغرب عظيماً، فإن تأثيرهم في الشرق أعظم وما من عنصر أثر مثل تأثيره قط، فإن الشعوب التي دانت الأرض لسلطانهم

كالآشوريين والفرس والمصريين واليونان والرومان قد عفت الأيام آثارهم. ولم يخلفوا سوى آثار ضئيلة بحيث لم يبق سوى ذكريات أديانهم وألسنتهم وفنونهم» ويقول:

«وقد اضمحل أمر العرب أيضاً، ولكن أهم عناصر مدنيتهم وهي الدين واللسان والفنون لا تزال حية». وقال أيضاً: «إن العرب أول من علّم العالم كيف تتفق حرية الفكر مع استقامة الدين».

إن الشباب في أمريكا وأوربا قد تدهوروا إلى حد بعيد لا يرجى فيه الخير وقد تأسى بهم بعض شباب الشرق مع الأسف الشديد، وإن علماء النفس والاجتماع يعملون في إصلاح الحالة ولا يستطيعون ذلك لأن التسبب والانحراف قد بلغا (كما سنجد في بعض صفحات هذا الجزء) حداً قاصياً من جراء هذه الحرية المفسدة للنفوس والمضلة للعقول. وقد قال الفيلسوف الفرنسي: كوستاولوبون قبل عشرات السنين: «وقد وصلنا إلى طور من الحياة تجعل خطر الأخلاق أجلَّ من خطر الذكاء فليس للذكاء قيمة إذا لم يعتمد على القوة والإرادة وضبط النفس والتربية وحدها خليقة أن توجد هذه الأخلاق إذا لم تكفلها الوراثة»!؟ ولكن من الواضح لأسس هذه التربية ومن المطبق لها!؟. فإذا كانت الأسس التربوية بشرية حالكة فلا أثر لها في إصلاح النفوس. لأن الناقص لا يترشح منه إلا شيء ناقص مبتور. وإن حالة الغرب الراهنة بما فيها من مؤسسات تربوية ضخمة خير شاهد على صحة ما أقول:

فلابد من الرجوع إلى دساتير تربوية جاءت من وراء هذه النفوس الضالة جاءت من وراء المادة الظلماء، جاءت من جانب الله تعالى على لسان أنبيائه ﷺ.

إذن: فلا نجاة إلا بالتمسك بدين لم تمسه يد البشرية المحرفة: دين الإسلام القويم. وقد قال الله تعالى بشأنه:

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ۝٩﴾ [الحجر: الآية ٩].

لا نجاة إلا بإيجاد الخشية في نفوس الشباب، حتى يخافوا الله فيرتكبوا ما نهى الله عنه في خلواتهم ومحاضرهم فقد قال رسول الله ﷺ «رأس الحكمة مخافة الله».

لا نجاة إلا باعتقاد رصين بيوم الجزاء، ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝٨٨ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ۝٨٩﴾ [الشعراء: الآيتان ٨٨/ ٨٩].

فلو تذكر الشاب: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ ۚ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾﴾ [طه: الآية ١٠٢]. ﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾﴾ [ق: الآية ٤٢] ﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ۚ ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴿٤٤﴾﴾ [ق: الآية ٤٤].

﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ ۖ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿٤٥﴾﴾ [القلم: الآيات ٤٢/٤٥]. وأثرت الخشية في جميع أجزاء بدنه فهو إذ ذاك يرتدع عما نهى الله تعالى، فلا يرتكب ما حرم الله وما يفسد النفس فيبعدها عن الصراط المستقيم.

ذلك لأن الخروج عما سنّه الله على لسان أنبيائه: إسراف وهو بدوره يؤدي إلى الضلال والعمى والكبرياء والغرور. وقد قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ﴾ [غافر: الآية ٣٤] ﴿ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۖ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾﴾ [غافر: الآية ٣٥].

فعلى الشاب أن يراقب الله تعالى في جميع أموره ويتذكر قوله تعالى حيث يقول: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾﴾ [العلق: الآية ١٤] وأن يعبد الله كأنه يراه. فقد قال رسول الله ﷺ: «الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه، فإنه يراك».

وفي الحديث القدسي: «إنما يسكن جنات عدن الذين إذا هموا بالمعاصي ذكروا عظمتي فراقبوني. والذين انحنت أصلابهم من خشيتي، وعزتي وجلالي إني لأهم بعذاب أهل الأرض فإذا نظرت إلى أهل الجوع والعطش من مخافتي صرفت عنهم العذاب».

حكي أن زليخا لما خلت بيوسف قامت وغطت وجه صنمها فقال يوسف: «مالك أتستحين من مراقبة جماد ولا أستحي من مراقبة الملك الجبار»(١).

وقد ورد في الأخبار: أن العاقل ينبغي أن يكون له أربع ساعات: ساعة يناجي فيها ربه، وساعة يحاسب فيها نفسه، وساعة يتفكر في صنع الله، وساعة يخلو فيها للمطعم والمشرب.

---

(١) تنبيه الخواطر، لورام: ج١، ص٢٣٦.

وقال الإمام الصادق عليه السلام: طوبى لعبد جاهد في الله نفسه وهواه، ومن هزم جند هواه ظفر برضى الله، ومن جاوز عقله نفسه الأمارة بالسوء بالجهد والاستكانة والخضوع على بساط خدمة الله تعالى فقد فاز فوزاً عظيماً ولا حجاب أظلم وأوحش بين العبد وبين الله تعالى من النفس والهوى، وليس لقتلهما وقطعهما سلاح وآلة مثل الافتقار إلى الله، والخشوع والجوع والظمأ بالنهار والسهر بالليل، فإن مات صاحبه مات شهيداً، وإن عاش واستقام أداه عاقبته إلى الرضوان الأكبر. قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾﴾ [العنكبوت: الآية ٦٩] (1).

فأنت أيها الشاب. بين يديك حقائق ناصعة عن الدين القويم دين الإسلام، خاتم الأديان بل، أكملها، ترشدك إلى الصراط السوي وتنير لك الطريق كي تسلك مسلكاً يودي بك إلى تكامل نفسك وإبلاغها أسمى مراتب الكمال. وهل هناك هدف أسمى من التكامل؟ ولأجله وجدنا في هذا العلم. فشمّر عن ساعد الجد في تطبيق ما أمر به الإسلام كي ترى نفسك كيف تتجلى يوماً بعد يوم مشرقة، وضاءة منيرة. مطمئنة: ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرّعد: الآية ٢٨].

﴿يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [الأعراف: الآية ٢٦].

﴿يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [الأعراف: الآية ٢٧].

من حقائق القرآن العلمية

قُل سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُروا كَيفَ بَدَأَ الخَلْق

في القرآن الكريم آيات هي عصارة العلم الحديث وما ستنتجه المكتشفات العلمية

(1) مصباح الشريعة: ص١٦٩، باب ٨٠.

في الكون الرحيب في مستقبل قريب أو بعيد. وليس لأحد مهما أوتي من علم غزير وكفاءة فائقة ونبوغ مرموق أن يفسر جميع الآيات الكونية في القرآن تفسيراً علمياً ناصعاً كاملاً غير ناقص. وهكذا كلما تكامل العلم المادي كلما ظفرنا بحقائق جديدة سبق كلام الله المجيد إلى ذكرها بإيجاز. وإن علوم القرآن التي كانت موضوع بحث المفسرين في القدم. كعلم القراءات وعلم الناسخ والمنسوخ وعلم الرسم القرآني وعلم المحكم والمتشابه والتفسير التاريخي والحكمي واللغوي والأدبي لفي معزل عن التفسير الفيزيائي والفلكي والطبقاتي والجغرافيائي والطبيعي. حتى أن القدماء لم يتوسعوا في تفسير القرآن في النواحي الاجتماعية والإدارية والسياسية والحربية التي يتناولها القرآن الكريم.

وهناك من لا يؤمن بالعلم المادي ويرى أن العلم المادي يضاد الدين فلا يهمه تفسير القرآن على ضوء العلم الحديث ظناً منه أن العلم المادي في تغير مستمر، وقد فاته أن ما اكتشفه العلم الحديث وحققته التجارب عدّة مرات، ثابت لا يتغير، بل النظريات التي توضع لتفسير الطاقات، كالطاقة الكهربائية أو الجاذبية أو الضوء، ذلك لأن الطاقة ليست من المادة في شيء. لذلك لم يعلم لحد الآن (ولن يعلم على ما أعتقد) حقيقة الطاقات على اختلاف أنواعها من حرارية وحركية وكهربائية وجاذبية وكيف تتبدل هذه الطاقات بعضها إلى بعض.

فنحن بقدر ما نعرف طرقاً شتى لاستخدام الكهرباء في التدفئة والعلاج والإنارة وإدارة الآلات وتسيير القاطرات والسيارات ونحوها لا نعرف تماماً ما هي الكهرباء وقس على ذلك الضوء والحرارة فكلها نطلق عليها لفظاً مبهماً هو الطاقة التي أودعت بين ثنايا الكون ويمكن أن يتحول بعضها إلى بعض، إلا أنه لا يمكن خلقها أو استحداثها من العدم.

لذلك لم يتمكن المادي من معرفة حقيقة المادة بعد أن رآها تتحول إلى طاقات، لاسيما وقد تمت منذ سنوات معدودة كشوف جديدة في عالم الكونيات تناولت صميم تكوين الذرة وأثارت اهتمام العلماء وعلى رأسهم رجال الفلك وأهم نتائج هذه

الكشوف العثور على البروتون السالب أو البروتون المضاد البروتون الذي نعرفه ـ والكهرب الموجب ـ وهو الإلكترون المضاد للإلكترون الذي نعرفه ـ ومعنى ذلك أن في هذا الوجود نوعين مختلفين من المادة[١] تبنى منهما النجوم والشموس والكواكب وسائر الأجسام. وإذا حدث أن التقى نوع منهما بالآخر أو تصادم معه تحدث عمليات إفناء ذرية تختفي معها معالم المادة من الوجود بينما تنطلق طاقات هائلة منها تلك التي استخدمت في الأصل في ربط جسيمات أو نويات وذرات تلك المواد، فكيف يفسر لنا المادي عملية الإفناء الذري وانقلاب المادة إلى طاقات!.

فلا تنافي بين العلوم المادية. والحقائق الدينية إذ هما من مصدر واحد. ولولا أهمية العلوم المادية في تثبيت عقيدة التوحيد لما دوَّن الله تعالى (٧٥٠) آية كونية أو أكثر من كتابه الذي ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾ [فُصِّلَت: الآية ٤٢].

وإني أرى أن هذا النوع من التفسير، أي تفسير القرآن الكريم على ضوء العلوم الحديثة من فلك وفيزياء وكيمياء ورياضيات وعلم الحياة وعلم النبات والحيوان وطبقات الأرض والجغرافية على ما فيها من أقسام والطب الحديث والتاريخ والعلوم الاجتماعية والسياسية يزيد في إيمان الشاب الجامعي ويجعله يعتقد أن دين الإسلام هو دين العلم الصحيح ودين العصر الحديث ودين الأجيال القادمة مهما تقدم العلم وبلغ شأناً قاصياً وذلك لأن العلم مهما تقدم في كشوفه تجلت حقائق القرآن أكثر فأكثر. ولا يصح الاعتماد على ما جاء في الكتب الفلسفية القديمة من علوم طبيعية مغلوطة تخالف الواقع وتفندها التجارب. وصارت تستند الكشوفات الفيزيائية على الرياضيات العالية، وأين الفلسفة القديمة من الرياضيات العالية لذلك كان يقول (بوانكاره الفرنسي): «نحن الرياضيين إنما نعمل للفيزياء والفلسفة».

كانت الفلسفة القديمة تستند في كثير من استنتاجاتها على الظن، فكان يقول أحدهم: إن الأرض كروية ذلك لأن الكرة أكمل الأشكال وأن حركة الشمس حول الأرض دائرية لأن الدائرة أكمل الأشكال وهكذا... والله تبارك وتعالى ينهانا عن

---

(١) ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الذاريات: الآية ٤٩].

إتباع الظن، وذلك بقوله عزّ من قائل:
﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾ [يُونس: الآية ٣٦].
وبقوله تعالى:
﴿قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ﴾ [الأنعَام: الآية ١٤٨].

فلا يجوز تفسير الآيات الكونية التي تقوي ناحية التوحيد في النفوس استناداً إلى الظن وما لا يؤيده التجارب والمعادلات والدساتير الرياضية والفيزيائية كتفسير (المد والجزر)، مثلاً بملاك البحر الذي تصوروه عندما يضع إبهامه في البحر يفيض الماء وعندما يخرج إبهامه يغور الماء ويكون الجزر، حين أن القضية قضية جاذبية القمر والشمس لمياه البحار والأنهار. كما أنهم بدلاً من أن يفسروا العمد الذي لا يرى بالعين بالجاذبية في الآية الآتية.
﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ [الرّعد: الآية ٢].

استندوا إلى خرافة يونانية القائلة أن الأرض قائمة على قرن ثور والثور قائم على بطن حوت... (أما الحوت!؟).

وكم من نظريات سخيفة وظنون فاسدة دخلت من الفلسفة اليونانية البائدة في الإسلام ورآها الفلاسفة والمتفلسفون حقائق لا غبار عليها وصاروا يدافعون عنها بحماس لا مزيد عليه.

والحق يقال: إن النهضة العلمية في الغرب ما قامت إلاَّ على أسس من المشاهدة الصحيحة والتجارب السليمة. وما القوانين العلمية سوى تفسير لما يشاهد في عالم المادة. ورغم أننا لا ندعي إطلاق صحة هذه القوانين، إلا أننا نسلم بأنها تمثل جانباً كبيراً من الصحة والدقة وأنها تقترب من الكمال بتقدم العلوم والفنون فبمرور الوقت واتساع أفق المعرفة وازدياد الدقة في عمليات الرصد والملاحظة والمشاهدة يضيف العلماء من آن لآخر جانباً من التعديلات أو التحويرات إلى بعض القوانين العلمية لجعلها أقرب للحقيقة أو أعم للنفع.

فإن دساتير الجاذبية التي اكتشفها (نيوتون) لم تبلغ من قبل (أينشتاين) وإنما عدّلت

حتى يمكن تطبيقها في مسافات شاسعة بين الأنجم والكواكب النائية جداً وأن دساتير نيوتون لا تزال تطبق وهي صحيحة في مسافات محدودة أي على الكرة الأرضية.

لذلك كلّه، أرى من الضروري أن يلم العالم الديني بشيء من العلوم العصرية قبل مرحلة الاختصاص، وأن يتخصص في بعض الفروع لاسيما الفيزياء إن وجد متسعاً من الوقت والكفاءة.

فليس من الصواب في شيء أن يبني الناس معتقداتهم الدينية أو صرح نظرياتهم العلمية على مجرد الخيال أو الاستنتاج دون برهان أو تجربة، فإن مثلهم في ذلك كمثلنا عندما نجلس للتفكير في خواص المادة أو ظواهر الكون دون أن ندرس الأشياء ونرصدها! أو كمثل أولئك الذين يرثون عقائدهم دون اختبار موادها من حيث الخطأ والصواب وفي أمثال هؤلاء يقول القرآن الكريم:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ۚ أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٠٤﴾﴾ [المائدة: الآية ١٠٤].

* * *

إنه تعالى يأمرنا أن نسير في الأرض فننظر كيف بدأ الله الخلق حتى نزداد إيماناً ويقيناً ونخضع تجاه عظمته التي لا تتناهى ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ [الإسراء: الآية ٤٤].

لا يزال العلم الحديث يجهل كيف ابتدأ خلق العالم. والله تعالى يقول: ﴿مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ﴾ [الكهف: الآية ٥١]، إذ نحن لم نكن حين خلق الله تعالى السماوات والأرض وكيف نشاهد خلق أنفسنا ونحن بعد لم نتكامل من حيث التكون والوجود ولا نعرف إلى الآن كيف دبت الحياة على وجه البسيطة وكيف كانت تتكون، وتنمو الحشرات والحيوانات على اختلاف أنواعها، إنما هي نظريات تجرح وتعدل من حين لآخر. كما في تشكل المجموعة الشمسية. وعادة تبدأ كل نظرية علمية تحاول تفسير أصل الوجود من فروض خاصة لا سبيل للبرهنة عليها أو من نقطة خاصة لا سبيل للذهاب إلى أبعد منها فالعلم الطبيعي لا يتعرض لمسألة الخلق من العدم وإنما ينصب على دراسة خصائص ما هو كائن فعلاً من مادة وطاقات وحياة ولا يريد الله تعالى في الآية المتقدمة:

﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ﴾ [العَنكبوت: الآية ٢٠] ، أكثر من ذلك. إن علينا أن نبحث مستندين على ما كشف في علم الجيولوجي Geologie والأحياء Biologie وعلم الذرة والإشعاع وعلوم أخرى تمس الموضوع عن مراحل الخليقة.

ولا ريب أن العالم الأكبر قد تكوَّن بإذن الله تعالى وأمره من العالم الأصغر، فلنتكلم شيئاً عن العالم الأصغر ممثلاً في أصغر لبنات أو دقائق بنيت منها المواد وهي الذرة.

* * *

وقوام الذرات أشياء متناهية الصغر غير عادية تتشابه في جميع ذرات العناصر المختلفة، ويتوقف على عددها وترتيبها داخل كل ذرة تحديد نوع المادة أو العنصر التي تتكون من هذه الذرات. وأبسط الذرات تركيباً على الإطلاق ذرة الايدروجين، وهو المعروف باسم الغاز الكوني أو الغاز الذي خلق منه الكون وتطورت عنه سائر المواد المعروفة. وتتركب ذرة الايدروجين من (نواة) عبارة عن: بروتون موجب التكهرب يدور من حوله على كثب منه: إلكترون وهو كهرب سالب كما في العالم الأكبر وهو الشمس وما حولها من كواكب تسعة، ويتحقق قوله تعالى: ﴿مَا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن تَفَاوُتٍ﴾ [المُلك: الآية ٣] .

ويتعقد تركيب الذرة كلما صعدنا قدماً في سلم العناصر المادية. وكان المعتقد إلى عهد ليس ببعيد (منذ خمسة وعشرين عاماً تقريباً) إن الذرات غير قابلة للتجزئة إلى جسيماتها الأولى. وكانت الطرق المستخدمة في محاولات تحطيمها طرقاً عقيمة غير مجدية، ولكن لما عرفت وسائل تحطيم الذرة في هذا العصر أمكن الجزم نهائياً بأن طاقات عظمى تدخر بين ثنايا الذرة أساسها الطاقة التي استخدمت أصلاً في ربط جسيماتها الأولية خصوصاً فيما يختص بمكونات النواة التي نشأت أول ما نشأت داخل النجوم تحت درجات من الضغوط والحرارة تفوق حدود الوصف والخيال. وكل ما يلزم لتفتيت الذرة هو بذل نحو هذا القدر من الطاقة الرابطة بطريقة من الطرق.

وفي أغلب العناصر لا تقتصر النواة على البروتون الموجب، بل قد توجد أيضاً:

النيوترونات وهي الجسيمات أو اللبنات التي ليس لها شحنة تميزها. والمعروف أن المحدد الأول لصفات الذرة هو نواتها، فنواة الهليوم مثلاً ـ وهو غاز ينجم عن تفجير الإيدروجين ـ قوامها اثنان من النيوترونات واثنان من البروتونات. وعندما نصعد في سلم النويات حتى نصل إلى العناصر الثقيلة ممثلة في عنصر اليورانيوم مثلاً نجد أن نواة هذا العنصر الأخير تتكون من ٩٢ من البروتونات مع ١٤٦ نيوتروناً. وفي العادة تكون الشحنات السالبة داخل أي ذرة مساوية للشحنات الموجبة وبذلك تكون الشحنة الكهربية للذرة في مجموعها صفراً.

فذرة الهليوم تتكون من نواة فيها بروتانان يدور حولها اثنان من الإلكترونات أو الكهارب السالبة لأحداث التعادل الكهربي.

أما ذرة اليورانيوم فيسبح حول نواتها (٩٢) إلكتروناً.

وتدور الإلكترونات، حول النواة في أفلاك شبه دائرية تتعدد بازدياد عدد الإلكترونات، إذ يتشبع كل فلك بعدد معين منها. ولا يتسع أقرب الأفلاك أو المدارات إلى النواة لأكثر من إلكترونين اثنين ويشبع المدار الذي يليه ٨ إلكترونات وهكذا. ويبقى الفائض عن تشبع الطبقات الداخلية في الطبقة الخارجية وهي التي يسهل فصلها وإعادة ترتيبها.

ومن الممكن أن يفصل إلكترون واحد أو أكثر من الذرة وبذلك تنفصل شحنتان إحدهما موجبة والأخرى سالبة، وتسمى هذه العملية علمياً باسم (التأين). وأبسط الأجهزة التي يتم فيها تأين الغازات هي الأنابيب الكهربية المستخدمة في الإضاءة أو اللافتات والإعلانات، حيث يتوهج الغاز تحت ضغوط مخلخلة بسبب تصادم الإلكترونات مع ذرات الغاز. وينجم عن هذا التصادم مع بعض الذرات إضافة طاقات إليها تنطلق في صورة ضوء هو مصدر الوهج المعروف بينما يتأين البعض الآخر من الذرات.

* * *

ومنذ سنوات معدودات تمت كشوف جديدة في عالم الكونيات تناولت صميم تكوين الذرة وأثارت اهتمام العلماء وعلى رأسهم رجال الفلك وأهم نتائج هذه الكشوف العثور على البروتون السالب ـ أو البروتون المضاد للبروتون الذي نعرفه ـ

والكهرب الموجب ـ وهو الإلكترون المضاد للإلكترون الذي نعرفه ـ ومعنى ذلك أن في هذا الوجود نوعين مختلفين من المادة تبنى منهما النجوم والشموس والكواكب وسائر الأجسام ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [الذّاريَات: الآية ٤٩] . وإذا حدث أن التقى نوع منهما بالآخر أو تصادم معه تحدث عمليات إفناء ذرية تختفي معها معالم المادة من الوجود، بينما تنطلق طاقات هائلة منها تلك التي استخدمت في الأصل في ربط (جسيمات) نويات وذرات تلك المواد ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾﴾ [فُصّلَت: الآية ٥٣].

ونحن نستطيع أن نرمز للنوع الأول من المادة ذات البروتونات الموجبة بالحرف (م) مثلاً وهي التي تكون إلكتروناتها سالبة التكهرب كما نستطيع أن نرمز للنوع الثاني من المادة المضادة ذات البروتونات السالبة والإلكترونات الموجبة بالحرف (س).

واستفاد علماء الفلك من هذه الكشوف عن طريق تلك الإمكانيات والتطبيقات الواسعة التي تكمن من ورائها وتفسر كثيراً من ظواهر الكون الغامضة، مثل ظهور أرجاء في المجرات برمتها مظلمة وخاصة في السدم الحلزونية، ومثل ظاهرة النجوم البراقة ونحوها.

وهناك بعض كهارب نووية أو (جسيمات) ذات شحنات كهربية في نويات الذرات الثقيلة تسمى الميسونات. وإذا تحول بروتون إلى نيوترون فإنه يفقد شحنته الموجبة التي تنفصل بانفصال ميسون موجب أما إذا تحول نيوترون إلى بروتون فالميسون يحمل في هذه الحالة شحنة سالبة. وعندما يتصادم بروتون موجب مع آخر سالب. أو عندما يتصادم كهرب سالب مع آخر موجب، يعدم أحدهما الآخر من عالم الوجود بينما تنطلق الطاقة الكلية حسب معادلة اكتشفها (أينشتاين): تساوي ك في س٢: ط = ك س٢.

أي: الطاقة المنطلقة تساوي الكتلة المادية المختفية في مربع سرعة الضوء.

وهكذا نرى عندما تدخل ذرة من المادة (م) إلى عالم المادة (س) أو العكس تفنى الكهارب أولاً ثم يعقب ذلك إفناء البروتونات، ومهما يكن من شيء فنحن لا نعرف ـ ولو على وجه التقريب ـ ما إذا كان عدد البروتونات الموجبة المودعة في الكون يساوي

تماماً عدد البروتونات السالبة فيه أم لا؟ إلا أن هذه الحالة يرى فريق من العلماء ضرورتها ووجوبها في عالم نشأ من العدم الذي هو نفس النتيجة المتوقعة لو أتيحت الفرصة لتلاقي المجرات وتصادمها مع بعضها.

﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ۝٥٠﴾ [القَمَر: الآية ٥٠].

﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٨٢﴾ [يس: الآية ٨٢].

﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۝٢٦ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ۝٢٧﴾ [الرّحمن: الآيتان ٢٦/٢٧].

وعلى أية حال فإن إمكان زوال السموات والأرض مسألة يقرها العلم ولا ينكرها ويفسرها تفسيراً طبيعياً على النحو الذي وصفناه، برسم أننا قد لا نستطيع أن نقرر أن للبروتونات الموجبة والبروتونات السالبة نشأت أول ما نشأت كأكداس من الأزواج انفصلت إلى أفراد بحيث لم يزد مجموع شحناتها جميعاً على الصفر. أو أنها نشأت هكذا حسب أي احتمال (كجسيمات) فردية منفصلة، وكذلك برغم أنه لم يقل أحد بتوزيع البروتونات والإلكترونات توزيعاً منتظماً في سائر أرجاء هذا الكون، أما احتمال التعادل الكهربي بين الشحنات السالبة والشحنات الموجبة في مكان معين يمضي الوقت فهو أمر تدعمه المشادة.

وما قلنا تفسير لهذه الآية الكريمة:

﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ۝٤١﴾ [فَاطِر: الآية ٤١].

وعلى أية حال، فإن الآية الكريمة تشير بإعجاز رائع إلى إمكان إفناء ما في الكون من سدم ومجرات إذا هي تغير نظام توزيعها، بأن تداخلت مثلاً أو اعترض بعضها بعضاً أثناء سبحها في الفضاء، ثم هي بالإضافة إلى تقرير تلك الحقيقة تظهر ضعف الكائنات جميعاً وعجزها عن إمساك السماوات والأرض من الزوال إذا قدر الخالق لها تلك النهاية.

كما يقول الله تعالى:

﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ۝٤٨﴾ [إبراهيم: الآية ٤٨].

﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾ [الأنبياء: الآية ١٠٤].
﴿وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ ۝١١﴾ [التكوير: الآية ١١] [١].
﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝١﴾ [التكوير: الآية ١] [٢].
﴿وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ ۝٢﴾ [التكوير: الآية ٢] [٣].
﴿وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ ۝٣﴾ [التكوير: الآية ٣] [٤].

﴿ثم استوى إلى السماء وهي دخان﴾

والمقصود بالدخان هنا: الغاز. والمتفق عليه في العلوم الكونية أن أصل هذا الكون بدأ حين انتشر في الفراغ الكوني غاز (الإيدروجين) وهو المعروف علمياً باسم الدخان أو الغاز الكوني. وأعقب ذلك بأمر من الله تعالى سلسلة من الخطوات أو التطورات التي صحبها ازدياد تركيز الغاز الكوني رويداً رويداً بفضل الجاذبية التي أودعها الله تعالى بين الأجسام، قبل أن يظهر في صورة السدُم[٥] والمجرات[٦]، فالنجوم، ثم الكواكب، وتتلخص هذه الخطوات كما يلي:

الغاز الكوني، المجرات، النجوم، الكواكب السيارة.

وبديهي أن نجد درجة تضاغط الغاز الكوني ليكوِّن المجرات أقل بكثير من درجة تضاغطه داخل النجوم، وتبلغ كثافة أو درجة تركيز هذا الغاز من القلة أنه يوجد منه نحو ذرة واحدة في فراغ يبلغ حجمه علبة الكبريت العادية. وبالرغم من هذا فإن كتلة هذا الغاز في الوجود تزيد ألف مرة في عصرنا هذا على كتلة المواد المكدسة في جميع المجرات رغم أنه قد مضى على عمليات التحور التي صحبت ظهور الكون آلاف ملايين السنين ولعل السبب في ذلك أن المجرات رغم اتساعها وكبرها المتناهي لا

---

(١) كشطت: أي: نزعت عن أماكنها.
(٢) كورت: أي: رفعت.
(٣) أي: أظلمت.
(٤) أي: ذهبت.
(٥) السدُم: جمع سديم.
(٦) المجرة: منطقة طويلة تمتد فوق رؤوسنا كالقوس وقد تركزت فيها النجوم بمقدار كثير وتكثفت فيها إلى حد بعيد، بعضها فوق بعض، تشبه بياض ماء النهر في سواد الأرض.

تشغل من الفضاء الكوني المترامي الأطراف إلا جزءاً ضئيلاً جداً.

فإن الآية: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ﴾ [فُصِّلَت: الآية ١١]. تنبئنا بأن أجرام السماء إنما بدأت بصورة دخان وهي عين ما افترضته كافة النظريات الفلكية مهما اختلفت تفاصيلها. وكلها تقول: إن الوجود بدأ في صورة الدخان الكوني أو الإيدروجين، وعندما ينتهي دور الأرض والسماوات ترجع هذه الأجرام إلى حالتها الأولى إلى دخان وطاقات هائلة:

﴿فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾﴾ [الدّخان: الآية ١٠].

﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٠٤﴾﴾ [الأنبياء: الآية ١٠٤].

﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾﴾ [إبراهيم: الآية ٤٨].

ويعترف العلماء أن الغاز الكوني الذي هو أساس الخليقة يخلق في الفضاء خلقاً، أي يخلق من العدم وهكذا بقية العناصر التي يتكون منها الكون كله.

ثم إنه تعالى يقول: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا﴾ [الأنبياء: الآية ٣٠].

وهي إشارة رائعة ومعجزة خالدة تُعبِّر من الوجهة العلمية عن عملية انفصال أجرام السماء والأرض عن بعضها بعد أن كانت دخاناً يملأ الفضاء، ثم سُدُماً. فمجرات تكدست فيها النجوم والكواكب. كل ذلك، بفعل الدوامات التي انتابت الغاز الكوني والجاذبية والقوى الطاردة المركزية ونحوها من سنن الطبيعة ومعاول الخلق التي لعبت دورها في تكوين أجرام السماء والأرض وانفصالهما عن بعضهما من الغاز الكوني.

ثم علم أخيراً أن الفضاء الكوني الذي يقع بين أجرام السماء ليس فراغاً خالياً من كل شيء كالمادة ومعالمها وإنما تنتشر فيه أيضاً جسيمات غير مرئية على غرار ما كشف العلم في عصر الفضاء، وهو قوله تعالى:

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ﴾ [المائدة: الآية ١٧].

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ [المائدة: الآية ١٨].

وإن الغاز الكوني بين النجوم والمجرات هو بحالة تخلخل شديد جداً إذ قدرت كثافته بنحو ميليغرام واحد في كل مليون مكعب في الفضاء. وهذا الغاز مكون كله تقريباً من غازي الإيدروجين والهليوم ومن دقائق ترابية.

والدخان الكوني هو مادة الكون الأول وهو لا يفنى إلا بمشيئة الله تعالى ولا تقل كمياته في كوننا المرئي بشكل مستمر. ولهذا يتساءل العلماء من أين يقبل هذا الدخان أو الغاز؟

أهو يقبل من الفضاء اللانهائي في تتابع مستمر ليعوض النقص في كمياته بسبب تولد المجرات الجديدة؟

أم هو يأتي من مكان خفي؟

أم هو يخلق خلقاً؟

ولكن القرائن والمشاهدات العلمية كلها تدل دلالة واضحة أن هذا الدخان الكوني لا يأتي من مكان معين، وإنما يخلق خلقاً، فأحياناً لا توجد ذرات هذه المادة وبعد ذلك تظهر، وإذن فإن عملية خلق الإيدروجين هي عملية مستمرة. وإلا نفد هذا الغاز من الوجود بسبب استمرار تكدسه، ومن ثم استنفاده داخل المجرات المتباعدة.

ويتكدس الإيدروجين كذلك داخل النجوم ويتضاغط بدرجات أكبر فأكبر بفعل الجاذبية. وينجم عن هذا التضاغط ارتفاع درجة الحرارة إلى حدود الملايين من الدرجات في مراكز تكون النجوم والشموس وعند ذلك تنشط العمليات الذرية. ويتحول هذا الدخان إلى رماد (غاز الهيليوم) وإلى عناصر أخرى بأمره تعالى تحت الضغوط المختلفة وهذه السلسلة كلها غير تراجعيه، أي أنها لا يمكن أن تعود القهقرى، إلى الوراء، لتنتهي بظهور الإيدروجين من جديد وتحت أي ظرف آخر. وبديهي أن بقاء الغاز في الفراغ الكوني حتى الآن رغم تدخل هذه العوامل كلها لهو أكبر دليل على أنه في تجديد مستمر أو خلق مستمر. ولهذا السبب يبقى متوسط كثافة الغاز ثابتاً في الفضاء.

والحق يقال: أن معدل خلق مادة الكون الأولى هو معدل بطيء جداً. ولا يظهر

هذا الدخان فجأة متكتلاً في مكان معين. ويمكن أن يقدر ظهوره بنحو خلق ذرة واحدة في العام داخل فراغ يعادل حجم قاعة كبيرة!! نعم، إن مثل هذا المعدل لا يمكن قياسه ولا مشاهدته عملياً، ولكن يمكن حسابه رياضياً، بحيث إذا طبّقناه على فراغ الكون المرئي كله تمخضت قيمة المادة المخلوقة عن كميات تفوق حدود الوصف والخيال. فهي تربو على ١٠٠ مليون مليون مليون مليون طن في الثانية الواحدة!! وتسبب هذه المادة الجديدة من الضغط والحركة في الكون ما يدفعه على التمدد وما يجعل المجرات فيه تتباعد بسرعة هائلة. قد تبلغ نصف سرعة الضوء في الثانية: (١٥٠٠٠٠ كيلومتر/ ثانية)، ويتحقق قوله تعالى (وهو الحق قبلاً وبعداً) حيث يقول:

﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْي۟دٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [الذّاريات: الآية ٤٧].

والحديث العلمي عن السماء في هذه الآية إنما يتناول حدود الكون المرئي واتساع هذه الحدود أو تمددها بمضي الزمن. وهي ظاهرة أو نتيجة من أعجب ما توصل إليه العلم في السنين الأخيرة. ومعاني الآية في غاية الوضوح والجلاء، لا تحتاج إلى شرح أو بيان، إلا أن إعجازها العلمي أوضح وأروع.

فالمعروف علمياً أن وحدات الكون العظمى أو المجرات إنما تتباعد عن بعضها البعض بسرعة فائقة. ويزداد بذلك حجم الكون أو يتمدد وكلما تباعدت المجرات ازدادت سرعة انطلاقها في الفضاء اللانهائي، فقد شوهد قبلاً أن المجرات القريبة من مجرتنا بالذات إنما تتباعد بسرعة تقدر في حدود بضعة ملايين الأميال في الساعة الواحدة، وتصل سرعة تباعد المجرات الواقعة على أضعاف هذه المسافات من مجرتنا إلى حدود سرعة الضوء. أما فيما وراء ذلك من حدود فإن سرعة انطلاق المجرات إلى أعماق الفضاء قد تزيد على سرعة الضوء نفسه! خلافاً لنظرية (أينشتاين) في نظرياته النسبية بشأن السرعة والكتلة لجسم ما.

فلا يمكن بذلك للأضواء المنبعثة منها أن تصل إلينا. أي أنها في الكون غير المرئي، وعلى أية حالة، فإن الحد الفاصل بين ما يمكن أن نراه من الوجود المادي وما لا يمكن أن نراه هو المجرة التي تتباعد عنا بسرعة الضوء. وتبعد مثل هذه المجرة

عن مجرتنا في هذا العصر بنحو ٤ آلاف مليون سنة ضوئية.

ومجمل القول أنه نظراً لازدياد حجم الكون الذي نحن فيه، أو نظراً لتباعد مجراته تباعداً كبيراً بمضي الوقت، فإننا نستطيع أن نعرف نهاية هذا الكون بأنه الحد أو السماء الذي لا تستطيع المناظير المكبرة أو التلسكوبات الكبيرة جداً أن ترى ما بعده.

ويحتوي هذا الكون على أكثر من (١٠٠) ألف مليون مجرة. كلها آخذة في التباعد، وبذلك، فإنه من الممكن أن تختفي كلها وراء حدود الكون المرئي رويداً رويداً بمضي الوقت وازدياد سرعة تباعدها عن مجرتنا فوق سرعة الضوء وعندها تتوحد في كون فارغ من المجرات إلا مجرتنا! إلا أن الحقيقة أن هذا لن يحدث تماماً، ولن يصبح الوجود فارغاً على النحو الذي صورناه في يوم من الأيام، بل سيظل يعج بالمجرات كما نراه اليوم. على وجه التقريب. وعلة ذلك أنه تتولد فيه مجرات جديدة كلما اختفت المجرات البعيدة وراء الحدود المرئية. ويتم توليد هذه المجرات الجديدة من الدخان الكوني على نفس النمط الذي تولدت به المجرات القديمة وقد وضعت في نشوء الكون نظريات كثيرة على ضوء علم طبقات الأرض والكيمياء والفيزياء وعلم الأنواء والرياضيات، قبل لابلاس العالم الرياضي وبعده نظريات تفند وتجرح من حين إلى حين، ثم تأتي نظريات أخرى وتفند أيضاً وهكذا لحد اليوم. وقد يستنتج من النظريات السابقة ما يستفاد منها في وضع نظرية جديدة، ولكن العلم المادي لا يزال ناقصاً وسيبقى ناقصاً مهما كملت الآلات والأجهزة ومهما توغل العلم في استقصاء حقائق الذرّة والإشعاع ومعادلاتها، وهكذا تكون النظريات التي توضع على ضوئها ناقصة متزلزلة قابلة الجرح والتعديل.

ومن أراد استقصاء موضوع نشوء الكون بأسلوب علمي أي على ضوء الرياضيات العالية وعلم الذرة والكيمياء العالية والفيزياء العالية فليراجع كتاب (نشوء الكون) لمؤلفه (جورج كاموو)(١).

إنه تعالى يقول: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ [الإسرَاء: الآية ٨٥].

---

(١) The creation of universe.

﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾﴾ [الكهف: الآية ١٠٩] .

مع العلم أن النظرية: (theoreme) ليست معادلة رياضية مجردة عن التطبيق على الكونيات حتى تكون حقيقة ناصعة لا تقبل النقاش والرد.

فالمعادلات المجردة عن حدود التطبيق أي تطبيق الأبعاد والكتل والزمان وما إلى ذلك هي معادلات صحيحة منطقية لا تقبل الشك والارتياب ولها جواب يحقق التعادل أو المساواة في تلك المعادلة أو المتطابقة إلى ما هنالك.

ولكن لو كانت المعادلة تربط أجزاء الكون بعضها ببعض أو تفسر الحوادث الكونية كدستور نيوتون في الجاذبية تظهر فيها مواضع النقص أو الضعف، فتأتي دساتير (أينشتاين) مصححة لها. وقد يأتي بعد (أينشتاين) من يصحح نظريات (أينشتاين) ويجد فيها مواطن للطعن والنقد وهكذا.

فلا ينبغي لدارس هذه النظريات أن يراها حقائق ناصعة لا تقبل الشكل والتعديل، لاسيما النظريات التي توضع عن بزوغ الحياة وخلق الأحياء على وجه البسيطة، فإنها، مهما حاول المتتبع الإستقصاء والتحقيق لا تتجاوز عن كونها نظرية قابلة للجرح والتعديل كما يعرفنا بذلك كبار علماء الطبيعة مثل (الكسيس كارل) في كتابه (الإنسان ذلك المجهول).

ولكن هنالك متطفلين على العلم الحديث. لم يبلغوا من العلم ولاسيما الرياضيات العالية والفيزياء العالية وهما دعامتا العلم الحديث شأواً يعتد به يحكمون ويحتمون ويهوسون ويأخذهم الغرور إلى حد بعيد. فيرون النظرية حقيقة، فيسخرون من الذين يعارضونهم في الرأي. حين أن الموضوع لا يتجاوز مشاهدات معدودة لا يمكن الاستنتاج منها بالاستقراء إلا حكماً مبتوراً بعيداً عن الحق والحقيقة.

إنه تعالى يقول:

﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام: الآية ١١٦] .

﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا

يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾ [الأنعام: الآية ١١٦] .

﴿قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام: الآية ١٤٨] .

﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ [النجم: الآية ٢٣] .

﴿وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴿٢٨﴾﴾ [النجم: الآية ٢٨]

* * *

يقول جورج واينايس بيشوف، في كتابهما: «الشمس والأرض والإنسان»[1] .

ولقد مر على الأرض مئات الملايين من السنين منذ تكونت، ثم جاء أغرب حدث وأعجبه في تاريخ الكرة وهذا الحدث هو بداية الحياة، أما كيف جاءت الحياة في بدايتها أو كيف كان مظهرها، فإن العلم لعاجز عن معرفة ذلك، وكل ما يمكن أن يقال بشيء من التوكيد هو أن الحياة بدأت في المحيط الدافئ: الماء. وإن أول كائن حي لم يكن لا بالنبات ولا بالحيوان بل كان أباً للاثنين، وربما كانت الحياة الأولى على هيئة بقع من مادة حية أو كتل من مادة هلامية تشبه الجيلاتين في الشكل.

ثم هما يقولان: «وكان أعجب العجائب بعد بداية الحياة هو نموها وتطورها إلى النباتات والحيوانات المختلفة التي عاشت على هذه الأرض يوماً ما. ويطلق على دراسة هذه الكائنات الحية وكيفية نشوئها وتطورها الواحد من الآخر أو الأصح تلو الآخر، اسم: التطور».

ذلك لأن كل تغيير إنما يكون عن حكمة بالغة وهدف صحيح ولا مجال للصدفة أن تلعب دوراً ولو بسيطاً في هذا المضمار. إذ توالى مالا نهاية له من مراحل في عالم الخليقة وتشكلها بادئ ذي بدء من أجزاء شتى. ثم قطعها مراحل لا تعد ولا تحصى. مراحل مترتبة بعضها إثر بعض، مراحل متسقة ومتزنة. مراحل علمية ينحصر بها وجود هذا الكائن الجديد لا يمكن أن تحدث بالصدفة. وقد أثبت حساب الاحتمالات استحالة ذلك. إذ درجة الاحتمال تساوي $\frac{ب}{\infty}$ وهي الصفر وقد برهنّا على ذلك

---

(١) ص: ٤٤.

بطريق رياضي في أوائل الجزء الثالث من هذا الكتاب.

والطبيعة عمياء، لا تبصر المستقبل ولا تعلم إلى ماذا سيؤول الأمر وكيف يعيش الحي في ظروف مختلفة وتحت عوامل متعددة لاسيما الطفرات[١] التي يشاهدها المتتبعون في الكائن الحي، حتى يصبح شكلاً آخر ونمطاً آخر.

لذلك يقول العالم الطبيعي: (وهو قد لا يؤمن بالقدرة الإلهية، والدور العلمي الذي يسير عليه الوجود المادي):

قد نشأت الخلية الأولى قبل نحو سبعمائة مليون سنة أو أكثر حين شرعت الأرض تبرد. وتتخثر الغازات إلى سوائل. ثم تجمدت هذه إلى مواد صلبة. ومن العسير علينا أن نعرف تلك الحالة الأولى حين نبض الطين بالحياة، إذ أين كان النتروجين والكاربون والأوكسيجين والهيدروجين، وكيف كانت الأشعة الشمسية وأثرها في الغيوم التي كانت تكسو الكرة الأرضية، مع العلم أن الكرة الأرضية كانت تدور أسرع ما تدور الآن حول نفسها وحول الشمس.. كل هذا نجهله كما يجهل أحدنا ما يقوم به الكيماوي في معمله المقفل.

فترون أنه لابد لنشوء الخلية الأولى من عوامل متعددة جداً.

قد تُعد بالآلاف، لأن لكل عامل أيضاً، عوامل أخرى، وهكذا دواليك! حتى ينتهي إلى واجب الوجود، وهو الله الذي لابد من وجوده من الأزل، قبل كل شيء حيث لا زمان ولا مكان، لابد من وجوده كلما رجعنا إلى الماضي السحيق في حدود لا تتناهى.

وخير مثال لهذا، تركيب الصاروخ، إذ هو يتألف من ٣٠٠٠٠٠ قطعة على أقل تقدير. فهل يمكن أن تترتب هذه القطع بالصدفة. ثم لابد من وجود هذه القطع أو الأجزاء قبل تركيب الصاروخ. مهندسة كل واحد منها هندسة صحيحة من حيث الأبعاد والتركيب بحساب هندسي دقيق كي ينشأ من تركيبها على أساس علمي ومنطقي هذا الصاروخ الذي نراه.

---

(١) Motation.

وهل يمكن أن يقال: إن القطعة الأولى من هذا الصاروخ تعلمت كيف تنشىء وتهيء القطعة الثانية دواليك إلى ٣٠٠٠٠٠ قطعة فأكثر.

ولسائل أن يسأل: مم تعلمت القطعة الأولى، من كان المعلم لها؟ فإن قلنا بالتجربة، ففي أي مختبر أجريت التجارب حتى حصل بعد مشاهدات واستنتاج علم عن كيفية تهيئة القطعة الثانية بصورة هندسية صحيحة ومناسبة من قبل القطعة الأولى.

فإذا كان هذا القول بعيداً عن المنطق، فكذلك القول:

«كذلك تكونت أجنحة لبعض الزواحف الأخرى وتعلمت الطيران».

من الذي كوّن هذه الأجنحة، ولم تكن هنالك مدرسة عالية تعلم هندسة الطائرات وصنعها، فالطبيعة عمياء، ليس لها أن تفكر في المستقبل والصدفة لا تهندس ولا تنشئ، إنما تأتي الصدفة في دور التركيب بعد الإنشاء الهندسي.

ولو فكرنا في أنفسنا وتراكيب بدننا، علمنا أننا لم نتصرف فيها يوماً لتكون كذا ولا تكون كذا. لماذا لم نكون لأنفسنا أجنحة كالطيور ولـمَ لم نتعلم الطيران كما (تعلمت الزواحف) على ما جاء في التفكير المادي، حتى نغير في أجسادنا تغييراً يريحنا من عناء السفر المرير.

ويقول أيضاً مؤلفاً كتاب الشمس والأرض والإنسان «وقد مضت ملايين السنين قبل أن تظهر أولى النباتات على اليابسة وبظهورها تكونت لها جذور تعلقت بالتربة الحديثة وبالصخور كما أنها كانت تمتص الماء بواسطتها. كما تعلمت هذه النباتات بطريقة ما كيف نستخدم (الكربون) الموجود في الجو مع الماء في صناعة الغذاء».

انظروا إلى هذه الفلسفة المبتورة والمنطق السقيم، فإنه يقول: مضت ملايين السنين قبل أن تظهر أولى النباتات ولكن المؤلف يسكت عن بيان كيفية الظهور ومراحل الظهور وتكوُّن الجذور وتعلقها بالتربة وبالصخور وكيف امتصت الماء بواسطة الجذور. ومم تعلمت هذه النباتات بطريقة ما حتى تستخدم الكربون الموجود في الجو مع الماء في صناعة الغذاء. وكيف وجد الكربون في الجو وكذا الماء أو ليس الغذاء يصنع من عدة أجزاء وبعوامل مختلفة وقد أثبتنا أن الصدفة منتفية في جمع العوامل

والأجزاء لصناعة الغذاء في الجزء الثالث من هذا الكتاب فلابد من حكيم مدبر، دبر الأمور ورتبها أيما ترتيب حتى كان هذا الوجود بجماده ونباته وحيوانه وإنسانه.

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْآيَٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [الأنعام: الآية ٤٦] . (يعرضون).

* * *

أما الصدفة التي تلعب دوراً هاماً في الاكتشاف والاختراع، فإنها لطف رباني يتيحها لهذا الإنسان كي يستفيد مما أودع الله تعالى في الطبيعة من خواص الشفاء والغذاء والصناعات المفيدة إلى ما هنالك.

فالصدفة التي لعبت دوراً هاماً في كشف الأشعة السينية (Rayon x) هي لطف رباني، كان قد منَّ الله بها على (كروكس) وكذلك الصدفة في ربط الأسلاك الكهربائية بطريقة التوازي، والصدفة التي أتاحت لباستور العالم الفرنسي في استعمال التطعيم للقضاء على مرض الجدري وأمراض أخرى.

فالصدفة التي يمنحها الله تعالى تفضلاً منه للعالم حين تتبعه وقيامه بالتجارب ليس إلا لجعله واقفاً على ما أودع الله من قوانين وأنظمة وخواص موجودة قبل حدوث الصدفة في هذا الكون من جانب الله تعالى والصدفة المتاحة نوع تعليم من جانب الله تعالى لهذا الإنسان، فكأن الله يريد أن يكافئ هذا المخترع أو بلفظ أصح هذا المكتشف على تتبعه وجهوده، فيجعله يقوم بأعمال لا يعلم ماذا ينتج منها وإذا به يقف دونما انتظار سابق على خواص جديدة ومكتشفات حديثة.

لذلك، يرى كثير من المكتشفين أن يداً سحرية ترافقهم في مكتشفاتهم حتى المرحلة الأخيرة من ربط الآلات أو وضع المعادلات والدساتير!

أما الملحد الذي لا يؤمن بالله الذي بيده ملكوت كل شيء، يرى التغيرات والتطورات تأتي تباعاً وبطريق منطقي وتدرج علمي فكيف يفسر كل ذلك وهو لا يؤمن بالله الذي خلق المرحلة الأولى والأصل والأساس بما فيه من أجزاء وقوى وطاقات والمراحل التالية وما يحيط بها من عوامل ومؤثرات.. و...

إن الملحد ليعترف بالقصور الذاتي (Inestie) في الفيزياء فإذا جاء دور عزو المراحل وحدوثها وانتظاماتها: هذه المراحل التي لا تعد ولا تحصى، هذه المراحل التي تكاد لا تتناهى. . . . إلى خالقها وموجدها ومرتبها أحكم ترتيب، وهو الله تعالى، توقف الملحد وعزا كل ذلك إلى قوة يراها موجودة في ذلك الكائن الحي أو غير الحي، كالأكسيجين والنيتروجين، وقام بتطورات ذاتية في ذلك الموجود الحي أو غير الحي. تطورات متسلسلة على ضوء المنطق الصحيح. فكأنه يريد أن يقول: إن في ذلك الكائن الحي أو غير الحي عقلاً يدبر نمو وتكاثر هذا الكائن حين أن هذا الملحد مع ما أوجد الله فيه من عقل لا يقوى على أن يغير ما في نفسه أو بدنه شيئاً، ولا يعلم كيف وجدت عينه أو أذنه أو شامته. . . الخ. . .

* * *

وهكذا، ترون، يقول أحد هؤلاء الماديين: «ليس لأحد يمكنه الآن أن يجزم في شيء عن أصل المادة ونهايتها». وقد قرر (كوستاولوبون) بالتجربة أن المادة تفنى وتعود أثيراً غير محسوس.

ويقول المادي: لا نعلم شيئاً عن كيفية تطور المادة، والشك لا يزال قائماً عن هذا الكون هل هو متناه أو غير متناه.

فترون أنّ المادي، يبني فلسفته على أشياء يجهلها هو ولا يعلم حقيقتها وكيفية نشوئها وتطورها وقطعها المراحل ثم وجود هذا الكائن الحي بعد ذلك على وجه البسيطة.

كان يقول بركسن: Bergson الفيلسوف الفرنسي:

إن الحياة مبدأ أو عنصر أو فكرة مستقلة عن المادة، وأنها إنما تستخدم المادة فقط كي تبدو أو تتمثل في أجسام الأحياء. ويقول أنه ليس بعيداً أن تتخلص الحياة من المادة في المستقبل وتحيى الأحياء بلا أجسام. والمادي يعترف قائلاً: لسنا نعرف ماهية الحياة الأولى، فربما كانت أبسط من الخلية وذلك لأن الخلية الأولى كانت من الصغر ولين المادة الهلامية بحيث إذا ماتت لم يبق لها أثر يشهد على وجودها كبقية المتحجرات Focils، ثم يعرِّف المادة قائلاً: لا نعرف كيف دبَّت الحياة في الخلية

الأولى. . . ويقول المادي: «لقد مضى زمن كان يحسب فيه الناس أن هناك تشابهاً عظيماً بين تكون المبلورات كالبرَد والثلج والألماس وبين تكون الحياة. ولكن الفرق عظيم بين الاثنين، فالتبلور يحدث بالإضافة الخارجية، أما الحي فينمو بالتمثيل الداخلي، أي أنه يحتوي على مادة جامدة أو حية، ثم يهضمها ويجعلها مثله، وهو يقول: إن دبيب الحياة الأولى في الجماد لا يزال سراً، وإنما المقرر المعروف: أنه ليس في الحي عنصر أو مركب لا نجده خارجاً في الجماد.

فالجسم الحي مؤلف من الكاربون والنيتروجين والأوكسيجين والايدروجين والكبريت وجملة أملاح أخرى. وبعض المركبات التي يصنعها الجسم الحي مثل النشا والبول والكئول يمكن صنعها الآن في المعامل الكيميائية. إلا أننا لو جمعنا المواد المؤلفة منها الحي لما أمكننا مع ذلك أن نصنع خلية حية»[1].

وهذا اعتراف جميل: أن الحيوية شيء آخر، غير المواد. وإن العلم الحديث يجهل تكوّن الخلية الأولى بما فيها من حيوية، ولقد بسطنا القول في هذا المقام في الجزء الأول من التكامل ص: ١٨٢ وفي الجزء الثاني: ص: ٢٨٥.

* * *

وعندما كنت أكتب هذا المقال، شاهدت عصفوراً كان قد دخل من ثقب في نافذة من نوافذ الغرفة: ولم يستطع العود إلى الحديقة فصار يطير ساعات هاهنا وهاهنا، ويصطدم بالنافذة والزجاج تارة بعد أخرى، وهو لا يهتدي إلى سبيل، مع أني قد فتحت له نافذة كان في إمكانه أن يفرّ منها، لأن الشبكة السلكية كانت ممزقة والطريق مفتوح أمامه. وهكذا بقي حائراً مضطرباً، حتى جاء ولدي محمد أخذه وأخرجه إلى الحديقة بيده!

فلو كان لهذا العصفور أدنى تصرف في صنع أجهزة بدنه الدقيقة التي قد بلغت من الدقة واتقان الصنع ما يجب أن يكتب في آلاف الصفحات لوجد طريقه من تلك النافذة المفتوحة إلى الخارج ونجا فوراً.

---

(١) نظرية التطور واصل الإنسان. لسلامة موسى، ص: ٤٥.

كل ذلك يدلنا على أن الكائن الحي بأنواعه المتنوعة وتطوراته المختلفة وتكامله المادي البطيء أو السريع وطفراته ونموه العقلي أو الغريزي، ليس له أدنى تصرف من تلقاء نفسه، وكل ما يحدث في داخله وكيانه إنما هو بأمر من الله وإرادة الله ومشيئة الله وقدرة الله التي لا تتناهى.

فليست نظرية التطور إن صحت في بعض المجالات إلا بياناً لما ألهم الله هذا الكائن الحي من مراحل لا تعد وأراد تحقيقها بمشيئته، إذ هو الذي هيأ له الظروف والكفاءات والقابليات إلى ما هنالك.

وخير دليل على ذلك بقاء كثير من الكائنات الحية في حدود معينة من التكامل المادي، مع أن جهاز الهضم مثلاً من حيث الدقة وحين الصنع هو نفس الجهاز في كائن حي آخر أرقى في عالم التفكير والحياة الاجتماعية.

فالتفكر في الموجودات في معزل عن يد ربانية مسيرة بشكل لا نفهمه ولا نعلمه تفكير مبتور يؤدي إلى فلسفة ضالة، تسوق الإنسان إلى جهل مرير.

﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَـٰرُ وَلَـٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: الآية ٤٦].

* * *

فالنفوس الضالة، أو بالأحرى: النفوس الشريرة التي تحجرت بآثامها وفسوقها وكبريائها، فجحودها، تكون فلسفتها فلسفة خيالية، مضلة فلا تتوجه إلى الحق المتعال، بل يكون استنتاجها الفكري الحاداً وزندقة لعمى القلب من جراء الفسوق، «وإن أعمى العمى عمى القلب» كما جاء في الحديث.

﴿بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّنْهَا ۖ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴿٦٦﴾﴾ [النمل: الآية ٦٦]

﴿۞ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿١٩﴾﴾ [الرّعد: الآية ١٩].

﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَـٰتُ وَٱلنُّورُ ۗ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَـٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ ٱللَّهُ خَـٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّـٰرُ ﴿١٦﴾﴾ [الرّعد: الآية ١٦].

﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأنعام: الآية ٥٠] .

وفي الحديث: «ما ضرب ابن آدم بعقوبة أشد من قسوة القلب».

وإن الله لا يضل إلا من تردى وضل بسوء اختياره وكثرة آثامه ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ﴾ [غافر: الآية ٣١] .

إنه تعالى يقول: ﴿وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: الآية ١٢٥] .

بسوء اختيارهم وذلك لذنوب كثيرة أدبرت لذاتها وأقامت تبعاتها. فطريق الحق مغلق على النفوس المتحجرة ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ [الأنعام: الآية ٢٥] فتكون فلسفتها إلحادية غير منطقية، مبتورة، مستندة على أساس أوهن من بيت العنكبوت، ذلك أنك لو تدرجت مع هذا الفيلسوف! نحو المراحل الأولى من الخليقة، قال لك: «إني لا أعلم، ولا يزال العلم يجهل ذلك، أو لم يحن الوقت ليكتشف العلم حقيقة هذا السر. ولكن الزمان كفيل بذلك!!. ».

كلام سوفسطائي يخدع النفوس المنحرفة، الأثيمة الحالكة التي لا تبصر نفسها ومالها من عوالم شتى ليس لها أدنى تصرف في تغييرها وتعديلها لذلك يقول تعالى: ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الذاريات: الآية ٢١] .

﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ [الأنعام: الآية ٣٩] .

ولا يكون التكذيب إلا من جراء تلوث النفوس بالذنوب والظلم والفساد في الأرض.

هذه سنة الله في أرضه: ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ [فاطر: الآية ٤٣] .

والله تعالى قد أخبرنا في كتابه المجيد، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، عن هذا الإنسان الجاحد العدو لله الذي مَنَّ عليه بأنواع النعم، نِعَم لا تعد ولا تحصى، بقوله جلَّ من قائل: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ [يس: الآية ٧٧] .

كيف يفسر لنا المادي ما يصنعه النمل الأبيض في أفريقيا من مستعمرات ضخمة من الطين مخلوطاً بلعاب فمه، وكل منها برج شامخ في الهواء ارتفاعه عن سطح الأرض حوالي ٦ أمتار ومحيط قاعدته قد تصل إلى ١٥ متراً ولا يمكن هدم هذا البرج إلا بالديناميت. ويصنع النمل بالقرب من هذا البرج في جهة أخرى حصناً صمم بطريقة خاصة إذا سألت عنه أحد الأهلين فسيخبرك أنه البوصلة. وبواسطة هذا المبنى يستطيع الأهالي معرفة الجهات الأصلية في الصحاري والجبال.

ذلك، لأن لها سطحين عريضين، أحدها يشير إلى الشرق والآخر يشير إلى الغرب وسطحين ضيقين متجهين إلى الجنوب وإلى الشمال ولا يمكن أن تشذ عن هذه القاعدة أي مستعمرة من مستعمرات هذا النوع من النمل. ولهذا يثق الأهالي في ذكائه الغريب، ولم يستطع أحد أن يعرف الحكمة التي تكمن وراء هذا النظام.

ففي أية مدرسة عالية تعلم النمل الأبيض صنع بروج شامخة لا يمكن هدمها لما فيها من صلابة إلا بالديناميت، وممّ تعلم صنع المزولة لتعيين الجهات الأربع؟ لماذا لا يستطيع القرد صنع المزولة وجعل لعاب فمه من حيث التركيب الكيمياوي كما في النمل الأبيض، وهو على ما يقوله البعض أقرب إلى الإنسان من حيث التشكيلات الجسدية فحسب؟

إذن ليس التطور في الحيوانات والحشرات وغيرهما بتطور ذاتي، وإنما يد ربانية ومشيئة إلهية تتصرف في ما خلق عن حكمة بالغة كي يرى الناس آثار عظمته تعالى في الآفاق والأنفس: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾﴾ [فُصّلَت: الآية ٥٣].

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ۖ لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ[1] ﴿١٠﴾ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَـٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً

---

(١) تسيمون: تر[illegible] دوابكم، ذرأ: خلق، مواخر: تشق الماء بجريها رواسي: جبالاً ثوابت.

تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾ وَأَلْقَى فِي
الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ
﴿١٦﴾ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ
رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾﴾ [الأعراف: الآيات ١٠/١٨].

عوالم القدس

ليس الإنسان هذا البدن فحسب، أي ليس الإنسان مجموعة كذا غراماً من الآزوت وكذا غراماً من الكالسيوم وكذا غراماً من الفوسفور وكذا غراماً من الهايدروجين ومن الأوكسيجين، إلى ما هنالك من عناصر، كما يقوله المادي. إنما هو نفس حساسة وروح فياضة وعقل وشعور وإحساسات وأمان وعواطف وميول إلى ما هنالك.

فالإنسان إنسان بنفسه لا بعضلاته وعظامه ودمه ولحمه وبما يؤلف بدنه من عناصر.

إن الأعضاء المادية التي تشكل هذا البدن تساعد الإنسان لبلوغ أمانيه ولبلوغ تلك الغاية التي خلقه الله تعالى لأجلها. ألا وهي معرفة الله جلَّ وعلا. وقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات: الآية ٥٦] دليل واضح على أن العلة الغائية من وجودنا في هذه الدنيا إنما هي عبادة الله تعالى وتوحيده وتقديسه والتقرب إليه، ثم معرفته. ذلك، لأن العبادة بما فيها من تسبيح وتحميد وخشوع وخضوع وصلاة وصوم وحج وزكاة وخمس وصبر على النوائب وأخلاق فاضلة والقيام بأعمال صالحة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مقدمة لمعرفة الله تعالى.

فلا يمكن الوصول إلى معرفة الله، معرفة تتناسب مع الاستعداد البشري إلا بعبادة مقبولة، بكل ما في العبادة من معنى واسع مع خشوع وخضوع. فكلما شعر الإنسان أنه يذوب حباً لله ويزداد له خشوعاً وإنابة علم أنه يتقرب إلى الغاية التي خلق لأجلها، ألا وهي معرفة الله جلّت قدرته.

هل شعرت في صلاتك بانجذاب نحو المبدأ الأعلى وحبور وسرور من جراء هذا الانجذاب اللاهوتي؟

هل دمعت عيناك وأنت في صلاتك عند تلاوة بعض الآيات من كتاب الله المجيد؟ وهل عرجت نفسك أثناء القنوت وأنت رافع يديك نحو السماء إلى معالم قدسية تفوق حدود الوصف والتعريف؟

وهل أحسست عند قراءتك دعاء كميل ليلة الجمعة وأنت تناجي ربك عن قريب، ذليلاً، خاشعاً، معترفاً بذنوبك، ودموعك تنهمل على خديك ندماً وتأسفاً بانجذاب روحي نحو الله الذي لا تتناهى عظمته. فزدت فرحاً لا يشبه أفراح الدنيا المشوبة الزائلة في شيء؟.

وهل شعرت بعد الانتهاء من دعاء كميل كأنه حملاً قد وضع عن كاهلك، وقد أصبحت في عالم آخر قد رفع عنك أوزار الذنوب والآثام ورفع عنك الحجاب على قدر معرفتك بالله المتعال. . أو بالأحرى على قدر طهارة نفسك؟

وهل حضرت المآتم الحسينية، فصرت تذكر تلك التضحية الغالية التي عجز عنها الأنبياء ﷺ، تذكر مناجاة أصحاب الحسين ﷺ في ليلة العاشر من محرم ولهم دوّي كدوّي النحل بين راكع وساجد وقائم وقاعد؟ هل ذكرت كيف يستسقي ﷺ لطفله الرضيع والقوم أبوا أن يرحموه، فقال ﷺ: «هوّن عليّ ما نزل بي أنه بعين الله» وانهملت دون إرادة منك دموعك، فدخلت في ذلك العالم الروحاني الرقيق الذي كان قد دخل فيه أصحاب الحسين ﷺ ليلة العاشر من محرم ويومه؟

وهل وُفقتَ أن تقوم جوف الليل وتصلي ركعات ثم تناجي ربك بقلب ملؤه الإخلاص وقد اغرورقت عيناك بالدموع حزناً على ما فرطت في جنب الله، وفرحاً بهذا المثول اللاهوتي، المثول بين يدي رب العالمين، وصرت تفكر في عوالم الآخرة وعظمة الله تعالى وموقفك الضئيل منه، وشعرت إذ ذاك أنك تدخل في عالم جديد، عالم بعيد عن عالم المادة الحالك كل البعد، عالم كله صفاء وعلو وارتفاع؟

وهل وُفقتَ أن تخاطب الله تعالى في قنوتك قبيل الفجر قائلاً بكل خشوع واسترحام: «إلهي أسأت وظلمت نفسي وبئس ما صنعتُ وهذه يداي يا رب جزاءاً بما كسبت وهذه رقبتي خاضعة لما أتيت وها أنا ذا بين يديك، فخذ لنفسك من نفسي

الرضا حتى ترضى، لك العتبى لا أعود. . . ثم، تقول وقد ملئت حزناً وبكاءاً وندامة هذا مقام العائذ بك من النار (٧ مرات)؟ ».

وهل ناجيت الله تبارك وتعالى، بعد الانتهاء من صلاة الليل، صلاة المتهجدين، الخاشعين، صلاة المستغفرين بالأسحار[1] قائلاً: «إلهي غارت نجوم سماواتك وهجعت عيون أنامك وأبوابك مفتّحة للسائلين، جئتك لتغفر لي وترحمني وتريني وجه محمد ﷺ في عرصات يوم القيامة، ثم تبكي وتقول ـ كما كان يفعل إمامنا زين العابدين عليه السلام: وعزتك وجلالك، ما أردت بمعصيتي مخالفتك وما عصيتك إذ عصيتك وأنا بك شاك ولا بنكالك جاهل، ولا لعقوبتك متعرض، ولكن سولت لي نفسي وأعانني على ذلك سترك المرخى عليَّ فالآن من عذابك من يستنقذني وبحبل مَن اعتصم إن قطعت حبلك عني، فواسوأتاه غداً من الوقوف بين يديك إذا قيل للمخفين جوزوا وللمثقلين حطوا، أمع المخفين أجوز، أم مع المثقلين أحط، ويلي، كلما طال عمري كثرت خطاياي ولم أتب، أما آن لي أن استحي من ربي، وتبكي وتقول:

أتحرقني بالنار يا غاية المنى فأين رجائي ثم أين محبتي
أتيت بأعمال قباح زرية ومافي الورى خلق جنى كجنايتي»[2]

وهل خاطبت الله تعالى يوماً في معزل عن الناس وناجيته مناجاة التائبين، قائلاً: «إلهي ألبستني الخطايا ثوب مذلتي، وجللني التباعد منك لباس مسكنتي وأمات قلبي عظيم جنايتي، فأحيه بتوبة منك يا أملي وبغيتي ويا سؤلي ومُنيتي، فوعزتك ما أجد لذنوبي سواك غافراً، ولا أرى لكسري غيرك جابراً. وقد خضعت بالإنابة إليك وعنوت بالاستكانة لديك، فإن طردتني من بابك فبمن ألوذ، وإن رددتني عن جنابك فبمن أعوذ. . . الخ»[3].

---

(١) ﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ﴾ [آل عِمران: الآيتان ١٦/١٧].

(٢) بحار الأنوار: ج٤٦، ص٨١، باب ٥.

(٣) بحار الأنوار: ج٩١، ص١٤٢، باب ٣٢.

فدخلت في عالم جديد من عوالم القدس، قد رفع الحجاب إذ ذاك بينك وبين خالق السماوات والأرضين وبلغت مرتبة مرموقة من اليقين. وهل تلوت القرآن قُبيلَ الفجر بصوت حزين، مفكراً في آياته، متدبراً معانيه، وقد ألهمت من جانب الله تعالى معاني جديدة لم تكن تتلقاها في وقت آخر أو بالتعلم، وقد عرجت بك هذه المعاني إلى عوالم سامية رفيعة يستحيل بيانها وشرحها باللسان والبنان؟.

وهل وقفت مع الحجاج يوم عرفة عند العصر عندما تأخذ الشمس بالأفول وقرأت دعاءاً كان يقرأه أبو عبدالله الحسين عليه السلام بخشوع وخضوع ودموع. فترى كيف أن النفس تخرج من عوالم الناسوت صاعدة نحو عوالم الملكوت، وكيف تخرج من حضيض المادة العمياء إلى العالم العلوي، إلى معالم القدس، فتسبح في عوالم قدسية ليس لهذه الألفاظ أن تعبرٍّ عنها، فقد بلغت من القدسية مرتبة تفوق تعبير المعبرين وبيان البلغاء المفوهين؟.

وهل وفقت إلى خدمة جارك المريض من أول الليل إلى السحر، تجلب له الطبيب وتقدم له الدواء وتسليه وتداريه وتقرأ له الأدعية المأثورة للشفاء وخالفت هواك في ميلها إلى الراحة والنوم، كل ذلك طلباً لمرضاة الله وشعرت إذ ذاك براحة الضمير وحبور ناصع لا يشبهه أي حبور، حبور يسمو على البيان والتعبير، فكنت مصداق هذا الحديث النبوي: «من سرته حسنته وأساءته سيئته فذلكم المؤمن» فبلغت إذ ذاك مرتبة مرموقة من الإيمان تقارب مرتبة اليقين: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ﴾ [هُود: الآية ١١٤]».

وهل وفقت أن تذهب من تلقاء نفسك إلى قرية من القرى لوجه الله دون أن تُعلم أحداً بذلك، فتجتمع بالمؤمنين وتستعين بهم في هداية الشباب إلى دين الله القويم، ودفع ما يختلج في صدورهم من شبهات جاءت من دسائس المستعمرين وكيد الكائدين، فتنور قلوبهم بمعالم الدين وسنة سيد المرسلين والأئمة الأطهار سلام الله عليهم أجمعين؟

كل ذلك من عوالم القدس يقربك إلى سعادة حقيقية، سعادة فيها الزلفى والقربى من الساحة الملكوتية وهي غاية الغايات.

ليست السعادة في نيل أموال طائلة وقصور مشيدة ورئاسة إلى ما هنالك، فقد قال الله تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [القَصَص: الآية ٨٣] . وفي الحديث: عن أبي الحسن عليه السلام أنه ذكر رجلاً فقال: إنه يحب الرئاسة، فقال: ما ذئبان ضاريان[١] في غنم قد تفرق رعاؤها بأضرّ في دين المسلم من الرئاسة[٢] .

عن أبي عبد الله عليه السلام قال: من طلب الرئاسة هلك[٣] .

وعن عبدالله بن مسكان، قال: سمعت أبا عبدالله عليه السلام يقول: إياكم وهؤلاء الرؤساء الذين يترأسون، فوالله، ما خفقت النعال خلف رجل إلا هلك وأهلك[٤] .

وقد قال أبو عبدالله عليه السلام: ملعون من ترأس ، ملعون من همّ بها، ملعون من حدث بها نفسه[٥] .

وعن أبي حمزة الثمالي، قال: قال لي أبو عبدالله عليه السلام: إياك والرئاسة وإياك أن تطأ أعقاب الرجال، قال: قلت: جُعلت فداك، أما الرئاسة فقد عرفتها، وأما أن أطأ أعقاب الرجال، فما ثلثا مافي يدي إلا مما وطئت أعقاب الرجال، فقال لي ليس حيث تذهب، إياك أن تنصب رجلاً دون الحجة، فتصدقه في كل ما قال[٦] .

عن أبي الربيع الشامي، عن أبي جعفر عليه السلام: قال: ويحك يا أبا الربيع، لا تطلبن الرئاسة ولا تكن ذئباً. ولا تأكل بنا الناس، فيفقرك الله، ولا تقل فينا مالا نقول في أنفسنا، فإنك موقوف ومسؤول لا محالة، فإن كنت صادقاً صدقناك، وإن كنت كاذباً كذبناك[٧] .

وعن ابن مياح عن أبيه، قال: سمعت أبا عبدالله عليه السلام يقول: من أراد الرئاسة هلك[٨] .

وعن محمد بن مسلم، قال: سمعت أبا عبدالله عليه السلام يقول: أترى لا أعرف خياركم من شراركم. بلى والله وإن شراركم من أحب أن يوطأ عقبه، أنه لابد من كذاب أو عاجز الرأي[٩] .

إنما تتحقق السعادة في قطع مراحل في عوالم التقوى والتزكية، مراحل تقرب هذا

---

(١) الضاري: من الحيوانات كالأسد والنمر.

(٢)-(٩) أصول الكافي: ج٢، ص٢٩٨، باب طلب الرئاسة.

الإنسان إلى ربه المتعال، توصله إلى الغاية التي خلقه الله لأجلها.

﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ [الواقعة: الآيات ١٠/ ١٢].

ليست السعادة على ما جاء في بعض كلمات فلاسفة الغرب: «أن يتناول الإنسان صبيحة يوم ممطر بارد أشد البرد كوباً من الحليب على فراش وثير في غرفة دافئة، إنها نظرة مادية حالكة سخيفة، توصل الفرد إلى الحضيض». ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِيٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ﴿٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ [التين: الآيات ٤/ ٦].

* * *

فالسعادة أن تُصلح ما بك من صفات وقوى على وجه يريده الله تعالى، تصلحاً جميعاً دون تبعيض وبصورة دائمة، حتى تتكون فيك عادة متأصلة لا تغيرها الأحوال والأزمان، ولا تزول مع الحوادث والمصائب. فيقينك إذ ذاك ثابت لا تؤثر فيه الشبهات، وشكرك دائم لا يزول مع المحن والنوائب، وصبرك حاكم لا يزول مع الفتن والأحداث، وإحسانك أبدي لا يزول بالإساءة، وصداقتك مستقرة لا تزول بالعداوة، فالسعيد من تطهر من جميع الخبائث الجسمانية والأقذار الحيوانية، فلا يحوم حوله شيء من العوارض الطبيعية[(١)]، إنه ممتلئ من الأنوار الإلهية والمعارف الحقيقية، فعلينا أن نتأسى برسول الله ﷺ لنيل بعض هذه المراتب ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: الآية ٢١]. فمن بلغ هذه المرتبة فقد فاز بالبهجة الإلهية واللذة الحقيقية، لذة تفوق اللذات بأسرها، وانتعاش نفسي لا يدنو منه أي انتعاش.

السعادة لحظات انخطاف تحلق بالنفس البشرية وراء حدود المكان والزمان. فتضع عنها آصار المادة وتحررها من أوضار الحقد والأثرة فلا ترى إلا الجمال ولا تستشعر سوى الحب.

فإذا هي واقع يعيشه المؤمن سلاماً لا قلق فيه، وغبطة لا كدر معها وطهراً روحياً لا يتسلل إليه ضغن.

وأية غبطة يمكنها أن تضاهي تلك التي يستشعرها المؤمن هناك؟ وفي هذه الغمار

---

(١) جامع السعادات، ج١/ ١٤٧.

النورانية يعيش الإنسان آمن السرب مطمئن القلب، خالي الذهن من كل شاغل يصرفه عن الاستغراق في ملكوت الله. أو ليس في هذا السلام والطمأنينة والأخوة الضالة التي يفتش عنها المفكرون، ويتلهف إليها الحزانى والمعذبون.

فالإنسان بأخذه المعارف الإلهية واقتفاء الفضائل الخلقية يعرج إلى أفق الملائكة.

ولنصغ إلى موعظة أخلاقية للشيخ الفاضل أحمد بن محمد بن يعقوب بن مسكوية: الأستاذ في علم الأخلاق وأقدم المسلمين في تدوينه؛ إنه يقول:

«إني تنبهت من نوم الغفلة بعد الكبر واستحكام العادة، فتوجهت إلى فطام نفسي عن رذائل الملكات وجاهدت جهاداً عظيماً حتى وفقني الله لاستخلاصها عما يهلكها، فلا ييأس أحد من رحمة الله، فإن النجاة لكل طالب مرجوة وأبواب الإفاضة أبداً مفتوحة».

«فبادروا إخواني إلى تهذيب نفوسكم قبل أن يصير الرئيس مرؤوساً والعقل مقهوراً. فيفسد جوهركم وتمسخ حقيقتكم ويدرككم الانتكاس في الخلق الذي هو خروج عن أفق الإنسان ودخول في زمرة البهائم والسباع والشياطين نعوذ بالله من ذلك ونسأله العصمة من الخسران الذي لا نهاية له. وقد شبه الحكماء من أهمل سياسة نفسه الغافلة بمن له ياقوتة شريفة حمراء فرماها في نار مضطرمة فيحرقها، حتى تصير كلساً لا منفعة فيها»[١].

فطوبى لنفوس عاشت ما ذكرنا من عوالم قدسية، فبلغت في عوالم القدس مقامات رفيعة، وتخلصت من أدرانها وأوضارها، فشعرت حبوراً فوق حدود الوصف بهذا الاتصال اللاهوتي واطمأنت بأذكارها وأورادها ومثولها بين يدي رب العباد ليل نهار. ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرّعد: الآية ٢٨] فأصبحت من النفوس المطمئنة، بعد أن كانت لوامة، فصار لها أنوار قدسية يمن بها الله على المطهرين من عباده الصلحاء: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ [الأنعام: الآية ١٢٢].

وطوبى لنفوس بلغت من الصفاء والجلاء حتى استفادت من الأنوار الإلهية

---

(١) جامع السعادات: ج١، ص٤٩، من كلام المولى محمد مهدي النراقي.

والإلهامات الحقة الربانية. وحصلت على علم هو «نور يقذفه الله في قلب من يشاء». فكانت مصداق قول الإمام علي عليه السلام حيث يقول:

«إن من أحب عباد الله إليه عبداً أعانه الله على نفسه فاستشعر الحزن وتجلبب الخوف. فزهر مصباح الهدى في قلبه» إلى أن يقول: «قد خلع سرابيل الشهوات. وتخلى من الهموم إلا هماً واحداً انفرد به فخرج من صفة العمى ومشاركة أهل الهوى، وصار من مفاتيح أبواب الهدى. ومغاليق أبواب الردى، قد أبصر طريقه وسلك سبيله وعرف مناره، وقطع غماره[1]، واستمسك من العرى بأوثقها ومن الجبال بأمتنها فهو من اليقين على مثل ضوء الشمس»[2]. ويقول عليه السلام في كلام آخر:

«قد أحيى قلبه وأمات نفسه حتى دق جليله ولطف غليظه، وبرق له لامع كثير البرق، فأبان له الطريق وسلك به السبيل، وتدافعته الأبواب إلى باب السلامة ودار الإقامة، وتثبت رجلاه لطمأنينة بدنه في قرار الأمن والراحة بما استعمل قلبه وأرضى ربه»[3].

العلوم الكونية في القرآن

سؤال:

دارت بيني وبين أحد الإخوان مناقشة حول الاختراعات الحديثة الميكانيكية التي توصل إليها المخترعون على مختلف جنسياتهم، مما دعا أحدنا أن يقول: إن لهذه المخترعات علاقة وثيقة بالقرآن الكريم، وإن هؤلاء المخترعين لم يتوصلوا إلى ما توصلوا إليه لولا القرآن الكريم، وقال الآخر عكس ذلك. نرجو توضيح هذا. وإليكم قسماً من الاختراعات التي دارت المناقشة حولها:

التلفزيون، الطائرة، الراديو، التلفون.

داود السعدون

---

(١) غمرة الشيء، شدته ومزدحمه، جمعه: غمرات وغمار ومنه غمرات الموت أي: مكارهه وشدائده.

(٢) نهج البلاغة: ص١١٨، خ٨٧.

(٣) نهج البلاغة: ص٣٣٧، خ٢٢٠.

بسم الله الرحمن الرحيم

الجواب:

ليس القرآن الكريم كتاباً يبحث عن علم الميكانيك العملي أو الرياضي والكيمياء الصناعية أو العضوية أو علم الفيزياء النظرية أو العملية أو علوم أخرى لها علاقتها بالمخترعات الحديثة، ذلك لأن هذه العلوم تستند إلى مقدمات مفصلة وكثيرة يحتاج شرحها وبيانها إلى آلاف الصفحات، وإن تاريخ العلوم يشرح لنا جانباً منها، وما اكتشف في الميكانيك أو الفيزياء أو الكيمياء قليل جداً بالنسبة إلى ما أودع الله من قوانين كونية في هذا الكون الرحيب. وإن العلماء الكونيين ليعترفون بذلك فهم كلما اكتشفوا شيئاً نادوا بأعلى أصواتهم: أنهم أمسوا أمام أودية من المجاهيل! حتى أنهم ليشكّون في بعض ما اكتشف من قوانين لحد الآن، ويرونها لا تنطبق إلا في مجال محدود، ولذلك عمد أينشتاين إلى تصحيح دساتير (نيوتون) في الجاذبية.

فلو أراد الله تعالى تعليم البشر العلوم الكونية أو المادية لاحتيج في تدوينها إلى ما لا يتناهى من الصفحات، ذلك لأن ما أودع الله من خواص وصفات وكيفيات وقوانين ودساتير في ربط أجزاء هذا العالم المادية بعضها ببعض وانقلاب هذه المادة إلى طاقات أو الطاقات إلى مادة إلى ما هنالك من تفاعلات ومفاعلات تكاد لا تتناهى، حسب قوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾﴾ [الكهف: الآية ١٠٩].

ولكنه تعالى جهز العقل الإنساني بقابليات وقوى من استنتاج واستقراء وتجريد وتعميم وتخيل وتصور وتداعي الأفكار إلى ما هنالك كي يتمكن الإنسان بمعونتها من كشف ما يجهله بإذن الله تعالى. على أن الصدفة تلعب دوراً كبيراً في المخترعات، وليست الصدفة إلا يداً ربانية تهيء للمخترع مصادفات تتجلى له كثير من الحقائق والصفات والحالات بل والدساتير.

وقد قال عزَّ من قائل: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾ [البَقَرَة: الآية ٣١] وهذه الأسماء

هي القابليات المكنونة في العقل الإنساني والتي بها يتمكن من الكشف والاكتشافات بإذن الله تعالى.

وهذا (پوانكاره) من أعاظم رياضيي فرنسا كان يقول: إن ريشة سحرية كانت تملي عليَّ المعادلات وطرق الحل والدساتير. وبمثل ذلك كان يقول أينشتاين، أعلم علماء القرن العشرين.

إن القرآن ليس كتاب جبر أو هندسة أو الحساب التمامي والتفاضلي، وإنما هو مجموعة دساتير تهدي هذا البشر سواء السبيل، سبيل لا يقوى أعظم الفلاسفة أن يحدها أو يعينها، لأن نفس هذا الفيلسوف متأثرة بمحيطه وبيئته. فنفسه نفس غير متكاملة، وأنى لنفس غير متكاملة أن تأتي بدساتير كاملة لإسعاد البشر في النشأتين. ولذلك كان من لطف الله أن يرسل أنبياء مبشرين ومنذرين لهداية البشر وإسعادهم في النشأتين عملاً بسنة الكمال. ذلك لأن الكمال ضارب بأطنابه في عوالم المادة أي في كل ما خلق الله تعالى في هذا الكون المادي، ولا ينبغي أن يشذَّ هذا الإنسان عن هذا الكمال، ذلك لأن الله تعالى وهو الكامل على الإطلاق لا يصدر منه إلا الكمال، فأرسل الأنبياء وأنزل معهم الكتب المقدسة تحقيقاً لسنة الكمال وتعميماً لتحقق الكمال في كل ما خلق من نفوس وأرواح ومواد إلى ما هنالك.

وإن قوله تعالى: ﴿وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعَام: الآية ٥٩] أي ما من شيء إلا وعلمه عند الله تعالى أو في اللوح المحفوظ ولا يراد في الآية من (كتاب مبين) القرآن حتى نقول: ما من علم إلا وهو في القرآن.

فالقرآن كتاب تهذيب وهداية، كتاب تزكية وتطهير لنفوس البشر الضالة. وهو القائل: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [التوبَة: الآية ٣٣].

﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾﴾ [الجُمُعَة: الآية ٢].

القرآن موصل هذا الإنسان إلى ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على

قلب بشر. القرآن يوصل البشر ـ لو عمل به ـ إلى جنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين.

في القرآن آيات جمة تبلغ ٧٥٠ آية تعطينا عصارات العلوم الحديثة وما توصلت إليه المكتشفات في شتى النواحي وما ستصل إليه في المستقبل فقد قال ابن عباس: «إن في القرآن معاني سيكشفها الزمن».

كان العلم الحديث يجهل إلى قبل خمسين عاماً أن للشمس حركة خاصة بها. ولكن القرآن كان ينادي منذ ١٤ قرناً: ﴿وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ٣٨﴾ [يس: الآية ٣٨]. حتى إذا تقدمت العلوم الرياضية بما فيها الميكانيك الرياضي واخترعت تلسكوبات كبيرة جداً علموا أن الشمس تتحرك في الفضاء بحركة لولبية أي تسير في الفضاء بسرعة قدرها ٧٢٠٠٠ كيلومتراً في الساعة على وجه التقريب نحو نجمة تسمى بالنسر الواقع على شكل لولبي (المنحنى اللولبي). فالقرآن في علومه سابق للعلم الحديث ولكن بإعطاء النتيجة النهائية دون شرح المقدمات والدساتير والمعادلات كما في كتب الفلك العالي والميكانيك السماوي وغيرهما.

كان يقول القرآن بحركة الأرض قبل (كوبرنيك وكبلر) و (گاليلة) بقرون وذلك بقوله: ﴿وَتَرَى ٱلۡجِبَالَ تَحۡسَبُهَا جَامِدَةٗ وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِۚ صُنۡعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتۡقَنَ كُلَّ شَيۡءٍۚ﴾ [النمل: الآية ٨٨].

كذلك، ما كان البشر يعلم أن الزوجية متحكمة بأمر الله في كل شيء، حتى الجماد، حتى إذا اكتشف بطن الذرة وعلم أن ذرة كل عنصر من العناصر من هايدروجين وهليوم وكالسيوم وأورانيوم.. الخ تتألف من إلكترون: كهربائية سالبة وبروتون: كهربائية موجبة ونيوترون: كهربائية متعادلة وإن الإلكترون يدور بسرعة فائقة حول البروتون فالإلكترون بمثابة الأنثى والبروتون بمثابة الذكر. ولكن الله قد ذكر ذلك منذ قرون في كتابه الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، بقوله جلَّ من قائل: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَزۡوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلۡأَرۡضُ وَمِنۡ أَنفُسِهِمۡ وَمِمَّا لَا يَعۡلَمُونَ ٣٦﴾ [يس: الآية ٣٦] فالذي ما كان يعلمه البشر ثم علمه بإذن الله هو هذه الزوجية في الجماد

أو العناصر أي الذرات برمتها.

وكذلك، بالنسبة إلى تشكل الأمطار في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا﴾ [النُّور: الآية ٤٣] والتأليف هو الكهربائية التي تلعب دوراً هاماً في هطول الأمطار على حد قوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ ﴿٢٢﴾﴾ [الحِجر: الآية ٢٢]، فهذا التلقيح هو التلقيح الكهربائي بين سحابة وسحابة أو بين ذرات بخار الماء لقوله تعالى بعد: أرسلنا الرياح: ﴿فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ فنزول الماء من السماء متوقف على هذا التلقيح الكهربائي. وهذا من مكتشفات القرن العشرين.

وهناك آيات أخرى كثيرة لا مجال إلى ذكرها تنبئ عن آخر ما توصل إليه العلم الحديث. وآيات أخرى لا يزال المراد الحقيقي منها مجهولاً إلى أن يتقدم العلم المادي أشواطاً أخرى كي يعلم البشر حقيقتها والمراد منها. وكفى بالقرآن معجزة أنه قد سبق العلم الحديث بآيات بينات هي عصارة العلم الحديث وما سيكتشفه الإنسان بإذنه تعالى في مستقبل قريب أو بعيد.

هل يجوز لنا أن نقول: «رجل عظيم»

سؤال يسأله أحد المؤمنين قائلاً: هل من الجائز أن يقال: (رجل عظيم) مع العلم أن العظمة خاصة بالله تعالى، لا يشاركه فيها أحد.

الجواب: العظمة على نوعين: عظمة لا تتناهى وهي عظمة الله تعالى في كل شيء: في القدرة والعلم والهيمنة والسلطان والرحمة وهو القائل ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعرَاف: الآية ١٥٦] لذلك لا يقاس علم الإنسان المحدود بعلم الله الذي لا يتناهى، وقد قال جلَّ من قائل: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾﴾ [لقمَان: الآية ٢٧].

فلو فرضنا علم الإنسان = ب. فيكون علم الله تعالى = ∞ (لا نهاية له) ونسبة علم الإنسان إلى علم الله = $\frac{ب}{\infty}$ ومعلوم أن مآل هذا الكسر الذي مخرجه غير متناه

هو الصفر. فلا قيمة لعلم الإنسان تجاه علم الله غير المتناهي.

وكذلك القول بشأن قدرة الله تعالى وبقية صفاته التي هي عين ذاته. ذلك لأن صفات الله من علم وقدرة و. . . غير مكتسبة. كصفات الإنسان التي تكتسب بالتدريج إما بالتعلم، أو بالتمرين والممارسة. فالإنسان عالم بالاكتساب وبالهدم من جانب الله تعالى.

وأما قولنا: رجل عظيم، فهذه عظمة محدودة، مقتضبة، عظمة نسبية، بالنسبة إلى عظمة أناس آخرين. ومعنى ذلك: أن ملكات هذا الرجل وقابلياته واستعداده أعظم أو أكثر من أقرانه فيسمى عظيماً بالنسبة إلى أفراد آخرين محدودي العظمة. كما يقال: دار عظيمة بالنسبة إلى دور أخرى. أو شجرة عظيمة بالقياس إلى أشجار أخرى وما دمنا نقصد المحدودية في قولنا: رجل عظيم، فليس هنالك أية حرمة في إيراد الوصف النسبي. مع العلم أنه لا عظيم بصورة لا نهائية إلا الله تعالى.

وهكذا قولنا: الله أكبر. فلا نقصد من لفظ: أكبر، ما جاء في صيغة أفعل التفضيل، إنما نقصد: أن لا شيء أكبر من الله دونما قياس وينفي وينعدم مفهوم القياس في هذا المقام. ولا تتحقق اللانهائية بصورة حقيقية إلا في الله تعالى وكل ما في الكون من فضاء ومجرات ونجوم وطاقات محدود بالنسبة إليه تعالى. وهو الذي خلقها وأنشأها وربطها بدساتير ومعادلات رياضية رصينة تدهش الألباب. ﴿مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾ [المُلك: الآية ٣] . وجميع ما هنالك من قابليات وصفات، وطاقات ونظم وكفاءات في الجماد والنبات والحيوان والإنسان وغيرها إنما هي من جانب الله تعالى وعظيم رفده وكمال لطفه.

لذلك، يقول إمامنا ومولانا سيد الساجدين علي بن الحسين عليه السلام في دعاء علّمه أبا حمزة الثمالي مخاطباً رب العباد: «من أين لي الخير ولا يوجد إلا من عندك».

وبما أن الله تعالى لا نهائي، فليس لأي إنسان مهما سما في عوالم القدس أن يعرف الله تعالى حق المعرفة. ذلك لأنه يستحيل على المحدود وهو الإنسان، المحدود في جميع قابلياته وملكاته، أن يحيط بغير المحدود وهو الله تعالى.

لذلك، يقول رسول الله ﷺ: «لا أحصي ثناءاً عليك، أنت كما أثنيت على نفسك»(١).

وقال الإمام علي عليه السلام: «الحمد لله الذي لا تدركه الشواهد، ولا تحويه المشاهد، ولا تراه النواظر ولا تحجبه السواتر، الدال على قدمه بحدوث خلقه وبحدوث خلقه على وجوده وباشتباههم أن لا شبهَ له»(٢).

فعبثاً يحاول المادي أن يرى الله تعالى في مختبره أو مخبره Tube وهو محدود في مختبره ومخبره وعقله وكفاءاته. إنما يعرف الله بعقله، ذلك العقل الذي قد أودع الله فيه غريزة السؤال والعلية والسببية، بحيث يسأل عن سبب حدوث كل شيء وعن الخواص والقوانين المترتبة بعضها على بعض. وكذلك عن المعادلات والدساتير الرياضية والقوانين التي تربط أجزاء العالم من الذرة فصاعداً بعضها ببعض فيعزو كل ذلك إلى الله المتعال لو كان هذا العقل باقياً على فطرته. لم تفسده أو تحرقه نفس جامحة شريرة بذنوبها وآثامها، وإلا انقاد إلى ما يمليه عليه الشيطان، من الشكوك والريب والجحود؛ إلى ما هنالك.

﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ ﴿٣٨﴾﴾ [الزّخرف: الآيات ٣٦/ ٣٨].

﴿إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: الآية ٢٧].

الإمام علي عليه السلام والتقويم

جاء أحد علماء بني إسرائيل علياً عليه السلام وسأل ما مؤداه:

لماذا جاء في قرآنكم أن مدة لبث أصحاب الكهف في كهفهم: ثلاث مائة سنين وازدادوا تسعاً. وذلك في الآية: ٢٥ من سورة الكهف، ﴿وَلَبِثُوا۟ فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِا۟ئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُوا۟ تِسْعًا ﴿٢٥﴾﴾ ولم يقل: ثلاث مائة وتسع سنين، وفي كتبنا أن مدة لبث

(١) مستدرك الوسائل: ج٤، ص٣٢١، باب ٣٩.

(٢) الإحتجاج، للطبرسي: ج١، ص٢٠٤.

أصحاب الكهف في الكهف: ثلاث مائة سنة فقط.

فأجاب الإمام علي عليه السلام دونما تفكير: «سنوكم شمسية وسنوناً قمرية». ومعنى ذلك أن الله جمع في عبارة موجزة بين نوعين من السنين، سنين شمسية وهي ٣٠٠ سنة وسنين قمرية المعادلة للسنين الشمسية وهي ٣٠٩ سنين».

توضيح ذلك: أن اليهود كانوا يعتبرون السنة الشمسية ٣٦٥ يوماً وأن السنة القمرية تعتبر ٣٥٤ يوماً و٦ ساعات و٤٨ دقيقة.

وقد علم الأقدمون بعد تجارب عدة واختبارات شتى أن الفترة الزمنية بين هلالين متواليين هي ٢٩ يوماً و١٢ ساعة و٤٤ دقيقة.

فعليه لو ضربنا هذه الفترة الزمنية بين هلالين في ١٢ أي:

١٢ × (٤٤ دقيقة/ ١٢ ساعة/ ٢٩ يوماً) = ٤٨ دقيقة/ ٨ ساعة/ ٣٥٤ يوماً وإن ٣٠٠ سنة على ما كان معتبراً عند اليهود لتعادل:

٣٠٠ × ٣٦٥ = ١٠٩٥٠٠ يوم

و٣٠٩ من السنين القمرية دون ملاحظة الكسر تساوي ٣٠٩ × ٤٥ = ١٠٩٣٨٦ يوماً

وبما أن ٨ ساعات و٤٨ دقيقة تعادل $\frac{١١}{٣٠}$ ، من اليوم الواحد.

فلنكرر $\frac{١١}{٣٠}$ ، ٣٠٠ مرة أيضاً

٣٠٠ × $\frac{١١}{٣٠}$ = ١١٠ أيام

وبما أن في السنوات القمرية تحسب السنة الثانية والخامسة والسابعة والعاشرة كبيسة أي عدد أيام سنتها ٣٥٥ يوماً، إذن في ٩ سنوات قمرية توجد ٤ سنين كبيسة، لأن السنة التاسعة أقرب إلى العاشرة إذن:

١٠٩٣٨٦ + ١١٠ + ٤ = ١٠٩٥٠٠ يوم.

وهكذا يكون عدد أيام سنة شمسية مساوياً لعدد أيام ٣٠٩ سنة قمرية دونما فرق(١).

---

(١) مترجمة من مجلة (مكتب الإسلام) الصادرة في قم.

ليلة ميلاد الإمام الحسن عليه السلام

ما أبهجها من ليلة وما أسعدها. إنها ليلة يولد فيها أول السبطين سيدي شباب أهل الجنة وريحانتي رسول الله صلى الله عليه وآله وأحد الخمسة أصحاب العباء.

فلما ولد عليه السلام قالت فاطمة عليها السلام لعلي عليه السلام: سمه فقال: ما كنت لأسبق رسول الله صلى الله عليه وآله في تسميته، فجاء النبي صلى الله عليه وآله، فأخرج إليه في خرقة صفراء، فرمى بها وقال: ألم أنهكم أن تلفوا المولود في خرقة صفراء، وأمر أن يلف في خرقة بيضاء، وسرَّه (قطع سرته) وألباه بريقه[1] كما يصب اللبا في فم الصبي وقال: اللهم إني أعيذه بك وولده من الشيطان الرجيم، وأذن في أذنه اليمنى وأقام في اليسرى[2].

وعقَّ رسول الله صلى الله عليه وآله عن الحسن بيده، وقال: بسم الله، عقيقة عن الحسن، وقال: اللهم عظمها بعظمه، ولحمها بلحمه، ودمها بدمه، وشعرها بشعره، اللهم اجعلها وقاءاً لمحمد وآل محمد، وتصدق بزنة شعره فضة[3].

وكان الإمام الحسن عليه السلام (على ما جاء في الإرشاد للمفيد عليه الرحمة) أشبه الناس برسول الله صلى الله عليه وآله خلقاً وهيئة وهدياً وسؤدداً[4].

وكان الإمام الحسن عليه السلام أعبد الناس في زمانه وأزهدهم وأفضلهم ومن أوسع الناس صدراً وأسجحهم خلقاً[5].

وكان عليه السلام: إذا حج، حج ماشياً وربما مشى حافياً، وكان إذا ذكر الموت بكى وإذا ذكر القبر بكى وإذا ذكر البعث والنشور بكى وإذا ذكر العرض على الله تعالى شهق شهقة يغشى عليه منها، وإذا قام في صلاته ترتعد فرائصه وكان إذا ذكر الجنة والنار اضطرب اضطراب السليم وسأل الله الجنة وتعوذ بالله من النار. وكان لا يقرأ من كتاب الله عزَّ وجلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ إلا قال: لبيك، لبيك، اللهم لبيك[6].

---

(١) أي صبه في فمه.
(٢) بحار الأنوار: ج٤٣، ص٢٣٨، باب ١١.
(٣) الكافي: ج٦، ص٣٢.
(٤) الإرشاد: ص٢٣٤.
(٥) شرح نهج البلاغة: ج١٦، ص٢١.
(٦) أمالي الصدوق: ص١٧٨، مجلس ٣٣.

وكان عليه السلام: إذا توضأ ارتعدت مفاصله واصفر لونه فقيل له في ذلك، فقال: حق على كل من وقف بين يدي رب العرش أن يصفر لونه وترتعد مفاصله وكان إذا بلغ باب المسجد، رفع رأسه وهو يقول: إلهي ضيفك ببابك، يا محسن قد أتاك المسيء، فتجاوز عن قبيح ما عندي بجميل ما عندك يا كريم(١).. كل ذلك لأن النفس القدسية تخاف الله إلى حد بعيد، فتزداد علماً ومعرفة بالله تعالى وقد جاء في الحديث: «أعلمكم بالله أخوفكم له».

وكان رسول الله صلى الله عليه وآله يحب الحسن والحسين حباً جماً، وهو القائل: من أحبني وأحب هذين وأباهما وأمهما كان معي في درجتي يوم القيامة(٢).

وروى الترمذي بسنده عن أسامة بن زيد في حديث: أن الحسنين كانا على وركي رسول الله صلى الله عليه وآله فقال: هذان ابناي وابنا ابنتي، اللهم إني أحبهما، فأحبهما وأحب من يحبهما(٣).

وكان رسول الله صلى الله عليه وآله يصلي، فإذا سجد وثب الحسن والحسين على ظهره، فإذا أرادوا أن يمنعوهما أشار إليهم أن دعوهما، فإذا قضى الصلاة وضعهما في حجره، فقال من أحبني، فليحب هذين(٤).

وقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله: إن الجنة تشتاق إلى أربعة: علي وفاطمة والحسن والحسين(٥).

وإن هذه الواقعة لتدل على ما للحسن والحسين من كرامة عند الله تعالى وذلك أن الحسن والحسين عليهما السلام اصطرعا بين يَدَي رسول الله صلى الله عليه وآله فقال رسول الله: أيها الحسن خذ حسيناً، فقالت فاطمة: يا رسول الله أتشجع الكبير على الصغير، فقال: صلى الله عليه وآله: هذا جبرائيل يقول: أيهاً حسين، خذ حسناً(٦).

وقال مدرك بن زياد لابن عباس وقد أمسك للحسن ثم للحسين بالركاب وسوى

---

(١) مناقب ابن شهرآشوب: ج٤، ص١٤.
(٢)،(٣)،(٤)،(٥) مناقب ابن شهرآشوب: ج٣، ص٣٨٢ ـ ٣٨٤.
(٦) بحار الأنوار: ج٣٩، ص١٠٦، باب ٧٦.

عليهما ثيابهما، أنت أسن منهما، تمسك لهما بالركاب، فقال: يا لكع وما تدري من هذان، هذان ابنا رسول الله ﷺ أوَ ليس مما أنعم الله عليَّ به أن أمسك لهما وأسوّي عليهما[1].

وإن هذه الحادثة تعلمنا آداب التعليم والجمال الأخلاقي وتوفير الكبير.

روي أن الحسن والحسين عليهما السلام مرّا على شيخ يتوضأ ولا يحسن الوضوء، فأظهرا تنازعاً، يقول كل منهما للآخر، أنت لا تحسن الوضوء. وقالا: أيها الشيخ كن حكماً بيننا، فتوضئا وقالا أينا يحسن الوضوء، فقال الشيخ: كلاكما تحسنان الوضوء، ولكن هذا الشيخ الجاهل هو الذي لم يحسن قد تعلم الآن منكما وتاب على يديكما ببركتكما وشفقتكما على أُمة جدكما[2].

ومن سخاء الإمام الحسن عليه السلام أنه قاسم الله ماله ثلاث مرات وخرج من ماله مرتين وقد روى ابن شهرآشوب في المناقب: أن رجلاً سأله فأعطاه خمسين ألف درهم وخمسمائة دينار وقال ائت بحمال يحمل لك، فأتى بحمال، فأعطاه طيلسانه وقال: هذا كرى الحمال[3].

وقد خرج الحسن والحسين وعبدالله بن جعفر حجاجاً ففاتتهم أثقالهم، فجاعوا وعطشوا فرأوا عجوزاً في خباء فاستسقوها، فقالت: هذه الشويهة، احلبوها وامتذقوا لبنها ففعلوا واستطعموها، فقالت: ليس إلا هذه الشاة فليذبحها أحدكم، فذبحها أحدهم وكشطها، ثم شوت لهم من لحمها فأكلوا وقالوا[4] عندها، فلما نهضوا قالوا: نحن نفر من قريش نريد هذا الوجه، فإذا عدنا فألمّي بنا، فإنا صانعون بك خيراً ثم رحلوا، فلما جاء زوجها أخبرته، فقال: ويحكِ، تذبحين شاتي لقوم لا تعرفينهم. ثم تقولين نفر من قريش، ثمَ مضت الأيام، فأضرت بها الحال فرحلت حتى اجتازت بالمدينة، فرآها الإمام الحسن عليه السلام فعرفها، فقال لها: أتعرفينني؟ قالت: لا؛ قال: أنا

---

(١)،(٢) بحار الأنوار: ج٤٣، ص٣١٩، باب ١٣.

(٣) مناقب ابن شهرآشوب: ج٤، ص١٦.

(٤) أي ناموا عند الظهيرة.

ضيفك يوم كذا وكذا، فأمر لها بألف شاة وألف دينار، وبعث معها رسولاً إلى الإمام الحسين عليه السلام فأعطاها مثل ذلك، ثم بعثها إلى عبدالله بن جعفر فأعطاها مثل ذلك[1].

ومن تواضعه عليه السلام أنه مرّ على فقراء قد وضعوا كسيرات على الأرض وهم قعود يلتقطونها ويأكلونها فقالوا له: هلمَّ يا ابن بنت رسول الله إلى الغداء، فنزل وقال: إن الله لا يحب المتكبرين وجعل يأكل معهم، حتى اكتفوا والزاد على حاله ببركته، ثم دعاهم إلى ضيافته وأطعمهم وكساهم[2].

وروى الصدوق في كتاب التوحيد: أنه جاء رجل إلى الإمام الحسن عليه السلام فقال له: يا بن رسول الله صف لي ربك كأني أنظر إليه، فأطرق ملياً ثم رفع رأسه فقال: الحمد لله الذي لم يكن له أول معلوم ولا آخر متناه ولا قبل مدرك ولا بعد محدود ولا أمد بحتي ولا شخص فيتجزى ولا اختلاف صفة فيتناهى. ولا تدرك العقول وأوهامها، ولا الفكر وخطراتها ولا الألباب وأذهانها صفته، فتقول: متى، ولا بدئ مما ولا ظاهر على ما ولا باطن فيما ولا تارك فهلا، خلق الخلق فكان بديئاً بديعاً، ابتدأ ما ابتدع وابتدع ما ابتدأ، وفعل ما أراد وأراد ما استزاد، ذلكم الله رب العالمين[3].

حقاً، إن ما جاء في كلام الإمام هو غاية ما يقال في التوحيد.

فإذا كان ما خلق الله من عوالم لا يمكن استقصاؤها فكيف بخالقها ومبدعها.

وقد علم أخيراً أنه تعالى قد خلق من الأجرام والكواكب ما يبعد عنا آلاف الملايين من السنين الضوئية، والسنة الضوئية عشر مليون مليون كيلو متر[4]، فيجب أن تمضي آلاف الملايين من السنين حتى تصل إلينا أشعة تلك الأنجم وأما أرضنا هذه مع شمسنا وما يدور حولها من أنجم تسعة لا تعد شيئاً بالنسبة إلى ما خلق الله من أنجم وكرات، فأرضنا كهباءة ملقاة في الفضاء وهي من أنجم المجرّة المسماة بدرب التبانة التي نشاهدها فوق رؤوسنا في ليلة صافية كالسحابة، إنها ليست بسحابة وإنما ملايين النجوم تكدست واجتمعت بعضها إلى بعض وأن مجموعتنا الشمسية هذه واقعة في

(١) مناقب ابن شهرآشوب: ج٤، ص١٦.
(٢) مناقب ابن شهرآشوب: ج٤، ص٢٣.
(٣) التوحيد للصدوق: ص٤٥، باب ٢.
(٤) عشرة آلاف مليار كيلو متراً تقريباً.

مكان مدحور لا يعبأ به من هذه المجرة وهي تبعد عن مركز المجرة (٣٠ ألف) سنة ضوئية، ومن بداية هذه المجرة إلى نهايتها مائتي ألف سنة ضوئية ويوجد مثل هذه المجرة في هذا الكون الرحيب ملايين من المجرات وهي تتباعد بعضها عن بعض بسرعات هائلة، كذلك الأنجم كلها تتباعد بعضها عن بعض بسرعة مدهشة، قد تبلغ السرعة إلى (١٥٠) ألف كيلومتراً في الثانية أي بقدر نصف سرعة الضوء. وهكذا تتسع السماء، حتى أصبحت عشرة أمثال ما كانت عليه سابقاً، ولا تزال آخذة بالاتساع بسرعة هائلة ويتحقق قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ [الذّاريَات: الآية ٤٧].

فينبغي أن لا يغتر هذا الإنسان، ولا يتكبر فيسجد لله شكراً وتعظيماً وتقديساً، بعدها يرى هذه العظمة غير المتناهية في مخلوقات الله تعالى، إنه تعالى يقول:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾﴾ [الإنفطار: الآيات ٦/٨].

نعم، حتى أن الطير في السماء تسبح الله تعالى وتقدسه، ولكننا لا نفهم هذا النوع من التسبيح، وهو القائل: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسرَاء: الآيــــة ٤٤]. ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ﴾ [النُّور: الآية ٤١]. فللطير صلاة وتسبيح، فكيف بهذا الإنسان إن لم يصلِّ ولم يسبح الله تعالى..

إنه تعالى يقول: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [المدّثر: الآيات ٤٢/ ٤٥].

فأهل النار أول ما يعترفون به، إنهم لم يكونوا من المصلين. لم يكونوا من المسبحين، لم يشاركوا حتى الجماد في تسبيحه، على حد قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ [الإسرَاء: الآية ٤٤]. وبعد ذلك يعترفون بأنهم لم يطعموا المسكين ولم يقدموا فضول أموالهم إلى الفقراء والمساكين ذلك لأن الله قد جعل قوت هؤلاء في أموال الأغنياء. ثم يعترفون بأنهم ولجوا فيما ولج فيه الناس من انحراف عن الطريق السوي وانغماس في شهوات وفساد وإفساد باسم التطور ومواكبة مفاهيم القرن العشرين.

هذه المفاهيم التي صنعتها يد البشرية الأثيمة! مفاهيم لا يقرها الدين ولا العقل السليم ﴿فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ﴾ [يونس: الآية ٣٢].

لقد حدث انفجار في الشمس (شمسنا هذه) سنة ١٩٥٦م كان قد أولد طاقة تعادل طاقة ١٠٠ مليون قنبلة هيدروجينية دفعة واحدة، فأي قدرة أو طاقة قد أودع الله تعالى في شمسنا هذه، على أن الله تعالى قد خلق شموساً أخرى أعظم من شمسنا هذه آلاف المرات، تدهش الألباب. فما أعظم ما أودع الله من طاقات في هذا الكون الرحيب!

أفلا يجدر بهذا البشر أن يسجد لله سجود خضوع، وتعظيم ﴿قُتِلَ الْإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ ﴿١٧﴾ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ ﴿١٩﴾ ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشَرَهُ ﴿٢٢﴾ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ ﴿٢٣﴾﴾ [عبس: الآيات ١٧/ ٢٣].

* * *

ومما قال الإمام الحسن عليه السلام في الحكمة:

سئل عليه السلام: ما الغنيمة؟ فقال: الرغبة في التقوى والزهادة في الدنيا(١).

وقد عرّف الله تعالى التقوى والمتقين بقوله جلّ من قائل:

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾﴾ [الذاريات: الآيات ١٥/ ١٩].

فمن صفات المتقين: الاستغفار بالأسحار وجعل حق للسائل والمحروم في الأموال والتهجد في جوف الليل والإحسان إلى الناس أجمعين.

وفي الحديث: التقوى أن لا يراك الله حيث نهاك وأن لا يفقدك حيث أمرك(٢).

ثم يقول الله تعالى: ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الذّاريات: الآيتان ٢٠/ ٢١].

ومن الآيات في الأرض: أن النمل الأبيض في أفريقيا يصنع بوصلة بالقرب من عمارته (بنيانه الرفيع) وهي سطحان متعامدان، أحدهما متجه نحو الشمال والجنوب

---

(١) بحار الأنوار: ج٧٥، ص١٠٢، باب ١٩.
(٢) وسائل الشيعة: ج١٥، ص٢٣٩، باب ١٩.

ولا يحيد عن هذا الاتجاه قيد شعرة والسطح الآخر متجه نحو الشرق والغرب كذلك، وإن المهندسين ليعتمدون على بوصلة يصنعها النمل الأبيض في أعمالهم الهندسية ويندهشون من هذه الهندسة العجيبة.

ويقول الله تعالى: ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ۝٢١﴾ [الذاريات: الآية ٢١]. حقاً أن الإنسان في تشكيلاته العضوية (عدا الروح) لشيء محير للألباب فإن في جسم الإنسان أكثر من مائتي عظم، لكل واحد منها شكل خاص ولولا هذا الشكل الخاص لما تمكنا من الحركة. وفي جسم الإنسان ٥٠٠ عضلة كل منها تتغذى بمئات الأوردة والعروق، تديرها أعصاب كثيرة جداً، والقلب وهو بين هذه العضلات ينبض في السنة (٣٠) مليون مرة، وللعين طبقات: القرنية والعدسية والمائية الزجاجية وتنتهي بالشبكية، وإن الشبكية لا تزيد عن ثخن الورقة وتتألف من تسع طبقات أبعدها تتألف من ٣ ملايين مخروط ونحو من ٣ ملايين أسطوانة، وقد حسب أحد العلماء فعلم أن المادة السنجابية التي في تلافيف الدماغ فيها نحو (٦) مليون خلية وكل خلية تتألف من ألوف الدقائق الظاهرة وكل دقيقة تتألف من ملايين الجواهر.

وقد علم أن في المخ (٢٠) مليون عصب، قد رتبت ترتيباً عجيباً ولكل فعاليته، فإذا جسَّ أحد هذه الأعصاب حصلت حالة نفسية خاصة تختلف عن غيرها.

ومن حكمه عليه السلام: أنه سئل: ما الغنى؟ فقال: رضى النفس بما قسم الله وإن قلَّ وإنما الغنى غنى النفس.

وسئل: فما الفقر؟ قال: شره النفس إلى كل شيء.

فما المجد؟ أن تعطي في الغرم وتعفو عن الجرم.

فما السؤدد؟ إتيان الجميل وترك القبيح.

فما الحزم؟ طول الأناة والرفق بالولاة، (والاحتراس من جميع الناس)[1].

ومن كلامه عليه السلام: يا بني، لا تؤاخ أحداً حتى تعرف موارده ومصادره، القريب من قربته المودة وإن بعد نسبه، والبعيد من باعدته المودة وإن قرب نسبه[2].

---

(١)،(٢) بحار الأنوار: ج٧٥، ص١٠٢، باب ١٩.

ومن كلامه عليه السلام: هلاك المرء في ثلاث: الكبر والحرص والحسد فالكبر هلاك الدين وبه لعن إبليس، والحرص عدو النفس وبه أخرج آدم من الجنة، والحسد رائد السوء ومنه قتل قابيل هابيل[١].

وقال: لا أدب لمن لا عقل له، ولا مروءة لمن لا همة له، ولا حياء لمن لا دين له[٢].

ومن قوله عليه السلام:

يا ابن آدم، إنك لم تزل في هدم عمرك منذ سقطت من بطن أمك فخذ مما في يديك لما بين يديك، فإن المؤمن يتزود والكافر يتمتع[٣]. فهذه الليالي المتبركة، ليالي شهر رمضان المبارك هي ليال يتزود فيها المؤمن لآخرة سعيدة، فيصلي ما شاء ويبتهل إلى الله بخشوع وخضوع ويسأله تعالى المغفرة والرضوان، فيخرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه فيزداد إيماناً بالله وبعوالم الآخرة، فهذا الشهر شهر تطهير وتزكية، شهر تجلية وتصفية. فالنفوس بقدر خشوعها لله تتزكى وتتطهر. فلنحسن العبودية لله، فما من شيء في هذا الكون الرحيب إلا ويظهر العبودية لله تعالى والخشوع والخنوع.

﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾﴾[٤] [مريم: الآيات ٩٣/ ٩٥].

لماذا هذه الزلازل

سؤال يتشدق به كثير من الماديين وهم يريدون بسؤالهم هذا أن يصموا العالم بالتبلبل وعدم الانتظام وعدم التدبير من قبل خالق عالم بعواقب الأمور وبكل ما يحدث: منظم الكون إلى أقصى مرتبة من مراتب الانتظام.

إنهم يقولون: لماذا هذه الأوبئة التي لا تبقي ولا تذر، وهذه العواصف الهوجاء الهدامة للقرى والأرياف، وهذه الكوارث المميتة. ولقد سمعت أحدهم وهو على فراش المرض، يعزو العالم، لمرض أصابه، بعدم الانتظام والبلبلة.

---

(١)،(٢) بحار الأنوار: ج٧٥، ص١٠٢، باب ١٩.

(٣) بحار الأنوار: ج٧٥، ص١١٦، باب ١٩.

(٤) ألقيت هذه الكلمة في ليلة النصف من شهر رمضان المبارك في حسينية الهاشمية: سنة ١٣٨٦هـ.

وكثيراً ما سمعت من بعض المثقفين بثقافة العصر، لماذا هذه الصواعق والفيضانات المدمرة والموت جوعاً في بعض الأحيان، ثم لماذا يسلب العقل من بعض الناس فيعيشون بين العقلاء عيشة البهائم. ولماذا يتنعم بعض الناس القلائل على حساب آلاف من الناس يكدحون ليلَ نهارَ لسد ما تحتاج إليه بطونهم على الأقل.

فهل هناك مفاضلة قبل أن يولد الإنسان؟

ثم هم يقولون: لاشك أن عقلاً جباراً قد خلق هذه الكائنات من جماد ونبات وحيوان وإنسان بحكمة فائقة وتدبير عال دقيق، والعالم سائر حسب قوانين محكمة تدل على عظمة خالقه ومبدعه، فلماذا هذه المفاضلات والفروق؟ ولماذا لم يحمِ الخالق هذا الإنسان الضعيف من المفاجآت المهلكة الآنفة للذكر؟

إن الاعتراف بحكمة المبدع، البارئ عزَّ وجلَّ لدليلٌ جلي على أن الحكمة المتجلية في كل ناحية من نواحي هذا الكون، في الذرة والتراكيب الكيميائية والتفاعلات بين العناصر وفي قوانين الفيزياء والفلك والميكانيك الرياضي والميكانيك السماوي وفي عالم الميكروبات والنباتات والحيوانات والإنسان.. الخ، حكمة يعجز العقل البشري أن يحيط بها تمام الإحاطة وإنما يظفر ببعضها نتيجة جهد جهيد واختبارات متتالية وصدف متعاقبة بإلهام من الله، تفضلاً منه ورحمة.

فهذا الاعتراف بعظمة الخالق في العلم والقدرة والتدبير والحكمة البالغة المتجلية في أرجاء هذا الوجود لدليل ساطع على أن الحكمة متجلية أيضاً في حدوث الزلازل والنوائب والعواصف والفيضانات وهجوم الجراثيم المؤذية، إلا أنه قد تخفى علينا الحكمة والسبب، وهذه الحكمة قد تنكشف للصلحاء من عباد الله من أنبياء وأوصياء ومؤمنين أبرار وأخيار وتخفى على كثير من الناس، لأن نفوسهم لم تبلغ مرتبة من الكمال لتتجلى لهم الحقائق وتنكشف لهم الأسباب.

* * *

لو تتبعنا البلايا والنوائب لرأيناها على ضربين: منها ما هي مهذبة منبّهة مزكيّة لهذه النفوس، آخذة إياها إلى عوالم القدس. ذلك لأن البلايا والنوائب تصقل النفوس وتطهرها من أدناسها وأرجاسها.

فالدنيا أشبه شيء بمدرسة، وفيها مواد امتحانية، وعلى طلابها اجتياز هذه الامتحانات، وموادها ليست بمواد مادية كالجبر والهندسة والفيزياء والكيمياء إلى ما هنالك، وإنما هي مواضيع تمس النفس الإنسانية مباشرة، وتعمل في تربيتها وتزكيتها، مواضيعها: الصبر ومخالفة الهوى والنفس الأمارة بالسوء، وترك الشهوات والموبقات والجلد أمام الملذات التي نهى عنها الشرع، موادها: العفة والعفاف والتقوى واحترام الوالدين وصلة الأرحام، ومواساة المؤمنين ومساعدة الفقراء والمساكين والتضحية والإيثار في سبيل الخير، موادها: ترك الحسد والبخل، والتواضع والرفق بالآخرين، موادها: تفويض الأمر إلى الله والتوكل عليه وحسن الظن بالله، والاعتراف بالتقصير، والشكر الكثير وحسن الخلق، والصدق وأداء الأمانة والحياء وكظم الغيظ والعفو والحلم والصمت وحفظ اللسان، والحب في الله والبغض في الله والقناعة والزهادة والإنصاف والعدل، والاهتمام بأمور المسلمين والتراحم والتعاطف وزيارة الإخوان في الله وقضاء حوائج المؤمنين لوجه الله وترك المكر والغدر والخديعة والغيبة والنميمة، وسوء الظن والنفاق، موادها: الاستغفار ومحاسبة النفس، والتكفير عن الذنوب. ففي الحديث: «حُفت الجنة بالمكاره وحُفت النار بالشهوات»[1].

ومن النوائب ما هي مبيدة لهذه النفوس كالزلازل التي لا تبقي ولا تذر والعواصف التي تغرق السفن والأوبئة التي تزهق الأرواح.

أما النوع الأول فهي امتحانات بسيطة يجتازها هذا الإنسان ليسير سيره التكاملي.

وهي لا تتجاوز المرض والفقر ومشاكل عائلية واجتماعية وأمثالها وكلها مفيدة، تصقل النفوس البشرية وتجعلها (إن كانت مؤمنة) تتقرب إلى الله وترجو النجاة، فقد قال الله تعالى:

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾﴾ [محمَّد: الآية ٣١] فالله تعالى يختبرنا ليعلم (وهو العالم قبلاً وبعداً) درجة مجاهدتنا مع نفوسنا الأمارة بالسوء ودرجة صبرنا، ولكي نعلم نحن درجتنا في الامتحان الآلهي العالمي، لننال عنده تعالى

---

(١) بحار الأنوار: ج٦٨، ص٧٢، باب ٦٢.

ما نستحق من المنازل الرفيعة: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٢﴾﴾ [الأنعام: الآية ١٣٢] .

﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٩﴾﴾ [الأحقاف: الآية ١٩] .

ويقول تعالى: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣﴾﴾ [البقرة: الآيات ١/ ٣].

فلا مناص حسب هذه الآية الكريمة من الاختبار والامتحان. فإن الامتحان كان جارياً في الأمم الغابرة وهو جار في الأمم اللاحقة.

﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾﴾ [الأحزاب: الآية ٦٢] فيمتحن الفرد أو بالأحرى نفس هذا الفرد بأنواع البلايا والنوائب، بالخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات. وهو القائل: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [البقرة: الآيات ١٥٥/ ١٥٧].

فالله يبشر الصابرين على البلايا والنوائب من فقد الأولاد والأرحام والثمرات والأموال بالأجر الجزيل، شريطةَ أن يقولوا حينما يدهمهم البلاء: إنا لله وإنا إليه راجعون، ويرجعوا أمرهم إلى الله المتعال ويعترفوا أن مآل أمرهم الآخرة، وحياة دائمة أخروية، فهؤلاء الذين يؤمنون بالآخرة ويرجعون مآل أمرهم إلى الله هم الذين اختصوا برحمة الله وعظيم رفده وهم السائرون نحو سبيل السلام.

ذلك، لأنه ما من شيء من المواد الامتحانية التي يمتحن الله به عباده في هذه الدنيا هو كالصبر. وهو القائل: ﴿۞ لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ أَذًى كَثِيرًا وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾﴾ [آل عِمرَان: الآية ١٨٦] .

وفي الحديث: الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد. ولا جسد لمن لا رأس له ولا إيمان لمن لا صبر له»(١) .

---

(١) أصول الكافي: ج٢، ص٨٩، باب الصبر.

وفي حديث آخر: قال رسول الله ﷺ: «ما تجرّع عبد قط جرعتين أحبّ إلى الله من جرعة غيظ ردّها بحلم، وجرعة مصيبة يصبر الرجل لها، ولا قطرت قطرة أحب إلى الله تعالى من قطرة دم أريقت في سبيل الله، وقطرة دمع في سواد الليل وهو ساجد ولا يراه إلا الله، وما خطا عبدٌ خطوتين أحب إلى الله تعالى من خطوة إلى الصلاة الفريضة وخطوة إلى صلة الرحم»(١).

وروي أن المسيح ؑ قال للحواريين: «إنكم لا تدركون ما تحبون إلا بصبركم على ما تكرهون»(٢). وقال رسول الله ﷺ: «الصبر نصف الإيمان». وفي خبر آخر: الإيمان نصفان: «نصف صبر ونصف شكر»(٣).

أنه تعالى يقول: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا﴾ [السَّجدَة: الآية ٢٤].

وقال رسول الله ﷺ: «أفضل الأعمال ما أكرهت عليه النفوس»(٤) ولامراء أن الصبر في الدرجة الأولى في هذا المقام.

وقال رسول الله ﷺ: «الصبر ثلاثة: صبر عند المصيبة وصبر على الطاعة، وصبر عن المعصية، فمن صبر على المصيبة حتى يردها بحسن عزائها كتب الله له ثلاثمائة درجة ما بين الدرجة إلى الدرجة كما بين السماء إلى الأرض، ومن صبر على الطاعة كتب الله له ستمائة درجة ما بين الدرجة إلى الدرجة كما بين تخوم الأرض إلى العرش، ومن صبر على المعصية كتب الله له تسعمائة درجة ما بين الدرجة إلى الدرجة كما بين تخوم الأرض إلى منتهى العرش»(٥).

وقال ﷺ: «سيأتي على الناس زمان لا ينال الملك إلا بالقتل والجبر، ولا الغنى إلا بالغصب والبخل، ولا المحبة إلا باستخراج الدين وإتباع الهوى، فمن أدرك ذلك الزمان فصبر على الفقر وهو يقدر على الغنى، وصبر على البغيضة وهو يقدر على المحبة، وصبر على الذل وهو يقدر على العز آتاه الله ثواب خمسين صديقاً ممن صدق بي».

---

(١) الخصال: ص٥٠.

(٢)،(٣) بحار الأنوار: ج٧٩، ص١٣٧، باب ١٨.

(٤) غرر الحكم: حرف الألف.

(٥) وسائل الشيعة: ج١٥، ص٢٣٧، باب ١٩.

كل ذلك لأن النفس الإنسانية تنصهر في تحمل المشاق والصبر عليها وتصقل في تحمل المكارة والنوائب. ولذلك يقول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزُّمَر: الآية ١٠] [١] فيجازى الصابر المحتسب جزاء موفوراً لا نهائياً خارجاً عن حدود الحساب والتقدير.

وقد قال رسول الله ﷺ: «إذا أراد الله بعبد خيراً، وأراد أن يصافيه، صبّ عليه البلاء صباً وثجه عليه ثجاً، فإذا دعاه قالت الملائكة: صوت معروف، وإذا دعاه ثانياً، فقال: يا رب، قال الله تعالى: لبيك عبدي وسعديك، ألاّ تسألني شيئاً إلا أعطيتك[٢] أو رفعت لك ما هو خير، وادّخرت لك عندي ما هو أفضل منه، فإذا كان يوم القيامة جيء بأهل الأعمال، فوزنوا أعمالهم بالميزان، أهل الصلاة والصيام والصدقة والحج، ثم يؤتى بأهل البلاء، فلا ينصب لهم ميزان ولا ينشر لهم ديوان، يصبّ عليهم الأجر صباً كما كان يصبّ عليهم البلاء صباً، فيود أهل العافية في الدنيا لو أنهم كانت تقرض أجسادهم بالمقاريض، لما يرون ما يذهب به أهل البلاء من الثواب، فلذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزُّمَر: الآية ١٠].

وقد قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾ [الفُرقان: الآية ٢٠] فقد أمرنا بالصبر في الفتن والبلايا والنوائب، لكي تظهر حقيقة النفس بهذا الجهاد المبين، فالجهاد مع النفس لهو الجهاد الأكبر على ما جاء على لسان سيد المرسلين ﷺ.

وقد قال الإمام الصادق عليه السلام: «إذا دخل المؤمن قبره كانت الصلاة عن يمينه، والزكاة عن يساره، والبر يطل عليه، ويتنحى الصبر ناحية، فإذا دخل عليه الملكان اللذان يليان مساءلته، قال الصبر للصلاة والزكاة والبر: دونكم صاحبكم، فإن عجزتم عنه فأنا دونه».

وقال عليه السلام «إذا كان يوم القيامة يقوم عنق من الناس فيأتون باب الجنة فيضربونه،

---

(١) جامع السعادات: ج٣، ص٢٨٨.

(٢) هكذا وجدناه في جامع السعادات: ج ٣، ص: ١٨٦.

فيقال لهم: من أنتم؟ فيقولون: نحن أهل الصبر، فيقال لهم: على ما صبرتم، فيقولون: كنا نصبر على طاعة الله ونصبر عن معاصي الله. فيقول الله تعالى: صدقوا، أدخلوهم الجنة وهو قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزُمَر: الآية ١٠] [١].

وقال ﷺ: «من ابتلى من المؤمنين ببلاء فصبر عليه كان له مثل أجر ألف شهيد»[٢].

ومن علامات الصبر: أن يصلَ الإنسان من قطعه، ويعطي من حرمه ويعفو عمن ظلمه، فقد قال رسول الله ﷺ: «صِل من قطعك وأعطِ من حرمك، واعفُ عمن ظلمك»[٣].

وإن معيار الإيمان الحقيقي هو الصبر على النوائب فمن كان صبره أكثر كان إيمانه بعوالم الآخرة أكثر فأكثر.

* * *

يجدر بهذا الإنسان أن يعمل في هذه الدنيا لينال درجات عالية ويذهب منها طاهراً مطهراً إلى آخرة سعيدة. ذلك لأن «الدنيا دار عمل ولا حساب. والآخرة دار حساب ولا عمل» ولا مجال هناك للتهيؤ لامتحان(الإكمال)، أي لا يكون الفرد مكملاً (كما في المدارس الحديثة) بعد الموت، فطوبى لمن هيأ نفسه لآخرة سعيدة قبل حلول الأجل.

فقد قال رسول الله ﷺ في خطبة له عندما جمع الأقربين من قريش: «إن الرائد لا يكذب أهله. والله لو كذبت الناس ما كذبتكم ولو غررت الناس ما غررتكم، والله الذي لا إله إلا هو: إنّي لرسول الله إليكم خاصة. وإلى الناس كافة، والله لتموُتن كما تنامون، ولتبعثن كما تستيقظون، ولتحاسبن بما تعملون، ولتجزون بالإحسان إحساناً وبالسوء سوءاً، وأنها للجنة أبداً، أو النار أبداً»[٤].

على أنّ هناك، كما في بعض الأخبار، نوع تطهير في عالم البرزخ من عذاب

---

(١) جامع السعادات، ج٣، ص٢٨٩.
(٢) أصول الكافي: ج٢، ص٩٢، باب الصبر.
(٣) أصول الكافي: ج٢، ص١٥٠، باب صلة الرحم.
(٤) روضة الواعظين: ص٥٣.

وتعذيب وتأديب، ليكون الفرد بذلك أهلاً لشفاعة الشافعين إذا أذن الله بذلك، وهو القائل: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾﴾ [المدَّثر: الآية ٤٨] ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء: الآية ٢٨].

والعاقل هو الذي يخرج في دنياه مما تدنس به من حرام وموبقات: في عالم الفرصة والملاقاة.

فقد قيل: إن حاكماً جائراً أراد أن يتوب، فخرج من جميع ماله من مال ومنال وبيوت وعقار، قدم جميع ذلك إلى عالم البلد (العالم الديني) لتوزيعها على الفقراء والمساكين (لكونها مجهولة المالك) واستقرض من العالم الديني إزاراً يستتر به، وصار يعمل كحمال ثم ارتقى، فصار يكتسب كسباً بسيطاً ويكفِّر عن سيِّئاته بأعمال صالحة وعبادات يتخلَّلها خشوع وخضوع ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ﴾ [هُود: الآية ١١٤].

* * *

فالإنسان إنما خلق للامتحان والابتلاء، ولا مفرّ له من اجتياز هذه الامتحانات الهادفة إلى إصلاح النفس مباشرة، ذلك لأنّ كماله النفسي ينحصر في اجتيازه امتحانات تصقل النفس وتهذِّبها أيما تهذيب وهو القائل: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٢﴾﴾ [الإنسَان: الآية ٢] فمنّ الله علينا بالسمع والبصر كي نستفيد منهما للنجاح في الامتحانات النفسية.

فالغني يختبر بالفقير، والفقير يمتحن بالصبر، والولد يمتحن بإطاعة والديه، وصاحب الجاه يمتحن في قضائه حوائج الناس، فكل إنسان مُذ نهوضه من نومه إلى ساعة منامه يختبر بأنواع الاختبارات، فطوبى لمن راقب نفسه في هذه الامتحانات النفسيّة وقدر لنفسه درجات عليها ليعلم منزلته في سيره التكاملي، كمن يقيس ضغط الدم من حين لآخر.

إنه تعالى يقول: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هُود: الآية ٧] فجعل الله علة خلقه هذه النفوس الابتلاء، أي أنّ الله إنما خلقنا ليبلونا ويختبرنا بمرض وسقم وعاهة وطاعة وصبر وغيرها.

فـ«إنّ عظيم الأجر من عظيم البلاء وما أحب الله قوماً إلا ابتلاهم». . الحديث.

وفي حديث آخر: (إذا أحب الله عبداً ابتلاه ليسمع تضرُّعه). ذلك لأنّ هذا التضرُّع مطهّر لهذه النفوس من أدرانها وأوضارها.

إنّ الله يحب أن يتضرّع العبد ويبكي على ذنوبه، وإنّ هذا التضرُّع أو البكاء موصل الفرد إلى مقامات رفيعة من التقرُّب إلى الحق المتعال. فقد جاء في حديث قدسي، حيث يقول الله تعالى: (أنين المذنبين أحب إليَّ من تسبيح المسبحين).

وكثيراً ما يكون الغنى سبباً لتسافل الإنسان وتجبره وتكبره وتعجرفه وتحقيره للآخرين وكسره الخواطر والقلوب، فيزداد بعداً من الله تعالى مع إنفاقه وبذله في بعض الأحيان، ولذلك يقول جلّ من قائل: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝٧﴾ [العَلق: الآيتان ٦/٧]، ويخاطب المترفين قبل غيرهم عند إرسال الرسل والأنبياء بقوله: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ۝١٦﴾ [الإسراء: الآية ١٦] . ولذا كان الأنبياء والأولياء يكتفون بالكفاف، ويخشون الزيادة والترف فقد جاء في الحديث القدسي، حيث يقول الله تعالى: «وإن من عبادي من لا يصلحه إلا الفقر ولو صرفته إلى غيره لهلك».

ذلك لأنَّ هذه الدنيا، كما جاء في الحديث «مزرعة الآخرة»، ومحل للتزوُّد والتهيُّؤ لآخرة سعيدة وجنة عرضها السماوات والأرض أعدّت للمتقين.

فمن أراد الله تعالى إنقاذه من نار جهنم وعذاب الآخرة، هيأ له أسباب هذا الفوز العظيم، بتعذيبه في دار الدنيا قبل الآخرة، لكي يطهر في دنياه ويذهب من هذه الدنيا نقي الثوب. وحاشا أن يبعض الله تعالى ويفرق بين عبد وعبد دونما سبب ويؤثِّر أحداً على آخر دون مرجح. إنّ الله تعالى أعلم بما قام به هذا العبد من أعمال، فإذا كانت أعماله السابقة أعمالاً تقربه إلى حد ما إلى الله تعالى، هيّأ الله تعالى له في دنياه الأسباب التي تطهره وتوصله إلى عاقبة محمودة بمرض واقتار وأنواع البلايا حسب قابليّته ومرتبته ودرجته. فقد جاء في حديث قدسي حيث يقول الله تعالى:

«ما من عبد أريد أن أدخله الجنة إلا ابتليته في جسده، فان كان ذلك كفارة

لذنوبه، وإلا ضيقت عليه رزقه، فإن كان ذلك كفارة لذنوبه وإلا شددت عليه عند موته، حتى يأتيني ولا ذنب له، ثم أُدخله الجنة. وما من عبد أُريد أن أدخله النار إلا صححت جسمه، فإن كان ذلك تماماً لطلبته عندي وإلا آمنت له من سلطانه، فإن كان ذلك تماماً لطلبته وإلا هوّنت عليه الموت، حتى يأتيني ولا حسنة له ثم أدخله النار»[1].

وإنَّ الله تعالى لا يدخل عبداً النار إلا بعد إتمام الحجة عليه مرات ومرات، إلا بعد تزويده بالرسائل الهادية المرشدة إلى الصراط السوي مرات ومرات. فإذا أمسى جرثومة فساد وغواية وضلال لا تفيد فيه النصائح والبلايا والنوائب والأمراض لم تكن له عاقبة إلا النار، فتطهّره من أدرانه وتعقّمه من جراثيمه وأوضاره، وقد قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: الآية ١٥]. «ولله على الناس الحجة البالغة».

فلم يترك الله تعالى شيئاً فيه ارتقاء البشر في النواحي الروحيّة إلا وقد بينه على لسان أنبيائه ولم يترك ما فيه تسافل النفس الإنسانية إلا وقد فصله أنبياؤه وأوصياء أنبيائه عليهم السلام. ومع ذلك فقد أودع النفس الإنسانية أصول المساوي والمبرات بقوله جلّ من قائل: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۝٨﴾ [الشمس: الآيتان ٧/٨]. كل ذلك، ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: الآية ١٦٥].

وعن أبي جعفر عليه السلام قال: «إنَّ الله عزّ وجلّ إذا كان من أمره أن يكرم عبداً وعليه ذنب ابتلاه بالسقم، فإن لم يفعل ذلك به ابتلاه بالحاجة، فإن لم يفعل ذلك به شدد عليه الموت ليكافيه بذلك الذنب. وإن كان من أمره أن يهين عبداً وله عنده حسنة صحح بدنه وإن لم يفعل ذلك به وسع عليه رزقه، فإن لم يفعل ذلك به هون عليه الموت فيكافيه بتلك الحسنة»[2].

وعن أبي عبدالله عليه السلام قال: إن العبد إذا كثرت ذنوبه ولم يكن عنده من العمل ما يكفرها ابتلاه الله بالحزن ليكفرها[3].

---

(١) أصول الكافي: ج٢، ص٤٦٦، باب تعجيل عقوبة الذنب.

(٢)،(٣) أصول الكافي: ج٢، ص٤٤٤، باب تعجيل عقوبة الذنب.

ولا مراء أنّ المقرّبين عند الله امتحاناتهم أشد وأصعب، فقد أوذي رسول الله ﷺ كثيراً حتى قال: «ما أوذي نبي مثل ما أوذيت».

وإن الإمام الحسين عليه السلام بلغ الدرجة القصوى في تقبله الشهادة بشكل لم يسبق له مثيل ولن يرى الدهر مضحياً مثله في سبيل الدين أبد الآبدين.

وقد قال رسول الله ﷺ: «إنَّ أشد الناس بلاءاً النبيُّون، ثم الوصيُّون، ثم الأمثل فالأمثل وإنما يبتلى المؤمن على قدر أعماله الحسنة فمن صح دينه وحسن عمله اشتدّ بلاؤه، ومن سخف دينه وضعف عمله قل بلاؤه، والبلاء أسرع إلى المؤمن التقي من المطر إلى قرار الأرض ذلك إن الله عزّوجلّ لم يجعل الدنيا ثواب المؤمن ولا عقوبة الكافر»[(١)]، ولذلك يقول جلّ من قائل: ﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا ۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَٱلْءَاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الزّخرُف: الآيات ٣٣/ ٣٥].

فالامتحان أو البلاء إما يكون لزيادة الدرجات وبلوغ المنازل الرفيعة وهذا خاص بالأنبياء والأوصياء عليهم السلام ثم الأمثل فالأمثل، وإما أن يكون لتطهير النفوس ممّا علّق بها من أدران وأوساخ، وذنوب وآثام فهو تكفير لما اجترحت الأيدي من ظلم وبغي ولما قامت به النفوس من حسد وغيبة وكل ما نهى عنه الدين.

فعلى كل فرد أن يحاسب نفسه من حين لآخر ويعمل في إزالة ما علق بها من أدران. وفي الحديث: «حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وزنوها قبل أن توزنوا»[(٢)] فعن أبي الحسن الماضي، (الإمام موسى بن جعفر عليه السلام) «ليس منا من لم يحاسب نفسه كل يوم. فإن عمل حسنة استزاد الله عزَّ وجلَّ، وإن عمل سيئة استغفر الله منها وتاب إليه»[(٣)].

فعلينا أن نعلم أنه كلما زدنا تقرباً إلى الله تعالى وكلما زيد في إيماننا ويقيننا كلما زدنا بلاءاً ونوائب، وهجمت علينا همومٌ وغمومٌ «سنة الله في الذين خلوا من قبل ولن

---

(١) مستدرك الوسائل: ج٢، ص٤٤٠، باب ٦٥.

(٢) وسائل الشيعة: ج١٦، ص٩٩، باب ٩٦.

(٣) أصول الكافي: ج٢، ص٤٥٣، باب محاسبة العمل.

تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلاً» ولذلك يحدثنا الإمام موسى بن جعفر ﷺ: «إن المؤمن بمنزلة كفتي الميزان، كلما زيد في إيمانه زيد في بلائه، ليلقى الله عزّ وجلّ ولا خطيئة له»(١).

يحدثنا أبو عبدالله ﷺ فيما يبتلى به المؤمن أنه يقول: أخذ الله ميثاق المؤمن على أن لا تصدق مقالته ولا ينتصف من عدوّه وما من مؤمن يشفي نفسه إلا بفضيحتها، لأن كل مؤمن ملجم(٢).

وفي حديث آخر: قال: «قال رسول الله ﷺ: إن الله أخذ ميثاق المؤمن على بلايا أربع. أيسرها عليه مؤمن يقول بقوله(٣) يحسده، أو منافق يقفو أثره أو شيطان يغويه، أو كافر يرى جهاده فما بقاء المؤمن بعد هذا»(٤).

ويقول أبو عبدالله ﷺ أيضاً: «ما أفلت المؤمن من واحدة من ثلاث ولربما اجتمعت الثلاثة عليه. إما بعض من يكون معه في الدار يغلق عليه بابه يؤذيه، أو جار يؤذيه أو من في طريقه إلى حوائجه يؤذيه ويجعل الله له من إيمانه أنساً لا يستوحش معهُ إلى أحد»(٥).

فالمؤمن في هذه الدنيا لا يخلو من أذى الآخرين لو كان مؤمناً حقاً.

إما بحسد أو نفاق أو عداء أو إغواء الشيطان. فعن أبي عبدالله ﷺ: أربع لا يخلو منهن مؤمن أو واحدة منهن: مؤمن يحسده وهو أشدهنّ عليه ومنافق يقفو أثره أو عدوّ

---

(١) أصول الكافي: ج٢، ص٤٣٦، باب استحباب احتساب البلاء.

(٢) أصول الكافي: ج٢، ص٢٤٩، باب ما أخذه الله على المؤمن.

(٣) أي يدين بدينه.

(٤) أصول الكافي: ج٢، ص٢٤٩، باب ما أخذه الله على المؤمن.

(٥) أصول الكافي: ج٢، ص٢٥٠.

نتقل هنا ما جاء في حاشية أصول الكافي. الجزء الثاني، ص٢٥٠.

ذكروا لتسليط الشياطين والكفرة على المؤمنين وجوهاً من الحكمة. الأول: أنه كفارة لذنوبه، الثاني: لاختبار صبره وإدراجه في الصابرين. الثالث: لتزهيده في الدنيا لئلا يفتتن بها ويطمئن إليها فيشق عليه الخروج منها، الرابع توسله إلى الحق سبحانه في الضراء وسلوكه مسلك الدعاء لدفع ما يصيبه من البلايا فترتفع بذلك درجته. الخامس: وحشته عن المخلوقين وأنسه برب العالمين (راجع مرآة العقول، ج٢، ص٢٢٢).

يجاهده أو شيطان يغويه»[١]. فـ(إن الله عزّ وجلّ جعل وليه في الدنيا غرضاً لعدوه) كما جاء في الحديث.

يقول محمد بن عجلان، كنت عند أبي عبدالله عليه السلام: فشكى إليه رجل الحاجة فقال: اصبر، فإنَّ الله سيجعل لك فرجاً، قال: ثم سكت ساعة، ثم أقبل على الرجل فقال: أخبرني عن سجن الكوفة كيف هو؟ فقال: ـ أصلحك الله ـ ضيق، منتن وأهله بأسوء حال. قال: فإنما أنت في السجن، فتريد أن تكون فيه في سعة، أما علمت أنّ الدنيا سجن المؤمن[٢].

وعن أبي عبدالله عليه السلام أنه قال: «المؤمن مكفر». أي أنّ الناس لا يشكرون له معروفه وإحسانه.

وفي خبر آخر: «ما من مؤمن إلا وقد وكّل الله به أربعة: شيطاناً يغويه، يريد أن يضله وكافراً يغتاله ومؤمناً يحسده وهو أشدّهم عليه ومنافقاً يتبع عثراته»[٣].

فالمؤمن في هذه الدنيا مسلوب الراحة، ممتحن لا محالة بأنواع الأذى والنوائب، فعن أبي عبدالله عليه السلام ما كان ولا يكون وليس بكائن مؤمن إلا وله جار يؤذيه، ولو أن مؤمناً في جزيرة من جزائر البحر لابتعث الله له من يؤذيه.

فكلما كان العبد إلى الله أقرب كان بلاؤه أشد وأصعب، فعن أبي عبدالله عليه السلام: إن أشدّ الناس بلاءاً[٤] الأنبياء ثم الذين يلونهم ثم الأمثل فالأمثل.

وعن أبي عبدالله عليه السلام قال: سئل رسول الله صلى الله عليه وآله: «من أشد الناس بلاءاً في الدنيا فقال: النبيُّون، ثم الأمثل فالأمثل. ويبتلى المؤمن، بعد على قدر إيمانه وحسن أعماله، فمن صحّ إيمانه وحسن عمله اشتدَّ بلاؤه ومن سخف إيمانه وضعف عمله قلَّ بلاؤه»[٥].

فنرى أن زيادة البلاء تتناسب طردياً مع قوة الإيمان، حتى إن الله تعالى يدفع عن المؤمن الحقيقي بعض المتع الدنيوية فعن أبي عبدالله عليه السلام: «إنّ لله عزّ وجلّ عباداً في

---

(١)،(٢)،(٣) أصول الكافي: ج٢، ص٢٥٠.

(٤) ما يختبر ويمتحن به من خير وشر. أصول الكافي: الجزء الثاني. ص٢٥١.

(٥) أصول الكافي: ج٢، ص٢٥٢.

الأرض من خالص عباده، ما ينزل من السماء تحفة إلى الأرض إلا صرفها عنهم إلى غيرهم ولا بلية إلا صرفها إليهم»[١]. وفي خبر آخر: عن أبي عبدالله عليه السلام أنه قال ـ وعنده سدير ـ «إن الله إذا أحب عبداً غته بالبلاء غتا، وأنا وإياكم، يا سدير، لنصبح به ونمسي»[٢].

وعن أبي جعفر عليه السلام قال: «إنما يبتلى المؤمن في الدنيا على قدر دينه ـ أو قال ـ على حسب دينه»[٣].

فلا بدّ للمؤمن من أحزان وهموم يطهر بها نفسه، حتى لا تتراكم عليه ذنوبه فيسوّد القلب على ما جاء في بعض الأحاديث. لذلك يقول إمامنا أبي عبدالله عليه السلام: «المؤمن لا يمضي عليه أربعون ليلة إلا عُرض له أمر يحزنه يذكّر به»[٤].

يقول ناجية قلت لأبي عبدالله عليه السلام أن المغيرة[٥] يقول: إن المؤمن لا يبتلى بالجذام ولا بالبرص ولا بكذا ولا بكذا؟ فقال: إن كان لغافلاً عن صاحب ياسين، إنه كان مكنعاً[٦] ثم رد أصابعه[٧] فقال: كأني أنظر إلى تكنيعه أتاهم فأنذرهم، ثم عاد إليهم من الغد فقتلوه، ثم قال: إن المؤمن يبتلى بكل بليَّة ويموت بكل ميتة إلا أنه لا يقتل نفسه[٨].

وقد قال أبو عبدالله عليه السلام: إن في الجنة منزلة لا يبلغها عبد إلا بالابتلاء في جسده[٩].

---

(١)، (٢)، (٣)، (٤) أصول الكافي: ج٢، ص٢٥٢.

(٥) هو المغيرة بن سعيد الذي روى الكشي روايات كثيرة تدل على لعنه وروى أن أبا الحسن الرضا عليه السلام قال إنه كان يكذب على أبي جعفر عليه السلام فأذاقه الله حر الحديد.

(٦) إن كان لغافلاً: إن مخففة من المثقلة وصاحب ياسين هو حبيب بن إسرائيل النجار رضي الله عنه، وهو الذي جاء من أقصى المدينة يسعى، وكان ممن آمن بنبينا صلى الله عليه وآله وبينهما ٦٠٠ سنة وعن النبي صلى الله عليه وآله: «سباق الأمم ثلاثة، لم يكفروا بالله طرفة عين: علي بن أبي طالب وصاحب ياسين ومؤمن آل فرعون» وفي رواية هم الصديقون وعلي أفضلهم. والمكنع (بتشديد النون المفتوحة): أشل اليد ومقطوعها. وهو من رجعت أصابعه إلى كفه وظهرت مفاصل أصول الأصابع.

(٧) «ثم رد أصابعه» من كلام الراوي، أي رد عليه السلام أصابعه إلى كفه اشارة إلى تكنيعه.

(٨) نقلنا الحديث مع الشرح من أصول الكافي، ج٢، ص٢٥٤.

(٩) أصول الكافي: ج٢، ص٢٥٥.

ويقول عبدالله بن أبي يعفور: شكوت إلى أبي عبدالله عليه السلام ما ألقى من الأوجاع، وكان مسقاماً، فقال لي يا عبدالله، لو يعلم المؤمن ما له من الأجر في المصائب لتمنى أنه قُرض بالمقاريض[١].

وقال عليه السلام: «إن أهل الحق لم يزالوا منذ كانوا في شدة أما إن ذلك إلى مدة قليلة وعافية طويلة[٢]. وعن أبي جعفر عليه السلام: إن الله عزّ وجلّ ليتعاهد المؤمن بالبلاء كما يتعاهد الرجل بالهدية من الغيبة ويحميه الدنيا كما يحمي الطبيب المريض[٣] (ويحميه الدنيا أي يمنعه الدنيا). وعن أبي عبدالله عليه السلام: لم يؤمن الله المؤمن من هزاهز الدنيا، لكنه آمنه من العمى فيها والشقاء في الآخرة[٤]، وقال عليه السلام: إن المؤمن من الله عزّ وجلّ لبأفضل مكان ـ ثلاثاً ـ إنه ليبتليه بالبلاء ثم ينزع نفسه عضواً عضواً من جسده وهو يحمد الله على ذلك[٥].

وقال علي بن الحسين عليه السلام: إني لأكره للرجل أن يعافى في الدنيا فلا يصيبه شيء من المصائب.

ذلك لأنّ من لا يبتلى بمصائب ونوائب بعيد عن رحمة الله تركه الله تعالى ونفسه. فتتراكم عليه ذنوبه ومآ له النار ﴿نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التوبة: الآية ٦٧] لذلك يخرج النبي صلى الله عليه وآله كما في الحديث الآتي من بيت رجل لم يرزأ قط. فقد قال أبو عبدالله عليه السلام: دعي النبي صلى الله عليه وآله إلى طعام. فلما دخل منزل الرجل نظر إلى دجاجة فوق حائط قد باضت، فتقع البيضة على وتد في حائط فثبتت عليه ولم تسقط ولم تنكسر، فتعجب النبي صلى الله عليه وآله منها فقال له الرجل: أعجبت من هذه البيضة، فوالذي بعثك بالحق ما رزئت شيئاً قط (قال): فنهض رسول الله صلى الله عليه وآله ولم يأكل من طعامه شيئاً، وقال: من لم يرزأ فما لله فيه من حاجة[٦].

* * *

ونعوذ بالله من استدراجه وترك العبد يلهو ويلعب لا يفكر في مصيره وما سوف يعذب به في آخرته. ذلك العذاب الذي يصفه الله تعالى بقوله ﴿إِذِ ٱلْأَغْلَـٰلُ فِىٓ أَعْنَـٰقِهِمْ وَٱلسَّلَـٰسِلُ

---

(١)، (٢)، (٣)، (٤)، (٥) أصول الكافي: ج٢، ص٢٥٥.
(٦) أصول الكافي، ج٢، ص٢٥٦.

يُسۡحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِي ٱلۡحَمِيمِ ثُمَّ فِي ٱلنَّارِ يُسۡجَرُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [غافر: الآيتان ٧١/ ٧٢] وهو القائل: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَنَسۡتَدۡرِجُهُم مِّنۡ حَيۡثُ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمۡلِي لَهُمۡۚ إِنَّ كَيۡدِي مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾﴾ [الأعراف: الآيتان ١٨٢/ ١٨٣].

﴿فَذَرۡنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِۖ سَنَسۡتَدۡرِجُهُم مِّنۡ حَيۡثُ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمۡلِي لَهُمۡۚ إِنَّ كَيۡدِي مَتِينٌ﴾ [القلَم: الآيتان ٤٤/ ٤٥].

وقد قال رسول الله ﷺ في مقام تحذير الناس من استدراج الله تعالى: «إذا رأيتم الرجل يعطيه الله ما يحب وهو سقيم على معصيته فاعلموا أن ذلك استدراج ثم قرأ قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحۡنَا عَلَيۡهِمۡ أَبۡوَٰبَ كُلِّ شَيۡءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةً فَإِذَا هُم مُّبۡلِسُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الأنعام: الآية ٤٤].

وروي أن نبياً من الأنبياء شكى إلى ربه فقال: «يا رب العبد المؤمن يطيعك ويجتنب معاصيك، تزوي عنه الدنيا وتعرضه للبلاء، ويكون العبد الكافر لا يطيعك ويجترئ على معاصيك، تزوي عنه البلاء وتبسط له الدنيا. فأوحى الله تعالى إليه أن العباد إليّ والبلاء لي، وكل يسبح بحمدي. فيكون المؤمن عليه من الذنوب، فأزوي عنه الدنيا واعرض له البلاء فيكون كفارة لذنوبه حتى يلقاني فأجزيه بحسناته، ويكون الكافر له من الحسنات، فأبسط له في الرزق وأزوي عنه البلاء فأجزيه بحسناته في الدنيا حتى يلقاني فأجزيه بسيِّئاته».

وقد سمعت نقداً كثيراً واعتراضات واهية بالنسبة إلى تنعم الكافر. والاقتار في الرزق بالنسبة إلى المؤمن، وأنا أدرس في جامعة استانبول. ولقد سمعت أخيراً أيضاً أن فلاناً كان في ضنك من العيش وهو يصلي ويصوم، فترك الصلاة والصوم فوسع عليه في رزقه، حتى إن البعض ينصح غيره بترك الدين وفرائضه ليعيش عيشة هنيئة ويبلغ مناصب دنيوية زائلة، وقد ذكرناه جواب للمعترض، ونستجير بالله من استدراجه.

وقال رسول الله ﷺ: لا حاجة لله في من ليس له في ماله وبدنه نصيب[1]. (ويراد بالنصيب هنا: النقص).

---

(١) أصول الكافي: ج٢، ص٢٥٦.

وعن أبي عبدالله عليه السلام قال: «إن الله عزّوجلّ يبتلي المؤمن بكل بلية ويميته بكل ميتة ولا يبتليه بذهاب عقله. أما ترى أيوب كيف سلط إبليس على ماله وعلى ولده وعلى أهله وعلى كل شيء منه ولم يسلط على عقله ترك له ليوحد الله به»(١).

وقال أيضاً: إنه ليكون للعبد منزلة عند الله، فما ينالها إلا بإحدى خصلتين، إما بذهاب ماله أو ببلية في جسده(٢).

وقال أيضاً: قال الله عزّ وجلّ: «لولا أن يجد عبدي المؤمن في قلبه(٣) لعصبت رأس الكافر بعصابة حديد لا يُصدع رأسه أبداً»(٤).

وقال أيضاً: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: مثل المؤمن كمثل خامة الزرع(٥) تكفئها(٦) الرياح كذا وكذا، وكذلك المؤمن تكفئه الأوجاع والأمراض ومثل المنافق كمثل الإرزبة المستقيمة التي لا يصيبها شيء حتى يأتيه الموت فيقصفه قصفاً(٧).

وعن أبي عبدالله عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله يوماً لأصحابه: ملعون كل مال لا يزكى، ملعون كل جسد لا يزكى ولو في كل أربعين يوماً مرة فقيل: يا رسول الله أما زكاة المال فقد عرفناها، فما زكاة الأجساد؟ فقال لهم: أن تصاب بآفة، قال: فتغيرت وجوه الذين سمعوا ذلك منه، فلما رآهم قد تغيرت ألوانهم قال لهم: أتدرون ما عنيت بقولي؟ قالوا: لا، يا رسول الله، قال: «بلى، الرجل يخدش الخدشة وينكب النكبة ويعثر العثرة ويمرض المرضة ويشاك الشوكة وما أشبه هذا، حتى ذكر في حديثه اختلاج العين»(٨).

---

(١)،(٢) أصول الكافي: ج٢، ص٢٥٦.

(٣) شكا أو حزنا شديداً.

(٤) أصول الكافي: ج٢، ص٢٥٧.

(٥) أول ما نبت على ساق.

(٦) (بالهمزة) أي تقلبها. الأرزبة: عصبة من حديد.

(٧) أصول الكافي: ج٢، ص٢٥٧؛ وقصف الشيء: كسره.

(٨) الاختلاج: مرض من الأمراض وقد ذكره الأطباء وهو حركة سريعة متواترة غير عادية تعرض لجزء من البدن.

وقال أبو عبدالله عليه السلام: إن المؤمن ليكرم على الله حتى لو سأله الجنة بما فيها أعطاه الله ذلك من غير أن ينتقص من ملكه شيئاً وإن الكافر ليهوّن على الله، حتى لو سأله الدنيا بما فيها أعطاه ذلك من غير أن ينتقص من ملكه شيئاً، وإن الله ليعاهد عبده المؤمن بالبلاء كما يتعاهد الغائب أهله بالطرف[١]، وإنه ليحميه الدنيا كما يحمي الطبيب المريض[٢].

وعن يونس بن عمار قال: قلت لأبي عبدالله عليه السلام: إن هذا الذي ظهر بوجهي[٣] يزعم الناس أن الله لم يبتل به عبداً لله فيه حاجة، قال، فقال لي: لقد كان مؤمن آل فرعون مكنع الأصابع[٤]، فكان يقول هكذا ـ ويمدّ يديه ـ ويقول: ﴿يا قوم اتبعوا المرسلين﴾ ثم قال لي: إذا كان الثلث الأخير من الليل في أوله فتوضأ وقم إلى صلاتك التي تصليها، فإذا كنت في السجدة الأخيرة من الركعتين الأوليّين فقل وأنت ساجد: «يا عليّ يا عظيم، يا رحمن يا رحيم، يا سامع الدعوات يا معطي الخيرات، صلِّ على محمد وآل محمد وأعطني من خير الدنيا والآخرة ما أنت أهله واصرف عني من شر الدنيا والآخرة ما أنت أهله واذهب عني هذا الوجع ـ وتسميه ـ فإنه قد غاظني وأحزنني، وألحَّ في الدعاء قال: فما وصلت إلى الكوفة حتى أذهب الله به عني كله[٥].

* * *

على كل فرد أن يعتبر بما يراه من نقص في الآخرين، فإذا رأى رجلاً أعمى عليه أن يشكر الله الذي عافاه من العمى، وإن رأى رجلاً ألكن عليه أن يشكر الله على ما وهبه من طلاقة في اللسان وإن رأى سائلاً محتاجاً عليه أن يقدم له مع الامتنان من فضول ماله وأن يشكر الله على ما أنعم عليه من غنى وعدم الحاجة إلى آخرين.

---

(١) الطرف: جمع طرفة وهي ما يستطرف أي يستملح. ويحميه: يمنعه.
(٢) أصول الكافي: ج٢، ص٢٥٨.
(٣) الآثار التي ظهرت بوجهه كانت برصاً ويحتمل الجذام.
(٤) هو الذي وقعت أصابعه.
(٥) أصول الكافي: ج٢، ص٢٥٩.

فعن أبي جعفر عليه السلام قال: إذا رأيت الرجل مرَّ به البلاء فقل: الحمد لله الذي عافاني مما ابتلاك به وفضلني عليك وعلى كثير ممن خلقه، ولا تُسمعه[١].

* * *

إن ما ذكرناه لحد الآن خاص بنوائب بسيطة لا تؤدّي إلى الإبادة والهلاك، لكن الزلازل تزهق النفوس وتبيد القرى، وكذلك العواصف الشديدة، والأوبئة وأمثالها، فإنّ الله تبارك وتعالى يريد بهذا أن يعلم الناس أنّ الحياة والممات بيده ولا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، كي ينتبه هذا الإنسان عن غوايته وطيشه، فلا يعصي الله في السر والعلن[٢] ويترك ما عليه من فساد وإفساد في الأرض ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٠٥]، وهو القائل:

﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَ أَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ ٱللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾ أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ [الأعراف: الآيات ٩٧/ ١٠٠].

وفي استطاعته تعالى أن يبيد الأرض ومن عليها في طرفة عين وهو القائل: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾﴾ [هُود: الآيتان ٨٢/ ٨٣].

﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٦٧﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَآ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَاْ كَفَرُواْ رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴿٦٨﴾﴾ [هُود: الآيتان ٦٧/ ٦٨].

وحاشَ لله أن يريد ظلماً بأحد من الناس. وهو القائل: ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [النّحل: الآية ١١٨] ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾﴾ [الشّورى: الآية ٣٠].

---

(١) أصول الكافي: ج٢، ص٥٦٥، باب الدعاء للعلل.

(٢) إنه تعالى يقول: ﴿وَذَرُواْ ظَٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْسِبُونَ ٱلْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُواْ يَقْتَرِفُونَ ﴿١٢٠﴾﴾ [الأنعام: الآية ١٢٠].

فتارة تكون هذه الزلازل للعقاب أي أن الله يبيد قسماً من عباده العاصين لإفسادهم في الأرض ولعدم تأثير النصح فيهم والإمهال، بعد إتمام الحجج البالغة مع تنوعها وكثرتها.

وتارة تكون عبرة للآخرين ليعلموا: ﴿إن ربك لبالمرصاد﴾ ولكي ينتهوا عماهم فيه من معاصٍ وإفساد في الأرض، ويتوجَّهوا إلى الحق. المتعال، فإذا كان في من ابيدوا رجال صالحون، فسينالون أجرهم أضعافاً مضاعفة في آخرة سعيدة تستمر ملايين السنين. وإن كان أحد هؤلاء الذين تنتابهم الزلازل أو يصيبهم الغرق من الصلحاء فقد فاز بدرجة الشهادة كما جاء في بعض الأخبار. وإن كان ممن ﴿خلطوا عملا صالحاً وآخر سيئاً﴾ أي كانت له أعمال صالحة وأعمال سيئة، فهذا الغرق أو الحرق أو ابتلاع الأرض له يكون كفارة لذنوبه، فيكون بفضله تعالى من أصحاب الجنة فيصبح ما نعده نقمة، رحمة له.

فكم من أناس ينهدم عليهم سقف أو حائط فيموتون حالاً ولكن هذا النوع من الموت رحمة، يجب على العبد أن يشكر الله عليه لأن مآله الجنة إن شاء الله، شريطة أن لا يكون هذا الشخص ممن كفر بأنعم الله أو جحد وجود الله!؟ فلا تطهره الحالات الخاصة من الكوارث والبلايا المهلكة!

إذن، ليست الزلازل والعواصف على ما يظنه البعض، بلاءاً ونقمة، وإنما هي ألطاف ربانية ورحمة.

يحدِّثنا عبدالله بن سلام عن رسول الله ﷺ، قال سألت رسول الله ﷺ فقلت: أخبرني، أيعذب الله عزّ وجلّ خلقاً بلا حجة فقال: معاذ الله، قلت: فأولاد المشركين في الجنة أم في النار؟ فقال: الله تبارك وتعالى أولى بهم، إذا كان يوم القيامة وجمع الله الخلائق لفصل القضاء. يأتي بأولاد المشركين فيقول لهم: عبيدي وإمائي من ربكم وما دينكم وما أعمالكم قال فيقولون: اللهم أنت ربنا، أنت خلقتنا ولم نخلق شيئاً وأمتنا ولم نمت شيئاً، ولم تجعل لنا ألسنة ننطق بها ولا أسماعاً نسمع بها ولا كتاباً نقرؤه ولا رسولاً فنتبعه ولا علماً لنا إلا ما علمتنا، قال فيقول لهم عزّ وجلّ: عبيدي وإمائي: إن أمرتكم بأمر تفعلوه، فيقولون: السمع والطاعة لك ربنا، قال: فيأمر الله عزّ

وجلّ ناراً: يقال لها الفلق، أشد شيء في جهنم عذاباً، فتخرج من مكانها سوداء مظلمة بالسلاسل والأغلال، فيأمرها الله عزّ وجلّ أن تنفخ في وجوه الخلائق نفخة. فمن شدة نفختها تنقطع السماء وتنطمس النجوم وتجمد البحار وتزول الجبال وتظلم الأبصار وتضع الحوامل حملها وتشيب الولدان من هولها يوم القيامة. ثم يأمر الله تبارك وتعالى: أطفال المشركين أن يلقوا أنفسهم في تلك النار. فمن سبق له في علم الله عزّ وجلّ أن يكون سعيداً ألقى نفسه فيها فكانت عليه برداً وسلاماً. كما كانت على إبراهيمعليه السلام. ومن سبق له في علم الله عزّ وجلّ أن يكون شقياً امتنع، فلم يلقِ نفسه في النار، فيأمر الله تبارك وتعالى النار فتلتقطه لتركه أمر الله وامتناعه من الدخول فيها، فيكون تبعاً لآبائه في جهنم، وذلك قوله عزّ وجلّ: ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ ۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۖ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾﴾[(١)] [هُود: الآيات ١٠٥/١٠٨].

وعن أبي جعفرعليه السلام قال: إذا كان يوم القيامة، احتج الله عزّ وجل على سبعة: على الطفل، والذي مات بين النبيّين، والشيخ الكبير الذي أدرك النبي وهو لا يعقل، والأبله، والمجنون الذي لا يعقل، والأصم والأبكم. فكل واحد منهم يحتج على الله عزّ وجلّ فيبعث الله عزّ وجلّ إليهم رسولاً، فيؤجج إليهم ناراً ويقول: «إن ربكم يأمركم أن تثبوا فيها، فمن وثب فيها كانت عليه برداً وسلاماً ومن عصى سيق إلى النار»[(٢)].

وقد علمنا الله تبارك وتعالى على لسان أنبيائه وأوصياء أنبيائه كيف ندرأ عنا العذاب فإنّ الصاعقة لا تصيب المؤمن إذا كان ذاكراً لله تعالى لا ينفك عن ذكره.

فعن أبي بصير قال: سألت أبا عبدالله عن ميتة المؤمن قال «يموت المؤمن بكل ميتة: يموت غرقاً ويموت بالهدم، ويبتلى بالسبع ويموت بالصاعقة ولا تصيب ذاكراً لله عزّ وجلّ»[(٣)].

وقد يعترض البعض: لماذا يبكي الطفل؟ ولقد ثبت أن هذا البكاء رياضة مفيدة

---

(١) غير مجذوذ: غير منقطع.
(٢) التوحيد، للصدوق: ص٣٩٢، باب ٦١.
(٣) أصول الكافي: ج٢، ص٥٠٠.

لجوارح الطفل، فبكاؤه يؤدي إلى حركات مختلفة نافعة في أعضائه، في القلب والدم والرئة والحنجرة والأعصاب والعضلات والاطراف والوجه والبطن إلى ما هنالك. وهو نداء في بعض الأوقات لبعض حاجات الطفل وكلما تقدم هذا العلم المادي عُلم أن ما من شيء في تركيب جسم الإنسان وسائر الحيوانات إلا عن حكمة بالغة، لم يقف عليها البشر لقلة معلوماته وجهله غير المتناهي وعدم تقدم العلم إلى درجة مرموقة، وقد علموا أخيراً أن للزائدة الدودية واللوزتين آثارهما وفوائدهما.

إن الله قد يجعل الولد يولد أعمى، محروماً من البصر، وفي ذلك أسباب وحكم خفيت علينا، منها إن هذا الأعمى قد قبل في عالم الذر وارتضى أن يكون عديم البصر، حتى ينال في هذه الدنيا الموقتة مراتب تقربه إلى الله ومزيداً من المعارف الإلٓهية، ذلك لأن من أهم القربات تقبل الأذى والصبر على النوائب، وقد صبر هذا الأعمى طوال عمره على هذه المحرومية، ليكفّ عن نفسه تلك المعاصي الكثيرة التي يرتكبها بالباصرة. فأجره عظيم وثوابه جزيل ولعله خير في عالم الذريين أن يكون مبصراً مع العصيان والكفر وسوء العاقبة، وبين أن يكون أعمى، متقرباً إلى الله مع حسن العاقبة، فاختار لصفاء في نفسه ولعقل أودعه الله فيه، الشق الأول ففاز بحسن العاقبة وجنات عدن.

وأصبح بتقبله العمى عبرة للآخرين وموعظة للمبصرين، حتى يشكروا الله على ما منحهم من نعمة الإبصار، وما أعظمها!..

فعلى المرء أن لا يغتر بأفكاره وما هو عليه من معلومات ضئيلة جداً بالنسبة لما أودع الله من قوانين وأنظمة مترابطة في هذا الكون الرحيب، ﴿مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن تَفَاوُتٍ ۖ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿٤﴾﴾ [الإنسان: الآيتان ٣/ ٤].

وهو القائل: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ[1] كَلِمَاتُ اللَّهِ﴾ [لقمان: الآية ٢٧].

---

(١) ما نفدت: ما انتهت.

ذلك، لأن الأرض التي نعيش عليها كهباءة ضئيلة في شعاع الشمس إذا دخل من نافذة في غرفة مظلمة، فإذا نسبنا حجم محبرة موضوعة على منضدة إلى الغرفة بل إلى البيت، بل إلى المدينة التي نعيش فيها بل إلى القطر الذي نعيش فيه، إلى القارة (آسيا) التي نحن من ضمنها لكانت نسبة حجم أرضنا إلى هذا الكون الرحيب أقل بكثير من تلك النسبة. فما أوسع هذا العالم!

ومعلوم أن أرضنا هذه ليست إلا واحداً من الكواكب السيارة التسعة، وهي تدور مع رفيقاتها (وهي بالترتيب): عطارد، الزهرة، الأرض، المريخ، المشتري، زحل، أورانس، نبتون، بلوتو حول الشمس في منحنيات اهليليجية (قطع ناقص). وما أصعب رسم القطع الناقص في الهندسة، ومعادلته:

$$\frac{س^{٢}}{ب^{٢}} + \frac{ص^{٢}}{جـ^{٢}} = ١$$

(ب = نصف القطر الكبير، جـ = نصف القطر الصغير)

وإنّ هذه المجموعة الشمسية تضم فضلاً عن ذلك حوالي ١٦٠٠ كويكب صغير يتراوح قطر الواحد منها ما بين كيلو مترين إلى ٨٠٠ كيلو متر تقريباً. وكل منها يدور في فلك خاص به، ولكنها جميعاً موجودة في الفضاء الواسع بين فلكي المريخ والمشتري.

وإن الأجرام السماوية التي نراها منتشرة بكثرة هائلة في السماوات ليست كلها نجوماً، كما نتحدث عنها في حياتنا العامة، بل إنها تضم أجراماً أخرى كثيرة من أهمها الكواكب وتوابعها من الأقمار، ولكننا مع ذلك لا نستطيع أن نميز بسهولة بمجرد النظر إلى السماء بالعين المجردة بين الكواكب والنجوم لأنها جميعاً تبدو متشابهة إلى حد كبير. ولهذا السبب فإن لنا كثيراً من العذر في أن نطلق عليها: اسم النجوم[١].

أما علماء الفلك فيمكنهم أن يميّزوا النجوم عن الكواكب بواسطة المناظر المكبرة، وهم يقولون أن النجم (Star) يختلف عن الكوكب (Planet) من ناحيتين أساسيَّتين هما:

---

(١) أسرار غزو الفضاء: للدكتور عبدالعزيز شرف.

١ ـ إن النجم أعظم حجماً بكثير من الكواكب، فبينما نجد مثلاً أن قطر أكبر كوكب من كواكب المجموعة الشمسيَّة وهو المشتري يبلغ حوالي (١٤٤) ألف كيلو متراً، أو: (٩٠ ألف ميل) نجد أن قطر الشمس وهي النجم الذي نتبعه هذه الكواكب ١٣٨٤٠٠٠ كيلو متراً، (٨٦٥٠٠٠ ميل)، مع ملاحظة أن الشمس ليست هي أكبر النجوم بأي حال من الأحوال. فمن النجوم ما هو أكبر منها بكثير ومنها ما هو أصغر منها. ويطلق على الأولى اسم: النجوم العمالقة، بينما يطلق على الثانية اسم: «النجوم الأقزام».

٢ ـ إن النجم يكون دائماً ملتهباً ومضيئاً إضاءة ذاتية، ويرجع ذلك إلى عظم حجمه لأنَّ هذا العظم يترتب عليه ازدياد الضغط والحرارة في باطنه زيادة تؤدي إلى حدوث تفاعلات كثيرة تتولّد عنها باستمرار طاقة هيدروجينية وذريَّة عظيمة جداً. أما الكوكب فإن صغر حجمه نسبياً لا يساعد على تولد مثل هذه الطاقة، ولذلك فإنه يكون دائماً معتماً وليس له ضوء خاص به. ولكن على الرغم من ذلك فإن الكواكب تبدو لنا مضيئة بسبب انعكاس ضوء النجوم على سطحها.

وتوجد في الفضاء ملايين من النجوم والكواكب وعدد النجوم المعروفة لنا في الوقت الحاضر أكثر من ١٥٠ ألف مليون نجم بكثير وليست الشمس إلا واحداً منها. وتفصل النجوم بعضها عن بعض مسافات لا يمكن تصورها ولا يمكن تقديرها بوحدات القياس العادية، ولهذا السبب اتفق علماء الفلك على استخدام وحدة خاصة لقياس هذه المسافات[1]، وهذه الوحدة هي السنة الضوئية ويقصد بها المسافة التي يستطيع الضوء، وسرعته (٣٠٠,٠٠٠) كيلو متراً في الثانية، أو (١٩٥٠٠٠ ميل) أن يقطعها في سنة كاملة وهي تساوي على وجه التقريب (٩٤٦١٠٠٠٠٠٠٠٠) كيلو متر أو (٥,٨٧٥,١٥٧,٠٠٠,٠٠٠ ميل).

أما البعد بين الكواكب السيارة بعضها عن بعض فتستخدم في قياسه وحدة أخرى أصغر من السنة الضوئية، ويطلق عليها اسم الوحدة الفلكية Astronomical Unit ومقدارها هو متوسط البعد بين الأرض والشمس في الفصول المختلفة وهو ١٤٨ مليون كيلو متر: (٩٣ مليون ميل).

---

(١) قد شرحنا هذا الموضوع في بقية أجزاء التكامل شرحاً وافياً.

وإذا نظرنا إلى السماء في ليلة صافية لاحظنا أن بعض النجوم أكثر لمعاناً من بعضها الآخر، ولكن يجب أن لا نأخذ هذا اللمعان دائماً دليلاً على ضخامة النجم، لأنّ بعض النجوم قد تكون أكثر لمعاناً من نجوم أخرى أضخم منها. لا لشيء إلا لأن الأخيرة أبعد عن الأولى.

وربما يخيل إلى البعض منا أن النجوم مبعثرة في السماء دون أن يكون لها نظام ثابت، وفي هذا خطأ شديد. إذ الواقع أنها منظمة إلى أبعد الحدود، بحكمة الله جلت قدرته في مجموعات: هي التي تسمى بالمجرات. ومن أهمها بالنسبة لنا: المجرة التي نحن من أبنائها وهي تشتهر عندنا باسم: (سكة التبانة)، بينما تشتهر عند الأوربيين باسم: (السكة اللبنية Milky way) ويمكننا أن نميزها بسهولة إذا نظرنا إلى السماء حيث نجد أنها تمتد على شكل نطاق عظيم متصل لا نهاية له، وفي هذا النطاق تتزاحم النجوم بدرجة يجعل لونها يميل إلى البياض، وهذا هو السبب الذي أوحى للعرب بأن يطلقوا عليه اسم: سكة التبانة، وفي هذه التسمية تشبيه بين النجوم الكثيرة المتناثرة وجزيئات التبن التي تتطاير على طول الطريق الذي يسير فيه بائعوه. وهو نفس السبب الذي أوحي للكتاب الغربيين أن يطلقوا عليه اسم: (طريق اللبن).

وليست شمسنا بكواكبها وأقمارها إلا جزءاً من هذه المجرة، ولكنه جزء ضئيل جداً لا يشغل منها إلا مساحة أشبه بالمساحة التي تشغلها حبة رمل واحدة من أراضي مصر كلها.

وبالإضافة إلى مجرتنا: سكة التبانة، خلق الله مجرات أخرى كثيرة جداً، بعضها أكبر من مجرتنا حجماً ويبلغ عدد المجرات المعروفة عندنا لحد اليوم مائة مليون مجرة تقريباً. ومن أقربها إلى مجرتنا مجرة: الأندروميدا، أو المرأة المتسلسلة وهي تبعد عنا بنحو ٧٥٠ ألف سنة ضوئية، ولهذا فليس من العجيب أن نراها ضئيلة في الفضاء، وهي تبدو على شكل سحابة صغيرة يبلغ طولها حوالي قطر قرص القمر عندما يكون بدراً، بينما يبلغ عرضها نصف ذلك تقريباً وهي ذات ذراعين يميّزانها عن غيرها من المجرات.

وتفصل المجرات بعضها عن بعض مسافات شاسعة جداً من الفضاء يبلغ طولها

في المتوسط حوالي مليونين من السنين الضوئية، وهي جميعاً تتبع نظاماً واحداً في حركاتها، فكل مجرة منها تدور حول نفسها كما يدور قرص الرحى، وكل نجم من نجومها يدور حول نفسه بنفس النظام وكل كوكب أو قمر من أقمارها يدور كذلك بنفس النظام وفي نفس الاتجاه ولكن بسرعات مختلفة، كما نشاهد ذلك في حركة الالكترونات حول البروتونات المتجمعة في بطن الذرة ولكن بسرعات مختلفة أيضاً. وهذا دليل على وحدة الخلق ووحدانية الخالق جلت عظمته ﴿مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن تَفَاوُتٍ﴾ [المُلك: الآية ٣] ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾﴾ [لقمَان: الآية ٢٨].

ويبلغ قطر مجرتنا: (سكة التبانة) من أحد طرفيها حتى طرفها الآخر مائة ألف سنة ضوئية وتقع الشمس على بعد حوالي ٣٠ ألف سنة ضوئية من مركزها، وتدور الشمس حول هذا المركز مرة كل ٢٥٠ مليون سنة تقريباً: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [الحَجّ: الآية ٤٧].

وحتى في المجرة الواحدة تجد أن الأبعاد التي تفصل النجوم بعضها عن بعض شاسعة جداً. فالبعد بين شمسنا وبين أقرب النجوم الأخرى إلينا يزيد على ٤١ مليون مليون كيلو متر أو: (٢٦ مليون مليون ميل) أي حوالي ٤,٤ سنة ضوئية. فلو أننا مثّلنا الشمس بنقطة وأردنا أن نمثل أقرب نجم لها لمثلناه بنقطة أخرى تبعد عن الأولى بنحو ٦ كيلو مترات!

وهكذا نجد أننا بأرضنا وشمسنا وقمرنا وأقربائنا من الكواكب وتوابعها في عزلة تامة من سائر الأكوان، ويفصل بيننا وبينها فضاء تام لا نعرف حتى الآن صفاته على وجه التحديد.

وشمسنا عبارة عن كرة ضخمة ملتهبة قطرها ١,٢٢٤٠٠٠ كيلومتراً أو: (٨٦٥٣٨٠ ميلا)، أما الأرض فقطرها بين القطبين ١٢٧١٤ كيلو متراً = (٧٩٠٠ ميل) ويزيد قطرها الاستوائي بنحو ٤٣ كيلو متراً. أما حجمها فلا يزيد على $\frac{١}{٣٣٣٤٠٠}$ فقط من حجم الشمس.

وتقدر درجة الحرارة على سطح الشمس بنحو ٦٠٠٠ درجة مئوية، أما في باطنها

فترتفع إلى أكثر من ٢٠ مليون درجة. ويمكننا أن نقدر مدى هذه الحرارة إذا عرفنا أن الحديد ينصهر في ١٥٠٠ درجة مئوية فقط.

وتتولد حرارة الشمس وغيرها من النجوم نتيجة للانفجارات الذرية والهيدروجينية التي تحدث فيها باستمرار بسبب الضغط والحرارة العظيمين في باطنها من ناحية ووجود عنصري الهيدروجين والهيليوم بكثرة هائلة فيها من ناحية أخرى. فمن المعروف أنّ هذين العنصرين هما العنصران الأساسيان في توليد الطاقة الهيدروجينيّة، وفضلاً عن ذلك فقد ثبت أيضاً: أن اليورانيوم وهو العنصر اللازم لتوليد الطاقة الذريّة موجود هو الآخر بكثرة هائلة في الشمس ولكنه أقل نسبياً من الإيدروجين والهيليوم.

وتنبعث من الشمس باستمرار اشعاعات قوية جداً ولكن لا يصل إلى أرضنا منها إلا ما يعادل واحد (١) على ٢٢٠٠٠ مليون فقط. وهي ميزة لم يخص بها أي كوكب آخر، فلو أن الأرض اقتربت من الشمس أكثر مما عليه الآن لازدادت الأشعة التي تصل إليها بدرجة تؤدي إلى امتناع الحياة فوقها، كما هي الحال في عطارد والزهرة، ولو أنها ابتعدت عنها أكثر مما هي عليه الآن، لحدث العكس وقلّت الأشعة وازدادت قسوة البرد بدرجة تؤدّي كذلك إلى امتناع الحياة، كما هي الحال في المشتري وزحل وغيرهما من الكواكب التي تلي الأرض من الناحية البعيدة عن الشمس: وهو القائل: ﴿۞ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾﴾ [الواقعة: الآيتان ٧٥/ ٧٦].

فالله تعالى بعظيم حكمته وسريع حسابه اختص الأرض بهذا الموقع، وكذلك اختصها بميزة أخرى لم تكن الحياة لتقوم بدونها، وهذه الميزة هي أنها مغلفة تماماً بغلاف غازي كثيف يتكون من جميع العناصر الضرورية للحياة وهذا بخلاف الحال بالنسبة لباقي الكواكب التي ليس لأي واحد منها غلاف هوائي كافٍ لظهور الحياة، وإن كان بعض علماء الفلك يعتقدون أن المريخ له غلاف غازي ولكنه رقيق جداً، وغير صالح للحياة لخلوه من الأوكسيجين، وإن الزهرة لها كذلك غلاف غازي. ولكنه مكوّن في جملته من ثاني أوكسيد الكاربون مما يجعله هو الآخر غير صالح لظهور الحياة، وكذلك قمرنا المعروف له غلاف غازي ولكنه رقيق جداً وخالٍ من العناصر الضرورية للحياة مثل الأوكسيجين.

وتدور الكواكب والكويكبات كلها حول الشمس في أفلاك إهليلجية (بيضاوية تقريباً) تقع كلها في مستوى واحد تقريباً، ولكنها تختلف في سرعة دورانها سواء حول الشمس أو حول نفسها. إلا أن سرعة دورانها تكون أكبر بصفة عامة كلما كانت أقرب إلى الشمس. فبينما يتحرك عطارد في فلكه حول الشمس بسرعة ٤ كيلو مترات في الثانية نجد أن سرعة الزهرة هي ٣٥كم والأرض ٢٩,٥ كم والمريخ ٢٤ كيلو متراً في الثانية.

ومن المعروف أن جاذبية الشمس هي العامل الرئيسي الذي يتوقّف عليه نظام حركة الكواكب في أفلاكها، وما ذلك إلا لعظم حجم الشمس التي تستحوذ بمفردها على ٩٨,٨٦٦٪ من حجم المجموعة الشمسية كلها. أما بقية المجموعة بكواكبها وكويكباتها وأقمارها فتكون ١,١٣٤٪.

وأن المشتري أكبر الكواكب حجماً ويعادل حجم الأرض وحدها ٣١٨ مرة. وأقرب الكواكب إلى الأرض هي الزهرة التي يبلغ حجمها ٥/ ٦ من حجم الأرض، ويلي الزهرة في ذلك: المريخ ثم عطارد ويبلغ حجمهما ١/ ٩ و١/ ٢٧ من حجم الأرض على الترتيب.

ويعتبر المشتري أكثر الكواكب أقماراً، إذ أن له أحد عشر قمراً ويليه في ذلك زحل وله تسعة أقمار.

وتضم المجموعة الشمسيّة، بالإضافة إلى الكواكب والأقمار التي سبق ذكرها عدداً كبيراً من المذنبات Comets التي تدور حول الشمس في أفلاك مستقلة ليست لها علاقة واضحة بالأفلاك التي تدور فيها الكواكب السيارة. وأهم ما تتميز به المذنبات هو الغازات الملتهبة التي تنبعث منها وتظهر خلفها على شكل ذنب طويل قد يمتد لملايين الكيلو مترات. وتخرج من رؤوس المذنبات كذلك أجسام مختلفة الأحجام من نوع الشهب، وتدور هذه الأجسام مع المذنب وكثيراً ما تحترق خصوصاً عندما يكون المذنّب في أقرب وضع له من الشمس، فيساعد احتراقها هذا على زيادة حجم المذنب، وهناك عدد من المذنبات المعروفة التي من أشهرها المذنب هالي: Halley والمذنب مورهاوس Morehouse ويتميز هذا الأخير بأن له ذنبين.

ويجب أن نشير هنا أيضاً إلى تلك الأجسام الكونية التي تنتشر بكثرة هائلة في الفضاء وتشمل الشهب والنيازك والغبار الكوني، والشهب Meteors ليست إلا جزيئات صغيرة جداً، قد لا يزيد حجمها على حجم حبات الرمل. وهي تندفع باستمرار نحو الأرض بمعدل عدة آلاف يومياً. ولكنها لا ترى إلا عند اختراقها للغلاف الغازي المحيط بالأرض لأن احتكاكها الشديد بالهواء يؤدي إلى احتراقها وظهورها مضيئة.

ومنظر الشهب المحترقة في الجو منظر مألوف لنا جميعاً. ويمكننا أن نشاهده بكثرة في الليالي الصافية. ففي مثل هذه الليالي يستطيع المرء أن يحصي أكثر من عشرة من الشهب المتساقطة في الدقيقة الواحدة، وتكون سرعة هذه الشهب عند اختراقها للغلاف الغازي عظيمة جداً. بحيث تصل أحياناً إلى حوالي ٧٠ كيلو متراً في الثانية. ولهذا فإن أغلبها لا يصل إلى الأرض بل يحترق ويتبخر في الفضاء. وهذا فضل من الله سبحانه وتعالى، فلولا ذلك، لكانت لهذه الشهب أخطار شديدة جداً على كل مظاهر الحياة على وجه الأرض بسبب قوة اندفاعها التي تزيد على قوة اندفاع أقوى المقذوفات النارية على الرغم من صغر حجمها. ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [الأنبياء: الآية ٣٢].

أما النيازك Meteorites فلا تختلف في أصلها عن الشهب، وكل ما هنالك هو أنها لا تحترق ولا تتبخر تماماً في الجو بل تستطيع أن تصل إلى سطح الأرض. ويرجع ذلك غالباً إلى أنها تكون أكبر حجماً وأثقل وزناً من الشهب العادية، وليس هناك حجم أو وزن معين لهذه النيازك، فقد يبلغ وزن البعض منها عشرات الأطنان وإذا ما سقطت مثل هذه النيازك على بقعة عامرة، فقد يترتّب على سقوطها حدوث خسائر جسيمة، ولكن سقوطها نادر الحدوث جداً بفضله تعالى.

ومن أشهر النيازك التي سقطت على الأرض ذلك النيزك الذي سقط على سيبريا سنة ١٩٠٨ واختفت بسببه الحياة النباتية اختفاءاً تاماً من منطقة قطرها حوالي ٧٥ ميلاً، ثم النيزك الذي سقط على اريزونا وتكوّنت بسببه حفرة أشبه بحفرة بركان ضخمة قطرها

حوالي كيلو متر ونصف وعمقها حوالي ١٨٠ متراً. ولا يزال هذا النيزك ظاهراً في قاع تلك الحفرة حتى الآن على الرغم من تراكم الرمال فوقه.

أما الغبار الكوني Cosmic Dust فيتكون من جزيئات ميكروسكوبية تسبح بكثرة هائلة في الفضاء، وقد أجريت في روسيا والولايات المتحدة خلال السنوات الأخيرة عدة تجارب لدراسة أثر هذا الغبار على الأجسام الصلبة، حيث كانت تطلق في الفضاء إلى أقصى ارتفاع ممكن أطباق مصنوعة من معدن مصقول جداً (الأطباق الطائرة)، وقد تبين من اختبار هذه الأطباق بعد عودتها إلى الأرض أن بها آثاراً عديدة جداً لضربات الحبيبات الدقيقة للغبار الكوني، ولكنها عموماً آثار صغيرة جداً، لدرجة أن أغلبها لا يرى إلا بالميكروسكوب.

وقد تبيّن من بعض التجارب التي أجريت في الولايات المتحدة خلال سنة ١٩٥٣ والتي أطلقت فيها أطباق طائرة وصلت إلى ارتفاع يتراوح بين ٤٠ و١٤٠ كيلو متراً في الفضاء، أن الضربات التي سجلت على هذه الأطباق من حبيبات الغبار الكوني كانت تحدث بمعدل ٤,٩ ضربة في الثانية على السطح الذي تبلغ مساحته متراً مربعاً واحداً.

وقد علم أخيراً أن هناك نوعاً آخر من الإشعاعات الخطرة في الفضاء على ارتفاع ٤٠٠ كيلو متراً، وأن هذه الإشعاعات شديدة جداً لدرجة أنها كانت تؤدي إلى تعطيل عمل الأجهزة الخاصة بقياس الأشعة فوق البنفسجية.

* * *

على الإنسان أن يتصاغر أمام عظمة الله تعالى، تلك العظمة التي تتجلى بعض مظاهرها في ما خلق من هذه العوالم اللانهائية وما فيها من أنظمة دقيقة ومعادلات رصينة ودساتير ثابتة، فإذا رأى حادثة لا يقوى على تفسيرها وكشف الحكمة فيها، فليصم نفسه بالجهل لقلة معلوماته عن هذا الكون الغامض. فمن شاهد لوحة تصوير في غاية الاتقان والبداعة ورأى في أسفلها بعض الخطوط والنقوش ولم يتمكن من تفسيرها وتعليلها فلا ينبغي أن يصم المصور الفنان بفقدان الذوق. بل عليه أن يتهم نفسه بعدم الفهم بعد أن شاهد الروائع والكمال إلى أقصى حد ممكن في اللوحة بأسرها.

نعم، كان يقول: (بوخنر) المادي «بما أنا لا نعلم سبب وجود هذه النجوم بهذه

الكثرة إذن ليس هناك هدف من خلق هذا العالم، وقد وجد هذا الكون بطريقة عشوائية؟! حين أن الرجل لم يكن من المتضلعين في علم الهيئة والفلك والميكانيك السماوي، ولم يكن قد اكتشف في وقت قال فيه قولته الإلحادية: علم الفلك اللاسلكي وخصائص الذرة ومعادلاتها الرصينة. نعم إن النفوس الحالكة لا يصدر منها إلا ما يناسبها. ﴿بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطفّفين: الآية ١٤]. (وكل اناء بالذي فيه ينضح).

يقول (ويليام كروكس) وهو أحد أساطين علم الذرة: «إن اعتقادي بجهلي هو الذي ساعدني في دراساتي الروحية وكشف كثير من أسرار الطبيعة: تلك التي ما كنت أتوقع أن تنكشف لي أبداً».

ويقول: (أوليفر لودج)، وكانت له يد في كشف اللاسلكي: «إن ما أعلمه صفر تجاه ما لا أعلمه»، وقد يعترف البعض بجهلهم لا عن عقيدة راسخة، إلا أني أقول ذلك وأعترف بجهلي عن عقيدة رصينة وإيمان كامل».

وكان يقول (أينشتاين) شيخ علماء العصر الحديث، بعد أن رماه بعض أعدائه بالكفر والإلحاد نتيجة لما نشره من نظريات في علوم الطبيعة والكون: «كيف يتهمني هؤلاء الناس بالكفر والإلحاد، وأنا الذي يزداد إيماني في كل يوم بوجود الله وعظمته، فكلما تعمّقت في العلم تبيّن لي بجلاء أن هذا الكون بنظامه الدقيق لا بدّ أن يكون له خالق عاقل له القدرة على تنظيمه والمحافظة على هذا التنظيم»[(١)]. ويقول العالم الأمريكي (فون براون): «إن العالم الحقيقي هو الذي يزداد إيمانه بالله كلما تبحر في العلم، لأنه كلما تعمق في دراسة علوم الطبيعة مثلاً تبين له أنّ بعض التعبيرات الرنانة التي يستخدمها في دراساته مثل الطاقة والمادة ما زالت في الواقع غير مفهومة له وفضلاً عن ذلك، فإن هناك مشاكل كثيرة مازال الإنسان وسيظل دائماً عاجزاً عن تفسيرها وحل ألغازها ومن أهمها مشاكل الوراثة، ويكفي أن يعرف الإنسان أنه يولد من أبوين لا يمكن أن يكون له أي دخل في اختيارهما».

* * *

---

(١) أسرار غزو الفضاء: ص٣، للدكتور عبدالعزيز شرف.

فللَّه في خلقه شؤون، وهو خير محض وما يصدر منه خير محض وعن حكمة تامة، ليس لهذا البشر أن يحيط بجميعها، فيعزو لغروره الكوارث والنوائب والزلازل إلى البلبلة وعدم الانتظام والهدف في هذا الكون المنظم بدساتير رياضية وبحكمة بالغة إلى أبعد الحدود.

وعلينا أن نعلم أنه لم يؤتَ بنا إلى هذه الدنيا الموقتة لنخلد فيها ولكي ننعم بأنواع النعم والملذات، وإنما جيء بنا ها هنا لكي نقطع هذا الدور الامتحاني ونذهب منها حسب الدرجة التكاملية التي نحصل عليها بعملنا وحسب جهدنا وجهادنا: ﴿وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفۡسِهِۦٓ﴾ [العَنكبوت: الآية ٦]. ﴿وَأَن لَّيۡسَ لِلۡإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعۡيَهُۥ سَوۡفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾﴾ [النجم: الآيتان ٣٩/ ٤٠]. ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [العَنكبوت: الآية ٦٩].

* * *

أما موضوع الموت، فليس بالشيء الذي يقلق البال وقد يكون موت هؤلاء الأطفال لزلزلة أو عاصفة شديدة وهم غير مثقلين بالذنوب خيراً لهم من أن يموتوا بعد عمر طويل وهم مليئون بأنواع الآثام والأجرام. وإنهم بهذا الموت الفجائي أقرب من غيرهم إلى رحمة الله تعالى. فالدنيا دار ممر والآخرة دار مقر. ويقول الإمام علي عليه السلام: «ماذا يصنع بالدنيا من خُلق للآخرة».

﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا لَهۡوٞ وَلَعِبٞۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ لَهِيَ ٱلۡحَيَوَانُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ﴾ [العَنكبوت: الآية ٦٤].

* * *

وخلاصة القول: على الإنسان أن يعلم: أن لا شر من جانب الله تعالى، وكل ما يرد من جانب الله فهو إما رحمة أو تأديب أو عقاب دنيويّ لسعادة أخروية دائمة. وإما مطهر لهذه النفس من ذنوبها وأدرانها، وأن يعلم أن الله غني عن هذا الإنسان وعن ظلمه وتعذيبه. ولكنه وهو الكامل على الإطلاق يريد به الكمال، شأنه في كل ما خلق، لأن الكامل لا يصدر منه إلا الكمال. وقد يتوقف كمال هذا الإنسان بما يطهره

ويؤدبه، ونعم الأدب، أدب الله تعالى. فقد قال رسول الله ﷺ «أدبني ربي فأحسن تأديبي»، وهو القائل: ﴿يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النّحل: الآية ٩٠].

والإنسان لحرصه الكثير على الراحة وحبه للخير وميله إلى المادة يظن الكوارث أو بعض البلايا أو الأسقام شراً من الله تعالى، ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ۝٦ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ۝٧ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ۝٨﴾ [العَاديات: الآيات ٦/٨] وهو القائل: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ۚ﴾ [النّساء: الآية ٧٩]. فكل خير منه تعالى والشر مما اجترحت ايدينا.

فالكارثة أو المصيبة إنما تأتي لتطهير النفس من ذنوب أدبرت لذاتها وأقامت تبعاتها، فهي رحمة وأيما رحمة، وقد أتم الله الحجة علينا بشتى الوسائل والمناسبات، وقد تكون لمزيد الأجر ونيل درجات رفيعة، وقد تضم الحادثة الواحدة بين جوانبها شتى التأثيرات. فرحمة لقوم ونعمة وعقاب لآخرين ونقمة، وعبرة لقوم وموعظة للمتعظين، كالطوفان والرياح والعواصف إلى ما هنالك.

فليعمل الإنسان لنيل الدرجات العالية في عوالم القدس وليحسن الظن بربه، ففي حديث قدسي عن الله تعالى: «إني عند حسن ظن عبدي».

﴿وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۖ﴾ [التوبَة: الآية ١٠٥].

* * *

ولنذكر ها هنا بعض الأدعية التي لها أثرها الفعال في تسكين النفس وإزالة بعض الهموم:

فعن الإمام الصادق عليه السلام: «إذا حزنك أمر من سلطان أو غيره فأكثر من: «لا حول ولا قوة إلا بالله، فإنها مفتاح الفرج. وكنز من كنوز الجنة».

وقد روي أن من صلى ركعتين بعد صلاة الظهر من يوم الجمعة، يقرأ في كل ركعة بعد الحمد سبع مرات سورة الإخلاص ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ [الإخلاص: الآية ١] ويدعو بعدهما بهذا الدعاء:

«اللهم اجعلني من أهل الجنة التي حشوها البركة وعمارها الملائكة مع نبينا

محمدﷺ وأبينا إبراهيمعليه السلام» لم يَرَ بلاءاً أو فتنةً إلى الجمعة الآتية ويجمع الله بينه وبين محمدﷺ وإبراهيمعليه السلام.

وعن أبي حمزة قال: قال محمد بن عليعليه السلام: يا أبا حمزة ما لك إذا أتى بك أمر تخافه أن لا تتوجه إلى بعض زوايا بيتك ـ يعني القبلة ـ فتصلي ركعتين ثم تقول «يا أبصر الناظرين ويا أسمع السامعين ويا أسرع الحاسبين ويا أرحم الراحمين» سبعين مرة، كلما دعوت بهذه الكلمات (مرة) سألت حاجة[1].

وعن إسماعيل بن جابر، عن أبي عبد اللهعليه السلام في الهم، قال: تغتسل وتصلي ركعتين وتقول: يا فارج الهم، يا كاشف الغم، يا رحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما، فرج همي واكشف غمي، يا الله الواحد الأحد الصمد الذي لم يلد ولو يولد ولم يكن له كفواً أحد، اعصمني وطهرني واذهب ببليتي. واقرأ آية الكرسي والمعوَّذتين. (سورة قل أعوذ برب الفلق وسورة قل أعوذ برب الناس)[2].

كان علي بن الحسينعليه السلام يقول: ما أبالي إذا قلت هذه الكلمات لو اجتمع علي الإنس والجن: بسم الله وبالله ومن الله وإلى الله وفي سبيل الله وعلى ملة رسول اللهﷺ، اللهم إليك أسلمت نفسي وإليك وجّهت وجهي وإليك الجأت ظهري وإليك فوّضت أمري. اللهمّ احفظني بحفظ الإيمان من بين يدي ومن خلفي وعن يميني وعن شمالي ومن فوقي ومن تحتي ومن قبلي[3] وادفع عني بحولك وقوّتك، فإنه لا حول ولا قوة إلا بك[4].

وخاتمة المقال: علينا أن نعلم أن النوائب والكوارث بأنواعها المتعددة رحمات وأَلطاف ربانيّة تهدينا إلى الصراط السوي وتزيل عنا ما علق بنا من أدران، فتطهر نفوسنا وتجعلها قمينة لمعرفة الله المتعال، وهي غاية الغايات.

﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ﴾ [غافر: الآية ٣١].

---

(١) أصول الكافي: ج٢، ص٥٥٦، باب الدعاء للكرب.
(٢) أصول الكافي: ج٢، ص٥٥٧، باب الدعاء للكرب.
(٣) في بعض النسخ (وما قبلي).
(٤) أصول الكافي: ج٢، ص٥٥٩، باب الدعاء للكرب.

﴿وما ربك بظلام للعبيد﴾ [فصّلت: الآية ٤٦] .

﴿وما أنا بظلام للعبيد﴾ [ق: الآية ٢٩] .

﴿ذلك بما قدمت أيديكم وأن الله ليس بظلام للعبيد ﴿١٨٢﴾﴾ [آل عمران: الآية ١٨٢] .

﴿ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم وذوقوا عذاب الحريق ﴿٥٠﴾ ذلك بما قدمت أيديكم وأن الله ليس بظلام للعبيد ﴿٥١﴾﴾[الأنفال: الآيتان ٥٠/ ٥١]، ﴿ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير ﴿٨﴾ ثاني عطفه ليضل عن سبيل الله له في الدنيا خزي ونذيقه يوم القيامة عذاب الحريق ﴿٩﴾ ذلك بما قدمت يداك وأن الله ليس بظلام للعبيد ﴿١٠﴾﴾ [الحج: الآيات ٨/ ١٠].

﴿ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين[1] مما فيه ويقولون يا ويلتنا مال هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضرا ولا يظلم ربك أحدا﴾ [الكهف: الآية ٤٩] .

﴿ولئن أذقنا الإنسان منا رحمة ثم نزعناها منه إنه ليئوس كفور ﴿٩﴾ ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء مسته ليقولن ذهب السيئات عني إنه لفرح فخور ﴿١٠﴾ إلا الذين صبروا وعملوا الصالحات أولئك لهم مغفرة وأجر كبير ﴿١١﴾﴾ [هود: الآيات ٩/ ١١].

ونسأل الله أن نكون ممن صبروا على النوائب والمحن وعملوا الصالحات، فنالوا أجراً ومغفرة من الله المتعال ولم يكونوا من الآيسين من رحمته تعالى إذا نزعت منهم رحمته لحكمة ربانية خفيت علينا، وأن لا نكون فرحين فخورين، إذا من الله علينا بنعماء بعد ضراء، فنكون ممن استثناهم الله في ما سبق من آيات بينات، بقوله جل من قائل: ﴿إلا الذين صبروا وعملوا الصالحات أولئك لهم مغفرة وأجر كبير ﴿١١﴾﴾ [هود: الآية ١١] .

إسلام روجيه في بروكسل[2]

بدأ والد روجيه حياته المبكرة عامل كهرباء عند أحد المتعهّدين الذين يتولون تمديد الأسلاك، وتوقيع مرافقها المختلفة. ولكنه كان من الفطنة ونفاذ النظر بحيث لا

---

(١) مشفقين: خائفين.

(٢) للأستاذ محمد المجذوب، من مجلة حضارة الإسلام، للسنة الرابعة شوال: ١٣٨٣ .

يفوته أن ينتفع بكل لحظة وكل سانحة، لذلك لم يكد يستوثق من قدرته الذاتية وخبرته المكتسبة حتى عمد إلى الاستقلال بعمله، فأحدث لنفسه مركزاً صغيراً في أبرز شوارع انفرس. ثم لم يمض سوى القليل من الزمن حتى عرف لدى أصحاب الإنشاءات بأنه من أبرع العاملين في هذه المهنة وأكثرهم إخلاصاً واتقاناً، ومن هنا شق الطريق إلى قمة النجاح، حتى أصبح اليوم من أكبر تجار الأدوات الكهربائية، ليس فقط في انفرس بل في مختلف الأنحاء من بلجيكا وما يجاورها من المدن الهولندية والفرنسية.

ولعل من حسن حظ (روجيه) أن يلده هذا العصامي الناجح، وأن يتولى هو نفسه تربيته وتنشئته، بالدقة نفسها التي اعتاد أن يبذلها في ميدان العمل والتجارة، وكان من الأسس الأولى لهذه التربية أن يحرر مواهب ولده من كل ضروب التقييد، فيفسح له مجال البحث في كل شيء، ويمكنه من الاطلاع على كل ما من شأنه مساعدة هذه المواهب على الانطلاق. وقد تعمد بوجه خاص أن يقوي في ولده جانب الاعتماد على النفس، فلم يكرهه على اتجاه محدد. حتى في نطاق الدراسة ترك له أن يقف عند حدود الشهادة الإعدادية دون أن يضغط عليه لملازمة المدرسة. وربما كان غرضه من ذلك أن يجعله أقرب إلى عمله هو. الذي لا يتطلّب منه انقطاعاً إلى الدراسة، التي قد تحيد به إلى أي اتجاه آخر.

على أن انقطاع (روجيه) عن المدرسة لم يصرفه عن مواصلة الدرس بطريقته الخاصة، فلقد أقبل على المطالعة الحرة يلتهم بها كل ما وصلت إليه يده من الكتب، ولا سيما في موضوعات الأدب والتاريخ والآثار القديمة، وقد ركز ذهنه في هذا الطريق عناية والده بالسياحات الدورية، إذ كان شديد الحرص على هذه الهواية يخصص لها من كل عام شهراً كاملاً، فما أن تشرق شمس الربيع حتى يشحن سيارته الخاصة بضروري الأمتعة وطيب الزاد، ثم ينطلق مع ولده إلى الجهة المقررة. فلا يزالان يتنقلان بين آثارها حتى يأتيا على إجازتهما، فيعودا وقد ملآ أعينهما، وأترعا صدرهما بالمتع التي لا تنسى. وحتى الآن لم يدعا جانباً هاماً من أوروبا دون أن يأخذا بحظ من مشاهدته وتملي آثاره.. وها هما ذان يتمّان طوافهما بين آثار اليونان وقد انتهت بهما الرحلة إلى جزيرة (رودس) حيث مضى عليهما قرابة الأسبوع.

كان التقدير المبدئي أن لا تزيد إقامتهما في رودس عن اليومين، ولكن رغبة روجيه في تمديدها، واهتمام والده بتحقيق رغبته، فرضا على الوالد أن يعدل تخطيطه السابق، ليتيح لولده أن يستكمل مشاهدته في الجزيرة اليونانية.

وكان روجيه يقوم بجولة منفردة في بعض شوارع رودس حين وجد نفسه أمام مسجدها الوحيد.. ورأى هيكل المسجد شيئاً طريفاً تقع عليه عيناه لأول مرة خارج نطاق الرسوم السياحية.. فلم يشأ أن يبارح ذلك الموقع قبل أن يطل على داخله، ويشهد حالة رواده أثناء بعض العبادات.. واتفق أن حدث ذلك ظهر يوم الجمعة، إذ رأى أفواج المصلِّين يتجهون نحو المسجد فلم ينتبه لنفسه إلا وهو بينهم متجهاً إلى مدخله وهناك خلع نعليه بالطريقة التي رآها من الناس، ثم جلس كما جلسوا وصمت كما صمتوا. ولما نهضوا إلى الصلاة وجد نفسه يفعل فعلهم ولكنه اكتفى بالوقوف ينظر إليهم دون أن يعلم ماذا ينبغي أن يعمل.. ولما جلسوا يستمعون إلى الخطيب شاركهم في الإصغاء دون أن يفهم حرفاً مما يسمع.

وانتظر روجيه حتى غادر معظم المصلين المسجد.. فتقدم صوب المحراب حيث كان الإمام الخطيب لا يزال يستقبل الدعاء فما أن أحس هذا باقترابه حتى أنهى دعاءه ونهض ليصافحه! وكان من حسن حظ روجيه أن الرجل يحسن الفرنسية إلى حد كان كافياً للتفاهم معه، وبهذه اللغة دارت بينهما المحاورة القصيرة التالية:

ـ أنا بلجيكي من انفرس.. أقوم بسياحة مع والدي. وقد استهواني منظر هذا المعبد الشرقي فدخلته وشهدت صلاة الناس فيه.

ـ ألف مرحباً.. هل سرك ما رأيت؟

ـ بل استهواني.

ـ وبماذا؟

بهذه البساطة وذلك الخشوع الذي رأيته يغمر الناس.. وراح روجيه يجيل عينيه في جدران المسجد ثم تابع: إن خلو هذه الجدران من الرسوم مما يساعد النفس على الاستغراق في أعمق الخشوع، لأنها لا تجد حولها ما يصرفها عن الله.

ولقد رأيتك تتحدث من أعلى المنبر إلى الناس في هيئتك العادية دون مساعدة من المغنين، ودون استعانة بالبخور. فتتجاوب معك نفوسهم حتى لتسيل دموع الكثيرين منهم دون تصنّع. وهذا ما لا يكاد المصلّون الآخرون يحسونه في معابدهم التي أحالتها أيدي الفنانين متاحف تشغل الناظر عن نفسه وما جاء من أجله. ثم أصارتها حركات الكهنة وجوقات المغنين شبه مسارح، لا يكاد المشاهد يفرق بينها وبين أي مسرح للتمثيل!!.

هو امتياز الإسلام.. لأنه الدين الذي أنزله خالق العباد لإسعاد عباده، فطبيعي ألا يكون بينه وبين الفطرة البشرية أي تباين.

ـ يؤسفني أن لا أعرف شيئاً ذا بال عن هذا الإسلام.

ـ أكثر ما يعرف هذا الإسلام من خلال سلوك المسلمين.. وهذا ما يتعذر على الأوروبي أن يدركه، وهو الذي لا يعرف هذا الدين إلا من خلال أكاذيب أعدائه!.

ـ حقاً.. إن هناك أشياء سيئة قرأتها عنه في بعض كتب «لامانس» المبشر اليسوعي البلجيكي، وكم أود لو يتاح لي قضاء بعض الوقت في وسط إسلامي صحيح، لأتبين الحقيقة التي لا تتيسّر معرفتها إلا من خلاله.

ـ كم يسرنا أن نستقبلك ضيفاً كريماً في ما بيننا.. فلعلّك بذلك واقف على بعض ما تشاء من هذا الأمر، مع العلم بأننا لا نعتبر أنفسنا أهلاً لتمثيل فضائل الإسلام على الوجه الذي يقتضيه.

وصحب روجيه إمام المسجد إلى والده الذي كان ينتظره في حديقة الفندق وهناك قر الرأي على أن يكون الابن في ضيافة الشيخ أياماً ثلاثة، وبهذا قدر لروجيه أن يعيش أحب أيام حياته، في أوساط تلك الجالية التي تعرف من سلوكها وأخلاقها ومعاملاتها الكثير من حقائق الإسلام.

ـ ٢ ـ

لا يتذكر روجيه أنه عاد من رحلة ما خلال عشر سنوات مضت بمثل الشعور الذي يخالجه هذه الأيام التي أعقبت عودته من بلاد اليونان.

كان فيما مضى إذا رجع من رحلة أعاد النظر في مذكراته، يرتبها وينقح عبارتها، ويتحقق من صحّتها، ثم يطويها فلا يعود إليها إلا في الأحيان المتباعدة، عندما يريد التحدث عن مشاهداته إلى أحد، أو عندما يقع في مسمعه خبر عن أحد هذه الأماكن التي ألم بها أثناء هذه الرحلات، وكلما أوغل الزمن في الكر على هذه الأحداث أسرع النسيان بدوره إلى آثارها في ذهنه، حتى تصبح أخيراً أشتاتاً من الذكريات، لا تستيقظ في صدره إلا تحت ضغط المناسبات المشابهة.

على أن رحلته الأخيرة كانت شيئاً جديداً في وجوده، أشبه بالبذرة الحية صادفت الجو المخصب، فإذا هي تربو وتنمو ثم تمد ساقها وتطلق أوراقها، ولا تزال تنتشر هنا وهناك، حتى تمسي دوحة ذات كيان وظل وجمال؟ ولقد ضمرت في ذهنه آثار (الكروبول) وعبر (بومبي) وتماثيل الآلهة وروائع الطبيعة في البندقية وصقلية، حتى كادت تغيب أو تمحى. . ولكن شيئاً واحداً من بقايا هذه الرحلة ظل على بساطته ثابتاً لا تزيده الإصباح والإمساء إلا تعميقاً وامتداداً.

ذلك هو مشهد المسجد بقبته المستديرة البيضاء، وبمنارته القائمة في الهواء تشد أعين الناس لتذكرهم بما تحتها من خشوع لله لا يشوبه شاغل من زخارف الدنيا. . ثم ذلك الإنسان العجيب الذي ترك حديثه واطمئنانه وسمو روحه في أعماق روجيه ما لا يمكن زواله على مر الأيام، وتتابع الأحداث. إنه ليتذكر هيكله الفارع، ونظراته الرحيمة وعمامته الناصعة البياض كقلبه النقي فتتفاعل نفسه بالمعاني التي لا يسعه تحديدها ولم يكن له بمثلها عهد من قبل. . وتستتبع ذكريات الشيخ صور الأسر التي عاش في ظلّها تلك الأيام الثلاثة، ينتقل من ضيافة كريمة إلى أخرى مثلها وكأنه يعيش في جنة من غير هذا العالم. لا تقع منها العين على سوء، ولا يمس السمع ما يجرح أو يخجل. وإنما هي خلوات سعيدة يغمرها روح الإيمان الذي يستولي على قلوب أفرادها فيصفيهم من الخطيئة حتى في الضمير، فإذا هم آية في نقاء الخاطر، وسلامة الفطرة وطهارة اليد، لا يأتون أمراً ولا يذرون شيئاً إلا على ضوء من روح إيمانهم الذي نظم علاقتهم بما حولهم على أساس من تعاليم السماء، فما من شيء إلا وله في تعاليمهم هذه حكم الحلال أو

الحرام. . وقد بات انسجامهم مع هذه النظم شيئاً طبيعياً كالملكة الأصيلة لا سبيل إلى عصيانها، بل أنهم ليجدون أقل انحراف عن سبيلها باعثاً لأكبر الشقاء.

وشيء آخر لا يقل في الروعة عن كل أولئك: هو ذلك التفتح الروحي الذي يمدهم بالحل المرضي لكل معضلاتهم، فهم يقبلون على أعمال الدنيا بأحفل طاقات النشاط البشري، وأتم ما يملكون من وسائل الاتقان، فإذا ما انتهوا إلى ثمرات جهودهم تناولوها شاكرين راضين لا يحسد فقير منهم غنياً. ولا قروي مدنياً، بل اعتبروا ذلك غاية ما قدر لهم ربهم في عالم الغيب، ومع ذلك فليس ثمة موسر يضن بالمعونة على معسر، بل أنهم ليعتبرون ثرواتهم الخاصة حقاً للجميع، ينال منها كل متخلِّف ما يعوزه عند الحاجة، ويكاد لا يوجد بينهم فرد لا يحفظ؟ حكمة نبيه العربي: «ليس منا من بدا شبعان وجاره جائع وهو يعلم به..»

ومن هنا كان مجتمعهم لوناً جديداً لا مثيل له بين المجتمعات التي يعرفها روجيه، أو يقرأ عنها، فلا حقد، ولا بغضاء، ولا تحاسد، بل أخوة سعيدة تنتظم الكُلّ في تناغم عجيب، يجعل الجميع كالجسد الواحد، لكل فرد منه منزلة العضو الحي. ولا شك أن مثل هذه الجماعة أغنى الناس عن هاتيك النظريات الفلسفية والاقتصادية التي تتمخض بها أوروبا بأجمعها فتفكك الجماعات، وتضرب الأفراد، وتثير حرب الطبقات، حتى لتجعل الحياة كلها أشبه بالكرة في كف عفريت فلا يستريح فيها الفرد إلى واقعه، ولا يطمئن إلى مستقبله! لا بل أن روجيه ليتذكر ما أحسه من سعة الشقة بين واقع هذه الجماعة وواقع الطوائف الأخرى ممن يجاورها في رودس نفسها، إذا ما يكاد الإنسان يخرج من نطاقها إلى غمار أولئك حتى يخيَّل إليه أنه انتقل من عالم إلى عالم. من عالم كل شيء فيه متجه إلى الله مرتبط بتعاليمه، إلى عالم لا يكاد يذكر الله إلا في أوقات العبادة المعيّنة، حتى إذا تفلت من طقوسها انطلق إلى أخرى من العبادات.. مركزها المال والجسد وألوان الشهوات!.

ولقد بات قلب روجيه مرتعاً خصباً لموحيات تلك البيئة، فهو اليوم يعيش الكثير من إحساساتها وكأنه زود من هناك بطاقة من نوع غريب. فيها يطل على الحياة فيرى منها ما لم

يكن يرى، ويسمع منها ما لم يكن يسمع . . إنه اليوم ليقف أمام الزهرة من حديقته فيتفاعل صدره بألوان المشاعر، وينظر إلى أشعّة الشمس تنسكب على الأفق وتشحن الوجود بعوامل النشاط . . فإذا قشعريرة لاذة تنساب في كيانه، فيخطفه ذلك إلى ما فوق واقع التراب، حتى ليخيَّل إليه أنه يسمع من خلاله صوت الله أو يشاهد في اليقظة وجهه! .

أجل . . إنها لعين ثالثة لا يعرف مكانها من جسده، ولكنه يحس فعلها في أعصابه وخياله . . هي التي جعلته قادراً على تذوق الحياة وتلقي إشاراتها الخفية على هذا الوجه الذي لا يحسن له تحديداً ولا تفسيراً.

لقد أصبح على أتم اليقين أن الكون بما فيه من الناس شيء تافه يبعث السأم، ويهيج الغثيان حين ينفصل عن نور الله، ولكنه بهذا النور وحده يتحوّل إلى سمفونية ساحرة. تنشئ الغبطة، وتنبت السعادة، وتفجر الإلهام، وتنشر في أعماق البشر روح الأخوة والمحبة والسلام . . وإنه لإدراك لا عهد له بمثله قبل أيام رودس، بل قبل الساعة التي جمعه القدر فيها بشيخ رودس! .

ولكم يؤسف روجيه أن لا يجد في يده أي كتاب عن الإسلام يفصّل له المزيد من حقائقه ويجيبه على الكثير من أسئلته! . . لقد كانت أيامه في رودس محدودة لا تتسع لكل ما يجب معرفته . . إذ كل ما حصل عليه من هناك هو كلمات ذلك الإمام التي لا تزال تعمل في قلبه عملها . . وتلك المشاهد السلوكية التي تبينها في حياة قومه فعلمته الكثير من فضائل ذلك الدين . . لقد أيقظت هذه المؤثرات في كيان روجيه عطش التطلع إلى الحق . . فلم يعد قادراً على الاكتفاء بما انتهى إليه، بل قد استحالت مبادئ المعرفة هذه عوامل دفع تحثه أبداً للمزيد من الاستكشاف.

إن شيخ رودس قد وصله بأسس الإيمان القائمة على الإقرار بوجود الله واحداً لا شريك له ولا ولد، وبالكتب التي أنزلها على أنبيائه، وبالنشور لأداء الحساب على الأعمال، فلا يضيع سعي مهما يصغر، ولا تغفل ظلامة معهما تستر . . ثم بسلطان الله على الكائنات جميعاً بحيث لا يقع في الكون كله شيء إلا وفق قوانينه التي هي صورة العدل المطلق.

وإنه ليستشعر الاطمئنان الكامل إلى هذه الأسس، لأنّ عقله لا يتصور الإنكار لخالق العالم، إلا إذا أمكن العقل أن يتصوّر إنكار نفسه وما يحس به من حوله.. وهو لم يقتنع قط بأنَّ هذا الخالق يمكن أن يكون له ند أو ولد، ما دام بحقيقته مخالفاً لأجناس الحوادث وما دام كل موجود غيره خاضعاً للعناصر نفسها التي يتألف منها كل مخلوق من سفليات السكون وعلوياته.. وأما الإيمان بالكتب والنبيِّين فإنما هو إيمان بوحدة الدين ووحدة الإنسانية، ولا سبيل إلى الإسلام إلا عن طريق هاتين الوحدتين. ثم ليس في العقل حقيقة أكبر من النشور والحساب، لأنهما السبيل الوحيد إلى ضبط النفوس البشرية ضمن حدود الفضيلة العليا، ومن ثم إلى تحقيق العدل المطلق الذي كثيراً ما تنصرف النفوس البشرية عن جادته تحت ضغط الأهواء والمنافع الزائلة. وأخيراً أي جدوى من الدين كله لو رفعت سلطة الله عن مخلوقاته؟. أو ترك هذا الكون فوضى لا تضبطه سنةٌ ولا قانون!.

غير أن هذا كله ـ على جلالة قدره ـ لا يروي ظمأ روحه.. فهو يريد أن يعلم بتفصيل تام أوامر الله ونواهيه، لأنه مستيقن أن الإنسان أعجز من أن يعرف طريق الحق الخالص، إذا لم يهتد إلى التعاليم الإلهية التي تحدد له معالمه.. ولا سيما بعد التعقيد الكثيف الذي طمس به الإنسان دروب الحياة، وكاد يحجب مسالكها عن العقل المجرد.

ـ ٣ ـ

وقرأ روجيه ذات يوم نبأ حرك فضوله. نبأ يتحدّث عن نشاط مسلم هندي اسمه بشير، يقيم في لاهاي، وقد جعل من داره مركزاً ثقافياً جامعاً، يرتاده أساتذة الجامعات، وطلاب المعرفة؛ وتدعوه بين الحين والحين بعض جامعات هولندا للمحاضرة في قضايا الإسلام والتعريف بعقائده.

وقد قرأ هذا في صحيفة بلجيكيا معروفة بالتعصب، فهي إذن لم تنشر ذلك الخبر خدمة للعلم، أو تقديراً لعمل هذا الهندي، وإنما تريد بذلك إنذار من يهمهم الأمر من دعاة التبشير ورجال الاستشراق ليأخذوا حذرهم بإزاء هذه البادرة غير المأمونة!.

وساورته الرغبة في زيارة ذلك الهندي، وكانت رغبة قوية لم يستطع مقاومتها، فلم يتردد إلا ريثما أعلن آباه بالأمر، ثم قاد سيارته (البويك) عبر الحدود.

ولم يجد صعوبة في العثور على الرجل إذ ألفى بين عملاء أبيه في لاهاي من يعرفه ويشهد مجالسه، فأخذ هذا بيده إليه، وفي منزل الرجل شاهد روجيه كل مظاهر العلم والثقافة العالية، وحسب الزائر أن يلقي نظرة عابرة على تلك الكتب المذهبة، المالئة جدران قاعة الاستقبال، حتى يدرك أنه تلقاء رجل غير عادي، على أنه لم يلبث هناك إلا قليلاً حتى صدمته الخيبة، فعاد إلى انفرس في اليوم نفسه وفي صدره شعور موجع بمرارة الإخفاق!.

لقد عبر الحدود إلى لاهاي وفي نفسه لهفة إلى روح كريم، يتعهد مشاعره المتوهّجة بمدد من الخير الذي قبس أضواءه لأول مرة في رودس.. ولكن سرعان ما فقد ذلك الحلم لأنه وجد في لاهاي العلم ولم يجد الروح.. وجد رجلاً يملك زمام البلاغة فيرد على كل سؤال، ويجول في كل ميدان، ولكنه يعجز عن ملامسة القلوب الظمأى إلى الاطمئنان والحب![1] ويغلب على ظن روجيه أن موضع النقص في الرجل إنما يتجلى في غروره بوجه خاص، فهو شديد الثقة بنفسه، قوي الاعتزاز بمعرفته لمذاهب الفلاسفة وأصحاب النحل، يتحدث إلى زائريه في كبرياء الكهنة لا في تواضع الربانيين.. وكان هذا وحده كافياً ليملأ نفس روجيه بالنفرة من هذا الإنسان، الذي في وسعه أن يعثر بأمثاله في كل مكان من هذا العالم.. المتربع إلى حلقه بأساطين المنطق المادي ممن لا يستطيعون مجتمعين أن يمنحوه لحظة من الإشراق الروحي الذي هو بحاجة إلى المزيد منه!.

كان روجيه غارقاً في غمرة هذه التصوُّرات، وهو يقود سيارته في شوارع انفوس باتجاه متجر أبيه، عندما لمحت عينه ذلك البناء الشرقي الضخم الذي يحمل اسم (مطعم قرطاجة).. وفي انسياق عفوي وجد نفسه يميل إلى ساحة المطعم ليقف سيارته، ثم يعرج إلى داخله ليأخذ كأساً من الشاي المبرد.. وعندما همّ بمغادرة المطعم خالجته فكرة فاقترب من صاحبه التونسي ليجري معه ـ بعد تردد خجول ـ هذا الحوار:

---

(١) كان الرجل قاديانياً من صنائع الاستعمار.

ـ أنت مسلم . . ؟

ـ طبعاً . . والحمد لله!

ـ ألا تعرف مركزاً أو جماعة يعملون لعرض الإسلام في هذه البلاد؟. وأطرق التونسي ملياً قبل أن يجيب على سؤال روجيه هذا. ثم قال:

ـ وهل لي أن أعلم الباعث لسؤالك؟

ـ إنها رغبة خالصة في تعرف هذا الدين.

ـ هل قرأت عنه شيئاً؟.

ـ قليلاً . . ولكني اتصلت ببعض أتباعه من سكان رودس، فاستهواني ما رأيت لديهم من فضائله.

ـ إذن فسأرشدك إلى شابين من الشام يدرسان في جامعة بروكسل وإني لأرجو أن تجد لديهما ما ينقصك معرفته عن الإسلام.

وأخذ التونسي يحدد لروجيه الشارع والمنزل والاتجاه. وذكر له رقم الهاتف الذي يوصله بمسكن الشابين، وأشار عليه بكتابته. ولكن الغبطة أعجلت روجيه عن كتابة أي شيء، ومضى إلى سيارته وهو يردد اسم الشارع، ورقم الهاتف واسم الشاب الشامي الذي لقنه إياه. . واستمرّ على ذلك حتى دخل بروكسل، غير أنه ما كاد يغيب في زحامها حتى فقدت ذاكرته كل علامة ورقم واسم، وراح يدوِّر كاللولب في دائرة مغلقة على غير هدى أو تعيين. . وكان مستحيلاً أن يستعين بأحد لمعرفة ما يريد، ما دام هو نفسه لا يملك أي إشارة تساعد على تعيين ما يريد!.

وبعد تجوال طويل وقف سيارته في زاوية أحد المفارق من شارع (١٠ فيلان ١٩)، وفي نيته أن يتصل بهاتف المطعم، ليستعيد من صاحبه التونسي صورة المكان ورقم الهاتف. . وبينما هو متجه ناحية المكتبة المجاورة لاستعمال هاتفها إذا هو بفتى يغادرها، وفي سمرته الجذابة هويته العربية. . فجمد قليلاً يتبين ملامحه، كأنه يستعيد بعض الصفات التي سمعها من صاحب المطعم. . ورأى الفتى يبتسم له ثم يحييه، فلم يتمالك أن دنا منه، ثم صافحه كأنه صديق قديم. . وقال في أدب بالغ:

«إنني أفتش عن فتيين من الشام يدرسان في جامعة بروكسل. وكنت أردد قبل قليل اسم أحدهما، غير أنني نسيته في زحام الشوارع ونسيت معه صورة المسكن الذي ينزلانه!!».

فابتسم الفتى مجدداً.. وقال «.. وأنا شامي.. فلعلي أستطيع مساعدتك على الاجتماع بمن تقصد. ألا تذكر بعض حروف الاسم الذي أضعته؟».

ـ بلى.. إنه أ.. أ.. «الحرف الذي ليس في لغة الأوروبيين».

ـ حرف العين!. عدنان مثلاً؟..

وصاح روجيه بمثل فرحة الإنسان الذي استرد مفقوداً عزيزاً!

ـ أدنان!.. هو نفسه.

ـ وأنا أيضاً اسمي عدنان.

ومرة أخرى يحدق روجيه في وجه الفتى.. وفي نشوة آسرة جعل يهز يده بكلتا راحتيه وهو يقول: «يجب أن تكونه.. إنك هو حتماً!».

وضحك عدنان مشاركة للفتى.. وقال: أرجو أن أكونه.. فلنمضِ إذن إلى المسكن.. إنه قريب.. في هذه البناية المقابلة.

ـ ٤ ـ

لم يراود روجيه أي شعور بالغربة وهو يلج مع عدنان مدخل الدور العلوي بل لقد صعد الدرج الحجري الأنيق يده في يده كأن بينهما وداً قديماً، يسقط معه كل تكليف، ولما صارا إلى قاعة الاستقبال راح يصافح الحضور بالروح نفسها التي دخل بها المنزل.

وقدم عدنان إليه كلاً من هؤلاء باسمه وجنسيته: هذا أخي محمد يستعد لإجازة الدكتوراه في الكيمياء والصيدلة، وهذا السيد.. عامل من لاجئي الألبان الهاربين بدينهم من الشيوعية، وهذه هدى أخت لنا في الله، فرنسية الأصل بلجيكية المولد، قد شرح الله صدرها للإسلام، وهذه الأخت فاطمة ابنة سفير السنغال. وهذه أخت لنا أخرى اندونيسية واسمها فاطمة أيضاً.

وأخذ روجيه محله في المقعد الذي أخلي له في صدر القاعة، وهنا قدم نفسه للجميع

بهذه الكلمات البسيطة روجيه بن.. تاجر الأدوات الكهربائية في شارع.. من انفرس.. أساعد والدي في تجارته، ولكن مشغلتي الكبرى في هذه الأيام البحث عن الحق.

وجواباً على بعض الاستيضاحات قص روجيه على الجماعة حكايته في إيجاز بليغ ثم قال: إني في التاسعة عشرة من سني الزمن، ولكن حياتي الروحية والعقلية لم تبدأ إلا منذ ربيع العام الفائت منذ أيام رودس.. التي قدحت في صدري جذوة القلق.. فأصبحت ثائر الشوق مرهف الشعور إلى حد لا أجد معه قراراً.

ولم ينس أن يحدِّثهم عن سفره إلى لاهاي، والخيبة التي مني بها هناك حتى هداه القدر إلى سؤال التونسي صاحب مطعم قرطاجة.. وختم ذلك بقوله: لقد بت على يقين أن يداً خفية تقود خطاي إلى مواطن الخير الذي أنا بحاجة إليه، ولعل عثوري ـ بعد يأس ـ بمقرّكم هذا من طلائع التوفيق إلى هذا الخير.. «.. وتصاعدت أصوات الحضور في انسجام حنون: إن شاء الله!».

وكان كل ما في القاعة مساعداً على التركيز حول الهدف الروحي الأعلى: الكتب المرصوفة على النضد النصفي، والمصحف في غلافه الحريري الشرقي ذي الوشي المذهب معلقاً في صدر القاعة.. وبجواره تلك القطعة الفنية الأنيقة مرسوماً على جانب منها بخط عربي ساحر آية من القرآن الكريم، وعلى جانب آخر ترجمتها الفرنسية التي تعني (إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم).

وليست مظاهر الحضور دون ذلك كله إيحاء.. ولاسيما أولئك النسوة الثلاث اللواتي أضفين على المجلس فيضاً من المعاني السامية ضاعف من روعته.. ولقد وجد روجيه نفسه مدفوعاً إلى التفكير بهؤلاء النسوة ما يوحيه منظرهن.. أكثر من أي شيء يتعلّق بأولئك الحضور من الرجال.

إن أول ما لفت نظره منهن تلك الوجوه الملائكية التي خلت من كل أثر للصنعة، فبدت نسيج وحدها، في بلاد تحرم حضارتها على وجه الأنثى أن يواجه الناس بصورته الطبيعيَّة.. ثم ارديتهن السابغة التي تشبه إلى حد بعيد أردية الرواهب الكاثوليكيات.. لا تكشف منهن أي جزء خارج حدود الوجه والكفين. وهي ظاهرة قد تكون مألوفة

بالنسبة للإندونوسية والسنغالية بوجه خاص، بما حملتاه من تقاليد ولكنها شيء لا يصدق بالنسبة إلى تلك الفرنسية التي سلخت الأربعين من السنين في مجتمع يعتبر التبرج، بل التعري، أول معالم الأنوثة الراقية!.

وطبيعي أن يعجب روجيه لهذه المظاهر الغريبة في محيطه، ولكن عجبه لم يكن ليحجب عن وعيه موطن العبرة.. فقد تحقق لديه حتى الآن أن الإسلام نظام كامل متميِّز، لا يأتلف مع التلفيق والترقيع، يصفي النفس من كل انحراف عن الله، ويؤلف بينها وبين تعاليمه، حتى يصبحا معاً وحدة لا سبيل إلى تجزئتها.. وبذلك يكون اعتناق الإسلام نقطة البدء في هجرة تامة من عالم إلى عالم.. من عالم الظلام الذي تمحي فيه معالم الحقائق وينتهي السالك فيه إلى الضياع، إلى عالم النور الذي وضع فيه كل شيء وفق قوانين الفطرة، فكل سالك في ضوئه موقن أنه على بيِّنة من ربه.. وليس هذا التستر الذي يشهده الساعة في ثياب هذه الفرنسية، إلا توكيداً لهذه الحقيقة، حقيقة الهجرة إلى فضائل الإسلام وهي بذلك تقرر لكل ناظر فلسفة هذا الدين، من حيث نظره إلى المرأة ككيان إنساني كامل، عليها من المسؤولية نحو المجتمع مثل الذي على أخيها الرجل، وذلك على النقيض من هذه الحضارة الأوروبية التي زيفت طبيعة الإنسان، حتى جعلت من المرأة أداة للتسلية الفاجرة، فشغلت الرجل عن مواهبها وفضائلها بما عرته لعينه من جسدها ومفاتنها!.

وشيء آخر لا يقل عن ذلك أثراً في قلب روجيه.. إنه الانسجام الذي يطالعه بين هذه الأجناس التي يتألف منها مجتمع القاعة.. إن هنا الأسود والأبيض، والأصفر، في وحدة أخوية لا يشوبها شيء مما يجيش به مجتمع البيض خارج هذا المكان.. وهي صورة طالما غُذي بالنفور منها، بعد أن اقتنع بنظرية (مونتسكيو) التي تؤكِّد أن الله قد حمل الجنس الأبيض رسالته إلى الأرض، فهو وحده الجنس السيد، أما الآخرون فلا يعدون منزلة الحيوانات والحشرات كل مهمّتهم خدمة البيض، وتوفير الوسائل المحقَّقة لهناءتهم، حتى إذا ما فاضوا عن حاجتهم كان من حق السادة أن يتَّخذوا الوسائل الممكنة للتقليل من وجودهم إلى الحد الضروري كما صنع رجال الدين

المسيحي في هنود أمريكا، إذ قتلوا الكثير منهم بواسطة الحصبة التي قدموا إليهم جراثيمها في الأعطية الموبوءة!.

أجل. . إنه لانسجام مدهش. . . ومخالف لكل ما قرأه روجيه ولما لقنه، ولكنه ـ على غرابته ـ أصبح شيئاً مقبولاً في قلبه الذي بات فريسة للارتياب في كل ما جاءه عن طريق هؤلاء الأوروبيِّين من فلاسفة أو رجال دين!.

ـ ٥ ـ

وتناول الدكتور محمد الحديث فقال موجهاً الكلام إلى الضيف:

اليوم الاثنين. . وهو موعدنا الأسبوعي لقراءة بعض ما ينبغي معرفته عن الإسلام. . وما يفتريه خصومه من المبشِّرين والمستشرقين وموضوعنا الآن حول النبوة في كتاب (الوحي المحمدي) المترجم إلى الفرنسية. . ولكنه لا بأس أن نؤخر هذه الحصة إذا شئت لنجعل منها فرصة لما عندك من الاستيضاحات. . فلعلنا واصلون بالتعاون إلى الخير الذي افتقدته عند ذلك (القادياني) في لاهاي! وشكر روجيه للمتكلم اهتمامه وإخوانه. . وأعلن أن حاجته لا تنحصر في سؤال أو جانب، ولكنها واسعة تتطلّب الإلمام بكل ما أمكن الإلمام به من حقائق هذا الدين. ولا شك أنّ موضوع الوحي من أوّليات هذه الحقائق لأنه من الغوامض التي قلما يعيها العقل الأوروبي المحبوس في نطاق المادة!. ولهذا فهو يؤثر الآن المشاركة في الاستماع إلى ذلك البحث.

ولقد كان البحث شيقاً وممتعاً تناول موضوع (الوحي) الإلهي بطريقة لا تدع مجالاً للريبة في حقيقته، إذ تعتمد بالدرجة الأولى على موازين الفطرة الإنسانية بكل ما فيها من قوى الفكر والحدس والتخيُّل، حتى ليحس السامع والقارئ أنهما يتحدّثان إلى نفسيهما من خلال البحث نفسه، فلا يلبثان أن يستروحا نفحات الاطمئنان، ثم يخرجا من الحديث وقد أيقنًا أن الوحي الإلهي إلى محمد وإخوانه من سابقي الأنبياء إنما يمثِّل ذروة الشرف بالنسبة إلى الجنس البشري، لأنه المظهر الأسمى لعناية الله به، ورعايته لمصالحه، واهتمامه بهدايته.

وعلى الرغم من قوة المؤلف في عرض الموضوع، لم يشأ القوم أن يتلقوا بالاستسلام بل كانت الخطة أن يقرأ أحدهم البحث، ثم يعمد آخر إلى تقسيم فقراته وفق الفكر الرئيسية، ثم يأخذون في مناقشتها جزءاً جزءاً.

وكان الباب مفتوحاً لكل مستوضح.. فلم يحجمهم روجيه عن اقتحامه بما خالجه من تساؤلات لم تخل من الفائدة.

ولما آذنت حصة البحث بالانتهاء نهض الحضور ليؤدوا صلاة العصر في جماعة، وخيّره الدكتور بين أن يستريح قليلاً بانتظارهم، أو ينتقل معهم إلى القاعة الأخرى ليشهد صلاتهم، ولكن روجيه لم يستطع إلا أن يعرب للدكتور عن شوقه الحار إلى مشاركتهم في تلك العبادة التي طالما شهدها في رودس فاستهوت لبه، وأسرت قلبه.

وهنا أفتر ثغر الدكتور عن ابتسامة سعيدة وقال لروجيه: «.. ذلك حق كل إنسان عندما يقتنع بحقائق هذا الدين».

فقال روجيه في حماسة لم يطق كتمانها: «.. إنني مقتنع.. فما السبيل إلى إعلان هذا الاقتناع؟».

ـ الشهادتان.. ثم تغتسل وبذلك تتهيأ للدخول في الصلاة.. التي لا تصلح إلا مع الطهارة.

ومرت رعشة بارزة في جسد روجيه.. ثم نظر إلى محدثه بعينين تتوهجان بروعة الحزن، ومضى يقول: «أود لو أستطيع ذلك لفوري فإنني لأخشى أن يدركني الأجل وأنا على هذه الحال!..».

وخرجت كلماته هذه في غصة مؤثِّرة، لم تلبث أن هزت أعصاب الحضور جميعاً. فإذا هي تلهب مشاعرهم، وتفجر في أعماقهم منابع الغبطة، حتى غلبت بعضهم دموعه، فراح يذرفها في صمت وخشوع.

ولم يجد محمد في لسانه القدرة على الكلام في هذا الجو المشحون بالانفعال، فاكتفى بأن تأبط ذراع روجيه، ثم مضى به نحو حمام المنزل وفي جهد استطاع أن يقول له وهو يمسح جفونه: «تستطيع أن تستحم، وسآتيك بثوبين داخليَّين طاهرين.. ولسوف تجدنا بانتظارك للصلاة».

وفي تلك القاعة التي طالما ضمت صفوف المصلِّين. والمتهجِّدين.. أعلن روجيه إسلامه على مسمع من شهود جمعتهم أخوة الإسلام، من مختلف أقطار الدنيا وأجناسها.. واختار لنفسه اسم (إسماعيل) جد رسول الله ﷺ، ثم أخذ مكانه من الصف، في أول صلاة قام بها لله على نحو من الخشوع لم يحلم بمثله قبل اليوم.

صلة الأرحام والكمال النفسي

إن الإسلام دين متكامل يعالج جميع النواحي الحياتية معالجة جذرية معالجة لا تشبه معالجات الفلاسفة وعلماء النفس المحدَّثين في شيء، ذلك لأنَّ ما يسنه هؤلاء وما يقترحونه إنما هو بشريّ حالك، تم عن نفس صاحب النظرية. ونفوس الفلاسفة وعلماء الاجتماع أو علماء النفس نفوس ناقصة وإن سموا أنفسهم فلاسفة وحملوا ألقاباً مختلفة ومنحوا لقب الدكتوراه لتلاميذهم خرِّيجي الجامعات.

فالنفس الناقصة لا يترشّح منها إلا شيء ناقص مبتور، كيف لا تكون هذه النفوس ناقصة، وهي تحلل حرمات الله في أرضه: بسكر أو فسق أو فجور أو أكل الربا أو الحرام أو إفساد في الأرض ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٠٥]. كيف لا تكون هذه النفوس بعيدة عن الله وهي تتبع الهوى: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ [النّجم: الآية ٢٣].

لذلك: كان من فضل الله على البشر أن لا يتركهم وشأنهم يملي عليهم دساتير الكمال! (هذا الكمال الناقص أو المفسد) من هم على شاكلتهم من حيث النقص، وإن دعوا على لسان البعض: فلاسفة وعلماء.. إلخ «فأرسل رسولاً ليزيل به علّتهم»[1]: يملي عليهم دساتير الكمال، تلك الدساتير التي لا شائبة فيها ولا نقص، لأنها جاءت من عين صافية وضاءة، جاءت من وراء الحجب، جاءت من جانب الله تعالى على لسان أنبيائه عليهم السلام.

---

(١) من كلام لعلي عليه السلام.

يقول (هوكنج) أستاذ الفلسفة بجامعة (هارفرد) في كتابه: روح السياسة العالمية: «إن سبيل تقدم الممالك الإسلامية ليس في اتخاذ الأساليب الغربية التي تدّعي أن الدين ليس له أن يقول شيئاً عن حياة الفرد اليوميَّة وعن القانون والنظم السماوية، وإنما يجب أن يجد المرء في الدين مصدراً للنمو والتقدم».

وقد شبه غوته (كوته) شاعر ألمانيا الشهير، الدين الإسلامي بالنبع الذي تدفق فشكل النهر الكبير وبعد ذلك صبَّ في البحر الواسع: الأوقيانوس.

وقد قال العلامة: (سانتيلانا): «إن في الفقه الإسلامي ما يكفي المسلمين في تشريعهم المدني إن لم نقل أن ما فيه يكفي للإنسانية كلها».

ومن جملة تلك الدساتير أو سنن الكمال: صلة الأرحام، ذلك لأن الإسلام دين اجتماعي وليس بدين انزواء ورهبنة، دين يريد من الناس أن يتقربوا بعضهم من بعض، بالمعونة والمساعدة والألفة والتحابب والتعاطف.

ولا مراءَ أن كل مجتمع مؤلَّف من عوائل، والعائلة مؤلَّفة من الأرحام والأقارب، فلو كانت العلاقات بين أفراد العائلة علاقات متينة على أساس الحب والولاء والمحبّة سعدت هذه العائلة في الدنيا وبسعادتها تسعد الأمة إذ لا مفهوم للأمة عدا أنها مؤلفة من عوائل عدة وأسر متعددة فبسعادة هذه الأسر تسعد الأمة وبشقائها تشقى.

لذلك حثّ الدين الإسلامي على صلة الأرحام وجعل ذلك من أفضل القربات، وذلك بقوله جل من قائل: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ﴾. فذكر الله جلّ جلاله لفظ الأرحام بعد اسم الجلالة مباشرة لما هنالك من خطورة فائقة.

فالله تبارك وتعالى يأمرنا أن نتقي الله في قطيعة الأرحام. فالمراد بالتساؤل في قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ﴾ [النساء: الآية ١] سؤالُ بعض الناس بعضاً بالله، يقول أحدهم لصاحبه: أسألك بالله أن تفعل كذا وكذا. فكما يجب أن نتقي الله تبارك وتعالى في أعمالنا كذلك يجب أن نتقي الله في قطيعة الرحم: بأن لا نقطعها وأن نصلها بأنواع المحبة والمودة والتزاور والتعاطف.

فقد قال رسول الله ﷺ: من ضمن لي واحدة ضمنت له أربعة يصل رحمه. فيحبه

الله ويوسع عليه في رزقه ويزيد في عمره ويدخله الجنة التي وعده.

وقد قال رسول الله ﷺ: «صِلوا أرحامكم ولو بالسلام عليهم».

وقال ﷺ: الرحم إذا وصلت ثم قطعت قطعها الله.

وقال ﷺ: صِلوا أرحامكم ولو بالسلام.

وقال ﷺ: برّ الوالدين وصلة الرحم يهونان الحساب.

وقال ﷺ: حسنوا أخلاقكم والطفوا بجيرانكم وأكرموا نساءكم تدخلوا الجنة بغير حساب[١].

وقال ﷺ: صلة الأرحام وحسن الجوار زيادة في الأموال[٢].

* * *

ثم إنه تعالى يقول: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا﴾ [الإسرَاء: الآية ٢٣] فجعل (الإحسان بالوالدين) في المرتبة الثانية، أي بعد عبادته تعالى وتقديسه وتوحيده.

فإذا كان للوالدين هذا المقام الرفيع فيجب أن يكون لمن يتصل بهما من إخوان وأخوات وجدود وجدّات وأعمام وعمات وأخوال وخالات وغيرهم من الأرحام مقام يناسبهم. فالعطف عليهم والقيام بخدمتهم خدمة للوالدين وموجب لإدخال السرور عليهما. كل ذلك لما للوالدين من حق كبير على الأولاد. فلا يمكن أن يؤدي شكر هذا الحق إلا بخدمة الأرحام خدمة صادقة. لذلك جاء في خبر عن الرسول ﷺ: «نظر الولد إلى والديه حباً لهما عبادة»، ذلك لأن هذا الحب الذي ملؤه الإخلاص والولاء مقرّب العبد إلى الله، وكل ما يقرب العبد إلى الله عمل عبادي.

* * *

وفي حديث آخر: «ووالديك فبرّهما وأطعمهما حيَّين وميِّتين. فإن أمراك أن تخرج من أهلك ومالك فافعل. فإنّ ذلك من الإيمان»[٣].

---

(١) ذكرت هذا الحديث في غير محله لأهميته.

(٢) وسائل الشيعة: ج٢١، ص٥٣٥، باب ١٧، وفيه: زيادة في الأعمار.

(٣) أصول الكافي: ج٢، ص١٥٨، باب البر بالوالدين.

فعلى الإنسان أن يبرّ والديه حيَّين كانا أم ميّتين. وأن يطعهما كذلك، فالبر بهما حيَّين هو إطاعتهما والقيام بشؤونهما وتحقيق آمالهما المشروعة.

حتى إن الله تعالى أمرنا أن نصاحبهما في الدنيا بالمعروف وإن أمرانا بالشرك بالله تعالى، لا سمح الله. ﴿وَإِن جَـٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ﴾ [لقمان: الآية ١٥]. ومعلوم أنه لا ظلم أشد من الشرك بالله، وأنّ الله قد يغفر لعباده ذنوباً عظاماً، ولكنه لا يغفر لمن يشرك به أبداً. وهو القائل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ﴾ [النساء: الآية ٤٨]. ذلك لأنّ الشرك يضاد الفطرة ويخالفها لما جبل عليه الإنسان من توحيد الله. فـ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: الآية ١٣] وما يشرك بالله إلا من أمسى جرثومة فساد وإفساد وعصارة الشر والبغي والظلم مع نفس متحجرة، مدلهمة، لا تصلحها إلا النار! وهيهات أن تصلح وإن خلد في السعير.

والبر بالوالدين ميّتين، هو التصدق عنهما والاستغفار لهما وتلاوة القرآن على مرقديهما وسورة الفاتحة والإخلاص كذلك، وكذلك تلاوة القرآن في أوقات مختلفة وجعل ثوابها على روحيهما.

فقد قال رسول الله ﷺ: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا عن ثلاث، صدقة جارية وعلم ينتفع به وولد صالح يدعو له»(١).

يقال: قد مرّ عيسى عليه السلام بقبر فرأى بنظر النبوة: أن مَن فيه يُعذَّب، ثم مرّ بعد سنة على ذلك القبر فرأى من فيه قد رفع عنه العذاب. فسأل الله تعالى عن السبب فجاءه الوحي: أن ولد هذا الرجل قد سوى طريقاً وأكسى يتيماً، فرفع الله العذاب عن والده.

وكم يرى الناس الآباء والأمهات في منامهم بعد وفاتهم وهم يطلبون إلى أبنائهم وبناتهم أن يتصدَّقوا عنهم أو يقوموا بعمل عبادي ليرفع عنهم العذابُ.

ويقال عن مغنّية كانت قد توفيت قبل أمها، تأتي في منام أمها تلتمس أن تشتري

---

(١) منية المريد: ص١٠٣، فصل ٢.

جميع الأسطوانات التي تخص صوتها وتحرقها جميعاً، لأنها تعذب، كلما خرج صوتها في آلة المكرامافون أو غيرها.

وإن كثيراً من الناس يحفظون كثيراً من هذه الأحلام واستغاثة الموتى بالأحياء لقيام الأحياء بعملٍ لعل الله تعالى يرفع عنهم العذاب في عالم البرزخ، وقد ذكرت بعضها في الجزء الثالث من هذا الكتاب.

وإني أذكر هنا من تلك الأحلام حلماً واحداً:

كان لي صديق من الأخيار رحمه الله، وقد توفى صديق له، وإن هذا الصديق الحي كان يقرأ كل يوم بالنيابة عن صديقه المتوفي (زيارة عاشوراء). ويجعل ثوابَ ذلك على روح صديقه. ثم إنه ترك هذا العمل أياماً، فجاءه صديقه المتوفى في منامه كئيباً حزيناً معاتباً. يلتمسه أن يثابر على عمله وأن لا ينقطع عن زيارة عاشوراء بالنيابة عنه، لاحتياجه الشديد إلى هذا العمل العبادي المكفر عن ذنوبه والرافع عنه العذاب.

وقد نقل لي أحد الأخيار: أنه كلما تعسَّرت أموره وقتر في رزقه جاء إلى قبر والده يقرأ الفاتحة وسوراً من القرآن. فيفرج الله عنه عاجلاً، ويوسع عليه في رزقه.

* * *

إنه تعالى يقول: ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا وَبِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾ [النِّساء: الآية ٣٦].

فالإحسان بالوالدين من الأهمية بمكان. لذلك يذكرهما الله تعالى بعد توحيده وعدم الشرك به. لما لهما من حقوق عظيمة ومقام رفيع.

وخصَّ الله تعالى حال الشيخوخة بمزيد من الحنو والترفق والإكرام والتوقير، فهي المرحلة التي يجني الوالدان فيها ثمار الكدح ويتوَّجان بتاج الكفاح ويجزيان جزاء الجهاد والدأب، إنه تعالى يقول:

﴿إِمَّا يَبۡلُغَنَّ عِندَكَ ٱلۡكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوۡ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفّٖ وَلَا تَنۡهَرۡهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوۡلٗا كَرِيمٗا ٢٣ وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرۡحَمۡهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرٗا ٢٤﴾ [الإسْراء: الآيتان ٢٣/٢٤].

وتلك مشاعر الفطرة نحو من لم يشب إحسانهما غرض، ولم يبغيا بجهادهما أجراً، بل بذلا الرعاية الموصولة والحنان الغامر قربة وفطرة فلا أقل من التقدير والعرفان. حفظاً على الوفاء وصيانة للإنسانية من آفات الجحود والنكران.

ثم إنه تعالى يقول: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [البَقَرَة: الآية ٨٣].

فجعل الله تعالى للوالدين حق البر واللطف والرعاية والرحمة وأكد هذا الحق بأن قرنه بحقه تعالى.

فإنّ عقوق الوالدين (أي الإساءة إليهما) وجحد إحسانهما من كبائر الذنوب، إذ هو قرين الشرك بالله تعالى، وإنّ رضا الوالدين طريق للجنة، فإذا حازه الولد فقد بلغ الغاية وأدرك في الكمال النفسي النهاية.

* * *

ولا بأس بذكر هذا الحديث، لتتعلم منه دستوراً قيماً في خدمة الوالدين.

يقول زكريا بن إبراهيم، قال: «كنت نصرانياً، فأسلمت وحججت فدخلت على أبي عبدالله عليه السلام فقلت: إني كنت على النصرانية وإني أسلمت فقال: وأي شيء رأيت في الإسلام، قلت: قول الله عزّ وجلّ ﴿مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ﴾ [الشورى: الآية ٥٢] فقال: لقد هداك الله ثم قال: اللهم اهده ـ ثلاثاً ـ سل عما شئت يا بني، فقلت: إن أبي وأمي على النصرانية وأهل بيتي، وأمي مكفوفة البصر، فأكون معهم وآكل في آنيتهم فقال يأكلون لحم الخنزير قلت: لا، ولا يمسُّونه فقال: لا بأس، فانظر أمك فبرها، فإذا ماتت فلا تكلها إلى غيرك، كن أنت الذي تقوم بشأنها، ولا تخبرن أحداً أنك أتيتني حتى تأتيني بمنى إن شاء الله.

قال: فأتيته بمنى والناس حوله كأنه معلم صبيان. هذا يسأله وهذا يسأله فلما قدمت الكوفة ألطفت لأمي وكنت أطعمها وأفلي ثوبها ورأسها وأخدمها فقالت لي: يا بني ما كنت تصنع بي هذا وأنت على ديني، فما الذي أرى منك منذ هاجرت فدخلت في الحنيفية، فقلت: رجل من ولد نبينا أمرني بهذا فقالت: هذا الرجل هو نبي؟

فقلت: لا، ولكنه ابن نبي، فقالت: يا بُني، إن هذا نبي، إن هذه وصايا الأنبياء فقلت: يا أُماه، إنه ليس يكون بعد نبينا نبي، ولكنه ابنه، فقالت: يا بني دينك خير دين اعرضه عليّ، فعرضته عليها، فدخلت في الإسلام، وعلّمتها فصلّت الظهر والعصر والمغرب والعشاء الآخرة، ثم عرض لها عارض في الليل فقالت: يا بني، أعد عليّ ما علمتني، فأعدته عليها. فأقرّت به وماتت فلما أصبحت كان المسلمون الذين غسلوها وكنت أنا الذي صلّيت عليها ونزلت في قبرها(١).

* * *

وفي حديث آخر عن أبي عبدالله عليه السلام قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، من أبرّ؟ قال: أمك، قال: ثم من؟ قال: أمك، قال: ثم من؟ قال: أمك، قال: ثم من؟ قال: أباك(٢).

وعن أبي ولاد الخياط قال:

سألت أبا عبدالله عليه السلام عن قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ [البَقَرَة: الآية ٨٣]، ما هذا الإحسان؟ فقال: الإحسان: أن تحسن صحبتهما وأن لا تكلّفهما أن يسألاك شيئاً مما يحتاجان إليه وإن كانا مستغنيين أليس يقول الله عزّ وجلّ: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عِمرَان: الآية ٩٢]. قال: ثم قال أبو عبدالله عليه السلام: وأما قول الله عزّوجلّ: ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا﴾. قال: إن أضجراك فلا تقل لهما أفٍ ولا تنهرهما إن ضرباك، قال: ﴿وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ قال: إن ضرباك. فقل لهما: غفر الله لكما، فذلك منك قول كريم. قال: ﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ﴾ [الإسرَاء: الآيتان ٢٣/ ٢٤]، قال: لا تملأ عينيك من النظر إليهما إلا برحمة ورقّة، ولا ترفع صوتك فوق أصواتهما ولا يدك فوق أيديهما ولا تتقدم قدامهما(٣).

---

(١) أصول الكافي: ج٢، ص١٦٠، باب البر بالوالدين.
(٢) أصول الكافي: ج٢، ص١٥٩، باب البرّ بالوالدين.
(٣) أصول الكافي: ج٢، ص١٥٨.

وقد سئل رسول الله ﷺ، ما حق الوالد على ولده؟ قال: «لا يسمّيه باسمه ولا يمشي بين يديه ولا يجلس قبله ولا يستسب له»[١]،[٢]. .

* * *

ذكر لي أستاذي في الفقه إني زرت الإمام الحسين عليه السلام يوم عرفة، فقلت في نفسي: أزور زيارة عرفة مرة أخرى بالنيابة عن جدي، حتى إذا رجعت إلى النجف الأشرف قال لي أبي: وما الذي قمت به بالأمس؟ قلت: زرت زيارة عرفة بالنيابة عن جدي، فقال: قد رأيتُ الليلة البارحة جدك في المنام وقد نزل من أعلى جواده، وهو يقول: ها إني راجع من حج بيت الله الحرام. فعلمت، أن زيارة عرفة تعادل عند الله من الأجر بقدر حج بيت الله الحرام.

* * *

وعن معمر بن خلاد قال: قلت لأبي الحسن الرضا عليه السلام: أدعو لوالديَّ إذا كانا لا يعرفان الحق؟ قال: أدعُ لهما، وتصدق عنهما وإن كان حيَّين لا يعرفان الحق فدارهما، فإن رسول الله ﷺ قال: «إنّ الله بعثني بالرحمة لا بالعقوق»[٣].

وعن جابر عن أبي عبدالله عليه السلام قال: أتى رجل رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله إني راغب في الجهاد نشيط، قال: فقال له النبي ﷺ: فجاهد في سبيل الله، فإنك إن تقتل تكن حياً عند الله ترزق. وإن متّ فقد وقع أجرك على الله. وإن رجعت، رجعت من الذنوب كما وُلدت، قال يا رسول الله، إنَّ لي والدين كبيرين يزعمان أنهما يأنسان بي ويكرهان خروجي. فقال رسول الله ﷺ: «فقر مع والديك، فوالذي نفسي بيده لأنسهما بك يوماً وليلة خير من جهاد سنة»[٤].

عن عمار بن حيان، قال: خبرت أبا عبدالله ببر إسماعيل ابني بي فقال: لقد كنت أحبه وقد ازددت له حباً. إن رسول الله ﷺ أتته أخت له من الرضاعة[٥]. فلما نظر إليها

(١) أي لا يفعل ما يكون سبباً لسب الناس له ولوالديه.
(٢) أصول الكافي: ج٢، ص١٥٩.
(٣)،(٤) أصول الكافي: ج٢، ص١٦٠.
(٥) أخته وأخوه ﷺ من الرضاعة هما ولدا حليمة السعدية.

سرّ بها وبسط ملحفته لها، فأجلسها عليها ثم أقبل يحدِّثها ويضحك في وجهها، ثم قامت وذهبت وجاء أخوها، فلم يصنع به ما صنع بها. فقيل له: يا رسول الله صنعت بأخته ما لم تصنع به وهو رجل؟ فقال: «لأنها كانت أبرّ بوالديها»[١].

وفي أصول الكافي عن عنبسة بن مصعب عن أبي جعفرعليه السلام قال: «ثلاث لم يجعل الله عزّوجلّ لأحد فيهن رخصة: أداء الأمانة إلى البر والفاجر، والوفاء بالعهد للبر والفاجر، وبر الوالدين برين كانا أو فاجرين»[٢].

وقد قال أبو عبدالله عليه السلام: «من السنة والبر أن يكنّى الرجل باسم أبيه»[٣].

وعن أبي عبدالله عليه السلام قال: جاء رجل وسأل النبي صلى الله عليه وآله: من برّ الوالدين، فقال: إبرر امك، إبرر امك، إبرر امك. إبرر أباك، إبرر أباك، إبرر أباك. وبدأ بالأم قبل الأب[٤].

وقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «كن باراً واقصر على الجنة، وإن كنت عاقاً فاقصر على النار»[٥].

وقد قال أبو جعفرعليه السلام قال رسول الله صلى الله عليه وآله في كلام له: «إياكم وعقوق الوالدين. فإن ريح الجنة توجد من مسيرة ألف عام، ولا يجدها عاق ولا قاطع رحم ولا شيخ زانٍ ولا جارٌ أزارَه خيلاءَ، إنما الكبرياء لله رب العالمين». وقال أيضاً: «من أصبح مسخطاً لأبويه أصبح له بابان مفتوحان إلى النار»[٦].

وقد قال الإمام الصادق عليه السلام: من نظر إلى أبويه نظر ماقت وهما ظالمان له لم يقبل الله له صلاة[٧].

وقال الإمام الصادق عليه السلام: «إذا كان يوم القيامة كشف غطاء من أغطية الجنة، فوجد ريحها من كانت له روح من مسيرة خمسمائة عام إلا صنفاً واحداً، فقيل له من هم؟ قال: العاق لوالديه»[٨].

---

(١) أصول الكافي: ج٢، ص١٦١.
(٢)،(٣) أصول الكافي: ج٢، ص١٦٢.
(٤) أصول الكافي: ج٢، ص١٦٢.
(٥) عق الولدُ والده: عصاه وترك الشفقة عليه والإحسان إليه واستخف به فهو عقّ وعاقّ.
(٦) جامع السعادات: ج٢، ص٢٥٧.
(٧) جامع السعادات: ج٢، ص٢٥٧.
(٨) جامع السعادات: ج٢، ص٢٥٨.

وقال ﷺ: لو علم الله شيئاً هو أدنى من أفّ، لنهى عنه وهو من أدنى العقوق. ومن العقوق أن ينظر الرجل إلى والديه فيحد النظر إليهما.

وفي حديث قدسي: «بعزتي وجلالي وارتفاع مكاني لو أنّ العاق لوالديه يعمل بأعمال الأنبياء جميعاً لم أقبلها منه».

وروى أيضاً: «إن أول ما كتب الله في اللوح المحفوظ إني أنا الله لا إله إلا أنا، من رضي عنه والداه فأنا منه راض، ومن سخط عليه والداه فأنا عليه ساخط»[١].

وقد ورد عن رسول الله ﷺ أنه قال: «كل المسلمين يروني يوم القيامة إلا عاق الوالدين وشارب الخمر ومن سمع اسمي ولم يصلِّ عليَّ».

كما أنه ثبت من الأخبار والتجارب أنّ دعاء الوالد على ولده لا يرد ويستجاب البتة[٢].

وفي الأخبار أن من لا ترضى عنه أمه تشتد عليه سكرات الموت وعذاب القبر، وقد يموت كافراً.

فقد ورد أنّ رجلاً قد حضرته الوفاة، فلقن الشهادتين، فأبى أن يقر بهما، فأخبر رسول الله ﷺ بذلك. فقال ﷺ احضروا لي أمه فأحضرت بين يدي رسول الله ﷺ فقال لها ﷺ هل بينكِ وبين ولدك شيء؟ قالت: إن ولدي كان يداريني ويحسن إلي ويتفقّدني حتى إذا تزوَّج تركني ولفظني ولم يسأل عني. فقال رسول الله ﷺ يا بلال أحضر الحطب وأضرم فيه النار. فقالت الأم، لمَ يا رسول الله فقال ﷺ حتى أريك كيف يحرق ولدك إذا مات وأنت غير راضية عنه، فقالت، أشهد الله ورسوله وملائكته إني قد رضيت عنه. فقال رسول الله ﷺ يا بلال، اذهب. ولقنه الشهادتين. فذهب بلال ولقَّنه الشهادتين، وإذا به يقول: أشهد أن لا إله إلا الله وأنّ محمداً رسول الله[٣].

وقال رسول الله ﷺ رضا الله مع رضا الوالدين، وسخط الله مع سخط الوالدين[٤].

وقال ﷺ ما من ولد بار ينظر إلى والديه نظر رحمة إلا كان له بكل نظرة حجة مبرورة، قالوا يا رسول الله، وإن نظر كل يوم مائة مرة؟ قال نعم، الله أكبر وأطيب[٥].

---

(١)،(٢) جامع السعادات: ج٢، ص٢٥٨.
(٣) من كتاب محمد المثل الكامل، بتصرف.
(٤) من كتاب مصابيح الهداية للسيد عبد الحسين الحائري، ج٢، ص٦٨.
(٥) بحار الأنوار: ج٧١، ص٧٣، باب ٢.

وقال رسول الله ﷺ من بر والديه زاد الله في عمره.

وقال الإمام الصادق عليه السلام من أحب أن يخفف الله عنه سكرات الموت فليكن بقرابته وصولاً وبوالديه باراً، فإذا كان كذلك هون الله عليه سكرات الموت ولم يصبه في حياته فقر أبداً(١).

وعن الإمام الباقر عليه السلام قال: سئل رسول الله ﷺ من أعظم حقاً على الرجل؟ قال: والداه(٢).

* * *

وقد قال رسول الله ﷺ بر الوالدين أفضل من الصلاة والصوم والحج والعمرة والجهاد في سبيل الله(٣).

وقال ﷺ من أصبح مرضياً لأبويه أصبح له بابان مفتوحان إلى الجنة(٤).

وقد ورد أنّ رجلاً أتى النبي ﷺ فقال يا رسول الله أوصني فقال «لا تشرك بالله شيئاً وإن حرقت بالنار وعذبت إلا وقلبك مطمئن بالإيمان ووالديك فأطعمهما وبرهما حيَّين كانا أو ميِّتين، وإن أمراك أن تخرج من أهلك ومالك فافعل، فإنّ ذلك من الإيمان»(٥).

* * *

إنه تعالى يقول ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ﴾ [لقمان: الآية ١٤] . . . وفي آية أخرى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا﴾ [الأحقاف: الآية ١٥].

إن الولد جزء من الأم حملته في الاحشاء وغذَّته من الغذاء، لما خرج إلى الدنيا حضنته وسهرت عليه وربطت حياتها به، تتحمل الأثقال وتنهض بالأحمال عن رضا وفرحة، فهل يسوغ أن يذهل الإنسان عن تلك الضحية من أجله، المنهكة في سبيله. فقد جاء في الحديث «الجنة تحت أقدام الأمهات».

إن إطاعة الوالدين واجبة وطلب رضاهم حتم، فيجب أن لا يرتكب الولد شيئاً من

---

(١) بحار الأنوار: ج٧١، ص٨١، باب ٢.

(٢) بحار الأنوار: ج٧١، ص٨١، باب ٢.

(٣) جامع السعادات: ج٢، ص٢٥٩.

(٤) نفس المصدر.

(٥) ذكرنا هذا الحديث من جامع السعادات، ج٢، ٢٥٩ بشكل آخر لما فيه من زيادة.

المباحات والمستحبات بدون اذنهما. حتى إن الفقهاء قد أفتوا أنه لا يجوز السفر لطلب العلم إلا بإذن الوالدين، ويستثنى من ذلك سفر الولد لطلب علم الفرائض من الصلاة والصوم وأصول العقائد إذا لم يكن في بلده من يعلمه.

وروي أنّ رجلاً هاجر من اليمن إلى رسول الله ﷺ وأراد الجهاد. فقال له رسول الله ﷺ: «ارجع إلى أبويك، فاستأذنهما، فإن أذنا فجاهد، وإلا فبرهما ما استطعت فإن ذلك خير مما كلف به بعد التوحيد». وجاء آخر إليه للجهاد فقال: ألك والدة؟ قال: نعم. قال: فالزمها، فإن الجنة تحت قدمها[1]. وجاء آخر وطلب البيعة على الهجرة إلى الجهاد قال: ما جئتك حتى أبكيت والديَّ قال ﷺ: «إرجع إليهما، فاضحكهما كما أبكيتهما».

ويجدر بمن أراد أن يبر والديه بعد موتهما:

١ ـ أن يصلي هذه الصلاة في أوقات فراغه وإن أمكن ففي كل يوم.

وهي ركعتان، يقول في الركعة الأولى بعد الحمد عشر مرات «ربنا اغفر لي ولوالديّ وللمؤمنين يوم يقوم الحساب».

ويقول في الركعة الثانية بعد الحمد عشر مرات: «ربِّ اغفر لي ولوالديّ ولمن دخل بيتي مؤمناً وللمؤمنين والمؤمنات».

ويقول بعد التسليم (بعد الانتهاء من صلاته) عشر مرات: «رب ارحمهما كما ربياني صغيرا».

٢ ـ وأن يتصدق عنهما.

٣ ـ وأن يقضي ما فاتهما من صلاة وصوم.

٤ ـ وأن يقضي ما عليهما من ديون.

٥ ـ وأن يحج عنهما.

٦ ـ وأن يزور المراقد المتبركة عنهما ويدعو لهما في تلك المشاهد المشرفة وفي صلاة الليل وليالي الجمعة.

---

(١) جامع السعادات، ج٢، ص٢٦٢.

فإن فعل ذلك فقد فتح على نفسه أبواب الرحمة والسعادة في النشأتين وختمت أعماله بحسن العاقبة وذلك غاية الغايات.

* * *

إن المدنية الحاضرة لتحجرها وغلبة النزعة المادية عليها باعدت بين الآباء والأبناء، فلا ترى كثيراً علقة بين الأبناء وآبائهم. وقد لا يجتمع الولد بوالده أو أمه إلا قليلاً، لذلك عمدت بعض الجمعيات الدينية كجمعيّة الشبان المسيحيِّين إلى الجمع بين الآباء والأبناء في مجلس واحد وإيجاد التآلف والمحبة بينهم.

وقد رأيت أن مؤسس جمعية الشبان المسيحيِّين: .Y.M.C.A في استانبول يفتخر لقيام الجمعية المذكورة بالجمع بين ٤٠٠ ولد ووالد في مجلس واحد. لتقوى أواصر المحبة بينهم.

إنّ الحياة الميكانيكيّة المجرّدة عن الروح والعواطف والمحبة ترجع بالفرد إلى جاهلية جهلاء. بل أشد من ذلك، فلا يشعر الفرد إلا بمنافعه الذاتية ولا يرى وراء المادة شيئاً، والحضارة الحقيقيَّة هي التي تحقِّق رغبات الروح والجسم في وقت واحد فلا يضحى بالكمال النفسي على حساب عمارة الجسم وتطمين شهواته ونزواته، فـ«حضارة الإسلام» هي الحضارة الحقة لجمعها بين عمارة الروح والبدن في وقت واحد.

صلة الأرحام

إن الله تعالى قد أمر في آيات جمة بصلة الرحم وأكّد ذلك رسول الله ﷺ في مواضع عدة، ذلك لأنّ الأسرة أساس المجتمع، فإن سعدت الأسرة سعد المجتمع، إنه تعالى يقول:

﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا وَبِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ﴾ [النساء: الآية ٣٦] وفي آية أخرى يقول الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلۡحِسَابِ ٢١ وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِمۡ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ وَيَدۡرَءُونَ بِٱلۡحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عُقۡبَى ٱلدَّارِ ٢٢ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ﴾ [الرّعد: الآيتان ٢١/ ٢٢].

فالله أمرنا في الآية المتقدمة بصلة الرحم. فصلة الرحم واجبة وجوب الصلاة ولا يدخل قاطع الرحم الجنة.

وقال رسول الله ﷺ: «أوصي الشاهد من أمتي والغائب ومن في أصلاب الرجال وأرحام النساء إلى يوم القيامة أن يصل الرحم وإن كانت منه على مسيرة سنة، فإنّ ذلك من الدين»[١].

وجاء في كتاب أنوار الهداية[٢] قال النبي ﷺ: من مشى إلى ذي قرابة بنفسه في ماله ليصل رحمه أعطاه الله عزّوجلّ أجر مائة شهيد وله بكل خطوة أربعون ألف حسنة ومحى عنه أربعون ألف سيئة ورفع له من الدرجات مثل ذلك وكأنما عبدالله مائة سنة صابراً محتسباً.

وعن الحسين بن علي عليه السلام أنه قال: من سره أن ينسأ في أجله ويزاد في رزقه فليصل رحمه.

وقال رسول الله ﷺ: بر الوالدين وصلة الرحم يهونان الحساب ثم تلا: ﴿وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِۦ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ الْحِسَابِ ﴿٢١﴾﴾ [الرّعد: الآية ٢١].

وقال رسول الله ﷺ: عن جبرائيل عن الله عزّوجلّ قال: «أنا الرحمن، شققت الرحم من اسمي، فمن وصلها وصلته، ومن قطعها قطعته».

وقال رسول الله ﷺ إن أعجل الخير ثواباً صلة الرحم، وقال: «من سره النساء[٣] في الأجل والزيادة في الرزق فليصل رحمه». وقال: «إن القوم ليكونون فجرةً ولا يكونون بررة فيصلون أرحامهم فتنمى أعمالهم وتطول أعمارهم، فكيف إذا كانوا أبراراً بررة»[٤].

وقال ﷺ: «الصدقة بعشرة، والقرض بثمانية عشر وصلة الإخوان بعشرين، وصلة الرحم بأربعة وعشرين».

---

(١) جامع السعادات، ج٢، ص٢٥٤.

(٢) نقلاً من كتاب: مصابيح الهداية، للسيد عبدالحسين الحائري، ج٢، ص٦٩.

(٣) النسأ: طول العمر، نَسأ الله أجله: أخره.

(٤) جامع السعادات، ج٢، ص٢٥٤.

سُئل رسول الله ﷺ أيّ الناس أفضل؟ فقال: «أتقاهم لله وأوصلهم للرحم، وآمرهم بالمعروف وأنهاهم عن المنكر».

وقال ﷺ: أفضل الفضائل أن تصل من قطعك وتعطي من حرمك وتعفو عمن ظلمك(١).

وقال ﷺ: «من سرَّه أن يمد الله في عمره وأن يبسط في رزقه، فليصل رحمه، فإن الرحم لها لسان يومَ القيامة ذلق، تقول: يا رب، صِل من وصلني، واقطع من قطعني. فالرجل ليرى بسبيل خير، إذا أتته الرحم التي قطعها فتهوى به إلى أسفل قعر في النار»(٢).

وقال الإمام الباقر عليه السلام: «إن الرحم متعلقة يوم القيامة بالعرش تقول: اللهم صِل من وصلني، واقطع من قطعني». وهذا تمثيل للمعقول بالمحسوس وإثبات لحق الرحم على أبلغ وجه، وتعلُّقها بالعرش كناية عن مطالبة حقها بمشهد الله(٣).

وقال عليه السلام «صلة الأرحام تحسن الخلق وتسمح الكف وتطيب النفس وتزيد في الرزق، وتنسئ الأجل». وقال أيضاً: «صلة الأرحام تزكي الأعمال وتنمي الأموال وتدفع البلوى وتيسِّر الحساب وتنسئ في الأجل».

وقال الإمام الصادق عليه السلام صلة الرحم والبرّ ليهوّنان الحساب ويعصمان من الذنوب، فصلوا أرحامكم وبرُّوا بإخوانكم ولو بحسن السلام وردّ الجواب(٤).

وقال عليه السلام «صلة الرحم تهوّن الحساب يوم القيامة وهي منسأة في العمر وتقي مصارع السوء» وقال أيضاً: «صلة الرحم حسن الجوار يعمران الديار ويزيدان في الأعمار». وقال أيضاً: «ما نعلم شيئاً يزيد في العمر إلا صلة الرحم، حتى أنَّ الرجل يكون أجله ثلاث سنين، فيكون وصولاً للرحم، فيزيد الله في عمره ثلاثين سنة، فيجعلها ثلاثاً وثلاثين سنة، ويكون أجله ثلاثاً وثلاثين سنة، فيكون قاطعاً للرحم،

---

(١) جامع السعادات، ج٢، ص٢٥٥.
(٢) أصول الكافي: ج٢، ص١٥٦، باب صلة الرحم.
(٣) جامع السعادات، ج٢، ص٢٥٥.
(٤) أصول الكافي: ج٢، ص١٥٧، باب صلة الرحم.

فينقصه الله تعالى ثلاثين سنة ويجعل أجله إلى ثلاث سنين»(١).

وفي أصول الكافي ج٢، ص١٥٠، أنّ رجلاً أتى النبي ﷺ فقال يا رسول الله أهل بيتي أبو إلا توثباً علي وقطيعة لي وشتيمة. فأرفضهم؟ قال إذن يرفضكم الله جميعاً قال فكيف أصنع؟ قال تصل من قطعك. وتعطي من حرمك وتعفو عمّن ظلمك، فإنّك إذا فعلت كان لك من الله عليهم ظهير».

وعن أبي الحسن الرضا عليه السلام قال: قال أبو عبدالله عليه السلام «صل رحمك ولو بشربة من ماء، وأفضل ما توصل به الرحم كفّ الأذى عنها، وصلة الرحم منسأة في الأجل ومحبة في الأهل»(٢).

قال أبو ذر رضي الله عنه، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «حافتا الصراط يوم القيامة الرحم والأمانة، فإذا مرّ الوصول المؤدّي للأمانة نفذ إلى الجنة، وإذا مرّ الخائن للأمانة القطوع للرحم لم ينفعه معهما عمل وتكفأ به الصراط في النار»(٣).

وعن أبي جعفر عليه السلام قال، قال رسول الله ﷺ وإن أعجل الخير ثواباً صلة الرحم(٤).

عن عبدالله بن سنان، قال: قلت لأبي عبدالله عليه السلام إن لي ابن عم أصله فيقطعني وأصله فيقطعني، حتى لقد هممت لقطيعته إياي أن أقطعه قال: إنك إذا وصلته وقطعك وصلكما الله جميعاً. وإن قطعته وقطعك قطعكما الله»(٥).

وعن داود بن فرقد قال: «قال لي أبو عبدالله عليه السلام إني أحب أن يعلم الله أني قد أذللت رقبتي في رحمي وإني لأبادر أهل بيتي، أصلهم قبل أن يستغنوا عني»(٦).

عن عمر بن يزيد قل: سألت أبا عبدالله عليه السلام عن قول الله عزّوجلّ: الذين يصلون

---

(١) جامع السعادات، ج٢، ص٢٥٦.
(٢) أصول الكافي: ج٢، ص١٥١، باب صلة الرحم.
(٣) أي تقلب.
(٤) أصول الكافي: ج٢، ص١٥٢، باب صلة الرحم.
(٥) أصول الكافي، ج٢، ص١٥٦.
(٦) أصول الكافي: ج٢، ص١٥٦، باب صلة الرحم.

ما أمر الله به أن يوصل فقال: قرابتك[١].

عن الجهم بن حميد. قال قلت لأبي عبدالله عليه السلام تكون لي القرابة على غير أمري. ألهم عليّ حق؟ قال نعم، حق الرحم وحق الإسلام[٢].

وقال أبو عبدالله عليه السلام: صلة الرحم تهون الحساب يوم القيامة وهي منسأة في العمر وتقي مصارع السوء وصدقة الليل تطفئ غضب الرب»[٣].

ويراد بالرحم مطلق القريب المعروف بالنسب، وإن بعدت النسبة وجاز النكاح، فهذه الرحم يحرم قطعها وتجب صلتها ولو وهب لها شيء لا يجوز الرجوع عنه.

والمراد بقطع الرحم إيذاؤها بالقول والفعل أو منعها مما تحتاج إليه من مسكن وملبس ومأكل مع وجود زيادة عن قدر الحاجة أو عدم دفع ظلم الظالم عنها مع القدرة، أو هجرها غيظاً وحقداً.

قطيعة الرحم

ولنورد ها هنا بعض ما جاء في قطيعة الرحم، فإن قطيعة الرحم كما يستفاد من الأخبار والآثار تؤدي إلى قصر العمر والضيق في الرزق وتفكك أواصر الأسرة والتحلل الاجتماعي وإن الإسلام بِحثّه على صلة الرحم والتزاور والتعاطف والتراحم وعيادة المرضى وتشييع الجنائز دين اجتماعي بكل ما في الاجتماع من معنى سامٍ رفيع.

إنه تعالى يقول ﴿وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٢٥﴾﴾ [الرّعد: الآية ٢٥].

و قد قال رسول الله صلى الله عليه وآله: أبغض الأعمال إلى الله: «الشرك بالله ثم قطيعة الرحم. ثم الأمر بالمنكر والنهي عن المعروف»[٤].

وقال صلى الله عليه وآله: «لا تقطع رحمك وإن قطعك»[٥].

---

(١)،(٢)،(٣) أصول الكافي: ج٢، ص١٥٦، باب صلة الرحم.
(٤)،(٥) أصول الكافي: ج٢، ص٣٤٧، باب قطيعة الرحم.

وقال أمير المؤمنين علي عليه السلام في خطبته: «أعوذ بالله من الذنوب التي تعجل الفناء، فقام إليه عبدالله بن الكوى اليشكري فقال: يا أمير المؤمنين. أوَ تكون ذنوب تعجل الفناء؟ فقال: نعم، ويلك: قطيعة الرحم، إن أهل البيت ليجتمعون ويتواسون وهم فجرة، فيرزقهم الله وإن أهل البيت ليتفرقون ويقطع بعضهم بعضاً فيحرمهم الله وهم أتقياء»(١) وقال عليه السلام: «إذا قطعوا الأرحام جعلت الأموال في أيدي الأشرار».

وقال الإمام الباقر عليه السلام: «في كتاب علي صلوات الله عليه، ثلاث خصال: لا يموت صاحبهن أبداً حتى يرى وبالهن: البغي وقطيعة الرحم، واليمين الكاذبة يبارز الله بها، وإن أعجل الطاعات ثواباً لصلة الرحم، وإن القوم ليكونون فجاراً. فيتواصلون، فتنمى أموالهم ويثرون، وإن اليمين الكاذبة وقطيعة الرحم لتذران الديار بلاقع من أهلها، وتنقل الرحم، وإن نقل الرحم انقطاع النسل»(٢).

وقال الإمام الصادق عليه السلام: اتقوا الحالقة(٣) فإنها تميت الرجال، قيل: وما الحالقة؟ قال: قطيعة الرحم.

«جاء رجل إليه عليه السلام فشكى أقاربه فقال له: «اكظم وافعل» فقال: إنهم يفعلون ويفعلون.. فقال: أتريد أن تكون مثلهم، فلا ينظر الله إليكم»(٤).

أثر صلة الأرحام في الإيمان بالله

كان لي صديق شاهدته بعد مدة مديدة، فألفيته قد ترك صلاته وتسبيحه واندمج في العالم الجديد. وصرت أنصحه وأوجهه إلى عالم العبادة والتقوى، إلى عوالم القدس والصفاء. فرأيته ذات يوم في حرم الكاظمين عليهما السلام، يصلي. وقال لي: إنه يصلي في الأسبوع مرة واحدة يوم الجمعة عند زيارته مرقد الإمامين عليهما السلام.

---

(١)، (٢) جامع السعادات: ج٢، ص٢٥٣.

(٣) الحالقة: هي الخصلة التي من شأنها أن تحلق أي تهلك وتستأصل الدين كما يستأصل الموس الشعر.

(٤) أصول الكافي: ج٢، ص٣٤٧، باب قطيعة الرحم.

ثـم زدت في النصيحة له وصرت أقرأ عليه بعض الأشعار العرفانية وشرحت له فلسفة الصلاة وكيف أنها تطهر النفوس وتزيل الأدران، وكيف أن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم في العروق. وإن الإنسان لا يصلحه إلا الصلوات الخمس لطرد الشيطان ووساوسه في فترات متقاربة، ولئلا يستفحل أمره، فتتراكم الذنوب ويسوّد القلب، ذلك لأن الذنوب تسدّ على الإنسان أبواب السماء.

دعاني صديقي هذا يوماً إلى طعام الظهر، ذهبت إلى بيته فاستقبلني أخوه قلت: أين أخوك؟ قال: ذهب إلى مسجد قريب. ليصلي صلاة الظهر، ثم أنه حضر بعد دقائق فقال: آليت على نفسي أن لا أتنعم بنعمة من نعم الله إلا وقد أديت واجب الشكر قبلاً.

وعلمت من حاله، أنه كان يأخذ أمه العرجاء كل مساء حاملاً إياها على ظهره إلى السطح العالي وينزلها على ظهره إلى قاعة الدار كل صباح ويخدمها خدمة صادقة[1] فعلمتُ أن إيمان الرجل إنما هو نتيجة تلك الخدمة الصادقة نحو أمه العجوز.

* * *

عرفت رجلاً آخر كان قد استولت عليه أفكار غربية وكان متأثراً إلى حد بعيد بأخلاق الغرب وعاداته وحضارته المادية وحياته الاجتماعية ويقدرها أيما تقدير ويرى أن إصلاح الشرق إنما يتم باتباع الغرب في حياته الاجتماعية؛ ومع ذلك ما كان لينقطع عن صلاته وتلاوة القرآن كل صباح وعن الصوم في شهر رمضان المبارك. فكان مسلماً متطرفاً بعيداً عن كثير من حقائق الإسلام، يجهل الآداب الإسلامية التي فيها حياة القلوب وسعادة الدارين.

ولكن الله تعالى أراد أن يمنّ عليه بتوفيق الهداية، فأتيح له أن قام بخدمة صادقة نحو خالته العجوزة، التي كادت أن تصاب بالعمى من جراء رمد شديد، فاهتم اهتماماً بالغاً في شفائها وصرف مبالغ لا يستهان بها وشفيت خالته ونجت من العمى، فرأى

---

(١) عن إبراهيم بن شعيب قال: قلت لأبي عبدالله عليه السلام: إن أبي قد كبر جداً وضعف، فنحن نحمله إذا أراد الحاجة قال: إن استطعت أن تلي ذلك منه، فافعل ولقمه بيدك «فإنه جنة لك غداً»... من أصول الكافي، ج٢، ص١٦٢.

الشاب بعد ذلك في نفسه توجهاً عجيباً نحو تفهم الدين الإسلامي من منابعه وتطبيق بعض المستحبات التي فيها جلاء القلوب وتزكية النفوس، وإذا به يقف على مواطن الضعف في الحضارة الغربية المادية ويزيفها بأدلة رصينة من نواح شتى ويتّضح له أنها حضارة شهوات ونزوات في جميع المجالات حتى في الكنائس! إنها جاهلية جهلاء بكل ما في الجاهلية من تسافل مرير. إنها جاهلية القرن العشرين جاهلية أشد خطراً على البشر من الجاهلية الأولى من الدور الجاهلي قبل الإسلام.

وقد جاء في الحديث ما مؤداه: أن رجلاً أتى رسول الله ﷺ قائلاً يا رسول الله، ما من ذنب إلا وقد ارتكبته فما هو خير عمل أقوم به لكي يغفر الله لي.

فقال رسول الله ﷺ، «هل لك أم. أخدمها يغفر الله لك. قال الرجل كلا، إنها توفيت. فقال رسول الله ﷺ، هل لك خالة؟ قال الرجل، نعم، فقال رسول الله ﷺ: إخدمها، يغفر الله لك.

* * *

هذه قوانين اجتماعية جاءتنا من جانب الله تبارك وتعالى على لسان الرسول والأئمة من بعده عليهم أفضل الصلاة والسلام، لو عمل بها البشر ﴿لَأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ [المائدة: الآية ٦٦] ولنالوا سعادة النشأتين.

* * *

ولنختم هذا المقال بما جاء في رسالة لمولانا وإمامنا زين العابدين علي بن الحسين عليه السلام بشأن حق الأم وحق الأب وحق الولد وحق الأخ من الأقارب والأرحام.

يقول عليه السلام: وأما حق أمك: أن تعلم أنها حملتك حيث لا يحتمل أحد أحداً. وأطعمتك من ثمرة قلبها ما لا يطعم أحد أحداً. ووقتك بجميع جوارحها، ولم تبالِ أن تجوع وتطعمك وتعطش وتسقيك وتعرى وتكسوك وتضحى وتظللك وتهجر النوم لأجلك ووقتك الحر والبرد لتكون لها. وإنك لا تطيق شكرها إلا بعون الله وتوفيقه.

وأما حق أبيك. فأن تعلم أنه أصلك فإنه لولاه لم تكن، فمهما رأيت من نفسك ما

يعجبك فاعلم أنّ أباك أصل النعمة عليك فيه. فاحمد الله وأشكره على قدر ذلك ولا قوة إلا بالله[1].

وأما حق ولدك: فأن تعلم أنه منك ومضاف إليك في عاجل الدنيا بخيره وشره، وأنك مسؤول عما وليته من حسن الأدب والدلالة على ربه عزّ وجل والمعونة على طاعته. فاعمل في أمره عملَ من يعلم أنه مُثاب على الإحسان إليه ومعاقب على الإساءة إليه.

وأما حق أخيك: فأن تعلم أنه يدك وعزك وقوّتك، فلا تتّخذه سلماً على معصية الله ولا عدة للظلم لخلق الله ولا تدع نصرته على عدوه والنصيحة له، فإن أطاع الله، وإلا فليكن الله أكرم عليك منه، ولا قوة إلا بالله.

* * *

فحقوق الوالدين والأرحام ليست من قبيل التزين بالأدب الاجتماعي بل هي فروض وواجبات وعزائم، إذا أداها المرء فقد أبرأ ذمته من تبعة المسؤولية بين يدي الله، وإذا لم يؤدها فلن تنفعه صلاة ولا صيام ولا غير ذلك من أعمال البر والطاعة. فالإسلام لا يحبّ أن يخرج للمجتمع إلا إنساناً دقيق الحس. مرهف الوجدان؛ يفيض قلبه بالبر والمواساة والحب، ولا شك أن الوالدين هما أوّل من يجب أن يمسّه نفح ذلك الود بما أسلفاه من جميل ومن بعدهما الأرحام.

هذه قوانين لها قيمتها الاجتماعية والتوجيهية، فتطبيقها تعمر البلدان ويسعد الناس فيشد بعضهم أزر بعض بالتواصل والتعاطف والتراحم والحب والولاء، كما يؤدّي تطبيقها إلى الإيمان الرصين وإزالة الشكوك والأوهام، يؤدي إلى الإيمان بالله وملائكته واليوم الآخر وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والخمس وبقية الحقوق، يؤدي إلى سعادة أبديّة سعادة الآخرة، وهي التي تدوم ملايين السنين في جنة ﴿عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ [آل عِمرَان: الآية ١٣٣].

---

(١) راجع كتاب شرح رسالة الحقوق للإمام زين العابدين عليه السلام شرح السيد القبانچي ط. الأعلمي.

سؤال عن حكم شرعي

يسأل أحد الأطباء، لماذا: البول نجس والعرق طاهر؟ وهما شيء واحد. ذلك، لأن البول يخرج مع العرق في الصيف، فيقل البول، وفي الشتاء يكثر البول لعدم خروج العرق من البدن.

بسم الله الرحمن الرحيم

الجواب:

أخي الدكتور، زاده الله تعالى توفيقاً.

بعد تقديم خالص التحية والتقدير لشخصيتكم المؤمنة، أبدي:

إن أحكام الشرع توقيفية، يجب إتباعها على ما جاء من الشارع سواء ظفرنا ببعض العلل الطبية أو الاجتماعية أو لم نظفر، وإن العلم الحديث فتح علينا أبواباً لتفهم علل كثير من الأحكام الشرعية، على أن العلل قد لا تنحصر في ما اكتشفه العلم الحديث، ووراء هذا الكشف علل وعلل قد خفيت علينا وسوف نظفر بها مع تقدم العلم، غاية ما هنالك إن ما جاء من أحكام في الشريعة الإسلامية لا يمجها العقل وإن جهل بعض الأسباب أو كلها. لذلك يقال: كل ما حكم به الشرع حكم به العقل، أي يراه العقل مستساغاً وإن جهل العلة، ولا عكس أي لا كل ما حكم به العقل البشري حكم به الشرع، لأن العقل البشري قد لا يستوعب الأحكام ويرى الأمور من ناحية أو ناحيتين وتبقى بقية النواحي خافية عليه، والله هو المحيط بالحكم والأسباب والنتائج.

أما الجواب على سؤالكم: من الواضح أن مقدار البول يقل في الصيف لخروج قسم من السائل بشكل عرق دون الشتاء، فيزداد مقدار البول. ولكن هل أنّ كل ما في البول لدى التحليل من عناصر وجراثيم وميكروبات و(كاست): Casts وبلورات يوجد في العرق. ذلك لأنّ رائحة البول تختلف كثيراً عن رائحة العرق وهذا دليل على

الاختلاف والفرق في العناصر والكميات والجراثيم إلى ما هنالك وليس في العرق إلا الماء والملح ومواد دهنية.

فالبول، وهو الذي تفرزه الكليتان في المثانة ثم يخرجه الإنسان بالإرادة على الأغلب يشتمل على مواد وأملاح كثيرة منها مادة فوسفات وحامض الصوديوم وحامض اللاكتيك ومواد عطرية وعناصر جامدة واكسانتين وكرانتين وحامض الأيبوريك وحوامض دسمة ومواد ملوَّنة وملح الطعام والفوسفات القلوية وفوسفات النورة وفوسفات المنيزي والسلفانات القلوية وحامض السليك والأمونياك وغيرها ومادة الأورة.

وتكون غالباً في البول بنسبة ثلاثين إلى ألف وأربعمائة من مجموع البول ومادة تسمى حامض الأوريك ونسبتها إلى مجموع البول أقل من نسبة الواحد إلى الألف إلا أنها سامة قويَّة التأثير جداً تقرح الجلد وتخدش ما اتصل به، والمواد البولية بتراكيبها سامة مضرة. وما دامت في بدن الإنسان لا تضر، لأن تأثيرها ضعيف أو معدوم فإذا مسَّها الهواء بعد خروجها اشتدّ ضررها كماء الاستنجاء، ويزداد ضررها كلما طال زمن اتصالها في الهواء ولا تخلو من لزوجة.

وبول المرأة يختلف عن بول الرجل من حيث المواد، كما أن بول الصبي قبل أن يأكل شيئاً من الطعام كالخبز وغيره يختلف عن بوله بعد أن اعتاد الأكل، لذلك تختلف كيفيَّة التطهير من البول في أبوال من ذكرنا، وإن الطب والفسلجة ليؤيِّدان ذلك.

وبما أنّ العرق يختلف عن البول من حيث التحليل والوزن النوعي والرائحة ومروره ببعض أعضاء الجسم الإنساني لا يكون ضاراً كي يصب عليه الماء بعد الخروج من الجلد، كما في البول.

وبالختام أتمنى لتلك النفس الطاهرة التي أخذت على عاتقها خدمة هذا الدين في النواحي العلمية سعادةً أبدية، سعادة الدنيا ونعيم الآخرة والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

* * *

إسلام عائشة بردجت هني[1]

Aisha Bridget Honey

يعرف المسلمون في بريطانيا عائشة المسلمة بنشاطها المتوقد، وكتاباتها التي تدل على فهمها الإسلامي ووعيها حقيقة هذا الدين الحنيف، فهي عضو في لجنة تحرير «رسالة الأخبار» التي يصدرها شهرياً اتحاد الجمعيات الطلابية الإسلامية في المملكة المتحدة وإيرلندا.. وهي عضو في الجمعية الإسلامية بمدرسة الدراسات الشرقية والإفريقية بجامعة لندن.. وهي كذلك أمينة سر جمعية النساء المسلمات في بريطانيا Moslem women Association وهي تساهم في جميع وجوه النشاط الإسلامي الذي تنظمه جمعيتها أو اتحاد الجمعيات الإسلامية. تعرض عائشة قصة إسلامها ووجهة تفكيرها. وهذه هي الأسئلة وإجابات عائشة عليها.

س١ ـ متى أسلمت؟ وكم كان عمرك عندها؟

ج ـ هداني الله للإسلام منذ ثلاث سنوات ونصف، وقد كنت عندها في الحادية والعشرين.

س٢ ـ هل لك أن تروي لنا قصة اعتناقك الإسلام؟

ج ـ نشأت في أسرة هي في رأيي مثل للأسر البريطانية اليوم من حيث نظرتها للدين.. فوالدتي نصرانية غير أنها لا تمارس أياً من العبادات النصرانية.. ووالدي لا يؤمن بأي دين من الأديان. وقد سجلت في طفولتي بإحدى مدارس الأحد «وهي مدارس دينية تشرف عليها الكنيسة» وتلقيت علوم مدارس الكنيسة الإنكليزية[2] غير أنّ أحاديثنا في المنزل لم تكن تتعرَّض للدين من قريب أو بعيد. ولا أستطيع أن أتذكر يوماً واحداً من أيام طفولتي سمعت فيه اسم الله يذكر في منزلنا.

---

(١) من مجلة حضارة الإسلام للسنة السادسة (٣ ـ ٤) (جمادي الأولى والآخرة عام ١٣٨٥).

(٢) أوجدت الكنيسة الإنكليزية بأمر ملكي. بعد أن برم القصر بالخلافات الدينية بين الكاثوليك والبروتستانت وغيرهم.. وهي بمثابة حل وسط يجمع بين المتناقضات.

لم أستطع في خلال سنوات دراستي في مدرسة الكنيسة أن أقتنع ببعض الأفكار الجوهرية في النصرانية، وخصوصاً فكرة التثليث وفكرة الفداء. . «وهي أن الله ـ أو المسيح ـ قد افتدى الناس وكفر عنهم سيئاتهم عندما صلب» وكم نوقشت هاتان الفكرتان. . وكم دارت الأحاديث حولهما. . إلا أنّ كلّ ما سمعته عنهما. كان في رأيي مجانباً للحقيقة التي حيَّرتني معرفتها. . والتي طال شوقي إليها. لقد كانت مدرستي مدرسة نصرانية إلا أنني تخرجت منها ملحدة.

كنت محبَّة للفلسفة. مغرمة بها وكنت في شوق لمعرفة الحقيقة فقرأت وأنا في الخامسة عشرة كتاب تاونه تشنغ Taoteh Ching الذي يضم أوائل الكتابات في الفلسفة التاوية الصينية، وقد تأثرت بنظرة الكتاب تأثيراً عميقاً. وسمعت عن البوذية، وأخذت أقرأ بنهم عن هاتين العقيدتين الفلسفيتين وعزمت على تعلم اللغة الصينية والذهاب إلى الصين غير أنّ هذا لم يكن بالأمر السهل بالنسبة لفتاة في الخامسة عشرة من عمرها، لا مال لديها ولا مؤهِّلات. لذا ذهبت عندما بلغت السابعة عشرة إلى كندا حيث عملت مدة سنتين وجمعت مبلغاً من المال يكفيني لمتابعة دراستي كي أحصل على الشهادة الثانوية وأدخل الجامعة لدراسة اللغة الصينية.

وفي كندا عرفت الفلسفة الهندية، وقرأت الكتب الهندوسية المقدسة ولقد وجدت في كتب العقائد الفلسفية الثلاث التي عرفتها ـ التاوية والبوذية والهندوسية ـ جمالاً وسموقاً وعمقاً. . غير أنها جميعاً لم تكن لترضي تفكيري وإحساسي. فلقد أخطأت جميعها في الوصول إلى توازن بين الكون الواسع العظيم من جهة. ومتطلَّبات الحياة اليومية الاجتماعية والعملية من جهة أخرى. . بل مالت جميعها إلى إهمال الأخيرة أو نبذها، ويروى أنّ صاحب التاوية ومنشئها هام على وجهه في أرجاء الأرض كصوفي زاهد. كما هجر بوذا زوجته وأسرته كي يبحث عن الحقيقة أما الكتب الهندوسية فهي كتب أخلاقية في جوهرها فهل ترى كل الأواصر الإنسانية والحياة الاجتماعية أوهام وخيالات لا معنى لها؟

أزعجني هذا السؤال وأقض مضجعي طويلاً، ولم أستطع أن أؤمن بأي من هذه

العقائد.. وعشت في حيرة.. بماذا أؤمن؟ ما هي غاية الحياة؟ أهي مجرد مصادفة كما يقول البعض؟ إن كانت كذلك فالموت أفضل منها ألف مرة! وزادت حيرتي، وزاد أرقي.

لذا كان نجاحي في امتحانات الثانوية العامة وقبولي في جامعة لندن لدراسة اللغة الصينيَّة انتصاراً هزيلاً فارغاً لا معنى له.. صحيح أني حققت طموحي بدراسة الصينية إلا أنّ الحقيقة التي كنت أنشدها بدت أبعد مما كانت.

جاء تعرّفي بالمسلمين بعد التحاقي بالجامعة.. ولم أكن قد سمعت أو قرأت شيئاً عن الإسلام من قبل، بل لقد كان لدي ما لدى كل الغربيِّين من أحقاد ومفاهيم خاطئة عن الإسلام. ولقد شرح لي الطلبة المسلمون مبادئ دينهم بصبر وأناة، وأجابوا على كل ما اعترضت عليه، وأعطوني بعض الكتب لأقرأها.. وقد كنت في البدء أتصفح هذه الكتب تصفحاً سريعاً ارضاءً لبعض فضولي، وكنت أنظر إليها على أنها مدعاة للضحك والسخرية.. إلا أن الشذرات التي قرأتها جعلت شكّي في سمو الإسلام يتلاشى شيئاً فشيئاً، وبدأت أقرأ الكتب بعناية واهتمام.. فأذهلني الوضوح الرائع في أسلوبها، وأخذت بقوة الحجة والمنطق التي تعتمد عليهما في نظرتها للخلق والخالق وتأكيدها حقيقة البعث بعد الموت.

ثم أعطاني الطلبة المسلمون القرآن مترجماً للإنكليزية.. ولست مستطيعة مهما حاولت أن أعبِّر عن مدى تأثير هذا الكتاب في نفسي فقبل أن أنتهي من قراءة السورة الثالثة سجدت لله تعالى وكانت هذه أوّل مرة في حياتي أصلِّي فيها لله.. ومنذ تلك اللحظة أصبحت بحمد الله مسلمة.

اعتنقت الإسلام ولما تمض ثلاثة شهور على بدء معرفتي به. وطبيعي أنني لم أكن أعرف منه إلا الأفكار الأساسية. وبدأت بعدها سلسلة طويلة من الأسئلة أطرحها على إخوتي المسلمين وأناقشها معهم في جزئياتها وتفصيلاتها.

يسألني كثير من الناس عن الأسباب الرئيسية التي دعتني إلى اعتناق الإسلام. وهذا سؤال يصعب علي أن أجيب عليه إجابة مقتضبة إذ أن مثل الإسلام ـ كما يقول أحد المسلمين الأوروبيين ـ كمثل عمل هندسي متكامل رائع كل جزء فيه يتمم الأجزاء

الأخرى ويجمّلها. وهذه الظاهرة في الإسلام هي الشيء الذي يترك في النفوس أروع أثر عن الإسلام. فإذا ما نظرت إليه عن بعد أخذت بعمق نظرته للأشياء. وسحرتك روعة تشريعاته بشمولها أهداف وأعمال وطبيعة الدولة المسلمة. ولئن بحثت في جزئياته فإنك واجد الطريقة المثلى للحياة الاجتماعية المبنيَّة على الخلق القويم. ورأيت أنّ كل عمل يقوم به المسلم يذكره بالله. . وعندما يذكر الله يراجع نفسه ويحاول البلوغ بعمله ذاك مرتبة الكمال. وهكذا يزول ما كان بين متطلبات الحياة اليومية ومتطلَّبات الدين من صدع، ويصح الطرفان متكاملين متناسقين.

س٣ ـ ماذا كان رد الفعل عند أسرتك وأصدقائك عندما عرفوا باعتناقك الإسلام؟

ج ـ تقبّل والداي اعتناقي الإسلام دون كبير عناء، وأعتقد أنهم أوّل الأمر ظنُّوا إسلامي مجرّد «فكرة غريبة» أخرى من أفكاري التي تبدو شاذَّة لبعض الناس ـ كتعلُّمي الصينيَّة ـ وأنها ستنطفئ بهجتها وتزول مع الأيام. . إلا أنّهم بعد ذلك بدأوا ينحون علي باللائمة خاصة بعد أن وجدوا أنّ ظنّهم قد خاب وأن إيماني يزداد رسوخاً مع الأيام إلى حد أنّ تأثيره لم يقتصر على طريقة تفكيري بل امتدّ إلى عاداتي وطريقة حياتي فغيَّرها وقد كرهوا أن يروني أمتنع عن شرب الخمور وأكل لحم الخنزير. . كما كرهوا أن يروني ملتفة بخماري، وأضعه على رأسي في كل مكان وأعتقد أن اهتمامهم ينصب على آراء الناس وماذا يقولون عني، دون أن يهتموا بالعقيدة والإيمان.

أما أصدقائي الإنكليز فأمرهم مختلف. . إذ أنهم على استعداد للمناقشة ومحاولة التفهم. . فهم عاقلون متقبلون للمنطق وعندما أناقشهم في نظرة الإسلام ومبادئه في الحياة الاجتماعية مثلاً أرى لديهم استعداداً للاعتراف بحكمة النظرة الإسلامية وأصالتها. وأذكر مرة دار فيها نقاش بيني وبين بعض صديقاتي حول نظريّة تعدُّد الزوجات وحدودها التي وضعها الإسلام. . والحلول التي تقرها الحضارة الغربية. . فاعترفن جميعاً ـ وبينهن فتاة مجازة في علم اللاهوت النصراني ـ بأنّ تعدد الزوجات المحدود بشروطه الإسلامية أفضل الحلول لمشكلات الزواج.

س٤ ـ هل لاقيت أية مضايقة أو إيذاء نتيجة إسلامك؟

ج ـ إن الذين لم يؤتوا درجة طيبة من العقل والفهم هم بصورة عامة متحاملين على الإسلام يكنون له في صدورهم الأحقاد والضغائن، وهم دواماً يسخرون من المسلمين ويهزؤون بهم، ولئن أخفوا سخريتهم في حضور أحد المسلمين فهم لا شك ساخرون منه في غيبته هازئون به غامزون منه ومن دينه. وهؤلاء لا يعبؤون بالملحدين بل يحترمونهم لتفكيرهم «الحر» كما يقولون، لكنهم متحاملون حاقدون على الإسلام والمسلمين. ومع أني شخصياً لم ألقَ أية مضايقة جديّة نظراً لأني طالبة في الجامعة في مدرسة الدراسات الإفريقية والشرقية واختلاطي دواماً بأناس يعرفون شيئاً من الأديان والمعتقدات، إلا أنني أعلم ما يقاسي غيري من المسلمين.

س٥ ـ ماذا قمت به من دراسات إسلامية منذ اعتناقك الإسلام؟ وكيف تتطوّر مشاعرك كلّما ازدادت معلوماتك عن هذا الدين الحنيف؟

ج ـ انحصرت دراساتي عن الإسلام في قراءة ما وصل إلى يدي من كتب إسلامية، وفي أسئلة أوجهها إلى بعض المسلمين ذوي المعرفة الجيدة به، وفي مناقشات تدور حول بعض التعاليم والآراء الإسلامية، بيني وبين من أعرف من المسلمين الذين ينتسبون إلى مختلف الأمصار الإسلامية. ولقد سعدنا في العام الماضي بوجود طالب سوداني أوتي معرفة كبيرة بالفكرة الإسلامية والفلسفة الغربية على السواء، وقد دعا هذا الطالب إلى عقد اجتماع دوري أسبوعي كان ذا فائدة كبيرة. . فقد حصر الحضور بعشرة أشخاص كي تتركّز الفائدة وتتّسع. وقد كانت طريقتنا في هذه الندوة أن ندرس أهم ترجمات القرآن بالإنكليزية ونقارنها بالأصل العربي لنصل إلى أقرب معنى للآية[1] ثم نناقش المعنى معتمدين على مختلف التفاسير بصورة عامة وتفسير الطبري بصورة خاصة. كما نناقشها من زاوية فهمنا ولكنه يؤسفني أن أقول أنه منذ رحيل هذا الأخ السوداني لم نستطع أن نجد في لندن شخصاً عنده مثل معرفته ورغبته في مواصلة هذا الجهد القيّم والعمل النافع.

---

(١) إن التراجم الإنكليزية لمعاني القرآن ـ على كثرتها ـ تختلف اختلافات كبيرة في إعطاء المعنى المراد. ومن المؤسف أنه لا توجد بعد ترجمة واحدة يمكن أن يقال عنها: أنها وافية وجيدة.

س٦ ـ هل تعتقدين أن الإسلام يستطيع التأثير في الحضارة الحديثة؟ وبأية طريقة؟

ج ـ لا شك أنّ الإسلام يستطيع كبح جماح الحضارة الحديثة وتوجيهها الوجهة الصحيحة. فالعالم الغربي يعيش اليوم في عماوة لا يكاد يرى فيها بصيص أمل ينير له الطريق لسعادة النفس والروح. . وأن من يعرف حقيقة المجتمعات الأوروبية ليرى الفراغ الهائل الذي يختفي تحت ستار براق خداع من الرقي والازدهار أنّ القلق النفسي قد عمّ الجميع. . والناس اليوم يبحثون عن منفذ يخلصون منه من مشاكلهم ولكن بلا جدوى والطريقة الوحيدة التي تبدو أمامهم هي أن يزيدوا في سرعة سيرهم نحو الهاوية. . فالتحلل الجنسي الواسع أدى إلى إقامة مستعمرات العراة، وإلى انتشار الشذوذ الجنسي والإسلام يستطيع بما يوفره من توازن رائع بين متطلّبات الجسم ومتطلّبات الروح أن يوجّه الحضارة الحديثة في الوجهة التي تستطيع أن توفّر للإنسان سعادته وتجعله يحس الغاية من وجوده في هذه الحياة كما تجعله يسعى حثيثاً للفوز برضاء الله الكبير المتعال كي يسعد في حياته الأخرى اللهمّ اجعلنا جميعاً من سعداء الدارين.

س٧ ـ ما هي في رأيك أفضل طريقة لنشر الإسلام؟

ج ـ قبل أن نفكّر في نشر الإسلام علينا أن نحاول أن نكون في حياتنا وأعمالنا على المستوى الذي يطلبه منا هذا الدين الحنيف. إنّ الله تعالى يقول: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ۖ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النّحل: الآية ١٢٥] فالمفروض فينا أن نكون دعاة للإسلام، لا نشرك فيه أية فكرة أخرى. . إلا أنّ علينا أن نكون داعين له عالمين به بحيث نستطيع أن نجيب على سؤال من يسأل واعتراض من يعترض. ولا شك أن توفر بعض الكتب الجيدة عن الإسلام يفيد كثيراً في الدعوة إليه إذ عندما نعير كتاباً لشخص غير مسلم يقرؤه بتمعُّن أكثر من تمعُّنه في مناقشة شفهية. غير أنّ من المؤسف أنّ الكتب الإسلامية الجيِّدة المتوفِّرة باللغة الإنكليزية قليلة.

ولكنّي أعود فأركز على أهميَّة المثل الحي إذ لا شيء يترك في النفوس انطباعاً أقوى من المثل الحي فعلينا أن نكون في حياتنا أمثلة للإنسان المسلم كما يتطلَّب منا القرآن.

س٨ ـ ماذا يحتاج المسلمون البريطانيُّون خاصة؟

ج ـ يعتنق بعض البريطانيِّين الإسلام لدى زواجهم أو زواجهن بنساء مسلمات أو رجال مسلمين. . وهؤلاء يجدون عادة الحياة العائلية الإسلامية ويسعدون بها. . أما غير المتزوِّجين الذين يعتنقون الإسلام بالاقتناع الشخصي وحده سواء كانوا فتياناً أو فتيات. . نساءً أو رجالاً فإنهم يواجهون بعض المشكلات. فهم إلى حد ما لا يشعرون بأن جو المجتمع البريطاني جوهم ولا هو مجتمعهم. . وهم في نفس الوقت لا يعيشون في مجتمع إسلامي. . وهم يجدون عنتاً في المحافظة على الصلاة والصيام في مواقيتهما. . إلخ لذا فإنّ القضاء على الشعور بالعزلة عند المسلمين الجدد أمر متوقِّف على العائلات الإسلامية الموجودة هنا. . ويسعدني أن أقول أنّ معظم الأسر الإسلامية هنا تقوم بواجبها من هذه الناحية خير قيام.

كذلك فإننا نحتاج ـ كما ذكرت آنفاً ـ إلى مدرِّسين ذوي ثقافة إسلامية جيِّدة كي يساعدوا المسلمين الجدد في فهم القرآن. فكثير من المسلمين الجدد يتوقون إلى فهم القرآن فهماً جيداً إلا أنهم لا يستطيعون ذلك. . ويؤسفني أن أقول أنّ المركز الثقافي الإسلامي في لندن لا يقوم بأي نشاط من هذا القبيل وإنما ينحصر مثل هذا العمل بالطلاب الذين لا يستطيعون تكريس جزء كبير من وقتهم لهذا العمل نظراً لانشغالهم بدراساتهم.

س٩ ـ هل زرت بعض الأقطار الإسلامية؟ وما هي انطباعاتك عنها؟

ج ـ لقد سعدت بزيارة لمصر قمت بها منذ عامين بدعوة من أُسرة مصريّة كريمة. . وقد أعجبت بها إعجاباً كبيراً. . وأخذت بكرم الشعب هناك. . غير أنِّي أعيب على الشعب المصري المسلم أنّ معاملته للخدم وللحيوانات ليست من الإسلام في شيء. فلئن كان ديننا قد أوصى بحسن معاملة الرقيق والحيوان فإنّ علينا ـ نحن المسلمين ـ أن ننفذ أوامره ووصاياه. . وفي هذا أذكر حديثين شريفين فقد قال رسول الله ﷺ: «إخوانكم. جعلهم الله تحت أيديكم فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل وليلبسه مما يلبس»[1] وقال: «إذا قتلتم فأحسنوا القتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا

---

(١) مستدرك الوسائل: ج١٥، ص٤٥٨، باب ١٣.

الذبحة، وليحد أحدكم شفرته وليرح ذبيحته»[١]. فإذا كانت المعاملة الطيِّبة ولراحة الحيوان مطلوبة ساعة قتله فهي مطلوبة في حياته. وإذا كان من الواجب علينا معاملة العبيد كإخوان لنا، فإن معاملة الخدم كإخوة أمر مفروض أيضاً.

كذلك آخذ على الشباب انبهارهم ببعض المظاهر الزائفة في الحضارة الغربية فهم ينخدعون ببريقها الوهّاج دون أن يعرفوا زيفها.

وأحب هنا أن أسطر إعجابي بقوة الأواصر العائليَّة وبالحياة الاجتماعية الكريمة التي إن قورنت بالحياة الاجتماعية في الغرب بدت في القمّة فكيف بالحياة الاجتماعية الإسلامية الحقة؟ اللهمّ اجعلنا مسلمين حق الإسلام.

جاهلية الغرب

إنّ شبابنا المتعلّم عندما يذهب إلى الغرب ويتَّصل بالعلم المادي وما فيه من دقّة متناهية وحسابات دقيقة ومعادلات رصينة، وقوانين متنوعة وكتب أنيقة ومختبرات عديدة ومعامل تطبيقية مدهشة، يزعم بل يوقن أن الغرب قد بلغ مرتبة الكمال في كل شيء وأن لا سبيل لنجاة الشرق إلا باتباع أساليب الغرب الحضارية في كل شيء.

وقد فاته أنّ الموضوع ذو فرعين مستقلين: (١) عمارة الأوضاع المادية، (٢) عمارة النفس الإنسانية. وإن العلم المادي لا يؤثر في عمارة النفس وصناعتها. وهو يجتمع مع الموبقات وأنواع الفحشاء وما يؤدي إلى تحطيم النفس وإبعادها عن خالقها والازدراء بالمقدسات وعوالم الآخرة.

إذ لا علاقة بين حل المعادلات التفاضلية Equations différentielles والتخلق بالأخلاق الكريمة والتجنُّب عن الفحشاء والظلم والبغي والخشوع لله المتعال وتقديسه وتسبيحه بأنواع التسبيح. ولا رابطة بين تحضير واستحصال حامض الكبريتيك: ($H_2 SO_4$) والكمال النفسي كما لا علاقة بين تحطيم الذرة والحصول

---

(١) بحار الأنوار: ج٦٢، ص٣١٥، باب ٨.

على طاقة ذريَّة تقدر بـ (MC_2) مربع سرعة الصوت في الكتلة، وبين كف النفس عن هتك الحرمات وتجنُّب المحارم، هما من واديين مختلفين.

فالعلم المادي ينمو سواء أكان الفرد العامل في نموه فاسقاً أو مؤمناً والله تعالى يقول:

﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُونَ ﴿١٨﴾﴾ [السَّجدَة: الآية ١٨].

ولأجل هذا السبب نفسه لم يعن الأنبياء عليهم السلام بالعلوم المادية وحصروا همهم في تكميل النفوس وتطهيرها، إصلاحها وتزكيتها، ذلك لأنّ العلم المادي ينمو نتيجة قابليات وملكات أودعها الله تعالى في العقل الإنساني: من تجربة ومشاهدة واستقراء واستنتاج إلى ما هنالك.

إلا أنّ هذا العقل نفسه لا يصل، لكونه أسيراً بين أيدي الشهوات والنزوات والميول الحيوانية إلى جميع ما من شأنه تكميل النفس، فوجب إذن تعميماً لسنة الكمال في هذا الكون المتكامل في النواحي المادية أن يتعلم هذا العقل أصول تكامل النفس عما وراء الطبيعة: عن الرسل سلام الله عليهم أجمعين.

فعندما ترك الغرب اتباع أوامر الرسل عليهم السلام لغرورهم العلمي وقولهم: العلم يغزو الفضاء! والعلم وحده يوصلنا إلى الكمال المنشود وتطبيقهم الطريقة العلمانية Laïcisme في معزل عن الله تعالى، انطمس في جاهلية جهلاء ورجع القهقرى في حقل الكمال النفسي وهو، دون ريب أهم الحقول وغاية الغايات لتحقق إنسانية هذا الإنسان، وأهم من اختراع قنبلة ذريّة أو هيدروجينيَّة، سواء استخدمت للهدم والبطش أو في أمور عمرانية.

ونحن ها هنا نورد نماذج من جاهلية الغرب، لكي يعلم شبابنا، ـ حفظهم الله من مضلات الفتن ـ إن الغرب أخذ يتردى يوماً بعد يوم.

وإنّ هذه الحضارة المادية بجميع أساليبها آيلة إلى انهيار، ولا نجاة لهذا العالم إلا بالتمسُّك بروحيات صحيحة إلهية وبما يؤدِّي إلى خشوع النفوس تجاه خالقها وبارئها، فما من شيء في هذا الكون إلا ويسبح الله تبارك وتعالى، حتى الطير في السماء.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾﴾ [النُّور: الآية ٤١].

* * *

(البروفو) الذين يريدون تحطيم كل شيء

برزت في هولندا في الآونة الأخيرة حركة تمرد غريبة يقوم بها الشباب الجانح المتمرِّد الذي يشتبك مع البوليس بمناسبة أو بدون مناسبة بحيث تطوّر الأمر إلى قذف قنابل الدخان على موكب الملكة مؤخراً. ويطلق هؤلاء على أنفسهم اسم (البروفو) أو الساخطين الذين ملوا كل الأوضاع القائمة!! والمقال التالي هو تحليل طريف لتصرفات هؤلاء الشبان الذين يغرقون في الانحلال والضياع والفوضى.

كان الأسبوع الماضي حافلاً بالنشاط المحموم للشباب الهولندي المتمرِّد وهم بدون شك من أكثر أحداث العالم المنحرفين إثارة ومتعة، وقد يتصوَّر الناس أنّهم يثيرون السخرية والضحك، غير أنّ هؤلاء الشبان يزعمون أنهم فنانون يتمتَّعون بقوة سياسيَّة بحيث يتمكّنون من تدبير مظاهرة سيرالية[1] لتحطيم السيارات في الشوارع! ففي

---

(١) السيريالية: هي حركة فنيَّة أدبية نشطت في مطلع القرن العشرين. وقد أخذت وجهاً سياسياً في الفترة الأخيرة قوامها الثورة المطلقة، والعصيان التام والتخريب المنظم، وعبادة اللامعقول، إنها دعوى ضد كل شيء، ورفض لكل الحدود والقيود بإصرار وتحدٍ، تنكر وتهدم كل قيمة وكل موروث في كل ما وصل إليه الإنسان في كل الميادين، تنظر إلى الإنسان على أنه رغبة، لذلك تسعى إلى تحرير هذه الرغبة تحريراً مطلقاً، تقدس التناقض وعدم المعنى، لهذا كان المذهب العقلي أعدى أعداء السيريالية.

تحاول السيريالية أن تدمر الأدب بالأدب والرسم بالرسم، فهي تحاول أن تحقّق العدم عن طريق امتلاء الكينونة الطافح، بواسطة حذف (الأنا) حذفاً رمزياً بالتناوم والكتابة الآلية، وحذف المواضيع حذفاً رمزياً بانتاج موضوعات تتلاشى تدريجياً، وحذف اللغة حذفاً رمزياً بإنتاج معانٍ مضللة، ويعتبر كل أثر من آثارها بألوانه المتقبلة على سطحه عدم وليس هو إلا ذبذبة للمتناقضات لا نهاية لها.

يتجسّد أمل السيريالية البعيد في إدراك نقطة موهومة تكف فيها متناقضات الحياة والموت الواقعي والخيالي، الماضي والمستقبل، القابل الإيصال وغير القابل الإيصال. العالي والداني. =

لاهاي ـ عاصمة هولندا ـ قاموا قبل أيام بمهاجمة موكب الملكة (جوليانا) أثناء شق طريقه إلى البرلمان لافتتاح دورته الجديدة رسمياً. فقذفوا قنابل الدخان على الموكب وكانت النتيجة أن ألقت سلطات البوليس القبض على (٨١) مشاغباً منهم! وفي يوم الأربعاء الماضي صرح أحد قادتهم بأنهم سيقومون برش مسحوق قابل للانفجار في كل نافورة للزينة بأمستردام ولكن يبدو أنّ الخطّة أحبطت قبل التنفيذ ولهذا لم يتدفّق الزبد الأبيض في الشوارع!

وفي يوم الخميس هتف (روبرت جاسبر غروتفليد) الزعيم البارز بين هؤلاء المنحرفين والذي كان هو مدبر معظم حوادث الشغب هتف بالمتمرِّدين قائلاً: هيا وتدفقوا للتفرج على الحادث المثير في قارب البروفو. أما الحادث المثير الذي قصده فكان جلوس (٥٠) من هؤلاء الناقمين للتفرج على أفلام تلفزيونية سبق التقاطها أثناء ممارستهم الفوضى في الشوارع وأماكن تجمعاتهم، وتضمّنت المشاهد هؤلاء الفتيان وهم يتصارعون فوق الوسائد في الصالة الخافتة الإضاءة بينما كانت المخدرات تنتقل من يد إلى يد!

ويقول الزعيم الفوضوي غروتفليد:

«إننا مجتمع مُدمن على العقاقير وعبيد للظروف وقد سببت المواصلات الحديثة تفسخنا، كما أنّ السجاير تسبب السرطان»، ثم يأخذ بالقهقهة بشكل جنوني:

وفي الساعات المبكّرة من صباح السبت الماضي وتحت تأثير المخدِّرات وضع المستر (روب ستولك) وهو أحد قادة الساخطين، إجراء خطة لهؤلاء البروفو حتى الآن: وهي الاستيلاء على ميدان (دام) الذي هو الميدان الرئيسي في امستردام،

= وقد أشادت السيريالية بالقتل والانتحار، وأعتقد «كرفيل» إن هذا الحل: «صحيح ونهائي على أرجح احتمال».. وانتحر «كرفيل» مثل الشاعرين الفرنسيين السيرياليين: (ريفو، فاشيه) اللذين سبقاه إلى الانتحار وقد قال (اندريه بريتون) زعيم السيريالية: «إنّ أبسط عمل يقوم به السيريالي هو النزول إلى الشارع بمسدس في اليد وإطلاق النار على الجماهير حيثما اتفق» [من مجلة حضارة الإسلام العدد العاشر السنة السادسة من مقال للأستاذ غازي التوبة بعنوان: الحضارة الغربية].

استناداً إلى أنّ هذا الميدان كان قد بيع قبل عشرين عاماً إلى مواطني أمستردام بثمن رمزي هو (غليدر) واحد لكل سانتيمتر مربع واحد. وذلك لجمع المال اللازم لإقامة نصب تذكاري لضحايا الحرب، وما زالت وثائق البيع موجودة لدى المواطنين الذين احتفظوا بها كأثر تذكاري. والآن ينوي البروفو الحصول على هذه الوثائق بواسطة الاستجداء والاستعارة أو حتى السرقة بحيث يتجمع لديهم منها ما يكفي للادعاء بأنّ ميدان دام أصبح ملكهم ومن ثمّ يبادرون إلى منع جميع مواطنيهم الآخرين والذين يكبُرونهم سناً من دخول الساحة، ورغم غرابة الفكرة إلا أنّ خيال (البروفو) الخصب فيه متّسع للعمل على تنفيذ مثل هذا المشروع الجنوني!!

ومن الطبيعي أنّ كلّ هذا ما هو إلا سخف صادر عن أحداث جانحين، ومع ذلك فإنه يجسد ثورة من لدن الشباب، ذات مظهر سيريالي مضحك، ثم أنهم يزدادون قوة ونفوذاً!!

ففي أمستردام تمّ انتخاب المستر (برناردي بيرز) مرشّح (البروفو) لعضوية مجلس المدينة بأغلبية ١٣٠٠٠ صوتاً. ويزعم البروفو أنهم يتمتّعون بمساندة ٤٠,٠٠٠ شاباً على الأقل في الجامعات والمدارس، ممن هم في السن التي تخولهم حق الانتخاب، وإذا علمنا أن عدد سكان أمستردام لا يتجاوز المليون شخص فإنّ رقم مساندي البروفو لا يستهان به![(١)].

شبان مخنثون يغرقون السويد ويزحفون إلى كل الغرب

استكهولم ـ موضة شاذة جديدة تزحف اليوم بسرعة لتغرق المجتمعات الغربية (الراقية) إنها موضة الشبان الذين يتخنثون فيطيلون شعر رؤوسهم ويستعملون أحمر الشفاه والبودرة ويزججون حواجبهم ويعمدون إلى تقليد الأساليب النسائية كلها، ويعرف هؤلاء باسم (البوب) أو الشبان أصحاب الشعر الطويل.

---

(١) مجلة حضارة الإسلام، شعبان: ١٣٨٦.

وتعتبر السويد ـ وعاصمتها استكهولم على الأخص ـ المركز الرئيسي لهؤلاء المخنثين!

منذ سنوات كانت هذه الظاهرة أمراً شاذاً. . أما اليوم فقد أصبح التخنث فلسفة وطريقة خاصة في الحياة كما يزعم المخنثون ويجاهرون بذلك بكل فخر أنهم يتركون شعورهم تتدلّى ويتزيّنون بالمجوهرات، ويتطيّبون بالعطور النسائية ويرتدون أيضاً الألبسة النسائية الداخلية. وهم يفاخرون بتخنثهم ويقولون: إن تشبههم بالنساء يزيد من شعورهم برجوليتهم. . أما كيف ذلك. . فإن المخنّثين يؤكّدون أنها فلسفة خاصة. أما علماء النفس فإنهم يرفضون هذه الفلسفة ويحتارون كيف يصنفون هؤلاء الشبان المتأنثين، ولكن قد يكون تفسير فلسفتهم وزعمهم هو أن تخنثهم جعلهم صنفاً مرغوباً من قبل النساء كما ثبت ذلك في ليالي السويد الماجنة. بل حتى في الحدائق والمنتزهات وفي الشوارع أيضاً. وفي كل وقت، فهنا الحرية الإباحية!![1].

* * *

جاء في مقال نشر في مجلة Stern الصادرة في همبورغ في ألمانيا الغربية بتاريخ ١ أيلول ١٩٦٣ برقم: ٣٥.

«إن الأولاد الصغار بين ١٤ و١٦ سنة الذين يتأهّلون للعمل يقولون حينما يبحث أمر الزواج أمامهم: أنا أتزوّج؟! لماذا؟! إنني أستطيع الحصول من أي فتاة في العمل على كل ما أريد دون أن أتزوّجها».

إنّ اتصال المرأة الدائم بالرجال أثناء العمل قد فلّ من حدّة شعورها الحقيقي تجاه الرجل، فلم يعد عندها شوق إليه، وأصبح الرجل عندها شيئاً عادياً، وكذلك الرجل، فإنه لم يعد يتشوّق للمرأة لأنها تحت نظره في كل لحظة وسهلة التناول، وكما أنه لم يعد يشعر بالاحترام نحوها، لأنّها أصبحت رخيصة. إنّ شباب اليوم لم يعودوا يتحرّجون من الخوض في مواضيع أو نكات جنسية عميقة بمحضر من زميلاتهم[2].

* * *

(١) مجلة حضارة الإسلام: ربيع الأول ١٣٨٦. (٢) حضارة الإسلام: العدد السابع، السنة الرابعة.

ويقول المتتبعون: إنّ بريطانيا تنغمس اليوم في الفجور إلى حدود مذهلة، حتى أنّ الدعوة إلى إباحة الشذوذ الجنسي بين الرجال استطاعت أن تظفر بالإباحة من مجلسي اللوردات والنواب، وبارك هذه الإباحة معظم الشعب الإنكليزي وعلى رأسه أساتذة الجامعات والأطباء والمفكرون بل حتى رجال الكنيسة!؟.

لقد انتشر الانهيار الخلقي في ربوع بريطانيا على نحو يفوق كل تصور. ويجعل من العاصمة البريطانية ـ بدون مبالغة ـ ماخوراً كبيراً للدعارة والموبقات! فقد أصبح الشذوذ الجنسي هو موضة اليوم التي يباركها المسؤولون الكبار، وأصبح من الصعب التمييز بين الشبان والفتيات. لأنّ الشبان أصبحوا يطيلون شعورهم ويرتدون الملابس النسائية ويطلون وجوههم بالأصباغ والمساحيق، كما أنّ البغاء في لندن قد انتشر ولم يعد محصوراً في المحترفات ببيع الفجور ولكن أصبحت تمارسه نساء وفتيات من مختلف الفئات والطبقات.

وقد جاء في تقرير اللجنة الذي رفعته إلى البرلمان: إن كثيراً من الزانيات في لندن لسنَ من المحترفات المتفرغات لهذه المهنة القذرة، وإنما هن من صغار الموظفات أو من طالبات أو من المعاهد، اللواتي يمارسن البغاء إلى جانب أعمالهن ليحصلن على دخل إضافي يمكنهن من الإنفاق عن سعة على الثياب المغرية وعلى مستحضرات التجميل.

ولذلك كله. فقد نشأ الجيل الجديد في بريطانيا وقد اهتزت جميع القيم وانهارت لديه ولم يؤمن بشيء إلا بالبحث عن المتعة وعن المال الذي يُيسِّرها له، بأي ثمن وأي طريقة! ولذلك فقد انتشرت جرائم الأحداث في بريطانيا، وأصبح البغاء مهنة تمارسها الطبقة المتوسطة والطبقة العاملة على أوسع نطاق[1].

* * *

وفي خبر: أن الدكتور رسلي باري أسقف (نوتنجها مشبر) دعا رجال التعليم ورؤساء اتحادات الطلبة والمسؤولين إلى حضور مؤتمر لمناقشة مشكلة ما سماه «انهيار مستوى الأخلاق» بين الأطفال والمراهقين من سن العاشرة إلى سن التاسعة عشرة.

---

(١) حضارة الإسلام، جمادي الأولى: ١٣٨٦.

وفي خبر آخر: وافق مجلس النواب الأمريكي على اعتماد ٢٢ ألف دولاراً لتزويد سفارات أمريكا في أفريقيا بالويسكي. وقال النائب الديموقراطي جون روني: إن الويسكي هو (عدة الشغل) في سفارات أمريكا!

وفي تقرير أنه تتصدر التكساس قائمة أكثر الولايات الأمريكية من حيث الجرائم، ففي كل ٣ دقائق و٤ أعشار الدقيقة ترتكب فيها جريمة جنائية وفي خلال السنوات الأربع التي سبقت ١٩٦١ فاق عدد جرائم القتل المرتكبة في التكساس ١٠٨٠ شخصاً أي ضعف عدد من قتلوا في نيويورك.

ومن بين مدن التكساس تبرز (دالاس) في عدد الجرائم والمجرمين. فجرائم القتل في (دالاس) يفوق عددها جرائم القتل في بريطانيا كلها.

وفي خبر أن عالماً نفسانياً بريطانياً أعلن: أن ربع عدد البالغين في بريطانيا يعانون من الشذوذ العقلي.

* * *

وجاء في تقرير لوزارة الداخلية البريطانية عام ١٩٦١ أن عصابات النساء والمراهقات زادت زيادة خطيرة مما يهدد الأمن العام. وقد ألقي القبض على ٧٤٢ ألف فتاة وسيدة خلال العام الماضي بتهمة السطو والسرقة و١٠٠٠٠ فتاة تحت سن العشرين بتهمة الدعارة والتسكُّع والتحريض على الفسق.

أصدرت إدارة إحدى المؤسَّسات الأمريكيَّة منشوراً تحرم فيه على الموظَّفات لبس الفساتين القصيرة، جاء فيه: «محظور أن تكون ركبتا العاملات بالمؤسسة عاريتين وهن جالسات إلى مكاتبهن» وقد ثارت ثائرة الجمعيات النسائية هناك لهذا القرار وبعثت إحداها لإدارة المؤسسة تقول «إنّ هذا أمر تعسُّفي... وتقول إن جو العمل سوف تنقصه متعة كبيرة إذا لم تكن الراكبتان مرئيتين».

جنيف ٨ آذار ١٩٦٤ ـ أعلنت منظمة الصحة العالمية المجتمعة الآن في جنيف بأنّ أهم مشكلة صحيَّة، تعانيها أوروبا هي انتشار الأمراض الجنسية ـ التناسلية بين الشباب الأوروبي بصورة مخيفة. ولقد وصلت نسبة الإصابات بمرض (السفلس) حداً قياسياً منذ الحرب العالمية الثانية حتى اليوم. وتقول هذه المنظمة في تقريرها: بأنّ الأمراض

الجنسيَّة هذه تنتشر أيضاً فيما عدا بين الشباب بين التجار والعمال الأجانب والعاهرات والغانيات والمصابين بالشذوذ الجنسي.

في إحصائية لمكافحة تهريب المخدرات في أمريكا جاء أن ٦٥٪ من الرجال والشباب يدمنون المخدرات وإن النسبة في فرنسا ٥٥٪ وإن النساء والفتيات تشترك فيها وفي انكلترا تبلغ النسبة ٢٥٪ من الرجال و١٥٪ من النساء المدمنات أما في إيطاليا فلا تزيد على ٧٪ فقط.

جاء في تقرير لرجال التربية في أمريكا: إن الطفل الأمريكي أصبح كسولاً مائعاً وغير مطيع. وقد علّق الرئيس الأمريكي المتوفى ـ كنيدي ـ على هذا التقرير: إن الطفل الأمريكي أصبح أيضاً رخواً وناعماً ويعمل والداه على تسمينه.

وفي نبأ أنه يموت في فرنسا كل دقيقة شخص واحد بسبب إدمانه على الخمر ويبلغ متوسط ما يشربه الفرد في فرنسا كل عام ٧ غالونات من الكحول النقي. وتحاول الحكومة الفرنسية معالجة المدمنين ويبلغ ما تنفقه على علاج المدمنين ١٧٠ مليون ديناراً.

تعاني وزارة الداخلية في أمريكا مشكلة معقّدة للغاية وهي العمل على منع رجل البوليس الأمريكي من التحول إلى لص أو مجرم بعد أن كثرت في الآونة الأخيرة حوادث سرقة وقتل، كان أبطالها من رجال البوليس أنفسهم، وآخر هذه الحوادث هو إقدام أحد الضباط الكبار في وزارة الداخلية الأمريكية على سرقة بضائع ومجوهرات قيمتها ثلاثون ألف دولاراً. وفي المحكمة العسكرية المختصة اعترف (وليام مارلو) الضابط السارق بجريمته. وقام بتمثيل الحادثة. إلا أنه اتّهم في نهاية المحاكمة عدداً من زملائه الضباط ورجال البوليس العاديين بالاشتراك معه في هذه العمليَّة، كما اعترف بأنّه قام هو وزملاؤه بحوادث مماثلة في العام الماضي!!..

يقول الدكتور الكسيس كاريل في كتابه (الإنسان ذلك المجهول)، ص٣٧١: «إن المادية البربرية التي نتسم بها حضارتنا لا تقاوم السمو العقلي فحسب، بل إنها تسحق أيضاً الشخص العاطفي واللطيف والضعيف والوحيد وأولئك الذين يحبُّون الجمال ويبحثون عن أشياء أخرى غير المال.

ويقول في مقام آخر، ص١٨٥:

«يكاد المجتمع الحديث أن يهمل الإحساس الأدبي إهمالاً تاماً، بل لقد كبتنا مظاهره فعلاً، فقد أشربنا جميعاً الرغبة في التخلص من المسؤولية. أما أولئك الذين يميِّزون الخير من الشر، والمرأة التي أنجبت عدة أطفال وأوقفت نفسها على تعليمهم، بدلاً من الاهتمام الخاص بها تعتبر ضعيفة العقل، وإذا ادخر رجل بعض المال لزوجته وتعليم أولاده سرق منه هذا المبلغ بواسطة الماليين أصحاب المشروعات أو أخذته الحكومة».

ويقول: «الإنسان نتيجة الوراثة والبيئة وعادات الحياة والتفكير التي يفرضها المجتمع العصري. وقد وصفنا كيف تؤثّر هذه العادات في جسمه وشعوره وعرفنا أنه لا يستطيع تكييف نفسه بالنسبة للبيئة التي خلقتها «التكنولوجيا»[(١)].

وإن مثل هذه البيئة تؤدي إلى انحلاله. وإنّ العلم والتكنولوجيا ليسا مسؤولين عن حالته الراهنة. وإنما نحن المسؤولون لأننا لم نستطع التمييز بين الممنوع والمشروع. لقد نقضنا القوانين الطبيعية فارتكبنا بذلك الخطيئة العظمى. الخطيئة التي يعاقب مرتكبها دائماً. إن مبادئ «الدين العلمي» والآداب الصناعية قد سقطت تحت وطأ غزو «الحقيقة البيولوجية»... فالحياة لا تعطي إلا إجابة واحدة حينما تُستأذن في ارتياد الأرض المحرّمة... هي أضعاف السائل... ولهذا فإنّ الحضارة آخذة بالانهيار. لأنّ علوم الجماد قادتنا إلى أرض ليست لنا، فقبلنا هداياها جميعاً بلا تمييز ولا تبصر. ولقد أصبح الفرد ضعيفاً، متخصِّصاً، فاجراً، غبياً، غير قادر على التحكم في نفسه ومؤسساته».

من خرافات الغرب

كل عقيدة أو عمل لا يستند إلى ركن وثيق: إلى نص سماوي صحيح أو تجارب علمية صحيحة، فهو خرافة يجب أن يلفظها الإنسان، لو كان تابعاً للمنطق الصحيح، بعيداً عن الوساوس الشيطانية.

---

(١) التكنولوجيا: Technologie مبحث الفنون والصنائع.

وإنّ الغرب يصم الشرق بأنه منبع الخرافات والأوهام كي يلفظ الشرقي معتقداته الدينيَّة ويظنها خرافة يأباها العقل والمنطق. أما المستشرقون والقسيسون الذين قاموا بتأسيس مدارس تبشيريَّة في الشرق ليحقِّقوا بذلك أغراضاً سياسية واقتصادية وتبشيريَّة. فهم إن لم يستطيعوا تنصير الشاب المسلم، فلا أقل يجعلونه عدواً للإسلام والمسلمين!

ولقد سمعت منذ أربعين عاماً ممن كان قد رجع من دراسته في الجامعة الأمريكية ببيروت: إن الشرق منبع الخرافات، وبلاء الشرق دينه فلو لفظ الشرق هذا الدين فهناك التقدم وهناك الازدهار! فالصلاة خرافة والصوم خرافة والحج خرافة. . . . إلى ما هنالك. والمدنية القائمة في الغرب هي التي يجب أن تُتبع، ففيها الحياة والنجاة من عقائد بالية وأفكار خرافية لا تلائم مفاهيم القرن العشرين: عصر النور والثقافة والتقدم المطرد.

وإنّ شبابنا بجهله معالم دينه وحقائق الإسلام وحِكمه وتجرده من كل خرافة وكل ما لا يسنده المنطق غير المغلوب بشهوات النفس ونزواتها، يتقبل ما يملى عليه من قبل أعداء الإسلام، بل الإنسانية، ظناً منه أنه قد خرج من الظلمات إلى النور، من عالم رجعي إلى آخر تقدمي، وهو يأسف على ما كان فيه من رجعية مريرة وخرافات وسخافات!

ونحن هاهنا نورد بعض خرافات الغرب ولا نتطرّق إلى ما في المسيحية من خرافات أولدته اليد البشريَّة الأثيمة، فسمته ديناً سماوياً، مع العلم أنّ ما يأتينا من جانب الله تعالى مجرّد عن كل خرافة، ومطابق للمنطق الصحيح إلى أبعد الحدود، شريطة أن لا تمسه يد التحريف والأهواء.

١ ـ كان (دوبربويل) البريطاني فيزياوياً مشهوراً وكيميائياً معروفاً، يحمل معه دائماً جمجمة إنسان ظناً منه أنه لا يبتلى بحمله هذه الجمجمة بنزيف دموي في أنفه.

٢ ـ (باسكال: Blaise Pascal) الفرنسي من أشهر الفلاسفة الرياضيِّين، كان قد خاط في قسم من لباسه قطعة من جلد الغزال، ظناً منه أن هذا العمل ينجيه من كل ريب وخيبة.

٣ ـ كان السحر رائجاً في أوروبا في القرون الوسطى إلى حد بعيد. فالعجائز كن

يتعاطين السحر. وكن يحتفظن في بيوتهن بسنور أسود وبومة. وقد تفاقم أمر السحرة في أوروبا في ذلك الحين حتى أحرق منهم عدد كبير من قبل القسيسين.

٤ ـ إن القرويين في فرنسا لحد اليوم يخافون من حيوان موهوم لا يرى بالعين رأسه كرأس الذئب وبدنه كبدن الإنسان. يدعى: بـ(لوكارو) وهم يضعون الطلاسم في بيوتهم للتخلص من شرور هذا الحيوان الخيالي!

٥ ـ وفي القرون الوسطى كانوا يلقون المتهم في حوض ماء كبير، فإن طاف على سطح الماء، ولم يغرق فهو بريء وإلا فهو مجرم يستحق العقاب!

٦ ـ ولا يزال في الغرب من يتفاءل إذا التقطت دجاجة بسرعة ما يلقى لها على الأرض من حبوب، وكذلك إذا صادف أحدهم طيراً يطير نحو اليمين أو صادف نحلة أو نملة أو سمع أحداً يعطس قبيل الظهر. أو إذا اضطرب جفن العين اليمنى.

وعلى العكس يتشاءم الغربي إذا رأى سنوراً أو قرداً أو ذئباً أو ثعلباً أو حية، أو دجاجة لا تلتقط ما يلقى لها على الأرض من حبوب، أو إذا تعلق ثوبه بمسمار الكرسي، فيصيب الغربي في كل هذه الحالات:

حزن وأسى.

٧ ـ إن الغربي ليعتقد أن العدد ١٣ عدد نحس وشؤم وتعس، ولذلك لا يجلسون حول منضدة الطعام إذا كانوا ١٣ شخصاً. حتى إنّ الشرقي صار يقلِّد الغربي، فلا يكتب على باب غرفته ١٣ وإنما يكتب ١٢ + ١. دفعاً لشرور العدد المنحوس وشؤمه!

٨ ـ والأوربيون لا يمرون من تحت السلم ويتشاءمون من ذاك. كما أنهم يحملون معهم نعل الفرس كطلسم السعادة! ويهابون السنور الأسود والبومة كذلك.

٦ ـ ولقد رأيت قبل حوالي أربعين عاماً مفتشاً للمعارف بريطانياً كان إذا نظر في أوائل الشهر إلى الهلال غمض عينيه حتى يفتحهما على شيء أو رجل يتفاءل من النظر إليه، كي لا يرى في ذلك الشهر إلا خيرا.

ولكن نبينا محمدﷺ يخاطب علياً في هذا المقام قائلاً:

«يا علي إذا رأيت الهلال فكبر ثلاثاً. وقل: الحمد لله الذي خلقني وخلقك

وقدّرك منازل وجعلك آية للعالمين»[١].

فنبينا محمدﷺ: لا ينطق عن الهوى. إن هو إلا وحي يوحى والأدب الإسلامي يهدف دائماً إلى توحيد الله وتجليله وتقدير ما خلق كي يزداد الفرد إيماناً بالله فمعرفة، وهي غاية الغايات. فلا ترى عملاً في الدين الإسلامي يمجّه العقل أو يأباه إلا إذا كان العقل قد انسحب نتيجة الإسراف والسفه والآثام، فيرى الحق باطلاً والباطل حقاً.

وقد نهى الإسلام عن كل خرافة بقوله: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر: الآية ٧].

١٠ ـ في ضواحي باريس (Paris) محل يدعى: لورد. وإن امرأة من أهالي لورد ادعت ذات يوم قبل حوالي تسعين عاماً أنها رأت في الغار بالقرب منها: مريمعليها السلام. وأعلمت الناس بذلك فهرع الناس أفواجاً إلى ذلك المحل يقدّسونه ويتبركون به وهكذا في كل سنة، في يوم معين.

وإن قسماً من المسيحيِّين يعلِّقون مجسمات الحيوانات في رقابهم للحفظ!

* * *

وفي لندن توجد محلات خاصة بالفقراء، قذرة مملوءة بالأوساخ والذباب وأنواع الميكروبات والباعة ألبستهم قذرة وهم في فقر مدقع.

فإنك لو ذهبت إلى حارة (كوي ليفربول) لشاهدت أزقة ضيِّقة، مملوءة بالأوساخ ومزدحمة بالسكان وهم بأشكال غريبة. وباعة السمك والمخضرات والفواكه جالسون بعضهم جنب بعض ينادون بأصوات مزعجة لجلب الناس إلى شراء بضائعهم وفيها التنى، وهناك حمالون يحملون البضائع على رؤوسهم وظهورهم وعليها الذباب!

وتجري في تلك الأزقة مياه نتنة[٢] ملوَّثة بدم الخنزير والسمك وترى هناك أطفالاً مشرّدين متسكّعين عراة. يجولون هاهنا وهاهنا حرفتهم السرقة ونهب الجيوب.

وليس لأحد من الأجانب أن يصوِّر هذا المنظر ويستعمل جهاز التصوير فإن البوليس له بالمرصاد.

---

(١) مستدرك الوسائل: ج٧، ص٤٤٣، باب ١٣.
(٢) مؤنّث نتن: نتنى، وما تعارف عليه الناس نتنة.

وهناك حارة أخرى في لندن تسمّى (كونت كاردن) يباع فيها المخضرات والفواكه، فإذا دخلت فيها لشاهدت عدداً لا يستهان به من الحمّالين بثياب رثة وسخة، كما أنّ هناك قرى أخرى أطراف لندن سكانها كسكان المغارات والحفر الجبلية.

ولقد قرأت قبل حوالي خمسة وعشرين عاماً مقالاً لعراقي كان قد ذهب إلى ألمانيا لينال درجة الدكتوراه في الكيمياء. جاء فيه: إنه اتفق أن قال لامرأة أنها ستلد ولداً بعد سنة، وشاء الله أن تلد هذه الإمرأة ولداً فشاع الخبر وإذا بنساء كثيرات يراجعن هذا العراقي ليبشّرهن بمولود، ويطلبن منه بعض الأدعية والطلاسم.

فالمأمول من شبابنا أن لا ينظر إلى كل ما في الغرب نظرة تجليل واكبار، فليس كل ما في الغرب كمالاً وجمالاً، إنهم ركّزوا جهودهم نحو الحياة المادية وخواص المادة وأهملوا النواحي النفسيّة وما يؤدي إلى سعادة النفس في النشأتين. وإن المادية لتجتمع مع كل خرافة، والإسلام بعيد عن كل خرافة. لأنه آتٍ من منبع صافٍ نمير. لا كدر فيه ولا انحراف. لذلك ينهى عن الظن ويأمر بالتدبر والتفكر: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾ [محمّد: الآية ٢٤].

﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأنعام: الآية ٥٠].

﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَـٰذَا بَـٰطِلًا سُبْحَـٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾﴾ [آل عِمرَان: الآية ١٩١].

﴿قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [يُونس: الآيتان ٣٥/ ٣٦].

﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ [النّجم: الآية ٢٣].

فلا تكامل لهذا الإنسان إلا بنبذ الظنون الباطلة والخرافات المضلّة وجاهلية القرن العشرين الملوثة بمادية عمياء واتباع العقل المجرد عن الشهوات وتطبيق سنة سيد المرسلين وأولاده المعصومين عليه أفضل الصلاة والسلام.

انتهى، والحمد لله، الجزء السادس وسيليه إن شاء الله تعالى الجزء السابع.

التكامل في الإسلام

بقلم

أحمد أمين

خرج مصادره وصححه

علاء الدين الأعلمي

الجزء السابع

بسم الله الرحمن الرحيم

فبعث محمداً ﷺ بالحق، ليخرج عباده من عبادة الأوثان إلى عبادته[1]، ومن طاعة الشيطان إلى طاعته، بقرآن قد بيّنه وأحكمه، ليعلم العباد ربهم إذا جهلوه، وليقرّوا به إذ جحدوه. وليثبتوه بعد إذا أنكروه، فتجلّى لهم سبحانه في كتابه من غير أن يكونوا رأوه، بما أراهم من قدرته، وخوّفهم من سطوته، وكيف محق من محق بالمثلات واحتصد من احتصد بالنقمات.

وإنه سيأتي عليكم من بعدي زمان ليس فيه شيء أخفى من الحق، ولا أظهر من الباطل، ولا أكثر من الكذب على الله ورسوله!! وليس عند أهل ذلك الزمان سلعة أبور من الكتاب إذا تلي حق تلاوته، ولا أنفق[2] منه إذا حرّف عن مواضعه، ولا في البلاد شيء أنكر من المعروف ولا أعرف من المنكر، فقد نبذ الكتاب حملته، وتناساه حفظته، فالكتاب يومئذٍ وأهله طريدان منفيان وصاحبان مصطحبان في طريق واحد لا يؤويهما مُؤوٍ!! فالكتاب وأهله في ذلك الزمان في الناس وليسا فيهم ومعهم. لأنّ الضلالة لا توافق الهد وإن اجتمعا القوم على الفرقة وافترقوا عن الجماعة، كأنهم أئمة الكتاب وليس الكتاب إمامهم، فلم يبقَ عندهم منه إلا اسمه ولا يعرفون إلّا خطّه وزبره»[3]. . . إلخ.

(١) من كلام لمولانا ومقتدانا علي أمير المؤمنين عليه أفضل الصلاة والسلام نهج البلاغة، الجزء الثاني، ص٤٠ ـ ٤١.

(٢) أنفق منه: أروج منه.

(٣) الزبر «بالفتح»: الكتب، مصدر كتب.

﴿تَبَارَكَ الَّذي جَعَلَ فِي السَّمآءِ بُرُوجاً وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجاً وَقَمَراً مُّنِيراً﴾

﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا﴾ [الفُرقان: الآية ٦١]

البروج تطلق على مجموعات النجوم وتكدساتها كما تبدو للناظرين من الأرض. أما السراج فهو الشمس التي نعيش في كنفها غير بعيد عنها نسبياً وهي نجم هائل يزيد قطره على مليون وثلث مليون من الكيلومترات، أي إن قطر الشمس أكثر من قطر الأرض مائة مرة. والشمس كالسراج أو المصباح الذي يرسل نوراً وحرارةً. ولكن يبلغ درجة حرارة جوّها أو غازها الخارجي نحو ٦٠٠٠ درجة مئوية (سانتيگراد). وتزداد هذه الحرارة سريعاً بازدياد القرب من المركز حيث تصل إلى أكثر من ٢٠ مليون درجة مئويَّة. وذلك نظراً لما تعانيه مكوّنات المركز من ضغوط هائلة تفوق حدود الوصف والخيال وتتكرَّر معنى الشمس كسراج في قوله تعالى في سورة نوح: ﴿وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾﴾ [نُوح: الآية ١٦].

وتندلع من الشمس، لذلك، نافورات من غازات ملتهبة إلى ارتفاعات تقدّر بآلاف الكيلومترات، ومن هذه النافورات ما يعرف باسم البقع الشمسيَّة، وهي أعاصير جبارة في جو الشمس، وقد يبلغ قطر الإعصار فيها نحو ٥٠ ألف كيلومتر. وفي العادة يتبع ظهورها انتشار أمواج من المغناطيسية والكهربائية في الفضاء لا تلبث أن يصحبها عواصف مغناطيسيَّة على الأرض تفوق أعمال الراديو واللاسلكي عموماً.

ويحتوي الإشعاع الشمسي قبل دخوله جو الأرض نسباً متباينة من الإشعاعات الأثيريَّة ذات الموجات المختلفة الأطوال أو الصفات إلا أنه يمكن حصر السواد

الأعظم منها في حزمة تحدّها موجتان هما نحو ٠,١٧ ميكرون ونحو ٤ ميكرون والميكرون وحدة لقياس الأطوال الصغيرة وهي تساوي جزءاً من عشرة آلاف جزء من السانتيمتر الطولي المعروف أي $\frac{١}{١,٠٠٠,٠٠٠}$ من المتر.

وتقدر نسب الطاقة في طيف الشمس، أي مقدار ما يفد منها لكل ١٠٠ وحدة على النحو الآتي:

١ ـ حوالي ٩٪ أشعة فوق البنفسجية. وهي تكون حزمة تنحصر أطوال أمواجها ما بين ٠,١٧ ثم نحو ٠,٣٣ ميكرون. وهذه الأشعة التي لا تميزها الأعين لها تأثيرات عظمى على الخلايا الحية. ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَا تُبۡصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبۡصِرُونَ﴾ [الحَاقة: الآيتان ٣٨/ ٣٩].

٢ ـ حوالي ٥٠٪ أشعة مرئية (ضوء). ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلشَّمۡسَ ضِيَآءٗ وَٱلۡقَمَرَ نُورٗا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعۡلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلۡحِسَابَۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۚ يُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴿٥﴾﴾ [يُونس: الآية ٥].

والأشعة المرئية أو الضوء حزمة من الإشعاعات تكاد تنحصر أطوال أمواجها ما بين ٠,٣٤ ميكرون ونحو ٠,٨ ميكرون. هذه الحزمة التي تدركها الأعين هي مصدر النور في جو الأرض وعلى سطحها أثناء النهار. ولذلك فالشمس سراج ينير الأرض وجوَّها على حد تعبير الآية الكريمة. ويصل التنوير نهايته العظمى عند انتصاف النهار. وهو في فصل الصيف ضعف قيمته في فصل الشتاء. ولضوء الشمس اتصال وثيق جداً بنموّ النباتات وتزهيرها. إذ أنّ التزهير يتطلَّب قدراً معيناً من الإضاءة لابدَّ من توفره.

٣ ـ نحو ٤١٪ أشعة تحت الحمراء أو حراريّة، وهي تكون حزمة طويلة تمتد أطوال أمواجها من نحو ٠,٨ ميكرون إلى أكثر من ٤ ميكرون.

وتبلغ كثافة الإشعاع الشمسي على السنتيمتر المربع الواحد خارج جو الأرض في المتوسط نحواً من سعرين حراريَّين في الدقيقة ويطلق على هذا المقدار من الحرارة اسم: (الثابت الشمسي)[1].

---

(١) السعرة أو السعر الحراري هي: كمية من الحرارة اللازمة لرفع درجة حرارة غرام واحد من الماء درجة واحدة مئوية (سانتيگراد).

ويتناقص الاشعاع الشمسي بعض الشيء بدخوله جو الأرض لأسباب عديدة في جو الأرض نفسه، منها ظاهرة التشتت أو التناثر بجزيئات الهواء وما يعلق في الجو من جسيمات صغيرة. كما أن منها ظاهرة الامتصاص وخاصة بالأوكسيجين الذرّي في الطبقات العليا، ثم بواسطة غاز الأوزون على أبعاد تمتد من نحو ١٥ إلى ٤٥ كيلو متراً. ومن أهم ما يسبّب تناقص الطاقة الشمسيّة في جوّ الأرض الانعكاس من السحب والرمال التي تثيرها البراكين والعواصف. فهي ترد إلى الفضاء جزءاً من الإشعاع الشمسي كل يوم.

وظاهرة التشتت أو التناثر كما قدمنا هي مصدر إنارة جو الأرض. أو ما نسمّيه ضوء النهار. ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾﴾ [القَصَص: الآية ٧١].

ولو أننا خرجنا من الجوّ إلى الفراغ أو الفضاء الكوني لوجدناه مظلماً رغم بزوغ الشمس وبروزها في أيّ ركن من أركان السماء! وكأنما سلخ النهار من الليل سلخاً وهكذا يخيّم الأصيل وهو الظلام. أما النهار فهو طارئ، يتم حدوثه بتلك العملية، (أو تشتت ضوء الشمس) التي لا تجري إلا في جو الأرض وما على شاكلته من أجواء الكواكب، وهو قوله تعالى:

﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [يس: الآية ٣٧]، ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾﴾ [الأنعام: الآية ١]

فقدم سبحانه وتعالى: الظلمات، على النور، ويعلم من هنا أنه تعالى قد خلق النور بعد خلقه: الظلمات.

* * *

قد استخرج (إسحاق نيوتن) قبل أن نعرف المسافة إلى أي نجم بزمن بعيد، أن النجوم شموس بعيدة، ولكنها على مسافات سحيقة جداً بحيث ما كان يمكن رؤية سطوحها خاصة باستخدام تلسكوبات ذلك العصر. وحتى في عصرنا هذا لا يمكن رؤية سطوح النجوم، وإن الشمس هي النجم الوحيد الذي يمكن أن نرى سطحه.

ويمكن الحصول على منظر الشمس أكثر قرباً بالنظر إليها خلال التلسكوب مع أخذ الاحتياطات الكافية لوقاية العينين، وإلا فمن الممكن فقد البصر كلياً. وإن سطح الشمس بعيد كل البعد عن النعومة، بل أنه مشقّق إلى آلاف عديدة من الخلايا ويقول أغلب الفلكيين الآن أن تلك الخلايا المضيئة هي قمم لأعمدة غازية ساخنة تنتقل من الأعماق «الشمسية» إلى السطح بمعدل سريع، وتبدأ في الهبوط عندما تأخذ بالبرودة. ويكون تأثير البرودة هو أن تفقد لمعانها وتظهر مظلمة بالتباين مع الأعمدة الساخنة الصاعدة، ويبدو أن سطح الشمس على شكل مجموعة متناثرة من النافورات ذات البريق الآخذ بالأبصار. تشغل كل منها مساحة قدرها ١٠٠ ألف ميل مربع. وتثير بعنف كل بضع دقائق.

وتحدث على سطح الشمس فورانات أعظم من السابقة وغالباً ما تغطي هذه الأوهاج أو البقع الساخنة عدة ملايين من الأميال المربَّعة من سطح الشمس.

والوهج شيء شبيه بما يمكن أن نظنه انفجاراً في خزان طاقة شمسية.

وما أشبه حالة الشمس وهي تتحوّل إلى طاقات هائلة مع انفجارات مدهشة إلى جهنم خلقها الله للعاصين من عباده حيث يقول: ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٩﴾ ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾ لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِى مِنَ ٱللَّهَبِ ﴿٣١﴾ إِنَّهَا تَرْمِى بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ ﴿٣٢﴾ كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ ﴿٣٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ [المُرسلات: الآيات ٢٩/ ٣٤].

عندما يكون نشاط الشمس أكثر من المعتاد، ينهال على الأرض وابل من الجسيمات المشحونة البالغة الفتك بالحياة والتي يقينا الجو من خطرها[١]. ولكن خطورتها تصبح ذات أهمية خاصة بالنسبة للإنسان المسافر خارج الأرض دون غطاء من الهواء يحميه.

ومعلوم أن الشمس تسطع وأن توهّجها يكافئ توهج ألف مليون مليون مصباح كهربائي قدرته ١٠٠٠ وات. وتتدفق الطاقة من الشمس بمعدل يبلغ ٤ $\times ١٠^{٣٣}$ ارگ[٢] في الثانية، ولقد ظلّت تفيض بهذه الطاقة عدة ملايين وربما بلايين من السنين

(١) ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [الأنبياء: الآية ٣٢].

(٢) ارگ = Erg وحدة الطاقة.

ويعتقد الفيزيائيون أن الشمس سوف تواصل عملها هذا لفترة أخرى تساوي الفترة السابقة طولاً، إلا إذا شاء الله تبديل الشمس بشمس أخرى والسماوات بسماوات أخرى. على حد قوله تعالى:

﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾﴾ [إبراهيم: الآية ٤٨]

وهو القائل:

﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ﴿٥٠﴾﴾ [القَمَر: الآية ٥٠].

﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ [يس: الآية ٨٢].

* * *

إن ضوء الشمس ضوء نجمي وتتدفق من بلايين النجوم الأخرى طاقة مماثلة بكميات قد تزيد أو تقل عن الطاقة الشمسية وفقاً لدرجات حرارة تلك النجوم وأحجامها. وتبعث تلك النجوم التي تحتلّ قمة سلَم اللمعان طاقةً بمعدّل يفوق ما تبعث به الشمس آلاف المرات.

لكن ما السبب في سطوع النجوم على الإطلاق وما مصدر طاقتها؟

إننا نعلم من الفيزياء النووية ومن القنبلة الإيدروجينية: **أن تسخين الإيدروجين إلى درجة حرارة عالية علوّاً كافياً تبلغ ١٥ مليون درجة حرارية مطلقة تحت ضغط متناهٍ في العلو ينشأ عن تحوُّل عنصري. إذ يتحوّل الإيدروجين إلى الـ (هليوم). ولهذه العمليَّة ناتج إضافي مهم جداً هو انطلاق كميَّات هائلة من الطاقة.**

إننا إذا أردنا أن نحصل على كميات كبيرة من الطاقة بثمن بخس عن طريق تسخين الإيدروجين، فعلينا أن نحصل على فرن وكمية كبيرة جداً من الإيدروجين ثم نبدأ بالتشعيل، لكننا نجد أنّ الفرن يتبخّر ويتلاشى قبل أن تصل إلى درجة الحرارة اللازمة التي تبلغ ١٠ أو ١٥ مليون درجة مطلقة، وتحل هذه المشكلة بصنع فرن كبير جداً وأن نضع فيه كمية وفيرة جداً من الإيدروجين بحيث إذا ذابت جدران الفرن فإنّ الكتلة العظيمة من الإيدروجين تبقى متماسكة مع بعضها بفعل جاذبيَّتها، وما النجم إلا فرن طاقة نووية إيدروجينيَّة عظيم الكتلة بحيث أنه متماسك مع بعضه من تلقاء نفسه.

ومن المعلوم أنّ الطاقات متنوعة. طاقة كهربائية وطاقة ميكانيكية وطاقة حرارية، وقد توصل العلم قبل برهة من الزمن إلى تحويل الطاقة الكهربائية إلى طاقة ميكانيكية. وتحويل الطاقة الميكانيكيَّة إلى طاقة حراريَّة وبالعكس بأي نسبة من النسب وإذا قمنا بإجراء عمليات حسابات مضبوطة لوجدنا أنّ كميَّة الطاقة التي بدأنا بها تظل ثابتة تماماً.

ثمّ جاء أينشتين وبرهن على أنّ قانون الكتلة والطاقة هما في الحقيقة قانون واحد، فالمادة والطاقة تتحولان إحداهما إلى الأخرى تحت ظروف فيزيائيَّة ملائمة طبقاً لمعادلة اكتشفها أينشتين ($ط = ك\ س^{٢}$).

أي إن الطاقة المتحررة من تحطيم الذرّة (ذرّات الكتلة) تساوي مربع سرعة الضوء مضروباً في الكتلة: ك.

س = سرعة الضوء = ٣٠٠٠٠٠ كيلو متر في الثانية.

أو $٣٠٠٠٠٠ \times ١٠٠٠ = ٣ \times ١٠^{٨}$ متر.

أو $٣ \times ١٠^{٨} \times ١٠^{٣} = ٣ \times ١٠^{١٠}$ سانتيمتر.

ومربع هذا المقدار = ٩×١٠^{٢٠} سم/ ثانية.

والضوء النجمي عبارة عن طاقة تتولد في بواطن النجوم بكميّات هائلة جداً بحيث لا يمكن تفسيرها بالتفاعلات الكيميائية. إذ أنّ الضوء لو كان ناتجاً من انطلاق الطاقة في التفاعلات الكيمائية العادية لكانت النجوم قد أصبحت رماداً منذ زمن بعيد. وعلى ذلك فلابد أن الطاقة النجمية ناتجة عن تحوُّل كميات من مادة النجم ذاته إلى طاقة.

وإنّ الشمس تبعث في كل ثانية (كما قلنا) بطاقة قدرها ٤×١٠^{٣٣} أرك: (Erg) ولكن كيف يتأتى أن نعرف ذلك. لقد عرف ذلك بقياس كمية الطاقة التي تتلقاها وحدة المساحات من سطح الأرض قياساً دقيقاً، ثم ضرب هذه القيمة في عدد وحدات المساحة التي تكون سطح كرة نصف قطرها وحدة فلكية واحدة[١].

وقد علم اعتماداً على دستور اكتشفه أينشتين: (الطاقة = مربع سرعة الضوء في

---

(١) الوحدة الفلكية هي متوسط بعد الأرض عن الشمس وتساوي ٩٣ مليون ميل تقريباً.

الكتلة): إن أربعة ملايين ونصف مليون طن من كتلة الشمس تتحوّل إلى طاقة في الثانية الواحدة وتصل هذه القيمة إلى حوالي ١٥٠ مليون طن سنوياً. فلابدّ أنها استهلكت ١٥٠ ألف مليون مليون طن خلال فترة قدرها بليون سنة.

وبحساب قوة جذب الشمس للأرض نجد أنّ الشمس تمثل كتلة قدرها ٢ × ١٠^٣٣ غرام.

* * *

وزيادة في التوضيح نقول: إن استمرار وصول الطاقة الشمسيّة منذ ملايين السنين بدرجة معتدلة إلى الأرض يعزى إلى انحلال الذرة وانشقاق الذرة. ذلك: أن ذرة الراديوم تنحل. ومن بعض انتاجات انحلالها غاز الهليوم. وهي تنحل فتشع فتخرج الطاقة، وقد استدلوا أن في الشمس مقداراً كبيراً من الراديوم. فاستدلُّوا على أنّ الشمس تتجدّد طاقتها من انحلال الراديوم وحصول الهليوم نتيجة انحلاله.

ولانشقاق ذرّة اليورنيوم وكذلك الإيدروجين أثر فعّال في حدوث طاقات هائلة.

فالشمس آتون من نار، يجري فيه مثل ما يجري في ملايين الملايين من قنابل إيدروجينيّة، يتحوّل فيها الإيدروجين إلى هليوم وإلى عناصر أكثر تركيباً من الهليوم، فالإيدروجين هي اللبنة التي بني منها الكون بأمر من الله تعالى جلّت قدرته.

ولا شك أن الله جعل حياتنا متعلّقة بحياة الشمس. فالحياة بحاجة إلى ماء والنبات بحاجة إلى ماء والحيوان بحاجة إلى الماء وكذلك الإنسان، وماء البحر مالح والشمس هي التي تحيله بإذن الله وعظيم تدبيره إلى ماء فرات فترشه على النَبِت مطراً أو تجريه في مسارب الأرض أنهاراً والدفؤ من الشمس، فإننا نحرق الخشب وما الخشب إلا خزائن الطاقة الشمسية، وحياة الدواب متوقّفة على الشمس وكذلك النفط والبانزين فهي طاقات شمسيّة مدخرة بلطف من الله تعالى. كما أنّ الفحم طاقة شمسية مخزونة في أعماق الأرض.

فكل حيّ مصباح دافئ ينير، فإذا أطفئت الشمس انطفئت كل هذه المصابيح على الأرض ويسود الظلام ومن بعده البرد، برد فيه الهلاك والفناء لكل حيّ على وجه الأرض، وقد قال جلّ من قائل بالنسبة إلى أمارات يوم القيامة:

﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝١ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ۝٢ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ۝٣ وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ ۝٤ وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ۝٥ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ۝٦﴾[1] [التكوير: الآيات ١/٦].

فالشمس، كما قلنا، كرة هائلة من غازات متّقدة متوهِّجة إلى أبعد الحدود. قطرها (٨٦٥٣٨٠) ميلاً على وجه التقريب. ولو أننا صففنا على هذا القطر كراتٍ أرضية، مثل كرتنا الأرضية، لبلغ عددها ١٠٩.

وقلنا أن درجة حرارة الشمس على سطحها ٦٠٠٠ درجة مئوية وأما درجة الحرارة في أوسط الكرة الشمسية تقدر بعشرين ميليون درجة مئوية وأنّ السانتيمتر المربع الواحد من سطح الشمس يشع فيعطي في الدقيقة الواحدة ٨٩,٠٠٠ سعر حراري. وسطح الشمس كله يعمل في إشعاعه عمل (٥٨٠) ألف ملبون مليون مليون حصان. ونصيب الأرض من هذا الإشعاع كله يبلغ نحواً من جزء من ٢٢٠٠ مليون جزء. ونصيب الميل المربع على سطح الأرض منه يعادل في المتوسط ٥ ملايين من الأحصنة، الأحصنة الميكانيكية التي تتخذ وحدة للطاقة أو للقدرة.

﴿وجعل القمر فيهن نوراً وجعل الشمس سراجاً﴾

قلنا سابقاً إن الله تعالى قد عبّر عن الشمس بالسراج: ﴿وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ۝١٦﴾ [نُوح: الآية ١٦].

﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا﴾ [الفُرقان: الآية ٦١].

﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ۝١٢ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ۝١٣﴾. [النبأ: الآيتان ١٢/ ١٣].

ولا ريب أن نور الشمس أو بالأحرى ضياءه هو بعض إشعاعها وضوء الشمس أضوأ من القمر نصف مليون مرة، وإن السانتيمتر المربع الواحد في سطح الشمس يعطي من الضوء ما يعادل (٥٠,٠٠٠) شمعة.

وضوء الشمس أبيض اللون، هكذا أثره في العين. ولكن لو أرسلنا شعاع الشمس

---

(١) كُوّرت: ذهب نورها وانطفأت ـ انكدرت: انقضت وتساقطت ـ العشار: النوق الحوامل ـ عطلت: تركت بلا راع ـ حشرت: جمعت بعد البعث ـ سجرت: أوقدت فصارت نارا.

إلى منشور ثلاثي من الزجاج انكسر الشعاع مرتين وتحلل إلى ألوان سبعة مختلفة، أي يدخل الشعاع إلى الزجاج من سطح ليخرج من سطح آخر من أسطحه الثلاثة. إنه لا يخرج أبيض كما دخل وإنما يخرج وقد تفرّق إلى شعاعات كثيرة بألوان مختلفة: الأحمر، والبرتقالي والأصفر والأخضر والأزرق والنيلي والبنفسجي. ولو أنك جمعت هذه الشعاعات السبعة الملونة مرة أخرى فخلطتها، لخرجت شعاعاً واحداً، وكان شعاعاً أبيض كالذي كان أول مرة.

وبهذا التحليل أمكن معرفة أمور كثيرة عن طبيعة منبع الضوء بدرس نوع الضوء الذي يشعّه. وقد أدّى ذلك إلى اختراع عناصر كيميائية جديدة ومعرفة معلومات قريبة عن الشمس وبقية الكواكب وأدّى أيضاً إلى التحرّي عن الخواص المختلفة لأنواع الضوء المختلفة وتأثير بعض أنواع الضوء على صحتنا.

إن الضوء عندما يسير بين الشمس والأرض، أو بين أحد النجوم وبين أرضنا هذه، فإنه يسير بنفس السرعة. ولكن الضوء عندما يسير في وسط آخر، أي عندما يسير داخل الزجاج أو الماء أو المواد الشفافة الأخرى يسير بسرعات (سرع: سرعة) مختلفة مثلاً: الضوء الأزرق يسير أبطأ من الضوء الأحمر.

وبما أن مقدار انكسار الضوء عند دخوله في المنشور الزجاجي أو خروجه منه يتوقّف على مقدار التغيير في سرعة الضوء ينتج من ذلك أن الأنواع المختلفة للضوء تنكسر بمقادير مختلفة أيضاً في أية مادة شفافة. وعندما ينثني أو ينكسر الضوء مرَّتين في منشور ثلاثي فنشعر إذ ذاك بتفرق الأنواع المختلفة للضوء لاختلاف ألوانها. فيظهر لنا أنَّ الانكسارات المختلفة للألوان السبعة من ضوء الشمس إنما هي لاختلاف سرعة كل من هذه الألوان الضوئيّة عند سيرها في وسط زجاجي أو وسط آخر.

فالشعاعات الحمراء تميل عن مجراها الأول، أي، عن مجرى الضوء الأبيض، قليلاً. والشعاعات البرتقالية التي تليها تميل عن ذلك المجرى الأول أكثر، لأن طول موجتها أصغر، والشعاعات الصفراء التي تليها تميل عن الشعاعات البرتقالية لأنّ موجتها أصغر منها، وتلي الشعاعات الصفراء: الخضراء، فالزرقاء، فالنيلية، فالبنفسجية.

سبعة ألوان تميزها العين فيما نرى من الطيف، تصغر موجاتها كلما ذهبنا من الطرف الأحمر من الطيف إلى الطرف البنفسجي منه.

وإن الأشعة التي يتركّب منها شعاع الشمس ليست بسبعة، وإنما هي: آلاف!! يندمج بعضها في بعض، ويتدرّج بعضها إلى بعض في موجات تتراوح أطوالها ما بين ٧٠٠٠ إلى ٣٩٠٠ وحدة، لا سبيل إلى وصفها باللون.

وهذه الوحدة صغيرة جداً، إنها جزء من عشرة ملايين من أجزاء تقسم إليها الميليمتر الواحد.

فأطول موجة تشعر بها العين هي موجة الضوء الأحمر، بينما أصغرها (من حيث رؤية العين) موجة الضوء البنفسجي.

ويظهر من الجدول الآتي الأطوال الموجية التقريبية والترددات لبعض الألوان (الأشعة) الطيفية.

	الموجة الطوليّة بالسانتيمترات	التردّدات بمليون المليون من الأمواج في الثانية
الأحمر (أطول موجة تُرى)	٠,٠٠٠٠٧٦	٣٩٠
البرتقالي	٠,٠٠٠٠٦٢	٤٨٠
الأصفر	٠,٠٠٠٠٥٧	٥٣٠
الأخضر	٠,٠٠٠٠٥٢	٥٨٠
الأزرق	٠,٠٠٠٠٤٧	٦٤٠
البنفسجي (أقصر موجة تُرى)	٠,٠٠٠٠٣٨	٧٩٠

ومعلوم أن السرعة (أو سرعة الموجة): تساوي طول الموجة في عدد الترددات في ثانية واحدة أي س = لا × ت.

والتردد عبارة عن عدد الهزات الكاملة التي يتمها جزء صغير من الوسط في الثانية الواحدة أو أنه عدد الموجات التي تمرّ في نقطة معيّنة في الثانية الواحدة.

* * *

﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَا تُبۡصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبۡصِرُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [الحاقة: الآيتان ٣٨/٣٩].

إن الله تبارك وتعالى يقسم بما خلق مما يمكن إبصاره وما لا يمكن إبصاره، وإن الإنسان ما كان يعلم عن الأشياء المادية ما لا يمكن إبصاره، وهو موجود حقاً، فصار قسم من الشُذّاذ، ممن أظلمت نفوسهم بما اجترحت أيديهم من أنواع البغي والفسوق ينكر ما لا يمكن إبصاره بالعين المجردة ويراه غير موجود. فرشحت من هذه النفوس الأثيمة بضلالها وغوايتها المسلك المادي الإلحادي الزائف، الذي يفنده العلم الحديث.

ومن جملة ما لا يمكن إبصاره وهو موجود حقاً هي الأشعة التي تأتي في الطيف الشمسي بعد الأشعة البنفسجيَّة، فهي مما لا تراه العين.

فهي شعاعات أصغر موجةً، إنها الأشعة المعروفة بـ (فوق البنفسجية) = Ultra - Violet. إنها الأشعة التي تؤثر في اللوح الفوتوغرافي العادي وتعطينا الصور الفوتوغرافية وبالفوتوغراف نحن نصورها.

وما وراء الأشعة فوق البنفسجية أشعة أخرى أصغر منها موجةً. ومنها الأشعة السينيّة (R. X.) وهي التي تنفذ في الأجسام وتؤخذ بها صور من داخل أجسامنا. ونكشف بواسطتها العوارض والأمراض. وبعد الأشعة السينية تأتي أشعة گاما = جاما، تلك التي منها ما يبلغ جزءاً صغيراً من هذه الوحدة المتناهية الصغر التي بها نقيس موجات الضوء، وهي الأشعة التي تخرج عند انفلاق الذرة فتضر بالناس ضرراً وأيّ ضرر. وقد تؤدّي إلى الهلاك والبوار.

وهناك أيضاً أشعة هي وراء الأشعة الحمراء وأكبر منها موجة، وتعرف بأشعة ما تحت الأحمر. وليس من ذنبها أن العين لا تراها، فهي موجودة والعين محدودة القابلية والملكات. هي من القابليات بقدر ما أودع الله فيها، وبهذا استدل دكارت René Descartes على وجود الباري جلّ جلاله. ذلك لأنّ الإنسان لو كان صانعاً نفسه لما أودع فيها (في بدنه) من نقائص ولأعطاه قابليات فائقة، ذلك لأنّ الإنسان يحمل فكرة الكمال والتكامل. فوجوده بهذا المقدار من القابليات، ووجوده مع هذه النقائص دليل على أن صانعه كامل، كامل على الإطلاق، وليس للإنسان أي تصرف في صنع نفسه.

فهذه الأشعة: الأشعة ما تحت الأحمر هي الأشعة الحرارية (الحرارة) التي نحس بها أجمعين.

ومن بعد هذه الأشعة تأتي الأشعة اللاسلكية وطول موجتها قد يكون جزءاً من عشر من الميليمتر. وقد يبلغ أميالاً طوالاً.

فالطيف الشمسي يتألف من موجات مختلفة منها الأمواج الضوئية ومنها الأمواج الحرارية ومنها الأمواج السينيّة ومنها الأمواج الگاموية أو الجيمية ومنها الأمواج اللاسلكية وكلها شيء واحد في طبيعته، لا اختلاف فيما بينها إلا من حيث طول الموجة.

وكل هذه الأمواج مظهر من مظاهر الطاقة فالطاقة تتجلّى بأشكال شتى ولكن في هذه الصور المختلفة من الطاقة ندرك الوحدة. هي بعض وحدة الكون: ـ فالضوء، والحرارة والأشعة السينية، واللاسلكية.. إلخ. كلها شيء واحد في طبيعته.

وهناك غاية أخرى من حديث الطيف الشمسي: هي أن نعلم ما في الشمس من عناصر.. وأن نعلم العناصر التي قد تكوّنت منها هذه النجوم. فما الكون إلا نجوم. ويفيدنا هذا البحث لإيضاح الوحدة الكاملة الشاملة في هذا الكون: ﴿مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾ [المُلك: الآية ٣].

* * *

ويشاهد على سطح الشمس بقع سوداء ولكنها ليست بسوداء، إنها أقل توهجاً لأنّ درجة حرارتها أقل من أماكن أخرى على سطح الشمس، لهذا يظهر فيها إعتام بالنسبة لما حولها من إطار أنصع. ولعلها أعاصير تخرج بها الغازات من بطن الشمس فوارات.

وإنّ ظهور هذه البقع على وجه الشمس واختفاءها يؤثّر على المجالات المغناطيسية في الأرض، وكذلك في إذاعاتها اللاسلكية وإن هذه البقع تظهر دائماً على الشمس وتختفي دائماً، إنها تثور لتهدأ وتهدأ لتثور من جديد. وإن هذه البقع على وجه الشمس لدليل أنّ الشمس كرة غازية ملتهبة وهي في جيشان وثوران.

ويسمّى سطح الشمس الخارجي بالغلاف الضوئي أو الطبقة المرئية، لأنّ من هذه الطبقة يخرج النور أو الضوء إلينا. فنرى الشمس والطبقة المرئية طبقة رقيقة جداً، ذلك

لأنّ قطر الشمس يأوي (٨٦٥٣٨٠) ميلاً[1] على وجه التقريب كما ذكرنا.

وبدراسة طيف الشمس نتعرف إلى العناصر التي أودعها الله تعالى في الشمس، وهكذا بدراسة طيف الأشعة الواردة إلينا من بقية النجوم نتعرف إلى ما في سائر النجوم من عناصر. من معادن، وأشباه معادن. ولقد علم أن في جسم الشمس ٧٠ عنصراً تقريباً. ولعلّ هناك عناصر أخرى سوف يكشف لنا العلم الحديث. على أنّ عدد العناصر التي كشفت لحد الآن (١٠٢) عنصر[2].

ففي الشمس توجد العناصر الآتية وهي التي موجودة في أرضنا هذه: الإيدروجين، الهليوم، البورون: (على هيأة أوكسيد)، الكاربون، النتروجين: (الآزوت)، الأوكسجين، الفلور: (على هيأة فلوريد السيلسيوم)، الصوديوم، المغنسيوم، ألمنيوم، السيليسيوم، الفوسفور، الكبريت، البوتسيوم، الكلسيوم، الكروميوم، المانگانيز، الحديد، الكوبلتْ، النيكل، النحاس، الزنك، الرصاص، القصدير، الذهب، البلاتين، الفضة.

والكيماويون اليوم يستدلون في معاملهم بتحليل الطيف أو الأطياف على ما تحتويه المواد الأرضية من عناصر. فيتعرّفون إلى نوعها ومقدارها وأكثر العناصر كثرةً في الشمس: الإيدروجين ومن بعده، الهليوم. وإلى الإيدروجين تعزى حرارة الشمس العظيمة. وللإيدروجين شأن عظيم في تفسير وحدة الكون.

ففي الشمس من العناصر ما نُشاهده في الأرض، وفي النجوم من العناصر ما نراه في الأرض، وكل ذلك يدل على وحدة الكون وأنّ الصانع له واحد، عظيم، لا تتناهى عظمته، ولا تحدّ آفاق قدرته. والعناصر كلها تتألّف من الكترون أو الكترونات تدور بسرعة فائقة حول الپروتون أو الپروتونات، فالكون كله، قوى كهربائية موجبة وسالبة،

---

(١) قد سئل علي عليه أفضل الصلاة والسلام عن قطر الشمس. فأجاب ٩٠٠ في ٩٠٠ ميل، وبما أن الميل في صدر الإسلام كان يساوي ٤٠٠٠ ذراع من ذراع رجل متوسط القامة، فلو قسنا ذراع رجل متوسط القامة بالاينجات وحولنا الإينجات إلى أقدام، فياردات، فأميال لكان الناتج ٨٦٥٣٨٠ ميلاً. وقد ذكرنا ذلك في الجزء الثاني من التكامل.

(٢) ذكرنا ذلك في نهاية الجزء الثالث من كتاب (التكامل في الإسلام).

ذكر وأنثى. فالزوجية ضارية بأطنابها في هذا الكون الرحيب مع وحدة الصنع لتنحصر الواحدانية في الله الذي جلت آلاؤه وتناهت ألطافة. وهو القائل: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [الذاريات: الآية ٤٩].

﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿٤﴾﴾ [المُلك: الآيات ٢/ ٤].

فبعظمة الكون، هذا الكون الذي لا يمكن أن يوصل إلى غوره بالفكر والخيال، هذا الكون الذي فيه من النجوم ما لا يصل شعاعها إلينا إلا بعد عشرات الآلاف من الملايين من السنين الضوئية[1]. هذا الكون اللا نهائي الواسع الأرجاء، نتعرف إلى عظمة خالقنا، ونحن الأصغر غير المتناهي في الصغر بالنسبة إلى ما خلق الله من عوالم.

أفلا يستحي المادي الجاهل حين يتشدّق ويقول أين الله؟ إنه مع اعترافه بضآلة نفسه بالنسبة إلى هذا العالم اللا نهائي يريد أن يرى خالق اللا نهائي وهو الله المتعال بعينه وهو لا يعلم من خواص العين ومعادلاتها إلا الشيء الضئيل، وذلك بعقل ليس من صنعه ولا تدبيره. وهو القائل: ﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [العَنكبوت: الآية ٤٩].

﴿وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ[2] كَفُورٍ﴾ [لقمَان: الآية ٣٢].

- الشكر -

الشكر صفة سامية رفيعة في النفس به تتجلّى درجة صفائها وتقديرها لما يُملى عليها من لطف ربّاني وعطف صمداني.

الشكر معيار سمو النفس وعلوّها، الشكر انجذاب من ناحية العبد إلى ساحة المعبود، وبالشكر ينال الإنسان مزيداً من اللطف الآلهي وهو القائل:

---

(١) السنة الضوئية + ١٠ مليار كيلو متر تقريباً أي عشر مليون مليون كيلو متر.

(٢) ختار: غدار.

﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: الآية ٧] .

فمن لا شكر له لا سمو له وهو في أسفل السافلين، إنه بهيمة على شكل إنسان، بهيمة تتقمّص نفس الآدميين وهي ليست من الإنسانية في شيء.

الشكر الحقيقي معيار كمال النفس وسموّها ولا يقوى على الشكر الحقيقي إلا الأقلّون. وهو القائل:

﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سَبَإ: الآية ١٣] والإيمان الحقيقي يتجلّى في الشكر والصبر ولذلك جاء في الحديث: «الإيمان: نصفان، نصف شكر ونصف صبر»[١].

ومن يقوى على أداء شكر نعم الله تعالى وهي التي لا تعدّ ولا تحصى ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [إبراهيم: الآية ٣٤] ذلك، لأنّ في البدن الإنساني من حركات وتفاعلات لا تعدّ. وحياته مرتبطة بما لا يتناهى من حركات وتفاعلات ومفاعلات: في المنظومة الشمسيّة وفي عالم الجماد والنبات والحيوان، عدا ما في عالم النفس والعقل من قوى وطاقات وارتباط بعضها ببعض بدساتير وقوانين ومعادلات لا يعلمها ولا يحصيها إلا الله.

فإذا كانت النعم لا تُحصى، وهي غير متناهية. فكيف يؤدّي حق غير المتناهي بالمتناهي وهو شكرنا. إلا أنّ الله لجليل لطفه وعظيم رحمته يتقبّل منا هذا القليل من الشكر ويزيدنا تقرُّباً وكمالاً بمنّه. وواضح أن نسبة المتناهي إلى غير المتناهي صفر:

أي $\frac{ب}{\infty}$ = ٠ (صفر)

فمهما بالغنا في الشكر فهو صفر بالنسبة إلى نعم الله غير المتناهية.

حقاً، ليس لأحد أن يبلغ مرتبة الشكر الحقيقي، ذلك، لأنّ نعم الله لا تعدّ ولا تحصى، وإن كلام مولانا الإمام زين العابدين عليه السلام، في هذا المقام، غاية الكلام. إنه يخاطبُ ربَّ العباد فيقول: «فكيف لي بتحصِيل الشكر، وشكري إياك يفتقر إلى شكر، فكلما قلت: لك الحمد، وَجَبَ عليّ، لذلك، أن أقول: لك الحمد»[٢]. وهذا دليل على أن الشكر يتسلسل ولا حد له فلا يقوى الإنسان على أدائه.

---

(١) بحار الأنوار: ج٥٧، ص٢٦، باب ٣٠.
(٢) بحار الأنوار: ج٩١، ص١٤٦، باب ٣٢.

ويقول عَلَيْهِ السَّلام في مقام آخر: «إلهي وعزتك وجلالك وعظمتك، لو أني منذ بدعتَ فطرتي من أول الدهر عبدتك دوام خلود ربوبيتك بكل شعرة في كل طرفة عين سرمد الأبد بحمد الخلائق وشكرهم أجمعين، لكنت مقصّراً في بلوغ شكر خفيَ نعمة من نعمك عليَّ، ولو أني كربت معادنَ حديد الدنيا بأنيابي وحرثت أرضها بأشفار عيني وبكيت من خشيتك مثل بحور السماوات والأرضين دماً وصديداً لكان ذلك قليلاً من كثير من يجب من حقّك عليّ، ولو أنّك (إلهي) عَذبتني بعد ذلك بعذاب الخلائق أجمعين وعظمت للنار خلقي وجسمي وملأت طبقات جهنّم مني حتى لا يكون في النار معذَّب غيري ولا يكون لجهنّم حطب سواي لكان ذلك بعد لك عليَّ قليلاً في كثير ما استوجبه من عقوبتك»[1].

* * *

وإنّ الحكمة الإلهية تتجلّى في شكر العبد لله تعالى، فكلّما كان العبد أكثر شكراً لله تجلّت له الحكمة الإلهية في هذا الكون أكثر فأكثر.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ﴾ [لقمَان: الآية ١٢].

فإن كانت المعارف الإلهية والحكمة الحقيقية تتجلّى في شكر العبد، فكلما كان العبد أشكر لله تجلت لديه المعارف الآلهية والحكمة الحقيقية أكثر فأكثر.

وإنّ الفلسفة الحقيقية بالنسبة إلى الكون والحياة ووجود هذا الإنسان لا تتجلّى إلا بالشكر. وبالشكر تصفو النفس فتلهم من جانب الله الحقائق التي لا غبار عليها في فلسفة الوجود. وليس التعبد والتهجد والنوافل والأوراد والأذكار والأعمال الصالحة بجميع أنواعها إلا نوع شكرٍ لله تعالى، بها يكون العبد أعلى مرتبة من الملائكة.

ولقد جاء في الحديث: «عبدي أطعني أجعلك مثلي تقول للشيء: كن، فيكون»[2].

ويقول جلّ من قائل في حديث قدسيّ:

«ما يتقرب إليّ عبدي بشيء أحبّ مما افترضته عليه. وإنه ليتقرب إليّ بالنوافل

---

(١) بحار الأنوار: ج٩١، ص٩٠، باب ٣٢. (٢) الجواهر السنية في الأحاديث القدسية.

حتى أُحبّه، فإذا أحببته كنتُ سمعه الذي يسمعُ به وبصره الذي يُبصر به ولسانه الذي ينطق به ويَده التي يبطش بها، وإن دعاني أجَبته وإن سألني أعطيته»[(١)] .

وهكذا كانت تظهر الخوارق والمعاجز على يد الأنبياء ومن بعدهم الأوصياء صلوات الله عليهم أجمعين. وكانت تظهر الكرامات تملأ بالحديث المتقدم على أيدي الأولياء والأبدال من عباد الله الصالحين.

فلا حكمة بلا شكر. وما يُبديه بعض فلاسفة الغرب، هؤلاء الذين جُرّدوا من عوالم الشكر ومن أعمال صالحة يتحقق بها الشكر، من آراء وفلسفة، إنما هي فلسفة زائفة، مُضلّلة، بشرية، حالكة، لا نور فيها ولا صفاء. إنها فلسفة ما أنزل الله بها من سلطان، إن هي إلا إملاء شيطاني يُمليه الشيطان على هذا الفرد من الناس باسم الفلسفة! لإغواء الناس.

فلا فلسفة بعد القرآن وأحاديث الرسول وأهل العصمة عليهم الصلاة والسلام. فلابدَّ من نفس صافية، متفتحة، خاشعة لله، مصقولة بعبادات وأعمال صالحة كي تميز بين الفلسفة الزائفة والفلسفة الحقة الناصعة أو الحكمة الآلهية التي نقرأها في هذه الآية الكريمة:

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِۚ﴾ [لقمان: الآية ١٢] .

ثم إن الله تعالى يزيد في معرفة الإنسان لهذا الكون وفلسفة الحياة كلما ازداد شكراً لله تعالى. وهو قوله: جلّ من قائل: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْۖ﴾ [إبراهيم: الآية ٧]، فهذه الزيادة ليست في القسم المادّي من الحياة فحسب، بل في المعارف الآلهية والوصول إلى حكمة الوجود.

فمن أراد الفلسفة الحقيقية، لا يجدها في مطالعة كتب الفلاسفة من القرون الأولى إلى القرن المعاصر، بل يجدها في نفسه نتيجة عبادة خالصة، وتزكية للنفس وتحليتها بمكارم الأخلاق والقيام بصالح الأعمال لوجه الله المتعال.

نرى أنّ الفيلسوف في الغرب يضع نظريةً مغلوطة فيبني عليها فلسفته ويُملي كتباً عدة تطبيقاً على تلك النظرية الخاطئة، فيتبعه كثير من الناس ممّن هم على شاكلته من ظلمات

---

(١) بحار الأنوار: ج٦٧، ص٢٢، باب ٤٣.

في النفس ويُعد عن الله تعالى. إنه يؤسس نظرية: «تأثير البيئة أو المحيط على التشكيلات الجسمية». وهي نظرية مغلوطة (ولا مؤثر إلا الله ولا مؤثر إلا بإذن الله). فيعمها على الأخلاق والدين والذكاء... إلخ، فالأساس مغلوط والتعميم كذلك وهكذا.

* * *

ومن لم يتذوّق معرفة الله بخشوع وخنوع وبكاء، جوف الليل وأطراف النهار، بكاء على ما سبق من ذنوب، بكاء فرح لهذا الاتصال اللاهوتي وهذا الحب الآلهي، لم يتذوق الحياة الحقيقية، ولم يعلم سر وجوده في هذه الفترة الزمنيّة من هذه الدنيا الموقتة، دار العمل والتهيؤ لآخرة سعيدة.

نعم، إن رجلاً كهذا قد جاء إلى هذه الدنيا وذهب كما تذهب البهائم.

فالحياة الحقيقية تتجلى في هذا الخشوع والمثول بين يدي رب السماوات والأرض، لا سيّما في وقت هدأت فيه الأصوات وهجعت العيون.

الإنسان يعيش بقلبه، ومن لا قلب له لا حياة له، والقلب الذي لا يتوجه إلى خالقه هو كالحجارة لا نبض فيه ولا حياة. إنه قلب ميت، إنه قلب أعمى لا يبصر الحق ولا يراه.

﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَـٰرُ وَلَـٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحجّ: الآية ٤٦].

فالحياة الحقيقية تتجلى في تسبيحات هذا القلب الذي تعلق بخالقه وتتصل بمعبوده اتصالاً وثيقاً جعله يذكر الله على الدوام، جعله يفرح بذكر الله تعالى إلى أبعد الحدود.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾﴾ [الأحزاب: الآيتان ٤١/٤٢].

والميزة الفارقة بين الحياة في الغرب والحياة عند المسلمين، أنّ الغربيين لا يذكرون الله تعالى في تعارفاتهم ومكالماتهم، بينما المسلمون لا يفترون عن ذكر الله، في تحياتهم وسلامهم وتعارفاتهم وحوارهم، بقولهم: السلام عليكم ورحمة الله، عليكم السلام ورحمة الله وبركاته، يرحمكم الله، أثابكم الله، الحمد لله، الشكر لله، إن شاء الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله، إنا لله وإنا إليه راجعون... إلخ.

من هنا يعلم أنّ الصفة الغالبة عند الغربيين هي الصفة المادية والتمسك بالمادة الصماء، العمياء إلى أبعد الحدود. وهذا اللجوء إلى المادة إنما جاء من جراء الفسوق والآثام، من جراء ترك ذكر الله في حياتهم العملية، فالتعلق بالمادة منذ القدم متأصل عند الغربيين. وهذه الفلسفة المادية كانت سبباً لأنواع الفحشاء والمنكرات وهذه بدورها أولدت فلسفات زائفة، باطلة كالفلسفة الحسيّة، والمادية، والماركسية، والوجودية، إلى ما هنالك... فكل إناء بالذي فيه ينضح!

* * *

وكل عمل عبادي يقوم به المسلم إنما هو لأداء واجب الشكر تجاه بعض نِعم الخالق جلّ جلاله.

فالصلاة من أهم أنواع الشكر، لما فيها من حركات تدل على خشوع العبد نحو خالقه.

والصوم شكر لما تفضّل الله على هذا الإنسان خلال السنة، من عظيم النِعم عدا ما فيه من فوائد بدنية وروحية.

والزكاة شكر لما تفضل الله به على هذا العبد من مال يربو على حاجته وكذلك الخمس.

والحج نوع شكر لما منّ الله به على هذا الإنسان من استغنائه عما في أيدي الناس ومنحه الاستطاعة، ليقفَ تلك المواقف القدسية، لينال الزلفى من مقامات القدس ويتطهر من ذنوبه كلها أو بعضها بمقدار ما فيه من توجه وإقبال.

ولكل عضو من أعضاء هذا البدن شكر يتناسب مع ذلك العضو. فشكر العين أن تمنعها من النظر إلى ما حرّم الله، «فالأولى لك والثانية عليك» على ما جاء في الحديث. وشكرها: أن تتلو القرآن بإمعان وتناجي ربَّك بالأدعية الواردة عن الأئمة المعصومين من أهل البيت عليهم الصلاة والسلام بخشوع وخضوع وبكاء، بقلب متصل بمقامات القدس.

وشكر اليد أن تمسح بها على رأس اليتيم وتقوم بها بأعمال خيرية لوجه الله وأن تخدم الدين كتابةً وتساعد الفقراء بها إلى أبعد الحدود.

وشكر الرجلين أن تذهب بهما إلى المشاهد المتبركة وإلى المساجد للتقرّب إلى الله تعالى، تذهب بهما لقضاء حوائج الناس ودفع المكروه عنهم. وقد أوصى النبيﷺ علياًعليه‌السلام بهذه الوصية:

«سِرْ ميلاً عُدْ مريضاً، سِرْ ميلين شيّع جنازة، سِر ثلاثة أميال أجب دعوة، سِر أربعة أميال زُرْ أخاً في الله. سِرْ خمسة أميال أجِب دعوة الملهوف، سِرْ ستة أميال أُنصر المظلوم وعليك بالاستغفار»(١).

وشكر الأُذن أن تسمع بها تلاوة القرآن الكريم، فيخشع قلبك فتتّصل بسماع هذا الصوت اللاهوتي بمقامات القدس ويعرج بقلبك إلى الملكوت الأعلى حيث الصفاء المحض والطمأنينة التامة ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرّعد: الآية ٢٨] وشكرها أيضاً: أن تمنعها سماعَ ما حرّم الله من الأغاني التي تلوث النفس وتُبعدها عن عوالم القدس وترجع بها إلى جاهلية جهلاء، وتمنعها أيضاً من استماع الغيبة والنميمة.

وشكر اللسان أن تتلو القرآن والأدعية المقربة إلى الله، وتهدي الآخرين إلى الإسلام العظيم وترشدهم إلى الصراط المستقيم، شكر اللسان: أن تمنعه من الغيبة وهتك أعراض الناس، وفي الحديث: «إيّاكم والغيبة، فإنها أشد من الزنا، لأنّ الرجل يزني فيتوب. فيتوب الله عليه، وإن صاحب الغيبة لا يغفر له إلا إذا غفرها صاحبها»(٢).

وقال ﷺ: مررتُ ليلة أُسري بي إلى السماء على قوم يخمشون وجوههم بأظفارهم، فسألت جبرئيل عنهم، فقال: هؤلاء الذين يغتابون الناس(٣).

والحاضر للغيبة ولم ينكرها شريك فيها، ومن أنكرها كان مغفوراً له، وقد قال رسول اللهﷺ: «من ردّ عن عرض أخيه بالغيب كان حقاً على الله أن يعتقه من النار»(٤).

* * *

(١) من لا يحضره الفقيه: ج٤، ص٣٥٨، باب النوادر.
(٢) وسائل الشيعة: ج١٢، ص٢٨٠، باب ١٥٢.
(٣) مستدرك الوسائل: ج٩، ص١١٩، باب ١٣٢.
(٤) بحار الأنوار: ج٧٢، ص٢٢٦، باب ٦٦.

وأما طرق تحصيل الشكر فيتلخّص فيما يلي:

١ ـ التفكر في عظيم نِعم الله التي لا تعد ولا تحصى، فكل ما خلق الله من كواكب لا تعد ومجرّات لا تحصى من الذرّة إلى الكرات العظام لها أثرها في حياتنا وهي أجلّ من أن تحصى. فكتب الفيزياء والكيمياء والحيوان والنبات وطبقات الأرض والهيئة والمكانيك السماوي والأرضي وعلم الفلك اللاسلكي وغيرها وما أودع الله فيها من معادلات ودساتير وقوانين وخواص كل أولئك لها تأثيرها في حياة هذا الإنسان وفي الروح وفيما لا يرى من قوى وطاقات، وهو القائل: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَا تُبۡصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبۡصِرُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [الحَاقة: الآيتان ٣٨/ ٣٩].

٢ ـ أن ينظر الإنسان إلى مَن هو دونه في مُتع الدنيا من حيث المال والأثاث والمسكن والمأكل والمشرب... إلخ. وأن ينظر إلى مَن هو أعلى منه في الدين، وفي عوالم التقوى والورع والعبادة.

٣ ـ الذهاب إلى المقابر والتدبر في لسان حال الموتى، حيث يتحسرون للرجوع إلى الدنيا للعمل جلباً لمرضاة الله وملافاةً لما قاموا به من تضييع أوامر الله وعدم إطاعته عندما كانوا أحياءً، فيبادروا إلى مزيد الشكر فيما بقي من العمر.

٤ ـ أن يتذكر الإنسان بعض ما أصيب من بلايا وأمراض مستعصية كادت أن تؤدي بحياته، فأنجاه الله تعالى منها، ويحسب أنه بُعث من جديد وأعطي حياة جديدة، فيشكر الله تعالى على ذلك، فيبادر إلى العمل الصالح والشكر الكثير.

٥ ـ أن يشكر الله في كل بلية أو مصيبة أصيب بها في الدنيا، ذلك، لأن الله كان باستطاعته أن يبتليه بأشد منها وإنه لم تصبه مصيبة في الدين. فقد قال عيسى عليه السلام: «اللهم لا تجعل مصيبتي في ديني»(١).

وقال رجل لبعض العرفاء: «دخل اللص في بيتي وأخذ متاعي».

فقال له: أشكر الله، لو كان الشيطان يدخل بدله في قلبك، ويفسد توحيدك ماذا كنت تصنع؟.

ولا رَيبَ أن كل مصيبة إنما هي عقوبة لذنب سابق، فإذا أصيب بهذه المصيبة أمِن

---

(١) جامع السعادات: ج٣، ص٢٧٠.

من عذاب الآخرة، فقد قال رسول الله ﷺ: «إن العبد إذا أذنب ذنباً فأصابته شدة أو بلاء في الدنيا، فالله أكبر مِن أن يعذّبه ثانية». وبهذا المضمون أحاديث كثيرة عن الأئمة المعصومين عليهم الصلاة والسلام. فليشكر العبد على تسجيل العقوبة وعدم إرجائها إلى يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم.

ولا شك أن من تواردت عليه النعم في الدنيا على وفق المراد من غير امتزاج ببلاء أو مصيبة تورث طمأنينة القلب إلى الدنيا والركون إليها والأنس بها، فيعظم بلاؤه عند الموت ويصعب عليه مفارقة هذه الدنيا، ولكن لو تواردت عليه المصائب اشمئزت نفسه عن الدنيا ولم يركن إليها وسهل عليه مفارقة الدنيا وزينتها، فقد قال رسول الله ﷺ: الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر(١).

فمصائب الدنيا مطهراتٌ لهذه النفوس وموجّهة إياها إلى عالم الخلود، إلى ما لا عين رأت أو أذن سمعت أو خطر على قلب بشر. فعلينا أن نشكر الله تعالى على ما أصابنا من بلايا ومحن، تزكو بها النفس فتذهب إلى عالم سرمدي طاهرةً مطهرة نقيةً زكية، كما أنه من الواجب علينا أن نصبر على ما ينتابنا من مصائب، فكل بلية بحاجة إلى صبر وشكر في نفس الوقت، صبر لنيل الأجر وشكر على التطهر من الذنوب والآثام، من الرجس والأدران.

ولا بأس بذكر هاتين الواقعتين لنعلم كيف أنّ الشيطان لهذا الإنسان بالمرصاد إلى آخر لحظة من حياته، يغويه ويُغريه.

يقال: إن رجلاً قد حضرته الوفاة، وكان معروفاً بالتقى والصلاح، فلقن الشهادتين وإذا به يبصق ولا يقوى على أدائهما. ثم إن الله أراد به الرجوع إلى الدنيا، فصحا وعادت إليه نفسه، وسئل لِمَ أبيت التلفظ بالشهادتين، قال، قد بلغ بي العطش إلى حدٍّ لا يوصف، فتمثَل لي رجل وبيده قدح فيه ماء بارد نمير، فقال، لا تقل بالشهادتين لأرْويك من هذا الماء البارد. فأني صرت أبصق في القدح لئلا أستسِغ الماء. وقد منّ الله عليّ أن أنجاني من الشيطان وكيده.

---

(١) من لا يحضره الفقيه: ج٤، ص٣٦٢، باب النوادر.

وإن رجلاً آخر قد حضرته الوفاة، لُقن الشهادتين فصار ينظر إلى زاوية من الغرفة بالقرب من السقف، ولا يكرر الشهادتين! فتعجب الحاضرون من أمره، ولكن الله تعالى أراد به أن لا يموت دون الإقرار بالشهادتين، فعادت إليه نفسه وسئل عن عدم إقراره بالشهادتين فقال، كان لي إناء مرصّع في الرف بالقرب من السقف، ورأيتُ شخصاً رافعاً الإناء ويقول لو أقررت بالشهادتين لأكسرنَّ هذا الإناء. فإني حرصاً على سلامة الإناء لم أقلْ بالشهادتين!

* * *

ثم إن الله تعالى، لما للشكر من أهمية بالغة، قرن الشكر بالذكر في كتابه المجيد بقوله جلّ من قائل: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾﴾ [البَقَرَة: الآية ١٥٢]، فالله تعالى جلّ أن يعذبنا إن شكرنا وآمنا. وهو القائل: ﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنتُمْ﴾ [النِّساء: الآية ١٤٧] فطوبى للمؤمنين الشاكرين فهم إلى روح وريحان.

وفي الكافي عن الإمام الصادق عليه السلام: «الطاعم الشاكر له من الأجر كأجر الصائم المحتسب، والمعافى الشاكر له من الأجر كأجر المبتلى الصابر، والمعطي الشاكر له من الأجر كأجر المحروم القانع[١]».

وبهذا الإسناد قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «ما فتح الله على عبد باب شكر فخزن عنه باب الزيادة»[٢].

وفي الكافي عن أبي عبدالله عليه السلام، قال: «مكتوب في التوراة: أشكر من أنعم عليك وأنعم على من شكرك، فإنه لا زوال للنعماء إذا شكرت ولا بقاء لها إذا كُفرت، الشكر زيادة في النعم وأمان من الغير»[٣].

وعن أبي جعفر عليه السلام، قال: كان رسول الله صلى الله عليه وآله عند عائشة ليلتها، فقالت: يا رسول الله، لِمَ تتعب نفسك، وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، فقال: يا عائشة: أفلا أكون عبداً شكوراً، قال: وكان رسول الله صلى الله عليه وآله، يقوم على أطراف رجليه،

---

(١)، (٢)، (٣) أصول الكافي: ج٢، ص٩٤، باب الشكر.

فأنزل الله سبحانه وتعالى: ﴿طه ۝١ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ۝٢﴾(١).

وعن عبيدالله بن الوليد قال: سمعت أبا عبدالله عليه السلام يقول: ثلاث لا يضر معهن شيء، الدعاء عند الكرب والاستغفار عند الذنب والشكر عند النعمة(٢).

وعن أبي عبدالله عليه السلام: قال: ما أنعم الله على عبد من نعمة فعرفها بقلبه وحمد الله ظاهراً بلسانه فتمّ كلامه حتى يأمر له بالمزيد(٣).

وعن أبي عبدالله عليه السلام قال: شكر النعمة اجتناب المحارم وتمام الشكر قول الرجل: الحمدلله رب العالمين(٤).

عن أبي بصير، قال: قلت لأبي عبدالله عليه السلام: هل للشكر حدّ إذا فعله العبد كان شاكراً؟ قال نعم، قلت: ما هو؟ قال: يحمد الله على كل نعمة عليه في أهل ومال وإن كان فيما أنعم عليه في ماله حق أدّاه ومنه قوله جلّ وعزّ: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ﴾ [الزخرُف: الآية ١٣] . ومنه قوله تعالى: ﴿رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ﴾ [المؤمنون: الآية ٢٩] وقوله: ﴿رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا﴾ [الإسرَاء: الآية ٨٠] .

وعن أبي الحسن صلوات الله عليه: من حمد الله على النعمة فقد شكره وكان الحمد أفضل من تلك النعمة(٥).

وعن أبي عبدالله عليه السلام: قال: من أنعم الله عليه بنعمة فعرفها بقلبه. فقد أدى شكرها(٦).

وعن أبي بصير، قال: قال: أبو عبدالله عليه السلام إن الرجل منكم ليشرب الشربة من الماء، فيوجب الله له بها الجنة، ثم قال: إنه ليأخذ الإناء فيضعه على فيه. فيسمّي ثم يشرب فينحّيه وهو يشتهيه فيحمد الله، ثم يعود فيشرب، ثم ينحّيه فيحمد الله، ثم يعود فيشرب، ثم ينحّيه فيحمد الله فيوجب الله عزّ وجلّ بها له الجنة»(٧).

---

(١)، (٢)، (٣)، (٤) أصول الكافي: ج٢، ص٩٤، باب الشكر.

(٥) فتوفيق الحمد من أكبر النعم.

(٦) أصول الكافي: ج٢، ص٩٤، باب الشكر.

(٧) أصول الكافي: ج٢، ص٩٧ ـ ٩٨، باب الشكر.

عن عمر بن يزيد قال: قلت لأبي عبدالله عليه السلام: إني سألت الله عزّ وجلّ أن يرزقني مالاً فرزقني، وإني سألت الله أن يرزقني ولداً فرزقني ولداً وسألته أن يرزقني داراً فرزقني وقد خفت أن يكون ذلك استدراجاً[1] فقال: أما والله، مع الحمد، فلا[2].

وعن مثنّى الحنّاط، عن أبي عبدالله عليه السلام: قال: كان رسول الله إذا ورد عليه أمر يسرُّه قال: الحمدلله على هذه النعمة، وإذا ورد عليه أمر يغتمّ به، قال، الحمد لله على كل حال»[3].

عن حماد بن عثمان قال: خرج أبو عبدالله عليه السلام من المسجد، وقد ضاعت دابّته، فقال: لئن ردّها الله عليّ لأشكرنَّ الله حق شكره. قال: فما لبث أن أُتي بها. فقال: الحمد لله، فقال له قائل: جعلت فداك، أليس قلت: لأشكرنَّ الله حقَّ شكره، فقال: أبو عبدالله عليه السلام: ألم تسمعني قلت: الحمدلله[4].

وعن أبي بصير عن أبي جعفر عليه السلام قال: تقول ثلاث مرات إذا نظرت إلى المبتلى من غير أن تُسمعه: الحمد لله الذي عافاني مما ابتلاك به ولو شاء فعل، قال: من قال ذلك، لم يصبه ذلك البلاء أبداً[5].

وعن أبي عبدالله عليه السلام، قال: ما من عبد يرى مُبتلى فيقول: الحمدلله الذي عدل عني ما ابتلاك به وفضلني عليك بالعافية، اللهمّ عافِني مما ابتليته به، إلا لم يُبْتَلَ بذلك البلاء[6].

عن أبي عبدالله عليه السلام. قال: إذا رأيت الرجل وقد ابتلي وأنعم الله عليك، فقل: اللهم إني لا أسخر ولا أفخر، ولكن أحمدك على عظيم نعمائك علي[7].

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله: إذا رأيتم أهل البلاء فاحمدوا الله ولا تسمعوهم فإن ذلك يحزنهم[8].

وعن أبي عبدالله عليه السلام، قال: إن رسول الله صلى الله عليه وآله كان في سفر يسير على ناقة له، إذ نزل فسجد خمس سجدات فلما أن ركب قالوا يا رسول الله، إنا رأيناك صنعتَ شيئاً لم

---

(١) في القاموس: استدرجه: خدعه. واستدراجه تعالى العبد: إنه كلما جدّد خطيئة جدّد له نعمة وأنساه الاستغفار.

(٢)، (٣)، (٤)، (٥)، (٦)، (٧)، (٨) أصول الكافي: ج٢، ص٩٧ ـ ٩٨، باب الشكر.

تصنعه، فقال: نعم، استقبلني جبرئيل عليه السلام فبشرني ببشارات من الله عزّ وجلّ، فسجدت لله شكراً، لكل بشرى سجدة(١).

وعن أبي عبدالله عليه السلام: إذا ذكر أحدكم نعمة الله عزّوجلّ فليضع خدّه على التراب، شكراً لله، فإن كان راكباً فلينزلْ فليضع خدّه على التراب وإن لم يكن يقدر على النزول للشهرة، فليضع خدّه على قربوسه وإن لم يقدر فليضع خدّه على كفه. ثم ليحمد الله على ما أنعم الله عليه(٢).

عن هشام بن أحمر، قال: كنت أسير مع أبي الحسن عليه السلام في بعض أطراف المدينة، إذ ثنى رجليه عن دابته، فخرَّ ساجداً، فأطال وأطال، ثم رفع رأسه وركب دابته، فقلت: جعلت فداك، قد أطلت السجود، فقال: إنني ذكرت نعمةً أنعم الله بها عليّ، فأحببت أن أشكر ربي(٣).

عن أبي عبدالله عليه السلام قال: فيما أوحَى الله عزّ وجلّ إلى موسى عليه السلام، يا موسى، أشكرني حقَّ شكري. فقال: يا ربِّ، وكيف أشكرك حق شكرك، وليس من شكر أشكرك به إلا وأنت أنعمت به عليّ، قال: يا موسى، الآن شكرتني حين علمت أن ذلك منّي(٤).

عن إسماعيل بن الفضل، قال: قال أبو عبدالله عليه السلام، إذا أصبحت وأمسيت، فقل عشر مرات: اللهمّ ما أصبحت بي من نعمة أو عافية في دين أو دنيا فمنك وحدك، لا شريك لك، لك الحمد ولك الشكر بها عليّ يا رب حتى ترضى، وبعد الرضا، فإنّك إذا قلت ذلك كنت قد أدّيت شكر ما أنعم الله به عليك في ذلك اليوم وفي تلك الليلة. وعن أبي عبدالله عليه السلام، قال: كان نوح عليه السلام يقول ذلك إذا أصبح، فسمّي بذلك: عبداً شكوراً، وقال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: من صدق الله نجا(٥).

وعن عمار الدهني، قال: سمعت عليّ بن الحسين عليهما السلام، يقول: إن الله يحبّ كل قلب حزين ويحب كل عبد شكور. يقول الله تبارك وتعالى، لعبد من عبيده يوم القيامة:

---

(١)،(٢)،(٣) أصول الكافي: ج٢، ص٩٧ ـ ٩٨، باب الشكر.

(٤)،(٥) أصول الكافي: ج٢، ص٩٩، باب الشكر.

أشكرت فلاناً، فيقول: بل شكرتُك يا ربِّ. فيقول: «لم تشكرني إذ لم تشكره». ثم قال: أشكركم لله أشكركم للناس[١].

وقد قال رسول الله ﷺ: «إن للنعم أوابد كأوابد الوحش، فقيّدوها بالشكر»[٢].

وقال ﷺ: ينادي منادٍ يوم القيامة: ليقوم الحمّادون، فيقوم زمرة، فينصب لهم لواء، فيدخلون الجنة، فقيل: من الحمّادون؟ فقال: «الذين يشكرون الله على كل حال»[٣].

* * *

ولامراء أن الشكر من أفضل الأعمال وهو ينتظم من علم وحال وعمل[٤]. فالعلم هو الأصل، فيورث الحال، والحال يورث العمل والعلم هو معرفة النعمة من المنعم، والحال هو الفرح الحاصل بأنعامه تعالى، والعمل هو القيام بما هو مقصود المنعم ومحبوبه ويتعلّق ذلك العمل بالقلب وبالجوارح وباللسان.

وعلى من يريد الشكر أن يعلم أن النعم كلّها من الله تعالى، والوسائط في إيصال النعمة إليه إنما هم مسخرون من جانب الله، فألقى الله تعالى في قلوبهم من الرأفة والرحمة حتى صاروا مضطّرين إلى إيصال النعمة إليه، وهذا شكر بالقلب.

وأما الفرح بالنعم مع هيأة الخضوع والتواضع فهو أيضاً في نفسه شكر على حدة. كما أنّ المعرفة شكر. فإن كان فرحك من حيث أنك تقدر النعمة على التوصل إلى التقرُّب من المنعم فهو المرتبة العليا من الشكر. وعلامة ذلك: أن لا تفرح بنعم الدنيا، إلا من حيث أنها مزرعة الآخرة ومعينة عليها وتفرح بهذا المقدار وتحزن بكلمة نعمة تلهيك عن ذكر الله، وهذا أيضاً شكر بالقلب.

وأما العمل بموجب الفرح الحاصل من معرفة النعم. فهو يتعلّق بالقلب واللسان والجوارح.

---

(١) أصول الكافي: ج٢، ص٩٩، باب الشكر.

(٢) الوبد: سوء الحال، المتوبّد: الشديد الإصابة بالعين.

(٣) مثله في مستدرك الوسائل: ج٥، ص٣١٢، باب ٢٠.

(٤) الأخلاق، للعلامة الحجة: السيد عبدالله شبر. ص٢٣٨.

أما بالقلب: فقصد الخير وإضماره لكافَّة الخلق.

وأمّا باللسان فبإظهار الشكر لله بالتحميدات الدالّة عليه، وأما بالجوارح: فاستعمال نعم الله في طاعته والتوقي من الاستعانة بها على معصيته، حتى أن شكر العينين أن يستر كل عيب يراه بمسلم (كما قلنا)، وشكر الأذنين أن يستر كل عيب يسمعه لمسلم.

بل قال أرباب المعرفة: إن من كفر نعمة العين، فقد كفر نعمة الشمس أيضاً، إذ الأبصار إنما يتمّ بها، وإنما خُلِقتا ليبصر بهما ما ينفعه في دينه ودنياه ويتقي بهما ما يضرّه فيهما، بل المراد من خلق الأرض والسماء وخلق الدنيا وأسبابها أن يستعين الخلق بها على الوصول إلى الله، ولا وصول إليه إلا بمحبّته والأنس به في الدنيا والتجافي عن غرورها. ولا أنس إلا بدوام الذكر، ولا محبة إلا بالمعرفة الحاصلة بدوام الفكر، ولا يمكن الدوام على الذكر والفكر إلا ببقاء البدن، ولا يبقى البدن إلا بالأرض والماء والهواء، ولا يتمّ ذلك إلا بخلق الأرض والسماء وخلق سائر الأعضاء، وكل ذلك لأجل البدن، والبدن مطية النفس، والراجع إلى الله هي النفس المطمئنة بطول العبادة والمعرفة، فكل من استعمل شيئاً في غير طاعة الله فقد كفر بنعمة الله في جميع الأسباب التي لابدّ منها لإقدامه على تلك المعصية، ولذا كان الشاكر الحقيقي قليلاً. قال تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سَبَإ: الآية ١٣][1] كما ذكرنا سابقاً.

ولا شك أن فائدة الشكر تعود إلى الإنسان نفسه والله هو الموفق للشكر، وهو المعطي من الملكات والجوارح لأداء هذا الشكر، فأنى لهذا الإنسان أن يقوم بواجب الشكر، وأنّى له أن يشكر نعمته بنعمته. فلا يمكن شكر الشكر إلا بنعمة أخرى وفي حديث آخر يخاطب الله موسى عليه السلام: وشكري لك نعمة أخرى منك توجب الشكر لك، فقال تعالى: «إذا عرفت أن النعم مني رضيت منك بذلك شكراً».

وعن الإمام السجاد عليه السلام: إنه كان إذا قرأ هذه الآية: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [إبراهيم: الآية ٣٤]، قال: سبحان مَن لم يجعل في أحد من معرفة نعمه إلا المعرفة بالتقصير

(١) الأخلاق: للعلامة الحجة: السيد عبدالله شبر. ص٢٣٩.

عن معرفتها كما لم يجعل في أحد من معرفة إدراكه أكثر من العلم بأنه لا يدركه[١] .

فالشكر مركب من علم وعمل فأما العلم أن يعرف الله ويتفكّر في مصنوعاته وينظر إلى من هو أدنى منه في أمور الدنيا فيشكر الله على ما هو فيه وينظر إلى مَن هو أعلى منه في الدين فيجتهد للوصول إلى مرتبته. ويشكر الله تعالى في المصائب على أنه لم يصب بأكبر منها وإن ما أصيب به لم يكن مصيبته دينية بل كانت مصيبته دنيوية وإنه قد عجلت عقوبتها ولم تدّخر للآخرة ويعلم أن ثواب هذه المصيبة الدنيوية خير له وأنها تنقص من قلبه حبّ الدنيا بل ربما بغضت الدنيا في نظره، ذلك لأنّ حب الدنيا رأس كل خطيئة، فالمصائب هي نعم توجب الشكر ولا ريب أنه لا تخلو مصيبته عن تكفير خطيئته أو رياضة نفس أو رفع درجة.

وعلى الإنسان أن يسأل الله تعالى العافية، فالعافية خيرٌ من البلاء. فكان النبي والأئمة عليهم السلام: يستعيذون بالله من بلاء الدنيا وبلاء الآخرة وكانوا يقولون: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ حَسَنَةً﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٠١] . وكانوا يستعيذون من شماتة الأعداء ومن سوء القضاء ومن حلول البلاء. قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «سلوا الله العافية، فما أعطي عبد أفضل من العافية إلا اليقين». وأشار باليقين إلى عافية القلب من مرض الجهل[٢] .

* * *

ويجدر بالإنسان الشاكر أن يقرأ ما جاء في مناجاة الشاكرين من كلام لعلي بن الحسين زين العابدين عليه السلام:

ـ مناجاة الشاكرين ـ

بسم الله الرحمن الرحيم

إلٰهي إليك أشكو نفساً بالسوء أمّارة، وإلى الخطيئة مبادرة، وبمعاصيك مولعة، ولسخطك متعرِّضة، تسلك بي مسالك المهالك، وتجعلني عندك أهون هالك، كثيرة

---

(١) الكافي: ج٨، ص٣٩٤.

(٢) الأخلاق، للعلامة المرحوم السيد عبدالله شبر.

العلل، طويلة الأمل، إن مسَّها الشر تجزع، وإن مسّها الخير تمنع، ميّالة إلى اللعب واللهو، مملوءة بالغفلة والسهو، تسرع بي إلى الحوبة، وتسوّفني بالتوبة. إلهي أشكو إليك عدواً يضلّني وشيطاناً يغويني. قد ملأ بالوسواس صدري، وأحاطت هواجسه بقلبي، يعاضد لي الهوى، ويزيّن لي حبَّ الدنيا، ويحول بيني وبين الطاعة والزلفى. إلهي إليك أشكو قلباً قاسياً مع الوسواس متقلباً وبالرين والطبع متلبّساً وعيناً عن البكاء من خوفك جامدة، وإلى ما تسرها طامحة.

إلٰهي لا حول لي ولا قوة إلا بقدرتك، ولا نجاة لي من مكاره الدنيا إلا بعصمتك، فأسألك ببلاغة حكمتك، ونفاذ مشيّتك أن لا تجعلني لغير جودك متعرضاً ولا تصيرني للفتن غرضاً، وكن لي على الأعداء ناصراً، وعلى المخازي والعيوب ساتراً ومن البلاء واقياً، وعن المعاصي عاصماً، برأفتك ورحمتك يا أرحم الراحمين[١].

ـ الشكر عند الأكل والشرب ـ

روي عن أمير المؤمنين عليه السلام، إذا مددت يدك إلى الأكل فقلْ: «بسم الله والحمد لله رب العالمين» ويستحب أن يقول ذلك على كل إناء على المائدة وإن اتحدت أنواع الطعام ومن نسي التسمية على كل لون، فليقلْ:

«بسم الله على أوله وآخره»

ومما ينبغى أن يقال عند الشروع في الأكل[٢]:

«الحمد لله الذي يُطعم ولا يطعَم ويجير ولا يُجار عليه، ويَستغني ويُفتقر إليه. اللهم لك الحمد على ما رزقتنا من طعام وإدام في يُسر وعافية من غير كد منا ولا مشقة. بسم الله خير الأسماء، بسم الله رب الأرض والسماء، بسم الله الذي لا يضر مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء. وهو السميع العليم. اللهم أسعدني في مطعمي هذا بخيره وأعِذني من شرّه وأمتعني بنفعه وسلمني من ضرّه.

---

(١) مناجاة الشاكرين للإمام زين العابدين عليه السلام، الموجود في كتاب الصحيفة السجادية.
(٢) مفتاح الفلاح: ص١٣٣.

وأن يقول بعد الفراغ من الأكل على ما روي عن الإمام الصادق عليه السلام:

«الحمد لله الذي أطعمنا في جائعين وسقانا في ظامئين، وكسانا في عارين وهدانا في ضالّين وحملنا في راجلين، وآوانا في ضاحين وأخدمنا في عانين وفضّلنا على كثير من العالمين»[1].

ويستحبّ أن يقول عند شرب الماء:

«الحمد لله منزل الماء من السماء، ومصرف الأمر كيف يشاء، بسم الله خير الأسماء»[2].

ويقول بعد شربه:

«الحمدلله الذي سقاني ماءاً عذباً ولم يجعله مِلحاً أجاجاً بذنوبي. الحمد لله الذي سقاني فأرواني وأعطاني فأرضاني وكافأني وعافاني وكفاني. اللهم اجعلني ممن تسقيه في المعاد من حوض محمد صلى الله عليه وآله وتسعده بمرافقته برحمتك يا أرحم الراحمين»[3].

ـ سجود الشكر ـ

يستحب السجود للشكر لتجدّد كل نعمة أو دمع نقمة أو تذكرهما مما كان سابقاً أو للتوفيق لأداء فريضة أو نافلة فيسجد عقيبهما. والأولى كونه آخر التعقيب، ويجوز فعله أثناء التعقيب، ويجوز القيام بسجدة الشكر بعد الصلاة بلا فصل.

ويستحب السجود للشكر لفعل خير ولو مثل الصلح بين اثنين.

ويكفي في سجود الشكر: مجرد وضع الجبهة مع النية، ويلزم إباحة المكان.

ولا يشترط في سجود الشكر: الذكر. لكنه يستحب أن يقول ثلاث مرات: «شكراً لله». ويستحب الزيادة بغير تحديد: أو يقول: «شكراً شكراً» ١٠٠ مرة و«عفواً عفواً» ١٠٠ مرة.

يجوز الاقتصار على سجدة واحدة، ويستحب أن يسجد مرتين، ويتحقق التعداد

---

(١) مستدرك الوسائل: ج١٦، ص٢٧٩، باب ٥٢.

(٢)،(٣) مستدرك الوسائل: ج١٧، ص١٢، باب ٧.

بالفصل بين السجدتين بتعفير الخدين أو هما مع الجبينين مقدّماً الخدَّ الأيمن على الأيسر ثم وضع الجبهة ثانياً.

والأحوط وضع الجبهة في سجدة الشكر على ما يصحّ السجود عليه ووضع سائر المساجد على الأرض ولا بأس بالتكبير قبلها وبعدها لا بقصد الخصوصية.

إذا حصل سبب لسجود الشكر وكان له مانع من السجود على الأرض فليؤمّ برأسه ويضع خدّه على كفّه، وإن كان راكباً فليضع خَدّه على قربوس السرج، فإن لم يقدر فعلى كفه.

ويظهر من بعض الأخبار تحقق سجود الشكر بوضع الخدّ فقط بدون الجبهة.

ـ السجود تعظيماً وتذللا لله ـ

يستحب السجود بقصد التذلّل والتعظيم لله تعالى بل السجود لله راجع في نفسه وعبادة من أعظم العبادات وآكدها. وما من عمل أشدّ على إبليس من أن يرى ابن آدم ساجداً. لأنه أمر بالسجود فعصى، وهذا أمر به فأطاع ونجا. وأقرب ما يكون العبد إلى الله وهو ساجد.

يستحب إطالة السجود، فإن إطالته من سنن الأوابين. ويحرم السجود لغير الله.

ـ صلاة الشكر ـ

ومن الصلوات المستحبة صلاة الشكر لله تعالى عند تجدّد النعم ودفع النقم وبعد قضاء الحوائج وهي ركعتان والأفضل أن يقرأ في الركعة الأولى بعد الحمد سورة الإخلاص سورة: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ وفي الركعة الثانية بعد الحمد سورة الجحد سورة: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ۝١﴾ [الكافِرون: الآية ١]، ويقول في ركوع الركعة الأولى وسجودها: «الحمد لله شكراً شكراً وحمداً حمداً» سبع مرات. وأن يقول في ركوع الركعة الثانية وسجودها: «الحمد لله الذي استجاب دعائي وأعطاني مسألتي».

ـ نموذج من نماذج الشكر ـ

وإذا أردت أن تعلم في أي مرتبة أنت من مراتب الشكر فاقرأ ما يلي:

سأل داود النبي، الله تعالى عن قرينه في الجنة، فأوحى الله إليه أنه: متى أبو يونس. فجاء مع سليمان لزيارته، فرأياه إذ أقبل، وعلى رأسه وقر من حطب. فباعه واشترى طعاماً، ثم طحنه وعجنه وخبزه، فأخذ لقمة وقال: بسم الله. فلما ازدادها، قال: الحمد لله، ثم فعل ذلك بأخرى وأخرى. ثم، شرب الماء فذكر اسم الله. فلما وضعه، قال: الحمد لله: يا ربِّ، من ذا الذي أنعمت عليه وأولَيته مثل ما أوليتني، قد صحّحتَ بصري وسمعي وبدني وقوّيتني حتى ذهبت إلى شجر لم أغرسه ولم أهتم لحفظه، جعلته لي رزقاً وسُقت إليَّ مَن اشتراه مني، فاشتريتُ بثمنه طعاماً لم أزرعه وسخّرت لي النار فأنضجته وجعلتني آكله بشهوة أقوى بها على طاعتك، فلك الحمد، ثم بكى.

قال داود، يا بنيَّ، قم، فانصرف بنا، فإني لم أرَ عبداً قط أشكر لله من هذا[1].

* * *

وختاماً يستشعر الإنسان عندما يقرأ آداب الشكر في الإسلام ويعمل بها، كيف أن العبد يتقرّب بالشكر إلى الله المتعال، وكيف يتحبّب إليه تعالى وينغمر في حبّه وكيف ترتفع نفسه بهذا الشكر إلى الملكوت الأعلى فتتجلّى له حقائق الكون والملكوت وكيف يبلغ مرتبة قاصيةً من التقرب إليه تعالى حتى يكون كأنه يرى الله علانية، وهو أجل من أن يرى[2]، ويرى نفسه إذ ذاك ذائبة في حبّ الله، منغمرة في عوالم القدس فرِحَة فرحاً لا تضاهيه أفرَاح هذه الدنيا الدنية، مسرورة سروراً لا يشبه المسرات المادية في شيء، بعيداً عن حدود الوصف والبيان، فيا لها من نعمة عظمى، لا تضاهيها أية نعمة!.

إن رجلاً هذه صفته وتلك ملكاته يعلم بل يوقن ـ بعد قطعه هذه المراحل القدسية ـ أن دين الإسلام هو دين الله في أرضه دين أنزله الله رحمةً للعالمين على لسان نبيه نبي الرحمة سيد الرسل وخاتم النبيِّين محمد صلى الله عليه وعلى آله الطيِّبين الطاهرين وإن ما عداه من الأديان الباقية على وجه البسيطة زائف منحرف لا روح فيه ولا صفاء.

---

(١) بحار الأنوار: ج١٤، ص٤٠٢، باب ٢٦.

(٢) يقول الإمام علي ﷺ: «لا تدركه العيون بمشاهدة العيان، ولكن تدركه القلوب بحقائق الإيمان».

﴿سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق﴾

«القرآن الكريم»

الأسماء المباركة
التي توسل بها نوح عليه السلام

ترجم عن الأوردو

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾
[التوبة: الآية ٣٢]

إن لمحمد ﷺ ولأهل بيته عليهم السلام مكانة عند الله تعالى لم يتوصل إليها أحد، ولم يعرف قدرها إلا الرسل والأنبياء المعصومون عليهم السلام.

فلقد دلت الأخبار الواردة عن أهل البيت عليهم السلام بأنّ الأنبياء توسلوا إلى الله تعالى بالخمسة أصحاب الكساء في ساعات المحن التي تعرضوا لها، فلقد توسل بهم آدم عليه السلام بعد خروجه من الجنة، ونوح عليه السلام عند الطوفان، وإبراهيم عليه السلام عندما ألقاه النمرود في النار وهكذا بقية الأنبياء عليهم السلام.

وقد أنجاهم الله تعالى من المحن التي تعرضوا لها بواسطة هؤلاء الخمسة المعصومين عليهم السلام.

وأخيراً ظهرت هذه الحقيقة نتيجة للبحث والتنقيب. حيث نشرت [البذرة] النجفية التي تصدرها ثانوية منتدى النشر الأهلية في عدديها الثاني والثالث بتاريخ شوال ـ ذي القعدة ١٣٨٥هـ بحثاً مترجماً عن كتاب إليا والذي نشرته دار المعارف الإسلامية بلاهور ـ (باكستان)[١].

---

(١) نقلاً عن ما نشرته الجمعية الخيرية الإسلامية بكربلاء.

أسماء مباركة (توسل بها نوح عليه السلام)

ـ مترجم عن الأوردية ـ

في تموز عام ١٩٥١م حينما كان جماعة من العلماء السوفيت المختصين بالآثار القديمة ينقبون في منطقة بوادي قاف عثروا على قطع متناثرة من أخشاب قديمة متسوسة وبالية مما دعاهم إلى التنقيب والحفر أكثر وأعمق فوقفوا على أخشاب أخرى متحجرة وكثيرة كانت بعيدة في أعماق الأرض.!!

ومن بين تلك الأخشاب التي توصلوا إليها نتيجة التنقيب خشبة على شكل مستطيل طولها ١٤ عقداً وعرضها ١٠ عقود سببت دهشتهم واستغرابهم حيث لم تتغير فلم تتسوس ولم تتناثر كغيرها من الأخشاب الأخرى.

وفي أواخر سنة ١٩٥٢ أكمل التحقيق حول هذه الآثار فظهر أن اللوحة المشار إليها كانت ضمن سفينة النبي نوح عليه السلام، وأنّ الأخشاب الأخرى هي أخشاب جسم سفينة نوح.

ومما يذكره المؤرِّخون أنّ سفينة نوح عليه السلام استوت على قمة جبل قاف. وشوهد أن هذه اللوحة قد نقشت عليها بعض الحروف التي تعود إلى أقدم لغة.

وهنا ألفت الحكومة السوفيتية لجنة بعد الانتهاء من الحفر عام ١٩٥٣ قوامها سبعة من علماء اللغات القديمة ومن أهم علماء الآثار هم: ـ

١ ـ سوله نوف أستاذ الألسن في جامعة موسكو.

٢ ـ ايفاهان خنيو عالم الألسن القديمة في كلية لولوهان بالصين.

٣ ـ ميشانن لو مدير الآثار القديمة.

٤ ـ تانمول گورف أستاذ اللغات في كلية كيفزو.

٥ ـ دي راكن أستاذ الآثار القديمة في معهد لينين.

٦ ـ ايم أحمد كولاد مدير التنقيب والاكتشافات العام.

٧ ـ ميجر كولتوف رئيس جامعة ستالين.

وبعد ثمانية أشهر من دراسة تلك اللوحة والحروف المنقوشة عليها:

اتفقوا على أن هذه اللوحة كانت مصنوعة من نفس الخشب الذي صنعت منه سفينة نوح عليه السلام وإن النبي نوح عليه السلام كان قد وضع هذه اللوحة في سفينته للتبرك والحفظ.

وكانت حروف هذه اللوحة باللغة السامانية وقد ترجمها إلى الإنكليزية العالم البريطاني ايف ماكس أستاذ الألسن القديمة في جامعة مانچستر وهذا نصها مع تعريبها:

O my God my helper	يا إلهي ويا معيني
Keep my hands with mercy	برحمتك وكرمك ساعدني
And with your holy bodies:	ولأجل هذه النفوس المقدّسة
Mohamed	محمد
Alia	إيليا
Shabbar	شبر
Shabbir	شبير
Fatma	فاطمة
They are all Biggest and Honourables	الذين هم جميعهم عظماء ومكرّمون
The world established for them	العالم قائم لأجلهم
Help me by their names	ساعدني لأجل أسمائهم
You can reform to Right	أنت فقط تستطيع أن توجّهني نحو الطريق المستقيم

وأخيراً بقي هؤلاء العلماء في دهشة كبرى أمام عظمة هذه الأسماء الخمسة ومنزلة

أصحابها عند الله تعالى حيث توسل بها نوح عليه السلام إليه تعالى.

واللغز الأهم الذي لم يستطع تفسيره أي واحد منهم هو عدم تفسخ هذه اللوحة رغم مرور آلاف السنين عليها. وهذه اللوحة موجودة الآن في متحف الآثار القديمة في موسكو.

﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ [فُصِّلَت: الآية ٥٣].

ورأيت بهذه المناسبة أن أنقل هنا بعض الأحاديث التي تناسب المقام بشأن أهل البيت الكرام عليهم أفضل الصلاة والسلام:

* * *

١ ـ أخرج أبو الحسن علي بن محمد المعروف بابن المغازلي الواسطي الشافعي في كتابه المناقب بسنده عن سلمان الفارسي، قال: سمعت حبيبي محمداً ﷺ يقول: كنت أنا وعلي نوراً بين يدي الله عزوجل يسبّح الله ذلك النور ويقدّسه قبل أن يخلق الله آدم بأربعة عشر ألف عام، فلمّا خلق آدم، أودع ذلك النور في صلبه فلم نزل أنا وعلي شيئاً واحداً حتى افترقنا في صلب عبدالمطلب، ففيَّ النبوة وفي عليّ الإمامة[١].

٢ ـ وعن أبي ذر، قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: كنت أنا وعلي نوراً عن يمين العرش بين يدي الله عزوجل يسبح الله ذلك النور ويقدّسه قبل أن يخلق آدم بأربعة عشر ألف عام، فلم نزل أنا وعلي شيئاً واحداً حتى افترقنا في صلب عبدالمطلب فجزء أنا وجزء عليّ[٢].

٣ ـ وفي المناقب عن إسحاق بن إسماعيل النيشابوري عن جعفر الصادق عن أبيه عن جده علي بن الحسين قال حدّثنا عمي الحسن، قال: سمعت جدي ﷺ يقول: خُلقت من نور الله عزوجل وخُلق أهل بيتي من نوري وخلق محبّوهم من نورهم وسائر الناس في النار[٣].

٤ ـ وقال رسول الله ﷺ: «إني تارك فيكم الثقلين، كتاب الله وأهل بيتي، وإنهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض»[٤].

---

(١)،(٢)،(٣) ينابيع المودة: ص١٠، الطبعة الأولى.

(٤) أخرجه الحاكم في ص١٤٨ من الجزء الثالث من المستدرك.

٥ ـ وقال ﷺ: «إني أوشك أن أدعى فأجيب. وإني تارك فيكم الثقلين، كتاب الله عزوجل وعترتي: كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض، وعترتي أهل بيتي، وإن اللطيف الخبير أخبرني انهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض، فانظروا كيف تخلفوني فيهما»[١].

وفي حديث آخر: «فلا تقدّموهما فتهلكوا، ولا تقصروا عنهما فتهلكوا، ولا تعلّموهم فإنهم أعلم منكم».

٦ ـ وقد قال ﷺ: «ألا إن مثل أهل بيتي فيكم مثل سفينة نوح، من ركبها نجا ومن تخلّف عنها غرق»[٢].

٧ ـ وقال ﷺ: إنما مثل أهل بيتي فيكم كمثل سفينة نوح، من ركبها نجا، ومن تخلّف عنها غرق، وإنما مثل أهل بيتي فيكم مثل باب حطة بني إسرائيل من دخله غفر له»[٣].

٨ ـ وأخرج الطبراني في الكبير والرافعي في مسنده بالإسناد إلى ابن عباس. قال: «قال رسول الله ﷺ: مَن سره أن يحيا حياتي، ويموت مماتي، ويسكن جنة عدن غرسها ربّي، فليوالِ عليّاً من بعدي، وليوالِ وليّه، وليقتدِ بأهل بيتي من بعدي، فإنهم عِترتي، خُلقوا من طينتي ورُزقوا فهمي وعلمي، فويلٌ للمكذِّبين لفضلهم من أمتي، القاطعين فيهم صلتي، لا أنالهم الله شفاعتي».

٩ ـ وأخرج مطيرو البارودي وابن جرير وابن شاهين، وابن منده، من طريق إسحاق، عن زياد بن مطرف، قال: «سمعت رسول الله ﷺ يقول: من أحبّ أن يحيا حياتي ويموت ميتتي ويدخل الجنة التي وعدني ربّي، وهي الجنة الخلد، فليتولّ علياً وذريّته من بعده، فإنهم لن يخرجوكم من باب هدى ولن يدخلوكم باب ضلالة»[٤].

١٠ ـ وقال ﷺ: «واجعلوا أهل بيتي منكم مكان الرأس من الجسد، ومكان العينين من الرأس. ولا يهتدي الرأس إلا بالعينين»[٥].

---

(١) أخرجه الإمام أحمد من حديث أبي سعيد الخدري.

(٢) أخرجه الحاكم بالإسناد إلى أبي ذر ص١٥١ من الجزء الثالث من صحيحه المستدرك.

(٣) أخرجه الطبراني في الأوسط عن أبي سعيد.

(٤) المراجعات، ص٥٦.

(٥) أخرجه جماعة من أصحاب السنن.

١١ ـ وقال ﷺ: «إلزموا مودّتنا أهل البيت، فإنه من لقي الله وهو يودّنا دخل الجنة بشفاعتنا، والذي نفسي بيده لا ينفع عبداً عملُه إلاّ بمعرفة حقنا»(١).

١٢ ـ وقال ﷺ: «معرفة آل محمد براءة من النار، وحُبَ آل محمد جواز على الصراط، والولاية لآل محمد أمان من العذاب»(٢).

١٣ ـ وقال ﷺ: لا تزول قدما عبد ـ يوم القيامة ـ حتى يسأل عن أربع: عن عمره فيما أفناه، وعن جسده فيما أبلاه، وعن ماله فيما أنفقه ومن أين اكتسبه وعن محبتنا أهل البيت(٣).

١٤ ـ وقال ﷺ: «فلو أنّ رجلاً صفن ـ صف قدميه ـ بين الركن والمقام. فصلّى وصام، وهو مبغض لآل محمد دخل النار»(٤).

١٥ ـ وقال ﷺ: «مَنْ مات على حُبِ آل محمد مات شهيداً، ألا وَمن مات على حبّ آل محمد مات مغفوراً له، ألا ومن مات على حبّ آل محمد مات تائباً، ألا ومن مات على حبّ آل محمد مات مؤمناً مستكمل الإيمان، ألا ومن مات على حبّ آل محمد يزف إلى الجنة كما تزف العروس إلى بيت زوجها، ألا ومن مات على حبّ آل محمد فتح له في قبره بابان إلى الجنة، ألا ومن مات على حبّ آل محمد مات على السُنَّة والجماعة، ألا ومن مات على بغض آل محمد جاء يوم القيامة مكتوباً بين عينيه: آيس من رحمة الله...»(٥).

١٦ ـ وقد قال أمير المؤمنين علي عليه أفضل الصلاة والسلام: «فأين تذهبون وأنى تؤفكون، والأعلام قائمة والآيات واضحة، والمنار منصوبة، فأين يُتاه بكم، بل كيف تعمهون وبينكم عترة نبيّكم وهم أزمّة الحق، وأعلام الدين، وألسنة الصدق، فأنزلوهم بأحسن منازل القرآن وردوهم ورود الهيم العطاش، أيها الناس خذوها من خاتم النبيّين ﷺ، إنه يموت من مات منا وليس بميت ويبلى من بلي منا وليس ببالٍ(٦)،

---

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط.

(٢)،(٣) أخرجه الطبراني.

(٤) أخرجه الطبراني والحاكم.

(٥) أخرجها الإمام الثعلبي في تفسير آية المودّة.

(٦) لبقاء روحه ساطعة النور في عالم الظهور، هكذا قال الشيخ محمد عبده وغيره.

فلا تقولوا بما لا تعرفون، فإن أكثر الحق فيما تنكرون، واعذروا من لا حجة لكم عليه وأنا هو. ألم أعمل فيكم بالثقل الأكبر وأترك فيكم الثقل الأصغر[١] وركزت فيكم راية الإيمان...»[٢].

١٧ ـ وقال عليه السلام: «أنظروا أهل بيت نبيكم، فالزموا سمتهم واتبعوا أثرهم، فلن يخرجوكم من هدى ولن يعيدوكم في ردى، فإن لبدوا فالبدوا وإن نهضوا فانهضوا، ولا تسبقوهم فتضلّوا، ولا تتأخروا عنهم فتهلكوا». وذكرهم عليه السلام مرة فقال: «هم عيش العلم وموت الجهل، يخبركم حلمهم عن علمهم، وظاهرهم عن باطنهم، وصمتهم عن حكم منطقهم، لا يخالفون الحق ولا يختلفون فيه، هم دعائم الإسلام، وولائج الاعتصام، بهم عاد الحق في نصابه، وانزاح الباطل عن مقامه، وانقطع لسانه عن منبته، عقلوا الدين عقل وعاية ورعاية لا عقل سماع ورواية فإن رواة العلم كثير ورعاته قليل»[٣].

١٨ ـ وقال عليه السلام في خطبة أخرى[٤]، «عترته خير العِتر، وأسرته خير الأُسَر، وشجرته خير الشجرة، نبتت في حرم وبسقت في كرم، لها فروع طوال، وثمرة لا تُنال».

١٩ ـ وقال عليه السلام[٥]: «نحن الشعار والأصحاب والخزنة والأبواب، ولا تؤتى البيوت إلا من أبوابها، فمن أتاها من غير أبوابها سمّي سارقاً... (إلى أن قال): (فيهم كرائم القرآن وهم كنوز الرحمن. إن نطقوا صدقوا، وإِن صمتوا لم يسبقوا) فليصدق رائد أهله، وليحضر عقله».

٢٠ ـ وقال عليه السلام[٦]: «نحن شجرة النبوّة ومحطّ الرسالة، ومختلف الملائكة، ومعادن العلم وينابيع الحكم، ناظرنا ومحبّنا ينتظر الرحمة وعدوّنا ومُبغضنا ينتظر السطوة».

٢١ ـ وقال عليه السلام: «أين الذين زعموا أنهم الراسخون في العلم دوننا كذبا وبغياً

(١) القرآن والعترة.
(٢) كما في صفحة ١٨٩ من النهج من الخطبة: ٩٣.
(٣) كما في صفحة ٢٥٩ من الجزء الثاني من النهج.
(٤) كما في صفحة ١٨٥ من الجزء الأول من النهج.
(٥) كما في صفحة ٥٨ من الجزء الثاني من النهج.
(٦) ص: ٣١٤ من الجزء الأول من النهج.

علينا أن رفعنا الله ووضعهم، وأعطانا وحرمهم، وأدخلنا وأخرجهم، بنا يُستعطى الهدى ويُستجلى العمى، إن الأئمة من قريش غرسوا في هذا البطن من هاشم لا تصلح على سواهم، ولا تصلح الولاة من غيرهم». إلى أن قال عمّن خالفهم: «آثروا عاجلاً وأخروا آجلاً وتركوا صافياً وشربوا آجناً...»[١].

٢٢ ـ وقال عليه السلام[٢]: «فإنه مَن مات منكم على فراشه، وهو على معرفة حق ربه وحق رسوله وأهل بيته، مات شهيداً ووقع أجره على الله واستوجب ثواب ما نوى من صالح عمله، وقامت النيّة مقام إصلاته لسيفه».

٢٣ ـ وقال عليه السلام: «نحن النجباء وأفراطنا أفراط الأنبياء، وحزبنا حزب الله عزّ وجلّ، والفئة الباغية حزب الشيطان، ومن سوّى بيننا وبين عدوّنا فليس منا»[٣].

ما علة وجودنا في هذا الكون

سؤال يتبادر إلى ذهن كثير من الناس. وكل يجيب حسب ما بلغت نفسه من مراتب التكامل. فإذا كان متوغلاً في المادة الصماء: في الشهوات والنزوات والملذّات غير المشروعة متبنياً المسلك المادي أو الفلسفة الحسيَّة، يقول:

إنما خلقنا للعناء والتزوُّد من الملاذ الدنيوية إلى أقصى حد ممكن وليس وراء ذلك شيء.

وإذا كان ممن صفت نفسه وصلحت سريرته وحسنت أعماله فيقول:

إنما خلقنا لنتكامل، فنزداد معرفة بالله تعالى لنذهب من هذه الدنيا الموقتة دار العمل والامتحان إلى حياة دائمة خالدة إلى روح وريحان إلى جنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين.

ثم يقول: إن الذي خلق السماوات وهذه الكواكب التي لا تعدّ ولا تحصى بهذه

---

(١) من كلام له عليه السلام صفحة ٣٦ من الجزء الثاني من النهج.

(٢) من كلام له عليه السلام صفحة ١٥٦ من الجزء الثاني من النهج.

(٣) في الصواعق ص: ١٤٢.

الدقّة التي لا يمكن استقصاؤها وبهذه المعادلات التي تتحكّم في حركاتها، هذه المعادلات والدساتير التي لم يبلغ الفلكيون إلا إلى جزء ضئيل منها، لا يخلق شيئاً عبثاً، وإن الغاية لتتناسب مع عظم الموجد وهو الله تعالى، فالغاية من خلقنا غاية رفيعة، سامية، غاية يريد بها تكميل هذه النفوس وتقريبها إلى الله المتعال، غاية يريد بها اختبار هذا الإنسان في هذه الفترة الزمنية من عالم الدنيا ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ﴾ [الأنفال: الآية ٤٢].

وهو القائل: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾﴾ [المُلك: الآية ٢].

إن الله تعالى قد وصف نفسه في آيات جمة (بالرحمن الرحيم)، وهو القائل: ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: الآية ١١٢]، فكل ما صدر عن الله تعالى، إنما هو لتكميل هذا البشر الناقص وإبلاغه أسمى مراتب الكمال البشري. وهو القائل: ﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [الأعراف: الآية ١٥٦].

وبديهي أنه لا يصدر من الرحمن الرحيم إلا الرحمة.

فخلقه تعالى لكل شيء رحمة ولطف، وأما خلقه الإنسان فرحمة ما بعدها رحمة، ولو علم الإنسان ما يبلغ إليه من مراتب رفيعة وقدسية فائقة ومقامات تفوق مقام الملائكة المقربين نتيجة الطاعة والامتثال لعلم أن خلقه من جانب الله رحمة لا تتناهى ولا تحد.

وقد قال جل من قائل: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات: الآية ٥٦]، فقد خُلقنا حسب قوله تعالى لعبادة الله تعالى، ذلك، لأنه بالعبادة تخشع النفس الإنسانية وتتطهر مما ألم بها من دنس ورجس فتكون قمينة بأن تحلَّ فيها معرفة الله تعالى. ذلك لأنّ معرفة الله لا تكون من نصيب النفوس التي مُلئت جوراً ونفاقاً، ملئت رجساً ودنساً، معرفة الله تعالى بحاجة إلى صقع زكي نقي لا كدر فيه ولا فساد. فالعبادة تأخذ بهذه النفس فتصقلها وتذهب بما بها من أدران. عند ذلك تتجلى فيها المعارف الإلهية.

وما إرسال الرسل إلاّ لتحقيق هذه المعرفة، معرفة الله تعالى وتركيز الحب الإلهي في النفوس وهو القائل ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فَاطِر: الآية ٢٤] .

وإن المعرفة الحقيقية والعلم الحقيقي أي المعارف الإلهية لا تحصل إلا نتيجة العبادة والتهجد والمثول بين يدي الله تعالى خاشعاً خاضعاً جوف الليل، وهو القائل: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْآخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ۝٩﴾ [الزمر: الآية ٩]، فما هو هذا العلم الذي لا يستوي فيه العالم والجاهل؟.

هو علم يترشّح من قنوت واستغفار جوف الليل، من قيام لوجه الله والناس نيام! فالعبادة بكل خشوع لها آثارها في النفوس وإبلاغها أسمى مراتب الكمال، وبدرجة هذا الكمال تتجلى المعارف الآلهية في النفوس وتتحقق سرّ الخلق وتظهر علة وجودنا في هذا العالم.

قال رسول الله ﷺ: «إن البيوت التي يصلّى فيها بالليل ويتلى فيها القرآن، تضيء لأهل السماء كما يضيء الكوكب الدرّي لأهل الأرض»(١).

ولا مراءَ أنه ما يتقرب العبد المؤمن بقربان أعظم عند الله وأفضل من صلاة الليل والتسبيح والتهليل بعدها، ومناجاة ربه العزيز الحميد والاستغفار من الذنوب وقراءة الأدعية الواردة في صلاة الليل وبعدها ببكاء وخشوع، ثم تلاوة القرآن إلى طلوع الفجر وإيصال صلاة الليل بصلاة النهار، (صلاة الفجر).

فإن من آثار صلاة الليل سعة الرزق في الدنيا من غير كد ولا تعب ولا نصب وبعافية شاملة في جسده، وأما في الآخرة فله النعيم في قبره من الجنة ويضاء قبره بنور صلاته تلك إلى يوم حشره وإن الله تعالى لا يحاسبه ويأمر الملائكة بإدخاله الجنة في أعلى عليين في جوار محمد وأهل بيته الطاهرين صلوات الله عليهم أجمعين، فيا لها من فرصة سانحة، ما أحسن عاقبتها إذا خلت من الرياء والعجب.

ولا مراء أن المواظبة على صلاة الليل تؤدّي بالفرد أن تكون أخلاقه سامية،

---

(١) أصول الكافي: ج٢، ص٤٩٨، باب ذكر الله عز وجل.

حميدة، تؤدّي به إلى مراقبة نفسه في كل أمر جزئي، لعلمه أن مخالفة بسيطة توجب حرمانه عن صلاة الليل ومناجاة ربه الجليل.

فقد روي: «إن الرجل يكذب الكذبة فيحرم بها صلاة الليل، فإذا حرم صلاة الليل حرم بذلك الرزق»[١].

فعلى الإنسان أن يتقدّم في معرفة الله تعالى وأن يعمل في تقوية هذه المعرفة والبلوغ إلى الغاية التي خلق لأجلها، فقد قال رسول الله ﷺ: «مَن استوى يوماه فهو مغبون، ومَن كان غده شراً من يومه فهو ملعون، ومن لم يتفقد النقصان في عمله كان النقصان في عقله، ومن كان نقصان في عمله وعقله فالموت خير له من حياته»[٢].

وليعلم هذا الإنسان أن لله ملكاً ينادي: يا أبناء الخمسين: زرع قد دنا حصاده! ويا أبناء الستين ماذا قدمتم لأنفسكم من العمل الصالح وماذا أخرتم من أموالكم لمن لا يترحّم عليكم! يا أبناء السبعين، عدّوا أنفسكم من الموتى! ليت الخلائق لم يخلقوا، وليتهم إذ خلقوا علموا لماذا خلقوا[٣].

فنحن خلقنا لمعرفة الله تعالى وفي الحديث القدسي: يقول الله تعالى: «كنت كنزاً مخفياً فأحببت أن أُعرف، فخلقت الخلق لكي أُعرف». وإن معرفة الله تعالى تجر بالفرد إلى جنة عرضها السماوات والأرض وهو القائل: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أُعِدَّتۡ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٢١﴾﴾ [الحَديد: الآية ٢١].

فهذه المعرفة التي قالها الإنسان في هذه الدنيا نتيجة العمل الصالح والعبادة الخالصة (بجميع أنواعها) لوجهه الكريم: أكرم الوجوه وأعز الوجوه، تكون نوراً يهدي هذا الإنسان إلى روح وريحان، إلى جنات عدن. وهو قوله تعالى:

﴿يَوۡمَ تَرَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ يَسۡعَىٰ نُورُهُم بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَبِأَيۡمَٰنِهِم بُشۡرَىٰكُمُ ٱلۡيَوۡمَ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿١٢﴾﴾ [الحَديد: الآية ١٢].

---

(١) تهذيب الأحكام: ج٢، ص١٢٢، باب ٨، ح٢٣١.
(٢) بحار الأنوار: ج٦٨، ص١٧٣، باب ٦٤، ح٥.
(٣) إرشاد القلوب: ج١، ص٨٧، باب ٢٢.

فلا قيمة لهذه الدنيا، لأنها دار من لا دار له ولها يعمل من لا عقل له[١]، **إلا إذا** كان يريد بعمله هذا وجه الله تعالى وخدمة الآخرين لوجه الله والأخذ بيد المحتاجين والبائسين جلباً لمرضاة الله، وإنما هذه الفترة الدنيوية التي نحن فيها هي فترة عمل لنيل المعارف الإلهية وحصول اليقين نتيجة تزكية النفس وعبادة خالصة وأخلاق كريمة والقيام بحوائج الناس وخدمة الوالدين وصلة الأرحام ومساعدة المعوزين ونشر معالم الدين، دين الإسلام الحنيف في أرجاء العالم والتضحية في هذا السبيل. فإنّ لكل عمل صالح أثره الفعال في ازدياد معرفة الفرد بالله تعالى، لينال مرتبة اليقين بفضله. ومن يبلغ تلك المرتبة التي بلغها إمامنا علي عليه أفضل الصلاة والسلام حيث يقول: «لو كشفت لي الغطاء ما ازددت يقيناً».

فلنكن من أولئك المتفكّرين الذين يجعلون هذه الآية المباركة دستوراً لعملهم في هذه الحياة الدنيا وهو قوله جل من قائل:

﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [يونس: الآية ٢٤].

ولا بأس بذكر ما قاله الإمام علي عليه السلام كدستور للزهد ليقتدي به مَن مَنَّ الله عليه فأبعده عن زينة الدنيا وزبرجها، وإن هذا الإبعاد والانصراف عن زخارف الدنيا رحمةً من رحمات الله، إنه عليه الصلاة والسلام يقول:

«والله لقد رقعت مدرعتي هذه، حتى استحييت من راقعها، وقال لي قائل: «ألا تنبذها»، فقلت أعزب عني، فعند الصباح، يحمد القوم السرى»[٢].

وقال عليه السلام: الزاهدون في الدنيا ملوك الدنيا والآخرة والراغبون فيها فقراء الدنيا والآخرة[٣].

* * *

(١) كما جاء في منطوق حديث.

(٢) نهج البلاغة: ص٢٢٧.

(٣) إرشاد القلوب: ج١، ص٢٠، باب ٢.

وبعد أن علمنا أن علة وجودنا في هذه الدنيا في هذه الفترة الزمنية إنما هي معرفة الله تعالى: بدرجة ما تبلغ إليه النفس من مراتب الكمال والتكامل، يجدر بنا أن نذكر ما يؤدّي إلى هذه المعرفة التي هي غاية الغايات:

(١) العبادة بجميع ما في العبادة من معانٍ مختلفة. ومنها الأعمال الصالحة وقضاء حوائج الناس.

(٢) إرشاد الناس وهدايتهم إلى الإسلام العظيم والمجاهدة في هذا السبيل والتضحية إلى أبعد الحدود.

(٣) الزهادة في هذه الدنيا.

(٤) الكون بين الخوف والرجاء.

(٥) الصمت إلا عما يفيد الناس من وعظ وإرشاد.

(٦) المبادرة إلى التوبة بجميع أنواع التوبة[١].

(٧) ذكر الله على كل حال والتوكل عليه والبكاء من خشية الله لا سيما جوف الليل والتسليم والرضا بما أراد الله والقناعة والصبر على النوائب ومراقبة النفس الأمارة بالسوء. فقد قال النبي ﷺ لبعض أصحابه: «أعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فهو يراك».

(٨) الإكثار من الشكر بأنواع الشكر وأن يقول كل يوم ٣٦٠ مرة: الحمد لله رب العالمين.

(٩) حسن الخلق والجود والسخاء فيما يحبه.

(١٠) الابتعاد عن الرياء والحسد والبخل والكبر، فإنها من أصول الكفر.

واختم هذا المقال بهذه الموعظة التي لا تثمن لعظمتها وكثرة فوائدها ونسأل الله أن نتّعظ ونعمل بمضمونها كي نزداد معرفة بالله تبارك وتعالى ونبلغ الغاية التي أوجدنا الله لأجلها، وذلك هو الفوز المبين.

أوصى رسول الله معاذ بن جبل[٢]. فقال له: أُوصيك بتقوى الله وصدق الحديث

---

(١) ذكرنا ذلك في الجزء الثاني من كتاب التكامل في الإسلام.

(٢) من كتاب: إرشاد القلوب، للديلمي عليه الرحمة ص٨٩.

وأداء الأمانة وخفض الجناح والوفاء بالعهد وترك الخيانة وحسن الجوار وصلة الأرحام ورحمة الأيتام ولين الكلام وبذل السلام وحسن العمل وقصر الأمل وتوكيد الإيمان والتفقه في الدين وتدبر القرآن وذكر الآخرة والجزع من الحساب وكثرة ذكر الموت، ولا تسب مسلماً ولا تطع آثماً، ولا تقطع رحماً، ولا ترضَ بقبيح تكن كفاعله، واذكر الله عند كل شجر ومدر وبالأسحار وعلى كل حال يذكرك، فإن الله تعالى ذاكر من ذكره وشاكر من شكره، وجدّد لكل ذنب توبة، السر بالسر والعلانية بالعلانية».

«واعلم أن أصدق الحديث كتاب الله، وأوثق العرى التقوى، وأشرف الذكر ذكر الله تعالى، وأحسن القصص القرآن، وشر الأمور محدثاتها وأحسن الهدى هدى الأنبياء ﷺ، وأشرف الموت الشهادة، وأعمى العمى الضلالة بعد الهدى، وخير العلم ما نفع، وشر العمى عمى القلب، واليد العليا خير من اليد السفلى، وما قلّ وكفى خير مما كثر وألهى، وشر المعذرة عند الموت وشر الندامة يوم القيامة، ومن أعظم خطايا اللسان الكذب، وخير الغنى غنى النفس وخير الزاد التقوى، ورأس الحكمة مخافة الله تعالى في السر والعلانية، وخير ما ألقي في القلب: اليقين».

«وإن جماع الإثم الكذب والارتياب، والنساء حبائل الشيطان، والشباب شعبة من الجنون وشر الكسب الربا، وشر المآثم أكل مال اليتيم، والسعيد من وعظ بغيره، وليس لجسم نبت على الحرام إلا النار، ومن تغذّى بالحرام فالنار أولى به، والسكينة مغنم وتركها مغرم. وعلى العاقل أن تكون له ساعة يناجي فيها ربه وساعة يتفكر فيها في صنع الله وساعة يحاسب فيها نفسه، وساعة يتخلى فيها لحاجته من حلال، وعلى العاقل أن لا يكون ساعياً إلا في ثلاث، تزود لمعاد ومرمة لمعاش ولذة في غير محرم، وعلى العاقل أن يكون بصيراً بزمانه، مقبلاً على شأنه، حافظاً للسانه».

تلك هي أصول الكمالات التي يتحلّى بها الإنسان ليكون أعلى مرتبة من الملائكة وليعلم بعد ذلك سر وجوده في هذه الدنيا، فيشكر الله تعالى على عظيم ما منَّ وجزيل ما أنعم، ولا موفّق إلا الله، ولا راحم إلا هو.

﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾﴾ [يونس: الآية ١٠٧].

أثر الآلام في تكامل النفس

سؤال[١]: هل صحيح أن الآلام التي يعانيها الإنسان ترجع إلى أن الحرية لم تتحقق بعد على الوجه الأكمل ولماذا؟

الجواب:

لا علاقة بين ما يعاني الإنسان من آلام وبين تحقق الحرية على الوجه الأكمل. الإنسان حر في حدود معينة عينها الشرع، حر شريطة أن لا يتعدى على بني نوعه، والله هو القائل: ﴿فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ [البَقَرَة: الآية ١٩٤] وقد جاء الإسلام بشريعة سمحاء ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾ [الحج: الآية ٧٨].

وقد قال عز من قائل: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البَقَرَة: الآية ١٨٥].

وإن الميول البشرية والشهوات الطاغية والأطماع غير المشروعة تؤدّي إلى الضغط على حريّات الآخرين وهذا الضغط بدوره يؤدي إلى آلام وأحزان، فيظن من لا يزن الأمور بميزان الشرع الشريف، أنّ هناك ضغطاً على الحرية، وأنّ الحرية لم تتحقق، بل بالعكس، إن الحرية كل الحرية في إعطاء الحق للآخرين كي يتمتعوا بحرياتهم في حدود مشروعة.

إنه تعالى يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ﴾ [الانشقاق: الآية ٦].

فالإنسان متعب في هذه الدنيا لنيل سعادة الآخرة، وشيء من سعادة الدنيا. وقد وجد هذا الإنسان كي يقطع هذه المراحل الدنيوية بنجاح ويذهب إلى عالم الخلود مع طهارة نفسية ونفس قدسية، وقد جاء في الحديث: «الدنيا مزرعة الآخرة». «الدنيا دار عمل ولا حساب والآخرة دار حساب ولا عمل» والعمل فيها لا يخلو من المشاق والمتاعب والآلام ولابد لهذا الإنسان أن يتحمّل هذه المشاق والآلام لينال سعادة

---

(١) السائل المحترم هو علي حسان الشوملي ـ بغداد ـ بياع رقم الدار: ٨٨/ ١٤.

أبدية. ففي الحديث حُفَّت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات.

فإذا كان الخلو عن الآلام هو الحرية فهذا محال لإنسان يريد أن يقطع المراحل الدنيوية التي تؤدّي إلى ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، إلى ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عِمرَان: الآية ١٣٣] .

فالحرية المنطقية التي يرتضيها الله لعباده هي حرية محدودة بحدود الشرع؛ وإن هذه الحرية المحدودة لابدّ وأن يرافقها كثير من الآلام والأحزان. إذ تصطدم هذه الحرية بحريَّات الآخرين فلا تتحقق ويؤدي عدم التحقق إلى آلام يظن أنها ترجع بالمآل إلى عدم تحقق الحرية بصورة كاملة على وجه الأرض.

فما نراه من شذوذ جنسي واستهتار علني وهتك للحرمات وإغراء وإفساد في عالم الغرب ليس من الحرية المشروعة في شيء . . . وإنما هو إفساد في الأرض. ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٠٥] ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُۥنَ ﴿١٨﴾﴾ [السَّجدَة: الآية ١٨] .

فآراء بعض فلاسفة أوربا مستقاة من بيئة أوربا الموبوءة بأنواع الفسوق والعصيان، ولا قيمة لهذه الآراء في ميزان الشرع والفلسفة الإسلامية الحقة، ذلك لأنّ فلسفة الإسلام الحقة آتية من وراء المادة، من جانب الله تعالى، خالق هذا البشر والعالم بطبائعهم، وما يصلحهم ويفسدهم. فلسفة ناصعة حقة، لا شائبة فيها ولا اضطراب، ولا يعلم حقيقة ذلك إلا من صفت نفسه، وتزكى باطنه. وأين الفيلسوف الغربي المربّى في أحضان المادة الصماء من هذا الصفاء الباطني والتزكية النفسية.

﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾ [الحَجّ: الآية ٤٦] .

فالآلام رحمة من الله تعالى على عباده، يكفّر العبد بها عن ذنوبه ويتزكى بها من أدرانه وأوساخه ليذهب من هذه الدنيا نقي الثوب، طاهر الضمير. وفي الحديث:

«إذا أحب الله عبداً ابتلاه ليسمع تضرعه»، وفي حديث قدسي عن الله تعالى حيث يقول: «أنين المذنبين أحبّ إليّ من تسبيح المسبحين».

وعن أبي عبدالله عليه السلام وعنده: سدير، قال: «إن الله إذا أحبّ عبداً غته بالبلاء غتا.

وإنا وإياكم يا سدير، لنصبح به ونمسي»[١].

وعن أبي عبدالله عليه السلام «ما من مؤمن إلا وقد وكّل الله به أربعة: شيطاناً يغويه، يريد أن يضلّه، وكافراً يغتاله، ومؤمناً يحمده وهو أشدّهم عليه ومنافقاً يتبع عثراته»[٢].

فالمؤمن في هذه الدنيا مسلوب الراحة، ممتحن لا محالة وهو في اجتيازه الامتحانات يتطهّر ويتزكّى. وهو القائل: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾﴾ [الشّمس: الآيتان ٩/ ١٠].

واختم هذا المقال بهذا الحديث العظيم فليعتبر المتعبرون:

قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «ما تجرع عبد قط جرعتين أحب إلى الله من جرعة غيظ ردّها بحلم، وجرعة مصيبة يصبر الرجل لها. ولا قطرت قطرة أحب إلى الله تعالى من قطرة دمع في سواد الليل وهو ساجد ولا يراه إلا الله. وما خطا عبد خطوتين أحب إلى الله تعالى من خطوة إلى الصلاة الفريضة وخطوة إلى صلة الرحم».

فلسفة الهدى والضلال

إن موضوع الهدى والضلال لَمن أهم المواضيع التي يجب أن يعنى به الإنسان ويهتم به غاية الاهتمام. لأنه قضية حياة ومماة بالنسبة إلى هذا الإنسان. ولا أظن أن هناك موضوعاً يُهمُ هذا الإنسان كهذا الموضوع. وهو القائل: ﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾ [النّمل: الآية ٩٢].

﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾ [يُونس: الآية ١٠٨].

﴿مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾﴾ [الإسرَاء: الآية ١٥].

﴿وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾﴾ [العَنكبوت: الآية ٦].

---

(١) أصول الكافي: ج٢، ص٢٥٣، باب شدّة ابتلاء المؤمن.

(٢) أصول الكافي: ج٢، ص٢٥١، باب ما أخذه الله على المؤمن.

﴿وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ [فَاطِر: الآية ١٨] .

﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ [الزُّمَر: الآية ٤١] .

﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فُصّلَت: الآية ٤٦] .

وإن الله تعالى قد أتمّ على عباده الحجة بأن غرس فيهم أصول المعارف الآلهية وألهمهم ما يدنس النفس الإنسانية وما يزكّيها، إتماماً للحجة على جميع الناس، من بَلغته دعوة الأنبياء ﷺ ومن لم تبلغه الدعوة. وقد أخذ الله على العباد اعترافهم بربوبيّته ووحدانيّته في عالم الذرّ وعالم الأرواح وذلك بقوله جلّ من قائل:

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ [الأعراف: الآيتان ١٧٢/ ١٧٣] .

فكل نفس من النفوس البشرية قالت: بلى... في عالم الذر عندما سألهم ربنا المتعال: «ألستُ بربكم» وإنما فعل الله ذلك: لئلا يقول قائل: يا ربنا، لِمَ أدخلتنا نار جهنم وقد كنا غافلين عن هذا الأمر، أو يقول: لا ذَنْبَ لنا، والذنب ذنب آبائنا الذين أشركوا قبلنا، وقد كنا ذرية ضعفاء من بعدهم، فلا ينبغي أن تُهلكنا بذنوب غيرنا.

وقد غرس الله تعالى أيضاً أصول الهداية في النفس الإنسانية. فالإنسان لولا ذنوبه وآثامه يهتدي بصورة فطريّة نحو الله المتعال والأعمال الصالحة، وهو القائل:

﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾ فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴿١١﴾﴾ [البَلد: الآيتان ١٠/ ١١]؟ أي إن الله هدانا في عالم الأرواح وبصورة فطرية إلى طريقي الخير والشر أي إنه أعلمنا طريقي الخير والشر، لتسلك طريق الخير ونجتنب طريق الشر فلا عذر للمعتذر إن ضلّ عن الطريق السويّ إنما يسلك الطريق المعوج لسوء اختياره واتباعه أمر الشيطان الغاوي وقد نهاه الله عن ذلك وحذّره أيّما تحذير: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٦﴾﴾ [فَاطِر: الآية ٦] .

فالإنسان بصورة فطرية يتوجّه إلى الله المتعال، حتى وإن نما وترعرع في محل ناءٍ

بعيد عن كل إنسان، وهو القائل: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الرُّوم: الآية ٣٠].

وقد ألهم الله عباده ما يؤدّي إلى سعادتهم وشقائهم، أي غرس فيهم أصول السعادة والشقاء فهو يقسم بالشمس والقمر والنهار والليل والسماء والأرض والنفس، ثم يقول بعد أقسام عدة: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨﴾ [الشّمس: الآية ٨]، أي إن الله تعالى قد ألهم النفس الإنسانية قبل أن تحلَّ في هذا البدن ما به التقوى وما به الفجور. إتماماً للحجة: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ﴾ [الأنعام: الآية ١٤٩]. وقد فعل الله ذلك: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌ﴾ [النِّساء: الآية ١٦٥].

وفي الحديث: «كل مولود يولد على الفطرة». فالفطرة تسوق الإنسان إلى الاعتراف بالله تعالى وتوحيده وتقديسه، إلا أن ما اجترحته الأيدي من المظالم والموبقات تتجسّم في نفسه وتكون حجاباً حاجزاً دون رؤية الحق وهو القائل: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ [الأنعام: الآية ٢٥]. «وغيروا كل آية لا يؤمنوا بها». وهذه الأكنة أو الأغطية هي الذنوب والآثام، فهي تضاد الفطرة وتغطيها فلا تعمل الفطرة إذ ذاك عملها، فيؤدّي إلى الشكوك والريب أولاً ثم إلى ظلمات بعضها فوق بعض ثم إلى الإلحاد والشرك بالله!!...

وقد قال عزّ من قائل: ﴿كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓا۟ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٣٣﴾ [يُونس: الآية ٣٣].

﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ ۝٩٩﴾ [البَقَرة: الآية ٩٩].

«ثم إن هؤلاء الفاسقين يعدون تعاليم السماء أساطير، تسليةً لنفوسهم وتقويةً لضلالهم». ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝٢٥ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ۝٢٦﴾ [الأنعام: الآيتان ٢٥/٢٦].

وكم لهذه الآية المباركة من مصداق في يومنا هذا في عالم الآباء والأولاد: ﴿وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِىٓ أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِى وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ ٱللَّهَ وَيْلَكَ ءَامِنْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٧﴾ [الأحقاف: الآية ١٧].

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُوا۟ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ ۙ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾﴾ [الأنفال: الآية ٣١]. ﴿قَالُوٓا۟ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [المؤمنون: الآيتان ٨٢/ ٨٣].

فالتاريخ يعيد نفسه، فإن رأينا في زماننا هذا استهزاءً بالمقدسات، فلقد استهزئ بها من ذي قبل، ذلك لأنّ الشيطان كان يرافق الإنسان منذ أن خُلق والنفس الأمّارة بالسوء كانت تعمل عملها. وهو القائل: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾﴾ [الأنعام: الآية ١٠].

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١١﴾ كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٢﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الحجر: الآيات ١٠/ ١٣].

فالإجرام يكون حجاباً حاجزاً دون رؤية الحق ومانعاً عن الاعتراف بالله وكتبهِ ورسله واليوم الآخر.

وقد قال رسول الله ﷺ: «لولا أن الشياطين يحومون إلى قلوب بني آدم لنظروا إلى ملكوت السماوات والأرض»(١) ولكن الله تعالى منعنا عن اتباع إغواءات الشيطان وأضاليله وليس للشيطان سبيل على الصلحاء من عباده: وهو القائل: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [الحجر: الآية ٤٢]. فمن تحققت فيه العبودية لله فلا سلطان للشيطان عليه. وهو القائل أيضاً: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾﴾ [الإسراء: الآية ٦٥] ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ [النّحل: الآيات ٩٨/ ١٠٠].

فمن توكل على الله فهو حسبه وهو من الناجين. فالدنيا دار غربلة وامتحان. فطوبى للفائزين في هذا الامتحان العالمي، الامتحان الإلّهي، ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ [آل عِمران: الآية ١٨٥].

﴿۞ لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ

(١) بحار الأنوار: ج٥٦، ص١٦٣، باب ٢٣.

وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ أَذٗى كَثِيرٗاۚ وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ﴿١٨٦﴾﴾ [آل عِمرَان: الآية ١٨٦] .

فالعزم كل العزم أن يصبر الإنسان في النوائب والمصائب والكوارث وأن يتقي الله في شهواته ونزواته. ويحق للتربية الحديثة أن توجه العزم نحو طاعة الله والصبر والتقوى. لينال الفرد سعادة النشأتين. إذ أنّ تربية العزم في الأمور الماديّة فحسب دون الالتفاف إلى التقوى ونبذ الشهوات تربية فاشلة خاسرة. إنه تعالى يقول:

﴿قُلۡ هَلۡ نُنَبِّئُكُم بِٱلۡأَخۡسَرِينَ أَعۡمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعۡيُهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ يُحۡسِنُونَ صُنۡعًا﴾ [الكهف: الآيتان ١٠٣/ ١٠٤].

إن الله تعالى لعظيم رفده وجليل رحمته قد نبهنا ما للشيطان من عداوة فاحشة مع عباده وقد عهد إلينا أن لا نعبد الشيطان وأن لا نطيعه في إغواءاته وتسويلاته وهو القائل: ﴿۞ أَلَمۡ أَعۡهَدۡ إِلَيۡكُمۡ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعۡبُدُواْ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴿٦٠﴾﴾ [يس: الآية ٦٠] وقد أرانا الله الطريقة التي بها نتمكن من التخلص من كيد الشيطان ومكره وهي أن لا نعمى ولا نغفل عن ذكر الله وإطاعة الله، فإذا ذكر الله فرّ الشيطان من وجهه ويئس من كيده ومكره وهو قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعۡشُ[1] عَن ذِكۡرِ ٱلرَّحۡمَٰنِ نُقَيِّضۡ لَهُۥ شَيۡطَٰنٗا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٞ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمۡ لَيَصُدُّونَهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحۡسَبُونَ أَنَّهُم مُّهۡتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيۡتَ بَيۡنِي وَبَيۡنَكَ بُعۡدَ ٱلۡمَشۡرِقَيۡنِ فَبِئۡسَ ٱلۡقَرِينُ ﴿٣٨﴾﴾ [الزخرف: الآيات ٣٦/ ٣٨] وكم نرى ممن تثقف بثقافة العصر يحسب نفسه قد بلغ مرتبةً قاصيةً من الكمال، حين أنه ألعوبة بيد الشيطان لعنه الله وقد صدّه عن سبيل الهداية وما يوصله إلى عقبى محمودة وجنّة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين.

* * *

فالشيطان يلعب دوراً خطيراً في إغواء هذا الإنسان وجعله من أصحاب النار. وأول عمل يقوم به: هو إبعاده عن ذكر الله وقد يوحي إليه أن ذكر الله خرافة يتلهى به العاطلون والعاجزون! يوحي إليه أنّ الغربيِّين بلغوا ما بلغوا من هذا الرقي المادي دون

---

(١) يعشو: يتعامى ويعرض لفرط اشتغاله بالدنيا.

اللجوء إلى ذكر الله، وهل لرجل العصر في يومنا هذا من الوقت مع تزاحم الأعمال ليذكر الله تعالى؟!

وقد سمعت من أحدهم وهو يستهزئ بالذاكرين ربهم أوقات فراغهم، يقول: ما فائدة: (بس بس) ويريد بذلك قولَ المؤمن: «سبحان الله، سبحان الله...». إنه كان يريد أن يجاري المتحضرين بحضارة العصر ويماشي ما هم عليه من أغفال ذكر الله، ذلك لأنك ترى: أن في ضيافات كبيرة وموائد عامرة يجلس عليها رجال العصر الحاضر لا يذكرون الله ولا يشكرونه، ولعلّ من يريد ذكر الله، وقد بقي لديه صبابة من إيمان، يخجل ممن يتّهمه بالرجعية أو الخرافة! نعم، أصبحنا في عصر أمسى فيه شكر المنعم خرافة! وهو القائل:

﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾ [الرحمن: الية ٦٠]، ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾﴾ [الأنعام: الآية ١١٦].

وكم كنت أرى رجالاً من المؤمنين وأنا طفل صغير لا يفترون عن ذكر الله تعالى، كانوا: ذبل الشفاه من ذكر الخالق المتعال.

ففي الحديث: «ما من قوم قعدوا في مجلس ثم قاموا فلم يذكروا الله عزّوجلّ فيه إلا كان حسرة عليهم يوم القيامة»(١).

وقال رسول الله ﷺ: «اتق المحارم تكن أعبد الناس، وارض بما قسم الله لك تكن أغنى الناس وأحسن إلى جارك تكن مؤمناً وأحب للناس ما تحب لنفسك تكن مسلماً، ولا تكثر من الضحك، فإن كثرة الضحك يميت القلب»!.

فترك الذكر يؤدي إلى هجوم الشيطان وهجوم الشيطان يؤدّي إلى الضلال وسوء العاقبة. ﴿وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيْطَٰنُ لَهُۥ قَرِينًا فَسَآءَ قَرِينًا﴾ [النساء: الآية ٣٨]. ولذلك حثنا الله تعالى على ذكره جلّ جلاله في آيات جمّة، منها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾﴾ [الأحزاب: الآيتان ٤١/ ٤٢].

ولا شك أن ذكر المنعم وهو الله، وتسبيحه وتقديسه من كمال العقل، فالذاكرون

---

(١) وسائل الشيعة: ج٥، ص٢٥٠، باب ٤٣، ح٨٩٨٣.

ربهم جلّ جلاله في حالات شتى هم أولوا الألباب.

إنه تعالى يقول:

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٩١﴾﴾ [آل عِمران: الآيتان ١٩٠/ ١٩١].

وهو القائل: ﴿وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ﴾ [البَقَرَة: الآية ١٩٨].

وإن في ذكر الله تعالى بإخلاص انجذاباً روحياً بين العبد والمعبود، يشعر به من اتخذ التقوى شعاراً واختلى بربه جوف الليل يريد وجهه بكل انقطاع وابتهال، وهو القائل:

﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ﴾ [الزُّمَر: الآية ٢٣].

ما أعظم ما وعد الله عباده، بقوله: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ [البَقَرَة: الآية ١٥٢].

وقد جاء في بعض الكتب السماوية:

«أهل ذكري في ضيافتي وأهل طاعتي في نعمتي، وأهل شكري في زيادتي، وأهل معصيتي لا أؤينّهم من رحمتي، إن تابوا فأنا حبيبهم وإن مرضوا فأنا طبيبهم، أداويهم بالمحن والمصائب لأطهّرهم من الذنوب والمعايب»(١).

وفي الحديث: «من أكثر ذكر الله عزوجل أظلّه الله في جنّته». وعن أبي عبدالله عليه السلام: قال: إن الله عزوجل يقول: من شغل بذكري عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي من سألني(٢).

وقال عليه السلام: إن العبد ليكون له الحاجة إلى الله عزوجل، فيبدأ بالثناء على الله والصلاة على محمد وآل محمد حتى ينسى حاجته فيقضيها الله له من غير أن يسأله إياها(٣).

وفي حديث آخر: قال الله عزوجل لعيسى عليه السلام: «يا عيسى اذكرني في نفسك

(١) إرشاد القلوب للديلمي: ص١٠٢.

(٢)،(٣) أصول الكافي: ج٢، ص٥٠٢، باب ذكر الله عز وجل.

أذكرك في نفسي. واذكرني في ملائي أذكرك في ملاء خير من ملاء الآدميين، يا عيسى، ألِن لي قلبك وأكثر ذكري في الخلوات واعلم أن سروري أن تبصبص إليّ وكن في ذلك حيّا ولا تكن ميّتاً»[١].

وعن أبي عبدالله عليه السلام قال: «الذاكر لله عزوجل في الغافلين كالمقاتل في المحاربين»[٢].

وقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله، ذاكر الله في الغافلين كالمقاتل عن الفارين والمقاتل عن الفارين له الجنة»[٣].

وكان رسول الله صلى الله عليه وآله إذا أصبح قال: «الحمد لله رب العالمين كثيراً على كل حال، ٣٦٠ مرة، وإذا أمسى قال مثل ذلك»[٤].

وعن أبي عبدالله عليه السلام: قال: من قال: أربع مرات إذا أصبح: الحمد لله رب العالمين، فقد أدى شكر يومه، ومن قالها إذا أمسى، فقد أدى شكر ليلته[٥].

وفي الحديث: «أكثروا من التهليل والتكبير فإنه ليس شيء أحب إلى الله عزوجل من التهليل والتكبير»[٦].

وعن أمير المؤمنين عليه السلام: التسبيح نصف الميزان والحمد لله يملأ الميزان والله أكبر يملأ ما بين السماء والأرض[٧].

وعن رسول الله صلى الله عليه وآله: خير العبادة قول: «لا إله إلا الله».

ومع ذكر الله يندحر الشيطان وييأس من إغواء المؤمن الذاكر.

ولهذا نهى الإسلام عن كل عائق عن ذكر الله كالغناء ومجالس اللهو والسهر في الباطل، إلى ما هنالك، ففي الحديث: «الغناء مجلس لا ينظر الله إلى أهله».

فأساس الضلال هو اتباع هذا الشيطان، فقد قال الله تعالى:

﴿إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾ لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَقَالَ

---

(١)،(٢) أصول الكافي: ج٢، ص٥٠٢، باب ذكر الله عز وجل.

(٣)،(٤)،(٥)،(٦) أصول الكافي: ج٢، ص٥٠٦، باب التسبيح والتهليل.

(٧) أصول الكافي: ج٢، ص٥٠٦.

لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾﴾ [النِّساء: الآيات ١١٧/ ١٢٠].

وفي آية أخرى: ﴿وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ [النِّساء: الآية ٦٠].

فالناس فريقان: مهتدٍ وضالّ. والضلال إنما يأتي من اتباع إغواءات الشيطان لعنه الله، ولا سلطةَ له علينا، إنما مهمته الدعوة والإغواء، فلا جبر في المقام.

وقال الشيطان:

﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ ۖ﴾ [إبراهيم: الآية ٢٢].

والمهتدي من لم يطع الشيطان في إغواءاته وخشي الله تعالى في خلواته وجميع حالاته.

وهو القائل:

﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ ۗ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الأعراف: الآية ٣٠].

وإن الصلاة المقبولة نوع ذكرِ لله تعالى وأداء لواجب الشكر وهي التي تبعّد عن هذا الإنسان الشيطان ووساوسه: «إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر. ولذكر الله أكبر». وعن ابن عباس: «من لم تأمره صلاته بالمعروف وتنهه عن المنكر لم يزدد بصلاته من الله إلا بعداً»(١). إلا أنّ المواظبة على الصلاة تجر الفرد إلى أن ينتهي عن السيّئات يوماً ما. فقد روى أنه قيل لرسول الله ﷺ: إنّ فلاناً يصلّي بالنهار ويسرق بالليل، فقال: «إن صلاته لتردعه».

وإن الصلاة رأس الحسنات وهي ماحية للسيّئات لقوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَىِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾﴾ [هُود: الآية ١١٤].

ولا سبيل لهذا الشيطان على المخلصين من عباد الله وهو القائل:

---

(١) تفسير القمي: ج٢، ص١٥٠، في تفسير سورة العنكبوت.

﴿وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ لَا إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾﴾ **والمخلصون هم المومنون حقاً** الذين أخلصوا لله ولم تتخلّل عبادتهم أية شائبةٍ من رياء وعجب وطمع.

ولا شك أنّ الصلوات الخمس المفروضة تذكّر هذا الإنسان بعوالم الآخرة ومراتب التقوى، ففي الحديث: «الصلاة صابون الخطايا» أي إن الصلاة المقبولة تكون سبباً لمحو الذنوب وتصفية النفس من أدرانها وأوساخها فتكون قمينة لمعرفة الله تعالى.

وإن «ذكر الله عزّ وجلّ حسن على كل حال»(١) كما جاء في الحديث.

وفي حديث آخر: «يا موسى، إن ذكري حسن على كل حال»(٢) وعن أبي عبدالله عليه السلام: «ما من شيء إلا وله حد ينتهي إليه إلا الذكر، فليس له حد ينتهي»(٣).

وقال عليه السلام: «شيعتنا الذين إذا خلوا ذكروا الله كثيراً»(٤).

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «من أكثر ذكر الله عزوجل أحبه الله ومن ذكر الله كثيراً كتبت له براءتان: براءة من النار وبراءة من النفاق»(٥).

وإن تسبيح فاطمة الزهراء عليها السلام من الذكر الكثير الذي قال الله عزوجلّ: ﴿ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: الآية ٤١](٦).

وقد جاء في آداب التخلي، من المستحبات: أن يقال عند الدخول: «اللهم إني أعوذ بك من الرجس النجس الخبيث المخبث الشيطان الرجيم»(٧).

وأن يقول بعد التخلي: «اللهم ارزقني الحلال وجنبني الحرام»(٨).

وأن يقول عند رؤية الماء: «الحمد لله الذي جعل الماء طهوراً ولم يجعله نجساً»(٩).

وأن يقول عند الاستنجاء: «اللهم حصّن فرجي وأعِفّه واستر عورتي وحرّمني على النار ووفقني لما يقرّبني منك يا ذا الجلال والإكرام»(١٠).

وأن يقول عند الفراغ من الاستنجاء: «الحمد لله الذي عافاني من البلاء وأماط عني الأذى»(١١).

---

(١)، (٢)، (٣)، (٤)، (٥)، (٦) أصول الكافي: ج٢، ص٤٩٩، باب ذكر الله كثيراً.

(٧)، (٨) الكافي: ج٣، ص١٦، باب القول عند دخول الخلاء.

(٩)، (١٠)، (١١) الكافي: ج٣، ص٧٠، باب النوادر.

فإذا أراد هذا الإنسان أن ينجو من مكائد الشيطان ويتخذ سبيل الرشد سبيلاً: أن يكثر من ذكر الله وأن يدعو الله للتخلص من كيد الشيطان ومكره في مواطن يستجاب فيها الدعاء.

فعن أبي عبدالله عليه السلام: يستجاب الدعاء في أربعة مواطن: في الوتر وبعد الفجر وبعد الظهر وبعد المغرب. وقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «خير وقت دعوتم الله عزوجل فيه: الأسحار»[1].

وعن علي بن إبراهيم: عن أبيه، عن أبي عمير، عن عمر بن أذينة قال سمعت أبا عبدالله عليه السلام يقول: «إن في الليل لساعة ما يوافقها عبد مسلم ثم يصلي ويدعو الله عزوجل فيها إلا استجاب له في كل ليلة، قلت: أصلحك الله، وأيّ ساعة هي من الليل؟ قال: إذا مضى نصف الليل وهي السدس الأول من أول النصف[2].

وإن للبكاء والتضرُّع أثرهما في استجابة الدعاء والسير في سبيل الهدى والابتعاد عن طرق الضلال. ففي الحديث: «إن أقرب ما يكون العبد من الرب عزوجل، وهو ساجد باكٍ[3].

فعن أبي عبدالله عليه السلام: قال: «ما من عين إلا وهي باكية يوم القيامة إلاّ عيناً بكت من خوف الله، وما اغرورقت عين بمائها من خشية الله عزوجل إلا حرّم الله عزوجلّ سائر جسده على النار ولا فاضت على خدّه فرهق ذلك الوجه قتر ولا ذلّة وما من شيء إلا وله كيل ووزن إلا الدمعة، فإن الله عزوجل يطفئ باليسير منها البحار من النار، فلو أنّ عبداً بكى في أمة لرحم الله عزوجل تلك الأمة ببكاء ذلك العبد»[4].

فطوبى للبكائين الفائزين إلى جنات عدن، وهي غاية الغايات من وجود هذا الإنسان في هذه الدنيا الموقتة. وقد وصفهم الله تعالى بقوله: ﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ

---

(١) أصول الكافي: ج٢، ص٤٧٧، باب الأوقات والحالات.
(٢) أصول الكافي، ج٢، كتاب الدعاء، ص٤٧٨.
(٣) أصول الكافي، ج٢، كتاب الدعاء، ص٤٨٣.
(٤) أصول الكافي، ج٢، كتاب الدعاء، ص٤٨٢.

﴿وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩ (١٠٩)﴾ [الإسراء: الآية ١٠٩].

﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا ۚ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَٰنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩ (٥٨)﴾ [مريم: الآية ٥٨].

* * *

ولا شك أنّ بذكر الله تعالى يتفتح القلب ويذهب عنه صدأ الذنوب والقساوة الناشئة من الظلم والآثام فيلين أكثر فأكثر إلى ذكر الله في جميع الحالات فيكون مصداق هذه الآية الكريمة:

﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ [الزُّمَر: الآية ٢٣].

وإن المواظبة على الذكر يؤدّي إلى انشراح القلب بنور الإيمان وهو نور يمن الله به على الذاكرين من عباده الأبرار:

﴿أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ ۚ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٢٢)﴾ [الزُّمَر: الآية ٢٢].

ونستجير بالله من مرض القلب ومن قسوة القلب، فهما حجابان حاجزان عن رؤية الحق والواقع، وأساسهما الظلم والإثم.

إنه تعالى يقول:

﴿لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ (٥٣)﴾ [الحجّ: الآية ٥٣].

وقد يكون القلب بالمعاصي والآثام أقسى من الحجارة وهو قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٧٤)﴾ [البَقَرَة: الآية ٧٤].

* * *

اختلف الناس من حيث العقيدة في مسألة الهدى والضلال، كل حسب تكامله وصفاء نفسه.

فمن الناس من يقول: (١) لو شاء الله لاهتديت، ولكنت رجلاً صالحاً. (٢) وإن الله هو الذي أراد بي ما أنا فيه من عصيان وغواية.

ويستدل لمقاله الأول بقوله تعالى: ﴿لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ [الرّعد: الآية ٣١]. ﴿يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [النّحل: الآية ٩٣] و ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [إبراهيم: الآية ٤].

ويستدل لقوله الثاني: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ [الكهف: الآية ٢٨].

﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝٢٣﴾ [الجاثية: الآية ٢٣].

﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ [الأنعام: الآية ٢٥].

(٣) ومن الناس من لا ينسب إلى الله تعالى إلا الخير. مستدلاً بهذه الآية المباركة: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ [النّساء: الآية ٧٩].

(٤) ومن الناس من ينْسب إلى الله تعالى الخير والشرّ معاً، ويستدل بقوله تعالى: ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ [النّساء: الآية ٧٨]. وبقوله: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الإنسَان: الآية ٣٠].

(٥) ومن الناس من يحضر رحمة الله تعالى في إعطاء الأموال، فإذا حرم منها اتهم الله في سلطانه ونسب إليه تعالى عدم العدالة فيما وهب الناس واستدلّ: بقوله تعالى: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ﴾ [الزّخرُف: الآية ٣٢]. ﴿وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ۝١٦﴾ [الفجر: الآية ١٦]. ﴿يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾ [الرّعد: الآية ٢٦].

(٦) ومن الناس من يقول بعدالة الله تعالى وإنه قسم ما قسم بحكمة ما بعدها

حكمة ومنح كلاً من عباده فوق ما يستحق وأعطاه بمقدار ما فيه صلاح نفسه وحسن عاقبته وسعادته الأخروية. ويستدل على ذلك بقوله تعالى: ﴿۞ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾﴾ [الشورى: الآية ٢٧].

﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴿٧﴾﴾ [العلق: الآيتان ٦/٧].

ويستدلّ بالحديث القدسي: «وإنَّ من عبادي من لا يصلحه إلا الفقر، ولو صرفته إلى غيره لهلك»(١).

(٧) ومن الناس من يرى أنّ الله إنما يجزي عباده حسب أعمالهم ويستدلّ بالآية: ﴿إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الطور: الآية ١٦]. ﴿لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ﴾ [طه: الآية ١٥]. ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِى مَن شَكَرَ﴾ [القمر: الآية ٣٥]. ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ﴾ [فاطر: الآية ٣٦]. ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ﴾ [طه: الآية ١٢٧].

(٨) ومن الناس من يرى أن الله تعالى قد يعذب المحسنَ فيدخله جهنَم! وقد يثيب العاصي فيدخله الجنة. ويستدل بقوله تعالى: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنبياء: الآية ٢٣].

(٩) ومن الناس من لا يرى ما يراه الفريق الثامن ويقول أن عدالة الله وحكمته الفائقة تأبيان ذلك ويستدل بقول الله تعالى: ﴿لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٧﴾﴾ [الأنبياء: الآية ١٧].

وبقوله: ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾﴾ [غافر: الآية ٤٠].

(١٠) ومنهم من يقول: قد كتب في اللوح المحفوظ ما سيقع إلى يوم القيامة وإن علم الله أزليّ لا يقبل التغيير وثابت لا يمحى والله عالم بما سيقع، فلا محيص من تحقق هذا العلم ووقوع ما سُطر في اللوح المحفوظ، فالإنسان مضطر إلى ما يصدر منه ويستدل بقوله تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ﴾ [الحديد: الآية ٢٢].

---

(١) أصول الكافي: ج٢، ص٣٥٢، باب من آذى المسلمين.

(١١) ومنهم من يقول عكس ذلك: إن الله أجل وأعلى من أن ينهى عن الفسق ثم يحقِّق الفسق كرهاً وجبراً على يد عبد من عباده ثم يعاقبه ويدخله الجحيم، فالإنسان مختار في ما يختاره وحرّ فيما يعمل ويرتكب وأنه يعاقب ويثاب في حدود ما أعطي له من اختيار. ويستدل بقوله تعالى:

﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [الدخان: الآيتان ٣٨/ ٣٩].

* * *

وإنما جاءت هذه الاختلافات في العقيدة على ما أعتقد من تفاوت في صفاء النفوس ودرجة كمالها فإن العقيدة مرآة النفس من حيث الصفاء والكدورة.

ثمّ إن النفس في أية درجة كانت تستدل على صحة ما ذهبت إليه بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية مؤوّلةً إياها تأويلاً يؤدي إلى صحة ما تعتقد ظاهراً تاركة بعضها دون بعض أو دون عرض بعضها على البعض الآخر لتثبت ما ذهبت إليه من عقيدة. حين أن القرآن يفسر بعضه بعضاً وكذلك الأحاديث النبوية وما أثر عن المعصومين عليهم السلام، فلا يصل الدَور إلى التأويل وترك جزء من آية والتمسك بجزء آخر منها بغية تقوية مذهب من المذاهب، أي لا حاجة إلى التأويل مع وجود نصوص كافية توضح لنا السبيل.

ولنَعُدْ لنقد المذاهب المذكورة واختيار المذهب الحق على ضوء ما جاء في القرآن كله دون اللجوء إلى التأويل، جاعلين العقل الإنساني حكماً في صحة ما نذهب إليه:

(١) أما قول القائل: لو شاء الله لاهتديت، وإن ما أنا فيه من ضلال إنما هو بإرادة الله، ولولا إرادة الله لكنت من الهادين، فنقول: ردّاً عليه:

إن الله وهو الكامل على الإطلاق قد خلق كل ما خلق من جماد ونبات وحيوان في غاية الكمال. وخلق الإنسان وقد أودع فيه أسس الهداية والمعارف الآلهية. بقوله تعالى في عالم الذرّ: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ [الأعراف: الآيتان ١٧٢/ ١٧٣]. فكل منّا قد اعترف بوحدانيته تعالى في عالم الذرّ، قبل

أن تلج هذه الأرواح في الأبدان، ولا يجوز عند الانحراف (الناتج عن آثامنا) أن نتذرع بدين آبائنا وشركهم وأن نقول، قد انحرفنا كما انحرف آباؤنا من قبل. فليس لأحد أن يقول في هذا المقام: ﴿بَلْ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الزخرُف: الآية ٢٢]. بل كلٌّ منا مسؤول يوم القيامة، بما أودع الله فيه من جذور الاعتراف به تعالى وبالمعارف الإلهية وبالنبوة والإمامة على حدّ قوله جلّ من قائل: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾﴾ [البَلَد: الآية ١٠] أي طريقي الخير والشر وقوله: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾﴾ [الشَّمس: الآيتان ٧/٨].

فقول المشركين: «وقال الذين أشركوا لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء نحن ولا آباؤنا» قول عارٍ عن الصحة، لأن الله تعالى لا يحبّ الفساد، وهو القائل: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٠٥]. وبقوله: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾﴾ [ص: الآية ٢٨] ولا خطيئة أعظم من خطيئة الشرك، فإن خطيئة الشرك لا تغفر أبداً وهو القائل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النِّساء: الآية ٤٨].

فكل من لم تبلغه الرسالة، كمن هو في (آلاسكا) مثلاً، فقد أودع في قرار نفسه جذور التوحيد وأسس الأعمال الصالحة والأعمال الفاسدة والأخلاق التي يرتضيها الله تعالى والتي لا يرتضيها، فهو مسؤول تجاه ربه، بعقله، ﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ﴾ [الأنعَام: الآية ١٤٩].

كل ذلك، ليتكامل هذا الإنسان: إما بعقله، لو كان من الذين لم تبلغهم الدعوة، وإما باتباع أوامر الأنبياء عليهم السلام إن كان من الذين بلغته الدعوة، ولذلك كله، قد جعل الله أول من خلق: آدم عليه السلام نبياً، كي يسبق أمر الهداية (لأهميته) خلق من خلق من أناسي، من ذكر وأنثى. كي تكون لله تعالى على الناس الحجة البالغة، فلا لهوَ في عالم الخلق ولا اختلال. وهو القائل: ﴿لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٧﴾﴾ [الأنبيَاء: الآية ١٧].

فالذي يزيغ عن الصراط إنما يزيغ من جراء ما تقوم به نفسه من معاصي وآثام

وظلم وإجرام وعقوق[1] وأكل الحرام إلى ما هنالك.

إنه تعالى يقول: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ [الصَّف: الآية ٥].

فهؤلاء الذين زاغوا، إنما زاغوا لفسقهم، وإن أعمالهم السلبية كانت سبباً لزيغهم وانحرافهم.

ولقد قست قلوبهم من جراء بخلهم وعدم إعطائهم حقوق الأرحام والفقراء والمساكين فصارت لا تهتدي إلى الصراط المبين. فقسوة القلب تؤدي إلى العمى والعمى يؤدّي إلى الضلال.

وحاشا، أن الله، وهو مُريد الكمال لهذا الإنسان، أن يُزيغ أحداً، ذلك لأنّ الكامل على الإطلاق وهو الله لا يصدر منه إلا الكمال، والزيغ يضادّ الكمال وهذا ما لا يصدر عن الكامل وهو الله تعالى. إذن الفرد هو الذي يقوم بتلويث نفسه بأنواع الفسوق، فتزيغ النفس بأمره تعالى، ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلُۚ﴾ [الأحزاب: الآية ٣٨]. وأنّ الله تبارك وتعالى إنما يزيغ قلوب هؤلاء عن اتباع الصراط السويّ لعلمه أنهم بلغوا مرتبةً من التسافل لا تفيد معهم أية هداية، إنهم أصبحوا أمواتاً وجرثومة فساد. وهو القائل: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُسۡمِعٖ مَّن فِي ٱلۡقُبُورِ﴾ [فَاطِر: الآية ٢٢].

ذلك لأنّ الله تعالى، قبل أن يسدّ على هؤلاء أبواب الهداية قد هيّأ لهم فرصاً كثيرة وأرسل إليهم مرشدين متعدِّدين، هيأ لهم كل ما يمكن أن يعتبروا ويتّعظوا به، إلا أنهم أبوا وخالفوا بدلاً من أن يستجيبوا وصاروا يستهزئون: ﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَيَسۡخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۘ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢١٢].

وحاشا أن الله يضلّ من يضل إلا لأنه أصبح في درجة من التسافل لا تفيد معه أية نصيحة وأي توجيه ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٞ مُّرۡتَابٌ﴾ [غافر: الآية ٣٤] ﴿ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡۖ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلۡبِ مُتَكَبِّرٖ جَبَّارٖ ﴿٣٥﴾﴾ [غافر: الآية ٣٥] وفي آية أخرى: ﴿وَأَنَّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ هُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ [غافر: الآية ٤٣] وفي آية أخرى: ﴿وَلَقَدۡ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ءَايَٰتِۢ بَيِّنَٰتٖۖ وَمَا

---

(١) عقّ الولد والده: عصاه وترك الشفقة عليه والإحسان إليه واستخفّ به فهو عاق.

يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٩٩﴾﴾ [البَقَرَة: الآية ٩٩] .

فترون أن هذه الآيات البينات كلها تجعل فعل الإنسان الذي كان باختياره سبباً حقيقياً للضلال والزيغ والانحراف.

وأما قوله تعالى: ﴿لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ [الرّعد: الآية ٣١] فيشير إلى مدى قدرته تعالى ولكن الله لا يشذّ عن سنة سننها، ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ﴾ [الأنفال: الآية ٤٢] .

وقوله جل من قائل: ﴿يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [النّحل: الآية ٩٣] يفسره قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [يُونس: الآية ٤٤] ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: الآية ٤٩] . ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ﴾ [غافر: الآية ٣١]. ﴿وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ﴿٢٠٨﴾ ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٠٩﴾﴾ [الشُّعراء: الآيتان ٢٠٨/ ٢٠٩]، ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾﴾ [فُصّلت: الآية ٤٦] . فالله جلّ أن يلهو، فيشاء ما به فساد العالم، فيقرب العاصي ويبعد المطيع. وهو الذي نهى عن الفساد بقوله: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [الأعراف: الآية ٥٦] وقوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾﴾ [البَقَرَة: الآية ١١] . فالله تعالى إنما يسدّ أبواب الهداية، على مَن أصبح جرثومة فساد لا يفيد معه الإصلاح. فمعنى قوله تعالى: ﴿يُضِلُّ مَن يَشَآءُ﴾ [الرّعد: الآية ٢٧] ، أي يسد على من أمسى مجموعة فسوق وإجرام أبواب الهداية والرشاد، حتى يلقى جزاءه. وبديهي أنّ الله قد فتح له أبواب الهداية والرشاد مرات ومرات وأرسل إليه من يهديه ويرشده مراتٍ ومرات ولكنّه زاد تعنتاً وفساداً وإفساداً في الأرض. فلا يصلحه إلا النار!.

* * *

٢ ـ وأما قول القائل: إن الله هو الذي أراد بي الغواية والضلال، فهو في غاية الضلال، إنه تعالى يقول: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الأعراف: الآية ٢٨] . ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّى

﴿بِٱلْقِسْطِ﴾ [الأعرَاف: الآية ٢٩] . . . ولا شك أن الضلال أساسه الفحشاء، والفحشاء يودّي إلى ظلمات في النفس والظلمات مؤدّية إلى الضلال والعمى، وبما أنّ الله تعالى قد نهى عن الفحشاء فقد نهى بذلك عن الغواية والضلال.

وأما قوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ [الكهف: الآية ٢٨] . فالله تعالى جلّ أن يغفل قلب أحد عن ذكره إلا بعد إتمام الحجة عليه بأنواع متعددة وتماديه في غيه وفساده وإفساده وعصيانه، بحيث لا تفيد معه أي إصلاح وأية نصيحة حتى يكون مصداق هذه الآية: ﴿وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ﴾ [الأنعَام: الآية ٢٨] .

حاشا أن الله تعالى يسدّ على أحد أبواب الهداية حتى يكون الفرد هو الذي يسدّ على نفسه أبواب الرشاد بأنواع الفسوق والآثام وذلك لطغيانه وعدم انتهائه عن غلوائه مع تعدد مراتب الإرشاد والنصيحة من ضمير يؤنّبه ومحيط يرشده ومؤثراتٍ أخرى لا تعد ولا تحصى.

وأما قوله تعالى: ﴿بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ ۖ﴾ [الرُّوم: الآية ٢٩] . دليل واضح على أنّ الظلم كان سبباً لاتباع الأهواء واتباع الأهواء كان سبباً للغواية والضلال، فهذه مراتب طبيعية رتبها الله وسنها، ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾﴾ [الأحزَاب: الآية ٦٢] . فلا مفر منها. فإن الله تعالى قد هداه بصورة فطرية إلى معالم التوحيد وما يقربه إليه، لكنه خالف وظلم وأفسد، فتراكمت عليه ذنوبه حتى كان مصداق هذه الآية: ﴿ثُمَّ كَانَ عَـٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَـٰٓـُٔوا۟ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾﴾ [الرُّوم: الآية ١٠] فصار لا يؤمن بالبعث وبنار جهنم حتى يكون في يوم هو المخاطب لهذه الآية: ﴿أَفَسِحْرٌ هَـٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾﴾ [الطُّور: الآية ١٥] .

وإن قوله تعالى: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَـٰسِقِينَ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٦] . ﴿ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَـٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٧] دليل على أن الفسق هو سبب الضلال والانحراف عن الصراط السويّ.

وإن غير الفاسق فسائر نحو مراتب التكامل قاطعاً مساره التكاملي، لأنه لم يهدم آثار الفطرة بفسوقه وفجوره. ولذلك كل ما جاء من نظم ودساتير في الدين الإسلامي يعمل في سد طرق الفسق وزوايا الفجور حفظاً لسلامة الفطرة التي فطر الله الناس عليها.

وكم رأينا آباءاً متديّنين ابتلوا بأولاد منحرفين لم تفد فيهم نصائح الآباء وشفقتهم وعطفهم وازدادوا تعنّتاً وجفاءاً، فلم يَرَ الآباء بدّاً إلا أن ينفصلوا عن أبنائهم ويتركوهم وشأنهم، فهل الآباء والحالة هذه مسؤولون عن انحراف الأبناء بعد إتمام الحجة عليهم مرات ومرات، كذلك الحال دونما تشبيه بالنسبة إلى هداية الله العباد وإتمام الحجة عليهم بأن أودع في نفوسهم فطرةً تسوقهم إلى العمل الصالح وتنفرهم عن العمل السيّئ، وتلهمهم الخير وما هو شر وإرساله الرسل مبشّرين ومنذرين ثم ابتلائه إياهم مرات بما ينبّههم على خطاياهم وتهيئته لهم ما يعتبرون به، ولكن كل ذلك لم يؤثر، بل ازداد هؤلاء طغياناً وظلماً وعُتوا، وأوجبوا على أنفسهم النار.

وأما قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ [الأنعام: الآية ٢٥] فقد جاء في صدر الآية: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ [الكهف: الآية ٥٧] أي أن الله تعالى قد ذكر هذا المنحرف بآياته مراراً ومراراً ولكنه أبى وامتنع عن الطاعة لما قدمت يداه من إجرام وفسوق. فلا يجتمع الإجرام مع الإسلام على حد قوله تعالى: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [القلم: الآيتان ٣٥/ ٣٦] فالله تعالى يتمّ الحجة أولاً ثم إذا لم ينته المجرم عن إجرامه يعذّبه بما يستحق من العذاب ويخفض هذا العذاب تخفيضاً يتناسب مع رحمته. ذلك لأنّ عذاب الله أقل دائماً من المقدار الذي يستحقه المجرم بدرجات. وهو القائل: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَـٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾﴾ [الإسراء: الآيتان ١٥/ ١٦] فالله لا يعذب أحداً حتى يتم الحجة ببعث الرسل، ولا يهلك قرية ظالمة إلا بعد أن يرسل أنبياء ورسلاً مبشّرين ومنذرين، فيأمرون المترفين منهم، لأنهم أكثر الناس إفساداً في الأرض، يهدونهم ويعظونهم. أما من بلغ من الترف والفسق مرتبةً قاصية حتى صار جرثومة فساد وإفساد، لا يؤثر فيه الوعظ ولا النصيحة

ولا ينتهي عما هو فيه، يستحق العذاب بعد إتمام الحجة ويحق عليه القول، فيدمّر بإذن الله تعالى، وجل الله أن يأمر المترفين بالفسق وهو ينهى عنه. وهو القائل:

﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾﴾ [التّوبَة: الآية ١١٥].

وهذه الآية صريحة في أن الله لا يظلم فرداً من الأفراد حتى يبيِّن لهم ما به التقوى والصلاح بأنواع البيان. وجلّ الله أن يظلم فرداً من الأفراد وهو غني عنهم والفرد هو الذي يُغوي نفسه ويرديها بسوء عمله ويبعدها عن ساحة القدس بسوء اختياره وإطاعته أوامر الشيطان الذي قد عرفه الله إياه بقوله: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ [فَاطِر: الآية ٦].

نعم، قلّ من ينسب النقص إلى نفسه إذا تردى وتسافل بسوء عمله، إلا المتقين التائبين الذين اتخذوا التقوى شعاراً والورع دثاراً وعملوا في تكميل نفوسهم وإرجاعها إلى الفطرة بعد الانحراف.

«إن الله تعالى يحبّ النفس الآخذة بالتكامل بعد الانحراف»: النفس اللوامة التي تلوم ذاتها لما أسلفت من معاصٍ وآثام حتى أنه تعالى يقسم بها إجلالاً لشأنها وذلك بقوله: ﴿وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾ [القِيَامَة: الآية ٢] فتكون هذه النفس: «النفس اللوامة» موضع غاية الله ورفده، وهو القائل: ﴿إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [فَاطِر: الآية ٣٠]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [الشّورى: الآية ٢٣]، ﴿وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ﴾ [التّغَابُن: الآية ١٧].

* * *

٣ ـ قلنا إن قسماً من الناس لا ينسب إلى الله المتعال إلا الخير. وكل ما هو في صالح هذا الإنسان ودليله على ذلك: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ۚ﴾ [النِّساء: الآية ٧٩].

وهذا القول هو القول الصحيح من بين جميع الأقوال والمزاعم الباطلة. لأن الله تعالى غنيّ عن خلقه غني عن ظلمهم وعن إغوائهم وهو الذي منع عن الظلم وأرسل هداةً مهديّين لهداية الناس أجمعين: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فَاطِر: الآية ٢٤].

وإن لله على الناس (كما في الحديث) حجتين، حجة باطنة وهي العقل وحجة ظاهرة

وهم الأنبياء والمرسلون، فعن الإمام الكاظم عليه السلام: «إن لله على الناس حجتين، حجة ظاهرة وحجة باطنة، فأما الظاهرة فالأنبياء والرسل وأما الباطنة فالعقول»[١]. كل ذلك ليهتدي هذا الإنسان إلى الطريق الذي يؤدّي به إلى جنة عرضها السماوات والأرض أعدّت للمتّقين. فمن لم تبلغه الرسالة إنما يؤاخذ بما يمليه عليه عقله. فـ (العقل ما عُبد به الرحمن واكتسب به الجنان)... الحديث... فكل ما يصدر عن الله تعالى إنما هو خير محض، يدرك ذلك من صَفت نفسه وتقرّب إلى الله المتعال بأعمال صالحة، ولكن النفس التي لم تنلْ قسطها من الكمال تظنّ أن تعتقد أنّ الشر (كذلك) من الله تعالى، حين أن الآلام والبلايا والنوائب وكلّ ما يكرهه هذا الإنسان ليس بشر في واقع الأمر وإنما هو تطهير وتكفير وامتحان واختبار وزيادة في الدرجات.

وهو القائل: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾ [الرُّوم: الآية ٣٦].

فهناك أحاديث جمّة تدل على أن البلايا والنوائب إنما هي رحمات من جانب الله لتطهير النفوس من أدرانها وأوساخها ولتقطع مراتب الكمال في هذا السير الدنيوي لتذهب إلى آخرة سعيدة ولا درن عليها. ذلك، لأنّ الدين الإسلامي بما فيه من تعليمات وأحكام وعقود وإيقاعات مُزَكٍّ لهذه النفوس مبلّغ إيّاها أعلى مراتب الكمال.

ومن الروايات المشهورة قوله صلى الله عليه وآله: «الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر» فيتراءى لمن يجهل حكمة الوجود أن السجن معناه الشر، بل نعيم الآخرة أو الحياة السرمدية السعيدة متوقّف على أن تكون الدنيا سجناً للمؤمن، يُطهّر فيها نفسه، فتسير في مدارج الكمال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ ۝٦﴾ [الانشقاق: الآية ٦].

وفي حديث آخر: «إن الله عزوجل إذا أحبَّ عبداً غتّه بالبلاء غتّا»[٢].

وعن الإمام الصادق عليه السلام: إنما المؤمن بمنزلة كفة الميزان، كلما زيد في إيمانه زيد في بلائه[٣].

---

(١) أصول الكافي: ج١، ص١٥، كتاب العقل والجهل.

(٢) غته: غمه، غت الشيء في الماء = غطّه، غمسه.

(٣) أصول الكافي: ج٢، ص٢٥٣، باب شدّة ابتلاء المؤمن.

وعن الإمام الباقر عليه السلام: إن الله عزوجل ليتعاهد المؤمن بالبلاء كما يتعاهد الرجل أهله بالهديّة من الغيبة ويحميه الدنيا كما يحمي الطبيب المريض[١].

وعن الإمام الصادق عليه السلام: قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: لا حاجة لله فيمن ليس له في ماله وبدنه نصيب[٢].

وفي العلل عن علي بن الحسين عن أبيه عليه السلام: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «ولو كان المؤمن على جبل لقيّض الله عزوجل له من يؤذيه ليأجره على ذلك»[٣]. فهذا ليس بأذى وإنما زيادة في الدرجات.

وفي كتاب التمحيص عن الإمام الصادق عليه السلام: قال: لا تزال الهموم والغموم بالمؤمن حتى لا تدع له ذنباً[٤].

وعنه عليه السلام: قال: لا يمضي على المؤمن أربعون ليلة إلا عرض له أمر يحزنه يذكّر به[٥].

وقال الإمام علي عليه السلام في نهج البلاغة: لو أحبّني جبل لتهافت[٦].

وقال عليه السلام: «مَن أحبّنا أهل البيت فليستعدّ للبلاء جلباباً»[٧].

وقد جاء في شرح النهج مما قاله ابن أبي الحديد: قد ثبت أنّ النبي صلى الله عليه وآله قال لعلي عليه السلام: «لا يحبّك إلا مؤمن ولا يبغضك إلا منافق». وقد ثبت أنّ النبي صلى الله عليه وآله: قال: إن البلوى أسرع إلى المؤمن من الماء إلى الحدور[٨].

وتدلّ الأحاديث المذكورة: أنّ المؤمن كلما كان أقرب إلى الله تعالى كانت بليّته أعظم.

ففي الكافي بإسناده عن عبدالرحمن بن الحجاج: قال: ذكر عند أبي عبدالله عليه السلام: البلاء وما يخصّ الله به المؤمن، فقال: سئل رسول الله صلى الله عليه وآله: من أشد الناس بلاءاً في الدنيا؟

---

(١)،(٢) أصول الكافي: ج٢، ص٢٥٣، باب شدّة ابتلاء المؤمن.

(٣) علل الشرائع: ج١، ص٤٤، باب ٤٠.

(٤)،(٥)،(٦)،(٧) كتاب التمحيص المطبوع مع كتاب تحف العقول: ص٣٠.

(٨) شرح نهج البلاغة: ج١٨، ص٢٧٥.

فقال: النبيّون، ثم الأمثل فالأمثل، ويبتلى المؤمن بعد على قدر إيمانه وحسن أعماله، فمن صحّ إيمانه وحسن عمله اشتدّ بلاؤه ومن سخف إيمانه وضعف عمله قلّ بلاؤه[1].

وفي تفسير العياشي عن صفوان بن يحيى عن أبي الحسنعليه السلام، قال: قال الله تعالى: يا ابن آدم، بمشيئتي كنت، أنت الذي تشاء وتقول، وبقوتي أديت إليَّ فريضتي، وبنعمتي قويت على معصيتي، ما أصابك من حسنة فمن الله، وما أصابك من سيئة فمن نفسك، وذاك أني أولى بحسناتك منك، وأنت أولى بسيئاتك مني، وذاك أني لا أُسأل عما أفعل وهم يُسألون[2].

فقوله تعالى: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النِّساء: الآية ٧٩]، أي ما أصابك من الصحة والسلامة وسعة الرزق وجميع نعم الدين والدنيا فمن الله.

﴿وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ﴾ أي من المعاصي، ﴿فَمِن نَّفْسِكَ﴾ [النِّساء: الآية ٧٩]، أي ما أصابك من المِحن والشدائد والآلام والمصائب، فبسبب ما تكسبه من الذنوب وقد قال تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورى: الآية ٣٠] وقوله تعالى: ﴿فَمِن نَّفْسِكَ﴾ أي فبذنبك.

وقد فسر ذلك أبو القاسم البلخي بقوله: ما أصاب المكلّف من مصيبة فهي كفارة ذنب صغير أو عقوبة ذنب كبيرٍ أو تأديب وقع لأجل تفريط.

وقد قال النبيصلى الله عليه وآله: «ما من خدش بعود ولا اختلاج عرق ولا عثرة قدم إلا بذنب، وما يعفو الله عنه أكثر»[3].

وفسر أيضاً قول الله تعالى: ﴿فَمِن نَّفْسِكَ﴾ [النِّساء: الآية ٧٩] أي: من فعلك.

فكل ما يصدر من جانب الله تعالى رحمة وأية رحمة وكل ما يصدر من جانب العبد إما طاعة أو معصية بسوء اختياره، ثم يقول مسليّاً نفسه: إن الله هو الذي أراد بي أن أعصيه وحاشا أنّ الله يريد بأحد سوءاً وهو الكامل على الإطلاق. وهو القائل:

---

(١) أصول الكافي: ج٢، ص٢٥٢، باب شدّة ابتلاء المؤمن.

(٢) تفسير العياشي: ج١، ص٢٥٨، في تفسير سورة النساء.

(٣) أصول الكافي: ج٢، ص٤٤٥، باب تعجيل عقوبة الذنب.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرّعد: الآية ١١] وقوله جل من قائل: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الأنفال: الآية ٥٣].

فتحديد الرزق لا يكون إلا عن مصلحة لا يرتضيها العبد، وهو القائل: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾﴾ [الحجر: الآية ٢١].

وقوله تعالى: ﴿۞ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾﴾ [الشّورى: الآية ٢٧].

فالله أعلم بمصالح العباد وما يفيدهم وما يضرهم، ولكن العبد يظنّ أو يعتقد أن ما ينغِّص عيشه أو يؤلمه سيِّئة جاءته من جانب الله، حين أنها رحمة، كالدواء المرّ الذي لا يستسيغه المريض وفيه شفاؤه.

وهكذا بالنسبة إلى بقية النوائب والكوارث. وقد فصّلنا ذلك في الجزء السادس من هذا الكتاب تحت عنوان: «لماذا هذه الزلازل»؟.

* * *

٤ ـ قلنا في المقدمة: إن من الناس من ينسب إلى الله تعالى الخير والشر معاً، ويستدلّ بقوله تعالى: ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ [النّساء: الآية ٧٨]. وبقوله: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الإنسان: الآية ٣٠].

أما قوله تعالى: ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ [النّساء: الآية ٧٨] فجواب لقولهم، حين قالوا: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ﴾ [النّساء: الآية ٧٨] وهذا قول المنافقين. إن أصابهم خصب ومطر قالوا هذا من عند الله وإن أصابهم قحط وجدب قالوا هذا من شؤم محمد ﷺ، فردّ الله عليهم قائلاً: ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ [النّساء: الآية ٧٨] أي جميع ما مضى ذكره من الموت والحياة والخصب والجدب من عند الله وبقضائه وقدره لا يقدر أحد على ردّه ودفعه ابتلى بذلك عباده ليعرضهم لثوابه بالشكر عند العطية والصبر عند البليّة. ولذلك قال تعالى: ﴿فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾(١) [النّساء: الآية ٧٨].

---

(١) أي المنافقين.

وأما استدلالهم بهذه الآية: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [الإنسان: الآية ٣٠] لإسناد الشر إلى الله المتعال ففي غاية الوهن، ذلك لأنّ الله تعالى لا يريد بالناس إلا الخير والرحمة ولذلك أرسل أنبياءَ ومرسلين لهداية الناس وركز أصول الهداية في العقل الإنساني. وأتمّ الحجة على العباد. فلا يكون الشر من جانب الله تعالى. وإنّ ما يعترض الإنسان من بلاء وفقر ومرض إنما هو لتهذيب هذا الإنسان وإصلاحه وتوجيهه إلى معالم القدس، لتزكو نفسه، فيكون قميناً لما لا عين رأت أو أذن سمعت أو خطر على قلب بشر.

ومعنى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [الإنسان: الآية ٣٠] أي إنك لو قصدت أمراً والله لا يريد تحقّق ذلك (لمصلحة خفيت عليك) فلا يقع ذلك الأمر. أي كل أمر منوط وقوعه بمشيئة الله تعالى. والله قادر أن يحول بينك وبين ما تريد: ﴿اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾ [الأنفال: الآية ٢٤].

ولكن حاشا أن الله تعالى يريد بك الغواية والضلال، فليس لك أن تنسب ما تفعله من معاصٍ وآثام إلى مشيئة الله تعالى وتستدلّ بالآية المتقدمة. ذلك، لأنّ الله تعالى هو الذي نهى على لسان أنبيائه عليهم السلام وبنفس ألهمها فجورها وتقواها عن ارتكاب المعاصي واقتراف الذنوب والظلم والبغي... إلخ.

فمعنى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [الإنسان: الآية ٣٠]: أن الأمور لا تتحقّق إلا بمشيئته وإرادته وقدرته، فالقدرة والطاقة كلّها من جانب الله، ولا تأتي القدرة والطاقة إلا بمشيئته: ﴿۞ إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَن تَزُولَا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّن بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾﴾ [فاطر: الآية ٤١] فلو سلب الله تعالى الطاقات منا فلا أثر لمشيئتنا. فبالمال لا تتحقق الأمور إلا بمشيئة الله تعالى. ولكن الله جلّ أن يلهو وأن يريد بالناس الغواية والضلال والانحراف، وهو القائل: ﴿لَوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّاتَّخَذْنَاهُ مِن لَّدُنَّا إِن كُنَّا فَاعِلِينَ ﴿١٧﴾﴾ [الأنبياء: الآية ١٧]. وقال أيضاً: ﴿إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٧﴾﴾ [الزُّمَر: الآية ٧].

فالله جعلك مختاراً في ما تعمل من عمل صالح أو سيِّئ ويكافئك ويعاقبك في حدود هذا الاختيار ولكن لحكمةٍ ما قد يحول بينك وبين ما تريد.

* * *

وفي تحف العقول للحسن بن علي بن شعبة، قال أبو حنيفة: حججت في أيام أبي عبدالله الصادق عليه السلام فلما أتيت المدينة، دخلت داره فجلست في الدهليز انتظر إذنه إذ خرج صبيّ، فقلت ما اسمك؟. فقال أنا موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين ابن علي بن أبي طالب، فقلت: يا غلام؟ مِمَّن المعصية؟ فقال: إن السيِّئات لا تخلو من إحدى ثلاث: إما أن تكون من الله وليست منه، فلا ينبغي للرب أن يعذب العبد على ما لا يرتكب، وإما أن تكون منه ومن العبد وليست كذلك، فلا ينبغي للشريك القويّ أن يظلم الشريك الضعيف، وإما أن تكون من العبد، وهي منه، فإن عفا فكرمه وجوده، وإن عاقب فبذنب العبد وجريرته(١).

والشر سواء عبروا عنه (بأمر عدمي) على ما يقول بعض فلاسفة الشرق أو عبّروا عنه بتعبير آخر هو حادث من الحوادث والله تعالى أمرنا أن نستعيذ به من شر الشيطان عند تلاوة القرآن بقوله جلّ من قائل ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾﴾ [النّحل: الآية ٩٨].

وهناك سورتان تسمّيان بالمعوّذتين: سورة الفلق وسورة الناس. فالله يعلّمنا أن نتعوّذ به فتقول: بسم الله الرحمن الرحيم، ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ﴿١﴾ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴿٢﴾ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴿٣﴾ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ﴿٤﴾ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾.

وأيضاً: بسم الله الرحمن الرحيم، ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ﴿٣﴾ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ﴿٤﴾ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ﴿٥﴾ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾، وهناك أدعية كثيرة للاستعاذة من كلّ شر: منها: «بسم الله الرحمن الرحيم، لا إله إلا الله، عليه توكّلت وهو ربّ العرش العظيم، ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكُنْ، أشهدُ أنَّ الله على كلِّ شيءٍ قدير وأنَّ الله قد أحاطَ بكلِّ شيءٍ علماً، اللهمَّ إنّي

---

(١) تحف العقول: ص٤١١.

أعوذُ بكَ من شرِّ نفسي ومن شرِّ كلِّ دابّةٍ أنتَ آخذُ بناصيتها، إنَّ ربي على صراطٍ مستقيم».

* * *

٥ ـ وأمّا قوله تعالى: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ﴾ [الزّخرُف: الآية ٣٢] . إنّ الله تعالى قسّم المعايش في الحياة الدنيا بين الناس حسب الحكمة والمصلحة، فهناك من يضرّه البذخ والوفور فيقتر عليه رزقه وهناك من يضرّه التقتير فيوسّع عليه رزقه وهناك من يستحق لخصائص فيه وجهد واجتهاد درجاتٍ فوق من دأبه الخمول والكسل وديدنه الإهمال وعدم الاتّكال على الله.

ففي الحديث القدسي: «وإنّ من عبادي من لا يصلحه إلا الفقر فلو صرفته إلى غيره لهلك، وإنّ من عبادي من لا يصلحه إلا الغنى ولو صرفته إلى غيره لهلك».

فالله أعلم بطبائع الناس وما يصلحهم وقد يقدر على أحد عباده رزقه ليختبره ويطهّره، ولكنّ العبد يتجرّأ على الله تعالى فيقول: ﴿رَبِّيٓ أَهَٰنَنِ﴾، على حد قوله جلّ من قائل: ﴿وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾﴾ [الفجر: الآية ١٦] فالله تعالى: ﴿يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾ [الرّعد: الآية ٢٦] حسب المصلحة وتخفى هذه المصلحة على الناس إلا الأولياءَ منهم والصلحاء.

فقد يكون التقصير في الرزق رحمة والتوسعة نقمة، وهو قوله تعالى: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾﴾ [الأعراف: الآيتان ١٨٢/ ١٨٣] ونستجير بالله من هذه المرحلة.

فالإنسان إذا لم يتّعظ بأوامر الله تعالى تركه الله ونفسَه وأغدق عليه وأخذه أخذ عزيز مقتدر، وهو القائل: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾﴾[1] [الأنعام: الآية ٤٤].

فعلى الإنسان أن يرضى بالوضع الذي هو فيه وأن يشكر الله كثيراً، لأنّ الله تعالى قد أعطاه فوق ما يستحقه لو تدبّر وتعمّق ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [إبراهيم: الآية ٣٤] . وأن يسأل الله تعالى المزيد بطرق مشروعة إن كان ممن يريد المزيد، (ورُبّ

---

(١) مبلسون: آيسون من الرحمة أو مكتئبون.

زيادة وبال!)، وقد قال جلّ من قائل: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِن فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٣٢﴾﴾ [النّساء: الآية ٣٢].

وبما أنّ الناس مختلفون في مراتب الطاعة والشكر والسعي والتوكُّل على الله وتفويض الأمر إليه تعالى فما يصيبهم في هذه الدنيا من النعم والعطاء والتأديب والعقاب مختلف أيضاً، ولو أمعن النظر أي فرد من أفراد البشر فيما هو فيه من نعم وقاس طاعته وما يقوم به من أعمال تجاه تلك النعم لعلم أنّ الله قد عامله بفضله ولم يعامله بعدله.

وإنّ من ضِعة النفس أن تصف الله جلّ جلاله بالعدل بل هو المتفضِّل المنان، عامل الناس جميعاً بفضله ولم يعاملهم بعدالته.

﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَابَّةٍ﴾ [النّحل: الآية ٦١].

* * *

٦ ـ وأمّا الطائفة السادسة فهي الطائفة المحقّة التي أدركت عدالة الله وأنه مُعطٍ كل ذي حق حقه وزيادة، وأدركت تفسير الآية: ﴿۞ وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾﴾ [الشّورى: الآية ٢٧]، فقد قرأنا في أحوال الماضين من الأمم ما يحقق منطوق الآية. وكل فساد آتٍ من الطغيان والبذخ والترف، وهو القائل: ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ﴿٦﴾ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ ﴿٧﴾﴾ [العَلق: الآيتان ٦/٧]. ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [سَبَإ: الآية ٣٤].

٧ ـ وأما الطائفة السابعة وهي التي ترى أنّ الله إنما يجزي عباده حسب أعمالهم مستدلاً بهذه الآية المنيفة: ﴿إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الطُّور: الآية ١٦]، حقاً إنّ الإنسان يجزى بمقدار سعيه، ولكن الله جلّت قدرته، رحمته لا تتناهى وعطفه لا يحُدّ فلو قام الإنسان قبل موته بتطهير نفسه وتزكيتها من أوساخها وأدرانها وأرجع إلى الناس حقوقهم وقام بأداء الفرائض وملافاة ما فاته منها بقدر المستطاع فالله يمحو بلطفه وعظيم رفده تلك السيِّئات على حدِّ قوله جلّ من قائل ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَٰلِكَ

ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ﴾ [هُود: الآية ١١٤] . وهو القائل: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَٱتَّبِعُوٓا۟ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٩﴾ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [الزُّمر: الآيات ٥٣/ ٦٠].

فمن تدبّر الآيات المذكورة علم فلسفة الهدى والضلال وأنّ الله قد أتمّ الحجة على عباده وكيف يتحسّر الإنسان الذي لم يتبع سبيل الهدى الناصعة (يوم القيامة) قائلاً: ﴿يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾ [الزُّمَر: الآية ٥٦] ، وكيف إن الله يغفر الذنوب إذا تاب العاصي وأناب.

وكم من أناس ينجون من نار جهنم بشفاعة الشافعين، مع العلم أن ليس لأحد أن يشفع إلاّ بإذنه تعالى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء: الآية ٢٨] ، ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ﴾ [البقرة: الآية ٢٥٥] ، ﴿مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ۚ﴾ [يونس: الآية ٣] ، ولكن الله لعظيم رحمته قد يأذن لأنبيائه وأوليائه وخيار خلقه بالشفاعة للمذنبين إن لم يبلغ الذنب أو الظلم مرتبة الشرك، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ﴾ [النّساء: الآية ٤٨] ، ولا يبلغ مرتبة الشرك إلا من أمسى جرثومة فساد وإفساد بعيداً عن الإصلاح بُعد السماء عن الأرض.

* * *

٨ ـ أما الطائفة الثامنة وهم الأشاعرة ترى أن لله تعالى أن يعذب المحسن فيدخله جهنم ويثيب العاصي فيدخله الجنة، ودليلهم على ذلك قوله تعالى: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنبياء: الآية ٢٣] . ولكن لا يصدر عن الله وهو الكامل على الإطلاق ما يتنافى مع الحكمة وهو القائل: ﴿لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن

كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٧﴾﴾ [الأنبيَاء: الآية ١٧]، ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [الدّخان: الآيتان ٣٨/ ٣٩].

وتستدلّ هذه الطائفة بهذه الآية: ﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ﴾ [الإسرَاء: الآية ٥٤] ولكن الله تعالى لا يعذب إلا من يستحق العذاب وقد يعفو، إن كان العاصي له من أعمال صالحة يستحق بها العفو. ويرحم مَن يشاء ولا يرحم من بَلَغ من الظلم والتسافل حتى آل أمره إلى الشرك، أو أفسد في الأرض من القتل والنهب والفساد والإفساد حتى كان جرثومة فسادٍ لا تصلحه إلا النار.

وتستدلّ هذه الطائفة أيضاً بهذه الآية: ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ﴾ [العَنكبوت: الآية ٢١] والله لا يعذب إلا العاصي ويرحم من يستحق الرحمة من العصاة الذين لهم من الأعمال الصالحة ما يستوجبون رحمة الله وكانوا مصداق هذه الآية: ﴿خَلَطُواْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا﴾ [التوبَة: الآية ١٠٢].

وأما قوله تعالى ﴿مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُۥ﴾ [الأنعَام: الآية ١٦] ذلك لأن الناس عدا المعصومين لهم من الذنوب ما الله به أعلم. ﴿أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ﴾ [المجَادلة: الآية ٦]. فلا يُصرف العذاب عن إنسان عدا المعصومين إلا برحمة منه تعالى.

والمعتزلة نظروا في هذه المسألة لله من ناحية أنه عادل لا يظلم أحداً شيئاً مما عمل، ومن ناحية أن ما أخبر به يجب أن يتحقق ليكون جلّ جلاله صادقاً في خبره، وقد أخبر في القرآن بثواب المطيع وعقاب العاصي(١).

وقد فسّر الزمخشري: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [ق: الآية ٢٩] بأن الله يريد أن يقول: «لو عذَّبتُ من لا يستحق العذاب لكنت ظالماً مُفرطاً في الظلم».

والدليل على أنّ الله لا يعذّب المحسن ولا يكافئ العاصي إلا بعد التوبة أو الشفاعة وأعمال أخرى صالحة؛ الآيات التالية:

١ ـ ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٧﴾﴾ [آل عِمرَان: الآية ٥٧].

---

(١) الإسلام وحاجة الإنسانية إليه، للدكتور: محمد يوسف موسى.

٢ ـ ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عِمران: الآية ١٠٨] .

٣ ـ ﴿۞ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾﴾ [آل عِمران: الآية ١٧١] .

٤ ـ ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦١﴾﴾ [آل عِمران: الآية ١٦١] .

٥ ـ ﴿وَمَا يَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ﴾ [آل عِمران: الآية ١١٥] .

٦ ـ ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾﴾ [الزلزَلة: الآيتان ٧/٨].

٧ ـ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ [النِّساء: الآية ٤٠] .

وهنا آيات تدل على وجوب العقاب وأنّ شمول الرحمة والعفو لا يكون إلا لاستحقاق سابق. من عمل صالح كان يقوم به هذا العاصي فيخفف الله عليه العقاب وتشمله الرحمة

١ ـ ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا﴾ [النِّساء: الآية ١٤] .

٢ ـ ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا﴾ [النِّساء: الآية ٩٣].

٣ ـ ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾﴾ [الزّلزلة: الآية ٨] .

٤ ـ ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ﴾ [النَّمل: الآية ٩٠] .

٥ ـ ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النَّمل: الآية ٩٠] .

وأما الخلود في النار فمحقق إن لم يَتبْ الشخص من جريمته ولم يخلط عمل السيئ بعمل صالح ولم تنله الشفاعة لبعض الأعمال الحسنة التي قام بها لوجهه تعالى. وهو القائل: ﴿يَٰبُنَىَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾﴾ [لقمان: الآية ١٦] .

فكل خصلة من الإساءة والإحسان إن تكن زنة حبة من خردل في أخفى موضع كجوف الصخرة أو أعلاها كالسماوات أو أسفله كالأرض يحضرها الله فيحاسب عليها

فالله نافذ القدرة خبير بكل خفيّ.

وفي الحديث: «إياكم ومحقرات الذنوب، فإن لها من الله طالباً، وإنها لتجتمع على المرء فتهلكه»(١). فالكمال أن يكون الإنسان في هذا المقام بين الخوف والرجاء. وقد قال لقمان عليه السلام لابنه: «يا بنيّ، خف الله خوفاً لو أتيته بعمل الثقلين خفت أن يعذّبك، وارجه رجاءاً لو أتيته بذنوب الثقلين رجوت أن يغفر لك»(٢).

* * *

٩ - أما الطائفة التاسعة فمعها كل الحق، إذ أنها تقول بعدالة الله وهي صفة الكامل على الإطلاق بحكم العقل. لأنّ الكمال لا يتمّ إلاّ بالعدل وإعطاء كل ذي حق حقه من الصلحاء والطيّبين، وجلّ أن يلهو ربنا، لأنّ اللهو يتنافى مع صفة الكمال، وهو القائل: ﴿وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ [الأنعام: الآية ٧٠].

﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُواْ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ [الأعراف: الآيتان ٥٠/ ٥١].

وقد حقر ربنا الدنيا ووصفها باللهو واللعب، بقوله: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [العَنكبوت: الآية ٦٤] فكيف يلهو ويلعب وهاتان صفتان تنافيان الكمال ولا تليقان بحكم عادي فكيف بالله المتعال.

* * *

١٠ - وأما الطائفة العاشرة التي تقول: بأنه سيقع حتماً ما سُطر في اللوح المحفوظ، فإذا سطر سعادة فرد فإنه سعيد لا محالة وإن سطر شقاء فرد فإنه شقيّ لا محالة، مستدلة بهذه الآية: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ﴾ [الحَديد: الآية ٢٢]، فإن كان يريد الجبر وسلب الاختيار من هذا الإنسان في ما يعمل فهو في غاية الضلال والزيغ، وهذا معناه: نسبة الظلم إلى الله الرؤوف الرحيم. أي أن الله يجبر بعض الأفراد أن يظلموا أو يكفروا فيدخلهم النار

---

(١) وسائل الشيعة: ج١٥، ص٣١٣، باب ٤٣. (٢) إرشاد القلوب: ج١، ص١٠٥، باب ٢٨.

ويجبر قسماً آخر أن يتقوا ويصلحوا فيدخلهم الجنة، والله وهو الغني عن عبادة من عبد وكفر من كفر خلق الإنسان مختاراً، وهداه سواء السبيل بالفطرة وإرساله الرسل مبشّرين ومنذرين ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ﴾ [النِّساء: الآية ١٦٥] . فليس الإنسان مضطراً إلى ما يصدر منه بعد إراءة الطريق وإعطاء الاختيار ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍۗ﴾ [الأنفال: الآية ٤٢] . إلا أن الله جلّ جلاله لكماله الذي لا يضاهيه أي كمال ولعلمه الذي لا يتناهى ولا يحدّ يعلم ما سيقع من أول الخليقة إلى يوم القيامة وبعد يوم القيامة. يعلم أنّ هذا الفرد سيختار طريق الهدى والصلاح، فيكون من المتقين ويجتنب المحرّمات ويعمل حسبما يُمليه عليه الفطرة والعقل السليم ويتّبع سبيل الأنبياء عليهم السلام، فمآله الجنة، ويعلم أنّ الفرد الآخر يخالف ما يمليه عليه عقله يخالف مُعطيات الفطرة، يرفض ما أملاه عليه الأنبياء والصالحون من عباد الله، يبغي في الأرض فساداً، يظلم ويفجر، فتتحجّر نفسه، وتتدنّس روحه، فلا يصلحها إلا النار ومآله جهنّم، وليس هذا العلم الذي هو من كمال الله تعالى، العلم بما سيقع بمجبر هذا الإنسان ليختار هذا السبيل وأن لا يختار سبيلاً آخر، أي ليس علم الله تعالى بسالب اختيار هذا الإنسان ومجبر إياه على اتباع طريق سبق في علم الله تحقُّقه، وإنما الله تعالى لكماله يعلم ما سيقوم به هذا الفرد من أعمال صالحة أو غير صالحة. وهو القائل ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ﴾ [غافر: الآية ٣١] ، ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّۗ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ [آل عِمرَان: الآية ١٠٨] .

﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾﴾ [التّوبَة: الآية ١١٥] .

فالفرد بكبريائه وإسرافه وجبروته وطغيانه وطيشه وظلمه وبغيه يسدّ على نفسه طريق الهداية والاهتداء، فيتذرّع تسليةً لنفسه اللئيمة قائلاً: سبق في علم الله أن أكون من الضالّين ولو شاء الله لاهتديت، ولا يلتفت إلى ما هو فيه من صفات ذميمة وفجور وفسوق وهتك الحرمات وأنواع البغي والظلم. وحاشا أن الله يجبر أحداً على هتك الأعراض وهو الذي نهى عن الزنا وحدّ له حدوداً من جلد وقتل ورجم إلى ما

هنالك[1]. وهو القائل:

١ ـ ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ﴾ [غافر: الآية ٣٤].

٢ ـ ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ [غافر: الآية ٣٥].

٣ ـ ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾﴾ [سَبَإ: الآية ٣٢].

٤ ـ ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٣﴾﴾ [آل عِمرَان: الآية ٦٣].

٥ ـ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [المَائدة: الآية ٥١].

٦ ـ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [المنَافِقون: الآية ٦].

٧ ـ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ [غافر: الآية ٢٨].

٨ ـ ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [البَقَرَة: الآية ٩٩].

٩ ـ ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [العَنكبوت: الآية ٤٩].

١٠ ـ ﴿وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ [غَافر: الآية ٤٣].

١١ ـ ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾ [غافر: الآية ٥٢].

وقد يستدل الغاوي بهذه الآية: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [الصَّافات: الآية ٩٦].

إن عمل الإنسان على أنواع، منها ما يقوم به من اختراعات واكتشافات، ولا شك لولا الصدف التي يهيّئها الله لهذا الإنسان والدماغ المفكّر الذي وهبه إياه والإلهام والحدس (كما جاء في تاريخ العلوم والمخترعات) لما تمكن هذا الإنسان من صنع أية آلة واختراع أي جهاز.

فهذه الأجهزة والاختراعات على تنوعها هي من مخلوقات الله تعالى، ولم يشكر الإنسان ربه تجاه هذه النعم بل ازداد تعنّتاً وكفراً، ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ﴿٦﴾ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴿٧﴾ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴿٨﴾﴾ [العَاديات: الآيات ٦/٨].

ومنها ما يقوم به من عمل صالح وما يقوم به من أعمال سيّئة فكل ذلك بالمآل من مخلوقات الله تعالى. أما العمل الصالح، كإطعام الفقراء وإكساء الأيتام والبؤساء

---

(١) راجع الجزء الثاني من هذا الكتاب: الكبائر.

وإيوائهم فلا يتحقق إلا بطاقات أودعها الله في هذا الإنسان، وهداية الله إياه بإرساله الرسل والفطرة الملهمة لصالح الأعمال. وأما العمل السيئ أيضاً لا يتحقق إلا بطاقات أودعها الله في الإنسان فبالمآل يظن الفرد أنه من مخلوقات الله وليس لمرتكبه حِصّة في الإنجاز. ولكن الله أرشد هذا الإنسان بعقل[١] يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي وبإرساله الأنبياء والمرسلين والوعّاظ الصالحين، لكنه خالف العقل وسخّر من وعظ الواعظين، وأوغل في الفساد والإفساد، فلوّث نفسه فعمي قلبه ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: الآية ٤٦]. فليس لأحد أن يقول: إن الله هو الذي أراد بي هذا الطريق الغاوي لأنه خالق لكل ما نعمل، ذلك لأنّ الغاوي استعمل الطاقات التي أودعها الله تعالى فيه في ما لا يرضى الله، فيما يوجب سخط الله مع وخز الضمير الفطري وتنبيه العقل الفطري.

١١ ـ أما الطائفة الأخيرة فعلى حق صريح، حيث نفت الإغواء والإضلال عن الله، ونفت اللهو واللعب عن الحكيم الخبير، فالله الذي كتب على نفسه الرحمة حاشا أن ينهى عن الفسق ثم يُجري الفسق كرهاً على أيدي بعض العباد ثم يعاقبهم عليه.

ولو تتبع الإنسان حياته وتذكّر ما قام به من المعاصي والآثام (وما أكثرها)! لعلم أنه قد سدّ عليه كثيراً من أبواب الرحمة ونعماً لا تعدّ ولا تحصى ولولا تلك الذنوب لجمع بين سعادة الدنيا ونعيم الآخرة، فتاريخ أكثر البشر تاريخ مظلم ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾ [يوسف: الآية ١٠٣].

﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [الأنعام: الآية ١١٦] فلكل عامل في سبيل الخير والطاعة درجات ومقامات يضيّعها الإنسان بسوء اختياره بظلمه وجفائه، وهو القائل: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٢﴾﴾ [الأنعام: الآية ١٣٢]، فإن رحمة الله مكتوبة للمتقين الذين يتفقدون المساكين والبؤساء، وهو القائل:

﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا

---

(١) العقل ما عبد به الرحمن واكتسب به الجنان.

يُؤۡمِنُونَ﴾ [الأعرَاف: الآية ١٥٦] .

حقاً إن الضلال إنما يتأتى من عمل الإنسان نفسه، أي أنّ الضلال يترشّح من سوء الأعمال والظلم والبغي. وهو القائل:

﴿قُلۡ إِن ضَلَلۡتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفۡسِيۖ وَإِنِ ٱهۡتَدَيۡتُ فَبِمَا يُوحِيٓ إِلَيَّ رَبِّيٓۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٞ قَرِيبٞ ﴿٥٠﴾﴾ [سَبَإ: الآية ٥٠] .

فالتكذيب بآيات الله يترشّح من نفس معتدية أثيمة:

﴿وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴿١١﴾ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعۡتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ كَلَّاۖ بَلۡۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ [المطففين: الآيات ١٠/ ١٤].

نعم إنّ التكذيب إنما هو نتيجة دع اليتيم وعدم الحضّ على طعام المسكين. وهو القائل:

﴿أَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ﴿١﴾ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِي يَدُعُّ ٱلۡيَتِيمَ ﴿٢﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ﴾ [المَاعون: الآية ١/ ٣] .

فالاهتداء يتناسب تناسباً طردياً مع عدم الظلم، أي كلّما كان الفرد أبعد عن الظلم (أي ظلم) كلما كان إلى الاهتداء أقرب. وهو القائل: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الأنعَام: الآية ٨٢] .

فهناك تنافٍ بين الظلم والهداية، كما أنّ هناك تضادّاً بين الإجرام والإسلام بالمعنى الصحيح:

﴿أَفَنَجۡعَلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ كَٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمۡ كَيۡفَ تَحۡكُمُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [القَلم: الآيتان ٣٥/ ٣٦].

﴿كَذَٰلِكَ سَلَكۡنَٰهُ فِي قُلُوبِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿٢٠٠﴾ لَا يُؤۡمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ ﴿٢٠١﴾﴾ [الشُّعراء: الآيتان ٢٠٠/ ٢٠١].

فالظلم هو الذي يؤدّي إلى الطيش والضلال واتباع الهوى، وهو قوله تعالى:

﴿بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَهۡوَآءَهُم بِغَيۡرِ عِلۡمٖۖ فَمَن يَهۡدِي مَنۡ أَضَلَّ ٱللَّهُۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ .

فالظلم يؤدّي إلى اتباع الهوى واتباع الهوى يؤدّي إلى الضلال وبما أنّ هذا الضلال هو نتيجة سنّة سنّها الله تعالى فنسبه إلى نفسه، بقوله تعالى: ﴿فَمَن يَهۡدِي مَنۡ

أَضَلَّ ٱللَّهُ﴾ [الرُّوم: الآية ٢٩]. والظلم نتيجة الظلمات، ففي الحديث: «اتقوا الظلم، فإنه ظلمات يوم القيامة».

* * *

عوامل الاهتداء أو الهدى

هناك عوامل تؤدّي إلى الاهتداء واتباع الطريق السويّ وعدم الانحراف وليس هناك إلا صراط واحد وهو الصراط الوحيد المؤدّي إلى حسن العاقبة وجنة عرضها السماوات والأرض، لذلك، أمرنا الله أن نقول في كل ركعة من الصلاة: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦﴾ لأنّ هذا الصراط لا يتعدّد، ولكن الطرق المعوجة والمنحرفة كثيرة ومتعددة، ونستجير بالله تعالى منها.

١ ـ التقوى والهداية:

إن التقوى هي أساس الاهتداء وهي الوسيلة المؤدية إلى صراط مستقيم. والتقوى: أن لا يراك الله حيث نهاك، وأن لا يفقدك حيث أمرك. فمن اجتنب المحرمات وأطاع الله تعالى في السر والعلن وقام بأداء الفرائض من صلاة وصوم وزكاة وخمس وحج وأعطى حقوق الفقراء والمساكين وكان دأبه الإنصاف والترحّم على الضعفاء والبؤساء فهو واصل لا محالة إلى الطريق السويّ الذي ارتضاه الله لعباده.

أ ـ إنه تعالى يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الأنفال: الآية ٢٩].

فالتقوى يُلهمك الله ما تفرق به بين الحق والباطل ويكفّر عنك ما قمت به من أعمال سيئة ثم يغفر لك ذنوبك، والله ذو الفضل العظيم، لأنه يبتدئ بالنعم قبل استحقاقها. وإنّ درجة الاهتداء لتتناسب مع درجة التقوى، فالإيمان محصلة التقوى كما في تركيب القوى (في علم الميكانيك). أي إن الإيمان عصارة التقوى. فمن كان يعتقد اعتقاداً ينحرف عن الاعتقاد الصحيح الذي يسنده العقل الفطري والنصوص الصريحة الواضحة، ففي تقواه شيء من

الضعف ولم يبلغ الدرجة الكافية من مراتب التقوى، وإن هذا الضعف في التقوى جعله لا يميّز بين الحق والباطل تمييزاً يؤدّي به إلى المحجة البيضاء. فتفاوت الناس في العقائد والوصول إلى الواقع إنما هو بتفاوتهم في مراتب التقوى، وكلما كان الانحراف أكثر، فالبعد عن الصلاح والتقوى أكثر فأكثر. ولذلك قال جلّ من قائل: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحُجرَات: الآية ١٣].

ب ـ بسم الله الرحمن الرحيم ـ ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البَقرة: الآيتان ١/ ٢].

فحصر الله سبحانه الهدى بالمتقين، دون غيرهم، أي لا يهتدي بهدى القرآن إلا من كان تقياً، اتّخذ التقوى ديدناً وشعاراً. ثم يصف الله تعالى المتقين بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٤﴾ [البقرة: الآيتان ٣/ ٤]. ثم يؤكد الله تعالى قائلاً: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٥﴾ [البَقَرَة: الآية ٥].

جـ ـ وقال تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [البَقَرة: الآية ١٩٧].

ذلك لأنّ التقوى طريق الهداية والنجاة، وبها يهدي الله الإنسان إلى ما به النجاة والخلاص.

د ـ ﴿إِنَّ فِي ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾ [يُونس: الآية ٦].

فلا يعتبر بآيات الله تعالى ويقوّي بها إيمانه ويقينه إلا المتقون، وكم في الغرب من تعمق في الفلك والمكانيك السماوي وما أودع الله في السماء من معادلات وقوانين وتعمّق في علم طبقات الأرض وعلم الأنواء ولكنه ومع الأسف ضعيف الإيمان أو مسلوب الإيمان لعدم كونه من المتقين، فالتقوى أساس الهداية. التقوى تنير القلب ويكون إذ ذاك محلاً للفيوضات الربّانية فيبلغ مرتبة اليقين بلطفه تعالى.

٢ ـ الخشية طريق الهداية

ذلك لأنّ من يخشى الله تعالى: لا يعصيه ومن لا يعصي تتوجه نفسه بصورة طبيعيّة نحو الطريق المؤدّي إلى الجنة. ولا يهتدي من لا يخشى الله تعالى. وهو القائل:

أ ـ ﴿وَسَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ۝١٠ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكۡرَ وَخَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ بِٱلۡغَيۡبِۖ فَبَشِّرۡهُ بِمَغۡفِرَةٖ وَأَجۡرٖ كَرِيمٍ ۝١١﴾ [يس: الآيتان ١٠/ ١١]. فلا يستفيد من إنذار الرسل إلا من كان يخاف الله في خلواته وحركاته. ولا يؤمن من كان لا يخشى الله تعالى ولا يتقيه.

ب ـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ خَيۡرُ ٱلۡبَرِيَّةِ ۝٧ جَزَآؤُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَشِيَ رَبَّهُۥ ۝٨﴾ [البيّنة: الآيتان ٧/ ٨].

ذكر الله تعالى مقام مَن يخشاه وما ينال من الأجر وهم خير البرية، والخشية مقدمة التقوى، فالتقوى نور الإيمان، وبها يصل الإنسان إلى خير السبل، وأنجح الطرق، ﴿وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ [آل عِمرَان: الآية ١٣٣].

* * *

٣ ـ الإنابة:

هي الرجوع إلى الله تعالى بالقلب والانقياد والإطاعة لله المتعال.

فالله تعالى ﴿وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَنۡ أَنَابَ﴾ [الرّعد: الآية ٢٧]، و﴿وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَن يُنِيبُ﴾ [الشّورى: الآية ١٣].

وقد حصر التذكر بآيات الله والإتعاظ بمن ينيب وذلك بقوله: ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ﴾ [غافر: الآية ١٣].

وقوله تعالى أيضاً: ﴿وَٱلۡأَرۡضَ مَدَدۡنَٰهَا وَأَلۡقَيۡنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ ۝٧ تَبۡصِرَةٗ وَذِكۡرَىٰ لِكُلِّ عَبۡدٖ مُّنِيبٖ ۝٨﴾ [ق: الآيتان ٧/ ٨].

وقوله تعالى: ﴿وَأُزۡلِفَتِ ٱلۡجَنَّةُ لِلۡمُتَّقِينَ غَيۡرَ بَعِيدٍ ۝٣١ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٖ ۝٣٢ مَّنۡ

خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾﴾ [ق: الآيات ٣١/٣٣][١].

﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِيٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ﴾ [الرّعد: الآية ٢٧] فالضلال خاص بغير المنيبين.

* * *

٤ ـ الضلال والشيطان

إن الله قد أمرنا أن لا نتبع الشيطان ولا نطيعه. بقوله: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٦﴾﴾ [فَاطِر: الآية ٦].

﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي ۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ ۖ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [إبراهيم: الآية ٢٢].

ثم إن الشيطان لا يسيطر إلا على من يعمى عن ذكر الله تعالى، ولا يطيعه، وهو القائل:

﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ ﴿٣٨﴾﴾ [الزّخرُف: الآيات ٣٦/٣٨].

﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾﴾ [الشُّعراء: الآيات ٢٢١/٢٢٣].

فمن لم يكن أفّاكاً (كثير الكذب) أثيماً لا يقترب منه الشيطان!

ثمّ إنّ الشياطين هم أولياء للذين لا يؤمنون، أي للكافرين الذين لا يؤدّون واجب الشكر تجاه نِعمه تعالى. وهو القائل:

﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ ۗ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ۗ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [الأعرَاف: الآية ٢٧][٢].

---

(١) أواب: رجّاع إلى الله بالتوبة.

(٢) السوأة: العورة.

﴿وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًا بَعِيدًا﴾ [النساء: الآية ٦٠].

﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ ۗ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الأعراف: الآية ٣٠].

﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْءَاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ ۗ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٢١﴾﴾ [سبأ: الآيتان ٢٠/ ٢١].

فالله تعالى يختبر عباده مع علمه بمصيرهم إتماماً للحُجة، فيقول: يوم القيامة من عمي عن الحق: ﴿قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾﴾ [الأنبياء: الآيتان ١٢٥/ ١٢٦].

وليس للشيطان أيّ سلطان على عباد الله إلا إذا كان من الضالّين وهو قوله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [الحِجر: الآية ٤٢].

أما الذين أخلصوا لله جلّ جلاله في الطاعة فهم بعيدون عن إغواءِ الشيطان وتسويلاته: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾﴾ [الحِجْر: الآيتان ٣٩/ ٤٠].

ونستعيذ به تعالى من شر الشيطان وكيده ومكره ونسأله أن يجعلنا من عباده المخلصين بفضله ومنّه.

* * *

٥ ـ الضلال والظلم

إن الظلم أعظم عامل في صدّ الإنسان عن الطريق السويّ وأكبر حجاب حاجز دون رؤية الحق والواقع، ذلك لأنّ الظلم ظلمات. ولولا الظلم لكان الناس أمة واحدة، يعبدون الله تعالى ويوحّدونه وما كنت ترى للشرك سبيلا.

وقد قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٨﴾﴾ [الشّورى: الآية ٨].

﴿وَمَا تَفَرَّقُوٓا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى

لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ (١٤)﴾ [الشورى: الآية ١٤] .

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ﴾ [البقرة: الآية ١٦٥] .

ونتيجة الظلم الكفر:

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا (٩٩)﴾ [الإسراء: الآية ٩٩] .

ونتيجة الظلم الجحود:

﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ (٤٩)﴾ [العنكبوت: الآية ٤٩] .

وعاقبة الظلم الهلاك:

﴿وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا (٥٩)﴾ [الكهف: الآية ٥٩] .

الاعتداء (أو الظلم) نتيجته التكذيب بآيات الله البيّنات:

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (١٠) الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ (١١) وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ (١٢) إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [المطففين: الآيات ١٠/١٣] .

والإساءة نوع من الظلم ونتيجتها التكذيب بآيات الله تعالى:

﴿ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوأَى أَنْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ (١٠)﴾ [الروم: الآية ١٠] .

ومن الإساءة الكذب وهذا بدوره يؤدي إلى الضلال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾ [الزُمَر: الآية ٣] .

﴿بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ [الرُوم: الآية ٢٩] .

﴿بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [لقمان: الآية ١١] .

﴿أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٥٠)﴾ [النُور: الآية ٥٠] .

﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: الآية ٢٥٨].

﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ۚ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٦﴾﴾ [آل عمران: الآية ٨٦]. وكم لهذه الآية من مصاديق في عصرنا الحاضر!.

﴿۞ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥١﴾﴾ [المائدة: الآية ٥١].

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنعام: الآية ١٤٤].

﴿۞ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُونَ عِندَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٩﴾﴾ [التوبة: الآية ١٩].

﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾ [التوبة: الآية ١٠٩].

﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٠﴾﴾ [القصص: الآية ٥٠].

﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأنعام: الآية ٣٣].

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠﴾﴾ [الأحقاف: الآية ١٠].

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰ إِلَى الْإِسْلَامِ ۚ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٧﴾﴾ [الصَّف: الآية ٧].

﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا ۚ بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ ۚ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥﴾﴾ [الجُمُعَة: الآية ٥].

﴿قُل لَّوْ أَنَّ عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ۗ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ ﴿٥٨﴾﴾ [الأنعام: الآية ٥٨]. أي أن ظلمهم صدَّهم عن اتباع الطريق السويّ.

إن الجحود من الآثار الطبيعية للظلم، لقوله تعالى: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَـٰكِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأنعام: الآية ٣٣].

﴿وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُعْتَدِينَ﴾ [الأنعام: الآية ١١٩].

فالاعتداء كان سبباً للضلال والإضلال.

وقد يكون الظلم سبباً للاشتراك بالله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾﴾ [البَقَرَة: الآية ١٦٥].

ومن شروط الإيمان الصحيح أن لا يلبس بظلم وإلا فهو زائل. وهو قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: الآية ٨٢].

وللظالم أن يتوب بأنواع التوبة ويطهر نفسه، فتتفتّح بصائر قلبه ويهتدي إلى السبيل القويم بإذنه تعالى. وهو القائل:

﴿فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المَائدة: الآية ٣٩].

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُوا۟ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿٦٤﴾﴾ [النِّساء: الآية ٦٤].

الظلم نتيجته الضلال، لقوله تعالى:

﴿بَلِ ٱلظَّـٰلِمُونَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [لقمَان: الآية ١١].

وإن نتيجة الظلم الكفر أيضاً. لقوله تعالى:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَـٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَـٰعَةٌ ۗ وَٱلْكَـٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٢٥٤﴾﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٥٤].

وقد يبلغ بالإنسان التسافل مرتبةً وضيعةً لا تفيد معه أية رحمة أو عطف لاسوداد القلب بدرجة متناهية مع العلم أن ﴿لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۗ﴾ [الرّعد: الآية ٣١]، ولكن الله لا يخرق ما سنّه لانتظام هذا العالم وقد وسعت رحمته كلَّ شيء، وهو القائل:

﴿۞ وَلَوْ رَحِمْنَـٰهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا۟ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [المؤمنون: الآية ٧٥].

* * *

٦ ـ الضلال والفسق

ومما يؤدّي إلى الضلال وادلهمام النفس: الفسق والفجور، فيسودّ بهما القلب ولا يرى الحق والواقع.

وهناك آيات جمّة تدلّ دلالةً واضحة على أنّ الإنسان بفسقه وفجوره يسدّ على نفسه أبواب النفحات القدسية والفيوضات الإلّهية، فتكون نفسه مُدلهمّة لا ترى إلى معالم القدس طريقاً، فلا تهتدي إلى سبيل الحق:

١ ـ ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ بَلَاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الأحقاف: الآية ٣٥].

٢ ـ والآية الآتية تدل على أنّ من لا يهتدي فهو فاسق، وأنّ فسقه منعه من الاهتداء.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [الحديد: الآية ٢٦].

٣ ـ وإن الزيغ والانحراف آتيان من الفسق:

﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [الصَّف: الآية ٥].

٤ ـ قد سدّ الله تعالى طريق الهداية على الفاسقين وذلك بقوله جل من قائل:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ ﴿٥﴾ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [المُنافقون: الآيتان ٥/٦].

٥ ـ لا يضل إلا الفاسق، وهو قوله تعالى.

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٦] ثم يصفهم الله تعالى بقوله:

﴿الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٧].

٦ ـ وقد حصر الله تعالى الكفر بآياته بالفاسقين بقوله: ﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ

بَيِّنَٰتٍۖ وَمَا يَكۡفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴿٩٩﴾﴾ [البَقَرَة: الآية ٩٩] .

٧ ـ ﴿فَمَن تَوَلَّىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [آل عِمرَان: الآية ٨٢] . والفسق هو الخروج عن طريق الحق والصلاح نتيجة ارتكاب المعاصي والآثام.

٨ ـ إن الله تعالى قد أغلق على الفاسقين أبواب الإيمان. بقوله جل من قائل: ﴿فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلۡحَقُّۖ فَمَاذَا بَعۡدَ ٱلۡحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُۖ فَأَنَّىٰ تُصۡرَفُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ حَقَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓاْ أَنَّهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [يُونس: الآيتان ٣٢/ ٣٣].

٩ ـ ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُواْ فَمَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُۖ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمۡ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [السَّجدَة: الآية ٢٠] .

١٠ ـ ﴿وَيَوۡمَ يُعۡرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ أَذۡهَبۡتُمۡ طَيِّبَٰتِكُمۡ فِي حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنۡيَا وَٱسۡتَمۡتَعۡتُم بِهَا فَٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَوۡنَ عَذَابَ ٱلۡهُونِ بِمَا كُنتُمۡ تَسۡتَكۡبِرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَبِمَا كُنتُمۡ تَفۡسُقُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الأحقاف: الآية ٢٠] . ونستجير بالله من الكبرياء والفسوق.

١١ ـ ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوۡلًا غَيۡرَ ٱلَّذِي قِيلَ لَهُمۡ فَأَنزَلۡنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رِجۡزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [البَقَرَة: الآية ٥٩] ، ففسقهم كان سبباً لنزول العذاب.

١٢ ـ ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾ [الحَشر: الآية ١٩] فمآل الفسق أن لا يفكر الإنسان في آخرته ومآل أمره أن ينسى إصلاح نفسه وتزكيتها من أدرانها، كل ذلك لأن الفاسقين نسوا الله وتمادوا في فسوقهم وفجورهم وغيهم.

١٣ ـ ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱسۡمَعُواْۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ [المَائدة: الآية ١٠٨] .

١٤ ـ ﴿قُلۡ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ وَإِخۡوَٰنُكُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ وَعَشِيرَتُكُمۡ وَأَمۡوَٰلٌ ٱقۡتَرَفۡتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٞ تَخۡشَوۡنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرۡضَوۡنَهَآ أَحَبَّ إِلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٖ فِي سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [التوبَة: الآية ٢٤] .

١٥ ـ ﴿ٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ أَوۡ لَا تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ إِن تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ سَبۡعِينَ مَرَّةٗ فَلَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿٨٠﴾﴾ [التوبَة: الآية ٨٠] .

فقد سدّ الفاسق بفسقه على نفسه أبواب الهداية وأبعد نفسه عن رحمة ربه بسوء اختياره.

١٦ ـ ﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْۚ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْۗ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [التوبة: الآية ٦٧] .

١٧ ـ الفسق كان مانعاً عن إيمان فرعون وملأه. لقوله تعالى:

﴿ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِۖ فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦٓۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٣٢﴾﴾ [القصص: الآية ٣٢] .

١٨ ـ ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٦﴾﴾ [المنافقون: الآية ٦] وقد يبلغ الفسق بفرد من الأفراد حتى يسد على نفسه باب الشفاعة واستغفار الرسول ﷺ ونستجير بالله من سوء العاقبة. فالفسق الكثير المتواصل هو الذي سدّ على هذا الفرد سبيل الهداية والوصول...

١٩ ـ ﴿۞ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾﴾ [الحديد: الآية ١٦] .

فالذين أوتوا الكتاب من قبل قد قست قلوبهم بسبب فسقهم، فالفسق يؤدّي إلى قسوة القلب، فإذا قسا القلب فلا اهتداء ولا إيمان. وفي الحديث: «إن أعمى العمى، عمى القلب». وفي حديث آخر: «ما ضرب ابن آدم بعقوبة أشد من قسوة قلب».

* * *

الضلال والإجرام

لا ريب أن الإجرام ظلم وأي ظلم، وكل ظلم واعتداء يسد على النفس الإنسانية أبواب الفيوضات الإلهية فيعمى القلب فلا يهتدي إلى سبيل الحق حتى يتوب توبة نصوحا. والآن إقرأ معي الآيات التي تدل على أنّ الإجرام مؤدٍّ إلى الضلال والعمى ونستجير بالله منهما.

١ ـ ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ﴿٤٤﴾﴾ [الرحمن: الآيتان ٤٣/ ٤٤].

٢ ـ ولو ترى إذ المجرمون ناكسوا رؤوسهم عند ربهم: ﴿رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا

نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ [السَّجدَة: الآية ١٢] .

٣ ـ الإجرام يؤدِّي إلى الإعراض عن آيات الله ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعۡرَضَ عَنۡهَآۚ إِنَّا مِنَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [السَّجدَة: الآية ٢٢] .

٤ ـ ﴿كَذَٰلِكَ سَلَكۡنَٰهُ فِي قُلُوبِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿٢٠٠﴾ لَا يُؤۡمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ ﴿٢٠١﴾ فَيَأۡتِيَهُم بَغۡتَةً وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿٢٠٢﴾﴾ [الشُّعراء: الآيات ٢٠٠/ ٢٠٢] .

وهذه الآية صريحة في أن الله تعالى يسد على المجرم أبواب الإيمان حتى يلقى العذاب الأليم، إن لم يعقب بتوبة نصوح .

٥ ـ ﴿كَذَٰلِكَ نَسۡلُكُهُۥ فِي قُلُوبِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿١٢﴾ لَا يُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَقَدۡ خَلَتۡ سُنَّةُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾﴾ [الحِجْر: الآيتان ١٢/ ١٣] .

٦ ـ يصرح الله تعالى في الآية التالية أنّ المجرم في ضلال بسبب إجرامه!

﴿إِنَّ ٱلۡمُجۡرِمِينَ فِي ضَلَٰلٖ وَسُعُرٖ ﴿٤٧﴾ يَوۡمَ يُسۡحَبُونَ فِي ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾﴾ [القَمَر: الآيتان ٤٧/ ٤٨] . أي إن المجرمين في ضلال عن الحق في الدنيا وسعير جهنم في الآخرة . ونستجير بالله من ذلك .

٧ ـ إن المجرمين بعيدون عن الإسلام أيما بعد، لأنّ هناك تضاداً بين الإسلام والإجرام فلا يجتمعان . وهو قوله تعالى :

﴿أَفَنَجۡعَلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ كَٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمۡ كَيۡفَ تَحۡكُمُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [القَلَم: الآيتان ٣٥/ ٣٦] .

٨ ـ المجرم لا يؤمن بأمر من الله تعالى، جزاء لإجرامه .

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا فِي كُلِّ قَرۡيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجۡرِمِيهَا لِيَمۡكُرُواْ فِيهَاۖ وَمَا يَمۡكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ ﴿١٢٣﴾ وَإِذَا جَآءَتۡهُمۡ ءَايَةٞ قَالُواْ لَن نُّؤۡمِنَ حَتَّىٰ نُؤۡتَىٰ مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ رُسُلُ ٱللَّهِۘ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥۗ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٞ شَدِيدُۢ بِمَا كَانُواْ يَمۡكُرُونَ﴾ [الأنعام: الآيتان ١٢٣/ ١٢٤] .

٩ ـ المجرم ضال ومضل، إنه تعالى يقول :

﴿وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴿٩٩﴾ فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٖ﴾ [الشُّعراء: الآيات ٩٩/ ١٠١] . ونستجير بالله من هذه المرحلة حيث لا شفيع ولا صديق .

١٠ ـ الإجرام يؤدي إلى الكفر حتى بعد الإيمان. وهو قوله تعالى:
﴿لَا تَعْتَذِرُواْ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَـٰنِكُمْ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُواْ مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [التوبة: الآية ٦٦].

١١ ـ ومن رشحات قلب المجرم المظلم أن يستهزئ بالمؤمن وكم نرى في هذا الزمان من الذين عميت قلوبهم نتيجة إجرامهم يستهزئون بالمؤمنين متهمين إياهم بالرجعية والخرافة، وأعظم خرافة في هذا الكون هو العدول عن ذكر الله وتقديسه وتسبيحه، وهذه هي الرجعية أو الرجوع إلى جاهلية جهلاء بالمعنى الصحيح. إنه تعالى يقول:
﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ﴾ [المطففين: الآيات ٢٩:/ ٣٢].

١٢ ـ ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ وَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾﴾ [يونس: الآية ١٣].

١٣ ـ ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [يونس: الآية ١٧].

فالضال عن الطريق بالمعنى الصحيح هو الذي لا يؤمن بالله واليوم الآخر بسبب إجرامه وآثامه. فالجرم يكون حجاباً حاجزاً دون رؤية الحق لسنة ثابتة أودعها الله هذا الكون الرحيب.

* * *

الكبر والضلال

ومن أهم الخصال التي تؤدّي إلى الضلال هي الكبر والخيلاء. ففي الحديث: أصول الكفر ثلاثة ـ الحسد والبخل والكبر. فالله تبارك وتعالى يصد المتكبّر عن الإيمان به وهو القائل:

١ ـ ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَـٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ

كَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾﴾ [الأعراف: الآية ١٤٦] .

٢ ـ إن الله يطبع على قلب المتكبّر فلا يرى طريقاً للإيمان جزاءً لكبريائه وخيلائه بغير الحق. وهو القائل:

﴿ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۖ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾﴾ [غافر: الآية ٣٥] .

٣ ـ كما أن الكبر يؤدّي إلى الضلال، فإنّ عدم الكبر كذلك يؤدّي إلى الإيمان. وهو قوله جلّ من قائل:

﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ ﴿١٥﴾ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾﴾ [السَّجدة: الآيتان ١٥/١٦].

٤ ـ إن الكبر يؤدي إلى الضلال والضلال يؤدّي إلى الكفر والكفر مؤدٍّ إلى نزول العذاب، وهو قوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾﴾ [الأعراف: الآية ١٣٣] .

٥ ـ المتكبر لا يؤمن بيوم الحساب.

﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾ [غافر: الآية ٢٧].

٦ ـ جزاء المتكبر النار، والكبر هو الذي أدى به إلى جهنّم وبئس المصير.

﴿فَٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [النّحل: الآية ٢٩] .

٧ ـ الكبر مانع عن الإيمان باليوم الآخر:

﴿إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾ [النّحل: الآية ٢٢].

٨ ـ الكبر مؤدّ إلى التكذيب بآيات الله واسوداد الوجه، وهو قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [الزُّمَر: الآية ٦٠] .

﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ

ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧١﴾ قِيلَ ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾﴾ [الزُّمر: الآيتان ٧١/ ٧٢].

٩ ـ ﴿ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴿٧٥﴾ ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [غافر: الآيتان ٧٥/ ٧٦].

١٠ ـ ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [غافر: الآية ٦٠].

١١ ـ ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [فاطر: الآيتان ٤٢/ ٤٣]. [نزلت في كفار مكة].

١٢ ـ الكبر مانع عن اتباع أوامر الرسل عليهم السلام. قال نوح عليه السلام: ﴿وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا﴾ [نوح: الآية ٧].

١٣ ـ الكبرياء مانع عن اتباع آيات الله تبارك وتعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٧﴾﴾ [لقمان: الآية ٧].

١٤ ـ ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ لَوَّوْا۟ رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٥﴾﴾ [المنافقون: الآية ٥].

* * *

الإفساد والضلال

الإفساد كبقية الرذائل والموبقات والجرائم يؤدي إلى الكفر وعدم اتباع الحق.

وهو قوله تعالى:

١ ـ ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يُفْسِدُونَ﴾ [النّحل: الآية ٨٨].

٢ ـ الفساد مانع عن التقوى واتباع أوامر الله تعالى: ﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ ۚ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ ۚ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٢٠٦﴾﴾ [البقرة: الآيتان ٢٠٥/ ٢٠٦].

٣ ـ ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ ۚ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٣﴾﴾ [آل عِمران: الآيتان ٦٢/ ٦٣].

٤ ـ إن الآيات التالية تدل على أنّ الإفساد كان سبباً لعدم الإيمان والضلال:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ۗ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾﴾ [البَقرة: الآيات ١١/ ١٣].

٥ ـ ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَظَلَمُوا بِهَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾﴾ [الأعراف: الآية ١٠٣].

٦ ـ عاقبة الإفساد الجحود: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾﴾ [النَّمل: الآية ١٤].

٧ ـ المفسد لا يؤمن إلا إذا تاب:

﴿وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [يُونس: الآية ٤٠].

٨ ـ العصيان والإفساد يؤديان إلى عدم الإيمان.

﴿۞ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾﴾ [يُونس: الآيتان ٩٠/ ٩١].

١٠ ـ إن الله تعالى يسد باب الهداية على الظالم الفاسق الذي لا يرجى فيه الخير وقد أصبح جرثومة فساد لا تصلحه إلا نار جهنم. وهو القائل:

﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا ٱلطَّٰغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ ۚ فَسِيرُوا فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾ إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ [النَّحل: الآيتان ٣٦/ ٣٧].

﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ ۖ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾﴾ [الإسراء: الآية ٩٧].

* * *

البخل والضلال

ومن جملة العوامل المانعة عن الاهتداء وتوجه الفرد إلى الله المتعال: البخل، وهو القائل:

١ ـ ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُم بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [آل عِمران: الآية ١٨٠].

٢ ـ ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ (٧٥) فَلَمَّا آتَاهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ (٧٦) فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ (٧٧)﴾ [التوبة: الآيات ٧٥/ ٧٧].

٣ ـ البخل نتيجته الكفر.

﴿الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا (٣٧)﴾ [النساء: الآية ٣٧].

٤ ـ ﴿الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (٢٤)﴾ [الحديد: الآية ٢٤].

﴿هَا أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم (٣٨)﴾ [محمَّد: الآية ٣٨].

* * *

ومن عوامل الضلال: الحسد، وهو قوله تعالى:

١ ـ ﴿بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ (٩٠)﴾ [البقرة: الآية ٩٠].

٢ ـ ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا

بَيْنَهُمْۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾﴾ [البَقَرة: الآية ٢١٣] .

٣ ـ ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩﴾﴾ [آل عِمرَان: الآية ١٩] .

فالحسد حسب الآية المتقدّمة مؤدٍّ إلى الكفر.

٤ ـ ﴿وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِۖ فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٧﴾﴾ [الجَاثيَة: الآية ١٧] .

* * *

الضلال ودع اليتيم وعدم الحضّ على طعام المسكين

١ ـ إنه تعالى يقول: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ﴿١﴾﴾ [المَاعون: الآية ١] ، أي أخبرني من الذي يكذب بالدين؟ أي من هو الذي يجحد الجزاء لإنكاره البعث؟ فالله يجيب قائلاً: ذلك: هو الذي يدفع اليتيم عن حقه دفعاً عنيفاً ولا يحث على طعام المسكين ولا يهتم، إن شخصاً كهذا هو الضال الذي ينكر عوالم الآخرة لما اجترحت يداه من دعه لليتم وعدم اهتمامه بطعامه.

فإن الإسلام اهتمّ اهتماماً لا مزيد عليه بأمر اليتيم.

٢ ـ فقد ذكر الله بعد الإيمان به تعالى الحض على طعام المسكين، فعدم الحض على طعام المسكين يؤدّي إلى تكذيب آيات الله البينات وهو قوله تعالى:

﴿إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾ [الحَاقة: الآيتان ٣٣/ ٣٤].

٣ ـ وهو القائل: ﴿كَلَّاۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾﴾ [الفَجر: الآيتان ١٧/ ١٨].

٤ ـ ﴿إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٩﴾ فِى جَنَّٰتٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾ مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [المدَّثر: الآيات ٣٩/ ٤٦].

فالإجرام يؤدّي إلى دخول جهنّم وعدم إقامة الصلاة وعدم إطعام المسكين والخوض مع الخائضين المنحرفين والتكذيب بيوم الدين.

* * *

الهداية من الله تعالى وبإذنه والله لا يهدي إلا التقي الصالح والمستغفر التائب.

١ - ﴿قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي ۖ وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي ۚ إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ﴾ [سَبَإ: الآية ٥٠].

٢ - ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ۚ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ ۖ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ (١٠٩) وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١١٠) ۞ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾ [الأنعام: الآيات ١٠٩/ ١١١].

٣ - ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ ۖ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ (٤١)﴾ [الزُّمَر: الآية ٤١].

٤ - ﴿اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾ [الشّورى: الآية ١٣].

٥ - ﴿وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَاهُم ۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ (٢٠)﴾ [الزّخرُف: الآية ٢٠].

٦ - ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٢٣)﴾ [الجَاثيَة: الآية ٢٣].

٧ - ﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ (١٢٥)﴾ [الأنعَام: الآية ١٢٥].

٨ - ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ ۚ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (٣٦) إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَن يُضِلُّ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾ [النّحل: الآيتان ٣٦/ ٣٧].

ولا تحق الضلالة إلا على المجرم الباغي الفاجر دون غيره.

٩ ـ ﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ ۖ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا﴾ [الإسراء: الآية ٩٧] .

١٠ ـ لا سلطان لإبليس إلا على الضالين:

﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْءَاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ ۗ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٢١﴾﴾ [سبأ: الآيتان ٢٠/٢١].

١١ ـ الإيمان نور من الله تعالى:

﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾﴾ [الزُّمَر: الآية ٢٢] .

١٢ ـ ومن آثار الخشية الإيمان الصحيح:

﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ [الزُّمَر: الآية ٢٣] .

١٣ ـ أما قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟ ۗ وَمَا جَعَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنعام: الآية ١٠٧] .

يثبت لنا بأن الله قادر على أن يقلب القلوب ويوجهها إليه رغم ما عليها من رين ورجس، ولكن الله لا يقرب الظالم الجاني المتناهي في البغي والفساد، ولا يوجهه إليه أبداً .

١٤ ـ ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا ۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ ۖ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾﴾ [الأنعام: الآيتان ١٤٨/١٤٩].

١٥ ـ ﴿وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الأعراف: الآية ٢٨] .

الهداية تسبق الضلال:

﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾﴾ [التوبة: الآية ١١٥].

١٦ ـ ﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٩﴾﴾ [يونس: الآية ١٩].

أي أنّ الناس من لدن آدم ﷺ إلى نوح ﷺ كانوا على الإسلام وعلى الحق، ثم اختلفوا.

١٧ ـ الضلال إنما هو نتيجة العمل السيئ:

﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۖ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٨﴾﴾ [فاطر: الآية ٨].

١٨ ـ الإيمان بإذنه تعالى ولا يأذن الله بالإيمان إلا للنفس الصالحة التائبة النادمة على ما اجترحت من سيّئات.

﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ [يونس: الآية ١٠٠].

* * *

للإيمان درجات كما أن للهداية أيضاً درجات، ومعنى ذلك، أنّ الإيمان بالله بالنسبة إلى التقرُّب إليه تعالى على درجات، ولكنّ الله لعظيم لطفه يزيد في هدى الفرد لو استمرّ على الطاعة وراقب نفسه، وهذا أيضاً لطف منه تعالى.

وهو القائل: ١ ـ ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾﴾ [محمّد: الآية ١٧].

٢ ـ ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى﴾ [الكهف: الآية ١٣].

٣ ـ ﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى ۗ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ﴿٧٦﴾﴾ [مريم: الآية ٧٦].

وفي الحديث: «والذين عملوا بما علموا لنهدينّهم إلى ما لا يعلمون».

٤ ـ ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ

رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾﴾ [الأنفال: الآيات ٢/ ٤].

٥ ـ ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ ﴿١٥﴾ تَتَجَافَىٰ(١) جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [السَّجدة: الآيتان ١٥/ ١٦].

وهكذا مرض القلب يؤدي إلى تسافل متواصل ونستجير بالله من ذلك: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾﴾ [التّوبة: الآيتان ١٢٤/ ١٢٥].

* * *

ومن المفسدين في الأرض الذين يظهرون الإيمان خداعاً. ويقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم. وقد وصفهم الله تعالى بقوله:

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ۗ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾﴾ [البَقَرة: الآيات ٨/ ١٣].

وهكذا نرى بالختام أنّ الهداية نور ولطف من الله سبحانه، مَنَّ الله بها على الصلحاء من عباده وعلى الذين هم في طريق الصلاح وإصلاح النفس، والضلال ظلمات تترشح من النفس الأثيمة، فتظلم بها النفس، فلا تبصر ولا تعي، ﴿بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الرّوم: الآية ٢٩]، فإنه لا يترشّح من الإجرام إلا نكران الحق ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ﴾ [الفُرقان: الآية ٣١]، فيكون إذ ذاك إله المجرم هواه، ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ

(١) تتجافى: ترتفع وتتنحّى للعبادة.

هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾ [الفرقان: الآية ٤٣] وما أعظم قوله تعالى حين يقول:

﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٧١﴾﴾ [المؤمنون: الآية ٧١].

وقد يبلغ بالإنسان الضلال حتى يكون مصداق الآية الآتية ونستجير بالله من هذه المرحلة:

﴿فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [الروم: الآيتان ٥٢/٥٣].

فطوبى لأولئك الذين يرحلون من بلد لا تتيسر فيها العبادة وإقامة شعائر الدين الحنيف إلى بلد آخر يتيسّر فيها المثول بين يدي الله جلّ جلاله وإطاعة أوامره واجتناب نواهيه، عملاً بهذه الآيات البيّنات: ﴿يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ فَإِيَّٰىَ فَٱعْبُدُونِ﴾ [العنكبوت: الآية ٥٦].

﴿قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۗ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ ۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾﴾ [الزمر: الآية ١٠].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾﴾ [النساء: الآيتان ٩٧/٩٨].

فطوبى لمن فكّر في آخرته، وضحى بكل ما لديه لنيل سعادة أبديّة سرمديّة في ما لا عين رأيت أو أذن سمعت أو خطر على قلب بشر!، للوصول إلى رضوان الله تعالى فإنّ رضوان الله لهذا الإنسان غاية الغايات.

﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾ [السجدة: الآية ١٧].

فما بعد القرآن من هدىً وشفاء، فلنتمسك بالقرآن الكريم هدىً وشفاءً لأمراضنا الروحيّة ودستوراً خالداً للكون والحياة:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: الآية ٥٧].

﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ ۗ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ [فُصِّلَت: الآية ٤٤] .

رب المشرقين ورب المغربين(١)

لا شك أنّ الأرض تدور حول نفسها مرة في كل ٢٤ ساعة تقريباً، وأنّ الأرض كرويّة وتدور حول محورها. فلو فرضنا أننا في الاعتدال الربيعي، فنحن نشعر بشروق الشمس في الساعة ١٢ (عربية) على مسافة من درجات الطول ٩٠، ثم نشعر بصورة خاطئة: أنّ الشمس تتحرّك من الشرق إلى الغرب (حين أنّ الأرض تدور من الغرب إلى الشرق) وبعد مضي ٦ ساعات تكون الشمس على خط نصف النهار وأمامنا تماماً، وبعد مضي ٦ ساعات تدور الشمس أيضاً ٩٠ درجة (خطأ) ونشعر بغروب الشمس، ولكن في الوقت الذي نحن نشعر بشروق الشمس، فالنقطة المقابلة لنا في الطرف الآخر من الأرض تشعر بغروب الشمس (ظاهراً)، فالنقطة التي كانت بالنسبة إلينا شرقاً، أصبحت في نفس الوقت غرباً بالنسبة إلى النقطة المقابلة لنا من الطرف الآخر من الأرض (في أمريكا مثلاً). والنقطة التي كانت بالنسبة إلينا غرباً كانت بالنسبة للنقطة المقابلة في الجهة الأخرى من الأرض، شرقاً. والنقطة التي تقابل موقعنا نحن على الأرض في الجهة الثانية من الأرض تعين بأن يوصل بين موقعنا وبين مركز الأرض بمستقيم تخيلي ويمد هذا المستقيم التخيلي إلى الجهة المقابلة من أرضنا هذه، كمن يأخذ إبرة طويلة ويثقب بها البرتقالة شريطة أن تمر هذه الإبرة من مركز البرتقالة إلى الجهة الأخرى.

فالنقطة التي تكون على سطح الأرض بالنسبة إلينا شرقاً، تكون في الوقت نفسه بالنسبة إلى النقطة المقابلة إلينا في الجهة الأخرى، غرباً، والنقطة التي تكون بالنسبة

---

(١) جواب على سؤال.

إلى موقعنا غرباً تكون في الوقت نفسه بالنسبة إلى النقطة المقابلة في الجهة الأخرى شرقاً. فكل نقطة شرق وغرب في نفس الوقت. وعند الاعتدال الربيعي والاعتدال الخريفي تكون المدة بين وقت مرور الشمس من دائرة نصف النهار وشروق الشمس أو غروبها متساوية. لعلّ الله تعالى يريد بقوله: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ﴿١٧﴾﴾ [الرَّحمٰن: الآية ١٧] وقوع الشمس بالنسبة إلى الشروق والغروب بمسافات متساوية.

وبما أنّ الكواكب التسعة التي تدور حول الشمس لها دورانها حول محاويرها في مدد مختلفة، فلها أيضاً مشارق ومغارب، ولذلك يحلف الله تعالى بقوله: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ﴾ [المعَارج: الآية ٤٠].

وفي كل مجرّة من مجرّات هذا الكون الرحيب، شموس كثيرة جداً تعد بالملايين ولكل شمس توابعها وكواكبها ودورانها حول محاويرها، وشروقها وغروبها. والمجرّة عبارة عن مجتمع من مجموعات شمسيّة تعد بالملايين، وللمجرّة أيضاً حركتها الدورانية حول محورها ولابدّ لها بالنسبة إلى مركز العالم (العالم الذي يضم ملايين من المجرّات) من شروق وغروب.

فالمشارق والمغارب بعد الاطلاع على سعة العالم التي لا تتناهى ظاهراً ولا تحد بحدود لا تعد ولا تحصى بل لا تتناهى. فيحق لله جلّ وعلا أن يقول:

﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ﴿٤٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ(١) ﴿٤١﴾ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٤٢﴾ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ(٢) سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ(٣) يُوفِضُونَ(٤) ﴿٤٣﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ﴾ [المعَارج: الآيات ٤٠/ ٤٤].

أسئلة وأجوبة

هل التشاؤم مصدره الطبيعة كما يدعي (مالتس) العالم الإنكليزي؟(٥).

---

(١) مسبوقين: مغلوبين.
(٢) الأجداث: القبور.
(٣) علم نصب لهم.
(٤) يوفضون: يسرعون.
(٥) السائل لهذه الأسئلة هو: علي حسان الشويلي، بغداد ـ بياع: ١٤/ ٨٨.

التشاؤم: مصدره عدم الاعتماد على الله واليأس من رحمة الله تعالى. إنه تعالى يقول: ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ [يوسف: الآية ٨٧] . وإن الله تعالى «وسعت رحمته كل شيء». فلو أقبل الإنسان على الله تعالى بكل طاقاته وأطاع الله تعالى في جميع حالاته ذهب عنه التشاؤم وصار مؤملاً لرحمة الله المتعال. إنه تعالى يقول: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَـٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾﴾ [النَّجم: الآيات ٣٩/ ٤١].

أما بعض الغربيِّين الذين لا صلة لهم بالله تعالى والذين يفسِّرون الأمور اضطراراً على ضوء الطبيعة العمياء يعزون كل شيء إلى الطبيعة، فإذا كان المصدر هي الطبيعة فمن أين جاء التفاؤل. فالتشاؤم والتفاؤل مصدرهما عمل الإنسان. وكل خير بيده تعالى. وقد جاء جواباً لهذه الأسئلة في كلام إمامنا زين العابدين عليه السلام: «من أين لي الخير ولا يوجد إلاّ من عندك».

هل الطبيعة تكرم وهي مصدر الخيرات والثروة

الطبيعة عمياء، لا تكرم وهي قد تكون مصدر الخيرات بلطفه تعالى وقد تكون مصدر الشرور لاستحقاقنا العقاب، أو لمزيد الأجر أو لتطهير بعض النفوس. الطبيعة لا تعي ولا تشعر ولا تفكّر في مستقبل الأمور. وأنّ هذه النزعة: النزعة الطبيعيّة، نزعة ماديّة، يقول بها الماديُّون دونما دليل، وإذا نزل بأحدهم بلاء عنيف التجأ إلى ما وراء الطبيعة، بحكم الفطرة(١).

﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَـٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَـٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾﴾ [الأنعام: الآية ٦٣] .

هل الطبيعة مصدر الآلام كما يقول: مالتس؟

هذه نزعة مادية كما قلت. إن الآلام لابد منها في الحياة، فالآلام قد تحفز

---

(١) يرجى مراجعة الجزء الثاني من كتاب (التكامل في الإسلام).

الإنسان على العمل المتواصل وقد تؤدّي إلى تكفير ذنوب ادبرت لذاتها وأقامت تبعاتها. وقد تسبّب مزيد الأجر والدرجات، والطبيعة عمياء، ليس لها أن تؤلم من تلقاء نفسها أو تفرح وإنما الأمور بيد الله المتعال. والتوسل إلى الله المتعال والانقطاع إليه والابتهال إليه تعالى تؤدّي إلى دفع الآلام بلطفه ورحمته، وهناك أدعية وصلاة خاصة في كتب الأدعية من واظب عليها ذهبت عنه آلامه بإذن الله تعالى. وقد لا تزول بسرعة ليمنّ الله تعالى على الداعي بدرجات لا ينالها إلا الصابرون.

سؤال: هل صحيح أنّ ما تنتجه الأرض (الطبيعة) لا يكفي لإعاشة جميع الأفراد، فتؤدّي إلى إثراء طبقة على حساب الطبقات الأخرى ولماذا؟

إن ما تنتجه الأرض وترسله السماء بإذن الله يكفي لأفراد البشر جميعاً، لا سيّما وأنّ الله قد أودع في الكون من القوى والطاقات ما يحيّر الألباب. وأنّ العلم الحديث يكشف لنا ذلك بلطف من الله تعالى، فالطاقات الذريّة، والطاقات الحراريّة والأشعّة الكونيّة وما إلى ذلك، لم تكن معروفة قبلاً وعرفت بلطف من الله تعالى وتفيد الإنسان في حضارته وإمرار معاشه. فالله أعلم بما خلق. إنه تعالى يقول: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [الدخان: الآيتان ٣٨/ ٣٩]. فالعلم كفيل بإذن الله تعالى أن يهيئ للبشر وسائل معايشهم. وفي مؤدى بعض الأحاديث أنّ الله تعالى ما خلق حياً إلاّ وخلق له ما يحقّق حياته ومعيشته.

وأما إثراء البعض على حساب الآخرين فهذا: إما أن يكون من ظلم البعض لآخرين، وعدم إعطائهم ما أمر الله من حقوق، كالخمس والزكاة والإنفاق والزكاة المستحبة وردّ المظالم، وأما هو لطف من الله تعالى. إنه تعالى يقول: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا۟ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُوا۟ ۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ ۚ وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ [النّساء: الآية ٣٢]، وإما استدراج وترك العبد وشأنه فلأنّه أصبح جرثومة لا تصلح، ويقتر الله رزق بعض العباد لحكمة وقد يوسع عليهم لحكمة، وهو القائل: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [الزخرف: الآية ٣٢].

إنه تعالى يؤكّد أن رحمته تعالى، تلك الرحمة التي يوجه العبد إلى الله المتعال ويمنّ عليه بمعرفته تعالى وبالمثول بين يديه خاشعاً، خاضعاً، مستغفراً منيباً، تائباً هي خير مما يجمعه هذا الإنسان من متع الدنيا وزينتها وزبرجها الزائل. ذلك لأنّ هذا الإنسان إنما خلق لمعرفة الله تعالى. ولا تنال المعرفة إلا بعبادة الله، وهو القائل: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾ [الذاريات: الآية ٥٦] .

(هل البؤس ناشئ عن زيادة السكان)

هل صحيح أنّ البؤس ناشئ عن زيادة السكان ولماذا؟

هذه نعرة غريبة نعرة من لا يؤمن بأنّ الله وسعت رحمته كلّ شيء.

فالله تعالى يقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ۝٥٨﴾ [الذاريات: الآية ٥٨] . فالله تعالى ما يخلق خلقاً إلا وقد هيّأ لهم قبل خلقهم رزقاً واسعاً طيّباً، وإذا قتر عليهم فلعلّة وحكمة. وإن أصاب قوماً مجاعة فلعلّة: إما لعقوبة أو اختبار أو زيادة درجات، وهو القائل: ﴿ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: الآية ٦٠] فبالدعاء يدفع البلاء، شريطة أن لا يكون الداعي مفسداً في الأرض غير مطيع لأوامر الله تعالى.

فلا بؤس من زيادة السكان، خلافاً لما يتكهّنه بعضهم ممن لا يعترف بعظمة الله تعالى وجليل رحمته، فالإمساك والسعة بيده تعالى: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٢﴾ [فاطر: الآية ٢] .

ويقول جلّ من قائل: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ۝٣٨﴾ [الزُمَر: الآية ٣٨] .

فالله برحمته الواسعة يوسع الرزق على عباده على كثرة عددهم من حيث لا يحتسبون، فيلهم عباده العلماء باكتشاف طرق جديدة للاقتصاد ووفور المؤن والمواد الغذائيّة إلى ما هنالك. ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ [المؤمنون: الآية ٧٢] . ﴿لَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ [الحجّ: الآية ٥٨] . ﴿وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ [الجُمُعَة: الآية ١١] .

إن الله يخبرنا في كتابه العزيز أنه لطيف بعباده وهو القادر المتعال. فإذا كثرت النفوس فتح عليهم أبواب الرحمة وهو القائل: ﴿ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ ١٩﴾ [الشورى: الآية ١٩] . وقد يرى العالم المتتبع أنه قد نفد علمه للعثور على أبواب جديدة للرزق وما يحتاجه الناس من وسائل العيش، فيفتح عليه الله تعالى أبواباً جديدة من العلم لم تكن بالحسبان ليرزق الناس من حيث لا يحتسبون. وهو القائل: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمۡرِهِۦۚ قَدۡ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيۡءٖ قَدۡرٗا ٣﴾ [الطلاق: الآيتان ٢/٣].

وهو القائل: ﴿وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَوۡلَٰدَكُمۡ خَشۡيَةَ إِمۡلَٰقٖۖ نَّحۡنُ نَرۡزُقُهُمۡ وَإِيَّاكُمۡۚ﴾ [الإسراء: الآية ٣١][(١)] .

وقد يقتر الله الرزق على بعض عباده لحكمة قد تخفى علينا، وقد يكون لإصلاح العبد والحد من طغيانه، كل بحسبه، ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ٦ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ ٧﴾ [العلق: الآيتان ٦/٧]. وهو القائل: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ﴾ [الإسراء: الآية ٣٠]. وفي الحديث القدسي: «وإن من عبادي من لا يصلحه إلا الفقر ولو صرفته إلى غيره لهلك».

فما على الإنسان عند اشتداد الأمر إلا أن يبتغي عند الله الرزق. ﴿فَٱبۡتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزۡقَ وَٱعۡبُدُوهُ وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥٓۖ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ [العنكبوت: الآية ١٧] .

وقد قال جلّ من قائل: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ وَمَا تُوعَدُونَ ٢٢ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ إِنَّهُۥ لَحَقّٞ مِّثۡلَ مَآ أَنَّكُمۡ تَنطِقُونَ ٢٣﴾ [الذاريات: الآيتان ٢٢/٢٣].

وأضيف لمزيد التأكيد مذكراً قوله تعالى في سورة الحجر: ﴿وَٱلۡأَرۡضَ مَدَدۡنَٰهَا وَأَلۡقَيۡنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيۡءٖ مَّوۡزُونٖ ١٩ وَجَعَلۡنَا لَكُمۡ فِيهَا مَعَٰيِشَ وَمَن لَّسۡتُمۡ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ٢٠ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٖ مَّعۡلُومٖ ٢١﴾ [الحجر: الآيات ١٩/٢١].

والبحار على ما اكتشف حديثاً مورد هام لتغذية الإنسان بما فيها من جماد وأحياء وستكشف موارد جديدة أخرى بلطف من الله كما اكتشفت الطاقة الذريّة بإلهام منه تعالى.

---

(١) الإملاق: الفقر.

هل المجاعة والأمراض عقاب؟

هل الموانع العقابية (الرادعة) كالبؤس والمجاعة والأمراض والحروب هي التي تعاقب الإنسان على الجرم الذي يرتكبه ولماذا[1]؟

كل ما يصيب الإنسان من بؤس وجوع ومرض وكوارث أخرى كحروب لا تبقي ولا تذر هو إما لتطهير هذا الإنسان مما ألمّ به من أدران وأرجاس أو لابتلائه وامتحانه واختباره لنيل الدرجات العالية إن صبر وشكر أو لردعه عما هو فيه من ظلم وطيش إن انتبه من سكرته أو لعقابه في العاجل كي يرتدع الآخرون وينتهي هو عن غيه ويهتدي إلى الطريق السوي إن كان من أهل الاهتداء[2].

إنه تعالى يقول: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: الآية ١٥].

فالله يتم الحجة على عباده فإن أبوا وتمادوا في غيهم وطيشهم وأفسدوا في الأرض ولم يتوبوا رغم الإنذار عاقبهم ببؤس وجوع وابتلاءات أخرى لعلهم يرجعون إلى رشدهم.

فالله تعالى وسعت رحمته كل شيء، ولا يسلب رحمته من عباده ولا يدعهم في دياجير الضلال حتى يبيّن لهم ما يتّقون على حد قوله جلّ من قائل: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ۚ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [التوبة: الآية ١١٥].

وهو القائل: ﴿وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴿١٣٤﴾﴾ [طه: الآية ١٣٤].

فالله تعالى لا يظلم أحداً ولا يعاقب إنساناً إلا بعد إتمام الحجة مرات ومرات.

وهو القائل: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا[3] رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [القصص: الآية ٥٩].

---

(١) السائل، هو الأخ: علي بن حسان الشويلي، بغداد - بياع.

(٢) راجع الجزء السادس من كتاب التكامل في الإسلام: لماذا هذه الزلازل؟

(٣) في أمّها: في أصلها التي هي من توابعها.

القرآن والعلم الحديث

﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾

كلما تقدّم العلم الحديث واكتشفت معالم الذرة وما أودع الله فيها من قوانين رياضيّة رصينة ومعادلات متقنة وخواص مدهشة وتقدم علم الفلك اللاسلكي كلما تقرّبنا بنفس المقدار لتفهُّم ما أودع الله تعالى في كتابه الذي ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾ [فُصِّلَت: الآية ٤٢] ، من عصارات العلوم وخلاصة المكتشفات ونتائج الأبحاث العلميّة الدقيقة. وإنّ الآيات الكونية الواردة في القرآن تدل على عظمته وإنه منزل من جانب الله العظيم وقد فسّرنا البعض منها على ضوء العلم الحديث في أجزاء «التكامل في الإسلام» وها نحن نفسّر الآية الآتية: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ [هُود: الآية ٧] .

فنقول: لا يعلم مدى طول هذه الأيام إلاّ الله تعالى. ذلك لأنّ هناك أياماً مختلفة الأطوال اختلافاً شاسعاً ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴿٤﴾﴾ [المعَارج: الآية ٤] فنحن نعرف يومنا الأرضي والآيات الكريمة تخبرنا عن نوعين آخرين أحدهما أطول من يومنا بمئات الألوف من المرات والآخر أطول بملايينها. هكذا يستفاد من الآية: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٥﴾﴾ [السَّجدَة: الآية ٥] . فالسرعة التي يسير فيها أمر الله تعالى سرعة لا تقدر!!..

واليوم في الحقيقة بالنسبة لكوكب ما: هو المدّة التي يقضيها هذا الكوكب في دورانه حول نفسه دورة واحدة، وهذه المدة تختلف من حجم إلى آخر. فاليوم في الأرض أربع وعشرون ساعة، وهو في المريخ طول من اليوم الأرضي بـ(٣٧) دقيقة، ويبلغ يوم القمر قريباً من تسعة وعشرين يوماً أرضياً، ويختلف يوم الشمس من منطقة إلى أخرى، فهو في خط استوائها يبلغ حوالي خمسة وعشرين يوماً أرضياً، بينما يتجاوز الثلاثين يوماً أرضياً بالقرب من قطبيها. وهذا يسبِّب عدم صلابتها. ويوم

عطارد يساوي ٨٨ يوماً أرضياً أما الشموس الأخرى فمجهولة أيّامها، كما يتعذر علينا معرفة أيام مجرّتنا، إذ أننا نجهل الزمن اللازم لتدور حول نفسها دورة واحدة. وكل ما يقال عن ذلك، فهو من الظن الذي لا يغني عن الحق شيئاً. ولكنه قد يقاس بمئات الألوف من السنين الأرضية وقد يكون أكثر وقد يكون أقل. وكذلك بقية المجرّات. ولا ندري ما سيأتي به المستقبل. ويختلف يوم المجرة من منطقة إلى أخرى بسبب عدم تماسك نجومها. وهكذا نرى أنّ لكل كوكب يومه، كما أنّ لكل تجمُّع نجمي صغر أم كبر يومه. ولا ندري عن اليوم الذي مقداره ألف سنة مما تعدون واليوم الذي مقداره خمسون ألف سنة، هل هما بالنسبة لشيء في كوننا أم بالنسبة لكون آخر؟.

* * *

لأنا نقدر طول اليوم بحركة الأرض حول نفسها ولم تكن قبل خلق الله العوالم المادية أرض أو شمس. وهو القائل: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [الحَجّ: الآية ٤٧].

تدل الآية ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ أن بناء الكون قد استغرق وقتاً معيناً لا يمكن تقديره بما لدينا من حسابات عادية.

ويثبت القانون الثاني من قوانين الديناميكا الحرارية بكل وضوح أنّ هذا الكون لا يمكن أن يكون أزلياً، أي إنه إبتدأ منذ لحظة بالذات، فهناك انتقال مستمر في الحرارة من الأجسام المادية الساخنة إلى الأجسام الباردة، ولا يمكن أن تعكس هذه العملية، أي لا يمكن أن تعود الحرارة فتزيد من الأجسام الباردة إلى الأجسام الساخنة. ومعنى ذلك أنّ الكون يتّجه أو يسير نحو حالة تساوي فيها درجات حرارة جميع الأجسام وينضب فيها معين الطاقة. وعند ذلك تقف العمليات الكيميائية والطبيعية كعمليات الإشعاع وتبادل الطاقة الحرارية بين الأجسام وتندثر مظاهر الحياة في هذا الكون. ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۝٢٦ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ۝٢٧﴾ [الرحمن: الآيتان ٢٦/ ٢٧]. ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ۝٤٨﴾ [إبراهيم: الآية ٤٨].

ولكن لما كانت الحياة لا تزال قائمة، والعمليات الكيميائية والطبيعية لا تزال

تسير في طريقها، فإنّ النتيجة المنطقية لذلك، أن هذا الكون لا يمتد ابتداؤه إلى ما لا نهاية خلافاً لما يقوله الماديون! وإلا لاستهلكت جميع الطاقات فيه بمضي الزمن الكافي وتوقّف كل نشاط في هذا الوجود.

وهكذا نرى من وجهة نظر الديناميكا الحرارية إن لهذا الكون بداية لا تمتد إلى اللانهاية، وإنما هي بداية محدودة بلحظة بالذات قدّرها العلماء من وجهات نظر أخرى عديدة بنحو ٤ إلى ٥ آلاف مليون سنة، كما أثبتوا أنّ الكون لا يزال يخضع لعملية انتشار مستمر تبدأ من مركز نشأته. وإنّ حدود السماء من حول هذا المركز تقع في وقتنا الحاضر على أشبه شيء بالسطح الكروي الذي يتمدد والذي يبلغ نصف قطره في وقتنا هذا بين

٤ ×١٠^{٢٧} إلى ٥ ×١٠^{٢٧} سانتيمتر

أي ٤,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠ سانتيمتر

أو ٥,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠ سانتيمتر

ويمكن للضوء أن يقطع هذه المسافة في مدة قدرها ٤ أو ٥ ×١٠^{٩} من السنين. ولقد حسبت كتلة هذا الكون بما تجمع فيه من مادة وطاقة بما يعادل نحو ٥ ×١٠^{٥٦} غرام، [أي خمسة متبوعة بستة وخمسين من الأصفار!]. مع العلم أن: (ألبرت أينشتاين) قد عدل عن حساب كتلة الكون، لما رأى أنّ هناك انجماً وكواكب تتشكل من جديد وتخلق بأمر من الله تعالى وأنّ الهايدروجين يخلق خلقاً لتتشكل منه نجوم جديدة ومجرات أخرى جديدة وهكذا:

﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرَّحمٰن: الآية ٢٩].

فسبحان الذي لا تتناهى عظمته. سبحان الله خالق كل شيء، سبحان الله خالق ما يرى وما لا يرى، سبحان الله مداد كلماته، سبحان الله رب العالمين، سبحان الله الذي ينشئ السحاب الثقال ويسبّح الرعد بحمده والملائكة من خيفته ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء ويرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته...

(العلمانيـة)[1]

كانت القرون الوسطى في أوروبا قروناً مملوءة بالظلام والجهل وكانت الكنيسة تقوم بأنواع الظلم والتنكيل بشأن من لا يوافقها في معتقداتها ومزاعمها الباطلة، فتقتل وتحرق وتعذِّب وتسجن من لا يوافقها في الرأي بالنسبة إلى العلوم الكونية التي تستند على التجربة والمشاهدة والاستقراء والاستنتاج، وقد ألفت الكنيسة كتاباً في علم الجغرافيا كله أباطيل وخرافات أسمته الجغرافيا المسيحية: Christian geography وفي هذا الكتاب: أنّ الأرض مركز العالم وهي ثابتة لا حراك لها، وتؤكِّد على ما دوَّنه (بطليموس) اليوناني في علم الهيئة والفلك ومن خالف فهو كافر بنظر الكنيسة. ولكن المنجم اللهستاني (كوپرنيك) قام برصد الكواكب ثلاثين سنة وعَلم عِلم اليقين أنّ هيئة بطليموس هيئة باطلة وأنّ الكواكب ومن جملتها الأرض تدور حول الشمس وليست الأرض بمركز للعالم وإنما هي كأحد الكواكب التي تدور حول الشمس. وبما أنّ الحقائق التي لمسها (كوپرنيك) في كشفياته كانت تخالف أباطيل الكنيسة دوَّن رسالته في الفلك باللغة اللاتينية مع شيء من الإبهام والتورية، لا يطلع على مقصوده إلا من اشتغل بعلم الهيئة. ولكن (جردانو برونو)[2] العالم الإيطالي الجريء صار يصرح بما قاله (كوپرنيك) فحكم عليه من قبل كنيسة روما: أن يحرق حياً وقد أحرق، ولكن بعد ٣٠٠ سنة نصبوا له في الساحة التي أعدم فيها تمثالاً تخليداً لذكراه.

حتى جاء گاليله[3] (غاليليو) بمرقبه الذي كان يقرب البعيد ويسهل للراصد مشاهدة مسافات بعيدة، فوجّه تلسكوبه لأول مرة نحو السماء وإذا به يشاهد لأول مرة أن للمشتري أربعة توابع: أقمار، وتدور كلها حوله. وشاهد جبالاً شاهقة في قمرنا هذا وتمكّن من قياس ارتفاع تلك الجبال استناداً على ما لها من ظلال.

---

(١) السائل المحترم هو: محمد ملا ديوان الربيعي.

(٢) Jiordano Bruno.

(٣) Galilée.

إنّ اكتشافات (گاليله) كانت ضربة قاضية على هيئة بطليموس الخاطئة وأيدت نظريات (كوپرنيك) الهيئي اللهستاني. ففندت نظريات بطليموس وأرسطو!

فقامت قيامة الكنيسة والمخالفين ضد (گاليلة) وقالوا: إن تلسكوبه إنما هو جهاز شيطاني وهو من قبيل السحر فانعقدت نتيجة هذه المخالفات محكمة تفتيش العقائد في روما بشأن (گاليلة): (غاليليو) فاضطر گاليلة أن يتنازل عن عقيدته التي تؤيّدها الآلات والتجارب وأن يتوب من قولته الإلحادية! بشأن الأرض والسماء أمام (البابا)، فخضع في توبته للبابا وركع وانحنى بكل خضوع ومع ذلك أرسل إلى بيته ومنع من أن يلاقيه أحد وأن محاكم التفتيش صارت تراقبه مراقبة شديدة طوال حياته.

وقد أعدمت الكنيسة رجالاً كثيرين من علماء العلوم الطبيعية والكونية لأنّ تجاربهم العلمية كانت تعطي من النتائج ما يتنافى مع معتقدات الكنيسة الخرافية، فحصل شجار بين الكنيسة والعلم الحديث، فقال علماء أوروبا المحدثون: أن هناك تنافياً بين الدين والعلم، والعلم لا يوافق الدين: (الكنيسة) في شيء. وقد تفاقم هذا العداء بين الدين والعلم في أوروبا حتى قالوا: لا حاجة لنا إلى الدين في تسيير أمورنا الاجتماعية والاقتصادية والقضائية وأنّ علم البشر كافٍ لسن القوانين وتنظيم الأنظمة في شتى المجالات!!؟ ونبذ هؤلاء الكنيسة لظلمها الفاحش ومخالفتها للعلم المادي الصريح الذي تؤيِّده التجارب والمختبرات. وبنبذ الكنيسة نبذ الدين من أصله وظهر قوم يرون أنّ العلوم البشرية كافية لتسيير شؤون البشر في جميع الحقول وحدثت نظرية فلسفية جديدة سميت بـ (Laïcisme) أي الطريقة المادية أو الجسمانية أو الطريقة الدنيوية البحتة وLaïque باللغة الفرنسية أي ما هو غير منسوب إلى الرهبان والرهبنة وLaïcité أي عدم الانتساب إلى طريقة الرهبنة أو الرهبان، وقد ترجمت هذه الطريقة البشرية التي تعتمد على العلم البشري غير المستمد من السماء بالطريقة «العلمانية» أي تلك الطريقة التي تعتمد على ما يضعه البشر من نظم وقوانين في شتى الحقول، في حقل القضاء والعقوبات والقصاص والسياسة إلى ما هنالك دون استناد إلى ما جاء في الدين.

ولقد ترشحت هذه الفكرة: (العلمانية) من الغرب إلى الشرق نتيجة قياس مغلوط

ومقايسة نظريات الكنيسة المغلوطة بحقائق الإسلام الناصعة التي فيها حياة البشر في الدنيا والآخرة، فصار يقول قسم من أبناء الطبقة المثقّفة: إن الدين لا حق له في التدخل في شؤون الحياة السياسيّة.

وبما أنّ لفظ «العلمانية» يقترن في أذهان الناس بـ(التقدم)، فإن كل اقتراح لتنظيم الشؤون السياسية وتخطيط المناهج الاقتصادية والاجتماعية على أساس الدين ينظر إليه على أنه حركة رجعية، أو على أحسن الفروض، نظرية مثالية بعيدة عن مجال التطبيق العملي.

إن هناك أسباباً خاصة بالغرب وحده جعلت أهله على غير وفاق مع الدين ـ دينهم هم ـ ومثل هذا الخلاف تنعكس آثاره على الاضطراب الأخلاقي والاجتماعي والسياسي الذي يسود اليوم أجزاء واسعة من العالم. وبدلاً من أن يخضع الغربيُّون سلوكهم وأفعالهم لمعايير القانون الأخلاقي الذي هو ـ على أية حال ـ الغاية القصوى لجميع الأديان[١]، أصبحت «المصلحة» في اعتبار القوم هي القانون الوحيد المهيمن، الذي يجب أن تعالج على ضوئه كافة الشؤون العامة وحيث أن وجهات النظر فيما تنطبق عليه صفة «المصلحة» تختلف عادة من جماعة إلى جماعة ومن أمة لأخرى، فإنّ النتيجة الطبيعية لذلك هي ما نراه اليوم من اصطدام مروع بين المصالح المختلفة في الحقل السياسي. وهذا أمر طبيعي، فإن ما يبدو من الناحية العملية البحتة مقيداً لطائفة من الناس أو أمة من الأمم لا يجب أن يكون ـ وفي الأغلب لا يكون ـ مفيداً لطائفة أو أمة أخرى. وعلى هذا فإنه ما لم يخضع البشر تصرُّفاتهم في هذه الحياة الدنيا لتوجيه غاية من الغايات الأدبية أو لاعتبار خلقي معين، فإنّ مصالحهم الخاصة لابد أن تتصادم في نقطة أو أخرى، وكلما احتدم النضال بينهم تباعدت مصالحهم أكثر فأكثر، واختلط عليهم الأمر في معرفة الخير والشر في معاملة بعضهم بعضا[٢].

وإذا كانت المصالح لا ترتبط إلى مبدء واحد، تصادمت، ونشأت مذاهب شتى:

---

(١) منهاج الإسلام في الحكم ـ لمحمد أسد النمساوي، الذي اعتنق الدين الإسلامي وأصبح من دعاته.
(٢) منهاج الإسلام في الحكم: محمد أسد. ص٢٢.

الاشتراكية والرأسمالية وغيرهما من الأنظمة، فلو رجع البشر كلهم إلى دستور أخلاقي وأحكام يعينها الله تعالى من فوق عرشه وهو أعلم بمصالح البشر وما يصلحهم في الدنيا ويسعدهم في الآخرة لم يحدث أي خلاف أو اختلاف ولعاش البشر بهناء.

وإنّ الدين الذي لم تمسه اليد البشرية المحرفة بسوء هو دين الإسلام: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾ [الحجر: الآية ٩]، فلا يسعد البشر في شرق الأرض وغربها إلا بالتمسك بدين الإسلام وتطبيق قواعده وقوانينه المنطقية التي لا تصطدم مع المكتشفات الحديثة في شيء، فلا يحدث في الدين الإسلامي ما حدث في الغرب من عداء بين الدين ومكتشفات العصر الحديث في حقول المادة، بل في القرآن الكريم والأحاديث النبوية كنوز هي عصارة العلم الحديث. ولم يبتعد الإسلام عن المنطق الصحيح بحال، منطق لم تلوثه الشهوات والنزوات.

فنجاة العالم إنما هي باعتناق الدين الإسلامي وجعله ديناً عالمياً ونبذ العصبية العمياء والأنانية المهلكة وحب الرئاسة إلى ما هنالك من شهوات نفسانية لا تدع للعقل مجالاً للحكم الصحيح واختيار ما هو أصلح لدنيا موقتة وآخرة دائمية أبدية.

﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ۝١٧ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ۝١٨﴾ [الزُّمر: الآيتان ١٧/١٨].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ۝٢٤﴾ [الأنفال: الآية ٢٤].

ـ الامتناع عن الزواج ـ

س١: هل يعتبر خطأً إذا استمر الشاب في امتناعه عن الزواج مع العلم أنه يتمكن من جميع الجهات من أن يتزوّج.

التوقيع: حسن شاكر
كركوك: ناحية تازه خورما

الجواب: إن الدين الإسلامي يحث الناس على الزواج إلى حد لا مزيد عليه.

وهو القائل: ﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ ۚ إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٢﴾﴾ [النور: الآية ٣٢].

وعن النبي ﷺ على ما عليه الفريقان: «النكاح سنتي، فمن رغب عن سنتي فليس مني!»[١].

وعن الإمام الصادق عليه السلام قال: «تزوجوا، فإن رسول الله ﷺ قال: من أحب أن يتبع سنتي فإن من سنتي التزويج»[٢].

وفي الحديث النبوي: «ما بني بناء أحب إلى الله تعالى من التزويج»[٣].

وعن النبي ﷺ: من تزوج أحرز نصف دينه فليتقِّ الله في النصف الآخر[٤].

وفي بعض الأخبار أن الزواج موجب لسعة الرزق ففي خبر (اسحاق بن عمار) قلت لأبي عبدالله عليه السلام الحديث الذي يرويه الناس حق؟

إن رجلاً أتى النبي ﷺ فشكا إليه الحاجة، فأمره بالتزويج، حتى أمره ثلاث مرات. قال أبو عبدالله عليه السلام: إنه حق، ثلاث مرات، ثم قال عليه السلام: الرزق مع النساء والعيال[٥].

كما أنه: يستفاد من بعض الأخبار كراهة العزوبة فعن النبي ﷺ: أراذل موتاكم العزاب[٦].

فالنكاح واجب شرعاً لمن يقع في الضرر لو لم يتزوج أو يبتلي بالزنا.

فيستحب للرجال والنساء استحباباً مؤكّداً. ويجب إذا خيف العنت والغرور والوقوع في المحرم.

وترك الزواج إما مكروه شرعاً أو حرام، إذ في تركه جناية على النسل، وإضرار الأبدان وحرمان من أكبر اللذات المشروعة واحتمال الوقوع في الزنا أو في ما حرم الله وتعطيل الأعضاء التي خلقها الله تعالى في الإنسان لغايات معينة مقصودة.

س٢: هل يمكن وضع رسوم في البيت وخاصة الأئمة عليهم السلام مع العلم أني سمعت أن قسماً من الناس يقولون أنه حرام شرعاً.

---

(١)، (٢)، (٣)، (٤)، (٥) الكافي: ج٥، ص٣٢٨، باب كراهة العزوبة.

(٦) الكافي: ج٥، ص٣٣٠، باب أن التزويج يزيد في الرزق.

الجواب: في هذه المسألة خلاف بين الفقهاء وعلى كل مقلد أن يراجع من يقلده مع العلم أن الإسلام حرّم التصوير بقوله:

«إن من أشد الناس عذاباً يوم القيامة المصورين... الحديث». وقد حمل هذا الحديث: على التصوير بالقلم واليد، أي التنقيش أو النقش، لا بآلة التصوير.

ومنع الإسلام عن نحت أو صنع الشكل الآدمي. ومنع صنع المجسّمات على شكل إنسان. كل ذلك ابتعاداً عن عبادة الأوثان.

لذلك، تكره الصلاة مقابل تمثال ذي روح مجسماً كان أو غيره، وتزول الكراهة بالتغطية أو بنقصه نقصاً يخرجه عن صدق الصورة بل ورد أنه لا بأس إذا كان بعين واحدة. وتكره الصلاة في بيت فيه تمثال وإن لم يقابله.

وتكره الصلاة مقابل النار ولو غير مضرمة ابتعاداً عن عبادة المجوس لأنهم كانوا يعبدون النار. وإذا كانت النار عالية كالقنديل فالكراهة أشد.

وتكره الصلاة أمام السراج كذلك، فالإسلام يسعى لإبعاد الناس عن عبادة كل شيء «سوى الله المتعال».

ـ من جاهلية الغرب[1] ـ

لندن ـ سانا ـ في نبأ لرويتر أنه عثر على رئيس شركة استثمار، رأسمالها ٨ ملايين جنيه استرليني كانت قد انهارت، عثر عليه مقتولاً بالرصاص مع زوجته وطفليه في منزلهم أمس.

وعثر البوليس على مسدس تحت جثة الرجل ويدعى هنري بوين ديفيس. وكان قد قال لدائنيه بعد انهيار شركته في وقت سابق من هذا العام أن جميع أملاكي رهن تصرف المسؤول عن التصفية.

ويقدر عدد المستثمرين في الشركة بنحو ٧٠٠٠ شخصاً.

---

(١) من مجلة حضارة الإسلام، العدد: ٣، ٤، السنة الثامنة.

فرنسيّان ينتحران بإغراق سيارتهما في البحر

نيس ـ سانا ـ قالت صحف باريس إن فرنسيين انتحرا بإغراق سيارتهما في ميناء (نيس) بعد أن أغلقا جميع الأبواب ولم يتمكّن الغطاسون من كسر الأبواب لإنقاذهما. فماتا على الفور.

ويقول شهود العيان: أن الرجلين كانا يجلسان داخل العربة في منتهى الهدوء، ويبلغ عمر الأول ٦٣ سنة والثاني ٥٣ سنة.

كل يوم جريمة في ألمانيا

بون ـ سانا ـ ذكرت مجلة (كوبك) التي تصدر في ميونيخ من ألمانيا الغربية في تقرير لها عن الإجرام في ألمانيا الغربية: أنه لا يمر يوم في ألمانيا الغربية دون أن تقترف جريمة، أو ينتحر أحد المواطنين. ومضت اللجنة تقول: إنه اغتيل بطريقة ما ٤٤٢ شخصاً في عام ١٩٦٣ وارتفع الرقم إلى ٥٣٥ في عام ١٩٦٦، ويبدو أن الرقم في ارتفاع مطرد هذا العام أيضاً.

واختتمت المجلة تقريرها بقولها: إن الأرقام التي لا نعرفها قد تكون أعلى بكثير من هذه الأرقام المعروفة.

التنانير القصيرة

باريس ـ سانا ـ قال بوليس پاريس أمس إن سبب موجة حوادث الاغتصاب الحاضرة هو التنانير القصيرة.

وصرح ناطق باسم البوليس بأنّ الملابس «المثيرة» التي ترتديها الفتيات تجعلهن فريسة مختارة للغوغاء.

وقد تعرضت خمس فتيات بينهن سائحتان أمريكيتان عمر كل منهن ١٦ سنة للاعتداء في شوارع باريس خلال الأيام العشرة الماضية.

وقال الناطق إن هناك عاملاً آخر هو موجة الحر التي تجتاح فرنسا. فقد وصلت الحرارة إلى ٣٨ درجة مئوية في جنوب غرب فرنسا أمس.

والسحرة أيضاً لهم مؤتمرهم

نيويورك ـ سانا ـ ذكرت وكالة رويتر أن «مؤتمر السحرة الدولي» السنوي الأول سيعقد هنا في شهر آب.

وسيكون بين الذين سيحضرون المؤتمر في ١٩ آب و٢٠ منه هواة ومبصرون وقارئو أفكار ومنجمون وقارئو بخت.

الأزواج التعساء يقطعون الطريق على القانون

نيويورك ـ سانا ـ يتوجّه ألوف من سكان نيويورك ممن حطمت التعاسة زواجهم بسرعة إلى المكسيك الآن للحصول على طلاق عاجل قبل أن يسري مفعول قانون جديد للطلاق في ولاية نيويورك في أول أيلول القادم لاعتقادهم بأن القانون الجديد ربما أنهى الاعتراف بالطلاق الذي تقره المكسيك إلا أن الخلاف على تفسير القانون كما تقول وكالة رويتر ترك المحامين هنا غير متأكّدين مما سيحدث عند تطبيق القانون.

ولذلك فإنّ الكثير من أهالي نيويورك الذين يصرون على الطلاق يتوجّهون الآن إلى مدينة خواريس المكسيكية التي تقع عبر ريوغراندي من الولايات المتحدة ويمكن الحصول على الطلاق في هذه المدينة خلال ٢٤ ساعة على أساس اتفاق الطرفين وعلى أساس تنافر شخصيّتي المتزوّجين.

مستعجل... للجحيم

شنق فلاح فرنسي نفسه في بلدة (اميان) على دعامة خشبية وترك رسالة قصيرة قال فيها: إن المطر المستمر وتأخر المحصول جعلا الحياة مستحيلة بالنسبة له.

ماذا فقدت

اهتز الرأي العام (الفرنسي) في شهر (آب) لعدة جرائم تقشعر لها الأبدان. ففي بداية هذا الشهر، وخلال أسبوع وقعت أربع جرائم مريعة راحت ضحيّتها ثلاث فتيات وطفلة، وقد توفين كلهن أثر اعتداء أثيم عليهن.

ثم اجتاحت فرنسا موجة من الاعتداءات الجنسية على السائحات اللاتي ملأن شوارع باريس، وبلغت هذه الاعتداءات أقصاها هذا الأسبوع إذ بلغت ثمانية عشر اعتداء على الفتيات خلال ٤٨ ساعة فقط. وكان أبشعها ذاك الذي وقع على فتاة لا يزيد عمرها على ١٤ سنة. إذ اعتدى عليها، في يوم واحد، اثنا عشر شاباً... والغريب أنها توجهت إلى قسم الشرطة لتبلغه عن فقدانها.. لمحفظتها!! وبعد معرفة الحادث انتشر رجال الشرطة يبحثون عن الجناة المجرمين.

ما السبب

أعلن رئيس البوليس في باريس أن السبب في (ازدياد الجرائم الأخلاقية) لا يكمن في موجة الحر الشديد التي تجتاح فرنسا الآن. ولا في الفراغ الذي يتلو نهاية السنة الدراسية. ولا هو بتأثير الكميات الهائلة التي استهلكت من الخمور أثناء أعياد ١٤ تموز (سقوط الباستيل).

إنما المسؤول الأول هو هذا السيل الكبير من السائحات الفاتنات اللاتي يزحفن بلا انقطاع نحو العاصمة الفرنسيّة منذ بداية الشهر مرتديات (الميني جوب) أو (الميكرو جوب) التي تبدو وكأنها تتقلّص مع حرارة الشمس.

إلى السائقين

في الطرقات والشوارع في باريس إعلانات إلى سائقي السيارات أن ينظروا أمامهم بدلاً من أن يحلقوا في السيقان العارية.

أخلاقية لندن(١)

تدل الإحصائيات لسنة ١٩٦٦، أن واحدة من كل خمس من الانجليزيات اللواتي تجاوزن سن الخامسة عشرة لا تزال عذراء، ويتوقّع علماء الاجتماع في السنة ١٩٦٧

---

(١) نقلاً عن مجلة حضارة الإسلام، العدد السابع، للسنة الثامنة. سنة: ١٣٨٧هـ.

أن تفقد العذرية معناها في انكلترا كما تقول مجلة «بنتهاوس» وقد لا يزداد عدد الأطفال غير الشرعيين عما هو عليه الآن لأن حبوب منع الحمل والأغشية الواقية متوفّرة بثمن زهيد، ليس فقط في الصيدليات بل وفي قسم كبير من علب الليل.

بدأوا يدركون انحلالهم

وقعت في أميركا وفي بريطانيا عدة جرائم قتل جنسية، آخرها في بريطانيا جريمة كان ضحيتها شاباً عمره ١٧ سنة اسمه بيرنارد اوليفار، وقد بدا للشرطة من طريقة قتل الضحية وتوزيع الجثة أن القاتل من المختصين بتشريح الأجسام أو أنه ممن يتقنون الجراحة، وقد نشرت «الصنداي ميرور» بقلم نورمان لوكاس تقريراً عن هذه الجريمة جاء في آخره:

«جاءت هذه الجريمة ضمن سلسلة من الجرائم التي تعصف ببريطانيا الآن بسبب التدهور الأخلاقي الذي يعاني منه الغرب، ويعتقد علماء المجتمع المختصون أن تزايد الجريمة في بريطانيا يؤكّد أن ثمة هبوطاً في المستوى الأخلاقي ولكن لماذا يحدث كل هذا؟ ومن هو المسؤول عن هذا التيار العارم»؟

يؤكد البعض على أن تفسخ العائلة هو السبب في كل ذلك غير أنّ اندفاع المراهقين، وطيشهم هما أساس هذا الانهيار. وتؤكد سجلات البوليس أن الجرائم، وخاصة الاغتصاب والقتل ترتفع يوماً بعد يوم، وما من شك أن الشرطة البريطانية، وخاصة سكوتلنديارد تحاول بذل قصارى جهودها. غير أنَّ ذلك لا يمكن أن يتم بدون تغيير للأسس التي تستند عليها أخلاقية الغرب الجديدة.

نادي تبادل الزوجات الأمريكي

ضبط رجال البوليس في أتلانتا بولاية جورجيا الأميركية نادياً تنتشر فروعه في كبريات المدن الأمريكية، وهو يدير عمليّات تعارف غير مشروع بين أعضائه من الرجال والنساء كما تتم عن طريقة عمليات تبادل مؤقت للزوجات، وقال رجال البوليس أن للأعضاء أرقاماً سرية ويجب على كل مشتركة فيه أن تعطي مقاييس جسمها للإدارة.

جمعية هولندية تدعو لإلغاء الزواج

كوبنهاغن - تم افتتاح جمعية هولندية تدعو إلى الحرية الجنسيّة، وقد قام بتأسيسها ٢٢ من الشباب وستقوم الجمعية بالدعوة إلى إلغاء الزواج وإباحة الإجهاض والعلاقات الجنسية الشاذة!!.

الأخلاق الإنجليزية

جريدة نيويورك ديلي نيوز شنت هجوماً عنيفاً على الأخلاق الإنجليزية. . . الهجوم في رسالة كتبتها سيدة أمريكية عادت من جولة في أوربا. الرسالة تقول:

إن بريطانيا التي كانت ذات يوم دولة كبرى حولت اليوم كل إمكانياتها وجهودها للجنس والمغامرة. إن الإنكليز أناس بدون أخلاق والمرأة الأجنبية التي تزور بريطانيا مع زوجها عليها أن تلازمه طوال الأربع والعشرين ساعة لتحميه من النساء البريطانيات.

إدمان المخدرات يزداد بين طلبة الإنكليز

لندن - أثار مجلس اللوردات البريطاني في جلساته الأخيرة مشكلة انتشار إدمان المخدرات بين طلبة المدارس في بريطانيا وتبين من الإحصائيات التي ذكرت خلال هذه الجلسات أن عدد الطلبة المدمنين بلغ ٩٢٧ طالباً بزيادة قدرها ٢٣ في المائة.

الحلاق يقص شعره الطويل... والفتى يشنق نفسه

سيدني - رويتر - سانا - عثر على فتى في الرابعة عشرة مشنوقاً في منزله بسيدني بعد أن هرع من دكان حلاق حيث كان من المقرر أن يقص شعر رأسه الذي كان يتدلى على كتفيه.

وكانت أمه قد ناشدت المدرسة أن تساعدها في معالجة مشكلة شعر ابنها.

جمعية الأزواج المضطهدين تكوّنت في اسبانيا

مدريد - سانا - تأسست في اسبانيا جمعية اسمها - جمعية الأزواج المضطهدين -

مقرها مدريد، أعضاء هذه الجمعية هم الأزواج الذين يتولون مهام ـ ربة البيت ـ في بيوتهم أي الذين يؤدون الأعمال المنزلية من كنس وطهي وغسل الأطباق والملابس، كما يتولون أيضاً رعاية الأطفال، وقد قررت الجمعية ان تمنح كل شهر وساماً إلى ـ أتعس زوج ـ أول زوج حصل على هذا الوسام ضابط أمريكي كان يقضي شهر العسل مع عروسه في اسبانيا.

هوايتهما القتل ومصيرهما السجن

باريس ـ سانا ـ ذكرت وكالة رويتر أن البوليس الفرنسي اعتقل متسكعين هما رجل وامرأة يعتقد انهما قتلا ١٠ أشخاص على الأقل خلال السنوات القليلة الماضية.

ويقول رجال البوليس أنّ الرجل والمرأة وهما في العقد الخامس كانا يدفعان بضحيتهما إلى نهر السين بعد أن يقدما لها الخمر ويستوليا على ما تحمله من مال.

المطالبة بإباحة تعاطي المخدِّر في بريطانيا

لندن ـ سانا ـ في نبأ لرويتر أن فريق المغنِّين البيتلز واثنين من أعضاء البرلمان والمؤلف غراهام غرين كان بين عدد من كبار الشخصيات دعت إلى سياسة جديدة إزاء الأشخاص الذين يتعاطون مخدر الماريجوانا في بريطانيا.

أكلة دجاج وسط جثث بشرية(١)

فيتوريا البرازيل ـ سانا ـ ذكر البوليس أن رجلاً وزوجته تناولا عشاء من الدجاج وهما محاطان بجثث أسرة قتل أفرادها بوحشية بسبب خلاف على دين تقلّ قيمته عن جنيه استرليني واحد.

وبدأت المتاعب منذ أيام عندما طالب ايفو سنترا وعمره ٣٥ عاماً صديقة فاليفينو لورنكو دي شوسا وعمره ٢٨ عاماً وهما يصطادان السمك معاً بإبقاء الدين.

---

(١) من مجلة حضارة الإسلام. العدد: ١، ٢، السنة الثامنة.

وثار غضب فالديفينو فقتل صديقه بسكّين كبير ثم قام بمساعدة زوجته التي تبلغ السادسة عشرة بقتل زوجة ايفو واطفاله الثلاثة بالرصاص والضرب بالهراوات والمدي.

وقالت رويتر أن الزوجين ذبحا بعد ذلك أفضل دجاجات الأسرة وتناولا العشاء وهما محاطان بالجثث ثم دفنا القتلى بعد حلول الظلام.

وقال البوليس أن الزوجين اعترفا عندما اعتقلا بأن أحد الأطفال وهو انادير الذي يبلغ الثانية كان لا يزال حياً ويئن عندما دفناه.

حل مشكلة التسول بإلقاء المتسولين في النهر

ريودي جانيرو ـ سانا ـ أعلن مسؤول في ريودي جانيرو بأنه تمّ العثور على جثث ٦٥ متسولاً في نهر جوردا في البرازيل خلال الأشهر الثلاث الماضية. وأعرب المسؤولون عن قلقهم من أن يكون رجال البوليس يساهمون في حل مشكلة التسول بإلقاء المتسولين في النهر وقدم أربعة من رجال البوليس للمحاكمة.

واعترف أحدهم بأنه أغرق وأطلق الرصاص على ١٤ متسولاً.

أين تكون الجنة والنار؟

سألني أحد الناس سؤالاً مدهشاً ومثيراً بالنسبة لي. قال: هل تعرف أين تكون الجنة وأين تجمع أرواح البشر وأين توجد النار وإضافة إلى ذلك فقد قال لي: هل تعتقد أن الجنة والنار في السماء أم في الأرض؟

التوقيع: السيد مهدي صالح الحسني

الجواب: إن علم الفلك الحديث، لا سيما علم الفلك اللاسلكي قد أثبت أنّ ما خلق الله من عوالم: من كواكب وشموس وأقمار ومَجَرات لا تعدّ ولا تحصى، وتأتينا إشارات لاسلكية من أنجم بعيدة عنّا آلاف الملايين من السنين الضوئيّة، والسنة الضوئية، هي المسافة التي يقطعها الضوء بسرعته المدهشة: (٣٠٠,٠٠٠ كيلومتر في الثانية) خلال سنة واحدة. وتقدر بعشر مليون مليون كيلومتراً. وكلما تكاملت آلات الرصد عثرنا على أنجم وكرات وراء ما عثرنا عليه الآن، وإن هذه الأنجم والمجرات

التي تستوعب ملايين ملايين من الأنجم تتباعد بعضها عن بعض بسرعة هائلة، أي بسرعة ١٥٠,٠٠٠ كيلومتر في الثانية في بعض الأحيان وتتّسع السماء بسرعة مُدهشة ولا يمكن لفلكي أن يحدّد سعة السماء، وهو قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [الذّاريَات: الآية ٤٧].

لا نتمكن من تعيين موقع الجنة أو موقع جهنم بالضبط لعدم تناهي الأبعاد. إلا أنا بعد أن ثبت لدينا نبوّة نبيّنا محمدﷺ وسلم بالمعاجز الكثيرة والبراهين الساطعة وبقرآن أنزل عليه، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، نصدق بكل ما جاء في الكتاب المنزل من جانب ربّ العالمين.

فإنّ الجنة حسب هذه الآية المباركة كانت مخلوقة حيث هبط منها نبينا آدم، أبو البشر عليه السلام.

على حد قوله تعالى:

﴿فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾﴾ [طه: الآيات ١١٧/ ١٢٦].

﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ﴾ [البَقَرَة: الآية ٣٥].

فالجنّة مخلوقة وكذلك جهنم لهذه الرواية: يقول الإمام الصادق عليه السلام: «بينما كان رسول اللهﷺ ذات يوم قاعداً إذ نزل جبرئيل كئيباً حزيناً، فقال له رسول اللهﷺ: يا أخي جبرئيل، ما لي أراك كئيباً حزيناً؟ فقال: كيف لا أكون كذلك وقد وضعت منافيخ جهنم اليوم. فقال: وما منافيخ جهنم؟ قال: إنّ الله أمر بالنار، فأوقد عليها ألف عام حتى احمرّت، ثم أوقد عليها ألف عام حتى ابيضّت، ثم أوقد عليها ألف عام حتى

اسودّت، فهي سوداء مظلمة، ظلمات بعضها فوق بعض، فلو أنّ حلقة من السلسلة التي طولها سبعون ذراعاً وضعت على الجبال لذابت من حرها. ولو أن قطرة من الزقوم والضريع قطرت في شراب أهل الدنيا لمات أهلها من نتنها، فبكى رسول الله ﷺ وبكى جبرئيل عليه السلام، فأوصى الله إليهما قد أمنتكما أن تذنبا ذنباً تستحقان به النار. ولكن هكذا كونا»[1].

لذلك كان إبراهيم عليه السلام يُسمع منه أزيز كأزيز المرجل من خوف الله تعالى في صدره وكذلك نبيّنا نبي الرحمة محمّد بن عبدالله ﷺ.

ومما أسلفنا يُعلم أنّ الجنة والنار هما في السماء. على أنّ في باطن الأرض من المعادن المذابة في درجات عالية من الحرارة جداً ولكنها ليست بجهنّم التي ينذر الله بها عباده، قائلاً: ﴿يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ﴾ [الزُّمَر: الآية ١٦].

وأما اجتماع أرواح البشر ففي السماء ولعلّها السماء الرابعة أو غيرها. وإنّ المشتغلين في عوالم الأرواح وإحضار الأرواح يخبروننا أن الأرواح في إحدى السماوات السبع من العالم الأثيري، تختلف كل سماء من غيرها حسب درجة اهتزاز الأثير وطول الموجة، يُرجى مراجعة كتاب على حافة العالم الأثيري: والله العالم بحقائق الأمور. فـ(الناس نيام، فإذا ماتوا انتبهوا).

ماذا كان في الدنيا قبل خلق الأرض[2]؟

عندما انفصلت الأرض عن الشمس كانت قطعة ملتهبة في درجات عالية من الحرارة. ما كان يعيش عليها أي كائن حي حتى إذا بردت بأمر الله تعالى وأمطرت السماء بأمره تجمد سطحها لوجود معادن مذابة في باطنها في درجات فائقة من الحرارة، لذلك أمسى سطح الأرض منخفضاً في مكان ومرتفعاً في مكان آخر بجنبه، فالمرتفعات أصبحت جبالاً والمنخفضات بحاراً ملئت بمياه الأمطار الغزيرة. وقد

---

(١) إرشاد القلوب: ج١، ص١٠٦، باب ٢٨.
(٢) السائل المحترم هو عبدالقادر سليمان، تلعفر، محلة القلعة.

وجد أول ما وجد الكائن الحي في الماء على ما ثبت في علم الأحياء ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ [الأنبياء: الآية ٣٠].

وهكذا تعددت الكائنات الحية من نبات وحيوان. وهبط على الأرض الإنسان من الجنة. على حد قوله تعالى: ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [البقرة: الآية ٣٨].

أي شيء يبقى على وجه الأرض عندما تقوم الساعة؟

إنه تعالى يخبرنا في قرآنه الحكيم:

﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾ [الرَّحمن: الآيتان ٢٦/٢٧].

فيفنى كل ما على الأرض ولا تبقى أرضنا هذه. بل تتبدل إلى أرض أخرى. تتحوّل بادئ ذي بدء إلى طاقات هائلة، ثم هذه الطاقات تتحوّل بأمره تعالى إلى أرض أخرى وهكذا شأن السماوات، وهو قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾﴾ [إبراهيم: الآية ٤٨].

ويعرض الناس إذ ذاك على الله للحساب ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ ﴿٢٩﴾ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾﴾ [الحاقة: الآيات ١٨/ ٣٠].

الإعالة والزواج

س١: هل صحيح هذا الرأي وهو رأي «مالتس»: أن الرجل يجب أن لا يقدم على الزواج إلا عندما يجد في نفسه المقدرة على إعالة أولاده ولماذا؟

علي بن حسان الشويلي
بغداد بياع ٨٨ ـ ١٤

الجواب: إن الزواج أمر ضروري لشبابنا اليوم، لئلا يقعوا في المهاوي والمهالك وكبائر الذنوب والآثام: ذلك لأنّ المغريات في هذا العصر حتى في البلاد الإسلامية أضعاف ما كان عليه في العصور الغابرة.

ففي الطريق والكتب والمجلات والجرائد والسينما والتلفزيون والراديو أنواع المغريات مما يجعل الشاب مضطرباً قلقاً إلى أبعد الحدود إلا من عَصَم الله تعالى، إلا من كان مبتهلاً إلى الله جوف الليل وفي أطراف النهار، بتهجد وتبتل وتحميد وتسبيح، وهذا النوع من الشباب يكاد أن يكون معدوماً أو نادراً جداً في يومنا هذا.

وليس هناك شيء يورث الشكوك والريب ويبعد الإنسان عن ساحة القدس الإلهية ككبائر الذنوب ومن أخطرها الزنا واللواط. وهو قوله تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ عَـٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَـٰٓـُٔوا۟ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾﴾ [الرُّوم: الآية ١٠].

وفي آية أخرى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ﴾ [المَائدة: الآية ١٠٨] ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَـٰتٍۭ بَيِّنَـٰتٍ ۖ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴿٩٩﴾﴾ [البَقَرَة: الآية ٩٩] فمآل الفسق: الكفر والجحود. والكافر لا محالة في النار.

وفي الحديث: «أما والله لولا النساء لعبد الله حقاً حقاً».

وفي خبر آخر رواه الأصبغ بن نباتة عن أمير المؤمنين عليعليه السلام: «تظهر في آخر الزمان واقتراب الساعة ـ وهو شر الأزمنة ـ نسوة كاشفات عاريات متبرّجات خارجات من الدين، داخلات في الفتن، مائلات إلى الشهوات، مسرعات إلى اللذّات، مستحلات للمحرّمات في جهنم داخلات خالدات»(١).

لذلك شدد الدين الإسلامي النكير على مرتكبي الكبائر دفعاً لسوء العاقبة وهو الكفر. شدد النكير بأن جعل عقاب الزاني غير المحصّن(٢) ١٠٠ جلدة وعقاب الزاني المحصن الرجم وعقاب كل من اللائط والملوط: القتل أو الحرق أو الرجم(٣) سواء

---

(١) من لا يحضره الفقيه: ج٣، ص٣٩٠.

(٢) المحصن هو المتزوج والمحصنة هي المتزوجة.

(٣) يراجع الجزء الثاني من كتاب التكامل في الإسلام.

كان كل منهما محصّناً أو غير محصّن.

وجعل جزاء شارب الخمر ثمانين جلدة. كل ذلك: حفظاً لحسن العاقبة وابتعاداً عن الكفر أو الشرك، وفي الحديث: شارب الخمر كعابد وثن.

فحري بالشاب إن أراد المحافظة على عقيدته ودينه أن يبكر في الزواج وأن يتوكّل على الله المتعال في رزقه ورزق عياله.

إنه تعالى يقول: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾﴾ [الذّاريات: الآيات ٥٦/٥٨].

ويقول جلّ من قائل: ﴿وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الذّاريات: الآيتان ٢٢/٢٣].

فليتوكل الشاب على الله تعالى وليثق بوعده ويبكر في الزواج كي يستريح من ويلات هذا العصر المدلهم ويرى أنوار الإيمان الناصعة كيف تشرق في نفسه، فيلتذ بهذا الاتصال الروحي: بالمبدأ الأعلى والعروج إلى معالم القدس. حيث الغاية القصوى من وجودنا في هذه الحياة الدنيوية المؤقّتة، حياة الاختبار والتهيؤ لآخرة سعيدة لجنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين.

إنه تعالى يقول: ﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ ۚ إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٢﴾﴾ [النُّور: الآية ٣٢].

فالله أمر الناس بالزواج ووعدهم بالغنى ورفع الفاقة عنهم ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا﴾ [النِّساء: الآية ١٢٢]. فليعتمد الشاب على قوله تعالى ووعده الذي لا خلاف فيه، وليتزوج بطريق اقتصادي، دونما تكلف من ناحيتي الزوج والزوجة.

وكم سمعنا من أناس أتيحت لهم الفرص لزواج مبكّر ولكنهم رفضوا وأغواهم الشيطان وأغراهم بطول الأمل فولجوا في حضيض الشهوات ومزالق الفسق. فتدنّست نفوسهم وضعفت نتيجة ذلك عقائدهم. واعترتهم الشكوك من حيث لا يحتسبون. فصاروا ينكرون بعض ضروريات الدين ويستهزئون ببعض المقدسات. ﴿ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾﴾ [الكهف: الآية ١٠٤].

ثم أنه تعالى يقول: ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [النُّور: الآية ٣٣] فعلى الشاب أن يأخذ التعفف والعفاف شعاراً ويسأل الله أن يمن عليه بمال يتمكّن معه من الزواج.

وقد قال جل من قائل: ﴿ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: الآية ٦٠] فكم من أعمال عبادية: «من صلاة وذكر تؤدي إلى استجابة الدعاء»[(١)].

وإن الشاب الذي لم يرتكب الذنوب أقرب إلى الله من غيره. فيستجيب الله دعاءه عاجلاً بمنه ولطفه.

وكم يشعر العبد بفرح لا مزيد عليه عندما يرى لطف الله يشمله ويستجيب الله دعاءه ويقضي حاجته نتيجة بعض الأعمال العبادية البسيطة. فهو فرح بأنه تعالى جعله موضع غايته ولطفه وكرمه.

وقد يؤخّر الله استجابة دعاء العبد لمصلحة هناك، خفيت علينا. فعلى العبد أن يزداد خشوعاً وتوسلاً. فالله أراد أن يقرّبه إليه أكثر فأكثر وعليه أن لا ييأس من روح الله ورحمته ويلح في الدعاء. فإن الله يحب الملحّين في المسألة والدعاء. والله تعالى يستجيب دعاءه ويمن عليه بزوجة صالحة بعد تهيئة أسباب الزواج بلطفه وكرمه.

وكم سمعنا ورأينا معاجز في استجابة الدعاء وتهيئة الله تعالى العوامل التي بها تقضي الحاجات. فنعم العبد عبد دعا الله فاستجاب دعاءه وقضى بمنه حاجته.

وفي الحديث النبوي: «النكاح سنتي فمن رغب عن سنتي فليس مني».

وفي الحديث النبوي أيضاً: «ما بُنيَ بناء أحب إلى الله تعالى من التزويج».

وعن النبيﷺ: «من تزوج أحرز نصف دينه. فليتّقِ الله في النصف الآخر».

وفي حديث آخر: «يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج. ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء»[(٢)].

معنى الباءة هنا مؤنة النكاح ومعنى أحصن للفرج أي أشد منعاً للشاب من الوقوع في الفاحشة.

---

(١) ذكرنا البعض منها في نهاية الجزء الخامس من كتاب التكامل في الإسلام.

(٢) مستدرك الوسائل: ج١٤، ص١٥٣، باب ١.

وتسمية الصوم في الحديث (وجاءاً) من باب الاستعارة لعلاقة المشابهة. لأنّ الصوم لما كان مؤثراً في ضعف شهوة النكاح شبه بالوجاء.

وفي بعض الأخبار أن النكاح موجب لمزيد الرزق.

ففي خبر إسحاق بن عمار. قلت لأبي عبدالله عليه السلام، الحديث الذي يرويه الناس حق؟ أن رجلاً أتى النبي صلى الله عليه وآله فشكا إليه الحاجة. فأمره بالتزويج حتى أمره ثلاث مرات. قال أبو عبدالله عليه السلام: نعم هو حق. ثم قال عليه السلام: الرزق مع النساء والعيال.

* * *

إن الإنسان إنما خلق لآخرة سعيدة إن كان من الصالحين. فليعمل للبلوغ إلى سعادة الآخرة وما قيمة عمر قضي في الشهوات والملاذ غير المشروعة إذا كانت العاقبة الخلود في نار سجرها ربها لغضبه.

وقد قال الإمام علي عليه السلام: «ماذا يصنع بالدنيا من خلق للآخرة». وقال: «إنما الدنيا دار مجاز والآخرة دار قرار فخذوا من ممركم لمقركم». وقال: «أخرجوا من الدنيا قلوبكم قبل أن تخرج منها أبدانكم. ففيها اختبرتم ولغيرها خلقتم»[(١)].

لشاب أن يقول من أين أئتي بالمال للزواج فالشاب لو كان مخلصاً في نيته ومتوجِّهاً بكله إلى الحق المتعال يعرض قضية زواجه إلى بعض الأخيار والصلحاء فالله يهيئ له الوسائل حتماً.

وإنّ بيت مال المسلمين كان يعمل في تزويج العزاب فيما مضى. وياحبذا لو تشكلت جمعية من خيار التجار وجعلوا مهمّتهم تزويج العُزّاب وتهيئة عمل لهم فقد سمعت أنَّ أحد خيار التجار كان قد تصدّى إلى تزويج ٧٠ علوياً. وكان ممن حسنت عاقبته وذهب إلى روح وريحان قرير العين.

وقد يخشى الشاب من كثرة الأولاد والبنات وصعوبة تربيتهم وإعاشتهم. وله أن يمنع الولادة بطريق مشروع وأن يعزل برضاء زوجته. وأن يحدِّد عدد الأولاد والبنات.

على أنّ الله تبارك وتعالى ما خلق خلقاً إلا وقد هيأ له رزقه ووسائل حياته قبل

---

(١) راجع: كتاب غرر الحكم، للإمام علي عليه السلام ونهج البلاغة.

خلقه وبهذا المضمون أحاديث كثيرة.

وفي القرآن كما ذكرنا: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الذّاريات: الآيتان ٢٢/٢٣]. فلا ينبغي أن يخشى الإنسان من كثرة الأولاد والبنات فالله رازقهم وإذا تعسّر الرزق أحياناً فلمصلحة واختبار وامتحان ومزيد أجر وتكفير للذنوب، وما على العبد إلا أن يتضرّع إلى الله تعالى ويسعى السعي الحثيث لطلب الرزق، فهو الجهاد كما جاء في منطوق بعض الأحاديث.

قال رسول الله ﷺ: «تناكحوا تناسلوا فإني أُباهي بكم الأمم يوم القيامة ولو بالسقط»(١) وإن لكثرة النفوس أثرها المرموق في بسط نفوذ الإسلام في العالم.

قال الإمام الصادق عليه السلام ركعتان يصليها المتزوّج أفضل من سبعين ركعة يصليها العزب.

قال رسول الله ﷺ: أراذل موتاكم العزاب.

وقال أيضاً: «لم يرسلني الله بالرهبانية وإنما بعثني بالحنيفية السمحة أصوم وأصلي وألمس أهلي، فمن أحب فطرتي فليستنّ بسنتي ومن سنتي النكاح»(٢).

قال رسول الله ﷺ من ترك التزويج مخافةَ العيلة فقد ساء ظنّه بالله عزّوجل إن الله عزّوجل يقول: ﴿إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [النُّور: الآية ٣٢](٣).

وقال ﷺ: «تزوجوا للرزق، فإن فيهن البركة»(٤).

وقال ﷺ: «من عمل في تزويج بين مؤمنين حتى يجمع بينهما زوّجه الله ألف امرأة من حور العين»(٥).

وقال الإمام الصادق عليه السلام: «إذا تزوج الرجل المرأة لجمالها أو لمالها وُكّل إلى ذلك. وإذا تزوجها لدينها رزقه الله المال والجمال»(٦).

ويستحب عند إرادة التزويج (قبل تعيين المرأة وخطبتها) صلاة ركعتين والدعاء

---

(١) وسائل الشيعة: ج٢٠، ص٥٥، باب ١٧.

(٢) الكافي: ج٥، ص٤٩٤، باب كراهية الرهبانية.

(٣)،(٤) الكافي: ج٥، ص٣٣٠، باب أن التزويج يزيد في الرزق.

(٥)،(٦) الكافي: ج٥، ص٣٣٣، باب فضل من تزوج.

بعدهما بالمأثور، وهو «اللهم إني أريد أن أتزوج، فقدر لي من النساء أعفَهن فرجاً وأحفظهن لي في نفسها ومالي وأوسعهن رزقاً وأعظمهنّ بركة وقدّر لي ولداً طيّباً تجعله خلفاً صالحاً في حياتي وبعد موتي»[١].

وسدَّ الدين الإسلامي طرق تفريغ الشهوة بأشكال غير مشروعة على الإنسان تعميماً للزواج ولئلا تبقى نساء غير متزوجات فيؤدي ذلك إلى فساد في الأرض ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٠٥].

فمن وطأ بهيمة عزّر وإن عاد يقتل في المرة الرابعة والبهيمة إن كانت مأكولة اللحم حرم لحمها ولحم نسلها بعد الوطء بل تذبح وتحرق ويغرم الواطئ قيمتها لصاحبها وإن لم تكن صالحة للأكل كالخيل وغيره بيعت في بلد آخر ويتصدّق بثمنها والغرامة على الواطئ أيضاً.

وحد المساحقة هو حد الزنا لكل من الفاعلة والمفعولة أي مائة جلدة، وتقتلان في المرة الرابعة، وإن كانتا محصنتين «متزوجتين» فتقتلان في المرة الأولى.

والذي يقوم بالقيادة أي يجمع بين فاعلي الفاحشة كاللواط أو الزنا أو المساحقة يضرب خمسة وسبعين جلدة ويحلق رأسه ويشهر في البلد وينفى عنه إلى غيره من الأمصار ويعزر المستمني من ذكر وأنثى حسب نظر الإمام أو نائبه.

ونكرر حد شارب الخمر مزيداً للفائدة. فمن شرب خمراً أو فقاعاً أو عصيراً[٢] قبل ذهاب ثلثيه أو نحوها من أنواع المسكرات القديمة منها والحديثة، عالماً عامداً بالغاً: يضرب ثمانين جلدة عارياً على كتفه وظهره دون وجهه ومذاكيره ضرباً مؤلماً. ولو عاد إليه يقتل في المرة الرابعة ولو شربها مستحلاً فهو مرتد يجب قتله. وبايع المسكرات يستتاب فإن تاب فهو، وإلا يقتل.

هذه هي سنن الله القويمة، الصالحة في الأرض تقلع بها جذور الفساد لو طبقت، وتصلح بها النفوس وتتوجه بكلها إلى بارئها فتأخذ في دورها التكاملي، لتفوز بسعادة النشأتين.

---

(١) الكافي: ج٣، ص٤٨١.

(٢) عصير العنب (أي النبيذ).

وهذا الفوز هو فلسفة الوجود والحياة، فلسفة يقرها العقل والمنطق الصحيح. لو بقي العقل على صفائه ولم يتلوث بالذنوب والآثام.

﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [القلم: الآيتان ٣٥/ ٣٦].

﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُۥنَ ﴿١٨﴾ أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُوا۟ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَآ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [السَّجدة: الآيات ١٨/ ٢٠].

حركة الشمس

السؤال الأول: ما تفسير هذه الآية[١]:

﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾﴾ [يس: الآية ٣٨].

الجواب: إن هذه الآية من الآيات التي تبرهن على إعجاز القرآن، فقد نزلت في وقت لم يكن علم الفلك إلا كألف باء بالنسبة إلى ما بلغ إليه علم الفلك في الوقت الحاضر، نزلت في وقت كان يقول فيه علماء اليونان: إن الأرض مركز العالم وكل الكواكب والأنجم تدور حولها. حتى إذا كان القرن السادس عشر الميلادي جاء الفلكيان كوبرنيك وكبلر وجاء غاليله بمرقبه وتقدمت الرياضيات العالية والميكانيك الأرضي والسماوي، ثبت لدى الفلكيين أن الأرض تدور حول الشمس على شكل اهليلجي وأن لا حركة للشمس وأن الكواكب تدور حولها، على شكل منحنٍ معادلته:

$$\frac{س^{٢}}{ب^{٢}} + \frac{ص^{٢}}{حـ^{٢}} = ١$$

حتى كان القرن العشرون الميلادي وتقدمت الرياضيات العالية بما فيها الميكانيك السماوي، وصنعت مراقب Telescopes كبيرة جداً وعلم أن للشمس حركة خاصة بها، وهي تسير بسرعة ٢٠ كيلومتراً تقريباً في الثانية أي بسرعة (٧٠٠٠٠) كيلومتر على وجه

(١) السائل المحترم هو: مهدي نجل المرحوم الشيخ صالح الأسدي ـ جلولاء.

التقريب في الساعة على شكل لولبي سائرة نحو نجمة تسمى بـ(النسر الواقع)، تُرى ثابتة لبعدها السحيق. وهي تستقر بعد قطع هذه المراحل حيث شاء الله تعالى وأغلب الظن أن هذا الاستقرار سيكون قبل يوم القيامة، ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾﴾ [إبراهيم: الآية ٤٨] .

أوقات الصلاة

السؤال الثاني: نرجو شرح أوقات الصلوات الخمس، الظهر ٤ ركعات، العصر ٤ ركعات، المغرب ٣ ركعات، العشاء ٤ ركعات، الصبح ٢ (ركعتان) ولماذا قسمت بهذا التقسيم؟ وهل هذا التقسيم يدل على شيء أراد الله سبحانه وتعالى إثباته للبشر؟

ج: عزيزي السائل حفظه الله: ما من حكم من أحكام الله تعالى في الشريعة الإسلامية إلا وله حكمة وفوائد جمة قد يجلو لنا البعض منها ويخفى عنا الكثير منها. فالله تعالى إنما جعل عدد ركعات الظهر ٤، لأنّ الإنسان له من النشاط قبيل الظهر ما يجعله أن يؤدّيها، على أن أداء ٤ ركعات لا يستغرق شيئاً من الوقت ولا يتعب هذا الإنسان، ثم إنه تعالى يريد بالإنسان أن يذكره بين فترة وفترة، لئلا يتغلب عليه الشيطان. ولئلا تتراكم عليه ذنوبه. فالله يريد بعبده أن يذكره في وسط النهار حيث تتراكم الأشغال كي لا تتغلب عليه دنياه فتبعده عن ساحة القدس. ولذلك يقول جلّ من قائل:

﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٣٨] .

وقد فسرت: الصلاة الوسطى، بصلاة الظهر. وأما صلاة العصر. فللإنسان نشاطه بعد شيء من الراحة، فيؤدي ٤ ركعات حتى أن نوافل الظهر ٨ ركعات جُعلت قبل أداء صلاة الظهر، وكذلك نوافل صلاة العصر ٨ ركعات قبل صلاة العصر. ذلك لأن الإنسان في ضوء النهار له من النشاط ما يمكنه من أداء النوافل.

وأما صلاة المغرب، فقد جعلها الله تعالى ٣ ركعات كحدٍّ وسط بين تعب النهار وراحة الليل. ثم بعد شيء من الراحة تأتي صلاة العشاء: ٤ ركعات وقد جعلت صلاة الصبح ركعتين، لأنّ الإنسان يشعر بشيء من الكسل عند نهوضه من النوم صباحاً.

أما الأوقات: فوقت الظهرين من الزوال إلى الغروب وتختص الظهر من أوله بمقدار أدائها بحسب حاله والعصر من آخره كذلك.

ولكن وقت فضيلة الظهر من الزوال إلى بلوغ الظل الحادث بعد الانعدام أو الانتهاء مثل الشاخص. ووقت فضيلة العصر من المثل إلى المثلين على المشهور. والأحوط في إحراز الفضيلة تأخير العصر إلى القدمين أي سبعي الشاخص.

ووقت العشائين (صلاة المغرب والعشاء) من الغروب إلى نصف الليل وتختص المغرب من أوله بمقدار أدائها والعشاء من آخره كذلك مع الاختيار أما للمضطّر لنوم أو نسيان أو حيض أو نحو ذلك فيمتد وقتهما إلى طلوع الفجر وتختص العشاء من آخره بمقدار أدائها. (يرجى مراجعة المجتهد المقلَّد في ذلك).

ووقت فضيلة المغرب من الغروب إلى ذهاب الحمرة المغربية، ووقت فضيلة العشاء من ذهاب الشفق إلى ثلث الليل.

ووقت صلاة الصبح ما بين طلوع الفجر الصادق إلى طلوع الشمس.

ووقت فضيلة صلاة الصبح من طلوع الفجر الصادق إلى ظهور الحمرة المشرقية على المشهور.

المتعة

السؤال الثالث: إن المتعة في حكم القرآن حلال مما يدل عليه الآية: ﴿فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ [النِّساء: الآية ٢٤]. نرجو شرح الآية مع العلم أنَّ بعض المذاهب الإسلامية تحرِّم المتعة. نرجو الدليل على ذلك وعلى تحليلها؟

الجواب: إن الآية المذكورة على ما جاء في مسند ابن حنبل ـ إمام الحنابلة ـ نزلت في متعة النساء.

إلا أن عمر قد حرم المتعة بقوله: «متعتان كانتا على عهد رسول الله ﷺ وعلى عهد أبي بكر وأنا أنهي عنهما».

مع العلم أنّ حلال محمد حلال إلى يوم القيامة وحرامه حرام إلى يوم القيامة.

وقد روى الجاحظ والقرطبي والفخر الرازي وغيرهم من أعلام السنة أن عمر قال في خطبته «متعتان كانتا على عهد رسول الله ﷺ وأنا أنهي عنهما وأعاقب عليهما : متعة الحج ومتعة النساء».

وإنما شرعت متعة النساء لئلا يقع الشاب في مزالق الزنا ومهابط الفجور. فإنّ الفسق مؤدٍّ إلى ذهاب الإيمان. وهو القائل.

﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍۖ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٩٩﴾﴾ [البَقَرَة: الآية ٩٩].

إن الإسلام دين الواقع، يعالج المشاكل الاجتماعية معالجة جذرية فيها من التقوى والطهارة ما لا يدع مجالاً لتلوث النفس الإنسانية.

فقد يسافر الشاب إلى بلاد نائية وليس معه زوجته أو هو أعزب، ولا يقوى على كبح شهوته. فيفتّش عن زوجة يتزوّجها بزواج مؤقت. لا يختلف عن الزواج الدائم إلا بتحديد الوقت وانقضاء مدة الزواج بانقضاء الوقت المؤجل. ولا توارث بين الزوج والزوجة إلا بشرط ضمن العقد (على قولٍ) وأما صيغة العقد الشرعي: فتقول المرأة (بعد تعيين المهر والأجل) للرجل: «متعتك نفسي على المهر المعلوم في المدة المعلومة، ويقول القابل وهو الرجل (للزوجة):

قبلت المتعة. . . أو

قبلت التزويج. . . أو

قبلت النكاح. . .

ويتم كل شيء ويخرج الشاب من دنس الحرام إلى طهارة الحلال[١]. ولا تبين الزوجة المتمع بها بالطلاق حيث لا طلاق لها وإنما تبين بانقضاء مدّتها أو أن يهب الرجل باقي المدة لها. فإن لم يدخل بها فليس لها عدة وإن كان قد دخل بها فإن كانت

---

(١) فإن لم تتمكن الزوجة المتمتع بها من إجراء الصيغة باللغة العربية مع القصد وفهم المعنى فحسب رأي بعض المجتهدين لها أن تجري الصيغة بلغة أخرى أو بلغتها، كالفارسية أو الإنكليزية أو الفرنسية مع القصد. وللرجل أن يقبل بلغة تفهمها المرأة المزمع زواجها بزواج مؤقت أو دائم فلابد من القصد وفهم المعنى، وفي كل هذه المسائل يراجع المجتهد المقلد لأنها خلافية.

غير بالغة أو كانت يائسة فلا عدة عليها وإلا فعليها العدة وهي حيضتان وإن كانت لا تحيض وهي في سن من تحيض فعدتها خمسة وأربعون يوماً. وأما إذا كانت حاملاً فعدتها إلى أن تضع حملها على أشكال والأحوط مراعاة أبعد الأجلين من وضع الحمل ومن انقضاء خمسة وأربعين يوماً أو الحيضتين. وإنّ عدّتها لوفاة زوجها فهي كالزوجة الدائمة أربعة أشهر وعشرة أيام إذا لم تكن حاملاً، وإن كانت حاملاً فبأبعد الأجلين.

العلق في قوله تعالى:
خلق الإنسان من عَلَق(١)

جاء في كتب اللغة، إن العلق: دويبة سوداء تمتص الدم. وقد ثبت في عام ١٧٦٧م: أن في المنيّ حوينات تشبه العلق. ولم تعرف قبل هذا العام الحيوانات المنوية بأنها خلايا متحركة بشرية. وهذه الخلايا تشبه العلق في حركتها المنوية بأنها خلايا متحركة بشرية. وهذه الخلايا تشبه العلق في حركتها ولها رأس مفرطح وعنق قصير وذيل طويل. وتتحرك بلولبيّة ذيلها. وقد قرر العلم أنّ الله قد أمد هذه الخلايا بقوة من المقاومة تستطيع بها حفظ النوع البشري، إذ أنها في الأجواء غير الملائمة تستكن الحياة فيها وتفقد مظاهر نشاطها، فإذا ما وجدت الوسط المناسب عادت لها حيويّتها ونشاطها وتستمر في حياتها لعدة أيام متوالية في انتظار البويضة التي يفرزها مبيض الأنثى، وهو جهاز التناسل فيها، ليؤدي اخصابها، ويتم كل ذلك بإلهام من الله تعالى. إذ لا دخل لأية قوة كائنة ما كانت، كيماوية أو حيوية في توجيه الحيوان المنوي (أي العلق) إلى بويضة الأنثى.

يجتمع المنيّ في محل معين فتصطدم الحيوانات المنوية بعضها ببعض، وبعد أن تتم عملية اللقاح في الرحم تتبدل النطفة إلى علقة.

ويتكون من العلق الغضروف، فيكسو الغضروف اللحم والأعصاب والعروق

---

(١) السائل المحترم هو: أكرم موسى جعفر ـ طوزخورماتو.

ويتكون الجنين بعد ذلك بصورة تدريجية وهو قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون: الآيات ١٢/ ١٤].

هل الأكثرية في النار[1]؟

جاء في كتابكم: إن أكثر نفوس العالم غير مسلمين، فهل هذه الأكثرية في النار؟

عزيزي، إن الله رؤوف بعباده رأفة لا تقاس بها أية رأفة. وقد جعل لهذا الإنسان عقلاً وجعل هذا العقل نبياً باطنياً لمن لم تبلغه الرسالة. وقد قال إمامنا موسى بن جعفر عليه السلام:

«إن لله على الناس حجتين: حجة ظاهرة وحجة باطنة، فأما الظاهرة فالأنبياء والرسل والأئمة وأما الباطنة فالعقول»[2].

فمن كان مثلاً في ألاسكا ولم تبلغه رسالة الإسلام، فهو مسؤول تجاه الحجة الباطنة أي تجاه عقله وقد ألهم الله تعالى البشر أصول الخير والشر قبل بعث الرسل. بقوله جل من قائل: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾﴾ [الشمس: الآيتان ٨/ ٩]. وبقوله: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾﴾ [البلد: الآية ١٠]: أي عرفنا الإنسان طريق الخير وطريق الشر.

وقد غرس الله تعالى أساس التوحيد في العقل الإنساني في عالم الذرّ: في عالم الأرواح قبل حلول الروح في الجسد الإنساني: بقوله عز من قائل:

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ [الأعراف: الآيتان ١٧٢/ ١٧٣].

---

(١) جواب على سؤال.

(٢) أصول الكافي: ج١، ص١٥، كتاب العقل والجهل.

فكل من يولد يعترف بحكم الفطرة، بعد سنين، بوحدانية الله تعالى. وهو، بالفطرة، (إن لم تبلغه رسالة الأنبياء أو رسالة الإسلام منذ ١٤ قرناً) يجتنب المحرمات الرئيسية ويقوم بالفطرة بالأعمال الخيرية: «إن الحسنات يذهبن السيئات» فيتقرّب إلى الله المتعال ويكون مصيره الجنة.

وهو القائل: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ﴾ [الأنعَام: الآية ١٤٩]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [يُونس: الآية ٤٤]، ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فُصّلَت: الآية ٤٦]، ﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [الأعرَاف: الآية ١٥٦].

ولا يخلد في النار إلا من بلغ الدرجة القصوى من الظلم ولم يتب ومن خالف الفطرة وأشرك بالله، ولا يكون الفرد، لا سمح الله، مشركاً إلا إذا أمسى جرثومة فساد وإفساد، لا يصدر منه إلا الشر، ولا يفكر إلا في الشر لكثرة ذنوبه وآثامه السابقة التي ارتكبها مخالفاً للفطرة، وضارباً بإيعازات الفطرة وأجراسها وتنبيهاتها عرض الجدار، وهو القائل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النِّساء: الآية ٤٨].

وقد فتح الله باب التوبة لعباده وما أوسعه! وللمذنب أن يتوب قبل موته بساعات. وفي الحديث: «التائب عن الذنب كمن لا ذنب له» وقال تعالى: ﴿يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ [الزُّمَر: الآية ٥٣].

وقد أخبرنا الله تعالى بما نراه اليوم وحتى في الغد أن الأكثرية من الناس غير مؤمنين وذلك بقوله جلّ من قائل: ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾ [يُوسُف: الآية ١٠٣]. وبقوله: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [الأنعَام: الآية ١١٦] وقد نعت المسلمين بالقلة والكافرين بالكثرة بقوله: ﴿وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ [ص: الآية ٢٤] ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سَبَإ: الآية ١٣]. وبقوله: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴿٣٠﴾﴾ [ق: الآية ٣٠]. وهذا لا يتنافى مع نجاة المعذّبين في النار وشملهم رحمة الله ودخولهم بعد العذاب والتطهير: جنات عدن، بفضل الله رحمته وجزيل رفده.

﴿هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ [لقمَان: الآية ١١].

الدماغ!

جاء في مجلة (الأسبوع العربي) عدد ٤٤٦ سنة ١٩٦٧ على الرغم من تشعب أبحاث الدماغ وتعدد مراكز العلماء المتخصّصين في هذا الموضوع فإنّ المعلومات المتوفّرة عن الدماغ تكاد لا تزيد كثيراً عن المعلومات الكلاسيكية المعروفة.

نعرف اليوم مثلاً، أن الدماغ الذي يزن أقل من اثنين بالمائة من الجسم، يحتاج إلى ٢٠ بالمئة من الدم الذي يضخه القلب و٢٥٪ من الأكسجين الذي يجمعه الدم. وللدماغ نظام معقّد للتغذية والحماية، وهو مؤلف من حوالي عشرة آلاف خلية عصبية وحوالي مائة مليار خلية «غليولي» وسواها من الخلايا. وهو أشبه بآلة بيو ـ كهربائية هائلة تنتج وتستهلك تياراً يقدر ببضعة جزيئات من واحد على ألف من الفولت لكل خلية، كما نعرف جيداً تشريحه وتركيبه الكيميائي، لكنا لا نعرف تماماً وظائفه ونعرف بدرجة أقل أمراضه وطرق معالجتها.

* * *

لكن الدماغ بالنسبة للعلم لا يزال تلك «العلبة السوداء» المقفلة التي لا يعرف محتواها. توصل العلم اليوم إلى تحديد مراكز الخيوط الدماغية التي تتحكم بالحركة والشعور. لكن العالم البريطاني ـ غراي ولثر ـ أثبت أنه من المستحيل إعادة بناء الدماغ الإنساني بواسطة المعلومات التكنيكية الحالية.

ولو أراد الإنسان «خلق» دماغ بشري لاحتاج إلى حجم هائل وتكاليف باهظة خيالية. فهو يحتاج مثلاً إلى ٢٧ ميلمتراً مكعباً للخلية الواحدة. أي حوالي نصف مليون متر مكعب لاستيعاب عشرة مليارات خلية.

وحاول والتر حساب تكاليف إنشاء مثل هذا الدماغ بالجنيه الإسترليني (قبل تخفيض سعره). وتبيّن له أن سعر الخلية، إذا لم يزد على شلن واحد، فإنّ مجموع ثمن الخلايا يقدر بحوالي نصف مليار جنيه استرليني (بالسعر القديم). أما تكاليف إنتاج ألياف الأعصاب الدماغية فقد بلغت رقماً خيالياً هو واحد وإلى يمينه ١٨ صفراً.

ومثل هذا الدماغ البشري الاصطناعي سيحتاج إلى مليون كيلووات من الكهرباء لتسييره بينما لا يحتاج الدماغ البشري العادي إلى أكثر من ٢٥ وات فقط! وعلى هذا فإن نفقات إنشاء واستهلاك الدماغ الاصطناعي كفيلة بابتلاع ميزانيّات كل دول العالم في سنة واحدة، وهو فضلاً عن ذلك لن يكون أكثر من دماغ بدائي ناقص.

ويجهل العلماء تماماً اليوم ثلثي وظائف الدماغ. والثلث الباقي يحيط به الكثير من الشكوك، منذ تعداد شخصيات ابيقراط الأربع (الانفعالي، البارد، السوداوي، اللمفاوي)، مروراً باكتشافات بافلوف إلى تجارب برغر حول النشاط الكهربائي للدماغ. ومنذ أبيقراط وإلى يومنا الحاضر، تعتبر المسافة التي قطعها العلم نحو اكتشاف الدماغ قصيرة جداً. وطرق تدخل العلم وتأثيره على الدماغ لا تزال محدودة وهي تقتصر على العامل السلبي أي منع الدماغ من العمل أو شل فعاليته. لكن الناحية الإيجابية، لا يزال العلم يقف أمامها حائراً. ونعرف مثلاً المراكز الدماغية التي تتحكّم بالحركة والنطق، لكن تاريخ الطب مليء بالاستثناءات، ومنها حالة مريض استمرَّ في القيام بوظيفة معيّنة رغم تدمير المركز الدماغي الذي يوجه تلك الوظيفة.

غراي والتر يؤكّد أنّ الدماغ لا يخضع للقوانين الحسابية التي يصعب تطبيقها على هذا الأوقيانوس الضخم من الخلايا العصبية. ولعل هذه هي الصعوبة الأساسية التي تواجه علم الإلكترون الذي يأمل العلماء عن طريقة الوصول إلى حقيقة الدماغ، بتقريب التشابه بين خطوط الأدمغة الإلكترونية وخطوط الأدمغة الإنسانية، إذا أمكن تحقيق التشابه في مجالات النشاط العادي كالمشي والركض. إلا أن ترجمة الخيال الخلاق بخطوط على الورق لا تزال ضرباً من الخيال إذ ما من عالم على استعداد لتناسي هذه الحقيقة الجوهرية الفارق بين الخلية الحية والتيار الكهربائي.

منذ قرن تقريباً، أي منذ أن أدخل ريتشارد كاتون في ليفربول لأول مرة قطباً كهربائياً في دماغ فأر، والعلماء يستعملون تسجيل الموجات الدماغية على أنها النظام الأكثر دقة لاكتشاف مجاهل الدماغ.

ويتناسى العلماء أحياناً أنهم نقلوا مبدأ الآلات الحاسبة الإلكترونية عن الدماغ

الإنساني، فيشبهون الدماغ نفسه بعقل الكتروني ضخم أقوى بعشرة آلاف مرة عن أي دماغ الكتروني بنوه حتى الآن، بوسعه تخزين أكثر من مليون مليار من المعلومات التي يتلقاها الإنسان طوال سني عمره.

لكن هذا التشبيه في غير محله، ففي الحلم أو نوبات داء النقطة ومناسبات أخرى غيرها، نرى الموجات الدماغية واضحة للقراءة وأن تبدل خط سيرها. بل إن العلم يعرف اليوم الأوزان الدماغية: ألفا، بيتا، دلتا... التي يمكن تغييرها بواسطة إثارة مفاجئة أو شعور عنيف.

وقبل ٣٠ سنة، أي في أيام برجيه، كان يأمل العلماء بكشف ميكانيكية عمل الدماغ نهائياً، لكنهم أدركوا اليوم أنّ الوصول إلى مثل هذه النتيجة مستحيل، عن هذه الطريق على الأقل.

ويعتبر غراي والتر من جامعة بريستول الأميركية، من أشهر منقبي الدماغ الأحياء. فإلى أين وصل في أبحاثه؟

لقد وصل إلى هذه النتيجة: أن دراسة الموجات الدماغية، وحدها لا تفيد، ولا يمكن الاستفادة منها إلا بربطها بسائر الدراسات عن الدماغ. إذن؟ النتيجة واضحة: العمل الالكتروني حسن، لكن على الباحث الإلكتروني عدم التخلي عن البيولوجيا. وأكثر الخيبات أتته من خلال حالات الاختلال العقلي، ودراسة الأحلام.

وفي مؤسسة مونريال العصبية توقف وايلدر بنفيلد عن العمل منذ وقت طويل، ويعود تاريخ آخر اكتشافاته إلى ٣٠ سنة خلت. لكن لم يستطع أي عالم، منذ ذلك التاريخ، إكمال الشوط الذي بدأه وسار فيه بنفيلد.

كان هذا العالم الكندي يعالج داء النقطة بطريقة جريئة: كان يفتح القفص الدماغي، ويصدم الدماغ بشحنات كهربائية متقطّعة. وكان المريض يحتفظ بكامل وعيه لأنّ العمليّة غير مؤلمة. وذات يوم، وبينما كان القطب الكهربائي يقوم بعمله في الجهة المقابلة للصدغ من دماغ امرأة شابة، إذ بها تسأل فجأة: هل وضع أحد ما موسيقى في الصالة؟

وكانت المعزوفة التي تخيلت المرأة أنها تسمعها في الصالة، معزوفة شهيرة قبل

ذلك بعشر سنوات. وكانت المرأة تعاود سماع النغم نفسه كلما كان القطب يمس النقطة ذاتها من الدماغ.

أعاد بنفيلد التجربة مراراً وخرج بنتائج مثيرة. كان المرضى يتذكرون فجأة أحداثاً وذكريات قديمة العهد. ومرة تذكر أحد المرضى حدثاً وقع له أثناء طفولته. وآخر كان يسمع صوت أمه وكأنها تناديه من مكان قريب... كما لو أن تلك الأصوات التي كانت مدفونة لثوانٍ خلت في خلايا الدماغ، قد عادت إليها الحياة بواسطة الصدمات الكهربائية. فهل تعني هذه النتائج أنّ الذاكرة متمركزة في القسم الصدغي من الدماغ؟ هل يمكن إثارتها بواسطة الأقطاب الكهربائية؟ وهل تقيم الذكريات القديمة في تلافيف الدماغ، وفي مكان أعمق من الذكريات الحديثة العهد؟ ولماذا تعود الذكريات؟

شريط لا نهاية له...

يؤكّد بنفيلد أن كل ما يلتقطه الدماغ، يختزن فيه طوال العمر، وكأنّه شريط سينمائي لا نهاية له. وتوقف بنفيلد عند هذه النقطة، ولم يعقبه أحد لإكمال تجاربه ونظرياته.

وخطا بعض العلماء خطوة صغيرة إلى الأمام عندما توصلوا إلى إثبات الحقيقة التالية، وهي أنّ وقوع حدث ما يقترن بتيار كهربائي في الدماغ، ويتوزع الحدث الواحد على أماكن متعددة في الدماغ الإنساني. والجانب الصدغي من الدماغ مخصص لحفظ «تيار الذكريات»، إلى الوقت الذي توضع فيه نهائياً في خزان الذكريات (أو إلى أن تزول إذا كان استنتاج بنفيلد خطأ).

لكن النظرية الأكثر انتشاراً اليوم لتفسير الذاكرة (التي أصبحت الحدود الجديدة لعلم الدماغ) هي النظرية البيوكيميائية. وقد انتشرت هذه النظرية إلى الحد الذي يسمح بقبولها كحقيقة واقعة، لكن الإثبات الذي لا يقبل الجدل لا يزال بعيداً.

تقول هذه النظرية أنّ الذاكرة تتركز في مادة أسيد (حامض) الخلايا الدماغية. نشأ هذا الاعتقاد بعد أن تبيّن أن زيادة أسيد الخلايا يجعل الذاكرة تزداد قوة. وقد أخذ أحد العلماء هذا الأسيد من دماغ فأر حسن التدريب وإضافة إلى دماغ فأر معدوم

الخبرة. وكانت النتيجة إن الفأر الثاني اكتسب جميع خبرات الفأر الأول.

كما قام عالم آخر هو ماك دونيل بتجربة غدت شهيرة: قدم دونيل جثث ديدان مدربة، طعاماً لديدان غير مدربة، وكانت النتيجة أنّ الديدان المفترسة اكتسبت جزئياً تجارب الديدان الضحية.

فهل يعني هذا أنّ للذاكرة أساساً كيميائياً أم كهربائياً؟

أحد أكبر خصوم النظرية البيوكيميائية لتفسير الذاكرة، وهو العالم لدربرغ الحائز على جائزة نوبل للبيوكيمياء والمتخصص في الدماغ الإنساني والإلكتروني، يقر ويعترف بأنّ الإثباتات المقدمة للأصول الكيميائية للذاكرة، هي إثباتات مقنعة، لكنه يستدرك قائلاً أن استمرار الأبحاث على هذا الطريق يعتبر خطأ، ويقول: «هناك علماء كثيرون على استعداد للتخصص في دراسة سيكولوجية الإنسان، لكن القليلين منهم ينصرفون إلى دراسة الدماغ، مع أنه ـ على نقيض السيكولوجي ـ مادة فيزيائيّة ملموسة ينتظر من يخضعه لتجارب فيزيائيّة وكيميائيّة».

ومنذ فترة وجيزة، تمكن العالم ستيفن زامنهوف من تكبير حجم دماغ فأر بواسطة هرمونات لا تزال سريّة تنتجها الغدد البلغمية. فما هي نتيجة تكبير حجم الدماغ على الشخصية الإنسانية؟

الأجوبة الأولى غير قاطعة. نتائج الاختبارات الإنكليزية والأميركية تقول أنّ زيادة حجم الدماغ تحدث زيادة مماثلة في الذكاء.

وها هو السؤال يطرح من جديد: ما هو الدماغ أهو آلة إلكترونية أم مختبر كيميائي؟ كيف نتعلم، وكيف نتذكر؟

إن صلة التعلم بالذاكرة صلة وثيقة. ومن الثابت اليوم أنّ التعلم يمر بعدة مراحل، وبعدة طرق... فهناك تعلم بواسطة التكرار وآخر بواسطة التحليل وثالث بواسطة التجميع والتوارد.... لكننا نعرف أيضاً أنّ الذاكرة هي الجهاز الوحيد الذي بوسعه أن يتعلم. ولا نعرف أين يتم خزن المعلومات ولا كيفيّة ارتباط رسالة برسالة أخرى. كما نجهل كيف يتكوّن الكلام، وكذلك نجهل ما هو الذكاء الذي كان بعض العلماء

يعتبرونه لوقت قريب مجرد موهبة وراثية.

في جامعة كاليفورنيا لجأ الدكتور ويتمان إلى المخدر لهزم الإدمان على الكحول، مغلقاً بذلك تياراً قديماً في الطب. وقد نجح بشفاء مرضاه من المدمنين على الكحول بإعطائهم كميات قليلة من مخدر الـ L.S.D تحت إشرافه. وكانت النتيجة أن بدأ مرضاه يعودون تدريجياً إلى حالتهم الطبيعية.

ولائحة المخدّرات الكلاسيكية تستضيف كل أسبوع اسماً جديداً. إن المخدرات اليوم أحدثت ثورة في المستشفيات وعيادات المعالجة النفسية، هي أشبه بثورة البنسلين قبل عشر سنوات.

إلا أن استعمال المخدر بقصد العلاج يجب أن يخضع للإشراف الطبي المباشر. ثم إن المخدر يعتبر محدود الفائدة في عمليات كشف أسرار الدماغ، وتأثيره على الدماغ طارئ، ومحدود ويصعب قياسه. وحتى الـ L.S.D الذي يعتبر من أقوى المخدرات تأثيراً يزول مفعوله بعد ساعات قليلة ويتراوح تأثيره على الدماغ بين حالتين محدودتين: الخوف والفرح.

وعلى كل حال، فإنّ معالجة الدماغ تسير على طريق قد تتيح كشف المزيد من أسراره. وقد ساعدت بعض المهيجات أمثال الستركنين والبيكروتوسين على جعل الدماغ أكثر فعالية وعمقاً كما سهلت أعمال الذاكرة.

لكن كلما فتح باب من أبواب أسرار الدماغ فتحت في وجوه العلماء سراديب طويلة فيها عشرات الأبواب المغلقة.

آثار الصلاة

يقول الله تبارك وتعالى: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٣٨]، وفي الحديث: «الصلاة عمود الدين، إن قبلت قبل ما سواها وإن ردت رد ما سواها». «الصلاة قربان كل تقي»، «إن أول ما فرض الله: الصلاة، وآخر ما يبقى عند الموت: الصلاة، وآخر ما يحاسب به يوم القيامة: الصلاة، فمن أجاب

فقد سهل عليه ما بعده، ومن لم يجب فقد اشتدّ عليه ما بعده»، «بين العبد وبين الكفر ترك الصلاة»[1].

وقد حذرنا الله تعالى بقوله: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝﴾ [المَاعون: الآيتان ٤/ ٥]. وإن أول ما يعترف به من يلقى في نار جهنّم من الخطايا والذنوب هو ترك الصلاة، بقوله تعالى: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ۝ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ﴾ [المدثر: الآيتان ٤٢/ ٤٣].

فالصلاة مناجاة الروح بين العبد وربه يبث إليه ما انتابه من آلام ونوائب، بخشوع وخضوع، وتذلل فيلهم من الصبر والارتياح النفسي ما يخفف عنه تلك الآلام أو يزيلها. فقد ثبت في الطب الحديث أن لعرض الآلام والكوارث وبثّها أثراً هاماً في تخفيفها، على أنّ الله تعالى هو القادر المتعال على إزالة ما يصيب الإنسان من مصائب وقضاء ما له من حوائج. وهو القائل: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: الآية ٦٠].

وفي صلاة الجماعة من آثار اجتماعية وروحية عظيمة، فيتفقد المؤمنون حالات بعضهم البعض ويقوم المستطيع منهم بدفع حاجة الضعيف، وتتحقّق الأخوة الإسلاميّة بين المؤمنين: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحُجرَات: الآية ١٠].

الشعور بالمساواة:

يقول الكاتب: (هراس ليف): «ما كان شيء في العالم ليقنعني بأن أي دين من الأديان يدعو إلى المساواة بين الناس، ولو أن بعضها يتظاهر بهذه الدعوة. فقد زرت كثيراً من الكنائس والمعابد فرأيت التفريق بين الطبقات داخل المعابد كما هو خارجها، وكان اعتقادي بالطبع، أن الأمر لابد كذلك داخل المساجد الإسلامية، ولكن ما كان أشد دهشتي حينما رأيت الشعور بالمساواة على أتمّه بين المسلمين في عيد الفطر في مسجد (ووكنج) بلندن. هنالك وجدت أجناساً مختلطين على اختلافهم في المراتب اختلاطاً لك أن تسميه بحق أخوياً، ولم أكن شاهدت مثل ذلك. ترى في

---

(١) الكافي: ج٣، ص٢٦٥، باب فضل الصلاة.

المسجد نوبياً من بلاد (ممباسا) يصافح عظيماً من رجال الأعمال المصريِّين أو سياسياً من بلاد العرب. وقد ارتفعت الكلفة بين الجميع، فلا يأنف أحدهم مهما عظم قدره من أن يجاوره في الصلاة أقل الناس شأناً. وإنك لا تجد أقل محاولة لتخطي الصفوف إلى مكان ممتاز بالمسجد، لأنه ليس هنالك أي مكان ممتاز، فالكل عند الله سواء، وعندما صرح لي إمام المسجد بأنّ المسلمين يعتقدون رسالة جميع الأنبياء ويؤمنون بما أنزل إليهم كدت لا أصدق أذني، وكان هذا جديداً استفدته عن الإسلام، لذلك لم أعد أشك في أنّ هذا الدين يصلح لأن يكون ديناً عاماً.

ويقول الأستاذ (عبدالله كوليم) المسلم: «إنه حينما كان مسافراً على ظهر باخرة إلى طنجة في بلاد المغرب، إذ بعاصفة قد هبّت وأشرفت السفينة على الغرق وأخذ الركاب يحزمون أمتعتهم ويهرولون في كل اتجاه وقد اضطربوا ونزل بهم الهول، فلا يدرون ماذا يصنعون... وإذا به يرى جماعة من المسلمين قد استوت في صف واحد يكبرون ويهللون ويسبّحون... فسأل أحدهم: ماذا يفعلون؟ فقال: نصلي لله.. فسأل: ألم يلهكم إشراف السفينة على الغرق؟ قال: لا.. إننا نصلي لله الذي بيده وحده الأمر. إن شاء أحيا، وإن شاء أمات...».

وقد كان هذا الحادث سبباً في بحثه عن الدين الإسلامي وهدايته للإسلام وأصبح من كبار دعاة الإسلام وقد أسلم على يديه الكثير.

ومعلوم أن الصلاة لو قبلت تدفع عن هذا الإنسان الفحشاء والمنكر: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [العَنكبوت: الآية ٤٥] وما أحوج الإنسان إلى عمل يبعده عن الفحشاء ويطهره من الدنس والرجس ويدخله في عالم قدسي كله جمال وكمال. فلم يؤت بهذا الإنسان إلى عالم الوجود إلا ليتكامل نفسياً، ولا شيء يؤدي إلى هذا التكامل كالصلاة المقبولة، صلاة يتخللها خشوع وخضوع وبكاء من خوف الله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢﴾ [المؤمنون: الآيتان ١/ ٢].

فالإنسان أشبه شيء بخليطة من المعادن، فيها المعدن الخسيس كالحديد والألمنيوم والنحاس إلى ما هنالك وفيها الذهب الخالص، فبالصلاة تذوب وتزول

الأدران والأوساخ المعنويّة وتظهر الحقيقة الإنسانية وتتجلى الفطرة الواقعية، فتتعرف النفس إلى ربّها تعرفاً يؤدّي بها إلى اليقين بمنه تعالى، وهو غاية وجودنا في هذه الدنيا الموقتة في هذا الحقل العملي الامتحاني من حياتنا. فقد جاء في حديث قدسي عن الله تعالى وعن سر خلقنا ووجودنا حيث يقول جل من قائل: «كنت كنزاً مخفياً، فأحببت أن أُعرف، فخلقت الخلق لكي أُعرف».

فالصلاة طريق لمعرفتنا ربنا، وتتفاوت هذه المعرفة بمقدار ما في هذه الصلاة من خشوع وإقبال وخضوع، وهو القائل: ﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩ ﴿١٠٩﴾﴾ [الإسرَاء: الآية ١٠٩].

راحة الضمير

وفي الصلاة اطمئنان للنفس وخروج عن هموم الدنيا والقلق النفسي، فإن هذا القلق يتفاقم يوماً بعد يوم في هذا العالم المزدحم بالكوارث والنوائب والآلام.

فلابد لهذا الإنسان من متنفس يزيح به عنه همومه وآلامه. والصلاة خير وسيلة لإعادة النفس إلى حالتها الطبيعية. وهو قوله تعالى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرّعد: الآية ٢٨].

يقول الطبيب النفساني: الدكتور هانري لنك(١) في كتابه: العودة إلى الإيمان: ص٢٦.

«من يعتنق دينا أو يتردد على دار العبادة يتمتع بشخصية أقوى وأفضل ممن لا دين له، أو لا يزاول أية عبادة».

ثم يقول: «الدين هو الإيمان بوجود قوة ما كمصدر للحياة. هذه القوة هي قوة

---

(١) كان الدكتور: لنك، ملحداً، ثم رأى حوادث جمة ووقائع هامة أثبتت له وجود الله تبارك وتعالى، فصار يؤمن بالله ويعالج مرضاه على ضوء التعليمات الدينيّة وهو يقول في كتابه المذكور الذي قد طبع منه خمسون طبعة في مدة وجيزة: «ولما تخرجت في هذه الجامعة بعد أن نلت شهادة: (في بيتا كابا: Phi Beta Kapa) كنت ملحداً عنيفاً ومقتنعاً تمام الاقتناع بالحادي ومستعداً لإقناع غيري به. وهكذا في العشرين سنة التالية كنت أبالغ في احتقار التعاليم الكنسية وأومن بأن الدين هو ملجأ العقول الخاملة».

الله: مدبر الكون، خالق السماوات، وهو الاقتناع بالدستور الخلقي الإلهي الذي سنه الله في كتبه المتعاقبة[١]. واعتبار التعاليم السماوية أثمن كنز تغترف منه الحقائق الدينية التي هي أسمى في مرماها من العلوم كلها مجتمعة والقيم الخلقية التي هي أقوى في أساسها من نظرية العقل أو السببية».

ثم يقول: «الدين الذي أتكلم عنه ليس ملجأ الضعفاء. ولكنه سلاح الأقوياء فهو وسيلة الحياة الباسلة التي تنهض بالإنسان ليصير سيد بيئته المسيطر عليها لا فريستها وعبدها الخانع»[٢].

وهو يقول أيضاً: (ص٣٢): وقد صارحني عدد جم من الناس قائلين: «لا تظننا نشك في وجود الخالق، بل نحن نؤمن به وبقدرته جل وعلا، لكنه إيمان من نوع جديد، لم يأت عن طريق ترديد الخلف قول السلف. فكلنا يمقت الكنيسة ويتجنبها لما تثيره فينا نظرياتها ومبادئها بل ورجالها من النفور والاشمئزاز، فكنت أومي برأسي علامة الموافقة على هذه الاعترافات، لأنها تؤيد مبادئي تأييداً مطلقاً».

ويقول الدكتور: ص٨١: «فلن نهتدي إلى حل شاف لمشكلات الحياة العويصة، ولن ننهل من مورد السعادة عن طريق تقدم المعلومات والمعرفة العلمية وحدها، فارتقاء العلم معناه ازدياد الارتباك واضطراد التخبُّط، وما لم يتم توحيد هذه العلوم كلها تحت راية حقائق الحياة اليومية الواضحة وإخضاعها، فلن تؤدي هذه العلوم إلى تحرير العقول التي ابتدعتها وابتكرتها. بل ستقود حتماً إلى انهيار هذه العقول وتعفنها، كما أن هذا التوحيد لابدّ أن يأتي عن طريق آخر غير طريق العلم: وأعني به طريق الإيمان. الإيمان ببعض قيم الحياة الجوهرية التي لا يستطيع المنطق إزاحتها أو زعزعتها».

ويقول أيضاً ص٨٤: «فالواقع: أن عبادة العقل[٣] والاحتقار الفكري للديانات قد

---

(١) ليته أسلم حتى يعلم آخر ما أنزل من السماء. وهو القرآن الكريم. فيه الكمال النفسي وإبلاغ الفرد إلى أسمى مراتب السمو الإنساني.

(٢) نفس المصدر، ص٢٩ ـ إن ما يريده الدكتور لا يتحقق إلا في الدين الإسلامي الحنيف الذي به تتم سعادة الدارين.

(٣) ويراد به العلوم الحديثة.

جعلا الإنسان فريسة سهلة بين يدي تلك النظريات شبه العلمية التي لا تقوم اليوم إلا لتموت في الغد. ولقمة سائغة بين براثن أدعياء الطب، وتلك المذاهب السياسية التي أصبحت اليوم تحير عقله وتبلبل فكره.

القلق والانتحار

وهذا القلق النفسي المسيطر على العالم الغربي اليوم أدى إلى مزيد الإنتحارات لضعف الإيمان وعدم الثقة بالله المتعال في حل المشكلات. فإن عدد الإنتحارات في الثلاثين سنة الأخيرة يزيد على ٤٠ مليون منتحر، ولقد تسرب ضعف الإيمان من الغرب إلى الشرق فكانت نتيجة ذلك أن قد حدث خلال ٦ أشهر في بلد إسلامي في الشرق ٢٠٠٠ حادثة انتحار!

ومعلوم أن الدين يحرم الانتحار ويعده من أعظم المعاصي والكبائر وأن المنتحر مخلد في النار. فقد قال الإمام الصادق عليه أفضل الصلاة والسلام:

«من قتل نفسه متعمداً، فهو في نار جهنم خالداً فيها» ولقد ثبت أن المنتحر إما لا إيمان له أو هو ضعيف الإيمان جداً.

إن الدين الإسلامي قد حرم إيذاء البدن وإيجاد نقص فيه فكيف بالانتحار!

فضعف الإيمان بالله واليأس من رحمة الله هما الباعثان القويان للانتحار. ولذلك لا تجد في بلاد الشرق في وقت كان الإيمان فيه قوياً والناس متعبدون أثراً للانتحار.

يقول: الدكتور بريل: «إن المتدين لا يصاب بأمراض نفسية، وجميع الأمراض الجسمية (فضلاً عن النفسية) كقرحة المعدة، واختلال الجهاز الهضمي، وضربات القلب وغيرها ناتجة عن القلق النفسي والاضطرابات الروحية واليأس من رحمة الله تعالى: وهو القائل: ﴿وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [يُوسُف: الآية ٨٧].

وإن عدم التوجه في المشاكل إلى الخالق المتعال، وعدم المثول بين يدي رب العباد بتضرع وابتهال عند طُروء المشاكل والنوائب أديا إلى انتحار فظيع في أمريكا.

ففي أحد الإحصائيات، أن في أمريكا ينتحر في كل ٣٥ دقيقة شخص واحد، ويبتلي بالجنون في كل دقيقتين شخص واحد.

أثر الصلاة في قضاء الحاجات

وهناك صلوات خاصة لقضاء الحاجات ودفع القلق والاضطراب وما قد يؤدي إلى الانتحار ذكرناها في الجزء الخامس من هذا الكتاب، فإن العبد لو توجه بكله إلى الله المتعال بانقطاع يعلوه خشوع وخضوع، لاستجاب الله دعاءه وقضى حاجته، بلطفه الذي لا يحدوَ رفده الذي لا نهاية له، فليجرب المجربون.

وكمثال لعدم اليأس من رحمة الله نذكر هذه القصّة الحقيقية[١]، وذلك أن فتاة غربية، اسمها: «ماي باولز»، خلقت كسيحة لا تستطيع المشي، وقد أحبها ابن الجيران، وتقدم لخطبتها، وأسرعت الفتاة لأمها تزف البشرى. ولكن الأم أغرقت في البكاء، لأن الأطباء قالوا لها: إن ابنتها إذا تزوجت فلن ترزق بأولاد، وأنها ستعيش طوال عمرها عاقراً، فقالت الأم لابنتها: يجب أن تصارحي الشاب بهذه الحقيقة.

وقالت الفتاة: ولكني سأصلي كل ليلة، وأطلب من الله أن يمنحني أولاداً.

قالت لها الأم: لا تتعلقي بآمال كاذبة، لقد أكّد أكبر الأخصائيِّين أنك ستعيشين عاقراً، ومن السذاجة أن تتشبثين بالسماء، يجب أن يعرف خطيبك الحقيقة كاملة.

وصارحت الفتاة الشاب برأي كبار الأخصّائيين. فأصرّ على الزواج.

وبعد أن تمّ كانت الكسيحة تدعو ربها في كل ليلة، وتقول: «إلهي حرمتني نعمة المشي، فهل يرضيك أن تحرمني نعمة الأمومة التي تتمتع بها ملايين الأمهات اللائي يمشين على أقدامهن؟ أتعطي غيري النعمتين، ولا تعطيني واحدة منهما.

واستمرت تدعو هذا الدعاء من أعماق قلبها مدة أربعة عشر عاماً لا تكل ولا تمل، ولا تفتر ولا تقنط ولا تيأس، وبعد هذه السنوات الطوال وضعت ثلاثة أولاد في حمل واحد. وعاشوا جميعاً بكامل الصحة.

---

(١) بين الله والإنسان: تأليف العلامة الشيخ محمد جواد مغنيّه؛ نقلا عن جريدة الأخبار المصرية عدد ٢٤ أيار سنة ١٩٦٤.

الغضب

وقد يكون الانتحار نتيجة غضب شديد وتهيج عصبي مرير ولكن الله تعالى قد أمرنا بكظم الغيض، (ولا موفق إلا الله) وهو القائل: ﴿وَٱلْكَـٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عِمرَان: الآية ١٣٤] . ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَـٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَـٰمًا﴾ [الفُرقان: الآية ٦٣] .

ومن كلام لعلي عليه أفضل الصلاة والسلام: «إحمل نفسك من أخيك عند ضره على الصلة، و عند صدوده على اللطف، وعند جموده على البذل وعند تباعده على الدنو، وعند شدته على اللين».

وإن الله تعالى قد عظم أمر «الصبر» في النوائب: حتى قال: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّـٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزُّمَر: الآية ١٠] .

* * *

واقرأ معي هذه المناجاة لمولانا وإمامنا زين العابدين عليه السلام، لتقف على الصلاة الكاملة:

«اللهم صلّ على محمد وآل محمد، وقفنا فيه على مواقيت الصلوات الخمس بحدودها التي حددت، وفروضها التي فرضت ووظائفها التي وظفت، وأوقاتها التي وقتت، وأنزلنا فيها منزلة المصيبين لمنازلها الحافظين لأركانها، المؤدين لما وفي أوقاتها على سنة عبدك ورسولك صلوات الله عليه وآله في ركوعها وسجودها، وجميع فواضلها على أتم الطهور وأسبغه وأبين الخشوع وأبلغه»(١) .

ثم انظر كيف يخاطب الله، إمامنا علي بن الحسين سيد الساجدين عليه السلام قائلاً:

«يا إلهي، لو بكيت إليك، حتى تسقط اشفار عيني، وانتحبت حتى ينقطع صوتي، وقمت لك حتى تنتشر قدماي، وركعت لك حتى ينخلع صلبي، وسجدت إليك، حتى تتفقأ حدقتاي، وأكلت تراب الأرض طول عمري، وشربت ماء الرماد آخر دهري،

---

(١) الصحيفة السجادية: ص١٨٦، دعاء دخول شهر رمضان.

وذكرتك في خلال ذلك، حتى يكل لساني، ثم لم أرفع طرفي إلى آفاق السماء استحياء منك ما استوجبت بذلك محو سيئة واحدة من سيئاتي، وإن كنت تغفر لي حين استوجبت مغفرتك، وتعفو عني حين استحق عفوك، فإن ذلك غير واجب لي، ولا أنا أهل له باستيجاب»[١].

وإن آل الرسول الأعظمﷺ يفعلون ما يقولون، ولا يقولون ما لا يفعلون، فقد تواتر عند أهل السير والتاريخ أن الإمام زين العابدين عليه السلام كان يصلي في اليوم والليلة ألف ركعة، تماماً كجده أمير المؤمنين عليه السلام. وكان يصلي صلاة مودع، أي كما لو علم أنه لا يبقى بعدها. وكان إذا حضرت الصلاة اقشعر جلده واصفرّ لونه، وارتعد كالسعفة خشية من الله، وقد انخرم أنفه من كثرة السجود وثفنت جبهته وركبتاه. ومع هذا كان يكرر في مناجاته، ويقول: «سبحانك ما عبدناك حق عبادتك»[٢].

أنوار قدسيّة

ثم إن الصلاة لو كانت مستجمعة للشروط الباطنة من حضور وخشوع وتعظيم وهيبة وحياء، بعيدة عن كل عجب، مجردة عن كل رياء وحب الظهور وآفات أخرى، فهي تضفي على قلب صاحبها أنواراً قدسية، يقف المصلي بسببها على علوم باطنه وحقائق فلسفية، «فالعلم نور يقذفه الله في قلب من يشاء».

وكم من أناس كانت صلاتهم صلاة عادية ميكانيكية، فلا يلتذُّون بها ولا يتصلون بسببها إلى عوالم الملكوت، ولا ينالون ذلك الفرح الناصع الذي لا يشبه أفراح الدنيا الملوَّثة في شيء، فرح الاتصال بمعالم القدس، فرح تتجلى فيه علة وجود الإنسان في هذا الكون الرحيب، حتى إذا مَنّ الله عليهم بلطفه الأبدي، فتوجّهوا إليه تعالى في صلاتهم بكلهم وتعلّقت قلوبهم بخالقهم وانجذبوا نحو المبدء الأعلى أيما انجذاب، تفتحت أمام أعينهم حقائق جمة عن معالم الدين ووقفوا على فلسفة الكون والحياة

---

(١) الصحيفة السجادية: ص٧٨، دعائه إذا استقال من ذنوبه.

(٢) بين الله والإنسان. ص٩٥، للعلامة الشيخ محمد جواد مغنيّة.

وعلة الوجود، فعاشوا بهذا العلم الناصع والنور الإلهي الساطع حياة روحية سامية، بعيدة عن براثن المادية الهوجاء، وصاروا ينظرون إلى عظمة الله بعين ملئت من أنوار القدس، وجمال الخالق المتعال منغمرين في معرفة صفات الله وجلاله وحبه وكماله. وإنه ليفيض على قلب كل مؤمن من أنوار القدس بمقدار ما في صلاته من توجه وخشوع وإخلاص.

فعن الرسول ﷺ: «إن العبد إذا قام في الصلاة رفع الله الحجاب بينه وبين عبده، وواجهه بوجهه، وقامت الملائكة من لدن منكبيه إلى الهواء، يصلون بصلاته، ويؤمّنون على دعائه، وإنّ المصلي لينشر عليه البر من أعنان السماء إلى مفرق رأسه، ويناديه منادٍ: لو علم المصلي من يناجي ما التفت، وإن أبواب السماء تفتح للمصلّين. وإنّ الله يباهي ملائكته بصدق المصلي».

وورد في التوراة: «ياابن آدم لا تعجز أن تقوم بين يدي مصلياً باكياً، فأنا الذي اقتربت من قلبك، وبالغيب رأيت نوري»[(١)].

* * *

وللإيمان آثار وموازين كما للأشياء المادية موازين ومقاييس، ومن موازين الإيمان أنك تحب الصلحاء من عباد الله وتود مجالستهم، فإذا أردت أن تعلم ما أنت عليه من الإيمان، فانظر إلى قلبك واقرأ ما يقوله الإمام الباقر ابن الإمام السجّاد عليه السلام[(٢)]:

إنه يقول: «إذا أردت أن تعلم أن فيك خيراً، فانظر إلى قلبك، فإن كان يحب أهل طاعة الله ويبغض أهل معصيته ففيك خير، والله يحبك، وإذا كان يبغض أهل طاعة الله ويحب أهل معصيته فلا خير فيك، والله يبغضك، والمرء مع من أحب».

وإني أذكر هنا دعاءاً لعلي عليه السلام لأهميته:

«اللهمّ إني أعتذر إليك من مظلوم ظلم بحضرتي فلم أنصره، ومن معروف أسدي إليّ فلم أشكره، ومن مسيء اعتذر إليّ فلم أعذره، ومن ذي فاقة سألني فلم أوثره،

---

(١) جامع السعادات، ج٣، ص٣٥٥.

(٢) المصدر السابق.

ومن حق ذي حق لزمني فلم أوفره، ومن عيب مؤمن ظهر لي فلم أهجره».

فللصلاة أهمية عظمى، وإن المستخف بها يحرم من شفاعة أهل البيت عليهم الصلاة والسلام يوم «يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه، وصاحبته وبنيه». فلقد قال الإمام موسى بن جعفر عليه السلام: «لما حضرت أبي الوفاة، قال لي يا بني: إنه لا ينال شفاعتنا من استخفّ بالصلاة»[1].

فالصلاة مفتاح لمزيد الدرجات والتقلب في أطوار الكمالات والبلوغ إلى أسمى المقامات، فطوبى للخاشعين الذين يرثون الفردوس وهم فيها خالدون:

﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ﴿٤﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١﴾﴾ [المؤمنون: الآيات ١/١١].

فطوبى لأولئك الذين خشعوا في صلاتهم وبكوا على ذنوبهم شوقاً إلى لقاء الله[2]، بكاءاً يتخلله حب إلهي واعتراف بعظيم نعمه وهدايته وتوفيقه، فساروا في عوالم القدس، فشملهم راحة الضمير وحبور لا يشبه مسرات الدنيا الدنية في شيء. طوبى لهم وحسن مآب.

* * *

انتهى الجزء السابع وبه تم الكتاب والحمد لله رب العالمين.

(١) جامع السعادات. ج٣، ص٣٥٤.

(٢) هو اللقاء المعنوي والتقرب إلى ساحة القدس.

فهرس الجزء الرابع

فهرس الجزء الخامس

فهرس الجزء السادس

فهرس الجزء السابع